النهضة الإسلامية

في سير أعلامها المعاصرين

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومي

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

الجزء الأول

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطّبعَة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

النهضة الإسلامية

في سير أعلامها المعاصرين



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الكتاب

مهما اعترض المسلمين من خطوب، فهم بالقياس إلى ماضيهم القريب يعيشون في ظلّ نهضة تبسط جناحها على أكثر مرافقهم المتشعّبة، فنحن في النصف الأخير من القرن العشرين لا يمكن أن نُقاس إطلاقاً بمُسلِمي القرن التاسع عشر، إذ أن المسافة القريبة بيننا وبينهم قد تمخّضت عن تقدّم يبشّر بالنجاح في أكثر الميادين، ونقول: المسافة القريبة، لأن القرن الواحد في حساب الزمن الطويل لا يُعَدُّ شيئاً ذا بال، ومع ذلك فقد سبق المسلمون إلى وثبات رائعة، نرجو أن تُكَلّل بالنجاح، حتى ترفرف روح الإسلام في شتّى مجالات الحياة.

هذه النهضة النشيطة في حاجة ماسّة إلى مَن يَفِيها حقّها من الدراسة والتقييم، وقد اخترت أن أتحدّث عنها في ظلال أبطالها من أئمة المسلمين، لا لأترجم لحياة هؤلاء الأبطال، فما أقصر همّة تتّجه إلى رصد سنوات الميلاد والرحلة والوظائف والوفاة، إذا جعلت ذلك غاية جهدها المدوّن بين السطور، ولكن الحديث المثمر هو الذي يكشف عن أعمال المصلح، ويفسّر دوافعه الذاتية، ويقدّر جهاده الدائب فيما اعترضه من الصّعاب، وإذ ذاك يتّسع المجال للحكم العادل من المؤلّف، والاطمئنان الواعي من القارىء الحصيف.

وإذا كان هناك مَن يؤرّخون للنهضات في ظلال مُثُلِها المرموقة، واتجاهاتها الهادفة، فإن تأريخ هذه النهضات من حديث أبطالها المجاهدين يقدّم الوجه الثاني

من هذا التاريخ، وهو لون يجد الترحيب من قرّائه، إذ يتخلّله من المتعة العقلية والنفسية ما يساعد على استيعابه وتمثيله، وبخاصّة: إذا كان العاملون تحت راية الإسلام لا يجدون التقدير المُنصِف من رجال الإعلام في دنيا الصحافة والإذاعة على أوسع نطاق يجذب أنظار الجماهير! وهو إهمال تبحث عن دوافعه الأليمة فيلفحك شرار الغضب، وبخاصّة حين تجد الترويج الرخيص لأُناس لم يبلغوا مِعشار ما بلغه هؤلاء المكافحون، ولكن الغرض يعمي ويصمّ، فلا أقل من أن يقوم تلاميذ هؤلاء المستشهدين في حومة الإصلاح الديني بحقّهم الأكيد في الاحتفال والتنويه.

وإذا كان الإسلام عامّاً شاملاً ينفذ بقوانينه إلى شتّى مناحي الحياة، فإن العاملين تحت رايته يتخصّصون في شتّى اتجاهاته ليجمعهم في النهاية طريقه المستقيم: طريق الذين أنعم الله عليهم من عشّاق الفضيلة، وروّاد الحقيقة، وطالبي الإصلاح، وما أهداه من طريق!.

ففي اتجاه مكافحة المحتل الغاصب تجد أعلاماً ضحّوا براحتهم، وأفنوا صحتهم ثائرين على الاحتلال، مرحّبين بعذاب السجن، وأليم الجوع، ومرير البرد، حتى تعلو كلمة الله. ومن هؤلاء: عبد الحميد بن باديس، وعبد العزيز جاويش، ومحمد البشير الإبراهيمي، ولهم مع ذلك صرخاتهم البيانية في إيقاظ الرقود، وإلهاب النفوس.

وفي مجال الدعوة إلى مجد الإسلام والاستمساك بعُروته الوُثقى، وتدبيج الكتب، وإقامة الندوات لإذكاء الهِمَم وإيقاد العواطف، تجد أمثال: محمد إقبال، ومحمد عاكف، وعبد الرشيد إبراهيم، وشكيب أرسلان، وعبد الوهّاب عزّام، واللورد هدلي داعية الإسلام في بلاد الإنجليز.

وفي مجال الذّود عن مقدّسات الشريعة، وحماية القرآن والسُّنّة من كيد المبشّرين، وردّ السّهام الباغية إلى صدور ذوي الغرض من المستشرقين تجد أمثال: محمد فريد وجدي، ومحمد رشيد رضا، وطنطاوي جوهري.

وفي مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل الجهود المضنية في العمل بشريعة الإسلام مهما قامت الحوائل وتكاثفت الصِّعاب، تجد أمثال: محمود أبي العيون، وأحمد غلوش، ومحمد الخضر حسين.

وفي مجال تقدير التاريخ الإسلامي والنظر إلى أبطاله بعين الإنصاف مع التصدّي لكلّ شُبهة يلوكها الاستشراق تجد أمثال: رفيق العظم، ومحمد الخضري، وعبد الوهّاب النجّار، وأحمد أمين.

وفي مجال تنشيط الأدب العربي وإحياء اللغة العربية والعمل على نشر الثقافة الإسلامية، وبعث التراث القديم، تجد أمثال: أحمد حسن الزيّات، وأحمد تيمور، وسيّد بن علي المرصفي، وعبد القادر المغربي.

وقد تتشابك هذه المجالات وتتعانق، فتتعدّد آثار هؤلاء الأعلام وتتشعّب مواقفهم في أكثر من اتجاه، ولكن الرابط العامّ وراء ذلك هو الغيرة المُفرِطة على الإسلام، والهيام الكَلِف بمبادئه وقيمه، والإسلام بعد ذلك كله جنّة سابغة لأصحابه، ودرع واقية لناصريه، وكم اعتزّ به الذليل، ونبّه الخامل، فإذا تجمّع المخلصون للذّود عنه في دنيا المطامع والأهواء فإنما يأوون منه إلى معقل أشم، ويلوذون بركن شديد.

ولست حين أتحدث عن النهضة الإسلامية في سِيَر أعلامها المعاصرين أميل إلى رأي معين في الصراع الفكري الدائر حول موضع الفرد من بيئته، وموضع البيئة من الفرد، أو بعبارة أخرى: أيكون الفرد بنبوغه ومقدرته قائداً لبيئته ودافعها إلى التقدّم؟ أم تكون البيئة بتهيّئها للإصلاح وارتقابها إياه دافعة الفرد إلى القيادة والتوجيه؟ فذلك جدل مضت السنوات عليه دون أن يقنع فريقاً بمذهب فريق، مع أن الحق الذي لا مِريَة فيه: أن الفرد والبيئة كلٌّ لا يتجزّأ، ومحاولة الارتفاع بأحدهما على الآخر في كل الظروف والأحوال تطرّف لا يجد مبرّره المعقول، فقد يكون الفرد قائد مجتمعه في موقف، وقد يكون المجتمع مهيئاً لقيادة بعض أفراده في موقف آخر، وصفحات التاريخ الإنساني على مدّ عصوره المتلاحقة تسرع

بـالدليـل المقنع لمَن يـريد، ولكن كتـابنا هـذا يتحدّث عن نهضـة قام بهـا أبـطال معـروفون لـذوي البصـر من المُنصِفين، وقـد رأىٰ مؤلّفـه أن تسجيـل روائـع هؤلاء الأبطال يُحيـي مجداً ويـرسم قدوةً، ويهيّـىء طـريقاً محـدود المعالم لقـافلة أخرىٰ ينتهي بها السير إلى نصر عزيز.

الدكتور محمّد رجب البيّومي

عميد كليّة اللغة العربيّة بالمنصورة

النَّهضَة الإسْلاميّة المُعاصِرَة

إن دراسة التاريخ في سيره الطويل ضرورة مُلزِمَة، لا لنأخذ العبرة من حوادث الزمن وكوارثه فحسب، بل لنقدّر خطواتنا التالية في ركب الإنسانية، وتطلّعاتنا الآملة في موكب التقدّم الحضاري، على ضوء ما نعلم من أحداث، وفي تقدير ما مرّ بنا من تجارب، وما تحمّلناه من أعباء. والتاريخ الإسلامي غذاء نافع لأبناء الأمّة الإسلامية، لأنه يحفل بما تحفل به تواريخ الإنسانية جمعاء من خطأ وصوابٍ، وقد حرص أصحابه على تدوين روائعه وتسجيل أحداثه حرصاً مخلصاً، لم تكد تُفقَد منه حلقة من الحلقات، بحيث لو وقف المؤرّخ على فجوةٍ بين الوقائع استطاع أن يملأها عن طريق الحدس الصادق، والتخيّل الأمين، مقارناً النظائر بالنظائر والأشباه بالأشباه، وهو في أكثر أمره مُهْتَدٍ إلى حقيقة الأمر وجلية الوقائع إذا استقام النظر واعتدل القياس، هذا التاريخ الحافل الفسيح يقدّم إلينا كثيراً من الطمأنينة الحافِزة على العمل، ونحن أحوج ما نكون إليها في دنيا تعجّ بالمتناقضات، وتضطرم بما يتوقّع وما لا يتوقّع من الأحداث.

لم تَخْلُ فترة من فترات التاريخ الإسلامي من قيام معارضة حاقدة على مُثُله العادلة، وموازينه الهادفة، وتلك سُنّة الحياة في إيجاد دوافعها الباعثة على اليقظة والحذر، ولكن العهد الأول من تاريخنا الزاهر قد استطاع أن يتغلب على مُناوِئيه، لأنه بدأ قويّاً نزيهاً يحرص على قيم الإنسانية المثالية التي خلّدها كتاب الله: من

حرية وعزّة وإخاء وعدالة ومُساواة، واستطاع بهذه القيم الإنسانية الخالدة أن يضع الموازين بالقسط وأن يرفرف علمه في مدى قرن واحد على أرض شاسعة لم تستطع الإمبراطورية الرومانية أن تبلغ مداها في مدى ثمانية قرون!، وقد يخطىء كل الخطأ مَن يُرجِع فتوح الإسلام إلى قوّته الحربية وحدها، فكم قوّةٍ كاسحة من قبله ومن بعده قد فعلت أكثر مما فعلته قوّة الإسلام، ثم انتقض عليها البناء مرةً واحدة، بحيث أصبحت فتوحاتها سراباً لا يغلّ غير الحسرة والالتياع.

ولكن قوّة الفتوح الإسلامية تكمن في قيمه الإنسانية الرائعة التي جعلت نصارى تغلب ـ على سبيل المثال ـ يتركون إخوانهم في الدين ليعملوا تحت راية الإسلام في حروب الروم، والتي جعلت عُتاة التتار ينتصرون على الإسلام في وقائع حاسمة، ثم يسلّمون إليه القياد عن طواعية، فيدخل الغالبون في دين المغلوبين، وتلك من أعجب الخوارق النادرة في التاريخ! لأننا نعلم أن للغالب المنتصر بريقاً لا يُقاوَم، فإذا استطاع المغلوب على ضعفه الواهن أن ينتصر عليه بما لديه من قيم مثالية، ومبادىء إنسانية يضمّها دينه الكريم، فإن عظمة هذا الدين لا تجحد، ومَن يتعرّض لها بتشكيك فإنه يخالف طريق النظر الصحيح عن قصد أو عماء.

هذه القوّة العظيمة في المبادىء والمُثُل، قد أُتيح لها عبر السنين مَن لا يصدر عن أمرها من الحاكمين، بحيث لم يقدّر أُولو الأمر حكومة الإسلام، كما جاء بها القرآن، بل انصرفوا إلى مآربهم الأنانية، دون التفات إلى هذه المبادىء، جاهلين أن عظمة سلطانهم لا ترجع إلى شيء غير ما تجاهلوه من قيم وأخلاق، فبدأت الغشاوة ترين على وجه الأمّة الإسلامية شيئاً فشيئاً، وأُتيح لها نفر من الوصوليين باعدوا بين الحاكم وطرائق الحكم في الإسلام في كثيرٍ مما يصدر ويدع من الأمور، ومع هذا البُعْد الواغل في أكثر موارده ومصادره فقد استطاع الإسلام أن يظلّ مرفرف العلم في آمادٍ كثيرةٍ، لأنه ـ مع نشاز أتباعه عن الجادَة في أكثر ما يصدرون ـ كان أنظف أدوات الحكم بين مُعاصِريه.

فمهما قيل في مظالم بني العباس والفاطميين والأندلسيين، فقد كانوا بالقياس لمُعاصِرِيهم من ملوك المِلَل المختلفة أرقى شأناً وأقرب طريقاً، وقد تحقّق على أيديهم من الفتوحات العلمية والحضارية والإنسانية ما كان دعامة التقدّم الإنساني في قرونٍ مختلفةٍ، وحسبك أن تعلم أن العصور المظلمة ـ التي أُطلِقَت على فترةٍ واسعة من التاريخ الأوروبي ـ كانت هي عصور الحضارة الزاهرة في عالم الإسلام، وماذا كانت دول أوروبا أيام المأمون في بغداد، والعزيز في القاهرة، والناصر في قرطبة؟! بل أيّ شيء تكون مدنيّة أوروبا لو لم تستطع أن تجد مثالها الرائع في مدنيّة الإسلام؟.

قد يظن القارىء أننا نكتب عن حماسة دافعة لا عن علم أكيد، ولكن قراءة التاريخ الحضاري للإنسانية الذي كتبه المُنصِفون من أبناء الغرب أنفسهم ـ تنطق بكلّ ما نقول، فقد كان احتكاك الغرب بالإسلام في الحروب الصليبية وفي صقلية والأندلس أول خطوات النهضة الأوروبية والإصلاح الديني في الكنيسة، وقد جاء ملوك أوروبا بقوّتهم البربرية إلى الشرق، ليجدوا حضارة زاهرة في دمشق والقاهرة وبغداد، وليروا من روائع الأنظمة في البحث الحضاري ما جعلهم يقفون مشدوهين حائرين، حتى إذا رجعوا إلى قومهم كان التقدّم الحضاري في بلاد الإسلام هدفهم الأول، والذين كتبوا تاريخ الإصلاح المسيحي من القساوسة أنفسهم في عهودهم الأخيرة يرجعون بدعوات مارتن لوثر وكلفن في الإصلاح إلى المقارنة بين مبادىء الإسلام في الشرق، وطغيان البابوات في الغرب، أكثر مما يرجعون بها إلى نصوص الإنجيل!.

ظلّت الأمة الإسلامية على مناعتها الحصينة أمداً غير قصير! والمُغرضون من كُتّاب التاريخ يحاولون أن يقصروا مدى الانتصار الإسلامي إلى أمَدٍ لا يتجاوز القرن الأول من العصر العباسي، وهو تخبّط ظالم يتجاهل الحقائق الصريحة، لأن الأمة الإسلامية وإن تعرّضت لهزّات المطامع الداخلية والخارجية على أمدها الطويل، فقد ظلّت محافظة على مكامن قوّتها الداخلية إلى مدىً بعيد. ففي القرن السادس عشر الميلادي: كانت القوّة الإسلامية صاحبة الكلمة العليا في العالم

كلّه، فقد كانت الدولة الفارسية الصفوية في إيران، والإمبراطورية المغولية في الهند تحميان حدودهما في قوّةٍ واضحةٍ. أما الدولة العثمانية في الشرقين الأدنى والأوسط: فقد كانت أقوى قوّة عالمية تهجم بجيوشها الظافرة، فتكتسح أوروبا على يد سليمان القانوني، ومحمد الفاتح الذي أسقط القسطنطينية في وثبته الظافرة، كما وقف الجيش الإسلامي في عهد السلطان سليمان سنة ١٥٢٩ م على أسوار ڤيينا مهدّداً بفتحها، فارتجّت دول أوروبا ارتجاجاً لبطولته الخارقة، وأصبح السلطان العثماني موضع التزلّف والرضا لدى شتّى ممالك الغرب، حتى كتبت له اليصابات تعلن: أن المسيحية البروتستانتية أقرب إلى الإسلام من مسيحية الكاثوليك، وهي حقائق لا ينكرها أعرق المتعصّبين.

ولكن عظمة العثمانيين لم تستمر في تقدّمها الرائع عبر الزمن إلّا لشيء واحد لا شيء سواه، وهو: ابتعادها عن القيم الإسلامية فيما أخذت تقوم به من الأمور، بحيث عاودها داء العصور السالفة من الجبروت والطغيان، واحتقار ما سنّه الإسلام من عدالة وحريّة ومساواة، ولو تمسكت بهذه القيم الخالدة فعرفت حقوق الرعايا في كل مكان يرتفع عليه لواؤها المرفرف، لنهضت بنفسها وبالعالم الإسلامي نهضة لا تزحزحه عن مكان الصدارة لحظة عين، ولكن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مَرَدّ له وما لهم من دونه من والٍ.

تنازعت الدولة العثمانية أهواؤها الداخلية والخارجية، فأغفلت حقوق رعاياها في البلاد الإسلامية التي تستظلّ بلوائها كما أتاحت لنفرٍ من الوصوليين أن يسيطروا على توجيه سياستها سيطرة لا تتبع تعاليم الإسلام في شيء، وبذلك أخذت عوامل التصدّع تضرب في كيانها الباذخ، بينما قامت النهضة الصناعية في أوروبا بدورها المكتسح، فاستخدمت البخار والكهرباء في شتّى المرافق الصناعية، وأعدّت من الأسلحة الفاتكة ما لم يتيسّر للشرق الإسلامي في شيء، ثم جاءت أوروبا بقوّتها الصناعية لتسيطر على الأمة الإسلامية، مرتكبة أسوأ الفظائع في حصد الأرواح وترويع الآمنين، واستئصال عناصر المقاومة، حتى استطاعت بقوّتها الصناعية أن

تسود وأن تسيطر، وحتى أوهمت الدنيا أنها تحمل في تقدّمها الصناعي حضارة إنسانية جديدة، وهي ـ عَلِمَ الله ـ لا تحمل إلّا أدوات الفتك ووسائل الدمار.

لقد انتصرت أوروبا عسكرياً بتقدّمها الصناعي، وحسبت أنها تستطيع أن تنتصر حضارياً وإنسانياً فتجذب إليها المغلوبين، ثم قَدِمَت إلى الشرق وفي نيّتها أن تُعيد الحروب الصليبية في لونٍ جديدٍ، فبدلاً من أن تكون الحرب سافِرة في ساحات المعارك الدامية فإنها تكون حرباً نفسيةً وثقافيةً: نفسيةً حين تتّجه إلى التشكيك في القيم الإسلامية، ومحاولة إظهارها في وضع تكون معه مَدعاة التأخّر، وباعث التقهقر الإنساني في ركب الحضارة الصاعدة، وثقافية حين تفرض ألواناً من المعارف والفنون تنسب لأوروبا المسيحية، وتراها وحدها باعثة التقدّم، وطريق النهوض! وقد حاول أصحاب هذه الحرب الضارية أن يعملوا على نجاحها في جهتيها المختلفتين بما يبيّتون من خِطَط، وما يضعون من أهداف، وقد ظنّوا أن الثمرة مُواتية، وأن النتيجة متحقّقة، فما هي إلّا سنوات حتى تُمحى معالِم الحضارة الإسلامية، وتتلاشى القيم النبويَّة، لتجد مكانها قيماً جديدةً تنتمي إلى أوروبا في كل سِمَة واتجاه.

وماذا يمنع ـ في نظر هؤلاء ـ دون أن تُمحىٰ القيم الإسلامية، ودون أن تتزعزع العقيدة الربانيّة وأصحابها متخلفون يقفون في مهبّ الأعاصير دون نصير؟ بل ماذا يمنع في نظر هؤلاء من تمكّن النفوذ المسيحي في ديار الإسلام، وفي كل ناحية حاكم مستعمر متعصّب، يؤيّده السلطان الباطش، وتطيعه القوة الغاشمة، فيسهل عليه أن يستميل الأغرار بما يزيّف من بريق، ليتخذهم رُسُله إلى هؤلاء المتمسّكين بدينهم، ويجعلهم واجهته الخادعة حين يغريهم بالمناصب والأموال، وحين يحارب كلّ حرّ يدين بمثله، ويتمسّك بإيمانه الركين.

وأنت تقرأ عمّا يحوكه هؤلاء الواهمون من آمال عريضة في سحق المُثُل الإسلامية، فتجد عجباً أيَّ عجب! تجد افتياتاً صارخاً على الحقائق التاريخية والإنسانية، وتمويهاً كريهاً بقشور يزيّنون بها واجهاتهم الخادعة، حتى جزم

(برايس) المؤرّخ السياسي[1]: بأن عمر الإسلام لن يبقى منه سوى قرنين يبحث بعدهما عنه فلا يوجد أثره في مكان! وحتى قال (كيمون) الفرنسي في كتابه «باثولوجيا الإسلام»: إن الديانة المحمّديّة جذام فشا بين الناس، وأخذ يفتك فيهم فتكاً ذريعاً، بل هي مرض مريع وشلل عامّ، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلّا ليسفك الدماء، ويُدْمِن معاقرة الخمور ـ مع أنها محرّمة في الإسلام لا في المسيحية ـ ويجمح في القبائح، وما قبر محمّد في مكّة إلّا عمود كهربائي يبثّ الجنون في رؤوس المسلمين، ويُلجِئهم إلى الإتيان بمظاهر الهستيريا العامّة، والذّهول العقلي، وتكرار لفظة الله إلى ما لا نهاية، والقعود على عادات تنقلب إلى طِباع أصلية ككراهية لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحاني والليمانيا والماليخوليا، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذّات[2].

وأمثال هذه الأقوال لا قيمة لها إذا وُضِعَت في ميزان النقد الصحيح، فهي ضباب كاذب يتبدّد سريعاً حين تحرقه شمس الحقيقة، ولكن قيمتها تتأكد حين تجد الحاكمين من المستعمرين في أكثر البلاد الإسلامية يُوالون ترويجها والدعاية لأكاذيبها الشائنة، ومعهم كل وسائل التنفيذ من جبروت متحكّم، وخداع متمرّس، وإغراء بالمناصب والوظائف، ونشر للصُّحف الخائنة على نحو ممتّد فسيح، وقمع لكل مُعارِض نزيه يحاول أن يرفع كلمة الحق بين الطوفان فيأخذه النكال من كل مكان!.

هذه الإمكانيات الضخمة دفعت أمثال (برايس) إلى الاعتقاد بأن عمر الإسلام لن يمتدّ إلى أكثر من قرنين، وأغرت (كيمون) أن يفتري الأكاذيب الحقيرة على نبيّ الإسلام وأتباعه المخلصين!، وقد نسوا شيئاً هامّاً ذا بال، هو: أن الإسلام لا يعيش في جُحُور النّمل مختفياً عن الأنظار حتى تلصق به التُّهَم دون

(١) مجلة الهلال، نوفمبر، ١٩٠٤ م.

(٢) الإسلام والردّ على منتقديه، ص ٢٣.

تمحيص، فإن كتابه الخالد (القرآن الكريم) مشهور متداول، يقرؤه كل مسلم، فيعرف الرائع الممتاز من قيمه الهادية، ومُثُله الكريمة، فهو الكتاب الأول في الوجود الإنساني الذي يرفع علم الحريّة والإخاء والمساواة، قبل أن تتشدّق بها الثورة الفرنسية بأكثر من عشرة قرون! كما أن التاريخ الإسلامي المزدهر في صفحات العباسيين والأندلسيين والفاطميين وغيرهم من حاكمي الإسلام قد أثبتت نفاسة المعدن الحضاري للأمة الإسلامية العريقة، فبأيّ باطلٍ مُموّه يستطيع هؤلاء المزيّفون أن يخدعوا المسلمين عن كتابهم الخالد، وتعاليم دينهم وتاريخهم الحافل؟.

ولكن المسألة ليست من السهولة بحيث تترك الحومة دون أبطال يدافعون! فالعدو المستبدّ بجيشه وذخيرته يأخذ مكانه في مواقع هامّة، ليعلن أراجيفه دون حياء! ولم يكن الحكّام من البريطانيين والفرنسيين رجال سياسة فقط ولكنهم قساوسة متعصّبون، درسوا الإسلام دراسة تبشيريّة ليقوموا بتشويهه فيما يُزاوِلون من مَهام! ولنضرب المثل لذلك بحاكمين طاغيتين أحدهما: إنجليزي، والآخر: فرنسي.

أما الأول: «فكرومر» طاغية الإنجليز في مصر، إذ وفد على البلاد بعد أمَدٍ قضاه في الهند ألمّ فيه بأحوال المسلمين في آسيا، ثم انتقل إلى قلب أفريقيا لينفّذ مخطّطاً بغيضاً، يشجّع منظّمات التبشير ومعاهد الإرساليات على التغلغل في بيئات إسلامية ظلّت أمداً طويلاً بعيدةً عن وباء التبشير، وقد تبلورت حملاته المنكرة في نقاط هامّة تتّجه إلى الإرجاف بالإسلام كسبب أصيل للتأخّر والانحطاط، فهو في رأيه عدوّ الحضارة الإنسانية، ولن يستطيع المسلم أن يرقى درجة واحدة في سُلّم المدنيّة إلّا إذا نبذ هذا الدين الصحراوي، الذي يأمر بالجهل والتعصّب والرقّ وإهدار الكرامة للمرأة! وإلّا إذا اتّجه نفر من شُبّانه إلى إنجلترا ليمارسوا المدنية الإنجليزية ممارسة تجعلهم ينقمون على كل أثر للإسلام في الشرق، ثم يعودون ليتبوّءوا كبار المناصب، عامِلِين على إطفاء المشاعل المتوهّجة في دينهم الخالد.

والذي لا تنبعث به الهمّة إلى مهاجمة دينه وإعلان تنصّله، سيظلّ في أعماق نفسه ناقماً على تقاليد قومه وتعاليم عقيدته ـ كما يتخيّل اللورد ـ أما القرآن؛ فلا بدّ أن تجنّد الجنود لزعزعة أفكاره، واصطياد الشكوك الدائرة حول قضاياه، وإلصاق كل بِدعة زائفة بتعاليمه، ليصبح في النهاية مصدر تأخّر حضاري لمُعتَنِقِيه، كما أن بلاد الإسلام يجب أن تتقطّع أوصالها المتماسكة بإثارة عوامل التفرقة بين الإخوة المتحابّين: فالمصريون ليسوا بعرب، والسوريون فينيقيون، والعراقيون آشوريون، والمغرب بربر، فكيف يمكن اتّحاد هؤلاء؟! أما اللغة فلا بدّ أن تبعد عن الفصحى ليسهل الابتعاد عن لغة القرآن، وعن فكرة الرابطة الإسلامية. هذا بعض ما حواه مخطّط هذا الداهية الخطير، ولم يكتفِ بتقريراته السنوية طيلة خمسة وعشرين عاماً أخذت تتوالى كل عام لتبيّن خطوات هذا العمل الإجرامي خطوة خطوة، ولتجذب نحوها نفراً من ذوي الأوهام يروّجون لها في صُحُف الاستعمار ترويج المُنتَهِز المأجور.

لم يكتفِ بذلك، حتى أصدر كتابه عن مصر الحديثة في خاتمة عهده، ليكون دستوراً لخلفائه من بعده، وقد حشاه بالافتراءات الصارخة عن التعصّب والرقّ والمرأة والمدنية الإسلامية ومُجافاة القرآن للعمران! وكان الخير في صدور هذا الكتاب، لأنه وجّه أنصار الفكرة الإسلامية إلى نقض أخطائه وتفنيد أوهامه.

وكان الأستاذ محمد فريد وجدي في طليعة هؤلاء المتصدّرين لنقض الكتاب على أساس علمي يبعد عن المهاترة الصاخبة، والتشنّج المفتعل، ويدعو للحق بالحكمة والموعظة الحسنة، إذ يجادل بالتي هي أحسن، وقد أوضح في جلاء أن الإسلام المُتّهم بالباطل كان وحده سبب اليقظة في الأمة العربية، وباسمه قامت الخلافة المتحضّرة التي حفظت كنوز العلم اليوناني، وأسهمت في ركب الحضارة الإنسانية أعظم إسهام، ومن المُحال أن تُلقى تَبِعَة الفساد المعاصر في الأمة الإسلامية على دينٍ قامت التجربة التاريخية على صلاح قيادته، وعظيم مدنيته.

أما الرقّ: فلم تبتكره الشريعة الإسلامية، ولكنها عملت جاهِدة على تضييق منافذه، وفتحت أبواباً كثيرةً تتّجه إلى القضاء عليه، ولم يفت الكاتب أن يوضح

رأي الإسلام الرائع في المرأة، كما فسح المجال لبيان حقائق القرآن، وجمعه الرائع بين القوانين المدنية والدينية، بحيث أصبح هذا الجمع دليل انسجامٍ حيٍّ في القيم الإسلامية، وهو ما كرهه كرومر حين حاول فصل الدين عن السياسة ليطفىء من مُثُل الإسلام في تقديس الحرية والشورى والإخاء والمساواة!.

وهذا تلخيص يُومِىء ويشير ولن يُغني شيئاً عن مراجعة الردّ المُفحِم بنصوصه الرائعات، هذا بعض القول في لورد كرومر الإنجليزي.

أما الاستعمار الفرنسي: فنضرب المثل له «بالماريشال ليوتي» الذي صنع في المغرب العربي صنيع كرومر في مصر، بحيث عدّه الفرنسيون مُنشىء المغرب الحديث، وقد ساعد على شبّ النزاع المحتدم بين العرب والبربر، وضمّ إليه نفراً من أدعياء التصوّف ليُظهِروا الإسلام في مظهر الجمود، والانحطاط العقلي، والكسل المتعطّل، وهو ما حاربه ابن باديس والبشير الإبراهيمي في المغرب بعامّة والجزائر بخاصة محاربة فضحت أسراره، وهتكت أستاره.

وقد قدّرته الدوائر الفرنسية تقديراً خاصّاً حين مكّنت له من العمل الاستعماري، وأعانته على تنفيذ مخطّطه في الشِّقاق العنصري.

وما بنا أن نُطيل في مساوئه، إذ كان نسخة جديدة من كرومر، تتّفق أهدافهما في العمل وتفترق في اتجاه المنفعة، ذلك إلى فرنسا وهذا إلى إنجلترا.

وقد زادت ضراوة فرنسا عنفاً وحِدّة حين ظهر بين مفكّريها أكبر عدد مناوىء للفكرة الإسلامية، ولهم من ذيوع الصيت وجهارة الصوت ما يساعدهم على انتشار أقوالهم في كل مكان، بحيث لا يُقاس بهم أمثال: «مرجليوث» الإنجليزي، على تخرّصاتهم المنكرة.

وكان من الطامّة: أن تكثر البعثات التعليمية إلى فرنسا بالذات، ليرجع منها بعض الوافدين وقد حملوا جراثيم التبشير، ومعاوِل الهدم وأراجيف الدعاية، ولهم

من ألقابهم العلمية ما يُهيّـىء لهم مكان القيادة في دنيا المدارس والجامعة والتأليف والصحـافة والنشـر، ومكافحـة ذلك تستـدعي من الجهود مـا قام بـه دُعـاة الفكـرة الإسلامية الذين نُشير إلى جهادهـم الكبير في هذا الكتاب عن حمية ويقين.

وكلّنا يعلم ما حاوله «رينان» و«هانوتو» الفرنسيان أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن من هجوم يتّسم ظاهراً بطابع البحث، على حين يخالف في بـاطنه كـلّ مقرّرات العلم، والتاريخ والمنطق الاستدلالي الصريح.

إذ زعم رينان: أن العرب يفتقدون الروح العلميـة في البحث، وما يقـال عن علوم العرب وتمدّن العرب وفلسفة العرب خطأ صريح، لأن ذلك كله نتاج أُمم غير عربية قـد اندمجت في الأمـة العربيـة، لأن الإسلام في رأيـه لا يشجّع على العلم والفلسفة، والبحث الحرّ بما فيه من اعتقاد بالغيب، وإيمـان تامّ بـالقضاء والقـدر، ومَن اشتغل بالفلسفة من المسلمين قد اضطهد أو حرقت كتبه!.

وكلّ ذلك افتيات منكر نفـاه الباحثـون من مُنصِفِي باريس كـالمسيو «مسمـر» رئيس البعثة المصرية الفرنسية إذ ذاك قبل أن يكرّ عليه جمال الدين بالتفنيد!.

ومـوضع المغـالطة في تهجّم الفيلسـوف الفـرنسي الـذي لم يلتفت إليـه مَن خاضوا في نقده عن جدارة واطّلاع، أن الذين يـزعمهم من غير العـرب كالفـارابي وابن سينا وابن رشد كانوا مسلمين يتمسّكون بدينهم عن إيمـان أصيل، فـإذا كانـوا قـد برعـوا فيما زاولـوه من مسائـل الفلسفة والعلم فكيف يكـون الإسلام مـانعاً عن دراسة الفلسفة، وغير مشجّع للبحث العلمي؟

وماذا يقول في الحضارات العلمية الزاهرة التي أشرقت بنور الإسـلام في كل موضع، ومكانها التاريخي بحيث لا يجهله فيلسوف كبير «كرينان»؟

لقد اضطر الرجل بعد معارضته القويّة بالحجّـة الدامغـة أن يتراجـع عن كثيرٍ من آرائه، في لباقة يموّه بها على البسطاء ممّن لا يفطنون إلى دوافعه المُججِفة.

ولم يكد يطوي صحيفة تهجّمه حتى بسطها فرنسي آخر هو المسيو «هانوتو»! هذا الذي أفرغ أحقاده في مقالين خالف فيهما كل الحقائق الواضحة مخالفة يقودها الهوى المتمكّن، وقد كشف عن آلامه الحزينة حين قال في بعض ما كتب[1]:

«وخلاصة القول: إن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة، يدبّرون أعمالهم ويوجّهون أفكارهم إلى الجهة التي يبتغونها، وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرّك بحركته، وتسكن بسكونه، بل هي القطب الذي تنتهي إليه قوة المغناطيسية، ومتى اقتربوا من الكعبة، من البيت الحرام، من بئر زمزم الذي ينبع منه الماء المقدّس، من الركن الذي يقولون عنه: إنه سرّة العالم اشتعلت جذوة الحمية الدينية في أفئدتهم، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً، وتقدّمهم الإمام مستفتحاً العبادة بقوله: (بسم الله) فيعمّ السكون والسكوت، ويملأ الخشوع قلوبهم! ثم يقولون بصوت واحد «الله أكبر» بصوت خاشع يمثّل معنى العبادة.

ترى في قرانا ـ يقصد المستعمرات الفرنسية في أفريقيا ـ فقيراً شاحب اللون متدثّراً بأرديته البيضاء المُعَلّمة بخطوط سوداء، يلهج لسانه بذكر الله، والصلاة على نبيّه، لا يلويه عن ذلك شيء.

هذا الدرويش الذي ينتقل من خيمة إلى خيمة، ومن قرية إلى قرية، راوِياً حوادث الأقطاب من مشايخ الإسلام، إنما يبذر في القلوب حيثما حلّ وأين توجّه بذور الحقد والضغينة علينا.

إن العالم الإسلامي منقسم إلى طوائف وطرائق لا عِداد لها، ينخرط في سلكها الألوف من رعايانا المسلمين، يخترقون بلا انقطاع ولا تَوانٍ مستعمراتنا الأفريقية، فيستقبلهم أهلوها بالترحاب، ويُحسِنون وفادتهم، ويكرمون مثواهم، حتى أن الفقير منهم لا يرى في إكرام (الدرويش) أقلّ من أن ينحر له شاة».

(١) الإسلام والردّ على منتقديه، ص ١٧.

هذه الوحدة الإسلامية المتماسكة كانت مبعث ثورة «هانوتو» فكتب مقاليه ليحشوهما بأخطاء كشفها الأستاذ الإمام «محمد عبده» بما لا يدع بعض اللّبس لدى قارىء مخدوع، وقد قال الإمام في خاتمة مقاله الأول ما نصّه:

«وقبل إلقاء القلم أذكر الذين يتفانون في إجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم في الله ـ على رأيه ـ أني أصغرت شأن «هانوتو» في معارفه التاريخية، لأنه صغير فيها حقيقة، وكثير من قومه يعرف ذلك منه إذ لا أمير في العلم غير المعلّم».

ومما يدلّ على تحوّل الغرض الهادم إلى مرض مُلازم لدى أعضاء النهضة الإسلامية، أن الواحد منهم يأتي بالاعتراض الخادع مُسهِباً في تفصيله، ملتمساً له شتّى الأدلّة، وكأنه حقٌّ صريح، فيعمد له أحد المدافعين الكماة من حُماة الإسلام فيكشف عن عواره، وينسفه نسفاً بما يدع باطله المتراكم أنقاضاً فوق أنقاض.

ثم يأتي على أثره كاتب آخر ينحو منحاه في التجنّي على الإسلام فيُعيد ما سبق أن افتراه صاحبه متغافلاً عمّا وُجِّه إليه من نقد مصيب كشف مساوئه، وأتى على بنيانه من القواعد، ولو كان هؤلاء ممّن ينشدون الحق لوجه الحق لتركوا المُماراة واللجاج، فلم يعودوا يلوكون افتراء وضح مذهب الحق في تفنيده.

وأظهر ما يكون هذا اللجاج حين يتعرّضون إلى سيرة محمّد ﷺ، فأنت تجدهم حينئذٍ يتجاهلون المعارف الأوّليّة ليصلوا إلى تقرير وَهْم خادع، وماذا تقول في مستشرق يهودي متنصّر «كمرجليوث»[1] يفني عمره الطويل في دراسة الحياة العربية في الجاهلية والإسلام، ثم يجترىء به حقده فيزعم أن محمّداً لم يعرف والده، يقول هذا وهو يعلم اهتمام العرب بالأنساب، ويعرف عناية قريش بآبائها وأبنائها، فكيف فات هؤلاء النسّابون الوُعاة أن يجهلوا نسبة محمد لبني هاشم، وقد عرفوا أنساب الخيول من الحيوان؟ أفيؤمن هذا المتخرّص على قضية يعالجها، وهو يسمح لقلمه أن يفتري عامداً بما ينكره اطّلاعه الدؤوب؟».

---

(١) من كتابنا المخطوط (من وجهة إسلامية)، ورقة ١٦٣.

لقد كشف الأستاذ الهندي «خ. كمال الدين» في كتابه «المثل الأعلى للأنبياء» عن خديعة كبرى يدلف إليها «مرجليوث» وأشباهه في اختلاق مآثمهم الفاضحة، إذ أن أحدهم يختلق فِرية كاذبة، ثم يحيطها بالشك، ولا يجرؤ على الجزم بها، وقد اختلقها، فيجيء مُغرض آخر فيمسك بتلابيبها كحقيقة مُسَلّمة أكّدها سابقه!.

ومن ذلك ما زعمه الدكتور «منجانا» من أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن بها اختلافات ذات بال، ثم قال متنصّلاً: إنه لا يجزم بِقِدَمِها، ولا يعرف مبلغها من الصحّة، فجاء مرجليوث وتلقّف هذه الفِرية ليضيف إليها أن الدكتور (منجانا) يجزم بِقِدَمِها جزماً أكيداً لا يقبل الشك، إذن فقد أصبحت حقيقة مُسَلّمة في رأيه، مع أن صاحبها الأول قد تخلّى عنها، وقطع الأمل من فائدتها، وكأنه يعلم أن من ورائه مَن سيسير على منهاجه فيجعل الخطأ صواباً والوَهْم حقيقة.

وما زالت الأراجيف تتوالى ويعمل على إذاعتها بعض مَن يروقهم أن يتملّقوا الباطل ليفرحوا بما يمهّد لهم من ارتقاء وثَراء، وما زال دُعاة الفكرة الإسلامية يعملون على دحضها في قوة جبّارة مكينة، حتى انقضت الأيام وعروق الإسلام تزداد تمكيناً ورسوخاً، بحيث أصبح دين المستقبل لدى مَن ينظرون إلى قيمه الخالدة ومُثُله العالية نظرة الإنصاف، إذ كانت عجيبة العجائب أن يحتضن الإسلام كل وافد من الخير، تتمخّض عنه الحركات المُصلِحَة، بحيث تجد أصولها في الإسلام راسخة ممتدّة، كما كانت عجيبة العجائب أن يطرد الإسلام كل وافد من الشرّ، بحيث يشنّ عليه الحرب الماحقة مستعلياً بنصوصه وبراهينه، ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره.

ولنا بعد هذه الإلمامة العابرة أن نواجه الذين يسيئون الظن بمستقبل النهضة الإسلامية بما يعلمون من تقلّبات التاريخ جزراً ومدّاً، واختلاف الدولات صعوداً وهبوطاً، فنذكر لهم: أن مَن يعلم ما تعرّض له الإسلام من مِحَن داهمة منذ سقوط بغداد وما وليها في أيدي التتار، وهجوم الصليبيين على المشرق، واستئصال المسلمين بالأندلس!.

هذه المِحَن الثلاث، كانت تلقي في نفوس كثيرة: بأن الإسلام هامة اليوم والغد، وأن التكالب والتزاحم على استئصاله من كل مكان يوشك أن يهوي ببنيانه إلى حيث لا يستطيع النهوض في أحداث هذه الزعازع المتلاحقات، وقد مضى الزمن وذهبت العواصف المتزاحمة مرتدّة خائبة، وخرج المسلمون من مصائبهم الداهمة منتصرين، فحفظت مصر الإسلامية كما حفظ غيرها من الربوع المترامية تراث بغداد والأندلس معاً، وفتحت مصر صدرها للوافدين من الشرق والغرب معاً، حتى وجد الخائف مأمنه، والتقط الإسلام بعد المعركة الظافرة أنفاسه، لتبزغ شمسه بعد احتجاب.

هذا الظفر الحاسم في ماضي الإسلام القريب يؤذن بظفر كامل إن شاء الله في حاضره الممتحن بالاستعمار الأوروبي والحقد الصهيوني، فقد استشرى عدوان إسرائيل ومَن شايعها على الأمة العربية الإسلامية، وطاب لها أن تذوق حلاوة النصر بعض الوقت، لتتوقح بخيلائها المغرور، جاهلة أن حتمية التاريخ تمنع أن يكسب المعتدي حقّ غيره بقوّته الظالمة، وتؤذن بيوم حاسم يرجع بالحق لذويه، إذ لا ييئس من روح الله إلّا القوم الكافرون.

ونعود إلى منطق التاريخ مرةً ثانيةً: فنضرب المثل بإنجلترا التي أسهمت إسهاماً كبيراً في استعمار مرابع الإسلام، واعتصمت بقوّتها الحربية بعد تفوّقها الصناعي اعتصاماً جعلها صاحبة الكلمة الأولى منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى ما قبل قيام الحرب العالمية الثانية في هذا القرن، ومع خروجها من الميدان ظافرة منتصرة تجد أملاكها الشاسعة تتقلّص، وخيراتها تنفد، وقوّتها تنكمش، وأخذ الذين سطّروا المجلّدات الذائعة في تمجيد الإمبراطورية البريطانية يتساءلون عنها الآن، فلا يجدون إلّا الجزيرة البريطانية وحدها، تحاول أن تُقيم جسورها الممتدّة إلى الشرق والغرب على أساس المنفعة المتبادلة، وكان الأسطول البريطاني يجول في محيطات العالم رهيباً مرعباً، ويسلّط النار والحديد والموت على الضحايا الآمنين، فأصبحنا اليوم نبحث عنه فلا نكاد نجده، أتكون إسرائيل في ذلّها الأبدي

وقلّتها الضئيلة، وقرصنتها الغادرة أحسن عاقبة من دولة عُظمىٰ كانت تزعم أن الشمس لا تغيب لحظة واحدة عن ممتلكاتها المتراميات؟.

وطريق النهضة الإسلامية في شتّى ميادينها المتباعدة لن يكون دون مراجعة فاحصة لتاريخ المكافحين المعاصرين، ممّن واجهوا تحدّيات الاستعمار في ميادين السياسة والعلم والأدب والخلق والعزّة الدينية، ووقفوا أمام عوائقه الحاجزة وقفات الجهاد والجلاد وهم من الكثرة بحيث لا يستطيع أن يحصيهم غير القلّة من المتفرّغين، وقد حاولت أن أخصّ بعضهم بالحديث لأضع لَبِنَة متواضعة في صَرْح النهضة الإسلامية المعاصرة. وقد تكون اللَّبِنَة قليلة الحيّز، ضئيلة المكان، ولكنها تسدّ فراغاً عامّاً، وتدعو بضآلتها المحدودة ذوي الأقلام الموهوبة إلى وضع اللَّبِنات القوية حتى ينهض البناء.

وإذا كنّا نعلم أن الطاقة الفردية للإنسان الواحد محدودة فإن الحديث عن طاقات مختلفة تتغاير ميادين كفاحها وتتشعّب مجالي جهادها من سياسة إلى علم إلى أدب إلى إحياء تراث إلى إعطاء مُثُل وقِيَم، هذا الحديث المختلف باختلاف رجاله يتجمّع في صفحات متوالية، ليقدّر إخلاص المُخلِص، ويبارك جهود المُثابِر، وليكون موضع القدوة لمَن يطمح إلى القيادة من ناشئة العصر، وهو بذلك كله موضع نفع مؤكّد لمَن يطمح إلى استكمال حلقات الفوز من العامِلِين، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر مَن يشاء وهو العزيز الرحيم.

روّادُ النّهضَة في مِرآة كاتب كبير

قلت في مقـدمـة بحثي عن المُصلِح الاجتمـاعي المغفـور لـه «محمـود أبي العيون» ما نصّه: «تمرّ مواسم الذكرى لرحيل النابهين من العلمـاء والمُخلصين من رجـال الـدين دون أن نجـد لهـا صـدىً فيمـا نقـرأ من الصُّحف، ومـا نسمـع من الإذاعـات، فـإذا سـألت عن ذلـك قيـل: إن هؤلاء الـراحلين من الأعـلام نفـر من الخاصّة، لا يعني الجمهور أن يتتبع آراءهم العلميـة، ومؤلّفاتهم المنهجيـة، وإنما يرجع واجب التاريخ لجهودهم إلى تلاميذهم فيما يصدرون من كتب وبحوث، وهو ردّ متكلّف واهِن لا يحتمـل النقض، وإذا سلّمت بـه جـدلاً فقط، فلك أن تسـأل هؤلاء عن مُصلِح كبير مثل الأستاذ «محمود أبي العيون» يعرف العامّة قبـل الخاصّـة جهـاده الحافـل في شتّى ميادين السيـاسـة والاجتمـاع والأدب والخلق: إذ قـاد من معارك الإصلاح مـا رنّ صداه في كـل أُذُن، وسطّر من رائـع المقالات الاجتمـاعية والأدبية والدينية في مدى أربعين عاماً من حياته مـا جعل اسمـه يتلألأ في كـل أُفق بـاهـر الضيـاء جـذاب الالتمــاع... ثم كـاد أن ينســاه النـاس في زمن لا يقــدّر المخلصين من ذوي الحمية الثائـرة تقديـره لذوي الـطبول الهـاتفة ممّن يصـطنعون صغار الكاتبين ليُوالوا الحديث عنهم كل حين».

وقلت في مقدمة بحث تـالٍ عن الدّاعيـة المُصلِح الدكتـور أحمد غلوش مـا نصه «في صمت هادىء انتقـل إلى جِوار ربّـه البطل المجـاهد الدؤوب، الدكتـور

أحمد غلوش رئيس جمعية منع المُسكِرات بمصر، وداعية الإسلام في أوروبا، وقد قـرأت نعيه بـالصُّحف في سطور محـدودة نشرتهـا أُسرتـه ودفعت ثمن النشر، كمـا تعلن وفاة كلّ مَن يقدر أهله على نفقات منعـاه في صحيفة الـوفيات! وانتـظرت أن تفيض الأقلام عقب ذلك في وصف كفاحه الدءوب في ميادين العمل النافع، ابتغاء مـرضاة الله حقبـاً طِـوالاً جـاوزت الستّين، إذ أن الفقيـد الجليـل قـد شـارف على التسعين من عمره المبارك السعيد، فما قرأت شيئاً قلّ أو كثر!.

أفلو كان الراحل ممثّلاً عصرياً شـارك في إفساد النشء بمـا قدّم من أبـاطيل! أفلو كان الراحل مطرباً فنيّاً ساعد على انتشـار الأغاني المـاجنة! أفلو كـان الراحـل قصّاصاً يلتقط فضـائح الجنس وينسـج حِيَل الإثم! لـو كان الـراحل شيئـاً من ذلك لرأينا الصور الحزينة والمراثي الحارّة والكلمات الإذاعية تحتشد لـذكراه احتشـاداً، ولكن الراحل بعض مَن أسلم وجهه إلى الله وهو مؤمن واستمسك بالعُـروة الوثقى، وقد كرّمتـه الدولـة حين منحته جـائزة التقـدير في بعض أعيـاد العلم، ولكن الذين يكتبـون في الصُّحف ويتحدّثـون في الإذاعة لا يهتمّـون بأمثـال هؤلاء الأبـطال، إذ حِيلَ بينهم وبين ما يعملون».

في هذين النصّين ما يبيّن دوافعي إلى تسجيل بطولات نفـر من قادة النهضـة الإسلامية في عصرنا الراهن، حيث وجدت نجـوم هؤلاء القادة تسـطع في زمانهـا، مُرسِلَة شعاعها النفّاذ في كل اتجاه، ثم يأتيها اليقين فتمضي إلى ربّها دون أن تجد مَن يردّد ذِكرَها العاطر في شتّى المناسبات، ولا أنكر أن نفـراً مخلصاً من البـاحثين يُوالون الحديث عنها، ولكن نـطاقهم المحدود في مجـالاتهم الضيقة يـدعو إلى أن نـوجّه رجـال الإعلام في مجـالاته الفسيحـة إلى أن يقومـوا بحق الوطن والعـروبـة والإسلام في تمجيد العامل وتقـدير المُصلِح، مـع انتهاز كـل مناسبـة تحين لعرض نماذج رائعة من كفاح هؤلاء المُثابرين...

ورغبـة الحديث عن هؤلاء القـادة قد استـولت عليَّ حين قرأت منـذ سنـوات كتـاب المغفور لـه الأستاذ الـدكتور أحمـد أمين عن (زعمـاء الإصـلاح في العصـر الحـديث) حيث تحـدّث عن سِيَـر عشـرة من المصلحين المُحـدَثين في الأقـطار

الإسلامية المختلفة، راجياً في مقدمة كتابه أن يكون حديثه باعثاً للشباب، يستثير هِمَمهم، فيحذون حذو أولئك المُصلِحين ويهتدون بهديهم، وكان قلم الدكتور أحمد أمين رحمه الله من القوة والنفاذ بحيث أدّى رسالته في كتابه الذائع على نحوٍ جيّد مستنير، وقد اختار الدكتور مُصلِحِيه من رجال الطبقة الأولى في النهضة الإسلامية المعاصرة، حيث تحدّث عن أمثال محمد بن عبد الوهاب، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وأحمد خان، وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم، ولكن طبقات أخرى من تلاميذ هؤلاء القادة قد حملوا المشعل وواصلوا السير كلٌّ قدر طاقته، وحسب اتجاهه، ولا بدّ من تدوين كفاحهم المناضل ليجد القارىء النشيط سلسلة تمتدّ حلقاتها من المناضلين، فيستشعر من التفاؤل والثقة ما يبعثه على العمل الصادق، والجهاد المخلص، فيحقّق ما أراده الدكتور أحمد أمين حين تمنى أن يكون حديثه باعثاً على استثارة هِمَم الشباب وداعياً بهم إلى العمل الدؤوب.

وإذا كان كتاب «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» قد طُبِع طبعات مختلفة، وكُتِبَ له من الرّواج والذّيوع ما كُتِبَ لمؤلّفات كاتبه الكبير، فقد رأيت ألّا أتعرّض للحديث عمّن عَناهم بالقول من أئمة الطبقة الأولى من المُصلِحِين، لأن قلمي في خطواته المتواضعة لا يستطيع أن يأتي بجديد فوق ما قاله الباحث المتعمّق الهادىء! وأرى من اللّغو السؤوم أن أتحدّث عن أُناس رُزِقوا حظّهم من الخلود دون أن أُضيف الجديد! ولكن قارىء كتابي سيجد تلاميذ بَرَرَة لبعض مَن خصّهم الأستاذ بالحديث، فيتطلّع إلى مراجعة ما قال عنهم في كتابه الجهير، وقد يكون من الحق المُنصِف أن من المؤرّخين الأفاضل مَن كتب عن هؤلاء متفرّقاً أو مجموعاً كما كتب الأستاذ أحمد أمين، ولكن أثر (زعماء الإصلاح في العصر الحديث) في نفسي كان ذا سيطرة نافذة بحيث دفعني إلى البحث عمّا أقدر عليه من حلقات السلسلة على امتدادها واختلافها، وذلك ما يجعلني أخصّه بالحديث، وكيلا أحرم القارىء المتعجّل من الوقوف على ملامح هامّة من وَثَبات أولئك القادة، فسأُبيح لنفسي أن أُشير إلى أهم خصائصهم البارزة كما دوّنها الأستاذ أحمد أمين في كتابه الرائع ليجد المتصفّح خطواته من أول الطريق.

لقد تحدّث الكاتب أول ما تحدّث عن محمد بن عبد الوهّاب، فصوّر دعوته إلى التوحيد الخالص من كل شائِبَة، ومهاجمته الأضرحة والنذور، ومُجاهرته بأن كلام الفقهاء في التحليل والتحريم ليس بحجّة يغلق بعدها باب الاجتهاد، إذ أن كلّ مَن استوفى أدواته من العلماء فله الحقّ أن يجتهد، وعليه أن يستخرج من الأحكام ما يؤدّيه اجتهاده، ثم أفاض في أثره الإصلاحي ومَنحاه الفكري متحدّثاً عمّن انتفعوا بأفكاره في شتّى الحواضر الإسلامية، ولم يعفه من نقد حين قصر دعوته على العقيدة وحدها، ولم ينظر إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها! وقد كان حديث المؤلّف عنه أول ما كتب بمصر في موضوعه دون إسراف في النقد أو مبالغة في المُحاباة.

ثم انتقل المؤلّف إلى مِدحَت باشا المُصلِح التركي، فجَلا مواقفه الإصلاحية خير جلاء، وقد رأيت أن أتخطّاه إلى جمال الدين الأفغاني، لأن مِدحَت باشا على عظيم جهاده، وطويل صبره، وشدّة بلائه، كان رجل سياسة أكثر منه رجل دين. أما جمال الدين فقد أحسَن الأستاذ تلخيص اتجاهه حيَن قال[1]:

«أراد السيد أن يدعو إلى إصلاح المسلمين دينياً واجتماعياً وسياسياً، وإذ كان الإسلام تمتزج فيه العقائد بالنّظم الاجتماعية وبالنظم السياسية كانت دعوته شاملة لهذه المناحي الثلاثة، وكان المثل الأعلى له حالة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين، من حيث العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسي، فيرى أنهم كانوا موحّدين حقاً معتزّين بدينهم، لا تفرّقهم المذاهب والنِّحَل، مترابطين برِباط الأخوّة فيهم خلق الإباء والشّمَم، يبذلون أعزّ شيء في سبيل عقيدتهم وعزّهم، ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في غير هوادة، ثم دخل الفساد على توالي الزمن من خمسة أبواب: من عقيدة الجبر والخطأ في فهم القضاء والقدر حتى صُرِفَت النفوس عن الجدّ في الأعمال. ومما أدخله الزنادقة على تعاليم الإسلام في القرنين الثالث والرابع، فجعلوا المسلمين شيعاً

(١) زعماء الإصلاح، ص ٨٣.

وأحزاباً، وأضعفوا قوّة الدين بما أدخلوا من تعاليم فاسدة، ومما أحدثه السوفسطائية من أفكار، ومما عمله كَذَبَة المُحدثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله، وفيها السّمُّ القاتل لروح العمل والإباء، ومن ضعف التربية والتقصير في إرشاد الجمهور إلى أُصول دينهم ونشر العلم بينهم. وزاد في بعض المقالات أسباباً أخرى أهمها تفكّك الروابط بين أجزاء الأمة وترك الدعوة إلى القوة والجهاد».

وفي الحديث عن أثره السياسي نقل المؤلّف مقال الشيخ محمد عبده عن بعض جهاده حين قال الأستاذ الإمام[1]:

«إن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شؤونهم العامّة بل والخاصّة مُلْكاً لحاكمهم، ومَن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم، يتصرّف فيها حسب إرادته، ويعتقد أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيانته وظلمه، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحقّ له أن يُبديه في إدارة بلاده، أو إرادة يتقدّم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صَلاحاً لأمته، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرّفون فيما تكلّفهم الحكومة به وتضربه عليهم، وكانوا في غاية البُعْد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواءً كانت إسلامية أو أوروبية، ومع كثرة مَن ذهب منهم إلى أوروبا وتعلّم فيها من عهد محمد علي لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار.

ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ وكان من حقّه أن يعلّم الأهالي أن لهم شأناً في مصالح بلادهم، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها لم يحسّ أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية؛ لأن مُبدِع المجلس قيّده في النظام وفي العمل، ولو حدّث إنساناً فكرُه السليم بأن هناك وجهة غير التي يوجّهها الحاكم لَمَا أمكنه ذلك، فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن أو إزهاقاً للروح أو تجريداً من المال».

---

(١) زعماء الإصلاح، ص ٦٨.

تلك لوامع تهدي إلى معرفة اتجاه جمال الدين! وهو الآن أشهر من أن نُشير إليه بحديث. فإذا تركنا جمال الدين الأفغاني إلى المُصلِح الهندي السيد أحمد خان فإننا نجد الأستاذ أحمد أمين يقرنه بالشيخ محمد عبده، لأن الإصلاح[1] عندهما إصلاح العقلية بالتثقيف والتهذيب، والنظر إلى الدين لديهما نظرة سماحة ويُسْر، والاستقلال السياسي يأتي بعد ذلك، فلا استقلال لجاهل ولا لمخرّف، إنما عماد الاستقلال العلم بالدين والدنيا وبكل شيء أتت به المدنيّة الحديثة من طبيعة، وكيمياء، ورياضة، وفلك، وعلم نفس، واجتماع، ونظام الحكم والإدارة، وكل ذلك يحتاج إلى دين يُحيي القلب ولا يقيّد العقل، ويغذّي النفس ولا يشلّ التفكير، ويوجّه الإنسان في حياته وفي علمه وتفكيره إلى الخير.

ثم كِلاهما كان يرى أن السلطان في مصر، وفي الهند، في يد الإنجليز ولهم من القوّة المادية من الأسلحة والذخائر، في البرّ، والبحر، ومن القوة العلمية، والسياسية، ما لا تستطيع الهند، ومصر مقاومته. قد يستطيعون المقاومة إذا اتّحدوا، ولكن كيف يكون اتحادهم مع جهلهم وضعف خلقهم؟ بل كيف يكون ذلك مع فساد أمرائهم إذ ذاك، وبحثهم عن منافعهم الشخصية ولو على حساب الأمة؟ فالأولى مُسالمة الإنجليز والتفاهم معهم، وأخذ ما نستطيع لخير الشعب منهم لنُفهِم الإنجليز أن عليهم واجب النهضة بالشعوب التي يحكمونها عقلياً كما ينهضون بها مادياً، وأنهم مسؤولون عن جهل الأمم التي يحكمونها، كما أنهم مسؤولون عن فقرها، ثم كِلاهما قد عانى من المتاعب ما عانى الآخر، فمسألة المستعمِرين لا تُرضي ـ عادةً ـ دُعاة الوطنية والاستقلال ويرون فيها خيانة.

وقد يرى بعضهم أن لا مفاوضة ولا مطالبة ولا مُسالمة إلّا بعد الجلاء، ومن جهة أخرى هناك الطبقة الجامدة من العلماء التي ترى العلوم الحديثة التي أتت بها المدنية الأجنبية مفسدة، والقول بأن قوانين الدنيا في الزراعة والاجتماع والصحّة والمرض وكلّ شيء مبني على السبب والمسبّب كفر بالقضاء والقدر، وإنكار سلطة

---

(١) زعماء الإصلاح، ص ١٢١.

المشايخ والأولياء والأضرحة زندقة. فهؤلاء وهؤلاء يشنّون الغارة على مثلي الشيخ محمد عبده والسيد أحمد خان، فيتخطّون دعوتهم وسط هذه الأشواك الحادّة، وقد يمدّ الأمراء دُعاة الرجعية بوسائلهم للنَّيْل إلى أقصى حدٍّ من المُصلِحِين من هذا القبيل لأنهم نقموا عليهم الالتجاء إلى معاونة الأجنبي دونهم، ولو التجؤوا إليهم مع الأسف ما نفعوهم، كلّ هذا كان في مصر وفي الهند لأن طبيعة الأشياء واحدة وقوانين الطبيعة لا تتخلّف.

هذا رأي الدكتور أحمد أمين في المُصلِحَين الكبيرين، ونحن نعلم جهاد محمد عبده، ونفيه بعد الثورة العرابية لمحاربته الإنجليز برأيه وقلمه وجهده، وقد كان من تمكّن قوّتهم عقب الاحتلال ما ألجأه إلى بعض المُسالمة الظاهرية ليتفرّغ إلى تنفيذ برنامجه الإصلاحي حين اعترضه الخديوي، وألّب عليه جموعاً يهمّها أن تنال رضاه مهما قامت العوائق دون الإصلاح!.

أما السيد أحمد خان فقد أنصفه الكثيرون ممّن قدّروا موقفه ورأوا بواكير الخير تتحقّق على يديه، وإن كنّا نرى نفراً من الكُتّاب ينقدونه نقداً لاذعاً، وقد يشتطّ أحدهم فينكر عليه كل صالح تمّ بجهده ومن وراء مسعاه، وأذكر أن الأستاذ الدكتور محمد البهيّ كان بين مَن سلّطوا سِياط نقدهم[1] على الرجل لبعض آراء ذكرها في تفسيره للقرآن، إذ خصّه بحديث ناقد في كتابه القيّم (الفكر الحديث وصِلته بالاستعمار) ومع تقديرنا الكبير لهذا الكتاب الموجّه وانتفاعنا به فإننا لا نرى رأيه في السيد أحمد خان، إذ لكل مفكّر من الآراء ما ينقد ويصوّب ولا يحول ذلك دون تقديره! وإذا كان جمال الدين الأفغاني ممّن انتقدوا أحمد خان بالعُروة الوُثقى، فإن الأفغاني كان من المتطرّفين في دعوته الثائرة، وهو لا يتحمّل المهادنة ولا يميل إلى مَن يتحمّلها. وقد خالفه الصواب حين فهم أن أحمد خان ممّن يقولون بالطبيعة، لدورانها في بعض كلامه، على أنه من ملاحدة الدهريين! والحقيقة أنه يعني بحديثه عن الطبيعة الاتجاه العلمي إلى دراسة الطبيعة والكيمياء

(١) الفكر الإسلامي الحديث، ط ٤، ص ٢٧ وما بعدها.

والميكانيكا في عصر العلم، ومحاولة الوقوف على أسرارها في عالم الصوت والضوء والمغناطيسية والكهرباء دون أن يتعدّى ذلك إلى شطط الدهريين، لذلك كان الأستاذ أحمد أمين أكثر إنصافاً للرجل، ومحاولة إلصاقه بالقاديانية التي ظهرت بعد نشاطه مُحاولة مُجحِفَة لا تجد لها تكأة من يقين، ومن المفيد أن نُحيل القارىء على ما كتبه المفكّر الدقيق الأستاذ عباس محمود العقّاد عن السيد أحمد خان في كتابه (الإسلام في القرن العشرين) حيث قرنه في جهاده الإصلاحي بالسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، وقال عنهم ما نصّه[1]:

«هؤلاء المُصلِحون المُعلّمون الثلاثة نشأوا كنشأة الإخوة في أُسرة واحدة، وكان بينهم من التخصّص على غير قصد ما يشبه توزيع الوظائف في المهمّة الواحدة، فتولّى كلٌّ منهم عمله الذي يستطيعه حيث يستطاع، ولم يكن للعالم الإسلامي غِنىً عن واحد منهم في موضعه أو في مهمته كما فرضتها دواعي الإصلاح».

وقال عنه العقّاد في مناسبة أخرى مُوضِحاً علاقته بالإنجليز[2]:

«وكاد المترجمون له أن يصفوه بالأناة والحذر، ولكنهم لو وصفوه بالإقدام أو الهجوم لوجدوا الدلائل على ذلك أظهر وأكثر من دلائل الأناة، وإن كان معنى الأناة أن يتخلّف المستأني عن العمل في حينه، فما توانى أحمد خان عن مُصارحة الإنجليز بتَبِعاتهم وعيوب إدارتهم، وما توانى عن مصارحة قومه بجمودهم وعجزهم ووسائل الخلاص من نكبتهم، وما توانى بعد ذلك عن مصارحة الهند كلها بتنظيم الحياة النيابية فيها على النحو الذي يصلح لجميع أبنائها، مع تعدّد النِّحَل وتفاوت النسبة في توزيع السكان، ولكنه كان يتأنّى حين يخشى مغبّة العجلة ولا يؤمن بجدواها، وكانت هذه الأناة منه أدلّ على الشجاعة من الهجوم السريع، لأنه كان يُغضِب بها أضعاف مَن يُرضيهم بالتعجّل في غير جدوى».

---

(١) الإسلام في القرن العشرين، ط ١، ص ١٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٠.

لقد أكثرنا من الحديث عن أحمد خان بعض الشيء لنُنْصِف الأستاذ أحمد أمين كما نُنْصِف أحمد خان، متذكّرين قول شوقي:

إن الذي جعل الحقيقة علقماً لم يُخْلِ من أهل الحقيقة جيلاً

ثم يجيء حديث السيد أمير علي بعد حديث السيد أحمد خان مباشرةً فيبلور الدكتور أحمد أمين اتجاهه الإصلاحي في صفحات جيدة تتركّز خُلاصتها الدقيقة في قوله[1]:

«لقد كان أهم ما يمتاز به السيد أمير علي الإخلاص للعقيدة، عقيدته في دينه، وعقيدته في قومه، وعقيدته في وطنه. رأى أن مواهبه في لسانه، وفي قلمه، فصقلهما صقلاً بلغ به الغاية. فهو في لسانه خطيب بارع، وفي قلمه بليغ ساحر، فلما أن بلغ بهما هذا المبلغ، وضعهما في خدمة عقيدته. يكتب عن الإسلام وعن محمّد، فتصل كتابته إلى كثيرٍ من الأوروبيين الذين لم يسمعوا عن الإسلام ومحمّد، إلاّ التّافه من القول، وتصل إلى مواطنيه، فيرون معلومات مألوفة عرضت عرضاً جديداً حتى كأنها جديدة. ويوم وصل إليهم كتابه عن محمّد أوقفوا الدراسة في المدارس يوماً احتفالاً بهذا الكتاب واعترافاً بحُسْن أثره. ثم يستعمل لسانه وقلمه في خدمة قومه من المسلمين، فيحرّكهم ويجمع شملهم، ويدفعهم للمطالبة بحقوقهم، فيفقد بذلك كثيراً من المال كان يصحّ أن ينهال عليه، ومن ألقاب الشرف كان يمكن أن ينالها بمركزه ومواهبه وجاهه، ولكنه كان راضياً بما في يده مع راحة ضميره، وكارهاً طعم الغِنى والألقاب مع عصيان الضمير. وهو من تأليفه ودفاعه وثمرة عمله في غنىً وشرف لا يساويهما أيّ غنىً أو شرف».

أما خير الدين التونسي فمثل مِدحَت باشا، فصّل الدكتور جهاده الإصلاحي في سياسة بلده تفصيلاً ندعو إلى قراءته وتتبّعه، وأعتذر عن الإفاضة في حديثه وحديث عبد الله النديم وعلي مبارك، لأنني أخصّ كتابي بمَن كانت الوجهة

---

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ١٤٤.

الإسلامية والعربية طابعهم العامّ في الجهاد العلمي أو القلمي، وهؤلاء على إخلاصهم الزائد وفضلهم الجمّ، قد اقتصروا على جهات من النشاط المُثمِر، تغلّبت على ما نعنيه بالتحديد، وقد تُسعِدُنا الأيام بالحديث عنهم في مجالٍ آخر فنُرضي رغبة تتطلّع إلى تقديرهم الأكيد.

وأمامنا الآن حديث المؤلّف عن الكواكبي ومحمد عبده. أما الكواكبي فقد كان مثالاً نادراً في الرجال، مؤدّب اللسان[1] «فلا تؤخذ عليه هفوة، يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً. حتى لو ألقي عليه السلام لفكر في الإجابة، متّزن في حديثه، إذا قاطعه أحد سكت وانتظر حتى يتمّ حديثه، ثم يصل ما انقطع من كلامه، فيؤدّب بذلك محدّثه، نزيه النفس لا يخدعه مطمع ولا يُغريه منصب، شجاع فيما يقول ويفعل مهما جَرّت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد، وهو على أَنَفَته وعزّته وصلفه على الكبراء متواضع للبائسين والفقراء، يقف دائماً بجانب الضعفاء. يشعّ على مَن يُجالسه الاتّزان، والتفكير الهادىء، وحبّ الحق، ونصرة المبدأ، والتضحية للفضيلة».

وكأني بالدكتور أحمد أمين، وقد اهتمّ بهذا الأُنموذج النفسي الرائع، ليجعله قدوة للقارىء وأيّ قدوة في العصر أفضل من صاحب هذا المسلك النزيه؟ أما دعامة مذهبه الإصلاحي فتتأصّل في محاربة الاستبداد، وهو وباء عصره، وداء زمانه الضارب بعروقه في جسم الأمة العربية، حتى أورثها الشلّل المُميت. وقد أصدر الكواكبي كتابه طبائع الاستبداد ليصيح بأعلى صوته صيحة تقلق المستبدّين، وتوقظ المستبدّ بهم من المستضعفين. وإذا كان هؤلاء الظالمون يتّكئون بهتاناً على الدين في استبدادهم الغاشم، فقد سطّر المؤلّف كتابه[2] ليعلن أن الإسلام يحارب الاستبداد، فهو مبني على قواعد كريمة من الحرية السياسية، وهو مؤسّس على أُصول ديمقراطية تقتضي المُراعاة التامّة للمصلحة العامّة، وعلى شورى

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(٢) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ٢٤٩.

أرستقراطية، أو شورى الخواصّ وهم أهل الحلّ والعقد. فالقرآن مليء بما يمحق الاستبداد، ويدعو إلى العدل والخضوع إلى نظام الشورى من مثل قول الله: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾، ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾. حتى في القصص من نحو قول الله: ﴿ ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾. ثم إن الإسلام لا يعرف سلطة دينية، ولا اعترافاً، ولا بيع غفران ولا منزلة خاصّة لرجال الدين، ولكن دخل عليه من الفساد الزائف ما دخل على كل دين، فتفرّقت كلمة المسلمين، وانقسموا شِيَعاً، وتحوّل الحكم من نظام شورى إلى استبداد، فصغرت نفوس المسلمين، وخَفَتَ صوتهم، وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصار أمر المسلمين إلى ما نرى.

والكواكبي صاحب الدعوة إلى المؤتمر الإسلامي كل عام، إذ تخيّل جمعية من المسلمين تُعقَد في مكّة، وقد تحدّث كل مواطن عن بلده فوصف أوصابها. وأخذ يطبّ لدائها، وقد أسندت رياسة الجمعية للعضو المكّي، والسكرتارية للسيد الفراتي ـ يعني نفسه بذلك ـ وكان الاجتماع قبيل زمن الحجّ في مكان متطرّف من مكة، وهناك تحدّث كل عضو ـ بلسان الكواكبي في أُم القرى ـ بما خالجه من شجون، حيث أفاض الكواكبي إفاضة شافية في تشريح حالة الأمة الإسلامية، بما يُعَدّ وصفاً دقيقاً لها في خاتمة القرن التاسع عشر! ولا نستطيع أن نُشير إلى كتاب (أُمّ القرى) في سطور تتحيّفه وتُشينه، بل ندعو إلى معاودة قراءته كوثيقة توجيهية فذّة، وأثر أدبي ممتاز. ولكننا نلخّص ما اهتدى إليه المؤتمر الخيالي من أسباب رئيسية للضعف الإسلامي العامّ، وهي كما بلورها الدكتور أحمد أمين[1]:

١ ـ **أسباب دينية**: ترجع إلى عقيدة الجبر ونشر ما يدعو إلى التزهيد في الدنيا، وترك السعي والعمل، واختلاف المسلمين فِرَقاً وشِيَعاً، وإضاعة سماحة الدين، وتشديد الفقهاء المتأخّرين، وإدخالهم في تعاليمه الخرافات والأوهام، وعدم المطابقة بين القول والعمل في الدين، وتهوين غُلاة الصّوفيّة شأن الدين،

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ٢٧٥.

وجعله لهـواً ولعباً، والتـوسّـع في تـأويـل النصـوص، والتحـايـل على التحـرّر من الواجبات، وإيهام الدجّـالين أن في الدين أُمـوراً سرّيّـة. وتطرّق الشّـرك إلى عقيدة التـوحيد، وتهـاون العلماء في تـأييـدهـا، والغفلة عن حكمـة الجمـاعـة والجمعـة والحج.

٢ ـ **أسبـاب سياسيـة**: أهمها عـدم المسؤولية، وحـرمان الأمـة حريـة القـول والعمل، وفقدانهـا الأمن والأمل، وفقـد العدل والتسـاوي في الحقوق بين طبقـات الأمة، وميل الأمراء للعلماء المدلسين، واعتبار العلم صدقة يُحسِن بها الأمراء على الخاصّة، وإبعادهم للناصحين وتقريبهم للمتملّقين.

٣ ـ **أسبـاب خلقية**: منهـا الاستغراق في الجهـل والارتيـاح إليـه، واستيـلاء اليأس على النفوس، والإخلاد إلى الخمول، وفساد التعليم، وفساد النظام المالي، وإهمـال الحقوق العـامّة جُبْنـاً، وتفضيل الـوظائف على الصنـاعات، والتبـاعد عن المداولات العامّة.

هذه الأسباب هي علّة العِلَل فيمـا انتاب العـالم الإسلامي إذ ذاك من ضعف مرير. ومؤرّخ هذه الحقبة من التـاريخ سيجعلهـا مدار بحثـه وموضـع اهتمامـه، إذ كـانت من الصـدق والـدقّـة بحيث وضّحت الغـامض، وجمعت المتفـرّق، وجهـد صاحبها في الاهتداء إليها ومحاولة الطلب لها ممـا يجعل مكـانه واضحـاً جهيراً في مـوكب الإصـلاح الـديني دون شـطط أو إسـراف، ولن يكـون اهتـداء زمـلائـه من المُصلِحين كـالأستاذ الإمـام محمد عبـده إليها داعيـاً إلى انتقاص الكـواكبي، فقـد أحسن الإبانة عنها والتحليل الصادق لبواعثها، وهي بعد خـواطر صـادقة تتـوارد في نفـوس المُصلِحين ممّن يؤمنون بعقيـدة واحدة ويتّجهـون إلى تعاليم مشتـركـة كـان القرآن الكريم نبراسها الوضيء.

ويختم المؤلّف كتـابه بـالحديث عن الأستـاذ الإمـام محمـد عبـده رحمه الله تعـالى. فيفيض في تعداد مـآثره إفـاضة صـادقة، ويفسـح له من مؤلّفـه الحافـل أطيب مكـان، ومحمد عبـده جديـر بكل مـا يُساق إليـه من ثناء، فهـو أظهر هؤلاء جميعـاً

جهاداً في حومة الفكر الإسلامي، وأبرزهم في حلبة الصراع بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، إذ ترك من الآراء وخلف من التلاميذ من حمل الراية وسار في طريقه فأكمل الشوط مهتدياً بنبراسه. وقد لاحظت وأنا أتحدّث عمّن تلا جيل الروّاد من مُصلِحين أن أكثرهم قد انتفع بمحمد عبده، وسار على هديه أكثر مما انتفع بزملائه الذين خصّهم أحمد أمين بالحديث. ومردّ ذلك إلى مقامه الجهير في الإصلاح من ناحية، وكثرة تلاميذه المقتدين به من ناحية ثانية، إذ أُتيح له أن يقود الصفوة من نوابغ عصره قيادة فكرية ساطعة، وكانت دروس تفسيره للقرآن لا تقتصر على طلاب العلم الديني وحدهم، بل ربما كانوا أقلّ من طلاب المدارس المدنية وأرباب الثقافة المعاصرين من رجال الأدب والسياسة والصحافة والقانون والطبّ، وكلّ مَن نازعته نفسه إلى الارتقاء العلمي في عهده.

وإذا كان المؤلف قد وفى الأستاذ الإمام حقّه من التاريخ الصادق والنقاش المتّزن، فإن الأستاذ الإمام نفسه قد تحدّث بقلمه الشخصي عن رسالته الإصلاحية حديثاً يحدّد دائرة جهاده، ويعدّد مناحي إصلاحه، ومن الخير لدارس الأستاذ الإمام أن يستمع إلى قوله الصريح مما نقله عن مذكراته الكاتب الكبير[1]:

«لقد ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين، **الأمر الأول**: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لتردّ من شططه، وتقلّل من خلطه وخبطه... وأنه على هذا الوجه يُعَدّ صديقاً للعلم باعثاً على البحث في أسرار الكون، وداعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل، **والأمر الثاني**: إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كانت المخاطبات الرسمية أو في المراسلات بين الناس، وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في أمرين: كلاهما يمجّه الذّوق وتنكره لغة العرب، **الأول**: ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما

(١) زعماء الإصلاح، ص ٣٢٧.

يشبهها، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات، رثّ خبيث غير مفهوم، ولا يمكن ردّه إلى لغة من لغات العالم لا في صورته ولا في مادته، والنوع **الثاني**: ما كان يستعمله الأدباء والمتخرّجون من الجامع الأزهر، وهو ما كان يُراعَى فيه السجع وإن كان بارداً، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجِناس وإن كان رديئاً في الذّوق بعيداً عن الفهم ثقيلاً على السمع، غير مُؤَدٍّ للمعنى المقصود.

وهناك أمر آخر كنت من دُعاته والناس جميعاً في عمىً عنه، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذلّ إلّا بخلوّ مجتمعهم منه، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، نعم: كنت فيمَن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقّها على حاكمها، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدّة تزيد على العشرين قرناً، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يردّه عن خطئه ولا يوقف طغيان شهواته إلّا نُصْح الأمة له بالقول وبالفعل، وجهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس له عبيد أي عبيد.

ولم أكن في كل ذلك الإمام المتّبع، ولا الرئيس المُطاع، غير أني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثيرٍ مما ذكرت قائمة. ولا أبرح أدعو إلى عقيدتي في الدين، وأُقارب بإتمام الإصلاح في اللغة، وقد قارب. أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدّره، وَلِيَد الله بعد ذلك تدبّره، لأني قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمة من غراس تغرسه، وتقوم على تنميته السّنون الطّوال، فهذا الغراس الذي ينبغي أن يعنى به الآن، والله هو المستعان.

هكذا أنهى الأستاذ أحمد أمين حديثه عن الروّاد، وهكذا لم نجد بُدّاً في هذه المقدمة المتواضعة من الطّواف حول ما قُدّم من شخصيات وما أفاد من آراء، ليكون قارىء كتابنا على معرفة من حركة البعث الفكري في الأمة الإسلامية

المعاصرة، وسيرى حين يتصفّح هذا الكتاب أننا لم نألُ جهداً في الإيجاز المفيد، إذ كان في مكنتنا أن نُفرِد الصفحات الطّوال لكل مُصلِح على حِدَة! بل كان من الممكن أن نخصّ كل واحد من هؤلاء بكتاب برأسه، ولعلّ الأيام تساعد على ذلك إذا تنفس العمر وجاد الزمن وفرغ البال، ولكننا تركنا ذلك الآن لمَن يريد الكتابة المطمئنة عن مُصلِح واحد يختاره ويعكف على دراسته، ليُفرِده بمؤلَّف خاصّ، ومن الحظ الموافق أن تظهر بعض الكتب الخاصّة بتراجم نفر من هؤلاء، لكُتَّاب أفاضل قاموا برسالتهم الكتابية أفضل قيام وأوفاه، فوفى كل كاتب حديث مَن اختاره من هؤلاء المُصلِحين، بحيث حفلت المكتبة الإسلامية المعاصرة بتراجم ساطعة لبعض هؤلاء الأعلام، وكتابنا هذا يجمع خُلاصات مركّزة لمَن يخصّهم بالحديث، أترك مجال تقديرها لمَن يعلم كيف قرأت مئات الصُّحف وعشرات الكتب لأُقدّم ما يفيد، وما أُبرىء نفسي من قُصُورٍ أو تقصير، إذ كان في النيّة أن أُضيف إليهم مَن يشابهونهم في الجهاد ممّن أدّوا دورهم الحميد كما أدّوه! وهم بحمد الله في الأمة الإسلامية نجوم سواطع وقِمَم شمّاء، ولا أقول: إني أُقدّم منهم السابق والمجلّي وأترك المصلّي واللاّحق، بل أقول: إني أُقدّم مَن أسعفتني المراجع القويمة بالحديث عنه آملاً أن أُبعد النجعة إلى عشرات النظرات متى يسّر الله وأعان. وهو وليّ التوفيق.

وقد ذكر الأستاذ أحمد أمين في مقدمة كتابه: أنه قد نشر أكثر فصوله في بعض المجلاّت، ثم أتمّه وجمعه ليسهل تناوله ويكثر تداوله، وأنا أذكر كذلك أني نشرت أكثر كتابي هذا متفرّقاً في بعض المجلاّت كما صنع الأستاذ أحمد أمين.



عبد الرشيد إبراهيم
داعيــة الإســـلام في آســـيا

- ١ -

من الناس مَن تقرأ حياتهم فتخالهـا أُسطورة خـرافية، لِمـا حَوَت من غـرائب الشجاعة وعجائب الجهاد، مما يتعذّر في العـادة أن يقوم بـه فرد واحـد، فأنت إذا قرأت تاريخ جمال الدين الأفغاني ظننت أن الرجل معجزة خارقـة، إذ كيف استطاع وحده أن يبعث أول صيحة مدويّة ترجّ العالم الإسلامي في كافّة أقطاره رجّـاً! فتراه وهـو الأعزل الفـرد، يهـزّ أفغـان وفـارسـاً ومصـر وتـركيـا، ويتنقـل في شتّى ربـوع الإسلام، ليُوقِد جذوة تشتعل وتستطير! حتى استطاع أن يضع معاني جديدة تعتنقها أبناء الأمة الإسلامية، ويطمس معاني أخرى من التواكـل والجمود والانعـزال، كان المعتقد أنها من لباب الدين وهو منها بَرَاء؟.

هذا الرجل معجزة حقّاً، ولولا أنـه رُئِيَ بالعين وسُمِـعَ بالأُذُن، وألّفَ بـالقلم وخـطب باللسـان لقال القـائلون: إن وجـوده يستحيـل! ولنـا أن نضمّ إلى أسـطورة جمال الدين أسـطورة أخرى شـابهت الأساطيـر في غرائب مـا أبدعت وعجـائب ما أثمرت! تلك هي أسطورة الداعية الرحّالة المجاهد الصابـر الدؤوب: عبـد الرشيـد إبـراهيم، فقد نـاهز المـائة من عمـره المبارك مجـاهـداً في سبيـل الله حتى التحق بالرفيق الأعلى في ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٤ م.

وكان في جميع أدوار حياته مثال الدّأب المتواصل والكفاح النشيط، يجاهد روسيا القيصرية بسلاح الإيمان والعزيمة، ويرحل إلى الحجاز ليتعمّق في دروس الشريعة واللغة، ويصل إلى تركيا ليوجّه جهود الخلفاء إلى نصرة المستضعفين من أبناء الإسلام، ويسافر إلى الهند والصين واليابان ليعلن كلمة الله في ربوع نائية لا تكاد تعرف عن الإسلام غير النّزر الضئيل، ثم يستطيع بعد ذلك أن يقنع الآلاف باعتناق الدين الإسلامي لينهض بعد ذلك داعيةً غيوراً يشرح شعائر الوضوء والصلاة والزكاة! ويبني المساجد باذلاً الجهد في جمع التبرّعات من شتّى ربوع الإسلام، ليعلن كلمة الله في بيوت أذِنَ الله أن تُرفَع ويُذكَر فيها اسمه يُسبّح له فيها بالغدوّ والآصال. ثم يزور مصر ليؤكّد صِلاته بأقطاب الفكرة الإسلامية، ويشرح أحوال المسلمين في أقاصي آسيا من بلاد الصين واليابان ومنشوريا وكوريا، وكلها قد كانت ميداناً لجولات الشيخ الدعوية، ورحلاته الدينية!.

فإذا ذهب مُصَلٍّ إلى مسجد الإسلام بطوكيو عجب حين يرى الرجل الأسطورة في الخامسة والتسعين من عمره ينهض قبل شروق الفجر فيقيم صلاة التهجّد، ثم يؤمّ الناس في صلاة الصّبح، ولا يكاد يفرغ من تسبيحه حتى يتحلّق عليه جماعة من حَوارِيّيه ليشرح لهم سور القرآن وأحاديث الرسول، فإذا أشرقت الشمس انتقل إلى حُجرة الدراسة الملحقة بالمسجد ليجد نفراً من صبيان المسلمين يستقبلونه، فيقوم لهم بدور المعلّم يكتب لهذا لوحه، ويسمع من ذلك سورته! ثم لا يستنكف أن يكون في هذه السنّ المتقدّمة وبعد هذا الجهاد المتواصل معلّم صبيان تقرأ على يديه مبادىء اللغة العربية، ويُحفِظ الناشئة قِصار السّور من جزء عمّ، وبعض المأثور من حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وهو من كبار زعماء الإسلام في ثلاثة أجيال ناهزت القرن!! وإذا كنّا في مطلع هذا المقال قد ذكرنا جمال الدين فإنما تعمّدنا ذلك لنؤكّد ما كان بين الداعيتين من صداقة وطيدة، ونوضح كيف التقيا في جهة وافترقا في جهة، التقيا في ناحية الشعور الحادّ بوجوب نهضة الإسلام ويقظة بلاده، ثم التنقّل في شتّى الأصقاع الإسلامية لإيقاظ الغافلين وتنبيه النائمين، وافترقا في مسلك الدعوة ومنحاها.

فقد كان جمال الدين ثائراً مضطرماً يريد أن يغيّر معالِم الدنيا في لحظة عين، فهو لا يهدأ له قرار، إذ يرى أمثلة مؤلمة من الخضوع والاستكانة والاحتلال، فيُشعِل الثورات مختاراً جنودها من تلاميذ بَرَرة أمدّهم بروحه، ونفث فيهم من حَمِيّته.

أما عبد الرشيد فقد آثر أن يكون جندياً يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، يؤلّف في صمت، ويَعِظ في هدوء، ويرحل في مثابرة، ويترك للأيام أن تُنضِج بذوره الطيّبة دون تعجّل، وقد أحسن الله عاقِبته فعُمِّر في الإسلام حتى شاهد نوره يمتدّ على يديه إلى مطارح نائية كانت تَعْمَهُ في الظُّلُمات، وما مات حتى استطاع في سنة ١٩٣٩ أن يجبر البرلمان الياباني على الاعتراف بالإسلام واحداً من أديان الدولة الرسمية! وبهذا الاعتراف بنى الشيخ مسجدين لا مسجداً.

وقد نشرت جريدة البلاغ خُلاصة ما تمّ بصدد ذلك، إذ جاء بها ما نصّه في أحد أعداد مارس سنة ١٩٣٩:

«أرسل الأستاذ عبد الرشيد إبراهيم رئيس الجمعية الإسلامية بطوكيو يقول: إن وزير المعارف فيها عرض في أول يوم من مارس سنة ١٩٣٩ على البرلمان الياباني مشروع قانون يسمى ـ زيزال أراكي ـ يقضي باعتبار الدينين البوذي والمسيحي دينين رسميين في اليابان، فاعترض بعض الأعضاء قائلين: وأين الإسلام؟، ثم دوّت أصوات المعارضة عن شمال ويمين وطالت المباحثات في ذلك ثلاثة أيام، وانتهت بردّ المشروع إلى وزارة المعارف حتى يضمّنه الاعتراف بالدين الإسلامي مع الدينين البوذي والمسيحي، وقد تمّ ذلك وصادق عليه البرلمان. فلما ذاع هذا الخبر، ونشرت الجرائد اليابانية ما دار من المناقشات فيه، أخذ الناس يأتون إلى المسجد أفواجاً، ويطلبون من الجمعية الإسلامية في طوكيو كُتُباً في الإسلام باللغة اليابانية!».

ولقد كنّا نصلّي الجمعة ذات يوم في مسجد الأستاذ الدكتور عبد الوهّاب عزّام ـ رحمه الله ـ فحدّث المصلّين عن دُعاة الإسلام في العصر الحديث، وتطرّق إلى الشيخ عبد الرشيد، فكان مما قاله آنذاك:

«إن من العجب العاجب أن يصدر الشيخ عبد الرشيد مؤلّفه: (عالم إسلام) فلا يَذيع وينتشر وَيُتَرْجَمَ ويعمّ كل مكتبة إسلامية، مع أنه يجمع مشاهداته الشخصية البصيرة في شتّى ربوع الإسلام: في آسيا وأوروبا وأفريقيا! ويصف من أدواء المسلمين وعِلَلهم ما لم يتيسّر الإلمام به لأحد إلّا أن يكون الأمير شكيب أرسلان! ونحن نرى الآن طبعات متكرّرة لرحلة ابن بطّوطة وأمثاله، فأيّ شيء تكون رحلة ابن بطّوطة إذا قِيسَت برحلة أكبر داعية في العصر الحديث؟ لقد كان ابن بطّوطة يرحل ليتزوّج ويرى ويتمتّع، دون أن يكون له هدف غير تسطير الخرافات والكرامات وتدوين ما يسمع من الأعاجيب، أما عبد الرشيد: فقد ركب البرّ والبحر والجوّ ليدعو إلى الله، وكم احتمل عنت ذوي الجهالة وسفاهة أُولي الضلالة، ثم أصدر الكتب النافعة ودَوّن رحلاته الماتعة، فلم تجد من الذّيوع ما وجدت رحلات الغرائب والخرافات!.».

هذا بعض ما يحضرني من حديث الدكتور عزّام ـ رحمه الله ـ وقد كانت صلته وثيقة بالشيخ الكبير، إذ سارع إلى التعرّف عليه حين قَدِمَ إلى مصر، فأسعده بزيارة بيته بحلوان عدّة مرّات، ثم رثاه بكلمة متواضعة، نشرها بإمضاء مستعار بمجلة الثقافة العدد ٣١٢ جاء فيها بقلم عزّام:

«وكان مجلسه يجمع المختلفين في المآرب والمذاهب على الإعجاب به والعجب منه، من مُصْغٍ إلى شيخ رحّالة مسلم يتحدّث عن جماعات المسلمين ويصف أدواءهم وأدويتهم، ومن مُنصِتٍ إلى عجائب الأسفار وغرائب الأوطان، ومن مُكْبِرٍ لهذا الشيخ الوقور لا تقعد به السنّ عن الأسفار البعيدة، بل رأيت الصبيان يتطلّعون إلى مجلسه ليروا الرحّالة التركي الهَرِم، الذي جابَ مشارق الأرض ومغاربها، ورأيتهم يسرعون إليه متعجّبين حين طلب ماء ليشرب، إذ علموا أنه لا يشرب الماء مجتزئاً عنه بالشاي. وكانت إحدى أمانيه أن يرى مسجداً في طوكيو، فاستجاب الله له، فأراه في اليابان مسجدين».

وإذا كان الدكتور عزّام أحد كُتّاب العرب المعجبين بعبد الرشيد، فقد كان محمد عاكف شاعر الإسلام في تركيا ـ وهو أيضاً صديق عزّام ـ يقاسمه الإعجاب

بالرحّالة الدّاعية حتى جعله بطلاً مِثالياً لإحدىٰ قصصه الأدبية الهادفة، إذ تخيّله واعظاً وقوراً يقوم بين المسلمين في مسجد سليمان القانوني، فيشرح للناس بالمسجد الجامع أدواء المسلمين وعِلَلهم، ويدعوهم إلى الرشاد بعد الغيّ، واليقظة بعد النوم. ثم قال عنه فيما نقله الدكتور عزّام من ترجمة منظومة عاكف:

«وأسرعت الجماعة نحو الكرسي، فيا عجباً! مَن عَلاَ الكرسي؟ شيخ إلّهي السيما، كأنما ينبض قلبه في جبينه، تحيط لحيته الطاهرة الناصعة، وعمامته البيضاء الشاهقة، بجبهته الواسعة، ووجهه الذي يرفّ عليه ضوء الصباح، كما تحيط الهالة بالبدر! ربّ ما هذه الصّباحة؟ وما هذه المهابة، وما هاتان العينان، بل الشّهابان السماويان، اللذان يحرقان الإدراك بشُعاع واحد منهما، واهاً لهذه الحُزمة النورانية الجائشة من عينيك، ولهذه الأرواح المسكينة التي تهفو إليك.

لا تحسبوا أني ارتقيت هذا الكرسي لأعِظ، لست عالماً، فلا يخدعكم هذا الزيّ، حسبكم علماؤكم يفقّهونكم في دينكم، ويفتونكم فيما يُشكِل من أموركم، ولكن سَلُوني عن العالم الإسلامي، فما تركت به بقعة إلاّ زرتها وطوّفت في أرجائها، جُبْتُ ما بين أقصى الشرق والمغرب الأقصى، ولم أدع موطناً للمسلمين في آسيا وأوروبا وأفريقية إلاّ يمّمته، وتعرّفت ماضيه وحاضره! وقد حطّمتني الأسفار المتمادية، وقتلتني الرحلات المتوالية، ولم أصبر على المضيّ في طريقي، لولا نداء لا ينقطع، ينبجس من أعماق نفسي ألاّ تقف، تقدّم، امضِ في سبيلك، نداء غيرتي على ديني، والغيرة التي تضطرم كالبركان بين جوانحي فلا أطيق وقوفاً، ولا أثبت في مكان، لا يقيّدني حبّ النفس والوطن والأهل والولد، لا لا، إنها لا تُثنيني عن عزمي، ولا تعدل بي عن مقصدي، ولا أبغي غير هذا. . . ذٰلكم كل أملي لا أبغي سواه».

ذلك إيجاز بليغ لحياة الدّاعية الكبير!.

لقد أردت أن أكتب عنه فتأخّرت، إذ تقدّم إلى ذلك عاكف العظيم، ثم جاء عزّام الغيور، فأصاب في ترجمته وأبدع! وهما بعدُ أولى بالحديث عنه، فقد جالساه وشافهاه! وليس لي غير أن أستعيد!.

على أني بعد هذه الإلمامة القصيرة ببعض مناحي هذه الشخصية الكبيرة، أنتقل إلى الحديث عن تاريخه الشخصي، ليتحدّد الإطار العامّ لصورة خلّابة ذات بهاء مُشرِق وسَمْت بديع!!.

- ٢ -

حين كانت القيصرية الروسية في قمّة طغيانها العنصري، كان المسلمون في مجاهل سيبريا يُعانون أشقّ ضروب العنت والاضطهاد.

وقد وُلِدَ الشيخ عبد الرشيد بمدينة تارا بسيبريا سنة ١٨٤٦، في أُسرة تعتزّ بإسلامها، ولا يزيدها النكال العنصري إلّا تمسكاً بدينها القويم، فأُتيح له أن يتلقّى دراسة بصيرة على أيدي أُناس يفهمون رسالة الإسلام حقّ الفهم، ثم أُريد له أن يتزوّد من مَعين الثقافة الإسلامية بالحجاز، فارتحل في الثانية عشرة إلى مكة، وأخذ في مدى عشرين عاماً يغذّي نفسه بمصادر العربية الصحيحة، ويُجالس حَمَلَة هذا الدين في مهده الأول، مستعيداً تاريخه الأزهر في مرابعه الوضيئة، وكانت كل خُطاه ما بين مكة والمدينة تذكّره بتاريخ السّلَف، فتوقد في صدره حمية مشتعلة وغيرة متيقّظة، وكأنه قد عزّ عليه في مغتربه النائي أن يترك أبناء وطنه في مجاهل سيبريا يتعرّضون إلى مَن يزعزع عقائدهم بشُبُهات باطلة وأراجيف مختلفة، دون أن يجدوا مَن يميّز لهم الخبيث من الطيب في منطق واضح وإيمان سديد، فكرّ راجعاً إلى بلده مزوّداً بحصيلة وافية من المعارف الدينية الصحيحة.

ولم تمضِ غير سنوات حتى عبق أريجه، وفاح عرفه، فانتخب قاضياً بالمحكمة الشرعية، ثم وكيلاً للإفتاء الديني. ولم يكن ممّن تخدّرهم عليا المناصب، فيُؤْثِرون الراحة على الجهاد، بل جعل منصبه أداة توجيه وإصلاح، فجاهر القيصرية بوجوب العمل على مساعدة المسلمين ومساواتهم بغيرهم، إذ هم سواء في الحقوق والواجبات. ولكن كلمة الحق تصمّ الآذان، وتُثير الحفائظ لدى المُغرضين، فدبّروا أمرهم للوقيعة به، ولكنه لمح خيوط المكيدة تُحاك بليل، ففرّ

إلى إستانبول مقرّ الخلافة العثمانية، وجهر بمآسي قومه في بلاد القيصرية، ونشر رسالات مدعمة بالوقائع والأسانيد.

حتى إذا هدأت الحال بعض الشيء، لم يرضَ المنصب في دولة الخلافة، وارتحل ثانية إلى مضمار الجهاد في وطنه، وكافح وجالد حتى استطاع أن يستخرج رخصة بإصدار رسائل مؤقتة تقوم مقام الصحافة، وأخذ يوالي رسائله باللغة التركية القازانية تحت عناوين: المرآة، والصيحة، وألفت، وضمّ إليه الطبقة المستنيرة من أبناء دينه، فكانوا يجمعون المسلمين من كل بلاد الروس ليقرؤوا عليهم نشرات عبد الرشيد، وهي دعوات جريئة إلى الإصلاح الديني، والتمسّك بمبادىء الإسلام، واليقظة المتنبّهة إلى ما يدبّره الصليبيون من مكايد سافرة لا تلتثم بقناع.

ثم شاء أن يجعل للغة العربية نصيباً من دعوته، لتصل رسالته إلى أبناء الإسلام في الشرق العربي، فأصدر بعض رسائله المتتابعة بالعربية تحت عنوان: «التلميذ» وأسمع بها مأساة قومه في كل صقع عربي! وليته وجد سميعاً، فإن قرّاء العربية من المسلمين كانوا في شغلٍ شاغل بكوارثهم الاستعمارية عن إخوانهم في بلاد الروس.

ثم شاءت الأقدار أن تندحر جيوش روسيا أمام اليابان، فاشتغلت القيصرية بنفسها عن التعصّب قليلاً، ونهض المسلمون بقيادة عبد الرشيد إلى كتابة المقالات الموقظة، ونشر الدعوات التحرّريّة.

ثم رأى الشيخ أن يقوم بجهاده التبشيري، فتعدّدت رحلاته منذ سنة ١٩٠٥ إلى تركستان، ومنشوريا، وبلاد المغول، واليابان، وكوريا، والصين، وسنغافورة، وجزائر ما وراء الهند ليعلّم الناس أن الإسلام دين المستقبل، وأنه أول دين يهتف بالحرية والإخاء والمساواة، فلاقى من الصعوبات الخطيرة ما يؤود العصبة أُولي القوّة، فكيف بفرد واحد يسافر بعيداً إلى مطارح مجهولة دون عضد من مال أو رفيق! ولكنه حصر رسالته في التبشير الإسلامي، لا يبالي على أيّ جنب كان في الله مصرعه.

وإذا كان الله لا يضيع أجْرَ العامِلِين، فقد لمس المجاهد الكبير من بشائر التوفيق ما زاده إيماناً وحماسةً، حتى ذعرت منه دوائر التبشير المسيحي بآسيا وعدّته ـ وهو الوحيد الفقير الأعزل ـ خطراً على جمعياتها التبشيرية، ومؤسساتها المالية، ذات المورد الضخم والرعاية الكبرى، من أُمم غالبة تتحكّم بالمال والقوة والبطش، في عصْرٍ كانت أوروبا فيه صاحبة الأمر، وباعِثَة الحضار والمدنية والعلم، كما يحلو لأذنابها أن يذيعوا ذلك عنها في كل مكان!.

ولعلّ جهاد عبد الرشيد وحده مما يعطي للعالم أجمع أكبر دليل لا يقبل الشك على أن الإسلام ينتشر بمبادئه وحدها، وأن عوامل بقائه كامنة في تعاليمه. وإلّا فبأيّ سلاح ضمّ هذا الداعية الغيور إلى الإسلام آلافاً من الناس غير سلاح المنطق والإقناع والدعوة إلى الله بالموعظة ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن!.

لقد كان بعض القساوسة من مُبشِّري المسيحية في الصين يرى انتصارات عبد الرشيد الرائعة، فيكتب إلى وزارة الخارجية في بلاده ليسرّ إليها بأن المسيحية تعاني كثيراً من جهود عدوّ يزحف عليها بقوّته!.

وقد فهمت وزارة الخارجية الأمر على غير وجهه، فبعثت تتساءل عن قوّة هذا العدوّ ومدى نفوذه الحربي، فإذا الإجابة المُخزِيَة تعلن أن الشيخ واحد ذو منطق وإيمان.

ولم يضنَّ الشيخ على أحد بتجريباته في الدعوة ومعلوماته الحيّة مستمدّة مما رأى وشاهد، فنشر رحلاته في مجلدين كبيرين تحت عنوان (عالم إسلام).

اشتغل بالتحرير في أُمّهات الصُّحف الإسلامية بتركيا، وفي طليعتها مجلتا: معلومات، والصراط المستقيم!.

ولك أن تدهش حين تجد الرجل يترك مجال المنبر والقلم، ليشترك في ساحة الحرب، حين تدفعه الرغبة المُلِحّة في نصر الإسلام، فقد أسهم في حرب

طرابلس ضدّ العدوان الطليـاني سنة ١٩١٢. وحين قـامت الحرب العـالمية الأولى أخذ مكانه في الجبهة الإسلامية، فنشط إلى القوقاز مع الجيش العثماني، ثم دلف إلى ألمـانيا لـلاتصال بـأسرى المسلمين هنـاك، وما زال يجـوب الأقطار من شـرق لغرب حتى انتهت الحرب على غير ما يـودّ، فلم ييأس في شيء، بـل ترك ميـدان الحرب ليعود مُبَشّراً في اليابان!.

وما زالت جهوده تتوالى حتى أسلم على يديه المئات والآلاف، وحتى أصبح الإسـلام مُعتَرَفـاً به في بـلاد الشمس المُشرِقـة. وقد ارتفعت في طـوكيـو مئـذنتـان عاليتان في مسجدين كبيرين، تـردّد كلتاهمـا في اليوم الـواحد خمس مـرّات هتاف الإسلام الخالد: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إلّه إلّا الله!.

إنّـا لنعلم أن بعض كُتّاب القصص الـروائية يبحثـون عن بطل جـريء تكـون لـه وقائع مُذهِلة تجذب القـارئين، فهل ينهض أحـدهم إلى كتابـة قصة عبـد الرشيـد، وهي ببطولاتها الرائعة تُغني عن الاختـلاق والافتعال؟ أوَ ليس لهم أُسـوة في محمّد عاكف حين جعل عبد الرشيـد بطل قصتـه الخالـدة، فتحدّث عنـه وهو حيّ ليقـدّم المثال الرائع والأُنموذج الفريد.



محمد الخضر حسين
في آثاره العلمية

- ١ -

يحلو لكثيرٍ من النقّاد أن يصنّفوا المؤلّفين طبقتين: طبقة العلماء، وهم أرباب البحوث العلمية في الفقه والتشريع والعلوم اللسانية من نحو وبلاغة وتصريف. وطبقة الأدباء، وهم أصحاب الآثار الفنيّة من نثر بارع الصّوغ صادق العاطفة، وشعر رائع المعنى دقيق التصوير. فإذا نظم العالم شعراً أو ألّف الأديب مصنّفاً علمياً، فقد سلك مسلك التكلّف والافتعال.

وربما دعّم هذا التقسيم لديهم ما يشاهدونه كثيراً من ركاكة أشعار العلماء، وضحالة إنتاج الأدباء!.

وهذا حقّ في أكثر أحواله، ولكنه لا يمنع أن يوجد من الموهوبين مَن يبرز في الناحيتين على نحوٍ يدهش ويروع!.

أذكر أني كنت أقرأ كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه» للقاضي الشهير علي بن عبد العزيز الجرجاني، فأجد الرائع المُبدِع من التحليل الأدبي والصّوغ البياني، مع الاستشفاف الملهم لأسرار الروح ونوازع الوجدان، ثم أنتقل إلى ما رواه الثعالبي من شعره فأجد المطرب المرقص مما يملك الوجدان دقّة إحساس ولطافة منزع! والرجل بعد قاضٍ فقيه! يؤلّف في الفقه والتشريع، ويحذق أساليب

الاستنباط والقياس وقواعد الأصـول ذات المنحى العويص!! وتفـوّقه في النـاحيتين المختلفتين دليـل ملمـوس على أن العلم لا يمنــع الأدب، فقـد يــوجـد من ذوي المـواهب مَن يطيـر بجناحين متعـادلين، فيحـرز قصب السّبق في مضمـاري العلم والأدب دون نزاع.

ولقد كان السيد محمد الخضر حسين أحد هؤلاء دون جدال!.

فالرجل قاضٍ فقيـه، يكتب في الأصول والتشـريع والتـاريخ كتـابة المتعمّق الدقيق، وقد كان يدرِّس لـطلاب كلية أصـول الدين أبـواباً من السيـاسة الشـرعية، يغوص فيها مغاص الأصولي الجدلي المتكلّم النظّار. ثم هو صاحب رسائل أدبية، ومقالات تحليلية، وديوان شعري، يجعله في طليعة أرباب الفن الرفيع، ولا ندري كيف تأتّى له ذلك، ومنشؤه العلمي بجامع الزيتونة في تونس، إن استطاع أن يلهمه بصر العالم، فلن يستطيع أن يورثه ذوق الأديب دون جهدٍ جهيد!!.

وُلد الأستاذ بقرية من قرى الجزائر على حدود القطر التونسي، في أُسـرة تعتزّ بعراقة النسب، وتفخر بمَن أنجبت من العلماء والأدباء، وحين بلغ الثانية عشرة من عمره التحق بجامع الزيتونة طالباً، وأكبّ على التحصيل والتلقّي حتى نال الشهـادة العالمية عن جدارة، وتهيّأ للإفادة العلمية كاتباً ومُدَرّساً وقاضياً.

وتسألني عن طريقة التدريس بجامع الزيتونة إذ ذاك، فلا أجد أحسن مما قاله الأستاذ أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح» ص ١٤٨:

«وعلى رأس هذه الكتاتيب جامع الزيتونة، وهو صورة مصغّرة من الأزهـر في ذلك العهد، تقرأ فيه علوم الـدين: من تفسير وحـديث وفقه وعقـائد، وعلوم اللغـة من نحوٍ وصرفٍ وبيانٍ ومعانٍ، في كتب مقرّرة لها مُتُون وشروح وحواشٍ، ويقضي الوقت في تفهّم تعبيراتها، وإيراد الاعتراضات والإجابة عنها، فالعلم شكـل علم لا علم، والنتاج جدل لا حقائق، والناجح في الامتحان الذي يستحقّ أن يكون عـالماً أقدرهم على الجدل، وحفظ المصطلحات الشكليـة، أما الجميـع فسواء في عـدم التحصيـل إذا مسّوا الحيـاة الخارجيـة. فالمنـاقشة في أن شـرب الدخـان حـلال أو

حرام، والغيبة أشدّ حُرمَةً أم سماع الآلات الموسيقية، وخيال الظلّ تجوز رؤيته أو لا تجوز».

ويقصّ الأستاذ محمد الخضر حسين نفسه طريقة أحد أساتذته في التدريس، فيقول عن شيخه عمر بن الشيخ نقلاً عن مجلة «الهداية الإسلامية» جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٥٥ هـ:

«أما أسلوب الأستاذ في التعليم فمن أنفع الطرق، كان يقرّر عبارة المتن، ويبسطها حتى يتّضح المراد منها، ثم يأخذ في سَرْد عبارات الشرح، وما تمسّ الحاجة إليه من الحواشي والكتب التي بحثت في الموضوع، لا سيما الكتب التي استمدّ منها شارح الكتاب، ويتبعها بالبيان جملة جملة، ولا يغادر عويصة أو عقدة إلّا فتح مغلقها، وأوضح مجملها، بحيث يتعلّم الطالب من دروسه كيف تلتقط جواهر المعاني من أفواه المؤلّفين زيادة عمّا يستفيده من العلم».

ثم يقول عنه: «تلقّيت عن الأستاذ رحمه الله دروساً من تفسير البيضاوي، ودروساً من شرح التاودي على العاصمية، ودروساً من شرح الشيخ عبد الباقي على المختصر الخليلي، وكنت بعد أن استقال من منصِبَي الفتوى ونظارة الجامع أزوره كثيراً حرصاً على الاستفادة من علمه».

هذه الطريقة في الشرح والتلقين هي نفسها الطريقة الأزهرية القديمة التي نادى محمد عبده بوجوب إصلاحها، ودعا إلى نمط آخر من الدراسة يهتمّ باللّباب دون القشور، وأُرجّح أن بعض أساتذة الزيتونة لم يكونوا من هذا الطراز، لأن الشيخ الخضر في غضون مقالاته الكثيرة يتحدّث عن أستاذه سالم أبو حاجب، فيُرينا نمطاً من العلماء الأفذاذ يهتمّون بالحقائق الخالصة، ويعملون على إحياء الوعي المجدّد الناهض، فهو مثلاً في دروسه كان يستشهد على كل كلمة لغوية ببيت من الشعر، مما ينبيء بكثرة محفوظه الأدبي، وزملاؤه إذ ذاك كانوا لا ينظرون إلى دواوين الشعر العربي نظرة تأمّل واستيعاب، وأكاد أجزم أن وجود هذا الأستاذ في حياة الخضر العلمية كان ذا أثر بعيد في اتجاهه الفكري، فهو الذي حَدَا به

إلى البُعد عن دائرة الحواشي والمتون والتقريرات، وهيّأه لأن يَرِد التراث العلمي من أصفى موارده في أُمّهات الكتب للشافعي وابن حزم والغزالي والفخر والشاطبي، وأمثال هؤلاء من أفذاذ العلماء!.

ولا تجد تعليلاً لنبوغ الخضر في حداثته، وتفوّقه عن أقرانه غير صفاء مورده، ودسامة غذائه الفكري، على حين يظل الزملاء في مصر وتونس مُولَعين بكتب المُماحكات، وحواشي المتون!.

تخرّج الأستاذ في الزيتونة صحيح العلم، واسع الأفق، فصيح العبارة، وراعَه أن يرى الاحتلال الفرنسي يأخذ بمقبضه الحديدي على أعناق المسلمين في أصقاع المغرب بشتى نواحيه التونسية والجزائرية والمراكشية! فطفق يدعو إلى اليقظة والتحرّر، وأنشأ مجلة السعادة العظمىٰ، لتوضح للقارئين مأساتهم الدامية، وتكشف تخلّفهم الحضاري والعلمي، وبُعدهم عن تعاليم الإسلام في مجتمع يقول الأستاذ أحمد أمين في وصفه ص ١٤٩:

«جزء كبير من السكّان بدو لا يعرفون من الإسلام إلّا الشهادتين، ولا يصل إليهم شيء من علم إلّا في بعض أماكن أنشأ فيها الصوفيّة زوايا تعلّم الناس شيئاً من الدين، وللجاليات الأجنبية من فرنسية وإيطالية وإنجليزية مدارس تعلّم أبناءها وقليلاً من أبناء البلاد؛ اللغات والجغرافية والتاريخ والحساب والجبر والهندسة، فتخرج من هم أقدر على فهم الحياة، فإذا انغمسوا فيها، تحوّلت مالية البلاد إلى أيديهم. وأما إدارة البلاد ففوضى، الحاكم حاكم بأمره، وأحبّ الناس إليه مَن يجمع له المال من حلّه وحرامه، ولا ضبط في دخل ولا خرج، والعدل والظلم متروكان للمصادفات، فإن تولّى بعض الأمور عادل عدل، وكان العدل موقوتاً بحياته ـ وقلّما يكون ـ ونظام القضاء والجيش والإدارة والضرائب وجباية المال وإنفاقه على النمط العتيق البالي، وكثير من الأمور تنفّذ بالأوامر الشفوية، لا مرجع لها ولا يمكن الحساب عليها».

هذه حال تـونس! وهي مشابهـة لأكثر أحـوال الممالـك الإسلاميـة في أواخر القـرن الماضي، وأوائـل هذا القـرن، ولو كـان الأستاذ الخضـر ممّن يفكّـرون في ذواتهم الخـاصّة، لقنـع بما أُسنـد إليه من وظـائف القضاء بـالمحاكم، والتـدريس والخطابة بالزيتونة وغيرها من المدارس، وهي وظائف تضمن العيش الرغيد، وتوفّر صِعاب الرزق، بل إنها كانت عند بعض الوصوليين مَـدعاة التقـرّب من المحتلّين، إذ يصيـرون لعبـة هيّنـة في أيـديهم، يصـدرون عن آرائهم، ويمهّـدون لتمكين سيطرتهم بما يلفّقون من تقريب وتمهيد!.

ولكن الرجل حيّ الضمير، شديـد الحساسيـة، فقد رأى الأجنبي يحـاول أن يطمس نور الشريعة عن عيون تهيم بالإسلام، كما يبذل قوّته الحاشدة لتشويه اللغة العـربية والحكم عليهـا بالجمـود والتقهقـر، لينصـرف النـاس عن قـرآنهم المجيـد وأحاديث نبيّهم الكريم، ثم تنقطع صِلاتهم بأصحاب الـذخائـر العلمية الـرائعة من وَرَثَة الأنبياء وهُداة المُصلِحين!.

لذلك أنشأ صحيفة السعادة العظمىٰ على نمط العُروة الوُثقى، لتنشر محاسن الإسلام، وتفضح أساليب الاستعمار، وكانت خطّة السيّد منذ حمل لواء الدعوة في صِبـاه إلى أن لَقِيَ الله في شيخوختـه واضحة مفهـومة، فهـو يعتقـد أن فسـاد الأمم الإسـلامية يـرجع في أصـحّ أسبـابـه إلى انصـراف المسلمين عن هـدى الشـريعـة الإسلامية، ويـرى أن السيطرة الأوروبيـة لم تملك زمام الأمـور في الشرق إلّا حين اعتصمت بالعلم واستضاءت بالعقل، وأن الشلل العقلي لم تتمهّد وسائله المؤسفـة وأسبابه القاتلة في ربوع الـدين الحنيف إلّا حين استطاع الـدّخلاء أن يلبسـوا الحق بـالباطـل، فَيَصِمُوا الإسـلام بما هـو براء منـه من الجمـود والتـزمّت والاستسـلام، والأخذ بالخرافات والبِـدَع والغيبيات المـزعومـة مما لم يـأْتِ به وحي سمـاوي، أو هدي نبوي!.

ولذلك كانت مهمة السعادة العظمى شاقّة خـطيرة، إذ أخـذت تحارب القـوة والمال والنفوذ بعزم واثق، وجهد صابر أمين!!.

والرائع حقّاً أن الأستاذ رضي الله عنه، قد ثبت على معتقده ثبات الأبطال في كل مكان رحل إليه، فهو في تركيا ودمشق وألمانيا والقاهرة شابّاً وكهلاً وشيخاً، هو هو في تونس، يافعاً غضّاً يناهض الباطل بالحق، ويحارب الكفر بالإيمان!.

ومَن يطالع روائع قلمه، وبخاصّة كتاب رسائل الإصلاح بأجزائه الثلاثة، يدرك يقينه الثابت بماضي الأمة الإسلامية، فهو في كل مقال يخطّه، أو محاضرة يُلقيها، يلتمس الأدلّة اليقينية على مجد السّلف، وعزّ الأجداد، وكان ذلك أمراً لا بدّ له أمام مزاعم الاستعمار وأذنابه ممّن يرون في الشرق كل تأخّر وانحطاط، وفي الغرب كل تقدّم وازدهار.

ويمكننا أن نستعير بعض ما كتبه السيد في مقدمة كتابه «نقض الشعر الجاهلي» لِيُري القارىء إجمال دعوة الرجل موجزاً بقلمه البليغ، قال الأستاذ:

«نهضت الأمم الشرقية فيما سلف نهضة اجتماعية، ابتدأت بطلوع كوكب الإسلام، واستوثقت حين سارت هدايته سيرها الحثيث، وفتحت عيون هذه الأمم في طريقة الحياة المُثلى، سادت هذه النهضة وكان لها الأثر الأعلى في الأفكار والهِمَم والآداب. ومن فروعها نهضة أدبية لغوية، جعلت تأخذ مظاهرها العلمية لعهد بني أُمية، واستوت على سوقها في أيام بني العباس.

تمتع الشرق بنهضته الاجتماعية والأدبية حقباً، ثم وقف التعليم عند غاية، وأخذ شأناً غير الشأن الذي تسمو به المدارك وتنمو نتائج العقول، فإذا غفوة تدبّ إلى جفون هذه الأُمم، ولم تكد تستفيق منها إلّا ويد أجنبية تقبض على زمامها.

التفت الشرق إلى ما كان في يده من حكمة، وإلى ما شاد من مجد، وإلى مَن شبّ في مهده من أعاظم الرجال، أخذ ينظر إلى ماضيه ليميّز أبناؤه بين ما هو تراث آبائهم وبين ما يقتبسونه من الغرب، ويشعروا بما كان لهم من مجد شامخ، فتأخذهم العزّة إلى أن يضمّوا إلى التالِد طريفاً، وليذكروا أنهم ذرّيّة أولئك السّراة، فلا يرضوا أن يكونوا للمستبدّين عبيداً».

هذا هو المجال الذي انطلق فيه يَراع الأستاذ طيلة حياته، مجال التذكير بالأمجاد عن دراسة وتنقيب، وكشف الخداع عن بهارج الغرب في استشفاف ونفاذ، ووضع العلاج لأدواء الشرق في بصر وتشخيص!!.

وقد ألحّ في ذلك إلحاحاً جعل فريقاً من المؤرّخين يفهمون رسالته الإصلاحية على غير وجهها الصحيح.

فالأستاذ ولفريد كانتويل سميث أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة مونتريال، يضع كتاباً عن الإسلام في التاريخ الحديث، يتعرّض فيه إلى مجلة الأزهر، موازناً بين رئيسي تحريرها السابقين محمد الخضر حسين ومحمد فريد وجدي، فيجعل الأول ممثلاً للمدرسة السلفية فقط، والثاني مجدداً عصرياً تسير طريقته في التجديد على قواعد المعرفة الحديثة، وهذا شطط بالغ تنبّه إليه الأستاذ عباس العقاد حين تعرّض لنقد الكتاب، فقال نقلاً عن مجلة الأزهر رجب سنة ١٣٨١ هـ:

«ويقول صاحب الكتاب في مقابلته بين منهج الشيخ الخضر، ومنهج الأستاذ وجدي، أن أولهما يعتبر الإسلام وحياً تامّاً، قد تنزل على صورته الكاملة عند عصر الرسالة الإسلامية، فلا إضافة إليه ولا زيادة عليه، ولا تحوير فيه، وإنما الإيمان بالإسلام هو الذي يحتمل القوّة والضعف، كما يحتمل زيادة المعرفة أو النقص فيها، أو يحتمل المراجعة من عصر إلى عصر لتفقّد الآثار العصرية فيه، وليس الأستاذ الخضر كما يرى المؤلّف من أنصار الحنين إلى الماضي، بل هو من أنصار الدعوة التي لا زمان لها، لأنها صالحة لكل زمان، ومهما تتجدّد مذاهب المعرفة، فالمسلم يسلّم أمره إلى إرادة الله كما هدته معارفه إلى فهم تلك الإرادة الإلّهية بالدرس والإلهام، وقد تساوى في نظر الشيخ الخضر كِلا الطرفين من المسلمين في الحاجة إلى التصحيح والإصلاح، وهما ـ على تعبير المؤلّف ـ طرف اليسار من المتعلّمين الذين جاوزوا حدود الإسلام، وطرف اليمين من الجامدين وأتباع الطرق الصوفية الذين ضيّقوا حدوده عليهم وإن لم يجاوزوه».

ولم يسكت المستعمرون الفرنسيون عن صاحب السعادة، وقد أقضّ مضاجعهم بما ينادي به من استقلال وإصلاح، فآذوه وناوَؤوه، وحكموا عليه بالإعدام، حتى اضطر إلى الفرار إلى الآستانة واهماً أن مجال الإصلاح بها أوسع وأرحب، ولكنه فوجىء بانهيار آماله حين وجد عاصمة الخلافة الإسلامية مسرحاً للدسائس المغرضة والمؤامرات الرخيصة، وأن مَن يجعلون أنفسهم رجال الدين هناك لا يدعون إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة، بل لا يتناهون عن مُنكَر يفعلونه، فهم يحيكون المكائد بالليل، ويفسّرون المنامات، ويقرؤون الكفّ بالنهار، على أنهم يضيقون بكل عالِم مُصلِح يصدع بالحق، وينادي باليقظة والاستبصار.

فهاجر الرحّالة الصابر المُحتَسِب إلى دمشق، وحرص على البقاء بها مُدَرّساً للعربية في المدرسة السلطانية، ولكن مبادئه تهتف به أن يُسهِم بنصيبه في البعث الإسلامي، فيكتب ويخطب ويدعو، ثم يسافر إلى ألمانيا فيلتقي بالأحرار من أنصار الفكرة الإسلامية أمثال محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وعبد الحميد سعيد، ويعملون جميعاً على استقلال الدول الإسلامية أمَداً طويلاً في وطأة الحرب العالمية الأولى، وبين طلقات المدافع وأزيز الطائرات، في مسرح جهنمي يشيب له الرؤوس!!.

ثم يعود إلى دمشق ثانيةً، فيواصل التدريس بالدار السلطانية ويقرأ كتاب مُغني اللبيب، ليكون فيما بعد أساساً لمؤلّف نحوي بلاغي شامل، حتى إذا ختمت الحرب، وأسرعت فرنسا باحتلال الشام، رأى نفسه مضطراً إلى الهجرة بنفسه، فراراً من هؤلاء الذين حكموا عليه بالإعدام في تونس، يسابقه جهاده، وروائع نضاله، فيمّم وجهه شطر الديار المصرية، ليصبح له فيها شأن جديد.

- ٢ -

حضر السيد محمد الخضر حسين إلى مصر في وقت عصيب من تاريخها الفكري، وكانت الحاجة ماسّة إلى رجل مثقف من رجال الدين، قد فهم الشريعة

فهماً صحيحاً، يستند إلى الأصول من القواعد والأُمهات من المراجع، مع مطاوعة سهلة للبيان النيّر المُشرِق، يوضح به للقرّاء ما التبس عليهم من أوجه الخلاف بين دُعاة الإلحاد وأنصار الفكرة الإسلامية، هؤلاء الذين وُصِفوا فيما بعد بأنصار القديم، ووصفت خصومهم بأنصار الجديد، كما حَلاَ للدكتور طٰه حسين أن يُسهِب في ذلك ويزيد!.

نعم كان المخلصون من حُماة الفكرة الإسلامية في غير الدوائر الدينية الرسمية كثيرين، ولكن وجود العالِم المحقّق الأديب المبين محمد الخضر حسين أمر ضروري، يحتّم أن يقوم أحد أصحاب العمائم المستنيرة بالجهر بكلمة الإسلام فيما رانَ من شكوك، وما أذاعه أذناب الاستشراق من مفتريات! وقد ملىء كتابا الشعر الجاهلي، والإسلام وأصول الحكم بأقسى عبارات التهكّم بالمعمّمين! فحقّ لأحدهم أن يقول فيجيد!.

كانت سيطرة الثقافة الاستعمارية بعد الحرب العالمية الأولى مَدعاة إلى إغراء برّاق بأوروبا، وازدراء ناقِم لأمجاد الشرق في رأي مَن جهلوا الحق فضلّوا عن سبيله، ومَن عرفوا الحق مستبصرين ولكنهم مالؤوا الباطل ليصلوا إلى الشُّهرة والجاه والزعامة الفكرية من سفاح دنيء لا يعرف معنى الشرف في القول أو الفعل، وإن تستّر بخداع زائف من التصايح بالحرية الفكرية، والمنهج العلمي، ويشهد الله أن لا حرية ولا منهج، ولكن الهوى يُعمي ويُصمّ.

ما كاد الأستاذ الخضر ينزل حيّ الحسين بمصر غريباً لا يعرف أحداً من الناس، ومهاجراً في سبيل الله بقلمه المجاهد الشجاع، حتى وُفِّقَ لعمل بدار الكتب بأَجْر زهيد لا يتّفق ومنزلته الكبيرة، ولكنه كان بتوفيق الله صلة حميدة إلى اشتهاره الأدبي، ونبوغه العلمي، ثم إلى اتصاله بأشباهه من الغُيَّر على مقدسات الإسلام من أعلام المفكّرين، كأحمد تيمور، ومُحبّ الدين الخطيب، وعبد الحميد سعيد، وعبد الوهاب النجّار، ومحمد رشيد رِضا، ثم شاءت الأقدار أن تفتضح معركة الشعر الجاهلي، وأن يكون الأستاذ بطلاً معلّماً من أبطال المعركة، يصيح بالحق ويندّد بالضلال.

لقد ظهر كتاب الشعر الجاهلي ينادي باحتقار كل قديم دُوِّنَ في صُحُف الأدب والشك فيه، ويزعم أن جُلّ ما قيل منسوباً إلى شعراء الجاهلية اختلاق زائف بغيض، وهذه الآراء مهما صادمت البداءة الواضحة لا تُحدِث ضجّة بين الناس يسعى إليها الدكتور طٰه حسين باذلاً جهده الجهيد، فلا بدّ إذن من الهجوم على المقدسات الدينية هجوماً لا هوادة فيه، فليتعرّض الكاتب إلى القرآن المجيد، وليزعم أن حديثه عن إبراهيم وإسماعيل لا يكفي لإثبات وجودهما في التاريخ! وليعلن أن المنهج الديكارتي هو الذي يفرض عليه هذه الجرأة الطاغية، وأنه اتباعاً لهذا المنهج يشكّ في كل شيء يقال في قول قرآني أو أثر محمّدي، أو متواتر ذائع من القصص والشعر والخطب والتاريخ، إذ أن رواية ذلك وتسجيله لا يكفيان لإثباته دون بحث عن العوامل القريبة والبعيدة في الرواية والتدوين.

ونحن لا نريد أن نفيض في دعوى الانتحال الشعري لأنها لبّ الكتاب وفحواه، وهي دراسة أدبية يتبيّن وجه الحق في بُطلانها من أيسر طريق.

ولكننا نلخّص ما تورّط فيه الكاتب مُلِحّاً ليهاجم الإسلام هجوماً يُرضي أساتذته من قساوسة المستشرقين، ويجعل الرجل صاحب دعوة جديدة في الفكر الإسلامي الحديث.

فالدكتور طٰه يعلن أن محمّداً قد استغلّ المقدّسات الدينية بمكّة وفي مقدمتها البيت الحرام الذي بناه إبراهيم، كيلا يفقد قوّته الروحية مع صراع الشّرك، فالمسألة مسألة استغلال للسيطرة فحسب لا أن بيتاً لله بناه إبراهيم على وجه التحقيق.

والدكتور يعلن أن القرآن لم يكن جديداً على العرب، إذ أن عقائده الجديدة كانت معروفة في شبه الجزيرة بدليل عجيب يرتضيه طٰه وحده. وهو قبول مَن قبل ومُعارضة مَن عارض، إذ لو لم يكن مألوفاً ما حفل به أحد.

والدكتور طٰه يعلن أن دعوة الإسلام دعوة محليّة في جماعة خاصّة وفي حياة خاصّة، فهي ليست دعوة عامّة للبشرية كما ينطق بذلك القرآن الصريح.

ومنطق هذا كله كما يقول الأستاذ البهيّ في كتابه: «الفكر الإسلامي الحديث ص ١٩»: إن القرآن ليس وحياً لرسالة الله!!.

وإذا كان المؤلّف النابغة قد أثبت اقتراب هذه الأفكار من كتاب المذهب المحمّدي للمستشرق الإنجليزي جب، فإن الأستاذ الخضر قد استطاع أن يجد الأصل الاستشراقي الذي سطا عليه الدكتور سطواً فاحشاً فيما كتبه الدكتور مرغليوث في مجلة الجامعة الأسيوية الملكية سنة ١٩١٦، وفي كتاب محمد المطبوع سنة ١٩٠٥.

وقارىء الردّ المُفحِم الذي كتبه الأستاذ يرىٰ عجباً حين يجد الدكتور يضطر للشك في المتواتر من أخبار القرآن بحكم منهج ديكارت، ثم يقبل كل رواية مريضة واهية يذكرها كتاب الأغاني، كحقّ مسلّم يستند إليه في قضية الانتحال، حتى اضطر القارىء إلى الاعتقاد بأن المنهج الديكارتي لا يصلح فقط إلّا حين يجابه الحقائق لا الأراجيف، وإذا كان فريق من الأساتذة الأعلام كالأستاذ الرافعي، والغمراوي، ومحمد لطفي جمعة، ومحمد فريد وجدي، قد مزّقوا كتاب الدكتور تمزيقاً علمياً بما فضحوه من السرقة والتدليس ومُجافاة الحق، فإن الأستاذ الخضر زاد عليهم جميعاً بشيء تفرّد به، وهو غوصه على النصوص العربية من أُمّهات كتبنا العلمية التي جهلها الدكتور، فظن أفكاره في الشك والانتحال والاستشهاد بالقرآن ستكون جديدة على القارىء العربي! وأكثرها مدوَّن بنزاهة في الكتب الأمينة التي حرّفها الاستشراق عن قصد ثم سَطَا عليها طٰه بعد التحريف فثرثر وأطال.

فطٰه مثلاً يقول في (ص ٩): «وينتهي بنا البحث إلى نتيجة غريبة، وهي أنه لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث، وإنما يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله».

والأستاذ الخضر يقول ـ مثلاً ـ في الردّ على ذلك (ص ٢٢): «لم تكن هذه النتيجة غريبة، إلّا عند مَن يتناول البحث خطفاً ولا يمشي فيه على رَويّة وأناة. وقد

أنكـر بعض أهل العلم فيمـا سلف على مَن يتوقف من النحـويين في تقريـر ألفـاظ القـرآن على شاهـد عربي، ومن هؤلاء فخـر الدين الـرازي حيث يقول في تفسيـره الكبير: «وإذا جوّزنا إثبات اللغـة بشعر مجهـول عن قائـل مجهول، فجـواز إثباتهـا بـالقرآن العـظيم كان أولى، وكثيـراً ما أرى النحـويين متحيّرين في تقـريـر الألفـاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا بـه، وأنا شـديد التعجّب منهم فـإنهم إذا جعلوا ورود ذلـك البيت المجهـول على وقفـه دليـلاً على صحته فلأن يجعلوا ورود القرآن على صحته أولى»!.

وأنكر أبو محمد بن حزم على مَن لا يمضي في الاحتجاج بظاهـر القرآن في كتـاب «الفِصَـل»: «ولا عجب أعجب ممّن إن وجـد لامـرىء القيس، أو لـزهيـر، أو لجرير، أو الطرمّاح، أو لأعـرابي أسدي أو تميمي، أو من سـائر أبنـاء العرب لفـظاً في شعر أو نثر جعله في اللغـة، وقطع بـه ولم يعترض فيـه، ثم إذا وجد الله تعـالىٰ خالق اللغات وأهلهـا كلامـاً، لم يلتفت إليه، ولا جعله حجّـة، وجعل يصـرفه عن وجهه»!.

وهكذا نرى في الكتاب عشرات النصوص القويـة التي تسلك مسلكاً جـديداً في الفهم، ولو كانت هذه مزيـة الكتاب الـواحدة لكفتـه فخراً، فكيف إذا لم يـدع شُبهة تحوم إلاّ وبدّدها برأيه ونقله وعقله في بصر وتمكين!.

وكأن المصادفـات العلمية الفـذّة قد هيّـأت للرجل أن يجـول الجولـة الثانيـة بمصر، حين صدر كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، لعالِم من علماء الأزهر، وقـد امتلأ يقيناً بأقوال الاستشراق، فجعلها المنبـع الأول لفهـم الحكم في الإسلام على ضوء ما يفهم الأوروبيون من المسيحية، إذ أن المعروف المتّفق عليه أن المسيحيـة دين لا دولـة، ولكن الإسلام شيء والمسيحيـة شيء آخر، فـالإسـلام دين ودولـة، والرسول حاكم ومُبلّغ معاً، ونصوص القرآن مليئة بما يجعل هذه الحقيقة في مرتبـة البدهيات، ولكن الأستاذ علي عبد الـرزّاق يجهر بـدعواه واهمـاً أنه وحـده صاحب القول الفصل! وقـد تطرّق إلى الـردّ عليه في الصُّحف اليـومية مَن لا يقف معـه في مستوىً واحد.

كما وجد من تساند الإلحاديين وتكالبهم على تأييده بما يملكون من صُحُف وأندية وأقلام، ما يخلع على كلامه بعض الوجاهة لدى الضعفاء.

ولكن السيد محمد الخضر نضّر الله وجهه يتصدّى لهذا الإفك الصريح، فيأتي على بُنيانه من القواعد، وكان مجاله النقدي هذه المرة في قمّة من القوّة والتمكّن والإفحام، لأن الجدال ليس في الرواية والقصص والانتحال كما في أكثر فصول الشعر الجاهلي، ولكنه يدور حول قواعد أُصولية عميقة في الفقه والحكم والتشريع، ويجد من تاريخ الإسلام الحافل برجاله وحوادثه ومؤلفاته ما يُعين على جلاء الشك وردّ الزيغ، لذلك: كان مؤلَّف الخضر حجّة قوية تقود المُنصِفِين إلى مراشد اليقين.

وقد ظلّ الأستاذ علي عبد الرزّاق ضائقاً به، حتى بعد ربع قرن من صدوره، وانتهاء المعركة على نحوٍ يُرضي المخلصين، فقد قرأت بالسنة الثامنة على ما أذكر من مجلّة «لواء الإسلام» كلمة للأستاذ علي عبد الرازق تنبىء عن غضبه الموقد على الأستاذ، وتعيب طريقته في نقد الكتاب، ومجمل العيب في رأي الأستاذ علي عبد الرزّاق: أن الأستاذ الخضر ينقل كل نص من نصوص الكتاب، على حِدَة، ثم يفنّده بالرأي والدليل، وذلك أدعى إلى تمزيق الفصل الواحد وتشتيته.

ونحن نقول للأستاذ علي عبد الرزّاق: إنه قد ظلم الحق فيما قال؛ لأن هذه النصوص تأتي متوالية متعاقبة، وقارىء النقد يستطيع أن يجمعها بسهولة، ليكون كلّ ما جاء بالفصل الواحد من الكتاب، وهي بعد خير وأقوم من مسلك ناقد يلخّص الموضوع من عنده ثم يعقّب عليه، إذ ربما فات من التلخيص شيء هامّ لا يعرفه القارىء المُحايد!!.

ولا ندري كيف يحافظ الخضر على نصوص الكتاب جميعها فلا يُسقِط منها شيئاً ذا بال، ثم يكون ذلك مطعناً يوجّه إليه من ناقد نبيه!.

إن الغيظ وحده لم يستطع أن يخمد في نفس المنقود على تطاول الأيام به، حتى وجد المنفذ على صفحات لواء الإسلام.

ولو كان نقد الأستاذ علي عبد الرزّاق للأستاذ الخضر علمياً نـزيهاً مـا تعرّض لأمور شخصية لا تتّصل بالبحث في شيء، ولكنـه تخيّل المـوهوم ثم خـاله حقيقـة فتيقنه!! على طريقة بعض الناس.

لقد كان تمكّن الخضر في الدفـاع مَدعـاة للتقديـر من ذوي الأحلام، فتقـدّم لامتحان العالمية بالأزهر، وكان الشيـخ عبد المجيـد اللبّان رئيس اللجنـة مع نخبـة من زمـلائه المختـارين، فأبـدى الشيخ من الـرسـوخ والتمكّن مـا أدهش، حتى أن الشيـخ اللبّـان صـاح بمـلء فِيْـه: «هـذا بحـر لا سـاحـل لـه فكَيف نقف معـه في حجاج»؟.

ونال الشهادة العالمية الأزهـرية وبهـا صار أستـاذاً في الأزهر فمـدرّساً بكليـة أصول الدين، بل كانت طريقه فيما بعد إلى مشيخة الأزهر ذات القدر الخطير.

وقد اتّجه الأستاذ إلى تأسيس الجماعات الدينية، فكان أحد مؤسِّسي جمعيـة الشبّـان المسلمين، وقد وضـع لائحتهـا الأولى مـع صـديقـه الأستـاذ محبّ الـدين الخطيب، وقامت هـذه الجمعية بـرسالتهـا المخلصة في هـداية الشبـاب الإسلامي ومحـاربة الإلحـاد العلمي والنَّزق الخلقي، واستـطاعت أن تصدّ هجـوم الحضـارة المُلحِـدَة الماديـة بما تقـوم بـه من نـدوات ومحـاضـرات، ومـا تنشـره من صُحُف ومؤلّفات. وكأني بـالخضر وقـد شاء أن يُنشىء جمـاعة الهـداية الإسـلامية لتسـاند أُختهـا في الدعـوة إلى الله، وقد كـان نشاطهـا علميّـاً أكثـر منـه اجتمـاعيـاً، إذ أن محاضراتها المتتابعة قد وجّهت الأذهان إلى كنوز الثقافة الإسلامية، كما أن مجلتها الشهرية كانت تحمل الروائع من التفسير والتشريع واللغة والتاريخ.

فإذا عرفنا أن مجلة الأزهر ومجلة لواء الإسلام قد ظلّتا سنوات عديـدة تصدر عن رأي الشيخ وتوجيهه، أدركنا جهاده الشاقّ في مضمار الصحافة العلمية الراقية، وعـرفنا مصـادر متنوعـة تجمع إنتـاجه الـدّسِم الفيّاض. هـذا، ولم يَفُتْ الأستاذ أن يحـارب على صفحات هـذه المجلّات جميعهـا ما ينـدّ من الأقـوال المتـطرّفـة في الأدب واللغـة والدين، حتى اختلف في الـرأي مع أنـاس مخلصين لا تـرقى إليهم

الشُّبهــة في علم أو خلق أو دين. ولكن العـلم الأصيــل شـيء غيــر الإخــلاص والخلق، فقـد يكون المخلص الغيـور متسرّعـاً ينظر إلى زاويـة واحدة، فـلا بدّ أن ينـاقشه إنسـان مطمئن، ثـاقب النظر، منفـرج الزوايـا، واسـع الاطّـلاع كـالأستـاذ الخضر، والنقاش بعد سديد مفيد.

هذا وقد اختير الرجل عضواً في المجمـع اللغوي بمصـر، فأبـدى من الآراء السديدة في الإصلاح اللغوي ما تشهد بـه مجلة المجمع ومحـاضر جلسـاته، وهـو أول مَن أعلن بالمجمع صحّة الاحتجاج بالحديث النبـوي، وأحد مَن اشتـركوا في معـارك النقاش اللغـوي حـول الـوضـع الاصـطلاحي، وحقّ المحـدَثين في وضـع الكلمـات، هذا إلى مـا خاضـه من بحوث تتعلّق بـالاشتقـاق والتعـريب والفصيـح والدخيل، وجموع التكسير قياسية وسماعية، مما يشهد بالتخصّص الماهر الفاحص في فنـون اللغة والبيـان، على أنه تقـدّم إلى هيئة كبـار العلماء بـرسالـة في القياس يقول الأستاذ محبّ الدين الخطيب عنها بمجلة الأزهر شعبان سنة ١٣٧٧ هـ:

«وفي أثناء إقامته بدمشق شرع في دراسة كتاب مُغني اللبيب في علم العربية لجمـال الدين بن هشـام، بمحضر جمـاعة من أذكيـاء طلاب العلم بـدمشق، وكان يـرجع في تقـرير المسـائل المتّصلة بـالسّماع والقيـاس إلى تلك الأصـول المقـرّرة والمستنبطة، فاقترح عليه أُولو الجدّ من الطلبة جمع هذه الأصول المتفرّقـة ليكونـوا على بيّنة منها ساعة المطالعة، فألّف مقالات تشرح القياس وتفصّل شروطـه، وتدلّ على مواقعه وأحكامه، ومن هذه المقالات تألّفت رسالـة القياس في اللغـة العربيـة التي أعاد عليها نـظره بمصر». وهي كمـا رأيتها تجمـع الأصول العـالية في أحكـام القيـاس والسّماع، وتضمّ فصـولاً عن شـروط القيـاس وأقسـامـه، وقيـاس التمثيـل والقيـاس الأصلي مع إيضـاح الأمور المشتـركة بينهمـا، هذا إلى أبـواب في فضـل اللغة العربية ومُسايرتها للعلوم المـدنية، وحـاجتها إلى المجتمـع وحاجـة المجتمع إليها، وتأثيـرها في التفكيـر وتأثيـر التفكير فيهـا، وغير ذلـك كثير. فـإذا أضفنا إلى رسالته عن القياس رسالته الأدبية في الخيال العربي، عرفنا جهـد هذا الأديب كمـا عرفنا من قبل مقام ذلك الفقيه.

أما مشيخته الكبرى للأزهر فقد كانت دليلاً على أن الله لا يتخلّى عن رجاله المناضلين، إذ يأبى عدله الرحيم أن يترك هذه الجهود المُضنية في الدين واللغة والأدب تضيع بدداً دون تقدير مادّي ملموس، فرأى الأزهر لعهده حلقة ذهبية من حلقات الكمال والجلال والوقار، وطفق الزائرون من كُتّاب وعلماء وصحفيين يتقاطرون على مكتبه، وكلّهم يسأل عن أمور هامّة في الإصلاح الديني والتشريع الإسلامي، والتقدّم الحضاري، فيجد الإجابة الرصينة السّديدة يفوه بها شيخ الإسلام الدّارس المستنير، ولكن أعباء السنين تتراكم على كاهله الضعيف، فيترك المشيخة معتكفاً محتسباً حتى يلبّي نداء ربّه في ١٣ رجب سنة ١٣٧٧ هـ، وهو التاريخ الهجري الذي كان رضي الله عنه يحرص على تدوينه في كل مكاتبة أو رسالة، ونحن اليوم نسجّل به رحيله الطاهر إلى ساحة الرحمة والرضوان، في جنّة عرضها الأرض والسمٰوات.

عبد العزيز جاويش
المجـــــاهد الكــاتب البطـل

- ١ -

قصّـر تلاميـذ الأستاذ عبـد العزيـز جاويش في حقـه تقصيـراً يَشِي بـالجمـود والعُقوق، فقد كان للرجل من التلاميذ والمُريدين مـا ليس لسواه من الأحـرار، ومع ذلك فلا نجد أحدهم قد قام بالحديث عنه، ومجال القول ذو سعة.

أذكر أن الدكتور زكي مبارك رحمـه الله كان دائم التـرحّم عليه في جلسـاته، فإذا رجعت إلى ما كتب عنـه لا تجد شيئـاً ذا غناء، مـع أنه قـال لي ذات مرة: إن جاويشاً في رأيي أعظم من محمد عبده وجمال الدين.

لقد تحدَّث الدكتور في مقال بمجلة الرسالة العدد (٣٧٥) عن خطبـاء العصر الحديث، وحين تعرّض للأستاذ جاويش قال:

«كان يلقي خُطَبه بأسلوب المـدرّس المتمكّن، وكان يغلب عليـه أن يردّ يـده إلى أُذُنه بصورة مَن يدعو فكـره إلى التجمّع، وكـان يهتف بكلمة (وي) حين يـرى المعاني تشرد أمام فكره القنّاص، فترجع إليه وهي أوانس خواضع.

وكـان الشيخ جـاويش حين يتحـدّث في لحظات الصفـاء أحيـى من الفتـاة البتول، وكان لصوته في أوقات اللطف نبرات عذاب، وكانت له ابتسامـة حلوة إلى حدٍّ يفوق الوصف، وكان لعينيـه بريق جـذّاب، فإذا غضب فحـديثه ونـظراته رعـد

وبرق وصواعق، كنت أدخل عليه في وزارة المعارف بلا استئذان، وكانت الفُرَص كثيرة لمقابلته، لأنه كان يمكث في مكتبه كل يوم نحو عشر ساعات، فيتغدّى في الوزارة كما اتفق ويصلّي فيها الظهر والعصر والمغرب، وقد يحلو له الأنس بالواجب فيبقى بالوزارة إلى أن يصلّي العشاء.

دخلت عليه مرة فوجدت عنده إنساناً منزوياً في إحدى نواحي المكتب، ورأيت الشيخ غضبان والشّرر يتطاير من عينيه فسلّمت تسليماً مختصراً وجلست، وما هي إلّا لحظات حتى انفجر الشيخ كالبركان في وجه ذلك الجليس، فقد صرخ: «مَن يتزوّج بناتنا إذا جاز لكل شاب مأفون ألّا يزور أوروبا إلّا عاد ومعه زوجة فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية، إن الأتراك لا يتزوّجون بناتنا غطرسةً منهم وكبرياء، والمغاربة وهم في مثل حالنا لا يتزوّجون بناتنا إلّا في قليلٍ من الأحوال، فكيف يجوز لشاب أن يترك بنات وطنه للبوار، وهو يعرف في سريرة نفسه أن الفتاة المصرية معدومة النظائر في الجمال وفي أدب النفس، وما الذي يُبهِرك في الفتاة الأوروبية حتى تنسى بها بنت وطنك، ومتى يصير أمثالك رجالاً يعتمد عليهم الوطن وقد حرمكم الله نعمة الوطنية»؟.

وخرج الشاب وهو آسف، وكانت لحظة صمت توهّمت فيها عيني الشيخ جاويش مغرورقتين بالدمع، فطلب فنجان قهوة ثم تكلّف الابتسام وقال: «لا تؤاخذني، فذاك فتىً كان أبوه من أعزّ أصدقائي وما كنت أُحبّ أن ينسلخ عن وطنه بالزواج من امرأة أجنبية».

هذا كلام الدكتور مبارك، ينطق أبلغ نطق بإخلاص الرجل وولائه لعمله، فهو يظلّ في مكتبه عشر ساعات يومياً ليؤدّي واجبه كما يطمئن إليه، ولم يكن يفعل ذلك رغبة في الحظوة لدى الرؤساء! فقد كان وهو مراقب التعليم الأوّلي يتقدّم وزير المعارف، ولا يكترث به ويراه في منطق الواقع أحد تلاميذه الذين يخطئون ويُصيبون.

جاء بعض المستشرقين في زورة إلى القاهرة، فاحتفلت به الدوائر الرسمية احتفالاً رنّاناً، وأسهبت الجرائد في تعداد مآثره وما حقّق من كتب، وما نشر من

موسوعات، وأُقيمت في إحدى دور العلم الكبيرة حفلة لاستقباله شهدها جمهور من ذوي الثقافة، وفيهم مَن لا يزالون يسبّحون بحمد المستشرقين، ويفرحون بما يرجفون به من مفتريات، ليذيعوها على الناس في مؤلّفات تحمل أسماءهم دون حياء. وما حان موعد الاحتفال، حتى نهض وزير المعارف يُكرِم المستشرق الزائر ويفتتح الكلام عن مزاياه ومباهيه، وكان من المتوقّع أن يتوالى الأساتذة الجامعيون ومَن يلفّ لفّهم على منصّة الخطابة ليصلوا بالثّناء إلى منتهاه، ولكن الجمهور فُوجىء بالأستاذ جاويش بقامته الممتدّة وعمامته العالية، وعباءته الفضفاضة، وعصاه الممتلئة يعتلي المنصّة ـ مُقحِماً نفسه ـ بعد أن انتهى الوزير من كلمته، ثم يرسل عينيه المتلألئتين فتُومِضان ببريق يمتدّ إلى ثناياه اللامعة ويدور حول لحيته السوداء ذات المشهد الوقور، ويبتدىء الحديث بحمد الله ثم يقول ما معناه: إن كلمة وزير المعارف تدلّ على أنه لم يقرأ شيئاً عن هذا المستشرق الذي تُكرِمونه، إذ أنَّ المؤلّفات التي تحدّث عنها الوزير وسيتحدّث عنها بالطبع مَن أعدّوا أنفسهم للكلام ليست إلّا طعنات مسمومة للفكرة الإسلامية، وقد قرأتها أثناء إقامتي بإنجلترا، وناقشت صاحبها فلم أجده يخطىء إلّا عن عمد، فهو يدري الصواب، ويتجنّبه، ثم يلتمس أوهى الروايات ليبني عليها ما يروق من التدليس والافتراء! ولو كان لدينا وعي ثقافي لكرّمنا الرجل كضيف فقط لا كمؤلّف علّامة بحّاث!.

قال الأستاذ جاويش ذلك، فارتجّ الحَفْل ارتجاجاً واضطرب الوزير! اضطراب المُحرَج المأخوذ، وتساقط عرق الخزي على وجوه مَن أعدّوا أنفسهم للكلام، وزاد الموقف خطورة حين وقف النائب الباسل، والمسلم العربي الشّهم: عبد الحميد سعيد رئيس جمعيات الشبّان المسلمين ـ فأعلن إنهاء الحفل، وأشار للمستمعين فتسلّلوا منصرفين، بينما جأر الأستاذ جاويش يصيح! يا للمذلّة أوَصل الانهيار بالمسلمين إلى حدٍّ يجعلهم يُقيمون حفلات التكريم لمَن يَصِم دينهم بالتوحّش والغلظة والشهوة والاستعباد! ثم يكون رئيس الاحتفال وزير المعارف، ومتكلّموه أساتذة الجامعة في عاصمة الإسلام.

هذا الرجل الجريء، لم يكن بطبيعة الحال يُقيم في مكتبه عشر ساعات زلفى لوزير أو وكيل، ولكن رسالة التربية والتعليم قد أخذت عليه أقطاره، فهو يرسم الخطوة بالرأي، ثم يتابعها بالعمل والتنفيذ!!.

يقول الأستاذ تشارلز أدمس ـ في كتابه (الإسلام والتجديد في مصر) «وممّن حضروا دروس محمد عبده الشيخ عبد العزيز جاويش، ولكنه كان في حياته السياسية العنيفة أقرب إلى جمال الدين الأفغاني منه إلى الشيخ محمد عبده».

وهذا الكلام حقٌّ لا مِريَة فيه، فجاويش السياسي كجمال الدين، وجاويش المربّي كمحمد عبده، وإذا كان الدكتور مبارك كما سبق يدّعي أنه يفوق الرجلين معاً، فكلامه صدىً مضادّ لما يشهده من جهل الجيل الجديد بجاويش، فالدكتور يحثّ الشباب على معرفة جهاد الرجل، ويقرنه بجمال ومحمد عبده ليجد التأثير لدى المستمعين، وسنعرض الآن طرفاً من جهاده الحفيل.

لقد تعلّم الأستاذ بالأزهر ودار العلوم، ثم سافر إلى إنجلترا طالباً مرة، وأستاذاً للغة العربية بجامعة أكسفورد مرةً أخرى، وقد لمس عن عَيان ما بلغته التربية الإنجليزية فيَ مدارس إنجلترا من تفوّق رائع، ساعد على النهوض بالدولة، ومكّن لرجالها أن يكونوا ذوي السيطرة على شتّى الممالك في مختلف القارّات، ثم قرن ذلك بما انحدرت إليه التربية في مصر على يد الاحتلال، فأيقن أن إصلاح طرق التعليم، وإعداد مناهج التربية على وجهٍ صحيح مما يدفع البلاد إلى الحرية الصحيحة، والكرامة المُثلى، لذلك عاد من أوروبا وفي رأسه منهج واضح المعالم للتربية والتعليم.

لقد أُسنِدت إليه وظيفة التفتيش على المدارس في عهد تمكّن فيه دنلوب الإنجليزي من طمس مشارق الحرية وإطفاء مشاعِل التفكير في معاهد التعليم، فالطلاب آلات تحفظ دون أن تفهم، كلّ ما تفعله المدرسة أن تُخرّج جماعات من الموظفين يسدّون ثغرات النقص في المصالح الحكومية والإدارات المهنية، أما أن تُخرّج جيلاً يعشق الفكر، ويرسم المنهج ويحدّد الغاية، كما في بلاد الإنجليز

فذلك ما يتحاشاه المستشار الدخيل! لقد كانت مهمّة التفتيش في هذا الأُفق الأكدر العابس مما يُرهِق المُصلِح الغيور، ولكن عبد العزيز تسلّح لها بذخيرة أُولي العزم من المُثابرين، فكانت توجيهاته التربوية تعمد إلى اللّباب الخالص من وسائل التقدّم والارتقاء! فشنّ الغارة على التلقين الشفوي دون استبصار وتمحيص، ثم رأى أن يسجّل أفكاره في كتاب تربوي يقود المدرّس إلى مراشد النور، فوضع مؤلَّفه: (غنية المؤدّبين) فكان أول كتاب مصري يفرّق بين معنى التربية ومعنى التعليم، ويدعو إلى الاستنباط والتعليل والحوار في الدرس، ويهاجم الإلقاء الخطابي، والاستظهار اللفظي، كما يدعو إلى القدوة الصالحة حين يريد من المدرّس أن يكون مِثالاً حيّاً بشخصيته، لا كتاباً جامداً بمعلوماته، ثم يقول في صدد ذلك:

«ويهمّنا أن يكون المعلّمون في سيرهم وأخلاقهم مِثالاً حسناً من جميع الوجوه لتلاميذهم ولمَن جاورهم من الناس، وعليهم أن لا يقتصروا على تعليم تلاميذهم المواد المقرّرة في فهرس مواد التعليم، بل يجتهدوا في تعويدهم المحافظة على الأوقات، وعلى الجدّ والطاعة، والتأمّل في الأمور، والذّوق في المعاملة، والشفقة بالناس».

وقد تابع الرجل منهجه التربوي حتى بعد استقالته المُفاجِئة من وزارة المعارف، وخوضه معركة الحرية رئيساً لتحرير جريدة اللواء، وخَلَفاً للزعيم الوطني الشابّ: مصطفى كامل في مضمار الصحافة! فقد كان الحزب الوطني يُقيم الاحتفالات الكبيرة في عواصم البلاد العربية لمحاربة الاحتلال، فيصول المتكلّمون في تعداد رزايا الاستعمار، فإذا جاء دور جاويش أعلن أنه يكتب كل يوم في افتتاحية اللواء كلمة سياسية تعبّر عن رأيه، وأنه بعد أن أسهب زملاؤه في مسائل السياسة يخصّ بكلمته معاضل التربية والتعليم، ثم يفيض في الحديث عن مدارس البلاد، ومبلغ تأخّرها الصّارخ عن ركب التقدّم الثقافي، ويستعرض المدارس الأميرية والمدارس الأجنبية والكتاتيب الابتدائية، فيصوّر عيوب هذه

الدُّور ويدعو إلى تغيير أساليبها وتعديل برامجها، مقارناً ما انحدرت إليه التربية في مصر بما ارتفعت إليه في شتى عواصم أوروبا.

وكان جاويش يتحدّث في المجتمعات الحافلة لأول مرة عن أقسام التربية وأنواعها من خلقية وعقلية ووجدانية، ثم يدعو إلى إنشاء مدارس (رِياض الأطفال) ويضع مناهج التربية بها، وينادي بضرورة إيجاد معاهد خاصّة بالتجارة والصناعة والزراعة والتربية النسوية، ويفصّل الكلام على كل معهد، ثم يَعِد المُستمعين بأنه سيفيض في برامج هذه المدارس بصحيفة الهداية التي يديرها. ويظلّ الرجل عاكفاً على الدعوة التربوية كما لو كان متخصّصاً في ميدانها، مع أنه زعيم سياسي يواجه القرّاء يومياً بآرائه الحرّة في الاستقلال وحملاته النارية على الاحتلال...

وقد نزل إلى الميدان التطبيقي حين أسّس المدرسة الإعدادية لتكون بعيدة عن سلطة المستشار الإنجليزي، فاختار لها أساتذة أجِلّاء من ذوي الرأي في الأمة، ووضع برامجها التعليمية بحيث تنشىء الوطني الحرّ الغَيور، ووكّل نظارتها لأستاذ قويم الخلق سديد الرأي، ثم اختار من طلبتها النوابغ فريقاً ممتازاً سافر بهم في بعثة تعليمية إلى باريس، وأشرف على حاجاتهم ومطالبهم هناك بنفسه، حيث هيّأ لهم المسكن الطيّب والجامعة النافعة، ثم ودّعهم توديعاً حارّاً بعد أن وضع لهم دستوراً خلقياً يعصمهم به من فتنة الشهوات في باريس، ويدفعهم إلى النّهم العلمي، ولم ينسَ أن يصف لهم مسؤولياتهم الخطيرة أمام الشعب المضطهد، وقد وضع فيهم آماله وأخذ يراقبهم على البُعْد، بنفس متطلّعة ويحلم بمستقبلهم الناضر حين يرجعون مُزَوّدين بالنور والعلم والثقافة، فيكونون مشاعِل هادِية تُضيء الطريق.

على أن إصلاح المدرسة لم يكن كل جهده في مضمار التربية الشعبية، بل اتجه إلى إصلاح الأسرة باعتبارها نُواة المجتمع. ووالى خطبه في المؤتمرات السياسية متّجهاً وِجهة الأسرة، وكانت دعوة التحرير التي قام بها قاسم أمين قد أحدثت بلبلة مضطربة في كثيرٍ من النفوس، فأخذ الأستاذ جاويش على عاتقه أن

يبيّن وضع الأسرة في الإسلام، وأن ينظر إلى واقع مجتمعه نظرة الخبير الذي يلمس الدّاء، ومع أنه قد أفرد حيّزاً كبيراً من جريدة اللواء لمعالجة موضوع المرأة بكل صراحة ووضوح، وسمح للأقلام المتعارضة أن تُبدي وجهات نظرها المختلفة ليظهر الحقّ بعد التمحيص، فقد كان لا يَني عن الخطابة والتحدّث في هذه الناحية ما استطاع، وقد عقدت الحكومة المصرية في سنة ١٣٢٩ هـ مؤتمراً عامّاً لمناقشة وسائل التقدّم الاجتماعي، فنهض الأستاذ بعبئه الضخم إذ ألقى بحثاً شافياً عن الأسرة في رأي الإسلام، وقد مهّد له بأصول فقهية هامّة تجعل رعاية الأصلح واختيار أهون الشرّين، وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح، وتحمّل الضرر الخاصّ لدفع الضّرر العامّ، وأشباه ذلك من قواعد عامّة فضفاضة تتّسع لما يتطلّبه العلاج الاجتماعي من تقنين.

ثم تحدّث عن الزواج والطلاق، وأبدى الأصول النظرية لوضع الزوجة في التشريع الإسلامي، وأفصح عمّا يجب أن يلتفت إليه المقنّن الحديث من هجر الآراء الحشوية لجامدي الفقهاء، مع النظر الأوسع إلى القضايا الكليّة ذات الشمول العامّ، وكانت كلمة الأستاذ في المؤتمر فصل الخطاب كما وصفها الحاضرون. ولعلّنا بعدما بسطناه من جهده الحفيل في ميدان التربية مدرسة وأسرة نلمح تأثّره الشدّيد بأفكار محمد عبده، واحتذاءه إياه فكراً وهدفاً وإصلاحاً، في بعث جيل مستنير ينهض بالشرق العربي المسلم، كما أن تفسير جاويش للقرآن في أعداد مجلة الهداية كان قريباً من تفسير الإمام، ونحن نعلم أن ملكة البيان الناصع لدى جاويش الأديب أتمّ وأكمل منها لدى محمد رشيد رضا العالم، فلا عجب أن كان في منحاه التفسيري أقرب إلى محمد عبده من صاحب المنار. وهما بعد غصنان مورقان في دوحة الإمام الأستاذ.

- ٢ -

إذا كان جمال الدين الأفغاني صاحب النظرة الواسعة في المحيط الإسلامي، ينتقل في شتّى ممالكه من عربية وأعجمية ليعلن أن أمة الإسلام واحدة، وأن

المسلمين في شتّى بقاع المعمورة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسهر، إذا كان جمال الدين الأفغاني صاحب هذه النظرة الواسعة، فإن جاويشاً قد أخذ عنه مبدأه، فكان امتداداً له، يتحدّث عن آمال المسلمين وآلامهم في كل مكان يرتفع فيه الأذان، ويقوم برحلاته المختلفة إلى تركيا والمغرب والقدس ومكة ليجمع أصحاب التوحيد على قلب رجل واحد. وكان وجود مثله ضرورة هامّة في عصره، إذ أن أشباه المثقفين من ذيول الاستعمار أخذوا يردّدون جاهدين ما يقوله المغرضون من أن الشعوب الشرقية الضعيفة أصفار هزيلة، إذا اجتمع الصفر إلى الصفر لا يؤدّي إلى رقم في نتيجته غير الصفر، وأن على كل أمة تريد النهوض أن تحالف دولة أوروبية ذات سلطان ونفوذ، ثم زادوا فنادوا بالدعوة إلى اللغة المحلية في كل إقليم عربي، لتكون لغة المصري غير لغة العراقي والسوري والتونسي والحجازي واليمني، ولم يعدموا الأدلة الموهومة فلجؤوا إلى مضاهاة العربية باللاتينية وما تفرّع منها من اللغات، يريدون أن يقطعوا ما بقي من الأواصر الوطيدة بين شعوب الضاد، بل يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم حين يدعون متسترّين إلى نبذ لغة القرآن.

وقد اتّسعت الصُحُف المُغرِضَة للخوض في أمثال هذه الأراجيف، حتى عنَّ لبعض الممخرقين من دُعاة التجديد في مصر أن يكتب مقالاته باللغة العاميّة، ثم عدل عن ذلك حين رأى الوعي العربي يستيقظ فينحي عليه بالسّفه وينبذ مقالاته نبذ النواة! في هذا الجوّ العَفِن الآسن قام الأستاذ جاويش بدعوته إلى الاهتمام بشؤون المسلمين كافّة دون تفريق بين قطر وقطر، فأخذ يتحدّث عن العالم الإسلامي ويعدّد ما ينتابه من المشكلات، ويحارب الاستعمار في كل أمة تدين بهدى الله، فهو يكتب المقالات الافتتاحية في جريدة اللواء، ومجلة الهداية ناظراً إلى الدائرة الواسعة التي يجب أن تحيط بها عين المسلم البصير، ولم يكترث بهؤلاء الذين يتهكّمون باتجاهه، بل ردّ كيدهم في نحورهم، حين أعلن أن الإسلام وطن المسلم الأول، وأن الدين رابطة أولى دونها رابطة الجنس واللغة والمناخ، وقد عبّر عن مبدئه أحمد شوقي أصدق تعبير حين قال في رثائه:

لقــد نسي القــوم أمس القــريب	فـهــل لأحــاديثـه مـن مُـعـيــد
يـقــولــون مــا (لأبـي نــاصــر)	ولـلتــرك مــا شــأنــه والهـنــود
وفِيمَ تـحـمّــل هـمّ الـقــريـب	مـن المسلمين وهـمّ الـبـعـيـد
فـقلت ومــا ضــرّكـم أن يـقــوم	مـن المـسـلمـيـن إمــام رشـيــد
أتـسـتــكـثــرون لــهــم واحــداً	وليّ القــديم نصيــر الجــديــد
يــشــدّ عُــرا الــديـن فــي داره	ويــدعــو إلى الله أهــل الجحـود
ولـلقــوم حـتــى وراء القِــفــار	دُعــاة تـغـنّــي ورُســل تـشـيــد

أي، الله، للأوروبيين من مبشّري المسيحية وراء القِفار في مجاهل أستـراليا وغابات أفريقيا وفَيافي آسيا قساوسة يدعون إلى النصرانية فـلا يقول أحـد غير أنهم رُسُل الإنسانية والتسامح والإخاء، فإذا قام الأستاذ جاويش بـرسالتـه المحمديـة في بلاد الإسلام قيـل: إنه متعصّب متشـدّد لدود!! مـع أنه ينشـر تعاليم دينـه في أهله وذويه.

لقد كان من عادته نضّر الله وجهه أن يكتب في مبتـدأ كل عـام هجري مقـاله الـرنّان (العـالم الإسلامي في عـام) فيتبـع أهم مـا وقـع في السنـة المنصـرمـة من أحـداث، ويذكـر أسباب المِحَن المتـوالية على الشـرق المستضعف، ويحذّر ممـا ينتظر أن تتمخّض عنه الأيام من مِحَن متشابهـة تظهـر مقدّمـاتها الهـائلة لتعلن قرب النتيجـة الكريهـة، ثم يسرد آراءه في مـواجهة هـذه الصعـاب. وسنلخّص عنـاصـر إحدى مقالاته حتى يرى القارىء كيف كان عبـد العزيـز ينظر من أُفقـه الواسـع إلى تيّـار الأحداث، لقـد كتب بالجـزء الثاني عشـر من مجلة الهـدايـة في مـطلع عـام ١٣٢٩ هـ يتحـدّث عن السنة المـاضية، فيستعـرض هذه الـوقـائـع التي نشيـر إلى عناصرها فقط تجنباً للإسهاب:

١ ـ عقـد المحالفـة البغيضة بين أسبـانيا ومـراكش بضغط إنجلتـرا لاحتـلال الريف.

٢ ـ فرنسا ترسل جيوشها إلى الدار البيضاء بدعوى تأييد السلام.

٣ ـ معاهدة إنجلترا وفرنسا السرّيّة لاقتسام الأسلاب.

٤ ـ انقضاض إيطاليا الباغية على طرابلس الغرب واحتلال البلاد الليبية.

٥ ـ مساعدة إنجلترا لكل دولة صليبية تحتل بعض ديار الإسلام.

٦ ـ عقد معاهدة بين إنجلترا وروسيا لتقسيم البلاد الفارسية إلى مناطق خاضعة للنفوذ الغربي.

٧ ـ واجب المسلمين في كل مكان نحو هذه النكبات.

هذا بعض ما كان يفيض فيه من الحديث نحو شجون المسلمين، أما إسهامه العملي في إعلاء الفكرة الإسلامية فأوسع من أن يحيط به كاتب سريع، فقد أُبعِدَ مرات إلى تركيا منفيّاً من مصر، فواصل الدعوة الإسلامية، وأصدر بالآستانة صحائف (الهداية ـ الهلال العثماني ـ الحق يعلو) كما طلبت الحكومة المصرية تسليمه لما شاع عنه من كتابات منشورات دورية لمحاربة الاحتلال.

ومما يُذكَر له بالخير أنه أنشأ الجامعة الإسلامية سنة ١٩١٤ بالمدينة المنوّرة، ووضع أساسها العملي، ثم أعاد إصلاح كليّة صلاح الدين بالقدس الشريف، وعُهِد إليه بإدارتها، وسافر إلى إنجلترا لإنشاء أسطول إسلامي بوساطة بعض الأغنياء من مسلمي الهنود، وتزعم الدعوة إلى التبرعات وإرسال الذخائر، وتهريب القوّاد الأتراك لمحاربة الاحتلال الإيطالي في طرابلس، وبعد قيام الحرب العالمية الأولى: أخذ يتنقل ما بين ألمانيا وتركيا والشام جرياً وراء ما يبتغيه من إنقاذ الممالك الإسلامية الرازحة تحت نير الاستعمار، وقد أنشأ عدّة مجلّات في إستنبول وسويسرا للدفاع عن حقوق العالم الإسلامي، ثم اشترك في مؤتمر الدفاع عن الأمم المهضومة في استكهولم، وما زال يتحمّل قسوة التشريد ورهق التنقّل مع ضيق ذات اليد وجَسَامَة التَّبِعات حتى اضطر إلى الاحتطاب ببرلين في بعض سِنِي الحرب، ليجد ما يمسك الرّمَق من الطعام!! وإني لأتصور هذا المُجاهد الفذّ يعضّه الجوع في بلاد الغرب ساعياً وراء مبدئه النبيل فتطفر الدموع من عيني حسرةً

على أمة كانت تتخم كل انتهازي مأجور، وتُجِيع كل حرّ عيوف، بـل يطرد ويشـرّد حتى يلجأ إلى الاحتطاب المُهين! وعزاؤه ما ادّخره الله من المثوبـة لأولي العزم من المجاهدين!.

وقـد انتهى به المـطاف إلى تركيـا، فَعُيِّنَ أيام كمـال أتـاتـورك رئيسـاً للجنـة الشؤون الإسلامية بأنقرة، ولكن ما تورّط فيـه الزعيم التـركي من مهاجمـة الخلافـة الإسلامية، والقوانين الدينية، جعل عبد العزيـز يزأر في وجهـه، وينادي بمعـارضته ثم يرحل مختفياً إلى مصر، ليستأنف جهاده في حقل التربية والتعليم.

هذا ما كان من جهاده السياسي خارج مصر، أما دوره البارز في قيادة الحركة الوطنية في وادي النيل فسنلمع إليه ببعض الحديث.

حين سافر الأستـاذ: إلى إنجلترا للمـرة الثانيـة أستاذاً للغـة العربيـة بجامعـة أكسفـورد، تبوّأ منصبـه عن جدارة واستحقـاق، فشاهـد الطلاب منـه نموذجـاً حيّـاً للمدرّس البحّاثة المستنير، وعزّ عليهم أن يكون هذا النابغة الموهوب مسلماً يـدين بدين الخرافات والأساطير كما يتوهّمون، فأخذوا يتحلّقون حوله في أوقات الفراغ، ويناقشونه فيما يعتقـد من الآراء، فإذا اتجـه الحديث إلى الـدين الإسلامي أسهبـوا فيما يأخذونه عليه من مآخـذ، فهو في رأيهم دين الـرقّ والحريم والقتـال والتوحّش وتعدّد الزوجات وعبادة محمّد، والمُنصِف المُجامِل منهم مَن يرى أنـه لا يصلح إلاّ للقبـائل الصحـراوية والأمم البـدائية في أزمنـة ما قبـل العصور الـوسـطى، دون أن يحمل عناصـر الرقيّ للقـرن العشرين ومـا يليه! فـإذا سألهم الأستـاذ عن مصادرهم الخاصّة بالإسلام قدّموا إليه ما كتبـه المبشّرون من القسـاوسة والمتجـرون من ذوي الاستشراق، وهؤلاء وأولئك معاً يتبعون قسمـاً خاصّـاً في وزارات المستعمرات، إذ يأخذون مرتّبات مُغرية ليقوموا بدورهم المنحدر في تشـويه الحقـائق وتمويـه الآراء فيكـونوا أسلحـة باتِـرة تُسَلّط على رِقاب الغـافلين من القرّاء في الشـرق، وأحجبـة مظلمة تطمس معالم الحق في عيون المتطلّعين إلى المعرفة في الغرب.

فكان الأستاذ يستمع إلى هذه الأراجيف ثم يُجيب عنهـا بما يكشف ظلمـات الباطل، حتى سـطعت شمس الإسلام على يـده في عقول الكثيـرين من تلاميـذه، وحتى صاح أحدهم في أثناء حواره مع الأستاذ يقـول: إذا كان الإسـلام ما نسمعـه منك فهو دين الفـطرة لا سواه، وقـد راقت هذه العبـارة عبد العـزيز جـاويش فجمع هــذه الشبـه في بحث علمي سمّـاه (الإسـلام دين الفطـرة). ثم تـلاه في مؤتمـر المستشرقين بالجزائر سنة ١٩٠٥، فاستمع إليه إذ ذاك الزعيم المجاهد محمد فريد وأُعجب به إعجاباً كبيراً، وحين خَلا مكان رئيس التحـرير بجـريدة اللواء بعـد وفاة مصطفى كامل لم يجد محمد فريد مَن يملؤه غير عبد العزيـز جاويش، فـأسند إليـه رئاسة التحرير، وأصبـح منذ ذلـك الحين صاحب الـرأي الجهير في سيـاسة مصـر ومحاربة الاستعمار.

كان قلم الأستاذ من التأثير والسّطوة بالمكان المهيب، فما كانت تحلّ غـاشية من كوارث الاحتلال في مصر أو تلوح نذرهـا في الأفق حتى ينهض جاويش منـدّداً بمسـاوئها الأليمـة، ومُحاربـاً أعوان الاحتـلال من المستـوزرين وأربـاب المنـاصب الخشبية التي يديرها أصبع المعتمد البريطاني كما يريد، وقد ضاق به خصومه أشدّ الضيق، واهتبلوا الفُرَص لمحاكمته والإطاحة به ليستريحوا من نضاله المـرير، وقـد واتتهم الفـرصة حين كتب الأستـاذ مقالـه الناري بجـريدة اللواء (٢٨ مـايو ١٩٠٨) تحت عنـوان «دنشواي أخـرى في السودان ٧٠ مشنـوقاً و١٣ سجينـاً» فتحـدّث عن جريمَة الاستعمار الإنجليزي في إبادة سبعين سودانياً دون جريـرة سوى غيـرة بعض السودانيين على شرفهم حين همّ بالاعتداء عليهم ضابطان إنجليزيان، فحـالوا دون ما يبتغيان ودارت معركة أسفرت عن قتلهما في حومة العدوان! فكان الجزاء الرادع أن يقتل بهما سبعون ويسجن ثلاثة عشر من الأبرياء! وظهر مقال الأستاذ ليكون أول صوت يجلجل في صُحُف الشـرق بالمـأساة فـاهتزّت لهـا الدنيـا، واجتمع مَجلس العموم البريـطاني ليعلن غيظه من صـاحب القلم الصاعق، ورأى المستـوزرون في الحكـومة المصـرية أن يلبّـوا رغبة سـادتهم المحتلّين، فقدّمـوا الرجـل للمحاكمـة بدعوى نشر أنباء كاذبة لم تتحقّق، ولكن الأستاذ ومعه نخبة من رجال المُحاماة قـد

استطاعوا أن يُبرِزوا صِدق هذه الوقائع ويُعلنوا أن الكاتب الكبير لم يخرج عن أمانة القلم حين بيّن للناس ما يفعله المحتلّون بإخوانه المسلمين! واضطرت المحكمة إلى إعلان براءته، فخرج من ساحة القضاء مرفوع الرأس، وحملته الجماهير هاتفة مُصَفّقة إلى دار اللواء.

ثم جاءت ذكرى دنشواي، فكتب الأستاذ في مأساة هذا اليوم مقالة رنّانة كان لها وقع الصاعقة على الاحتلال إذ أن جميع أساتذة المعاهد وطلّاب المدارس قد سارعوا إلى حفظها كنشيد وطني تردّده البكر والآصال، وقد أحدثت من التأثير والفزع في نفوس أبطال المأساة ومُجرِميها من رؤساء الاحتلال وصنائعهم المرجفين ما جعل النيابة العامّة تطلب إدانة الأستاذ بتهمة إثارة الرأي العامّ، فعقدت جلسة عاجلة لمحاكمته وبُيّت الأمر بليل، إذ صدر الحكم قبل المناقشة فقُضِي على الكاتب الكبير بحبسه ثلاثة أشهر، وأراد الشعب المجاهد أن يردّ على هذا الظلم الصارخ فأعلن اكتتاباً عامّاً يشترك فيه العامل والفلّاح والموظّف والتاجر ليقدّموا وِساماً ذهبياً إلى الأستاذ، سُمّي إذ ذاك بوِسام الشعب. وما حانت ساعة انطلاقه من الحبس حتى أُقيمت له حفلة تكريم كبرى في فندق شبرد، وتقلّد فيها الأستاذ وِسام الشعب في مظهر وطني رائع، تحدّثت به الركبان، وكان وِسامه بين الأوسمة قمّة لا تُنال.

لا تَسَلْ عن ضيق الاستعمار الإنجليزي بكفاح عبد العزيز، فقد أخذت الصُّحُف الإنجليزية تشنّ عليه الحملات الظالمة، وتراه عدوّ الاستعمار الأول في مصر، وخرجت جريدة الأجبشيان غازيت تقول لقرّائها في مرارة: ربما كان من فائدة إلغاء الإعانة وعدم إمداد نظارة المعارف بمدرّسي العربية في جامعات إنجلترا ألّا يعود منها رجال شديدو العداوة والكراهية، ومن ألدّ خصوم إنجلترا كالشيخ عبد العزيز جاويش الجالس على كرسي مصطفى كامل باشا في دار اللواء.

وقد ردّ الأستاذ جاويش على هذا الهراء بمقال جيد قال فيه: «ونحن نقول للغازيت إنها أخطأت فيما قالته فإن سفر المصريين إلى بلاد الإنجليز لا يجعلهم أعداء للإنجليز ولكن للاحتلال والمحتلّين.

نصحني المستر دنلوب أيام سافرت إلى أكسفورد أن أقتدي بما أراه من الأخلاق الفاضلة في هذه الأمة العظيمة، فماذا جرى؟ ذهبت إلى تلك الديار، فوجدت الناس متمسّكين بدينهم فزادوني تمسّكاً بديني، رأيتهم شديدي الحرص على لغتهم فزادوني حرصاً على لغتي، أبصرتهم يتفانون في الدفاع عن بلادهم، ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شؤونهم أو التصرّف في أموالهم ورِقابهم، فأخذت أُحاكيهم في هذه البلاد السيئة الحظّ بالاحتلال وأشياعه، ورأيتهم يحبّون الصراحة ولا يخشون معتبة، ولا يتهيّبون متعبة ما دام الحق لهم، فأخذت أُحاكيهم في تلك الفضائل التي نصح بها إليّ عمادهم بنظارة المعارف العمومية. أبصرتهم يحبّون العمل، ويكرهون الكسل، ويحضّون على الفضيلة، فعدت إلى بلادي، ثم صرت أشتغل بهِمّة لا تعرف المَلَل ولا الانقطاع».

وما لبث الاحتلال متربّصاً بالبطل المكافح حتى قدّمه للمحاكمة مرة ثالثة ـ وقُضِيَ عليه بالسجن ـ لأنه كتب مقدّمة أدبية لديوان شعري يدعو إلى الوطنية، وقد قابل هذه المرهقات بعزيمة البطل الباسل، حتى ضاقت به البلاد فغادرها متنقلاً بين عواصم الدول الأوروبية والشرقية، داعياً إلى الحرية والاستقلال، شريداً لا يمسك الرمق من فُتات الطعام أو يستر الجسم من خشن الثياب، وبعد كفاح طال أمده رجع إلى مصر متخفّياً في حيلة بارعة ليُوالي جهاده المرير، وكانت الغربة والضيق والتشرّد قد نالت من صحته، فآثر العمل الهادىء نوعاً ما في حقل التربية والتعليم، فعُيّن في سنة ١٩٢٥ مراقباً للتعليم الأولى، وأظهر من اليقظة والكفاءة ما تشهد به أعماله الخوالد، وظلّ بمنصبه حتى لَقِيَ ربّه في ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ ولم يتجاوز الثالثة والخمسين أو الخامسة والخمسين من عمره الشاقّ الجهيد! فجزع عليه تلاميذه وقرّاؤه، وما زالت مراثي شوقي، والجارم، وشكيب، ومطران، ومحرّم، وعبد المطّلب تتردّد على الألسنة حسرةً عليه وتمجيداً لذكراه. . .

عبد الحميد بن باديس
الإمـــــام الجــزائري المجاهد

- ١ -

حين قامت فرنسا باحتلال مصر كان من خطة داهيتها الكبير نابليون بونابرت، ألاّ يُظهِر عداءه السافر للإسلام، فوزّع المنشورات المتلاحقة، تعلن احترامه لنبي الإسلام وشعائر المسلمين، وتدعو إلى المحافظة على المقدسات الإسلامية: من مساجد ومشاعر، كما حاول أن يتألّف قلوب الصفوة من علماء الأزهر، فجعلهم أعضاء في مجلس الديوان، ظنّاً منه أنه يستطيع بهذه المُداراة الخادعة أن يذلّل طريق الاستعمار الفرنسي في مصر، ولكن يقظة الشعب الغَيور قد فطنت إلى خداع الداهية الأريب، فقامت الثورات المتلاحقة في وجه الحملة الفرنسية، واضطر نابليون إلى أن يغادر القاهرة تحت ستار الظلام، ولَقِيَ خليفته الطاغية كليبر مصرعه بيد عربية باسلة، ثم حملت الجيوش الفرنسية عارها، وجَلَت عن الديار يائسة فاشلة، بعد كفاح مرير أعقب لها المذلّة والهوان.

أرادت فرنسا أن تثني الدور البغيض في أرض الجزائر فاستطاعت بعد ثلاثين عاماً من فشلها في مصر أن تعبّىء قوّتها الباغية لاحتلال الجزائر، ولم تشأ أن تُخفي حقدها على الإسلام كما حاول نابليون في مصر، بل أعلنت في وقاحة لئيمة أنها أرسلت كتائبها إلى شعب همجي، ليستضيء بنور الإنجيل، وتوجّه المسيو كليرمون وزير حربيتها آنذاك إلى ملك فرنسا بقوله:

«لقد أرادت العناية الإلّهية أن تُثير حمية جلالتكم للقضاء على ألدّ أعداء المسيحية، ولعلّه لم يكن من باب الصدفة أن يدّعي ابن لويس التُّقىٰ لكي ينتقم للدين والإنسانية، وربما يسعدنا الحظ فننشر المدنية بين السكان الأصليين ونُدخلهم في النصرانية».

ثم جاء بعده الكردينال لافيجري ليقول: «يجب أن نجعل من الأمة الجزائرية مهداً لأمة مسيحية كريمة، وأن نُضيء أرجاءها بنور مدنية وحيها الإنجيل، وأن نربط مصير أفريقية بحياة الشعوب المسيحية، تلك هي رسالتنا الأبدية».

وفي ضوء هذين النصّين الخطيرين نستطيع أن نفهم الرسالة الأولى التي اعتنقتها فرنسا، يوم أن سيّرت جيوشها لاحتلال الجزائر، وقد أغراها على العدوان الآثم مع مهمتها الصليبية الفاتكة ما تعرفه من خصب البلاد، وكثرة خيراتها، حيث أن بها أكثر من عشرين مليوناً من الأفدنة الزراعية، تنتج أعظم خيرات الله من ثمار وحاصلات، غير الغابات التي تزدحم بالنخيل والكروم والزيتون، مما يصل بمساحة الأرض المزروعة إلى نحو خمسين مليوناً من الأفدنة لو وجد الاهتمام العلمي الناهض بشؤون الحرث والتثمير، هذا إلى الثروة المعدنية الهائلة التي تتراكم في طبقات الأرض: من فحم وحديد ورصاص وزنك ونحاس ومنجنيز وفوسفات وبترول وكبريت.

لقد كانت دواعي الإغراء إذن أكبر من أن تقاوم، فصمّمت فرنسا على أن تلتهم البلاد بأيّ ثمن يعظم أو يجلّ، ورسمت لذلك خطّة جريئة هي فَرْنَسَة البلاد، واعتبارها جزءاً من فرنسا. ولقد قام علماء البيلوجيا بدورهم المُغرِض في تثبيت الخرافة القائلة: بأن الجزائر جزء من فرنسا، فأثبتوا في غشّ مفضوح أن الشمال الأفريقي كان منذ القِدَم متّصلاً بالساحل الجنوبي لفرنسا، في سلسلة جبال واحدة، ثم تصدّعت الأرض ببعض عوامل الزلازل والبراكين في عصور متقادمة، فأحدثت شقوقاً كبيرة، كان من أهمها بوغاز جبل طارق، ومضيق مسينا!.

وإذن فأرض الجزائر امتداد طبيعي للأرض الفرنسية، بل إنها في رأي بعض السياسيين ألزم لفرنسا من الناحية الاجتماعية والعمرانية من سهول نورماندي الفرنسية ذاتها!.

وتحت تأثير هذه الأباطيل قامت الاستعدادات الظالمة لِفَرْنَسَة البلاد، ومطاردة العربية والإسلام بأقسى ما يتصوّر من إبادة وتشريد وسحق واستئصال!.

كان الإسلام الهدف الأول للطعن والافتراء، فانتصبت الدعايات المسمومة ترميه بالتأخّر والهمجية والجمود، وتعدّه شريعة متخلّفة، كانت تصلح للصوص البدو، وذؤبان الصحراء في قديم الأجيال، وأقدمت جيوش الاحتلال على هدم المساجد وإغلاق المدارس والكتاتيب في غلظة وحشية، وحاربت القضاء الشرعي محاربة ضارية حاقدة.

ولا يظن القارىء أننا نسترسل دون تحقيق، فإن الإحصاءات الفرنسية الرسمية نفسها تثبت ذلك بما لا يقبل الريب، وحسبك أن تعلم أن مدينة الجزائر كان بها وحدها مائة واثنا عشر مسجداً، فلم تُبْقِ السلطات الفرنسية منها على غير خمسة مساجد! وتحوّل الباقي إلى كنائس أو دُور للإدارة. ومن المساجد التي حُوِّلت إلى كنائس مسجد كتشاوة الذي أصبح كاتدرائية، ومسجد علي تبشني الذي أصبح كنيسة تسمّى بكنيسة قدّيسة الانتصار!.

أما اللغة العربية فقد وضعت القوانين الماحقة لإبادتها، إذ أعلنت فرنسا: أن اللغة الفرنسية هي لغة الدولة الرسمية، وأصدرت قوانين صارمة تحرّم أن يقوم مسلم ما بإدارة مكتب للغة العربية إلّا بتصريح من قائد المنطقة، فإذا اتجه عربي غيور إلى المطالبة بهذا التصريح اعتقل أو أُعدم، ثم فتحت المدارس الفرنسية، لتضمّ شذّاذ الآفاق، ممّن جلبتهم فرنسا من شتّى الأقطار الأوروبية لتعمير البلاد!!، وكانت المناهج التعليمية لا تعتبر اللغة العربية مادة تستأهل الدراسة، وكذلك الدين الإسلامي، ولكنها تركّز اهتمامها بتاريخ فرنسا القديم والحديث، والتغنّي بما تنسبه لنفسها من حرية وحضارة ودعوة إلى المساواة والإخاء!! فإذا أُتيح

لنسبة لا تتجاوز ١٠٪ من أبناء الجزائر، أن يلتحقوا بهـذه المدارس وجّهتهم وجهـة مهنية، يستعدّون بها للأعمال الوظيفية بمكاتب الحكومة فحسب! .

كمـا بُذِلَت المحـاولات الدّائبـة لإحياء اللغـات البربـرية والتحـدّث بهـا في المجلس النيابي، وخلق مبررات الصدام بين العرب والبربر، لتصبح اللغة العـربية بالجزائـر أثراً بعـد عين! فهي لغة القـرآن، وبها تُقـام شعائـر العبادة في الإسـلام. ولكن تغلغل هذه الشـريعة السَّمحَـة في النفوس قـد بعثها على المقـاومة الـدائبة، حتى تمّ لها النصر بعد كفاح طويل أظلم ليله واستطال، وكان أعظم أبطال المقاومة الفكرية في ميدان الثقافـة والتوجيـه المُصلِح الكبير عبـد الحميد بن بـاديس، الذي نخصّه بهذه الصفحات.

- ٢ -

نشأ عبد الحميد بن باديس نشأة دينية نيِّـرة، إذ درس اللغة ومبـادىء الإسلام على أيدي أُناس يفهمون الشريعة فهماً صـافياً، ثم التحق بجـامع الـزيتونـة بتونس فأكمل دراسته الدينية، ورحل إلى بلاد المشرق العربي، فزار مصـر وسوريـة ولبنان ومكّـة والمدينـة، واتصـل عن كثب بمحـاور الإصـلاح الـديني الـذي كـانت تمثّله مدرسة الأستاذ الإمام في مصر. وكان حنينه دافقاً إلى هذه المدرسة، منذ سمع في نعـومة أظفـاره بمحمد عبـده، ولمس من أساتـذته بجـامع الـزيتونـة إجلالاً لـذكره وتمسّكاً بمبادئـه، كما كـانت رحلته رضي الله عنـه إلى الجزائـر في خاتمـة حياتـه مجالاً طيباً للحديث عن آرائه القويمة في نهضة الإسلام وإصلاح المسلمين! .

وقـد رزق عبد الحميـد هذا القلق الثـائر الـذي لا يستقـر حتى يستقيم الأمـر لأهله، وتنجاب حنادس الشكوك، فأخذ على عاتقه القيام بالدعـوة إلى الإسلام في وطن مستضعف، يتكالب عليه الباطل بخيله ورجله، ورأى أن الدعوة إلى الإسـلام لا تفترق عن الدعوة إلى العربية، فهما قطبا الدائرة في مناوأة الاستعمار، وكان ابن باديس خطيباً فصيح العبارة، إذا ارتقى المنبر يوم الجمعة نفخ من روحه العاتية في سامِعِيه، فأنعش الذابل وأخضر اليابس، وفسح الطريق للأمل العريض. وأما قدرته

القلمية فقد كانت تمهّد له انتصار الفكرة الصادقة إذا اصطدمت بالفكرة المُغـرِضة، فيعبّىء شتّى جهوده كي يقذف بالحق على الباطـل فيدمغـه فإذا هـو زاهق، لذلـك كان تلاميذه يلهبون عواطفهم بأحاديثه المنبـرية ومجـالسه الـدراسية، كمـا يصقلون تفكيرهم بآثاره القلمية.

وقـد تعدّد مجـال الإصلاح أمـامه، فسلك طـرقـاً مختلفـة تلتقي جميعـاً في الـدعوة إلى الله عن بصيـرة، وقد كـان من قوّة الإرادة بحيث صمـد على الاعتقـال والاضطهاد دون أن يستكين، وزاد في صلابته القوية أنه كان يقدّر هذا العذاب قبل فهو يعلم أنه مُجاهد يُجالد الأعداء في حومة حاميـة، لا بدّ وأن تنـوشه السّهـام في كل وقت، فمهما تعاورته الحِراب فهو بطل يؤدّي دوره في المعركـة دون أن ينكص على عقبيه، أو يرتـدّ إلى الوراء بضـع خطوات، ويمكننـا أن نُشير بـإيجاز إلى أهم الميادين التي انفسحت لجهاده فآتت النصر الميمون.

لقد أنشأ جمعية العلماء، وفتح لها فروعاً تتشعّب في أنحـاء الجزائـر، فخلق طائفة من الدّعاة والمـرشدين يحملون أمـانة الكلمـة، ويؤدّون دوره الإصلاحي في القرى المتناثرة والعواصم النازحة، إذ يصمدون لتبديـد كل قـرية، وإزالـة الحُجُب عن كل خديعة، وكانت طرق المقاومة أمامهم شاقّة مُرهِقة، إذ لا يكتفـون بمقاومـة العدوّ المستعمر، فيزيّفون أباطيله، ويعارضون اتجاهاته، بل تضطرهم المعركة إلى مُنازلة فريق من مشايخ الطرق أغـواهم الاحتلال الفـرنسي، فاتخـذهم أداة لتخديـر العقول وتسميمها باسم الدين، فهم يقومون بالشعوذة والدّجَل، ولا يكادون يفرغون من رقصات الذِّكر ودقّات الطبول، وتأويل الأحـلام وكتابـة الأحجبة والتمـائم، كما يسعون لتشويه الإسلام بترديد الإسرائيليات، والدعوة إلى مُسالمة الفرنسييـن، مـع بثّ التواكل والزّهد، وعرض الإسلام في صورة انعزالية جامدة لا تدعو إلى بعث أو إصلاح!.

كلّ ذلك يتطلب أُناساً من شباب المدرسة البـاديسية ليكشفـوا عن وجه الحق ما ران عليه من ضباب مُحتَرِفِي الولاية الزائفة، وأنصـار الحلقات والـطبول، وكـان

الاصـطدام عنيفاً بين قـوم يؤيد الاحتـلال مخازيهم الـزائفـة، ويمهّـد لهم السبيـل لتضليـل العامّـة وتسميم الأفكار، وبين جمـاعة من الفـدائيين الأحـرار صـدقـوا مـا عاهدوا الله عليه، فواصلوا الكفـاح تحت راية قـائد بـاسل، يـرسم الخطة ويهـدي السبيل.

رأى عبـد الحميد بن بـاديس الاستعمار يحـارب اللغة العـربية في مـدارسه، فأنشأ مدارس إسلامية عربية أهلية وأعـدّ لها أبنـاءها من المعلّمين، ووضـع برامـج الدراسة الإسلامية: إذ تقوم بتفسير كتـاب الله، وتعليم اللغة العـربية، وتشـرح دور المسلمين في اليقظة الفكرية، وأثرهم في ركب الحضـارة حين كانـوا هُداة العـالم في عصـور الظلمـات، مبيّنـة أسبـاب الضعف الـطارىء على الـدول الإسـلاميـة، وراسمـة وسائـل العلاج الصحيـح من دعوة إلى الإسـلام السلفي كما يتـرقـرق في أصفى المنابع الرائعة قبل أن تكدّره شُبُهات الحشوية من ذوي الحكاكـات اللفظيـة وتخرّصات الحَقَدَة من ذوي النعرات المذهبية! هذه المنابـع الصافيـة التي تترقـرق في آيات الكتاب وأحاديث الرسـول وسِيرة السّلَف الصـالح ممّن يهـدون إلى الحق وبه يعدلـون! فهي مدارس تعليميـة للمبتدئين، وإرشـادية وتـوجيهية للمُنتهين! وإذا كـان المبتدىء يتـرقّى في دوره حتى ينتهي من دراسته فـإنه لا يـدع المدرسـة حتى يخرج مسلّحاً بذخيرة لا تفل، ومدجّجاً بأقوى الحِجَج والبراهين.

أما الصحافة فقد كانت أحد الجـوانب الهامّـة من كفاح ابن بـاديس، إذ أنشأ المنتقـد والشهاب ليؤدّيـا دور المنار في مصـر، ويزيـدا عليه الـدعوة إلى التحـريـر السياسي.

وإذا كانت فرنسا تزعم أنهـا تحمل رسـالة الحـرية والحضـارة والإنسانيـة في العالم وتتوقح بذلـك بين قوم يئنّـون تحت مظالمهـا الغادرة، إذ تشنّ عليهم حـرب الإبادة والاستئصال دون رحمة أو هوادة ـ إذا كانت فرنسا تزعم ذلك فإن ابن باديسَ قد جعل من صحيفته ميداناً رحباً لإبادة هذا الزعم واستئصالـه، فهو يُـذَكّر مـواطنيه بفظائعها المنكـرة في أرض الجزائـر، فيعلن كيف هاجمت هـذه الدولـة المتشدّقـة

بـالحريـة والإنسانيـة قبيلة العوفيـة ليلة ١٦/٤/١٨٣٢ وهي نائمـة في الخِيـام قبـل الفجـر، فـذبحت هؤلاء العُـزّل الآمنين ذبحـاً لا رحمــة فيـه، حتى قــال المؤرّخ كريستيان في كتابه أفريقية الفرنسية ما ترجمته:

وهكذا وقع قتل كل نفس حيّـة في القبيلة دون تمييز بين جنس وسنّ، وعنـد الرجوع من هذه الحملة المُخجلة كان الفُـرسان الفـرنسيون يحملون رؤوس القتلى على أسِنّة الرّماح دون حياء...

كما بيّن ابن باديس كيف كانت تُساق حيوانات الفلاّحين غصباً للبيـع، وكان من بين الغنائم أساور النساء في الأيدي المقـطوعة، وأقـراط فتيات لا يـزال تلتصق بها قطع من الآذان!.

أما حرائق الكهوف في الجبال الجزائرية، فمن أفظع حوادثه ما فعله الأفّاقون من جنود الاحتلال حين أوقدوا النار ليلة كاملة أمام كهف يضمّ قبيلة بأجمعها، ومـا جـاء الصباح ودخـل الجند الكهف حتى وجـدوا نحو ثمـانمائـة من جُثث الضحايـا البريئة من نساء وشيوخ وأطفال تحت أقدام الثيران والحيوانات التي انطلقت تلمس النجاة من النار، فداست كل عزيز، ثم لقيت حتفها مع الناس!.

ومن أفظع ما شُـوهِد داخـل الكهف، رجل أسلم الـروح وهو مُمْسِـك بقرني أحد الثيران وخلفه امرأته وابنه الصبي، كأنه كان يدفع عنهما الثّور الهائـج من لفح اللهيب!.

هذه الفظائع وأمثالهـا كانت أدلـة ابن باديس، وحِججـه القاطعـة على نذالـة الـطغيان الفـرنسي، وهي التي أوحت له العـزم في جهاده المستشهـد حتى تنوّعت آفاقه الإصلاحية، واستطاع أن يعصف بأسطورة فَرْنَسَة الجزائـر وتنصير المسلمين، ويـردّ على دُعاة الفَـرْنَسَة المـزعومـة بمثل قـوله في صحيفـة الشهاب «إبـريل سنـة ١٩٣٦»:

«إننا نرى أن الأمة الجزائرية موجودة ومتكـوّنة على مثـال ما تكـوّنت به سـائر أُمم الأرض، وهي لا تزال حيّة، ولم تزل، ولهذه الأمة تاريخها اللاّمـع، ووحدتهـا

الدينية واللغوية، ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة والقبيحة كمثل سائر أُمم الدنيا، وهذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ومن المستحيل أن تصبح هي فرنسا حتى ولو جنّسوها».

وإذا كان المُصلِح العظيم قد انتقل إلى جِوار ربّه في سنة ١٩٤٠، فإنه قد خلف من بعده أساتذة يحملون الراية ويُوالون الجهاد، وفي مقدمتهم أستاذنا الوقور الشيخ محمد البشير الإبراهيمي صاحب البصائر، برّد الله بالرحمة ثراه.

كما ترك من تلاميذه الشبّان مَن صاروا قادة الثورة الجزائرية التي أعقبت الاستقلال الحاسم، بعد أن أدّت ضريبة الدم والعرق في وطن المليون من الشهداء، فنجح ابن باديس أكبر نجاح في خلق جيل من الشباب المُكافِح، يفهم عروبته حقّ الفهم، ويرى العار أشنع العار في بقاء الاحتلال الفرنسي في أرض الجزائر.

وكانت فرنسا من البلاهة بحيث أرادت أن تجبر الجزائر على الاحتفال بانتصارها في الحرب العالمية الثانية، وانتظرت أن تُضاء الشوارع في وهران وقسنطينة والجزائر، وأن ترفرف الرايات في الفضاء، وترفع أقواس النصر في كل مكان.

ولكنها فُوجئت بأبناء ابن باديس من شباب الأمة العربية يعملون على مقاطعة الاحتفال، ويهيّئون الأذهان إلى ثورة ماحِقة تزلزل الطغيان، ثم يندلع لهيبها في كل مكان، فتضطر فرنسا بعد جهاد المستميت إلى فراق لا رجعة له بإذن الله.

على أن خطة جماعة العلماء في العمل السياسي كانت من المِران والسّعة بحيث قبلت العمل مع كل معسكر عربي، ووزّعت أبناءها بين طوائف المُجاهدين دون التعصّب إلى فريق معيّن، حتى تلاقت الأهداف، وتحقّقت النتائج السّارّة كما تراءت في أحلام الأساتذة الدّعاة، ولقد كان إعداد هذا الجيل المجاهد أنضج ثِمار ابن باديس وأعظم أعماله، حيث استمع إلى نصيحة الأستاذ الإمام محمد عبده في العمل على تكوين شباب مستنير، يقوده التعليم تلقائياً إلى إصلاح البلاد، فيضطر

الاستعمار في كل مكان إلى التقهقر إذ ينكشف خداعه لذوي الثقافة من المستنيرين، بعد أن ركب مطاياه من الجَهَلَة والرّعاع وأوشاب الوصوليين من ذوي المآرب والأطماع.

ولعلّ خير ما نختتم به هذه الصفحة البيضاء من جهاد عبد الحميد بن باديس أن ننقل شهادة الكاتب الفرنسي فرانسيس جانسون، كما سجّلها الأستاذ أنور الجندي في كتابه الكبير «الأدب في معركة التجمّع والمقاومة». ص ٩٣ حيث قال الكاتب الفرنسي في صراحة سافِرة:

«إن المعركة الباديسية أحدثت إصلاحاً شاملاً فيما وصل إليه الإسلام بعد تخلّصه من التحريف والشوائب التي علقت به نتيجة للتفسيرات المشكوك في صحّتها، حيث تراكمت خلال قرون عدّة، كما عملت على تعميم الثقافة العربية بإنشاء مدارس تتولّى تدريس اللغة العربية ونشرها في الجزائر، كما نشرت الوعي القومي، مما وقف عقبة في وجه السيطرة الاستعمارية، ومما أقلق سلطات الاستعمار التي كانت تستخدم فئة من رجال الدين المأجورين لتجعل الإسلام وسيلة لتخدير الشعب، كما قاومت خطّة القضاء على اللغة العربية، واستخدام كل سلاح لمحاربة تعليمها، ودثر ثقافتها، لتصبح نوعاً من التراث الذي لا يجد مجالاً للبقاء في غير بضع عشرة مدرسة من المدارس العتيقة التي تقرىء القرآن».

هذا ما قاله فرانسيس جانسون، وهو قول موجز جامع قام مقالنا هذا بإيضاحه وتفسيره، وهو بعد شهادة صادقة لابن باديس من فرنسي كان يتمنّى في أعماقه ألّا تُكَلّل الحركة الباديسية بالنجاح.

محمد فريد وجدي
العــــلاّمة الموسـوعي الناقد

- ١ -

تمثّلت العصامية العلمية في شخص الكاتب الكبير المغفور له الأستاذ محمد فريد وجدي تمثّلاً رائعاً، يدعو إلى الالتفات، فقد اتجه بنفسه إلى تحصيل معارف كثيرة تيسّرت لـه دون تلقين وتوجيـه، حتى أصبح بهـا عَلَماً من الأعـلام البارزة في دنيا الأدب والثقافة.

وقد نال في حياته شُهـرة فائقـة جعلت مؤلّفاتـه الكثيرة تـطير في آفـاق العالم الإسلامي، وتُتَرجَم إلى عدّة لغات شرقية وغربية، ثم ذهب إلى ربّه فلم ينهض من تلاميذه الكثيرين مَن يكتب تاريخـه الحافـل بالمجـد والرّفعـة، وكأنـه لم يكن ملء البصر والسمع في دنيا تتحيّف المجاهدين وتتناسى العاملين.

كان الأستاذ وجدي صاحب رسالة هامّة يكرّس في سبيلها جهـده، ويبذل في تبليغها قوّته وماله، فلم يكن يتّخذ من الكتابة الأدبية مجالاً للتزيّد والمُباهاة، ولكنـه وضع أمامه هدفاً مرموقاً يجهد في الوصول إليه.

فقد رأى الإسلام في عصره غرضاً تتّجه إليه السّهام، ويتناوله أعداؤه بالافتراء والتشكيك.

أما أنصاره فقد أضافوا إليه من الخرافات والغرائب ما ضاعف محنته وأعان الموتورين عليه من ذوي الأهواء، وتلك محنة أليمة تتطلّب النجدة المُسعِفَة والكفاح المرير، والعدّة الناجحة فيها: مثابرة على البحث وجَلَد في الدفاع، ويقين ثابت لا تعتوره الشكوك، وإخلاص ملهم يمدّه العقل الثاقب والاطّلاع الغزير وقد تهيّأ ذلك كله للأستاذ العلّامة، فتجرّد لكفاحه النبيل وأصدر الكتب المتتابعة، وأنشأ الصّحف والمجلّات المتعاقبة، وسارت الأيام بأبحاثه وآرائه حتى أصبحت آثاره العلمية مَلاذاً يعتصم به الإسلام في مهبّ الزعازع.

على أن الشك الديني لدى الأستاذ في نشأته الأولى قد هيّأ له هذا القدر الهائل من الثقافة، إذ تعرّض في صِباه اليافع إلى هواجس عاصفة، زعزعت يقينه وكدّرت أُفقه ـ كما سجّل ذلك على نفسه ـ وتطلّب الإفادة ممّن حوله من العلماء الرسميين فما وجد شيئاً ذا غناء، فاندفع في قراءاته الشاملة يستوعب ويتعمّق، وينتقل بين المعارف الكونية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والدينية حتى انكشفت له حقيقة ناصعة، تسجّل عظمة الإسلام ورِفعته، وتؤكّد مطابقته لأرقى الدساتير المنطقية التي يتقيّد بها العقل السليم، فما من فضيلة تدفع إلى رقيِّ البشرية وإصلاح الكون إلّا تجد دعامتها الوطيدة في قواعد الإسلام ومبادئه، فكيف يُرمى بالجمود القاتل بغياً دون علم!. لا بدّ من دفاع مقنع يكشف اللثام عن الحق الصريح.

وفي هذا الميدان الشاسع انطلق الكاتب الغيور يُلقي حججه، ويؤكد قضاياه وقد وجد أكثر هذه الشُّبُهات الظالمة تفِد من الغرب، فتسري بين المسلمين سرياناً مدمّراً عاصفاً، فألّف بالفرنسية كتابه عن: «المدنيّة والإسلام» لِيُطلِع القوم في أوروبا على ما تضمنته الشريعة الإسلامية في مُثُل فائقة تدفع إلى الحضارة والعمران، وتهيِّىء للإنسانية وسائل الأمن.

وقد نقل هذا الكتاب في سنّ العشرين، فقد أُعجب به كثيرٌ، ووجدوا عكس ما توهّموه من أباطيل مُجحِفة، لا تجد لها دليلاً في كتاب أو أصلاً من قياس.

وقد نصّ في مبدأ كتابه هذا على: أن الأوروبيين معذورون في تصديق التُّهم ضدّ الإسلام والمسلمين، «ولهم الحق في العمل ضدّها ما داموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين غير البِدَع التي اخترعها صِغار العقول، وزادوا أشكالاً من الأوهام والأباطيل تنفر منهم الطّباع البشرية وتُنافي أُصول المدنية».

وقد نُقِل هذا الكتاب إلى اللغة العربية، فقرأ المسلمون صحيفة صادقة عن دينهم المُفتَرَى عليه.

ومع أنه ألّف الكتاب في سِنّ العشرين فقد أُعجب به كثير من مُنصِفِي الغرب والشرق، حتى جعله الدكتور تشارلز أدمز قريناً لكتاب الأستاذ محمد عبده: «رسالة التوحيد» إن لم يزد عليه في الشمول والاستقصاء!!.

وقد كانت مصر في مطلع هذا القرن ذات حاجة ماسّة إلى ذخيرة وفيرة من المعارف الإنسانية في شتّى العلوم الحديثة فليس بها من المؤلّفات العصرية ما يسدّ فراغاً هائلاً يوحي بالجهالة الأُمّيّة، ويُنذِر بالتقهقر السريع إلى عصور الظلمات، فعكف الأستاذ وجدي على إصدار «دائرة معارف القرن العشرين» في عشرة مجلدات ضِخام، وأعدّ لها مطبعة خاصّة تخرج على الناس بإنتاج الكاتب وحده!!.

وإذا علمنا أن هذا العبء الثقيل لا ينهض به في أُمم الغرب غير الجماعات المتنوّعة واللجان المختصّة، ممّن يقضون أعواماً طِوالاً متساندين في البحث الدائم والاطّلاع الجاهد، حتى يصدروا إحدى دوائر المعارف في ثقافة واحدة عن أُمة واحدة، ثم تُقام لهم حفلات التكريم، وتتقاطر عليهم أوسمة التقدير، ويُمنحون على الفور أرفع الدرجات الفخرية في الجامعات العريقة!!.

إذا علمنا ذلك ورأينا الأستاذ وجدي ينهض بالعبء المرهق فيقوم به في مدى عشرة أعوام على أحسن ما يستطيع، ويقدّم للغة العربية وحده مكتبة حافلة، تضمّ شتّى المعارف الإنسانية من قديمة وحديثة، فإننا نتساءل كيف وجد من الأعصاب القوية والعزيمة الماضية والاطّلاع المتشعّب ما هيّأ له النجاح دون أن يطمع في

مأرب مادّي، أو يتعلّق بجاه أدبي، مكتفياً بما يستشعره من سعادة نفسية، إذ يشارك في بناء الثقافة الحديثة ويمهّد لأمته طريق المعرفة والدراية.

ومهما قيل من أن دوائر المعارف تستنفد أغراضها لأجل محدود، فإن بها من التراث الفكري ما يكفل لها البقاء التاريخي وإن غيّرت المكتشفات الحديثة شيئاً من مقرراتها المؤكدة، أو أضافت إليها من الشرح ما يسير بها إلى الكمال المنشود، فذلك من شأن الحياة ولن يُعفى على جهد كادح وإنتاج خصيب!!.

والحق أن نجاح الأستاذ وجدي في أبحاثه يرجع إلى اعتزازه برسالته، وعمله في الحقل الطبيعي الذي كوّنته ميوله واتجاهاته عن عقيدة وإيمان، فهو قد نصّب نفسه مجاهداً عن الحقائق الإسلامية، لا يترك مجالاً للحديث دون أن يُسهِم فيه بأوفى نصيب.

وقد ظهرت لعهده طائفة كثيرة من الكتب البرّاقة لأقلام لامعة نشيطة تحارب الفكرة الإسلامية، وتصادف ارتياح الأغمار ممّن لا يفيئون إلى دراسة واسعة أو تفكير مستقيم.

وما أكثر مَن يصفّق للجديد دون رَوِيّة أو تبصّر مهما تكشّفت مثالبه واتّضحت سوءاته.

ولكن فريداً يقف بقلمه الجبّار أمام ما يخرجه هؤلاء جميعاً، فيتلقّى الكتاب الذائع بالنقد الصائب والتفنيد السديد، وطريقته النقدية تدعو إلى الإعجاب والعجب معاً، إذ لم يسمح مرةً لَيراعه أن ينال شخوص ضحاياه على كثرتهم الغالبة، بل اتجه إلى الآراء وحدها، يعرضها كما ذكرها أصحابها في أمانة وإحاطة، ثم يدفع بالتي هي أحسن، دَفْع المُحيط الواثق، دون أن تأخذه نشوة الفلج فيكيل لصاحبه ما يندّ عن آداب البحث ومقتضيات اللياقة، بل إنك تراه يؤيّد ما يتّفق مع وجهة نظره تأييداً يغمره بالثّناء والإطراء، فلا تدري أأنت أمام مُهاجم أم مُدافع!.

ولو سلك الناقدون مسلك فريد في ردوده لضاق نطاق الجدل في أقصر مكان وزمـان! وهيهات، فـإن التربيـة الحصيفة التي أرضعت الكـاتب في مهده الأدبي لا تُتاح لغير القلّة من النبلاء!!.

وقد تواضـع كبار الكتّـاب على أن يُهملوا آراء مَن لم يبلغوا مكـانتهم الأدبية من الشبّان، فلا تجـد أديباً كبيـراً يناقش كـاتباً مغمـوراً يتسنّم الدرجـات الأولى في سُلّم إنتاجه، ولكن الأستاذ وجدي يشـذّ عن هذا التـرفّع الأدبي المتـداول، فيتناول جميع ما يصدر في ميدانه الإسلامي أيّاً كان كاتبه، ثم يسلك في نقـده مسلكه مـع ذوي الذيوع والصيت، وتلك إحدى فضائـل الرجـل النفسية، ولهـا دلالتها الأكيـدة على مقوّمات سلوكه دون نزاع.

وقد لمس حاجة عصره إلى تفسيـر مناسب يقـرّب كتاب الله من الأذهـان، إذ أنَّ التفاسير المتداولة تتيه بالقـارىء في أودية من العلوم: عـربية وفقهيـة ومذهبيـة، فتنأى به عن الروح الحيّ المتألّق في كتـاب الله، لذلـك نهض بواجبـه في التفسير نهـوض مَن يدرك أهميـة عمله، فذاع تفسيـره الموجـز، وتُرجِمَ إلى لغـات كثيرة، وتناقله جمهور المسلمين في شتّى بلادهم النازحة شاكرين.

ولعلّ من السارّ المبهج أن تجد ثلاثة من علمـاء مصر تُتَـرجَم أكثر مؤلّفـاتهم إلى جميع لغات بني الإسـلام، وهم فريـد وجدي، وطنـطاوي جوهـري، ومحمد رشيد رضا، فاكتسبوا شُهرة إسلامية تجعلهم في طليعة علماء كل دولـة تعتنق الدين الحنيف!!.

ولم يغفـل محمد فـريـد وجـدي حقّ مصـر عليـه، فقـد كـافـح في مضمـار السياسة، إذ أصدر صحيفة «الـدستور القـومية»، لتكـون منبر الـوطنية الصـادقة في عهد الاحتلال، وقد تعرّض إلى هزّات عنيفة دفـع إليها تمسّكـه بمبدئـه الصريـح، فقد وقف الخديوي عباس منـه موقفـاً قاسيـاً حين رفض الأستاذ أن يجعـل صحيفته مَطِيّة لحزب تركيا الفتاة، إذ رغب إليـه صاحب القصـر أن يمحو شِعـارها الـرسمي «لسان حال الجامعة الإسـلامية»، لتتّجـه إلى تأييـد فكرة إدمـاج العرب في القـومية التركية!!.

ومع ما بذل من عروض سخيّة في الجاه والمال فقد أصرّ صاحب الجريدة على شِعارها الدائم، وحاربته الدولة بمضايقاتها الكثيرة، فاضطر إلى تعطيل صحيفته وهو مستريح الضمير لموقفه الصحيح.

ولا ننسى أنه قبل ذلك أيّد السيد توفيق البكري في موقفه من عباس، إذ أصرّ شيخ مشايخ الطرق الصوفيّة على منع أتباعه من الاحتفال بالمحمل، والسير وراءه كما جَرَت به العادة متحدّياً رغبة الخديوي في ذلك، ونهض الأستاذ فريد وجدي ليعلن رأي الدين في هذه البِدعة، مُعارِضاً كلّ ما قيل في تبريرها من أوهام وملفّقات ، حتى انتصر الكاتب الجريء في إيضاح الحق، وأبان عن موقف الدين الصحيح دون خشية أو اكتراث.

أما خلافه السياسي مع مصطفى كامل: فقد نشأ حين أصرّ الزعيم الشاب على توجيه خطاب سياسي إلى وزير خارجية بريطانيا في شأنٍ ما من الشؤون الهامّة، ورأىٰ الأستاذ وجدي أن يوجّه هذا الخطاب إلى جميع وزراء الخارجية في أوروبا كيلا يكون ذلك اعترافاً من الحزب الوطني لإنجلترا بمركزها السياسي في مصر، وبسط الكاتب وجهة نظره في مقالين كبيرين، فانصرف أتباع الحزب الوطني عن جريدته، ولكنه أعلن رأيه السياسي غير ملتفت إلى ما سيكون من الكساد والبَوار مما سنشير إليه بعد حين، ولا نكاد نجد نظيراً لفريد وجدي في حرية الرأي من رجال الصحافة غير الأستاذ أمين الرافعي فكلاهما كان يتمسك دائماً برأيه هازئاً بما يعترضه من الصِّعاب، رحمهما الله!!.

هذا وقد اتجه الأستاذ وجدي إلى الأبحاث الروحية، فأصدر مجلة خاصّة بها، وأفرد لها أجزاء متتابعة من مؤلّفه القيّم «على أطلال المذهب المادي»، وقد اتخذ منها حجّة قوية يحارب بها مَن يُنكرون الحقائق الغيبية في عالم السمٰوات والأرض، وساعدته الاستكشافات الأوروبية في هذا المجال مساعدة ناجعة فتابعها بلذّة وشغف، وأخذ يفسّر ظواهرها ويعلّل نتائجها، حتى أصبح ـ في اللغة العربية ـ فارسها المعلّم وكاتبها الحصيف، وقد أتاحت له ثقافته العميقة في علوم النفس

والاجتماع والفلسفة فيضاً زاخراً من الحجَج العقلية والأسانيد الكونية أكسب مقالاته قوّةً ومتانةً، كما أورثه تضلّعه العريق في اللغة العربية أسلوباً مُشرِقاً واضحاً يصل به إلى أهدافه الفكرية وصولاً أخّاذاً لا ينقصه البريق والنصوع، حتى قال عنه الأستاذ باول كراوس: إنه مَلِك كُتَّاب العرب على الإطلاق.

وقد صاحبت الأستاذ وجدي وجالسته، فرأيته في أخلاقه الرفيعة نبيلاً ملهماً، وما ظنك بإنسان يقوم لخادمه إذا دخل عليه مهما تعدّدت مرّات دخوله؟!!، فإذا سألته في ذلك أجاب متسائلاً عن الفرق بينه وبين الزائرين من الأضياف!!.

ولن يحتاج قارئه إلى معرفة شخصيته، فأسلوبه الجدلي، وطريقة نقاشه، ومذهبه الإصلاحي... كلّ أولئك ينادي بمثاليته الرفيعة، ويشفّ عن منازعه، و«الأسلوب الرجل» كما يقال.

وقد كان في سِنِيه الأخيرة رئيساً لتحرير: «مجلة الأزهر» فرفعها إلى مستوىً ثقافي مشرّف، وكتب بها فصولاً دسمة تذكّرنا بفصوله الحيّة التي كان يتابعها في الجرائد اليومية ذات الشُّهرة الواسعة، «كالدستور، والمؤيد، واللواء، والأهرام والجهاد، والبلاغ»، بل إن صاحب «كوكب الشرق» كان ينشر مقالاته في صفحة «الأخبار المحلية» ليجتذب إليها أنظار القرّاء!!.

ومع ما نشر من المؤلّفات الكثيرة فإني أعرف له ثلاثة كتب كبيرة لم تُطبَع بعد، وإنما نُشِرَت مسلسلة على صفحات مجلة الأزهر تحت عنوان:

١ ـ مهمة الدين الإسلامي.
٢ ـ الروح الإسلامية وتأثيرها.
٣ ـ السّيرة المحمدية في ضوء الفلسفة.

وأخشى أن يمضي الزمن دون أن يجمع شتاتها في حيّز خاصّ!. فهل يقوم المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بطبعها على نفقته، دعاية مقبولة للإسلام؟ ذلك عمل جليل.

- ٢ -

قضى الأستاذ وجدي حياته الخصيبة مجاهداً بقلمه، لم يترك حومة الكفاح يوماً واحداً، إذ كان يقف موقف الذّائذ عن القيم الإسلامية في عصر هبّت فيه زعازع الشكوك من كل ناحية، فلا يُرى إلّا متهجّماً ينتقص عن جهل أو ضغن، ولا بدّ من حزم عاجل في إدحاض الباطل، لذلك كان امتشاق القلم رسالة وجدي التي وقف عليها حياته دون سأم أو كلال.

ونحن نعهد لدى الكثير من أبطال المعارك حمية مشتطّة تدفعها إلى الجدال بغير التي هي أحسن، وكثيراً ما وجد الأستاذ وجدي من هؤلاء ـ وفيهم مَن لا يصل إلى مرتبة تلاميذه ـ مَن يركب رأسه معانداً، ثم يظن السِّباب طريق الفلج، فينضح بما تفيض به نفسه من نقيصة، وكان الرجل يسمع ويرى ما يسوء ويؤلم متغاضياً، متخطّياً كل بذاء ليبحث عن شُبهة يدحضها، أو اعوجاج يقوّمه، بل إنك لتعجب أشدّ العجب حين تجده يقابل بالبشاشة والمحبّة خصمه، وكأنهما صديقان في مجلس سمر، لا أن أحدهما ظالم مُسرِف ينضح بالسُّباب.

لقد فكّرت كثيراً في مثالية هذا الصابر المحتسب، إذ كانت في رأيي شذوذاً عبقرياً فيما نعهد من المعارك، ونرى من الجدال، حتى رجعت بها إلى طبيعة هذه النفس الراضية التي جُبِلَت على السماحة الإنسانية حتى التصقت بها التصاقاً لا انفصام به، ووراء ذلك دراسة وجدي العميقة لعلمي النفس والاجتماع، إذ رأى من أحوال الهبوط ومهاوي السقوط للنفس الإنسانية ما أخذ يبرّر معه كل شَطط وجموح، ودارس النفس البشرية إذا كان نقي الفطرة سَمح السّريرة فإنه يقف موقف الراثي لذوي النزق المتسلّط لا موقف الشامت المتربّص، وهكذا كان محمد فريد وجدي في معارضته خصومه، يتلقّى الصخر ليقذف بالزّهر وعند الله جزاؤه الأوفى.

على أن طبيعة موقفه النضالي عن دين يشمل تعاليم الحياة، ويسيطر عليها في كل اتجاه قد فرضت عليه أن يعمّق اطّلاعه، ويوسّع دائرة ثقافته بحيث تشمل علوم العصر ومعارفه الكونية والإنسانية فوق تعمّقها الرصين في أبواب الثقافة

الإسلامية ومناحي التشريع الحكيم، لأن الرجل يحارب في كل ميدان، ويقف أمام كل اتجاه يشذّ فلا بدّ من ذخيرة سريعة الحَسْم قوية السلاح.

لقد وقف ـ في معركة الترجمة لمعاني القرآن ـ أمام نفر من المتعمّقين في النصوص الفقهية من قارئي الحواشي ودارسي الأصول، وفي أيديهم أسلحتهم المهيّئة من النصوص والقواعد والتفريعات، وكان الظن بهم أن يكونوا في هذا المضمار أطول منه يداً، وأعمق نظراً، لأن الموضوع موضوعهم والميدان ميدانهم، ولكن الرجل المناضل قد أخذ للأمر عدّته، فقرأ وأمعن، وواجه النصوص بالنصوص، وعارض الأقوال بالأقوال، ثم فلج بالحجّة الدامغة، وجهر بالرأي الساطع وسجّل ذلك في كتاب علمي يحمل طابع الاستدلال المتعمّق والنظر البصير!. والمسألة بعدُ ليست في حاجة إلى تعداد أوجه الرأي إذا خلصت الضمائر وصدقت النيّات، لأن ترجمة المعاني غير ترجمة النصّ، ولم يقل أحد بجواز ترجمة النص حتى يشتعل الخلاف.

كما وقف ـ في معركة الشعر الجاهلي ـ أمام التراث الأدبي بأكمله يراجع قصائده، ويدرس أعلامه، ويحلّل نصوصه، ثم يجابه المتخصّصين في هذا الحقل مجابهة النظير وكأن الرجل قد خلص لدراسة الأدب وحده، فهو يميّز الصريح من المنحول، ويحلّل دوافع الانتحال، ويوضح خصائص الأدب الأصيل، ويرسم الصورة الدقيقة للطبيعة الجاهلية بخاصّة والعربية بعامّة، في عفّة لفظ واستقامة دليل، مع التسليم بما يراه صادقاً من كلام الخصم إذا وضح اتجاهه، وصحّ مرماه.

وفي معركة تحرير المرأة كان كفئاً كريماً لقاسم أمين، فجاء كتابه عن المرأة المسلمة صادق الدلالة على عمق ثقافته الاجتماعية، وبصره باختلاف المنازع بين الشرق والغرب، وإلمامه بما تخوّف منه أساطين المشترعين في أوروبا من انحطاط مستوى المرأة الإنساني، حين تمتهن في حمل الأثقال، وإدارة أدوات الوقود في المصانع والمناجم، وقد صحّ ما تنبّأ به الأستاذ، وأيّدته الشواهد المعاصرة، وكأنه

كـان ينظر إلى الغيب من ستـر دقيق، والعجيب: أن بعض الذين ضـاقوا بكتـاب «المرأة المسلمة» قد شوّهوا وجهه السافر، فافتروا على الرجل بـأنه ينـادي بحرمـان المرأة واستعبادها، ويحارب تعليمها وثقافتها، مع أن الكتاب قد طُبعَ مرّتين، وليس به غير ما يشرّف المرأة، ويصون كرامتها، وينمّي ملكاتها العقليـة والاجتماعيـة في ظلال التعاليم الإسلامية!.

ولـو لم يكن وجدي مثـالي النظرة لضـاق بهؤلاء الـذين يحـرّفـون الكَلِم عن مواضعه، ويتفننـون في السِّباب والشتـائم ولكنه يـردّ عليهم من جديـد ليُرِيهم فقط أنهم لم يقـرؤوا الكتـاب ولا يصفهم بمـا يستحقّـون إذا افتـروا الكـذب، وخلقــوا الأراجيف.

فـإذا تحدّثنـا عن معارك وجـدي مع الـطبيعيين، وأنصار نـظريـة النشـوء في الشرق والغرب، فإننا لا نكاد نجد مثيـلاً للرجل في إحـاطته بمـوضوعـه، إذ كانت هـذه النظريـة فتنة العصـر في الشرق، بعـد أن ظلّت فتنة عصـرها في الغـرب زمناً طويلاً حتى انجلت الكشوف العلمية والبـراهين العقلية عمّـا يعصف بها كـرماد في مهبّ الريح.

ومن الحظّ الحَسَن: أن وجـدي قـد جمـع أكثـر مــا كُتِبَ بصـدد ذلــك في مؤلّفيه: «الإسلام في عصر العلم» و«على أطلال المـذهب المادّي»، وكـانت مجلة «الحياة» التي أصدرها الأستاذ في شبابه ميداناً لهذه البحوث، ثم واصل الجهد بعد احتجاب مجلته، فأخذ يُولِي الصّحف اليومية والمجلّات الأسبوعية بسيـل دافق من نقده، وكم صمد لأُناس بهرتهم الزخارف، فأخذوا يترجمون ما لا يعقِلون، دون أن يسأم تكرار القول أو تضايقه حماقة الادّعاء.

أما دفاعه عن العقيدة الإسلامية في أصولها المقـرّرة: فقد ألجـأه مضطراً إلى مناوأة مَن يناقشونه في مسائل التثليث والصّلب والفداء، والرجل في أعماقه يودّ أن يفرغ لتوضيـح النظرات الإسـلامية وحـدها دون شغب طـائفي يعدّد جبهـات القول دون مبرّر، ولكنه يرى الهجوم يتوالى على العقيدة الإسلامية، ممّن يزنونها بالعقائد

المخالفة، دون أن يعدلوا في القول، ويزيدون فيفترون على الله كذباً بما يلصقونه بالقرآن من أقوال يتكلّف لها التأويل، والسكوت على ذلك كله مما لا يطيقه مجاهد أمين، كالأستاذ فريد وجدي، فأدلى بدلوه في الدلاء متعرّضاً لسفاهة السافهين، وكان قُصاراه مع لجاجتهم الشائنة أن يقول كما قال الله: ﴿ يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون ﴾[1]!.

إن دراسة المعارك الوجدية في شتّى اتجاهاتها الفكرية تتطلّب مَن يتخصّص لتحليلها من الدارسين، لأن هذه الوقفات الرائعة في تاريخ الفكر المعاصر، جديرة بالاحتذاء من ناحيتين لا من ناحية، إذ أن سموّها الخلقي وبراءتها المثالية من شوائب التعريض والغمز، مما تجعل لها قيمة خاصّة فوق قيمتها العلمية. وقد كان الأستاذ وجدي من عشّاق النزاهة الفكرية، إلى درجة لا مثيل لها فيما نشهد ونسمع، حتى أن هذه النزاهة الرائعة كانت إحدى عوامل خسارته المادية في دنيا الصحافة!، وهي خسارة لا تقع على الرجل وحده، بل تقع على كل مَن يشرئب لحماية المُثُل الراقية من المتطلّعين، ومن حديثها ما نعلمه عن إفلاس جريدة: «الدستور اليومية» التي أنشأها الرجل لتنطق بمبادىء الحزب الوطني، إذ كان أحد أعضائه البارزين، كما كان موضع التقدير من زعيمه الكبير مصطفى كامل رحمه الله، وبين الرجلين من المراسلات ما ينطق برعاية كلٍّ منهما لصاحبه واجتبائه إيـــاه.

وقد حدث أن عارض وجدي بعض ما ارتآه أعضاء الحزب من اتجاهات في السياسة معارضة نزيهة، وكان يظن أن انتماءه السياسي لهذا الحزب الكبير لا يحول دون نقده حين يتّسع مجال النقد، فجهر بما يعتقد في أدب وذوق، ولكن شباب الحزب وأكثرهم من ذوي العجلة المتسرّعة قد ناوَؤا الرجل، وحرّضوا على إهمال جريدته حتى كسد سوقها، واضطر الأستاذ للدفاع عن رأيه حين قال: «إني لا أنتبذ الدستور مكاناً بعيداً عن الأحزاب إلاّ ليكون واسطة اتّحاد واتّفاق بينها،

---

(١) سورة آل عمران: آية ٧١.

وواقفاً موقف المراقب لأعمالها، حتى لا تحرم الأمة من جريدة غير متحزّبة فتضيع الحقائق وتنطمس المعالم، ولا يكون للطرفين وسط أما أنا فواحد من أعضاء الحزب الوطني، أعترف بأن مبادىء هذا الحزب هي المبادىء الصحيحة، التي يجب على كل مصري أن يأتمّ بها، ويتّخذها له دستوراً، ولكن هل يغيب عن حضرة الأخ أن كوني من الحزب الوطني معترفاً بزعامة مصطفى باشا كامل لا يمنع أن أنتقد خطبته، وأن أُبيّن للشبيبة موقع الخطأ والصواب على ما يقتضيه واجب الصحافة! هل تمنع الإنجليزي إنجليزيته عن الانتقاد على خطبة ملكه أو زعيم حزبه؟. إذن ما فائدة الجرائد؟ وما معنى التناصح والتعاون في الخدمة والمساعدة في تقويم الآراء؟.. وما فائدة إصدار جريدة الدستور؟ وفي مصر جرائد لا تُحصى، وأنا في غنىً عن الكسب من جهته إذا كنت لا أملك حرية الانتقاد فيما أعتقده واجباً ضرورياً».

هذه الحرية المثالية لدى الكاتب الكبير كانت تزدان أجمل ازديان بالموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وأذكر أن الزعيم مصطفى كامل رحمه الله كان لا يرى رأي وجدي في هذا الرفق الليّن، إذا اتجه به إلى خصوم الإسلام ومناوئيه فقد ردّ فريد رحمه الله على اللورد كرومر ردّاً مهذّباً حين هاجم الدين الإسلامي في تقريره الأخير، وشفع نقضه الصريح بالحجج العلمية الحاسمة في أربعة فصول هامّة، فسحت لها جريدة «اللواء» موضع الصدر البارز بين المقالات، ودفعت الزعيم الشاب إلى رؤية وجدي ومحادثته، ولا نرى أفضل من أن ننقل عن الأستاذ وجدي ما دار بينه وبين الزعيم الكبير بصدد هذا الموضوع حين قال[1]:

«جلس هو على مكتبه وجلست بجانبه، وانتبذ القوم الذين معنا مكاناً من الحُجرة، وأخذوا في شأنهم، فطفق صاحبي يكلّمني في أمر الردّ، ويُظهِر لي أنه مسرور جداً من مبادرتي بنصرة الدين وكَبْتِ خصومة الملحدين، وأطنب في ذلك

(١) نشر هذا القول بجريدة الدستور، عدد ١٦، فبراير سنة ١٩٠٨، وقد نقلته عن الكتاب القيّم الذي أصدره الدكتور البحّاثة طه الحاجري عن فريد وجدي، ص ١٤٧، ١٤٨، وهو أول تاريخ دقيق لفترة من حياة الرجل العظيم.

ما شاء، ثم قال لي: هذا كله حسن، ولكني أرى في مقدمتك ليناً في اللهجة، لا يصحّ أن تكون عليه مقدّمة ردّ مطاعن على الإسلام وجّهها إليه رجل من غير أبنائه لا همّ له إلّا جرح عواطف المسلمين وتسويء سُمعتهم.

فقلت له أليس إلانة القول مع قوة الحجة خير من الشدّة التي ربما نفّرته من قراءة البحث كله فيفوتني الغرض من كتابته، وهذا فرعون موسى الذي افتأت على الله، وادّعى الألوهية قد أمر الله موسى عندما أرسله إليه أن يقول له قولاً ليّناً لعلّه يتذكّر أو يخشى، وأمرنا الله بذلك نصّاً فقال: ﴿ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[1] وما الذي يضيرني لو ألَنْتُ له المقدمة استدراجاً حتى إذا تورّط معي في البحث وأنست روحه منّي قصد الحقيقة اطمأن إلى الموضوع وأشربه قلبه.

فقال: كلا إنك لم تُلِنْ له القول فقط، بل عذرته فيما قال أيضاً، وقلت: إن في المسلمين مَن يقول مثل مقالة كرومر افتتاناً بالعلم الأوروبي، وكفى بجملتك هذه مبرئاً في نظر أهل دولته. ولا يبعد عليه أن يقول في تقرير السنة المقبلة في تبرئة نفسه: إنه معذور فيما ذهب إليه، بدليل ما كتبه فلان في جريدة «اللواء» ويسرد عبارتك بالنص، فتكون قد أعطيته أكبر سلاح يدافع به عن نفسه.

فقلت له: كلّ هذا ممكن، ولكني لا أنظر إلى هذه الاحتمالات ما دام موضوعي الذي أبحث فيه ديني، وربّ الدّين يقول: ألينوا القول للمخالفين ولا تخاشنوهم عند دعوتهم إلى الإيمان.

قال: يا أخي نحن في موضع يجب أن نبثّ في الأمة روح الحَمِيَّة، والعبرة بالكتابة المؤثرة، وهذه فرصة من أجمل الفُرَص لذلك، لا أن نقابلها وهي في هذا الغليان الوجداني بما يكسر نفوسها ويطمئن من إشرافها».

---

(١) سورة النحل: آية ١٢٥.

أسهبت في نقل هذا الحوار، ليعلم القارىء مُثُلَ الأستاذ وجدي وقِيمه التي تسيطر على جهاده القلمي، وهي مُثُلٌ كان من المحتمل أن تتعرّض لما يزعزعها بعض الشيء في نفسه، ولكن إيمانه الراسخ بجدواها اليقينية وثمرتها المبتغاة قد مكّن لها من نفسه رغم ما ينوشها من الهزّات.

وفي ضوء هذه المُثُل كان الكاتب الكبير يقابل السيئة بالحسنة في بشاشة وإقبال، لقد بذل عُصارة فكره، وبدّد هدوء نفسه، وجمع أشتات قوّته، سنوات طوالاً ليُخرِج «دائرة المعارف» في عشرة أجزاء ضِخام، كان يتوقع بعدها أن يجد التقدير المُنصِف والتشجيع الهادف، ولكنه وجد الدكتور: محمد حسين هيكل يكتب في «جريدة السياسة (١٩٢٥/٤/٨) فصلاً طويلاً ينتقص عمل الرجل، ويقلّل من شأنه، ويقول في نهايته: «إن الاضطراب بين الإهمال والإسهاب والإيجاز يرجع إلى أسباب ليس انفراد السيد فريد وجدي بالبحث أهمها، إنما أهمها أن ليس للمؤلّف نهج ولا خطة، ولو كانت ثمّة خطّة، واتّبعت لما كانت هذه العيوب واضحة، ونحسب أن هذا يرجع إلى نوع تربية السيد فريد وجدي العلمية، فهو كثير الاطّلاع والمراجعة لكنه في اطّلاعه ومراجعته لا يصدر عن أساس ذاتي خاصّ».

أجل، وجد الأستاذ فريد وجدي ذلك، وأكثر من ذلك من الدكتور: محمد حسين هيكل، فهل منعه هذا التحامل الظالم أن يسكت عن كلمة الحق فيه، حين أصدر كتابه الشهير: (حياة محمد).

لو كان المنقود شخصاً غير فريد لأغضى وتهاون متذكّراً ما أسلف هيكل له من جحود، ولكن الأستاذ المثالي محمد فريد وجدي يكتب مقالاً في تقريظ الكتاب الرائع ـ من وجهة نظر ذاك العصر، وفي الكلام نظر ـ يقول فيه[1]:

«فإذا تصفّح القارىء الكتاب رأى نفسه حيال بحوث مستفيضة تتجلّى فيها ألمعيّة الدكتور هيكل تجلياً باهراً، تضطره بسحر بيانها أن يقتفي أثرها في أدوار

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس، ص ١٣٦.

هذا التاريخ الحافل بالعظائم، فتمرّ بـه صفحات أمـلاها الإيمـان الراسـخ، والفهم الثاقب والغوص البعيد الغور، مما لا نبالغ إذا قلنا: إن هذه الصفحات من حسنات هذا العصر في البيان والعمق، ولا نشطّ إذا حكمنا بأنها من الطرائف التي كتب لها الخلود».

إن اصـطناع الصخب المفـرقع والـرنين المدوِّي في النقـد العلمي قد يشفي لجـاجة بعض مَن يحسبـون أنفسهم حُمـاة السّـرح وفـرسـان الميـدان، ولكن هـذا الصخب في واقـع أمره يضـائل من أدلتهم المقنعـة، ويرسـل غيومـاً تطمس معـالم الحق لدى المنقودين، وإن تجربة الأستـاذ في التزام السكينـة، واحترام المعـارض مهما اتّسعت الشقّة بينـه وبين مخالفـه لتجربـة جديـرة بالالتـزام، إذ عادت بـأطيب الثِمار على الحقيقة قبل أن تعود بالرضا المُقنِع على الناقد والمنقود.

أذكر أن الدكتور إسماعيل أحمد أدهم ـ وله في الإلحاد وجهـه الصريـح ـ قد كتب مؤلّفاً تحت عنوان: «لماذا أنا مُلحِد» حشاه بمـا يهرف بـه الطبيعيـون من لغط حول المادة، وبُطلان السبب الأول، والصدفة والاحتمال الفـرضي مما هـو معروف لدى أمثاله، إذ أطالـوا الخوض فيـه إطالـة لا تميل إلى اعتـدال، وقد ظنّ الـدكتور أدهم أنه بكتابه قد ألزم مُخالِفيه الحجّة وجـاء بأنصـع الدليـل، ولكن الأستاذ فـريد وجدي ـ والميدان ميدانه ـ قـد نسف الكتاب نسفـاً بمنطقـه الدقيق في بحث علمي مُرَكَّز نشره بالمجلد الثامن من مجلة الأزهر، حيث أشبـع القول إشبـاعاً تكشف بـه عوار هؤلاء المندفعين!.

وقد قرأت الكتاب والردّ عليه منذ زمن بعيد، ثم أُتيح لي أن أصـادق الكاتب المجيـد الأستاذ صـدّيق شيبوب ـ رحمـه الله ـ وكان صـديقاً لأدهم، فـذكـر لي أن الـدكتور أدهم جـاءه ذات يوم ومعـه مجلة الأزهر وهـو يقول: لقـد أدهشني الأستاذ وجدي بمسلكه النقدي وأدبه الحـواري، حتى أوقعني في حيرة بيني وبين نفسي!، لقد التمس لي العذر حين بحث عن أسباب هذا الإلحـاد في تربيتي العـائلية، بين

أُم مسيحيـة وأُختين تُكَذبـان الإنجيل ثم كـرّ على أدلّتي بـأسلحـة علميـة لا تعـرف المهاترة!، فأنا حائر ماذا أقول فيه؟

وإذا صدقتني الذاكرة فإن الأستاذ الشاعر: حسن كامـل الصيرفي قـد نقل لي فحوى ما تقدّم عن صديقه أدهم أيضاً؟.

ألا يـرى معي القارىء بعـد ذلك أن مـوضوعيـة وجدي وبُعـده عن الإسفاف النقدي أقوَم السُّبُل وأجدرها بالاحتذاء لدى المنصفين!.

إن لصـاحب دائرة المعـارف فضله الكبير على الثقـافة المعـاصـرة، ومقـامـه الجهير في الذّود عن الإسـلام، وما أظن أن مقـالنا عنـه يَفِي بصبابـة من حقه وإنـه لحق جليل.

لــــــورد هــدلي
رئيس الجمعية الإسلامية ببريطانيا

- ١ -

حين قـامت في مصر الحـركة الاستقـلالية بـزعامـة سعـد زغلول التهب الشعـور الـوطني بمُعاداة المحتلّين، وسَـرَت الكراهيـة المضطرمـة للإنجليـز في كل نفس، بحيث أصبح البريـطانيون مـوضـع السخط النـاقم لدى كـل مصـري، وصـارت صداقتهم دليل الخيانة الوطنية لدى المُطالبين بالاستقلال والحرية، حتى خاف قادة الاحتـلال على أنفسهم، فما يتنقلون من مكـان إلى مكان دون مـظاهـرة عسكـريـة مـدجّجة بـالحِراب والنيـران، يظنـونها تبعث الـرعب في نفوس الهـاتفين بالحـريـة والجلاء، في هذه الأعـوام الحالكـة التي ابتدأت من سنـة ١٩١٩، وامتدّت بضـع سنوات حارّة كـألسنة اللهب داجيـة كليلات المحـاق، وفد إلى الإسكـنـدرية اللورد الإنجليـزي الكبير سيف الـرحمن رحمـة الله فـاروق: المعروف بـاللورد هيـدلي، رئيس الجمعيـة البريـطانية الإسـلامية فـاستقبل استقبـالاً حماسيـاً تجلّت به مـظاهر الإخاء الإسلامي في أبدع صوره الأخّاذة، وأُقيمت الاحتفالات الباهرة مُرحّبة بالزائر المسلم الكبير.

ونسي المصـريون أن الـزائر إنجليـزي ينتمي لدولـة تسيطر عليهم بـالحديـد والنار، لأنه وهـو المسلم النقي قد ارتفـع بإسـلامه إلى أُفق ينكـر التسلّط والسيطرة وأصبح أخاً لكل مسلم يلوذ بالقرآن ويقتدي بصاحب الرسـالة ﷺ، بـل إن الفرحـة

بقدومه جعلت كل إسكندري يفتح ذراعيه مُعانقاً، وكأنه ينتظر حبيباً طوّحت به النوى إلى أبعد المطارح، ثم تأذّنت ساعة اللقاء بعد سنوات طغى بها الحنين وهاج الشجن، وترقرق الدمع، وقد أُقيمت له حفلتان كبيرتان في أرقى الفنادق، ولولا أن الوقت قد ضاق بالزائر الكريم لأجاب دعوات الأقاليم المختلفة التي خفّت إلى الترحيب به، إذ أنه كان يمرّ بالإسكندرية مروراً عابراً في طريقه إلى مكة حاجّاً بيت الله الحرام، وفق برنامج مرسوم تحدّده الساعات والدقائق، وكان الأمير عمر طوسون أكبر رأس بالثغر إذ ذاك، فجعل الحفلتين الكبيرتين تحت رعاية سموّه، وقد أمّهما من الأمراء والوزراء والعلماء والقضاة والأطباء والأعيان والتجّار والأهالي، حشد لا تعهده الإسكندرية إلاّ في المناسبات الجهيرة ذات المغزى البعيد، ثم افتتح الأمير الكبير الحفلة الأولى بكلمة هادفة قال فيها يحيّي اللورد ومرافقيه:

أيّها الضيوف الكرام، مرحباً مرحباً، وأهلاً وسهلاً لقد خفّت مصر إلى استقبالكم، وابتهجت بمقدمكم الكريم، وكان سرورها بذلك عظيماً، حتى لقد تمنّت كل مدينة أن تسعى بأهلها إليكم، وأن يكون لكم متّسع من الوقت لزيارتها فتقوم بما يجب لكم من الإجلال والإعظام، والترحيب والإكرام، يقول الله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾. وهذا الإخاء وحده هو الذي دفعنا إلى الاحتفاء بكم، توكيداً لذلك الرباط المتين الذي يجمع بين قلوب المسلمين في أنحاء المعمورة، فنحن إنما اجتمعنا لتناول كؤوس الإخلاص الصافية، التي لا تشوبها شائبة، ولنحيا ساعة حياة روحانية تتناجى فيها القلوب، وتتعانق الأرواح، وليس لنا وراء هذه الغاية غرض آخر. هذا المعنى الذي أكّده الأمير في مفتتح الاحتفال يعلن الحقيقة السافرة، وهي: أن رابطة الإسلام أقوى الروابط جميعاً، لا تعدلها رابطة لغة أو جنس أو وطن، وأن المسلم الإنجليزي أو الألماني أو الروسي أخ للمسلم الشرقي يفديه بروحه ويؤثره على نفسه ولو كانت به خصاصة، أولئك كتب الله في قلوبهَم الإيمان وأيّدهم بروح منه. ولعمري لقد أبدع الشاعر الأستاذ؛ أمين سرور العالِم الإسكندري حين قال في حفل اللورد مخاطباً إياه:

إذا كــرّمــوا الأفــراد للدين والفضــل	فـأنت جـديـر بـالكـرامـة يــا هـدلي
تـيـمّـمت مـصــراً والقـلـوب حــوائم	كمـا حـامت الأطيـار بـالمـاء والـظلّ
فكنت كمــا زار الحيــاطيب الثــرى	فـطاب جنى والفرع يعـرف بـالأصـل

وتعريفاً بالرجل الكبير: نذكر أنه وُلِدَ في سنة ١٨٥٤ وتوفي سنة ١٩٣٥ عن إحدى وثمانين سنة، وقد تلقّى علومه الابتدائية والثانوية بأرقى المدارس الإنجليزية، ثم تخرّج في جامعة كمبردج، وحصل على أرقى درجاتها العلمية في الرياضيات، واشتغل بالتدريس والصحافة والهندسة، وكان في بداية أمره بروستانتياً، ثم درس الكثلكة، فضاق ذرعاً بما بين المذهبين من فروق لا تعقل نتائجها وقد هداه ذلك إلى البحث في الأعيان الأخرى كاليهودية والبوذية والإسلام، فأشرق النور في عقله وقلبه، واعتنق الإسلام عن دراسة فاحصة، وتأمّل مستنير، ولم يدّخر جهداً أو مالاً أو صحةً في التبشير به، حتى قام في سنّ السبعين برحلات متتابعة إلى مصر والحجاز والهند وجنوب أفريقيا، داعياً إلى الصراط المستقيم، وقد رأس الجمعية البريطانية الإسلامية ولقّب بسيف الرحمن رحمة الله فاروق، وكتب صحفاً عامّة في الدعوة إلى دين الله، ولعلّ أهمها كتابه الرائع (إيقاظ الغرب للإسلام) وقد ترجمه سنة ١٩٢٣ إلى العربية الكاتب الغيور الأستاذ: إسماعيل حلمي البارودي أحد أعضاء الجمعية البريطانية الإسلامية ترجمة دقيقة، أعتمد عليها الآن في أكثر ما أُشير إليه من خواطر الداعية الكبير نحو دينه الكريم.

وقد كان المعروف لدى جمهرة المحتفلين باللورد هدلي أنه أول لورد إنجليزي أشرق الإسلام في قلبه، وظلّ هذا المعنى مشتهراً ذائعاً يتناقله الناس، حتى وفد على مصر بعد عدّة سنوات، الشيخ عبد الله كوليام: أول مسلم إنجليزي دعا إلى الله، فاحتفلت به جميعة الشبّان المسلمين بالقاهرة احتفالاً يناسب مكانته، وألقى خطبة هامّة تحت عنوان: «نصف قرن على الإسلام في إنجلترا» ولعلّ من الواجب أن نذكر أن الفقيد الكبير الأستاذ: محبّ الدين الخطيب ـ رضي الله عنه ـ قد عمل على نشر هذه الخطبة في أوسع نطاق، إذ نشرها بمجلة الفتح أولاً، ثم

بمجموعة الحديقة ثانياً، ثم بالجزء الثاني من كتاب المنتقى من محاضرات جمعية الشبّان ثالثاً، ولم يكتفِ بذلك كله بل طبعها في كُتَيّب صغير وقدّمه لجمهرة القرّاء.

أقول: إنَّ هذا الرائد الأول الكريم أعلن في كلمته الهامّة: أن اللورد ستنلي أولدرلي قد اعتنق الإسلام قبل هدلي بوقت طويل، وكان يأتي إلى مسجد المسلمين فيصلّي معهم في صفٍّ واحد مع التفاوت الكبير بينهم وبينه في العُرْف الإنجليزي لا في الدين الإسلامي الذي يجعل الناس سَواسية كأسنان المشط، ولا يمكننا أن نقدّر شجاعة كوليام وستنلي أو لدرلي وهدلي وأضرابهم من كبار المسلمين الأوائل ببريطانيا، إلاّ إذا أشرنا إلى بعض ما جاء في خطبة الشيخ عبد الله كوليام عمّا لَقِيَ وإخوانه من الأذى في سبيل الله إذ قال مؤرّخاً بعض مراحل الدعوة في كلمته:

«ومما أُوذينا به أن أولئك الأشرار ـ يريد الحاقدين من القسس وطغام القوم ـ كانوا يلقون الأقذار على المصلّين أثناء الصلاة أو وقت خروجهم من بيت الله، وكانوا يرجمون المؤذّن بالحجارة، وينثرون الزجاج المكسور على سجادات الصلاة ليجرحوا جِباهنا وأيدينا وأرجلنا، وفي ذات مساء انتهزوا فرصة وجودنا في مسجدنا، فجاءوا إلى درجات السّلم ووضعوا أمامها أسلاكاً لنعثر بها عند خروجنا في الليل، ومن محاسن الصّدف أن أحد الإخوان أهدى إليَّ يومئذٍ عصاً، وإن لم يكن من عادتي أن أحمل العصا فحملتها، وبينما أنا خارج من المسجد أمام إخواني حرّكت العصا فصدمت السلك، فانتبهت له وللأسلاك الأخرى، ووقانا الله شرّها وشرّ أصحابها.

ولقد دخلت المسجد مرة أنا وإخواني لألقي عليهم محاضرة في تفسير آية من آيات القرآن الشريف، فرأيت بالمسجد وجوهاً غريبةً مُريبةً سبقتنا إليه، فلم أُبالِ بهم وتلوت الآيات الكريمة، وشرعت أُفسّرها وأستنبط منها العِظات والعِبَر، فلما انتهيت من المحاضرة قام أحد أولئك المُريبين، وأخرج من جيبه حجارة وألقاها في الأرض، ثم توجّه إلى أصحابه وقال لهم: مَن كان منكم يريد أن يرجم

المسلمين بالحجارة التي يحملها معه فقد صرت مسلماً معهم فارجموني، فألقوا حجارتهم وأعلنوا إسلامهم، وهذا الرجل الذي كان رئيساً لهم ما لبث أن صار عضدي الأيمن، وتسمّى: بجمال الدين، ولازمني في كل رحلاتي التي قمت بها للدعوة إلى الإسلام».

ولعلّنا نذكر أن قائد الدعوة الأول محمداً ـ ﷺ ـ قد أُوذي في صلاته وأُلقيت بعض القاذورات عليه وهو بين يدي ربّه، وكان الله ـ عزّ وجلّ ـ قادراً على أن يعصمه من هذه القاذورات، ولكن الحكمة البالغة في ذلك لم تتجلَّ لعيني كما اتضحت لي بعد قراءة كلمة الشيخ: عبد الله كوليام، إذ أن الله ـ عزّ وجلّ ـ قد شاء أن يكون نبيّه الكريم قدوة صابرة لكل مَن يبتلى بالإيذاء في صلاته، فيستمدّ العزيمة القوية في كفاحه، ويرى نفسه يمثّل بعض الأدوار الباسلة التي قام بها الداعية الأول في شجاعة واستبسال، وهذا بعض ما ثبت الداعية الإنجليزي في كفاحه الصابر حين وجد قطع الزجاج الصغيرة تتناثر في خبث ماكر على السجاجيد لتصيب القائمين والرُّكّع والسجود فتشوّه معارف الجبهة، وتؤذي المسلم في صحيفة وجهه على نحو بغيض خبيث.

ولا أشك أن إسلام اللوردين الكبيرين قد قدّم لهؤلاء المستضعفين ما قدّمه إسلام عمر وحمزة من قوّة للداعية الأول، فأصبح المسلمون ببريطانيا ذوي مهابة وبأس، واضطر العقلاء إلاّ أن يستمعوا حججهم القوية، وحسبهم أن صدعوا بكلمة الحق في عالم مادي متناحر، فكانوا شُعلاً وضيئةً تحاول أن تخترق الغياهب، وإنك لا تهدي مَن أحببت.

لقد كانت ثقافة لورد هدلي الراقية ـ فضلاً عن مركزه الاجتماعي المرموق ـ باعثاً مُلِحّاً على الاستماع إليه، والنظر في براهينه، وقد أُوتِيَ من اللقانة والذكاء واللباقة ما جعل خصومه يكرّون أمام حججه، فقد هالهم أن يعرض اللورد في أحاديثه صفحات مُشرِقة عن حياة رسول الله، وطفقوا يقولون: إن الرجل يعرض الإسلام ونبيّه في صورة لا تمثّل الواقع! كأن الواقع الصريح لديهم هو ما افتراه المتعصّبون من القساوسة وأعداء الإسلام عن غرض سافل دنيء!! فجابههم اللورد

بقوله: «إن الحقائق التاريخية الخاصّة بالنبيّ ـ ﷺ ـ من الشُّهرة والثبوت بحيث لا يتسنّى معها اختلاق شيء جديد، فإن لنا معشر المسلمين كتباً ضخمةً مُعتَرَفاً بصحتها تحتوي على أحايث الرسول ـ ﷺ ـ التي محّصها الرّواة تمحيصاً دقيقاً، ومن هذه الكتب نستمدّ كلّ ما نريد أن نكتبه عن الرسول. وقد بلغ من عناية المسلمين بهذا الأمر أنهم يضربون عرض الحائط بكل ما يُقال عنه ﷺ مما لم يرِد له ذكر في كتب السُّنّة مهما حمل من إشادة وتمجيد[١].

وكان الرجل شجاعاً حين واجه رئيس أساقفة كنتر بوري بخطئه؛ إذ قدّم بعض الكتب الطاعنة في الإسلام على غير دليل، فعجب كيف يصدر برعايته مؤلّف صارخ الافتراء، تصفه الكنيسة بأنه كُتَيّب جميل، وتدعو الأمة إلى قراءته، وقد قال اللورد في هذا الصدد: إن المبشّر المسيحي يتحمّل وِزراً ثقيلاً حين يُحرّف الكَلِم عن مواضعه، فيزعم أن المسلمين مثلاً يعبدون محمّداً، ويعتقدون أن النساء لا أرواح لهنّ، ولا يُباح لهنّ دخول المساجد، وإن من الخِسَّة الدنيّة أن يحاول المرء عامداً ترويج معتقداته الدينية بافتراء الأكاذيب على البرآء.

وقد توارد خاطر الشيخ عبد الله كوليام، واللورد هدلي على هدف واحد في لبابه وإن اختلفت العبارة والفكرة اختلافاً يدلّ على طريقة التفكير لدى الرجلين، ولا يدلّ في شيء على اختلاف المنطق الواحد لداعيتين مخلصين يرشدان الضالّين إلى صراط الله القويم، وذلك حين تعرّض كويليام إلى صلة الإسلام بالمسيحية فقال:

«إن الأنبياء سفراء الله إلى الناس، يحملون إليهم قواعد الإصلاح ويدلّونهم على طريق السعادة، وقبل أن يفترق الناس إلى يهود ونصارى ومسلمين كانوا جميعاً على مِلّة واحدة، فجاء المسيح عليه السلام بهداية جديدة أدرك صدقها ونفعها الذين اتّبعوا المسيح، فانفصلوا عن اليهود، وكانوا على حق في هذا الانفصال، لأن المسيحية جاءت مصدّقة لما تقدّمها، ومرشدة إلى الطريق الأقوم،

---

(١) مقدمة اللورد هدلي لكتاب المثل الأعلى للأنبياء «تأليف الأستاذ: خ. كمال الدين» وتعريب الأستاذ: أمين محمود الشريف.

ثم جاء محمد ـ ﷺ ـ مصدّقاً لجميع الأنبياء قبله، ومرشداً إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم بالهداية والإصلاح فانفصل المسلمون أيضاً، وكانوا على حق في انفصالهم هذا، كما كان المسيحيون على حق يوم انفصلوا عن اليهود، فكما أن المسيحية أفضل من اليهودية لأنها وحي أقرب عهداً من الوحي الأول، كذلك كان الإسلام أفضل من المسيحية واليهودية معاً لأنه أحدث الوحي وآخر الديانات وأبقاها. . .».

لقد سلك الشيخ عبد الله جانب الإقناع العقلي، حين وازن بين المسيحية والإسلام من ناحية التطوّر الهادف إلى حياة أفضل، ووضع مواطنيه من المسيحيين أمام منطق صريح يلزمهم بالقول بتفضيل الإسلام على المسيحية ما داموا يعتقدون تفضيل المسيحية على اليهودية: لأسباب تنادي بتفضيل الإسلام على مَن سبقه لو أذعن كل متأمّل إلى الصواب دون عائق من تعصّب وتقليد.

أما اللورد هدلي: ففي سبيل الوصول إلى الهدف ذاته لم يعقد الموازنة بين المسيحية والإسلام، بل عقدها بين المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام فقال في لباقة حصيفة: «من عدّة سنين خَلَت، كان أحد أفكاري الرئيسية هو كيف يمكن للإسلام أن يتغرّب (يصبح غربياً) حتى تمارسه الأمم الأوروبية؟، وبعبارة أخرى كيف يمكننا نحن معشر الغربيين أن نعدّ أنفسنا لنكتسب ونفقه معنى الإسلام الحقيقي؟ ثم تَلاَ ذلك فكر آخر وهو أننا لا نشك ـ ولم نشك ـ في جنسية المسيح الذي نعتقد أنه كان آسيوياً محضاً، كانت أُمه العذراء مريم آسيوية، وكان موسى وكلّ الأنبياء المُوحَى إليهم شرقيين، وكان النبيّ الكريم محمد شرقياً مثل الآخرين، وأُنزلت عليه الشريعة من الله، فالقرآن من كلام الله عزّ وجلّ، كما كان الإنجيل وباقي الكتب الأخرى من كلامه تعالى، والقرآن يثبت الكتب السابقة المقدسة ويضيف تعاليم أخرى تؤكّد أهمية تلك التعاليم الماضية، ولكنه يحرم كل نكهات العباد الوثنية، ويقضي ألاّ يُقرَن اسم لله القويّ الرحيم باسم آخر».

لقد عبّر كِلا الداعيتين عن التطوّر العقدي كما تتابعت به الكتب السماوية، تعبيراً يجعل الإسلام نهاية المطاف لمَن يسترشد بعقله دون حجاب، وينادي بأن

اللاحق ثمرة ناضجة للسابق، وأن الإنسانية لتخسر الشيء الكثير حين تغفل ما أتاحه الإسلام للبشرية من نفع جديد. . .

- ٢ -

يصدر الدّعاة الإسلاميون كتباً كثيرة، تشرح مبادىء الإسلام وأهدافه، ولكن أكثرها يحتاج إلى تجديد في الخطّة والأسلوب، إذ أن بعض هؤلاء يتخيّل أنه يوجّه كلامه للمسلمين وحدهم، فهو يخاطبهم بالآيات والأحاديث بعيداً عن المقارنات المذهبية والتفسير الكاشف، وكلّ ذلك لا يُكسِب للإسلام نفراً جديداً يستميله المنطق الصائب، والحجّة الفاصلة، ومن الاعتراف بالحق لأهله أن نقول: إن إخواننا المسلمين في الهند والباكستان قد أبلوا بلاءً حسناً في هذا المضمار، فجاءت كتاباتهم الإسلامية عاقلة مستنيرة، تسطع حججها الفاضلة كضوء الصباح، لذلك كان ما يصدره أمثال اللورد هدلي ممّن يعتنقون الإسلام بعد بحث دائب، وتهد مُتَّأدٍ أقدر على إقناع مواطنيهم، وأبصر بمواطن الضعف في معتقداتهم، وأن كتاباتهم الداعية لتُعَدّ النموذج الجيد لكل مَن يريد أن يواجه خصوم الإسلام بمنطق لا يفل.

وسنتعرّض في هذا المقال لتلخيص النقاط البارزة في كتاب «إيقاظ الغرب» كما ألّفه اللورد هدلي: نقلاً عن الترجمة الأمينة التي خطّها الأستاذ إسماعيل حلمي البارودي، ليدرك القارىء المُنصِف أن هدلي لم يعتنق الإسلام في ساعة نزق أهوج كما حاول خصومه أن يصوّروه، كما أنه لم يقع تحت تأثير الداعية الإسلامي الكبير خوجه كمال الدين رئيس جمعية التبشير الإسلامية بوركنج، إذ حاول فريق آخر من الحانقين أن يجعل إسلام اللورد الكبير مجرد مصادفة سريعة هيّأت لقاء اللورد بكمال الدين، فتسرّع هدلي بإعلان إسلامه دون اتئاد، وأن ما خطّه اللورد في كتابه يدلّ على أن إسلامه الصادق كان ممتدّ الجذور إلى آماد ترجع إلى شبابه الأول، حين تفتّح ذهنه على آراء في العقيدة المسيحية صعب عليه أن يصدقها، وبذل جهداً جاهداً في الإقناع بها دون جدوى، ثم رأى في عقيدة الإسلام خَلاصاً تامّاً من هذه الألغاز التي تحيّره، فأقدم على اعتقاده في بصيرة ويقين.

أول هذه الألغاز هي عقيدة الثالوث التي صار بها الابن والأب وروح القدس إلّهاً واحداً! كيف تكوّن هذا الإلّه من العناصر الثلاثة؟ وأيّ عقل يتصوّر سلامة هذا التكوين دون أن تغشاه الشبه في كل مكان؟، وقد صار التصديق بهذا الثالوث عقيدة رئيسية للكنيسة الكاثوليكية، إذا لم يعتقدها المسيحي صار هالكاً هلاكاً أبدياً لا تنفع معه نجاة، وإذا كان الله رحيماً عطيفاً فكيف يُهلك هلاكاً أبدياً إنساناً لا يتصوّر إلّهاً يتركّب من ثلاثة عناصر مع عدم إمكان هذا التصوّر منطقياً! أين عدالة الالتزام؟.

ثم إن الدين المسيحي في صميمه دين الرحمة والتسامح فكيف يجرؤ جماعة من البروتستانت المتعصبين على أن يغشوا بيوت الكاثوليك ليشوّهوا لهم كل معتقد كاثوليكي بما يحتالون عليه من افتراءات؟، ثم تنقلب الآية حين نرى الكاثوليك يغشون بيوت البروتستانت للدعاية لمذهبهم بطريق الافتراء عينه فيحترب الجميع لا عن طريق المنطق بل عن طريق الإرهاب والافتراء والتخويف! وإذا استجاز هؤلاء وأولئك لأنفسهم أن يختلقوا الأكاذيب على إخوانهم في المسيحية فقد كان افتراؤهم على الإسلام أقسى وأبشع وأشنع، وقد اكتشف اللورد أنه باعتناقه الإسلام صار أحسن مسيحية من هؤلاء جميعاً، لأن الإسلام قد ورث ما في المسيحية من خير ورحمة وتسامح، ولم يُجِزْ لأتباعه ما تُجيزه الكنائس في المسيحية من إفك واتّهام.

هذه الطوائف المحتربة تتطلب من حكومتها كل سلطة قاهرة للتجبّر! مع أن الإسلام لا يمنح سلطة كهنوتية لأحد فليس فيه باباوات ولا أساقف ولا رهبان ولا قسس يطلبون هِبات أو أرباحاً عن طريق بيع المغفرة وتوزيع المعاشات الدسمة، وقبض المرتّبات الدورية حتى صار كثير من الذين يزعمون بأنهم مسيحيون يظنون المسيحية أيام آحاد محترمة، تُعرَض فيها أحسن الأزياء والملابس، ثم تُقَدّم الهدايا إلى رجال الدين، حيث يتوقف مركز كل مسيحي ـ في جنة الرهبان ـ على قدر ما يدفع من مال، وكأنهم يتبعون نظام المسارح التمثيلية، إذ يجلسون الناس بأُجرة معينة في الألواح المختلفة، للطابق الأول أجْر وللصالة أجْر آخر!، إن ذلك كله

لا يزال حقيقة مُعتَرَفاً بها بين رجال الكنائس اليوم، وإنْ ظن البعيدون عن المسرح أنه أساطير القرون الوسطى والعصور المظلمة، أما القريب فينظر ويلمس ويسمع.

لقد كان مجيء محمد بعد المسيح بستمائة سنة تقريباً كشفاً لفضائح البابوية، إذ تفكّر المؤمنين وتدعو إلى التوسّط الكهنوتي والتوسّل إلى القدّيسين، لأن ديانة المسيح الحقيقية ليست ديانة سانت بولس الذي أضاف إليها ما كدّرها، وحطّم مُثُلها حتى تغيّرت تغيّراً فاحشاً، وحتى فضح القرآن هؤلاء الأدعياء بمثل قوله: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أُمِروا إلّا ليعبدوا إلّهاً واحداً لا إلّه إلّا هو سبحانه عمّا يُشركون، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلّا أن يُتِمّ نوره، ولو كره الكافرون ﴾[1]، وقوله: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله والذين يكنزونَ الذهبَ والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم ﴾[2].

وإنه لمن المدهش حقاً أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباء، حين يسمحون لحِيَل الكهنوت أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء! مع أنَّ مفتاح السماء كما يقرّر الإسلام موجود في مكانه دائماً، ويمكن إدارته بيد أيّ مخلوق ضعيف دون مساعدة من نبيّ أو كاهن أو ملك، إنه كالهواء الذي نستنشقه مجاناً ككل خلق الله! وقد تسبب هؤلاء الكهنة في حروب كالحروب الصليبية وما ماثلها، وفي إجراءات كمحاكم التفتيش لا يُبيحها دين من الأديان، وإن من لوازم الإنسانية أن نبحث عن دين لا يسبّب هذه الفظائع الكارثة، وفي اعتقاد اللورد هدلي ـ رحمه الله ـ أنه بعد تفكير طويل ـ يرى: أنه لو أصبح كل إنجليزي في الإمبراطورية الواسعة محمّدياً حقيقياً بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الأحكام أسهل وأيسر، لأن الناس سينقادون بدين حقيقي، ولن تبقى هناك جمعيات كنسية، ولا منشقّون تُبذَل الجهود للتوفيق بينهم، ولا ضرائب ثقيلة تُدفَع

---

(١) سورة التوبة: آية ٣١، ٣٢.

(٢) سورة التوبة: آية ٣٤.

للمـرور في الطريق المُـوصِل إلى الفـردوس عن طريق الكهّـان، إذ يأكلون أمـوال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله.

ثم يتعرّض اللورد إلى ذكرياته الأولى فيقول:

«عندما كنت أقضي الزمن الطويل من حياتي الأولى في جـوّ المسيحية، كنت أشعـر دائماً أن الـدين الإسلامي بـه الحُسنى والسهولـة، وثبتني في هـذا الاعتقـاد زيـارتي للشرق التي أعقبت ذلـك، ودراستي للقرآن المجيـد، أما من جهـة الجزاء الأُخروي فقد رأيت مُدرّسي الدين المسيحي يتحدّثون بصورة غير واضحة عن نعيم الآخرة، على حين جاء الإسلام بصورة مفصّلة واضحة فأخبـرنا في جـلاء ساطـع، أن الله عزّ وجلّ سيكافئنا بأعظم المسـرّات في العالم الأخيـر، وسنحظى بـزوجاتنـا حظوةً سعيدةً وليس المقصود بذلك حالـة جنسية يلتـذّها المتهتّكـون، بل تقـديم ما يمتّـع الروح والجسم جـريـاً على السَّنن الـطبيعي للكـائنـات وكثيـر من الكتـابـات المسيحية تُثبِط عزم المجتهد الباحث عن الحقيقة بإصرارها على إنكار حقّ الإنسان في التمتّع بمباهج الحياة، سواء في الدنيا أم في الآخرة، كمـا زعم الزاعمـون من مُحتَـرِفي المسيحية بـأن هذه الملذّات البهيجـة ذنوب وآثـام، وقـد جـاء الغيب في أقوالهم فغطّى بظُلمة غامضة، وبدلاً من أن توضـح الكنيسة ألغـازه وأسراره زادتهـا تعقيداً وإبهاماً، فساعـدت على الحيرة واليـأس، مع أن روح الإسـلام تتحدّث عن نفسها بوضوح وسطوع.

هكذا انتصر اللورد لمباهج الحيـاة الطيّبـة، مستنداً إلى قـول الله عزّ وجـلّ: ﴿قل مَن حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبـات من الرزق قـل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾[1].

وإن قارئه ليلمس أنـه ألحّ كثيـراً على تكذيب مـا يزعمـه القساوسـة من إفناء مُخالِفِيهم والعمل على إبادتهم بأمـر الله حتى حرقـوا زملاءهم في الإنسـانية أحيـاء

---

(١) سورة الأعراف: آية ٣٢.

دون رحمة، فإذا لم يقعوا في قبضتهم حكموا عليهم بالهلاك الأبـدي إذا لم يبتلعوا آراءهم المذهبية دون نقاش، وقد استشهـد هدلي في هـذا المجال بشهـادة مُنصِفَة نطق بها الجنرال السياسي غوردون، توضـح الفرق بين طـوية قـوم وقوم، ولم يكن غوردون داعيةً إسلامياً حتى يحوم الشك المتوجّس على بعض قوله، ولكنه مسيحي صميم عاشر أُناساً مسلمين معاشرة الحـاكم الإداري المتيقّظ، فرأى مـا استحقّ أن يسجّله بقـوله: (لم أرَ طبقـة الفـريسيين بين المسلمين الـذين لا يتخـذون كـلّ مـا يتخيّلونه أو يمرّ ببـالهم ـ كما يفعـل فريسيـونا ـ من الحكم على زيـد أو عمرو بـأن نصيبـه النـار، إنـك لا تـرى منهم ســوى الأُنس والبشر اللذين لا تـراهمـا عنـد الفريسيين، وليست هناك سلوى تعادل تلك التي يمتلكها مَن لا يعرف غير الله مـدة بقائه، ولا يؤمن بالأقوال بل يؤمن بالحقائق).

والإيمـان بالحقـائق هو المـطمـح الأسمى الـذي طفق هـدلي يـدعـو إليـه، وبفقدانه تخبط أعداء الإسلام في اتّهامه والإرجاف به دون دليـل، وقد بسط اللورد أمثلة صارخة لهذا الاتّهام الظالم، وأعقبها بما يدحض باطلها الصريح، ثم دعا إلى الإيمـان بالحقـائق وحدهـا عن بحث وتنقيب، فخاطب مـواطنيه بقـولـه: «إنـه لمن الجور أن تحكم على رجل لا تعرف عنه شيئاً كما أن من الـظلم أن تفعل مـا يفعله تسعة وتسعون في المائة من المسيحيين الذين يحكمون على الدين المحمّدي دون أن يبحثوا حتى ولو عن معنى كلمة إسلام، فقـاعدة تـرك الأمور تـأخذ مجـراها هي شِعار هؤلاء الذين لا يريدون أن تُنـار عقولهم، لأن إنـارة عقولهم تحمـل لهم معنى التعب والانزعاج، فيفضّلون أن يـظلّوا متخبّطين في ديجـور الظلام على أن يمـدّوا يدهم ليفتحوا الباب الموصل إلى النور، وكأن كل واحـد منهم يقول: لقـد حصلت على كفايتي فلا أُريد النظر في شيء آخر. ذلك مـا يقولـونه رافضين أن يبـذلوا أيّ مسعىً ليتقدّموا في معرفة الله ورسالاته للجنس البشري».

وقد عقد اللورد باب التحريف المعدي في كتابه القيِّم لينشر بعض الأراجيف الحقيرة التي لفّقتها كتابات الإرساليات المسيحية طعناً في الإسـلام ونبيّه الكـريم،

وهي أراجيف تـدرّ إلى وهـدة وبيئـة من التـوقّـح المستهـزيء بكـل قيم الصـدق والإخـلاص والنّزاهـة، وكاتبـوها قسس يـأكلون بمزاولـة التبشير المسيحي مُـزاولـة ضريرة تتخبط في ظلام الادّعاء، وتغلي بحقود ناغرة لا ندري كيف تعـرف طريقهـا إلى مَن يزعمون أنفسهم دُعاة الله، ومن الخير أن نُعـرِض عن تلخيصها الآن، وقـد أحسن اللورد في التعقيب عليها كل الإحسان، وإن كانت من التهافت بحيث يبصق كل سطر على أخيه، إذ يتناقضان في بعض المعاني تناقضاً سـافِراً على تجـاورهما الملتصق، فكيف تتـآلف الصفحـات المتتـاليـة وهي قـائمـة على المتنـاقضـات المتداعية؟! كمَن أسّس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به دون ثبات.

ومن الـطريف أن كثيراً ممّن جـادلوا اللورد لم يـرقوا إلى مستـواه العقلي مـع تسلّحهم بأرقى الإجازات العلمية، فقد جاءه ـ على سبيل المثال ـ خطاب من أحـد أصدقائه الدكاترة الذين يُزاوِلـون الطبّ، يـناقشه في إسـلامه على أسـاس أنه وُلِـدَ مخطئاً جانياً كما تقول الكنيسة، ولو عقل الدكتور الفاضـل لاتجه في نقـاشه وجهـة تحمل قيمتها المنطقية، ولأن اللورد الكبير بإسلامه المستنير لا يصدق في شيء أنه ولـد مخطئـاً جانيـاً لذنب ارتكبـه آدم وأخذوا أولاده بـه، ثم صلب المسيح تكفيـراً عنـه، إذ أن عدالـة الله تأبى أن يؤاخـد الأبناء بـذنب جدٍّ قـديم! ولعـلّ ممـا يمتّـع القاريء أن يطالع ما دار بين الصديقين، قال الطبيب:

سيـدي اللورد، إنني أعتقـد أن فخـامتـك ستعفـو عن كتـابتي إلى مقـامـك السـامي، لأني رأيت في الجـرائـد أنـك ارتـددت إلى الإسـلام، وقـد صلّيت من أجلك، وأرى نفسي مكـرهاً على أن أستـرعي التفاتـك إلى نقطة الـدين الأصلية، وهي أني وإياك وكل واحد في الدنيـا جانٍ. والله وحـده هو المُنَـزّه، فكيف يمكنك وأنت خـاطيء جـانٍ أن تكـون سعيـداً مـع الله المنزّه في كـل مكـان واحـد؟ . . . وسـأكون سعيـداً إن أمكنك مسـاعدتي على إجـابة هـذا السؤال، حتى تعرف كيف تكون سعيداً مع الله المنزّه في مكانٍ واحد.

صـديقـك المخلص آرثـر روبـرتس ـ دكتـور في الـطب. فكتب اللورد إليـه يقول:

سيـدي العزيـز، استلمت خطابـك، أما قـولك إنني خـاطىء جانٍ فيجب أن تتكلم عن نفسك فقط إن كنت أحد هؤلاء التعساء، وإني لأتوسّـل إليك أن تسمـح لي أن أخبـرك أني على الأخصّ لست بجـانٍ، ولا أحبّ أن أكـون مـع الخـاطئين الجُنـاة في أيّ وقت لأني أجتنبهم بكل عنـاية، وأن اعتقـادي في خـالقي الـرحمن الرحيم ليس له حَـدٌّ، حتى وأني لا أحبّ أن أتكلم عن ذلك كثيراً إلاّ أني أستطيـع أن أؤكد أنني ما خـطوت قطّ إلى واجب من واجبات الحيـاة مهما كـان صغيراً دون أن ألتمس منه المساعـدة والإرشاد فهـو معي دواماً، ثم إني لم أُولَـد في الخطيئـة، ولست مـولود سخط وغضب، ووالـدي ووالـدتي لم يُجـرِمـا في إيجـادي في هـذه الدنيا.

صديقك المخلص: هدلي...

ثم قال اللورد تعقيباً على هـذا الحوار: «لـو علم المستر آرثـر روبرتس: مـا أشعر به من السعادة منذ خلعت عنّي نِيرَ آخر دعـوة للوثنية والخـرافات لاشتـاق هو نفسـه أن يعتنق الـدين الإسـلامي، ولأدرك سعـادة اتصـالـه مبـاشـرةً بـالخـالق العظيم...».

والفصل الأخير من كتاب «إيقاظ الغـرب للإسـلام»، من خير مـا خطّ اللورد هـدلي، لإيضاح لبّ الـدعوة الإسـلامية في المـوعـظة الحسنـة وعـدم الإكـراه في الدين، مع مقابلة مذهلة لِما يبذله المبشّرون بالمسيحية من حِيَل خادعة لتنصير مَن يطلقون عليهم وصف (الكفّار) من المسلمين، وقد قال اللورد بصدد ذلك: «يجب علينـا أن نحترم مَن يسعـون إلى هدايـة المتـوحشين إلى الـدين، أولئـك الـذين لا يعرفون إلَهاً مطلقاً، بل يعبدون الأوثان والحجارة والعصي، ولكن عندما نرى المِنَح والرشوات تقدّم للأفراد على تغيير الدين، يتأكـد لنا عـدم فائـدة طريقـة التبشير في أرض نزل بها أحسن الأديان من قبل».

ثم ختم الكاتب مؤلّفه بهذه النصيحة المخلصة لمبشّري المسيحية إذ قال:

«المرسل المبشّر يُعطى أجْراً ليردّ المُخالفين في الدين، فيعمل بنشاط في مهمته إن أُعطِيَ كثيراً، ويتكاسل ويسوء عمله إن أُعطِيَ قليلاً، إلاّ أني أنصحه بقولي له: إنه يجب عليه ألاّ ينحني ويطأطىء الرأس للطرق السافلة الدنيئة، كما أنه يجب عليه قبل كل شيء، ألاّ يتشبث ويتصلّب في التشويه والتحريف لديانة هؤلاء الذين يسعى جاهداً أن يقودهم إلى طريق آخر» ويا لها من نصيحة مُنصِفة لو وجدت السميع النزيه.

أحمد أمين يتحدّث عن نفسه

- ١ -

الحـديث عن النفس آسن كريـه، إذا كـان المتحـدّث دَعِيّـاً مغـروراً يضخّم نفسه، ويضع مرتبته فوق مكانتها الحقيقية، ولكنـه شائق مُمتِـع إذا صدر من كـاتب مُتّزن حصيف، يعلم أن القارىء أذكى من أن يُخدَع، فلا يتزيّد أمامه بمـا لا يليق، ولقد تحدّث كثير من المؤلّفين عن أنفسهم في القديم والحديث، وكان أحمد أمين ـ رحمـه الله ـ ممّن تحدّث عن نفسـه، فكان مـوضع الإعجـاب لدى نـاقِدِيـه، لأنه اجتهد في تصويـر الواقـع كما استـطاع، وما فـاته أو تـورّط فيه من الآراء في بعض الأحـايين ليس من الإهمال أو الشّـطط بحيث يُحسَب عليه، بـل بحيث تفترق فيـه وجهات التقدير بين الناس، وقـلّ أن يجمع النـاس على شيء. وقد احتـاط الأستاذ في مقدمة ترجمته لنفسه حين قال: «ثم إن حديث الإنسان عن نفسه بغيض ثقيل، لأن حبّ الإنسان نفسه كثيراً ما يدعوه أن يشوب حديثه بالمديح ولو عن طريق التـواضع أو الإيحاء أو التلويح، وفي هذا المديـح دلالة على التسـامي والتعالي من القـائل، ومَدعاة للاشمئزاز والنفـور من السامـع والقارىء، ولـذلك لا يُستسـاغ الحديث عن النفس إلّا بضروب من اللباقة وأفانين من اللياقة».

وقد قدّر على الرجل أن يعيش في إحدى فترات الانتقـال حين اختلط الشرق بالغرب، وظهـر من النظم في التـربية والتعليم والثقـافة والاجتمـاع ما كـان موضـع

الأخذ والردّ حيناً غير قصير حتى استقر الأمر على ما نعهد في أيامنا هذه من مذاهب في التربية والتثقيف والسلوك، وقد عرض الأستاذ تاريخ حياته بحيث أصبح تاريخاً لهذا التطوّر المتجدّد في عصرنا الراهن، مما يجعل الحديث عنه لا يكاد يقف عند شخص بعينه، بل يمتد إلى تصوير جيل بأكمله، ومن هنا جاءت أهمية ما كتب الأستاذ عن نفسه وعن مجتمعه، إذ عرض من الطرق والمناهج والأحداث ما يرسم بعد صور التدرّج الإنساني في درجات الحياة مما يعني المؤرّخ والمُصلِح والناقد والأديب.

وإذا كانت منزلة الأستاذ في ميزان التاريخ منزلة علمية أدبية، ككاتب مؤلّف قُدّر له أن يصحب الدرس تلميذاً ومدرّساً ومؤلّفاً، فإن اقتصارنا من الحديث على هذه الناحية الواضحة من جهده مما يعطي الصورة التاريخية الأمينة لتطوّر النظم التعليمية تدريساً وتأليفاً وتوجيهاً لا في مصر وحدها، بل في أكثر ربوع الشرق العربي، لأن ميادين الثقافة العربية في هذه الربوع كثيراً ما تلاقت على طرق متشابهة، وإذا تقدّمت بعض الأماكن في اهتدائها العلمي، فهو تقدّم يدفع إلى الاحتذاء والتقليد، لا إلى المعارضة والتعويق، لذلك كانت ترجمة الأستاذ لنفسه في خطوطها الشاملة تكاد تكون ترجمة لأعلام معاصريه من رجال الثقافة العلمية الأدبية في إطارها العامّ، لا في جزئياتها المختلفة حيث تختلف الملامح والقسمات، وسنتابع الآن صاحبنا الكبير فيما يقع في الطريق من خطوات لنراه تلميذاً ناشئاً، فشاباً يهدف إلى الرجولة الكاملة، فأستاذاً موجّهاً ذا تأليف وتشديد، سنراه في طفولته التعليمية يؤمّ كُتّاباً أُلحِقَ بمسجد حارته، كل أثاثه حصير بالٍ قد انسلّت بعض عيدانه، وقد وضعت فيه آنية من الفخّار، ذات ماء يشرب المريض والسليم والقذر والنظيف بوساطة كوز معلّق به، وشيخ الكُتّاب ذو عصاً غليظة يؤدّب بها الصغار، فإذا جاء وقت الغداء، اشترك التلاميذ جميعاً في طعامٍ من الفول النابت بعد أن يدفع كل آكل ثمن ما يأكل، على أن يواصلوا الوقت بالقراءة مع الاهتزاز والصياح، فمَن لم يهتزّ أو يصيح لا يشعر إلا والعصا تنهال عليه، فيصرخ ويصيح بالقراءة والبكاء معاً.

وكـان من الطبيعي أن يـأتي أولياء الأمـور تِباعـاً إلى الكُتّاب، ليـرجـوا شيـخ المكتب أن يضرب الطفل ويشتدّ عليه، فلا تعجب بعد ذلك إذا رأيت أرواحـاً ميتة ونفوساً كسيرة كما يقول الأستاذ، وقد تعرّض الطفل لظلم صارخ حين نـادى الشيخ ولدين قويّين من أبناء المكتب، فأدخلا رجليه في (الفلقة) وأمسك بعصاً من جريـد النخل، وأخذ يهوي بها على قدميه بكل قوّته، حتى تشقّقتا وتفجّر منهما الـدم، ثم أسلمه لهذين الولدين يحملانه إلى بيته حيث لا يستطيـع أن يسير، يعـرض الكاتب هذه اللوحة المـاضية ليقـرنها بلوحـة حاضـرة فيقول: أين ذلـك مما نحن فيـه الآن لأطفـال في مثـل طبقتي؟ إنهم يـذهبـون إلى رِيـاض الأطفـال، فتعلّمهم سيــدات مهذبات أو آنسات ظريفات، ويتدرّجن بهم من اللعب إلى القراءة، ويتحايلن على تشويق الطفل إلى الألف والباء، ويسرقن التعليم عن طريق الصـور والأقاصيص في أوقات كلها مرح ودروس كأنها ألعاب وأناشيد وموسيقى، وطبيب يزور المدرسة كل يـوم، ومريض لا يحضـر إلاّ بعـد شهـادة طبيـة تثبت بـراءتـه من السقم، ثم ينتهي الكـاتب إلى الحكم على الحالتين، كعهـده دائمـاً في بحـوثـه العلميـة فيقـول في بسـاطة: أخشى أن نكـون قد أفـرطنا أيـامي في الخشونـة وأفرطنـا أيـام أبنـائي في النعـومة، والحيـاة ليست جدّاً محضـاً ولا هزلاً محضـاً ولا نعيماً صـرفاً، ولا شقـاءً صرفاً، وخير أنواع التعليم ما صوّر صنوف الحياة.

ونتجاوز حديث الكُتّاب إلى الحديث عن الأزهـر، بعد أن نتـرك فترة قصيـرة تعلّم بها الناشيء في إحدى المدارس الابتدائية ثم عَنَّ لوالده أن يترك ابنه مـدارس الأفندية إلى مسـاجد الشيـوخ فيفاجـأ الطالب حين يـرى الأزهر امتـداداً للكُتّاب لا للمدرسة، إنه يسمع عند بابه لأول مرة دويّاً كدويّ النّحل، يضرب السمـع دون أن يستوضح منه لفظاً واحداً، فتأخـذه رهبة مخيفـة، ثم يسير في الممشى قليـلاً ليجد الإيوان متّسعاً وقد فرش كله بالحصير، وامتدت أعمدتـه سقوفـاً، وكل عمـود وضع بجانبيه كـرسي عالٍ مجنّح يشدّ إلى العمـود بسلسلة من حديـد، وجلس على كل كرسي شيخ معمّم بيده ملازم صفـراء من كتاب، وأمـامه حلقـة مفرّقـة أحيانـاً وغير مفرّقة أحياناً، يلبس أكثر الطلاب قباء أبيض عليه عبـاءة سوداء، ويضـع كل طـالب

ملزمته في يده ليتـابع قـراءة الشيخ حين يقـرأ، ويفسّر ملوّحـاً بإشـاراته ذات اليمين وذات الشمال. أما نظام التدريس حينئذٍ، فقد قـال عنه المتـرجم: إن الطالب بعـد أن يقيّـد في الأزهر يُتـرَك وشـأنـه، فهـو يختـار العلوم التي يـدرسهـا والكتب التي يقرؤها، والمدرّسين الذين يدرسونها، فإذا لم يُـرزَق بمرشـد يرشـده غرق في هـذا البحر الذي لا سـاحل لـه، وليس يعرف أحـد أغاب أم حضـر، تقدّم في العلم أم تأخّر، وليس يمتحن آخر العام فيما درس، ولا يسألـه أحد مـاذا صنع؟ فـإذا احتاج لشأن من الشؤون أن يثبت أنه حضـر بعض الكتب على بعض الأساتـذة كتب ورقة كما يشاء ثم مرّ على المدرّسين فأخذ توقيعهم في سهولـة مُفرِطـة وإن لم يروه قبـل ذلك، وبارك الله فيمَن نفـع، ولعلّ من المفيـد أن نذكـر هنا بعض مـا قال الأستـاذ أحمد حسن الزيّات في رثاء أحمد أمين لمناسبته القريبة:

«نشأ أحمد أمين نشأة أزهرية، وأعني بهذه النشأة ما يلازمها من نمط خـاصّ في الحياة والتربيـة والدراسـة والوجهـة، ومن غريب هـذه النشأة أنهـا تساعـد على الهبوط كما تساعد على الصعود، فمتخرّجو الأزهر في العهد القديم كـانوا إمـا قادة للشعب وإما حميلة عليه، لأن حرية التعليم فيه كانت تهيىء كـل نفس لما خُلِقَت لـه، فهذا تعـدّه ليكون قـارئاً في ضـريح أو إمـاماً في جـامع، وهـذا تعـدّه ليكـون مستشاراً في محكمة أو أستاذاً في جامعة، وأحمد أمين كـان كمحمد عبـده، وسعد زغلول، قد زوّده الأزهر بخيـر ما فيـه من صبر على الـدرس، واتّكاء على النفس، واستقصاء لأطراف البحث».

وقد عرض الأستـاذ لبعض ما عـاناه في بـدء حياتـه الأزهريـة، حين قال عن شيخه: إنه بسمل وحمدل، ودعا الله، ثم قرأ المتن والشـرح ففهمت، ولكنه سبـح بعد ذلك في تعليقات واعتراضات على العبارة، وإجابة على الاعتراض، فلم أفهم شيئـاً، حتى بعد أن أحضـرت كـلّ ذهني، ووجّهت إليـه كـل انتبـاهي، فتـذكّـرت المدرسة التي كنت فيها ذات الشرح الواضح المريح، وأصدقائي هناك، مع مقارنة بزملائي هنـا، وليس لي بهم صلة، ثم يعود ذِهني إلى مـا يلقيه الشيـخ فأجـده في

نفس الجملة وفي نفس الاعتراضات والإجابات، يسأله الطلبة ويُجيبهم دون أن أفهم شيئاً، حتى مضت ساعتان دون أن ينتقل الشيخ من جملة واحدة، فسُررت حين ختم الدرس بقوله: والله أعلم!.

على هذا المنهج سارت دراسته في الأزهر، ثم تركه بعد سنوات إلى وظيفة تعليمية بمدرسة ابتدائية في طنطا، وعاد إليه سريعاً ليجد من والده عوناً على تسهيل الدروس الأزهرية، إذ تدرّج به من السّهل إلى الصعب في دروس النحو والبلاغة وفقه اللغة، حتى استطاع أن يشمّ رائحة العلم، ولكنه ظلّ متحفّزاً إلى الخروج من الأزهر، فاهتبل فرصة إعلان للتدريس بمدرسة راتب باشا بالإسكندرية، وتقدّم ليمتحن، ففاز وعُيِّن، ثم قُدّر لمدرسة القضاء الشرعي أن تنشأ وأن تأخذ طلابها من نجباء الأزهريين بعد امتحان عسير، فطمحت بالشابّ همّته إليها وفاز في الامتحان بتفوّق.

وكانت الفكرة في مدرسة القضاء أن تثقف الطالب ثقافة دينية من تفسير وحديث وفقه وأصول، مع ثقافة لغوية أدبية من نحو وصرف وأدب، وثقافة قانونية عصرية، ودراسات إنسانية، وقد اختير لها ناظر كفء، هو: عاطف بركات، ووكّل إليه اختيار المدرّسين، فاستعان بالمدنيين لتدريس العلوم العصرية، وبالأزهريين ليدرّسوا العلوم الدينية، وقد قال أحمد أمين في ذلك: «كنت ترى مزيجاً عجيباً من الأساتذة، هذا شيخ أزهري تربّى تربية أزهرية بحتة ودنياه كلها هي الأزهر وما حوله، بجانبه أستاذ للتاريخ على آخر طراز، تخرّج من جامعات إنجلترا، وأستاذ للطبيعة تخرّج من أشهر جامعات فرنسا، وعلى رأسهم ناظر تعلّم في الأزهر وفي دار العلوم وفي إنجلترا، وكلٌّ من هؤلاء يلوّن الطلبة بلونه ويصبغهم بصبغته.

فكنت إذا أصغيت إلى درس من الدروس فكأنما تصغي إلى درس يلقيه مدرّس من القرون الوسطى فيما يقال وكيفما يقال، ثم يليه درس تسمعه فكأنك تسمع درساً في جامعة أجنبية، غير أنه يُلقى باللغة العربية، ثم يليه درس متأرجح موضوعه قديم ومنهجه حديث، والأساتذة يختلفون إلى حدّ التباين ذوقاً وثقافةً

ومنحىً، ومن وراء ذلك كله ناظر نشيط يلتزم النظام العادل، ولا يسمح بالخروج عنه قيد أُنملة، ونظام المدرسة شاقّ عنيف، فليس هناك ملاحق أو إعادة سنة، فمن يرسب يُرفَض ليحلّ غيره محلّه، وكل الأمور جدّ صارم حتى أوقات الألعاب الرياضية كنّا نؤدّيها في عنف كأنها أشغال شاقّة، فلو طُبِّقَت هذه النظم في مدرسة عسكرية لاستجارت منها.

وبعد أن أفاض الأستاذ في ابتهاجه بالتدريس العصري، وعدّد مزاياه الملموسة، وذكر أساتذته بالخير والثناء، خلص إلى الامتحان النهائي، فذكر توقيفه البارز في التحريري وفي اللجان الشفوية لمواد القانون والطبيعة والتاريخ، ولكن لجنة العلوم الأزهرية وهي مؤلّفة من: مفتي الديار المصرية وشيخ المالكية وشيخ الحنابلة قد أرهقته بأكثر مما يستطيع، وقد فصّل موقفه معها في سطور صارخة، نرى من الخير تسجيلها، لأن نظام التعيين ظلّ قائماً إلى عهد قريب، وقد بلوناه واكتوينا بناره في السنة النهائية من القسم العالي، فهو يمثّل حقبة فسيحة الأمد في التعليم الأزهري، وقد عرض أحمد أمين صورة منه حين قال: «وأما الامتحان الشفوي في لجنة الأزهر فكان موضوعات معينة في كل علم من العلوم الأزهرية، موضوع في النحو وآخر في البلاغة وثالث في أصول الفقه ورابع في المنطق وهكذا، وكل موضوع عبارة عن جملة أو جملتين من كتاب يتعيّن للطالب قبل الامتحان بعشرة أيام، فمثلاً في البلاغة جملة «واستغراق المفرد أشمل بدليل صحة (لا رجال في الدار) إذا كان فيها رجل أو رجلان دون لا رجل».

وهكذا في سائر العلوم أخذت هذه الموضوعات وقرأتها وفرغت منها كلها في يومين وليلتين، ولم أدرِ ماذا أصنع بالأيام الثمانية بعد، ولكن بعد ثلاثة أيام مرّ عليّ في بيتي شيخ أزهري من كبار مُدرّسينا كما مرّ عليّ زملائي ليعرف كيف يُحضّرون موضوعاتهم، فسألني أسئلة لا أعرف من أين أتت؟ ولا كيف تتصوّر؟ ولا كيف يُجاب عنها؟ فخاف عليّ الرسوب في الامتحان، وزارني بعد ذلك مرتين أو ثلاثاً يُلقي عليّ هذه الأسئلة العجيبة والأجوبة الغريبة ومع ذلك لم أتقدّم كثيراً.

وكان يوماً أيوم يوم أدّيت الامتحان فقد جلس هؤلاء الأساتذة الستّة أو السبعة (لا أدري) على الأرائك متّكئين، وفُرِشَت فروة على الأرض جلست عليها متربّعاً، وبدأت أقرأ في الكتاب الأول وأشرح جوهر الموضوع شرحاً صحيحاً، وسرعان ما انهالت عليّ الأسئلة من كل جانب فأُجيب حيناً وأعرق حيناً.

وأذكر من هذه الأسئلة: لم قال المؤلّف (أي) ولم يقل (يعني) فلم أحر جوابا، وهي أسئلة محفوظة مَرِنَ عليها الطلبة والأساتذة المتعمّقون في الدراسة الأزهرية، ولم أُمَرَّن عليها لأني اعتمدت في دراستي على أبي وجلست هذه الجلسة على الفروة ستّ ساعات متواليات لا تتخلّلها راحة، ولا شرب كوب ماء، وكلٌّ من الممتحنين يخرج من حينٍ إلى آخر يتمشّى ويتروّض، ومن حينٍ إلى آخر تُقَدّم لهم القهوة والليمون وما إلى ذلك، ولا يُقَدّم لي شيء، وأخيراً أُفرِجَ عنّي وسُمِحَ لي بالخروج، فلما حاولت القيام لم أستطع أن أمدّ رجلي ولا أعدل قامتي، وأخذت في ذلك زمناً طويلاً حتى عرفت كيف أقوم وكيف أمشي، ولم أدرِ كيف ذهبت إلى بيتي وكيف قضيت بقية نهاري وليلي، ومهما كان الأمر فقد نجحت ولكن تأخّر ترتيبي من الأول إلى السادس».

هكذا انتهت المرحلة التعليمية لأحمد أمين، وقد ظهرت فيها بوادر الكاتب العالِم الذي اكتمل فيما بعد، حيث أُقيمت المحاضرات العلمية العامّة كل أسبوع بمدرسة القضاء، ودُعِيَ إليها كبار المشهورين من الباحثين، من أمثال: محمد الخضري ورفيق العظم وأحمد فهمي العمروسي، فأوجدوا نشاطاً أدبياً علمياً، تفتّحت له الأذهان، وقد اتّسع المجال لنابِهِي الطلاب كي يعدّوا المحاضرات ويُلقوها على سبيل التمرين والتشجيع فتقدّم أحمد أمين بما حاز قبول الناظر الدقيق وأجازه، بل إنه في الشهر الأول من دخوله مدرسة القضاء كتب موضوعاً تحت عنوان «أثر القرآن الكريم في تدوين العلوم» فصادفه التوفيق، وابتهج عاطف بركات بما كتب، وكان كما يقول الأستاذ ـ لا يعجبه العجب ـ ولكنه استحسن الموضوع، وكلما أتى زائر للمدرسة طلب الورقة وقرأها عليه وسمع منه استحسانه، فارتفعت

ثقة الطالب بمقدرته الأدبية إلى حدٍّ كبير. ويروي عن ذكرياته في ميدان المحاضرة بمدرسة القضاء، أنه تحدّث ذات ليلة عن «أسباب ضعف المسلمين» فأوعز ذلك إلى أمور شائكة تتعلّق بالحكّام وبرجال الدين، ودوّى المكان بالتصفيق، ولكن عاطف استدعاه وقال له في حِدّة: هل جُنِنت؟ أمثل هذا يقال؟ ثم أسرّ للشيخ الخضري كلاماً، فقام يعقّب على المحاضرة بما يفيد أني أقصد بالحكومة: الحكومة الماضية، وكذلك رجال الدين من الماضين، أما المعاصرون فهم مثال النّزاهة والطّهر والرقيّ، ثم قال عاطف بعد انتهاء الحفل: إن بقاءك بالمدرسة الآن بيد القدر، فإن ذكرت الجرائد ما قلته واستخدمته في الوقيعة بمدرسة القضاء ضحّيت بك حرصاً على المدرسة، وشاء الحظ أن تمرّ المسألة بسلام!.

ولم ينسَ الكاتب أن يتحدّث عن مظاهر الخير العامّة في أيام التلمذة لعهده، ومما وقع في نفسي أجمل موقع قوله: «ولم تكن قد سادت النزعة الأوروبية التي لا تقدّر الجوار فيسكن الرجل منهم بجوار صاحبه السنين ولا يعرف مَن هو؟ بل قد يسكن معه في بيت واحد أو في شقّة بجانب شقّته ولا يكلّف نفسه مؤونة التعرّف به والسؤال عن حاله، إنما كانت تسود النزعة الإسلامية التي تعدّ الجار ذا شأن كبير في الحياة، فكان أهل حارتنا كلهم جيراناً، يعرف كلٌّ منهم شؤون الآخرين وأسماءهم وأعمالهم، ويعود بعضهم بعضاً عند المرض، ويعَزّونهم في المآتم ويشاركونهم في الأفراح، ويُقرِضونهم عند الحاجة ويتزاورون في المناظر، إذ لكل بيت من طبقة الأوساط حُجرة بالدور الأول أُعِدّت لاستقبال الزائرين تسمى (المنظرة) ويتبادل في هذه المناظر أهل الحارة الزيارات والسَّمَر».

كم تروقني هذه المقارنة بين النزعة الأوروبية في الانطواء الأناني والانكماش الفردي والنزعة الإسلامية في التوادّ والتراحم والمواساة وإسعاف الملهوف ونجدة الصريخ، وإذا امتحنت المدن الكبيرة بهذه النزعة الغريبة الوافدة فلا يزال الريف مغرساً لفضائل الإسلام، يرعى الجِوار ويحفظ الودّ، وأخشى أن تمتد الحضارة الزائفة إليه، فتغيض بشاشته ويجفّ واديه.

- ٢ -

تركنا حديث التلميذ عن نفسه لننتقل إلى حديث الأستاذ في معترك الحياة، وقد كان أحمد أمين قدوة في سلوكه الشخصي، أُسوة في اتجاهه الفكري، وقد بلغ من الاتّزان والتماسك في ناحيتيه العملية والعلمية مبلغاً يحتّم علينا أن نسأله عن عناصر شخصيته الفذّة، وكيف تكامل هذا النمط الرائع من النجاح، لعلّنا نهدي الناشئة إلى ما يفيد في طريقهم الطويل فلا يضلّون.

لقد أخلص الأستاذ لعلمه فدأب في تحصيله حتى وصل به إلى أرقى غايات الإبداع، ولو أنه منح العلم وحده دون الرفقة الصالحة ما استطاع أن يأخذ وضعه الخلقي والنفسي بين الناس، وإن استطاع أن يكون عالماً ذا أبحاث، فبيئة أحمد أمين قد هَدَته إلى اختيار النماذج الصالحة لاحتذائها. كما بعدت به فطرته الطيبة عن النماذج السيئة، فلم تصل به الأسباب إليها في شيء، وإلى القرين الصالح يرجع التوفيق الذي كلّل جهود الرجل، وما أكثر مَن صاحبهم أو عرفهم الأستاذ من الصلحاء، فوضعوا له النماذج في السلوك.

تعرّف الأستاذ في الثامنة عشرة من عمره بالأستاذ عبد الحكيم محمد أستاذ اللغة العربية بمدرسة رأس التين الثانوية، وكان كما يرى أحمد أمين واسع الأفق حرّ الفكر، لا يدين بشيء من الخرافات والأوهام، يؤيد الشيخ محمد عبده في دعوته الإصلاحية، مع إباء في النفس وتودّد إلى طلابه وترفّع عن الصغائر، هدى الشاب الناشىء إلى الدنيا التي يجهل أحوالها بما شرح من غوامض وعلل من ظواهر، فهو ينقد المجتمع نقد الخبير البصير، ويتحدّث عن الشؤون الزراعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية حديث الناقد الفاحص، ويتحدّث عن أعلام عصره في الأدب والتدريس فيزنهم بميزان مُنصِف، لا يميل ولا يتأرجح، ويجمل الأستاذ فضله عليه في قوله: «كان مُكمّلاً لنقصي مُوسعاً لنفسي مُفتّحاً لأُفقي، كان أبي وشيوخي يعاملونني على أنني طفل، فعاملني على أني رجل، فملأ فراغي وآنس وحدتي. . . ولئن كان أبي هو المعلّم الأول فقد كان المعلم الثاني، انتقلت

بفضله نقلة جديدة، وشعرت أني كنت خامداً فأيقظني، وأعمى فأبصرني، وعبداً للتقاليد فحرّرني، وضيّق النفس فوسّعني».

ولكن جهد هذا الفاضل الكريم قد انقطع فجأة بموته، فخلف في نفس تلميذه حسرة وفي عينه دمعة، حتى إذا انتقل إلى مدرسة القضاء وجد ناظرها الكبير: عاطف بركات، يملأ قلبه وعقله وعينه بشخصيته الرائعة وسلوكه الحيّ، فيتّخذه مثله المشهود ويحتذي حذوه ما استطاع.

يقول الدكتور إبراهيم مدكور «ثم تتلمذ (أحمد أمين) لعاطف بركات أحد أئمة المُرَبّين في نصف القرن الأخير، ولا نظن أن من أبناء القضاء الشرعي مَن أخذ من عاطف أخذه، أو تأثّر به تأثّره، تَزَامَلا زمناً وشغفا بالمعهد الذي التقيا فيه حبّاً، وأرادا أن يجعلا منه مدرسة مثالية، لا تُخَرّج علماء وباحثين فحسب بل رجالاً لهم شخصياتهم واستقلالهم، وعلى هذا كان لا بدّ أن يوكل أمرها إلى أمهر المُرَبّين وأكفئهم، وأن يختار لها أحسن الطلاب وأصحّهم».

وقد قضى أحمد أمين حياته يلهج بذكرى عاطف، يكتب عنه ويستشهد به، ويروي بعض مواقعه، مما يؤكد أثره القوي في نفسه، وإذا كان أحمد أمين ممّن اشتهروا بالعدالة الملتزمة اشتهاراً صادف حقيقته، فإن عاطف بركات كان أول الجاذبين الملهمين لهذه الخصلة الرائعة من خِصال أحمد أمين، وإليك بعض ما قاله عنه، وما أكثر ما قال:

«يلتزم (عاطف) النظام الدقيق، ولا يسمح بالخروج عنه قيد أُنملة، إن دقّ جرس الصباح أغلق باب المدرسة لا يدخلها طالب، وتحرّك الأساتذة فوراً إلى دروسهم، ويذهب الطلبة أول العام الدراسي فيجلس كلٌّ في مكانه ويفتح دُرجه فإذا فيه كتبه وأدواته جميعها لا ينقصها شيء، وعدل في معاملة الطلبة والأساتذة لا ينحرف، فمَن ينجح من الطلبة فبالعدل وإن رُقِّيَ الأستاذ فبالعدل، لا يقبل في ذلك رجاء ولا شفاعة.

كانت أكبر ميزة له في عقله، قوّة التحليل وسلامة التفكير وحرية الرأي وقوة الحجة، والإلحاح في الإقناع وسعة الصدر للرأي المخالف، وكانت حريته في تفكيره أقوى من حريته في عمله، فهو في إصلاحه متحفّظ، يقدّر الظروف المحيطة ويعمل في حذر، وأكبر ميزة في خلقه أداء الواجب، لأنه واجب من غير اعتبار آخر، وعدله التامّ ولو لقي في ذلك العناء في بلد تسرّه المُجاملة ولو بالظلم، إن عِيبَ عليه شيء فهو قلّة مجاملته حتى حيث لا تضرّ المجاملة بالخلق، وصراحته التي قد تجرح في موقف لا يدعو إلى الصراحة فيه دفاع عن حق، ثم نظامه العسكري في غير ترفيه... لقد تسلمني من أبي بعد أن ربّاني التربية الأولىٰ، فربّاني التربية الثانية! ولا أدري لماذا نسي الأستاذ أحمد أمين صديقه عبد الحكيم، حين كتب عبارته هذه؛ إذ سبق أن جعل له التربية الثانية لا لعاطف ربما كان أثر عاطف من السطوة والتمكّن بحيث شغله عمّا قال.

وإذا كان من الطبيعي أن يتأثّر التلميذ بالأساتذة، فإن تأثير النابهين من الزملاء في نفس أحمد أمين كان لا يقلّ عن تأثير أساتذته، إذ رزقه الله صفوة مختارة من الأصدقاء هم نابهو العصر في الأدب والثقافة، فأسعدوه وأسعدهم، وتأثّر بهم وتأثّروابه، هؤلاء هم أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر، الذين وكّلوا رياستهم إليه عن صدق وإعجاب، فاجتمع بهم الشمل حقبة طويلة كانت مفخرة عصر، ونهضة جيل.

ومن قبل أسعدته الزمالة الطيبة بندوة علمية في عهد الطلب، تحدّث عنها الأستاذ فقال: «وأحياناً في ليلة الجمعة كنت أغشى منزل صديقي الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكان منزلاً يحتفظ بالتقاليد القديمة لبيوت الأُسر الكبيرة، يكثر زوّارها، وتمدّ موائدها غداءً وعشاءً، ويطيب فيها السَّمَر ويطول فيها السهر، فكان أصدقاء الشيخ من الشبّان ينفردون بحُجرة في البيت، يتلاقى فيها شبّان الأزهر بشبّان الحقوق ببعض مَن يتعلّمون في أوروبا، فتُثار المسائل على اختلاف ألوانها: دينية وفلسفية وسياسية واجتماعية حيثما اتفق، نتبادل فيها الآراء والأفكار، وترى إذ

ذاك آراء المحافظين تناطح آراء الأحرار المتمدنين، ومؤيّدي السفور ينازعون مؤيّدي الحِجاب، والوطنيين يثورون على الجامدين. . . وهكذا من سَمَرٍ لذيذٍ يمتدّ إلى نصف الليل، فتكون من ذلك متعة عقلية وروحية لطيفة.

أما كيف سعد بزملائه من أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر، فإنه يذكر أن الظروف السعيدة دفعته إلى التعرّف سنة ١٩١٤ بشبّان ممتازين يتثقفون بغير ثقافته، إذ أن ثقافتهم عصرية بحتة، وثقافته شرعية كثيراً وعصرية قليلاً، وقد يُفهَم من تقسيم الأستاذ أنه يعتقد أن الثقافة الشرعية غير عصرية كما يزعم بعض الغافلين، وهذا ما لا أراه إذ أعرف أنه يُراعي العُرف العامّي وحده في ذلك، ثم يقول عن أصدقائه: إن منهم مَن بلغ درجة جيدة في الجغرافيا والتاريخ العامّ والأدب الإنجليزي، ومنهم مَن بلغ هذه الدرجة في الرياضة والطبيعة والكيمياء، وكلّهم يعرف من الدنيا الجديدة والمدنية الحديثة أكثر مما يعرف، وقد كانوا يجتمعون وإياه في بعض المقاهي بادىء ذي بدء، فتكون من أحاديثهم مادة شهيّة مختلفة الطعوم متعدّدة الألوان، فعاشق الأدب الإنجليزي ذو ذوق وتحصيل فهو لا يفتأ يقرأ ويتحدّث بحماسة عمّا قرأ وأعجب به، وكان يتولّى تلخيص القصص الإنجليزي الرائعة للأستاذ أكثر من غيره، لأنه في رأيه يُجيد الاستماع ويحرص عليه.

أما قارىء التاريخ ـ ولعلّه يقصد الأستاذ العبادي ـ فيفتن بأسلوب الأوروبيين في كتابتهم التاريخية، ويعجب بقدرتهم على التحليل الدقيق، ورجوع الجزئيات إلى كلّيّاتها، وحريتهم في تقدير الأبطال، والاعتداد بشخصيتهم، فقد يهدم بعضهم بطلاً أجمع الناس على بطولته، أو يشيد بذكرى مغمور أجمع الناس على خموله، ثم ينقد كتابة التاريخ عند العرب، إذ أحسنوا رواية الأحداث ولم يُحسِنوا فلسفتها إلّا ما كان من ابن خلدون: فقد أحسن في فلسفة التاريخ وقصّر في تطبيقها على الأحداث، ثم يحاول هذا الشاب أن يطبّق مذهبه، فيعرض علينا نمطاً من بحثه في عمر وعليّ مثلاً على نمط جديد، فيه التقدير وفيه النقد.

وهناك عالم الطبيعة والكيمياء، وقد جعل نفسه وعلمه وكلّ إمكانياتـه وثقافتـه لخدمة دينه ـ وهو بالتأكيد أستاذنا الدكتور محمد أحمد الغمراوي ـ أثّـر في كثيرٍ من الطلبة في مدرسة المعلّمين العليـا، فديّنهم ومـلأ المسجد بهم، وقـد حفظ القرآن وأطال قراءته وبذل جهداً في فهمه، وهو يفهم كما يقول المفسّرون ويزيد عليهم ما يفهمـه من نظريـات الطبيعيين والكيميـائيين، ومـا يقتبسـه من أقـوال المتـدينين من علماء أوروبا.

يحلو له الكلام في الـدين وهدايـة الضالّين، ويعـزّ عليه أن يسمـع إلحاداً أو كلمةً يُشَمّ منها الإلحاد، بل لا يسمح أن ينقد أحد أمراً من أمور الدين ولو كان في التفاصيل، قويّ الحجّة طويل النفس في المناظرة، مؤثّـر إذا قال، جـزل الأسلوب إذا كتب، يدرس الكيمياء والطبيعة فتكون ديناً، ويشـرح النظريـة الكيماويـة فتكون من سُنن الله الكونية، يتحرّج صحبه أن يـذكروا أمـامه شيئـاً يمسّ شعوره الـديني، وعاطفته المسلمة، ويهابونه في طربوشه أكثر ما يهابون عمامة الأستاذ.

وهذا أستاذ رياضي كيميائي ـ لعلّه يقصد الدكتور أحمد زكي ـ ولكنـه لا يقلّ ثقافةً عن المتخصّصين في الأدب، يقرأ الأغاني والعقد الفريد وينقدهـا ويتذوّقهـا، ويقـرأ الكتب الكثيرة في الثقـافة العـامّة الإنجليـزية في الأخـلاق والاجتمـاع وعلم النفس، ويتأثّر بما يقرأ إلى حدٍّ كبير، ويتحمّس له ويقتنع بـه، ويأتي فيحـدّثنا بمـا يقرأ وما فكّر فيما قرأ، وله أسلوب لطيف ساخر جامح في نقد مـا يرى ومـا يسمع، تطبيقاً لنظرياته التي اعتنقها من قـراءته، ولا بـأس أن يغلو في الهدم، ولا بـأس أن يغلو اليوم في عكس ما غلا فيه بالأمس، ثم يوجز الأستاذ أثر هؤلاء الزمـلاء البالـغ في نفسه إذ يقول:

«كلّ أولئك كانوا مدرسة لطيفة مفيـدة لي، مدرسـة خَلَت من عبوس الجـدّ، وثقـل الدرس وسمـاجة تحـديد المـوضوع والـزمان والمكـان، ونَعِمتُ بالبعـد عن الامتحـان وصُداع الجـرس. مدرسـة فيها الجـدّ والفكاهـة والعلم والأدب، والدين

والشعر، والتقريظ والنقد. مدرسة يكون فيهـا التلميذ أستـاذاً والأستاذ تلميـذاً، وإن شئت فقل إن كلّ مَن فيها أستاذ تلميذ. مدرسة فيها حـرية القـول وحريـة السّماع، وحرية الموضوع، وحرية كلّ شيء، تقارب فيها سنّ الأساتـذة والتلاميـذ فتجانست مشـاعرهم، وتشـابهت آمالهم ومـطامحهم، وتفتّحت نفوسهم لـلاستفـادة من تنـوّع مواهبهم.

وبهذه المدرسة أحسست أني أقرب من عقليـة أصحابهـا ومزاجهم وثقـافتهم شيئاً فشيئاً، وأبتعد عن عقلية زملائي الأقدمين ومزاجهم شيئاً فشيئاً، ورأيتني بفضل مـا شـوّقـوني إليـه من كتب أُكـوّن لنفسي نـواة الكتب الإنجليـزيـة بجـانب الكتب العربية، وأُحضّر منها دروسي في الأخـلاق والمنطق، وأمـلأ الفراغ بـالمطالعـة في هذه وتلك، وإذا العين تتفتّح والأُفق يتّسع.

ولا شك أن لشخصية أحمد أمين الخلقية والنفسية أكبر الأثر في جذب هؤلاء الغرباء بثقافتهم عن ثقافته إلى قلبه، بل في هيامهم بمحبته حتى اختاروه رئيساً في لجنة التأليف والتـرجمة والنشـر أربعين عامـاً متواليـة، وقد أفصـح زميله في اللجنة الأستاذ محمد فريد أبو حديد عن بعض ذلك حين قال عنه:

«كان أحمد أمين يتوسّط أصدقاءه، وكأنه يجرّد من نفسـه لكلٍّ منهم شخصـاً يناسبه ويلائمه، مهما كانوا يختلفون في الـطِّباع والميـول، وقد كـان لهذه المقـدرة على الألفة والإيحاء بالثقة أكبر الأثر في قوّته الـدافعة، التي كـانت دائماً تؤثّـر فيما حوله، وكان دائماً يتعاون ويُثير فيمن حوله روح التعاون، وكان دائماً مخلصاً، ويثير فيمن حـوله روح الصـدق والإخلاص، وكـان صريحـاً عادلاً، يُـوسِع صـدره دائماً للصراحة والعدالة، وكـان يقدّس الحق، ويـذعن له مسـرعاً راضيـاً، حتى كان في بعض الأحيان يرتـدّ من طرف في الـرأي إلى الطرف الآخـر، إذا ما تبـدّى له وجـه الحق عند المناظرة، ولكنه كان في الوقت عينه يتطلّب الحق فلا يتساهل فيه ما دام قد احترمه مع غيره».

أما تشدّد الأستاذ في الحق، فيستدلّ عليه بموقف بارز يدلّ على رجولته المخلصة، حين تحدّث عن عمله في مجلس الجامعة العربية، وهو الحفل بعلية القوم وصفوة الرؤساء من المفكّرين، فأفاض في أثر المجلس ورسالته ثم قال في نفسه:

«وكان من تجاربي ـ في مجلس الجامعة ـ أن رأيت أكثر الناس يسيرون مع العظماء في آرائهم وأفكارهم، ولو اعتقدوا بُطلانها، ولكن إذا تشجّع أحد، ودافع عن الحق، وجهر به وصمّم عليه تبعه هؤلاء وانضمّوا إلى جنابه ضدّ العظماء، فليس عندهم من الشجاعة ما يبدؤون به قول الحق، ولكن ليس عندهم من السفالة ما يناهضون به قائل الحق، ولقد شعرت في هذا المجلس بفضل عاطف بركات عليّ، وما علّمنيه من قول الحق ولو مُرّاً، والانتصار له وإن أُوذيت في سبيله.

وحدثت حادثة في أول انتخابي لمجلس الجامعة، كانت مِحَكّ الاختبار، فإما سيرٌ مع التيار حقّاً كان أو باطلاً، وإما التزام مهما استتبع من الضّرر، فقد أُعلِنَ عن كرسي لأستاذ القانون الروماني في كلية الحقوق، فتقدّم إليه بعض العلماء، أفضلهم أستاذ إيطالي وأستاذ فرنسي، فقرأنا المؤهّلات ففضّلنا الأستاذ الإيطالي لعِظَم مؤهلاته ومؤلفاته العالمية في الموضوع، وفضّلت وزارة المعارف أو بعبارة أدقّ وزير المعارف الأستاذ الفرنسي لاعتبارات نجهلها، ولم يكن معنا وزير المعارف ولكن كان وكيله عضواً في المجلس يتكلم برأيه، ويدافع بقوة وفصاحة عن اتجاهه، فوقفت مع اثنين من زملائي بجانب الأستاذ الإيطالي، وشغل الموضوع مجلس الجامعة عدّة جلسات، وكلما أفحمناهم بالحِجَج أجّلوا الموضوع لإعداد حجَج أخرى.

وأخيراً بعث إليَّ وزير المعارف فقابلته، وكلّمني في موضوع آخر ليس هو الغرض من الدعوة، فلما استأذنت في الانصراف قال: إنه بلغه أني أُعارض أشدّ المعارضة في تعيين الأستاذ الفرنسي، وأن هناك اعتبارات تجعله أليق وأنسب، فقلت: أظن أن معالي الوزير يسرّه أن يرى رجاله يدافعون عمّا يعتقدون أنه الحقّ،

وأنهم يتحدّثون بما في ضمائرهم، وكما يتجلّى الحقّ أمام أعينهم وسلّمت عليه وانصرفت.

وأخيراً تقرّر في مجلس الجامعة تعيين الأستاذ الإيطالي فكان نجاحاً باهراً، شجّعني على المضيّ في هذا الطريق، وأُشهِد الله أني التزمته في كل ما عُرِض، وأني اتخذت المسائل المعروضة كالقضايا التي كانت تُعرَض عليّ إذا كنت قاضياً، أنظر إليها وأدرسها، وأسمع حجَج المتخاصمين فيها، وأحكم حكماً موضوعياً لا شأن فيه لعواطفي ومشاعري ما أمكنني، وقد استفدت من هذا المجلس تجربة أخرى، وهي أن كثيراً من الناس يتضايقون من المعارض وقد يحاولون إيذاءه والتنكيل به، ولكنهم إذا تيقنوا أنه إنما يدافع عمّا يعتقد، وأنه إذا دافع بأدب، وفي لياقة ولباقة من غير أن يمسّ شعورهم وكرامتهم كان موضع الاحترام والكرامة من مؤيّديه وخصومه جميعاً».

لقد أفَضْتُ في نقل ما كُتِبَ عن هذا الموقف، لأُشير إلى أن أحمد أمين الرجل قد بلغ من الرجولة منزلة أحمد أمين العالِم من العلم، ونحن في حاجة ماسّة إلى الاقتداء برجولته أكثر من احتياجنا إلى الاقتداء بكفاحه العلمي، مع ما تُوّج به من توفيق ونجاح وذيوع! وقارىء هذا الفصل يذكر أن عناصر هذه الرجولة الكبيرة قد وجدت مكوّناتها الذاتية لدى أساتذته الكبار، من أمثال عاطف بركات، ولدى زملائه المخلصين، حين جعلوا حرية الرأي رائدهم في البحث والحكم، مع ما وجدت من قراءاته الكثيرة في كتب التاريخ، ولكن هذه الكتب وحدها لا تقوم مقام درس عملي يلقى من عظيم كبير كحسن عاصم باشا: الذي تحدّث الأستاذ عن موقف كريم له فقال عنه:

«لقد اشتهر بمتانة الخلق والحزم والتشدّد في الحق والالتزام به، كان مُشرفاً على مدارس التعليم التابعة للجمعية الخيرية، وحدث أن تبرّع أحد أثرياء المحلّة الكبرى بأرض واسعة لبناء مدرسة للجمعية، وقام بنفقات بنائها ووقف عليها بعض أملاكه، ثم أراد أن يُدخِل ابنه في المدرسة وكانت سِنّه تزيد شهراً عن السنّ

المقرّرة، فأبى عاصم باشا قبوله قائلاً: لقد تبرّع هذا الرجل للجمعية فيجب أن يُشكَر، ولكنه أراد أن نخرق قانون الجمعية فيجب أن يُصَدّ، وقد ألحّ عليه الشيخ محمد عبده وحسن باشا عبد الرازق ليقبل الولد تلميذاً فرفض، وصمّم على الاستقالة إن قُبِل، وهو نمط غريب في الشرق المليء بالمُجاملات وقبول الرجاء مهما خالف العدل والقانون».

- ٣ -

أما أن الدكتور أحمد أمين عالِم بحّاثة، أرّخَ تطوّر الفكر الإسلامي أوضح تأريخ، وفصّله أجمل تفصيل، فذلك ما كان موضع الاتّفاق بين نقّاد العصر وباحِثِيه، وقد كشف الدكتور طٰه حسين عن وجه الحق فيما صنع الدكتور أحمد أمين حين قال في مقدمة ضحى الإسلام: «لن تكون حياة المسلمين منذ اليوم كما كانت من قبل غامضة مضطربة، يتحدّث عنها مؤرّخو الآداب بالتقريب لا بالتحقيق، ويقولون فيها بالظنّ لا باليقين، وذلك عصر قد انقضى وألقي بينه وبين الذين سيؤرّخون الآداب ستار صفيق، ألقاه أحمد أمين، وأصبح الذين يقصدون إلى تاريخ الأدب قادرين منذ اليوم على أن يحقّقوا ويستيقنوا ويسيروا في بحثهم على بصيرة وهدى».

كما أجمل الدكتور عبد الرازق السنهوري رأيه في سلسلة الفجر والضحى والظهر حين قال: إنها سلسلة من الكتب هي أقوم وأروع ما وضع عن الحياة العقلية والفكرية للإسلام منذ فجره، إلى أن اشتدّ عوده واكتمل، فأسّس صديقي مدرسة في الفكر الإسلامي، لا أعرف أن معاصراً قام بعمل يُدانيها، وستبقى هذه المدرسة راسخة بالأصل باذخة الفروع، تظلّ الجيل بعد الجيل وسيكثر تلاميذها، وسيتّخذ هؤلاء التلاميذ من صديقي لمدرستهم أستاذاً إماماً وزعيماً فكرياً كبيراً».

وأنا الآن لا أجمع ما قال كبار الباحثين عن الرجل، بل أُمهّد لحديثه عن نفسه بفقرات كاشفة، مما كتب باحثان خطيران لا يرسلان القول على إطلاقه دون دقّة نظر، وعدالة موازنة، ليعلم القارىء أن أحمد أمين العالِم، حين يتحدّث عن

مؤلّفاته العلمية وطريقته المنهجية، إنما يتحدّث عن ميدان كان من أشهر أبطاله المناضلين، وإذا كانت كتبه العلمية فتحاً جديداً في التأليف المنهجي، فقد سبقه إلى الميدان رجال يؤلّفون ويكتبون على غير طريقة السابقين، بحيث كان عمل الدكتور خطوة تالية لمجهودهم الموفّق، بل ثمرة ناضجة لشجرة قطعت زمناً مناسباً في النموّ والإيراق والإثمار.

لقد حفلت دار العلوم ومدرسة القضاء بنخبة من الكاتبين، أمثال الشيخ الخضري، والشيخ محمد المهدي، والشيخ محمد زيد، فنقلوا التأليف العلمي خطوة شرحها الأستاذ في قوله: «وهم فئة تعوّدوا النظام والقدرة على الإيضاح من دار العلوم، ولم يلتزموا عبارات الكتب وإن التزموا موضوعاتها، واتصلوا بالشيخ محمد عبده، وكانوا من خاصّة تلاميذه يعتنقون مبادئه ويستنيرون بآرائه وتوجيهاته، فلم يكونوا يلتزمون الكتب، وإنما يضعون مذكّرات من أنفسهم، يعتمدون فيها على الكتب القديمة، ولكنهم يعرضونها عرضاً جديداً، وقليلاً ما يأتون بالشيء من أنفسهم، ولهم علم بالدنيا أكثر من علم الأزهريين، وتجارب في الحياة استمدّوها من أعمالهم ومناصبهم، كانوا يلقنونها إلينا مع دروسهم».

درس لنا أصول الفقه الأستاذ الشيخ محمد الخضري، وكان لبِقاً لَسِناً ذكيّاً واسع الاطّلاع حاضر البديهة، يُجيد اللغة العربية وفروعها، والتاريخ الإسلامي، كما ورد في المؤلّفات القديمة، والعلوم الإسلامية كما تلقّاها من شيوخه، وله قدرة على استساغة ذلك كله وإخراجه في عبارة عصرية جديدة، أقرب إلى الفهم.

ودرس لنا الشيخ محمد المهدي أدب اللغة العربية وكان هذا الأدب حديث العهد في مصر، فالناس لم يكونوا يعرفون الأدب إلّا على النحو الذي جاء في مثل كتاب الأغاني والعقد الفريد والأمالي ونحو ذلك، أما تقسيم الأدب إلى عصور وترجمة شعراء كل عصر وناثريه، وميزة أدب كل عصر وخصائصه، فشيء لم يكن معروفاً في مصر حتى أتى الأستاذ حسن توفيق العدل، وقد تعلّم في ألمانيا، فأدخل هذا العلم على هذا النمط في دار العلوم، إذ كان أستاذاً فيها، مسترشداً

بما كتبه الألمان في تدريس أدبهم، وجاء تلميذه الأستاذ المهدي فبنى عليه، وأعدّ لنا مذكّرات واسعة فيه، وكانت ميزته الكبرى تذوّقه الأدب وتقويم جيّده من رديئه، وحُسْن إلقائه للشعر وجمال نغماته وكان كثيراً ما يخرج من الدرس إلى تعاليم الشيخ محمد عبده من الدعوة إلى عدم زيارة القبور وإنكار الشفاعة بالأنبياء والأولياء ونحو ذلك.

وكان من طائفة دار العلوم أيضاً: الشيخ محمد زيد وهو: رجل وقور جليل المنظر مهيب الطلعة، يحتفظ بكرامته ويعتزّ بشخصيته، درس لنا الفقه، وكان قد مَرِنَ عليه في التدريس بمدرسة الحقوق، فنقل الفقه من كتبه الأزهرية التي تعتمد على الجزئيات إلى وضع قواعد كليّة تطبّق عليها الجزئيات، وكان سَلِس العبارة ميّالاً إلى الإطناب.

هؤلاء بعض أعلام الحركة الأولى للبعث العلمي في مصر: محمد الخضري ومحمد المهدي ومحمد زيد، كلٌّ في موضوعه، ولو اقتصر أحمد أمين على طريقتهم المحدودة ما وصل إلى ما وُفّق إليه في الفجر والضحى والظهر، وليست بذلك أُضائل من أقدارهم العلمية، فهم إحدى حلقات التطوّر العلمي الذي يتقدّم إلى الإمام دون طفرة واثبة تفجأ الناس بما لا يعهدون فينصرفون عنهم غير نادمين، وإنما أُريد أن أقول إن أحمد أمين قد أضاف إليهم انتفاعه بدروس الجامعة المصرية القديمة، وهي ذات طراز مختلف تحدّث عنه الكاتب بقوله عن هذه الجامعة: «لقد أعجبني من دروسها محاضرات يلقيها الأستاذ نللينو في تاريخ الفلك عند العرب، ومحاضرات في الفلسفة الإسلامية يلقيها الأستاذ سانتلانا، ومحاضرات في الجغرافيا العربية يلقيها الأستاذ جويدي، وكنت أحضر هذه المحاضرات لماماً وفي غير انتظام والتزام لثقل العبء عليَّ بمدرسة القضاء، ولكن على كل حال رأيت لوناً من ألوان التعليم لم أعرفه، استقصاء في البحث، وعمق في الدرس، وصبر على الرجوع إلى المراجع المختلفة، ومقارنة هادئة بين ما يقوله العرب وما يقوله الإفرنج، واستنتاج هادىء رزين من كل ذلك، وهكذا أثّر

الشرقيون والغربيون معاً في اتجاه الباحث تأثيراً قاده إلى انتهاج خطة جديدة، في تأريخ الفكر الإسلامي، كُتب لها الإمامة والتصدّر في عالم الثقافة المعاصرة، بحيث أصبحت كتبه المرجع الأول في بابها، وقد كتب الكاتبون من بعده في موضوعها، ولكنهم عجزوا عن الوصول إلى ذروتها، مع أنهم لاحقون قد مهّد لهم السابق الطريق».

ولم يفت الأستاذ أن يسجّل طريقته في الكتابة العلمية والأدبية معاً، والإشارة إلى هذه الطريقة مما يفيد الباحث عن القدوة الصحيحة في طريقة التأليف، ويوفّر عليه جهداً كبيراً إذا انتفع بما سنّه الكاتب من منهج، وما استفاد من تجاريب، وقد تطوّرت طريقة الدكتور نفسه بمزاولة التأليف تطوّراً وفّر عليه كثيراً من الجهد والوقت، إذ أنه في فجر الإسلام ـ وهو أول مؤلفاته ـ كان يتبدىء برسم المنهج وكتابة الفهرس مرتباً، وفق تقديره.

وها هو ذا يقول عن نفسه: «كنت إذا وصلت إلى موضوع أجمع مظانّه من الكتب، وأقرأ فيها ما كتب عنه وأُمعِن النظر، ثم أكتب مستدلاً بالنصوص التي عثرت عليها حتى أفرغ منه، وأنتقل إلى الموضوع بعده وهكذا» حتى فرغ من الفجر، ثم انتقل إلى الضحى، فترقّى في منهج التأليف مستفيداً من خبراته.

وقال في وصف منهجه الجديد: «لقد رتّبت موضوعاته التي تستغرق ثلاثة أجزاء، وأحضرت ملفّات كتبت على كل ملفّ اسم الموضوع، ملفّ عليه اسم المعتزلة، وملفّ للخوارج، وثالث للجواري، ورابع للثقافة الهندية، إلخ، ثم حصرت أُمّهات الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات كالأغاني والحيوان للجاحظ، وكتب ابن قتيبة وابن المقفّع ونحو ذلك، أقرأها كلها، فإذا وصلت إلى نصٍّ يتعلق بالمعتزلة كتبت في ورقة صغيرة مغزى ورقم الصفحة في الكتاب، ووضعتها في ملفّ الموضوع، وهكذا حتى أفرغ من هذه الكتب كلها، وهذا دور التحضير، فإذا جاء دور الكتابة استخرجت ملفّ الموضوع وأعدت النظر في الجذاذات، ورتّبتها حسب الترتيب المنطقي، وفكّرت فيها وبدأت أكتب، وكلما

عَنّت فكرة جديدة رجعت إليها في مظانها، حتى ينتهي الموضوع فأنتقل إلى ما بعده، وهكذا حتى فرغت من الضّحى بأجزائه الثلاثة في نحو ستّ سنوات».

ولم يقتصر الدكتور أحمد أمين على البحث العلمي، بل عالج المقالة الأدبية والاجتماعية، بحيث أصدر مجموعة مقالاته في عدّة أجزاء من فيض الخاطر، ولا بدّ لنا أن ننتفع بتجربته في دنيا الأدب الذاتي، كما انتفعنا بها في التاريخ العلمي، فلنستمع إليه يقول:

«كنت أكتب في كل أسبوع مقالة، وكان هذا عملاً أدبياً يلذّ نفسي بجانب بحثي العلمي، فأنا كل أسبوع أفكّر في موضوع مقال وأُحرّره، ويضطرني ذلك إلى قراءة كثيرٍ من الكتب الإنجليزية أستعرض فيها ما يُكتَب وكيف يُكتَب، وأعتمد أكثر ما أعتمد على وحي قلبي أو إعمال عقلي أو ترجمة مشاعري، وكانت مقالاتي تتوزّعها هذه العوامل الثلاثة، ولقد اطمأننت إلى هذا النوع من الكتابة، إذ كان يفتح عيني للملاحظة والتجربة، ويسرّي عن نفسي بالإفراج عمّا اختزنته من حرارة، فكنت أشعر بعد كتابة المقالة كما يشعر المحزون دمعت عينه أو المسرور ضحكت سنّه، وكنت أحسّ كأن نحلة تطنّ في أُذُني لا تنقطع حتى أكتب ما يجيش في صدري، فإذا استولى موضوع المقالة على ذِهني فهو تفكيري إذا أكلت أو شربت، وحلمي إذا نمت، وعمل وعيي الباطن إذا شغلت، ولهذا انقلبت هذه الظاهرة إلى عادة ومن عادة إلى كَيْف متسلطن.

ولي تجربة في هذا الباب، وهي أني إذا عمدت إلى إعداد بحث علمي كفصل من فصول فجر الإسلام أو ضحى الإسلام، فأنا كل وقت صالح لهذا العمل ما لم أكن مريضاً، أما في المقالات الأدبية فلست صالحاً في كل وقت، فلا بدّ أن تهيج عواطفي بعض الهياج وتهتزّ نفسي بعض الاهتزازات، وأنسجم مع الموضوع كل الانسجام، فإذا لم يتيسّر لي كل هذه الظروف، كنت كمَن يمتح من بئر (يريد بئراً بعيد القرار لا يصل إلى مائه إلّا بصعوبة) أو ينحت من صخر، وأحياناً أرى القلم يجري في الموضوع حتى لا أستطيع أن أقفه، وأحياناً يسير في بطء وعلى

مهـل حتى لا أستطيـع أن أستعجله، وأحيانـاً يتعثّر فـلا أجد بُـدّاً من الإعراض عن الكتابة، ومن الصعب تعليل ذلك، فقد يكون سببـه صلاحيـة المزاج وسـوءه، وقد يكون قوة الدواعي وضعفها، وقد يكون الاستعداد للتجلّي وعدمه.

وقـد اعتدت عنـد كتابـة مقال أن أرسم المـوضوع إجمـالاً لا تفصيـلاً، وإذا رسمته أبَحْتُ لنفسي أن أُغيّره وأبدأه إذا جدّ جـديد، وكثيـر من المعاني التفصيليـة تـأتي وأنا أكتب لا وأنـا أفكّر قبـل أن أكتب، ولهـذا حين أُصِبْت في عيني ونهـاني الأطباء عن الكتابة زمناً صَعُبَ عليّ الإمـلاء، ولم أجد من غـزارة المعاني مـا كنت أجد عند مزاولة الكتابة بنفسي».

ثم دَعَت الكـاتب صراحتـه البسيطة أن يقـول في غير ادّعـاء: «واعتدت منـذ أول عهدي بالقلم أن أقصد إلى تجويد المعنى أكثر ممـا أقصد إلى تجـويد اللفظ، وإلى توليد المعاني أكثر من تزويق الألفاظ، حتى كثيراً ما تختلّ (ضمائري) فأُعيـد الضميـر على مؤنث مذكـراً وعلى مذكـر مؤنثاً، لأني غـارق في المعنى غير ملتفت إلى الألفـاظ، ولا أتـدارك ذلـك إلّا عنـد التصحيـح، وقـد يفــوتني ذلـك أيضــاً، ولتقديري للمعنى أميل إلى تبسيطه حتى لأُسرف أحياناً في إيضاحه لشغفي بوصوله إلى القارىء بيّناً، ولـو ضحّيت في ذلك بشيء من البـلاغة، ومن حبّي لـلإيضاح، أُفضّـل اللفظ ولو عـاميّاً على اللفظ ولـو فصيحـاً، إذا وجـدت العـاميّ أوضـح في الدلالة وأدقّ في التعبيـر، وأُفضّل الأسلوب السهـل ولو لم يكن جـزلاً، إذا وجدت الأسلوب الرصين يغمض المعنى أو يثير الاحتمالات، ويدعو إلى التأويـلات، ومن أجل هذا تشكّك فيَّ الأدباء، هـل يعدّونني أديبـاً أو عالمـاً؟، ولم أقم لهذا الشـك وزنـاً فخير لي أن أصـدق مع نفسي ومع غـرضي ومـع ميلي من أن أُزوّق أسلوبي ليُجمِع الناس على أدبي».

تلك مقتـطفات من حـديث الدكتـور عن أدبه وعلمـه، وقد فضّلت أن أكتفي بتقديم حديثه دون الإلحاح على تتبّعـه، وإن كان الـرجل قـد ترك النـاس يتخبطون في الحكم عليـه، أهو أديب أم عـالِم دون أن يقيم لتخبّـطهم وزنـاً، فـإني أرى أن

أختم هـذه المختارات من قـوله بـرأي أديب كبير في أسلوب أحمـد أمين ذٰلكم هو صديقه المغفور له أحمد حسن الزيّات، إذ يقول عنه في مقالـه التأبيني: «إنـه كان من الكُتّاب العقليين الذين يُزاولون الكتابة عن علم لا عن سليقة، ويتّخذون الأدب وسيلة لا غاية. كان همّه من الكتابة أن يقـرّر ويقنع لا أن يؤثّـر ويُمتِع، ولعـلّ منشأ ذلك أن عقله كان أخصب من خياله، وأن علمه كان أكبر من فنّه، وأن حبّه للحرية والصـراحة كـان يحبّب إليه إرسـال النفس على سجيّتها من غيـر تقييدهـا بـأسلوب معين، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشي خاصّ، ومـع ذلك كـان لأسلوبه طابعه المميّز وجاذبيته القوية تقرأ فلا تروعك منه الصور البيانية الأخّاذة ولا الأصـوات الموسيقيـة الخلّابـة، وإنما تـروعك المعـاني المبتكرة الـطريقة، والآراء الصريحة الجريئة، والشخصية القوية المهيمنة، فأنت منه بإزاء عالِم يبحث لينتج، أو مُصلِح يصف ليعالج، لا بإزاء مصوّر يلوّن ليعجب، أو موسيقار يلحن ليـطرب، على أنه كان يتوخّى الجمال أحياناً في الأسلوب بحكم الأثر الذي تـركته فيـه درايته للقرآن والحديث، وروايته للشعر والنثر، ودراسته للبيان والنقد، فيجمـع بين حُسْن الفكرة وجمال الصورة، ويلائم بين رزانة المعنى ورصانة اللفظ».

ثم ختم الزيّات مقاله الرائع بمـا نقتبسه الآن في ختـام حديثنـا عنه إذ قـال: جعـل الله روحه للخلد كمـا جعل ذكـره للخلود، وعوّض الأدب والعـرب من فقده خير العِوَض. . .

محمد إقبال
شاعر الإسلام وداعية الحق

- ١ -

جعل توماس كارليل الشاعر بطلًا، فهو في كتاب «الأبطال» يقرنه بالأنبياء والمُصلِحين من قادة المجد وهداة البشرية، وقد اختار شكسبير ودانتي ليمثّلا البطولة الشاعرة في رأيه حين واجها الدنيا بما فيها من مثالب ونقائص، فكشفا النقاب عمّا يتخلّلها من شهوات ونزوات، وفضحا النفس الإنسانية إذ تغلغلا إلى الأعماق الدفينة في أطوائها تغلغل الفاحص الدقيق، ثم صوّرا ذلك كله فيما أخرجاه في دنيا الأدب من روائع باهرات، وقد كان توماس كارليل مُنصِفاً صادقاً في أكثر آرائه، ولو أنه أدرك شاعرنا الكبير محمد إقبال ما تردّد في اتخاذه نموذجاً للبطولة، إذ لا أعلم في الدنيا شاعراً غيره، صنع بشعره صنيع الأبطال حين أنشأ أمة بقلمه لا بسيفه! وبلسانه لا بجيشه، فأيّة بطولة حسّيّة أكثر وضوحاً من بطولة إقبال؟ أما بطولاته النفسية الكثيرة فتظهر بقوة وإعجاز في أقواله وأفعاله على السواء!.

لقد كان إقبال بطلًا لا نظير له حين نادى أول مرة بضرورة قيام دولة إسلامية منفصلة، لها مُثُلها الثابتة ودستورها الخاص، ثم سلّط أسلحة براهينه وحججه حتى استطاع أن يجعل الحلم المتخيّل حقيقة ماثلة!!، وأن يقود المشاعر المتطلّعة الحالمة إلى يقين ثابت المعتقد، وهدف واضح المعالم، فإذا «الباكستان» بعد

أعوام تنهض على قدميها حصناً من حصون الإسلام، وأمة عزيزة غالبة تجلجل مآذنها بالأذان، وتدوّي مساجدها بالصلوات والدعوات، ولو نادى بهذه الدعوة إنسان محدود الثقافة ضيق النظر لرُمِي بالجهل والتعصّب والجمود، ولكنه إقبال قائد الطليعة ورجل الثقافة وصاحب الصّيت الرنّان.

لن ندرك عظمة إقبال وسموّ هدفه ومرير كفاحه إلاّ حين نعلم حقيقة عصره، ومأساة الإسلام الدامية في إبّان كفاحه، لنرى أيّ رجل هيّأته الأقدار ليصدّ الهجوم الآثم، ويرسم الطريق السّويّ، ثم ليقود السفينة المتأرجحة فوق عباب البغي والعدوان، وبين عواصف التبشير والاحتلال، حتى تصل إلى المرفأ بعد عناء مرير قريرة العين، حميدة السّرى، حسنة المآل.

يقول الدكتور يحيىٰ الخشّاب موضحاً مُلابسات الزمن في جهاد إقبال، ومُجمِلاً بعض ما اصطرع في مفتتح حياته من نقاش متذبذب حول الغايات والأهداف:

«عاش إقبال الفترة الأولى من حياته في خِضَمّ الحوادث التي كانت تتلاحق على العالم الإسلامي، الذي كان يدور في مطلع القرن العشرين في فلك الخلافة العثمانية.

وتأثّر في شبابه بما ذاع من إثارة النعرة العصبية بين أقوام المسلمين، وعرف ما كان يدور في تركيا من جماعة تدعو إلى التورانية، وترك الفكرة الإسلامية الجامعة إلى التورانية: التي تنظر إلى الشعب التركي على أنه من نَسْل المغول، وعلى أنه قادر على أن يلمّ الشمل مع بني عمومته في قلب آسيا، ثم في أوروبا، في بولندا وفنلندا.

وسمع جدال الجماعة التي تدعو إلى الجامعة الإسلامية وتنشد إيقاظ المسلمين، وتحثّهم على الرجوع إلى قواعد الإسلام الأولى.

وسمع دُعاة اللاتينية، وهجر الحرف العربي، ودُعاة السّفور وإلغاء الحجاب، ودُعاة فصل الدولة عن الدين، والسّير بالدولة قُدُماً في ظلّ المبادىء التي نادت بها الثورة الفرنسية.

وقـرأ في هذا أشعـاراً لتوفيق فكـرت، وضيا كـوك آلب، قرأهـا بالألمـانيـة، فأشعار الرجلين كانت تلقى في الغرب رواجاً وتأييداً.

وقرأ في الوقت نفسه أشعاراً لمحمد عاكف يدافع فيهـا عن الإسلام، وينهـل فيها من تاريـخ الإسلام، ويحثّ فيهـا على التمسّك بـالإسلام كمـا كان أيـام النبي والراشدين.

وقرأ رسائل جناب شهاب الدين التي يستخدم فيها المنـطق السليم في لباقـة وبراعة، ويستشهد فيها بأقوال الفـلاسفة في أوروبـا وكتّابهـا وعلمائهـا، مُحاوِلاً أن يصـدّ التيـار العنيف الـذي يتخـذ من الشِّعـارات وسيلة لتحـطيم فكـرة الخلق الإسلامي.

واستمـع إلى سعيد حليم، ينـاضـل في قـوة عن حـزب الإصـلاح الـديني، ويتطلّع إلى الحجاز فإذا به يقرأ عن الرجل الذي قـام في نجد ينـادي بتنقية الـدين ممـا علق به من شـوائب كادت تُـودي بأهله، داعيـاً إلى الاستقامـة التي تحلّى بها النبي وأصحابه أيام الدعوة الإسلاميـة، ويرى أن دعـوة محمد بن عبـد الوهّـاب قد أثمرت، فهي تجري على كل لسان، وهي تسـري في الجزيـرة العربيـة إلى شمال أفريقية، ممثّلة في الحركة السنوسية، وهي سارية في أدب العرب نثرهم وشعرهم، وإن لم يصـرّحـوا بـاسم المُصلِح العـربي خشيـة الحـاكم المستبـدّ في إستنبـول والقاهرة.

وينظر إقبال إلى بلده فـإذا الاستعمار يحطّ عليهـا بكلكله، ويفسد فيهـا غايـة الإفساد، وبينما الشِّعارات الزائفـة تقوم بمعـركتها في تـركيا، إذ بـالإنجليز يعبثـون بالإسلام عبثهم بسائر الأديان في الهند».

ذلك هو إجمال الواقع كما لخّصه الدكتـور الخشّاب، وهـو واقع يتـطلّب في كل قطر إسـلامي رجالاً من طـراز ممتاز، يكـون لهم تأثيـرهم الداخلي واحتـرامهم الخارجي، ليقودوا الصفوف ويردّوا الهجوم.

وكان إقبال في الهند أحد هؤلاء المُصلِحين الذين يستطيعون حمل الراية في ثبات، فهو في قومه أبعد الناس عن المطامع الشخصية، وأنآهم بسيرته النظيفة عن الوصولية المستغلّة، مع ما يزدان به من إيمان واثق، ونفاذ بصير، وطموح هادف، وهو في أوروبا أحد الأفذاذ الأماثل ممّن يعتصمون بفلسفة هادفة مثالية، ويتسلّحون بقوّة مُثرِية من الثقافة والاستشفاف والإدراك، وقد شهدت مؤلّفاته بعمق الفكرة وسَداد النظر، فإذا تصدّر للقيادة في ملئه فما أجدره بالنجاح!.

وإذا كان للداعية المُصلِح أسلحته الحاسمة في ميدان الجهاد، فقد شاء الله أن يكون الشعر أبرع أسلحة إقبال نفاذاً وتأثيراً في النفوس، وقد أصبح شاعر الإسلام في العصر الحديث، لا لأنه أكثر من النّظم في المناسبات الإسلامية كما تعوّدنا أن نُضيف هذا اللقب إلى بعض شعرائنا في العربية ممّن يتّخذون المواسم التاريخية ميداناً للتذكير بمجد السّلف، بل صار إقبال شاعر الإسلام، لأنه أحسّ بهموم المسلمين في شتّى ممالكهم إحساس المتألّم المتحسّر، وطفق يعبّر عنها تعبيراً يقرؤه كل مسلم مترجماً عن الأردية والفارسية إلى لغته، فيلمس فيه آهات صدره ولذعات فؤاده، ويشعر أن إقبال هو الوتر الذي أبدعه الله ليترجم عن عواطف المسلمين ترجمة الشاعر المُرهَف الرقيق.

وإذا كان الحديث عن شاعر مُلهَم كإقبال، فإن آثاره الفريدة، ومقطوعاته الرائعة تُغني عن كل تفسير، وحسبنا أن نذكر أمثلة منها لتوضح التيار العميق الذي يندفع من نفس الشاعر الكبير، وهي كنماذج أدبية تغني غناء الشرح التحليلي في التراجم التاريخية، وماذا عسى أن يقول المؤرّخ مع النصّ الشفّاف المجنّح؟ بحسبه أن يسير في ظلّه إن استطاع.

يدرك الشاعر مأساة الإسلام في تأخّره الحضاري وتكالب الاستعمار والإلحاد على بلاده، فيصيح في مُناجاة لربّه، متذكّراً مجد الأسلاف:

«اسمع يا ربّاه شكوى عبادك الأوفياء، إنما نُسمِعك نفثات القلوب المكلومة، لأن نوائب الأيام أجبرتنا على ذلك، كان يسكن هذه المعمورة

السلاجقة، والطورانيون، والصينيون، والفارسيون، واليونان، ولكن قل لي بنفسك: أيّهم تناول السيف بيده لإصلاح المجتمع وقطع دابر الفساد من الأرض غير المسلمين.

كلما حانت الصلاة أثناء صليل السيوف، ولّت الأمة الحجازية وجهها شطر القِبلَة وسجدت لله شاكرة، ووقف (محمود) الأمير (ووايـاز) المملوك في صفٍّ واحد، فلم يبقَ هناك عبد ولا مولى، ولمّا وصلوا إلى حضرتك صاروا وحدة جامعة».

وينظر إلى عصبة الأمم في جنيف وقد أقامت نفسها في الظاهر لرعاية السلم، حين تكالب زعماؤها في باطن الأمر على إثارة الحرب، فيتذكّر رسالة الإسلام الخالدة إذ أشرقت من مكّة، ويصيح مؤكّداً رسالة دينه النبيل في وحدة البشر على السّواء:

«لقد عمّت في هذا العصر مجالس الأمم، لكن الوحدة الإنسانية بقيت مختفية عن الأنظار، والهدف الذي ترمي إليه حكمة الأفرنج هو تفريق الأمم.

وغاية الإسلام إنما هي الوحدة الإنسانية، لقد بعثت مكّة إلى جنيف بهذه الرسالة، ماذا تريدين؟ عصبة الأمم أم عصبة بني آدم»؟.

ويمرّ بباريس فيرى مسجدها الذي بناه الفرنسيون في عاصمتهم ليخدّروا به المخدوعين من جَهَلَة المسلمين، فتدمع عيناه إذ يتذكّر ما جناه هؤلاء الأوغاد على دمشق، حين حطّموها بالقذائف ذات صباح ويقول متأثّراً:

«مسجد باريس، إن هذا الحرم الغربي بعيد عن الحق، بل ليس هذا بحرم، وإنما أخفى صُنَّاع الأفرنج روح الوثنية في جثمانه، وإنما أسّس هذا لمعبد أولئك السفّاكون الذي دمّروا دمشق بأيديهم».

ويتألّم مرة ثانية لكوارث سوريا فتدركه اللمحة الشاعرة ويهتف:

«منحت أرض سورية للأفرنج نبيّ العفّة والرفق في المعاملة، وجاء من أوروبا مكافأة لسورية: الخمر والمُقامرة وكثرة المومسات!!».

ويا لها من مقابلة مريرة تكشف الخبيث من الطيب لذوي العيون، وهي لا تقلّ عن قوله في نكبة فلسطين:

«أدام الله خمّارة الأحرار الفرنسيين، حيث نرى كؤوس حليب مملوءة بالصهباء، إن كان لليهود حقّ على فلسطين فلماذا لا يكون للعرب حقّ على أسبانيا»؟.

ثم تزعجه نكبات الطليان في طرابلس الغرب، وكارثة الإسلام في أدرنة فلا يستسلم لليأس بل ينادي بالأمل القريب إذ يردّد:

«إنك مسلم، فاجعل قلبك معموراً بالأماني والآمال، فإن الله لا يخلف الميعاد، هَلُمّ ننشر الأزهار والرياحين على قبر الشهيد الذي فعل المسفوح من دمه بأُمّتنا فِعْل الغيث بالشجرة النابتة!.

إن عشيّة الألم تسفر عن صباح العيد، لقد تبلج فجر الأمل من دياجير اليأس».

فإذا مرّ بصقلية، تذكر ما كان بها من مجد للإسلام، وأرسل زفرته الحارّة منظومة في هذه الأبيات:

«ساعديني أيتها العين الثُرارة وابكي ما شئت دموعاً ودماءً، فإن تربة المدينة الحجازية ماثلة بين أعيننا.

كانت هذه البلاد يوماً ما مركزاً لهؤلاء العرب إذ كانت البحار ملعباً لسفائنهم في سالف الأزمان، هؤلاء الذين زلزلوا عروش الأكاسرة والقياصرة، وكانت سيوفهم مخدعاً للبروق الرواعد!.

اشرحي حالك يا صقلية، فإني بقية من الركب الذين كانوا ينزلونك، وسأذهب بهديتك إلى الهند، وأُبكي بها أناساً كما بكيت أمامك الآن».

هذا الشعور العميق بنوائب الفكرة الإسلامية كان يؤرّق الشاعر ويضنيه، ومن الناس مَن يحسّ إحساسه، ولكنه يقف الموقف السلبي، يطوي الضلوع على لظى الحسرة، ثم يكِل للأيام أن تأتي بالمعجزات الخوارق، كأن قوانين الطبيعة لا تخضع لنظام خاصّ في التغيير والمحو والتطوّر من حال إلى حال، أما الشاعر فقد أخذ بعد تشخيص الدّاء يبحث عن الدواء ويطب لهذه العلل المضنية، مستعيناً بألمعيته الوقادة، وبصره النافذ، حتى وجد الحلّ العملي فأعلنه غير هيّاب!.

مَن لي بمَن يبعث في النفوس حرارة إقبال، والتياع إقبال؟!.

لطالما امتلأت عقول الشبيبة الإسلامية بثمار العلوم والفلسفات من شرقية وغربية، وقديمة وحديثة، ولكنها تكدّست بها متراصّة متزاحمة، حتى أفسد بعضها بعضاً، ولم تتحوّل في العروق إلى دماء تفور، وفي العيون إلى بريق يُومِض ويُنير، فلو كان لهذه الشبيبة الضائعة مع ما أتخمها من المعارف الثقيلة هذه الحرارة الظامئة، وهذا الالتياع المتأجّج، لوجدنا أجيال القرن العشرين تتلظّى حفاظاً، وتغتلي حمية، وإذا كان من المتعسّر أن نرى بيننا أفراداً كإقبال، فليس من المتعسّر في شيء أن نرى ملايين المسلمين يردّدون شِعر إقبال، ويهتفون به في كل لحظة، إذا تهيئوا لاستقباله، وأدركوا مَرماه فاستشعروا تلك اللوعة: وكابدوا هذا الغليل اللواح.

لقد أدرك الشاعر قيمة هذا الظمأ الحَنَّان، فوجّه الأنظار إليه حين قال من قصيدة رائعة:

«انزل أيّها المسلم إلى أعماق نفسك، وادخل في قرارة شخصيتك حتى تكتشف سرّ الحياة، أَنصف نفسك يا هذا، وكن لها وفيّاً، إن عالم القلب كله حرارة وسكر وحنان وشوق، أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال، ثروة القلب لا تفارق صاحبها، أما ثروة الجسم فظلٌ زائل ونعيم راحل، إن عالم القلب لم أرَ فيه سلطة الأفرنج ولا اختلاف الطبقات».

ويقول أيضاً في عبارة مُشجِية واتجاه فريد:

«كن مثل فريد العطّار في معرفته، وأبي حامد الغزالي في علمه وذكائه، كن مَن شئت في الحكمة، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنّة في السّحر.

خذ منّي ما شئت يا ربّي ولكن لا تسلبني العزّة بأنّة السّحر ولا تحرمني نعيمها، اللّهمَّ ارزق الشباب أنّتي في السّحر، وأنبِت لصقور الإسلام القوادم والخوافي التي تطير بها وتصطاد، ليس لي أُمنية يا مولاي غير أن يعمّ نور بصيرتي سائر الشباب من المسلمين!».

هذا حديث الشاعر عن لواعجه وحنينه!، وأعنف ما تكون هذه اللواعج استثارة، وأعظم ما يكون هذا الحنان توهّجاً في السّحر الهادىء، حين تهفو النفوس إلى عالم الحق والخير والجمال، وإذ ذاك تتصاعد من القلب أنّة الأسحار.

- ٢ -

شغلت آراء الدكتور محمد إقبال في مختلف شؤون الحياة الإسلامية فريقاً من الكُتّاب المعاصرين، ما بين مؤيّد ومُعارض، وهذا طبيعي جدّاً بالنسبة لكل رأي مبتكر يصدر عن مفكّر مسؤول، إلاّ أن جميع مَن تعرّضوا لنقده قد أجمعوا إجماعاً مُنصِفاً على نزاهة ضميره وعمق إيمانه وشدّة إخلاصه، إذ أن قوّة الرجل في صياغة حجّته، وحرارته في تبيان وجهته، قد أجبرتا أشدّ خصومه على احترامه وتقديره، فمهما امتدّ بساط النقاش، وتشعبت مناحي الرأي، فشخصيته مجال الإعجاب.

لقد دار النقاش طويلاً حول مذهبه في تقدير الذات وإعلاء مكانتها، ولكي نبسط رأي إقبال في هذا المجال، ينبغي أن نعرف أن التصوّف الإيراني قد وجد في البيئة الهندية مرعاه الخصيب، ففهم بسببه الإسلام فهماً خاطئاً لا يمتّ إلى منبعه الأصيل: من قرآن سماوي وحديث نبوي، إذ أصبح دُعاة التصوّف يمجّدون الانطواء والاعتزال، ويرون السموّ في الانسحاب عن المجتمع، ثم أضافوا إلى

الدين معاني جديدة لا تهدف إلى القوة، أو تدفع إلى السيطرة والاعتزاز، ولكي لا نظلم السادة المتصوّفين قيد شعرة فإننا نشير هنا إلى ما جاء في «الرسالة القشيرية»، وهي من أُمّهات كتبهم المعتمدة ثم نشفعه بما نادى به إقبال من سموّ للنفس وتقدير للذّات.

لقد خلص المتصوّفة إلى أن صفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني، وأن وفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب، وأن دوام مواصلاتهم يقتضي لهم الريّ، وبعبارة أخرى يعبّر الصوفيّة عن هذه الأحوال وعمّا بينها من فروق، فيقولون: «إن صاحب الذّوق متساكر، وصاحب الشرب سكران، وصاحب الريّ صاحٍ، وإن مَن قوي حبّه فقد تسرمد شربه»[1]!.

ولو ذهبنا نفسّر هذا الكلام على وجهه المراد لديهم لراعنا أن نعرف أن الصحو عندهم هو السكر النهائي عن الوجود الكوني، وأن أقوى المحبّين مَن دام سكره إلى الأبد حتى يصبح سرمدياً لا يميل إلى يقظة!!، فكلّ مراد المتصوّف أن يغادر الدنيا قبل الموت، فيغدو بمعزل عمّا سوى مواجيده وأذواقه وتساكره وسكره!، فإذا بلغ مرحلة الريّ فهو الغائب الذي لا يشهد في نظر الناس، والشاهد الذي لا يغيب في رأيه ورأي زملائه المتصوّفين!. وإذا انتشر هذا الاعتقاد بين المسلمين وصار مثلاً أعلى يهدف إليه خُلاصة المتّقين، فإن الخطب عمّ.

وقد لمّح إقبال نذر الكارثة فيما سيطر على الشرق من انحلال، وفيما رانَ على المسلمين من تخلّف، فنهض لمحاربة التصوّف الانسحابي، ونادى بفلسفته القوية في تقدير الذات.

وقد اضطر إلى أن يشرح هدفه في رسائل كثيرة خطّها للمعترضين عليه، ومنها ما كتبه إلى السيد حسن نظامي ننقله عن كتاب أستاذنا عبد الوهّاب عزّام[2]:

---

(١) من كتاب ابن الفارض، ص ١٦٦، نقلاً عن الرسالة القشيرية.

(٢) إقبال، للدكتور عزّام، ط ٢، ص ٨٨.

«إن حالة السكر في اصطلاح الصوفيّة تنافر الإسلام وقوانين الحياة، وحالة الصحو وهي الإسلام موافقة قانون الحياة، وإنما قصد الرسول ـ ﷺ ـ إلى إنشاء أُمّة صاحية، وأصل المسألة أن الصوفيّة أخطأوا خطأً كبيراً في فهم التوحيد. ووحدة الوجود، ليس هذان الاصطلاحان مترادفين كما توهّموا، فالأول مفهوم ديني، والثاني فلسفي محض، ليس التوحيد ضدّ الكثرة كما يظن بعض الصوفيّة، بل هو ضدّ الشّرك، وأما وحدة الوجود فهي ضدّ الكثرة، وكانت نتيجة هذا الغلط أن عُدَّ من الموحدين طائفة ذهبوا إلى وحدة الوجود أو التوحيد في اصطلاح فلسفة أوروبا الحاضرة، على حين أن المسألة التي ذهبوا إليها لا تتعلق بالدين بل بحقيقة نظام العالم، إن تعاليم الإسلام واضحة وهي أن ذاتاً واحدةً تستحقّ العبادة، وأن كل الكثرة التي تُرى في العالم مخلوقة.

ليست عقيدة وحدة الوجود من تعاليم القرآن، فإن القرآن يبيّن المُغايرة التامّة بين الخالق والمخلوق والعابد والمعبود».

هذا أسلوب إقبال في رسالته، وهو أسلوب منطقي يستند إلى البرهان والتعليل، فإذا قرأت أسلوبه الشاعري في قصائده التي تنحو هذا النحو وجدت لوناً آخر من ألوان الفن الأدبي يجمع إلى خصوبة الفكرة إمتاع الوجدان كأن يقول:

«احذر حافظاً ـ الشيرازي ـ أسير الصهباء، فإن كأسه سمّ الفناء، ليس في سوقه إلّا المدامة، ذلكم فقيه ملّة المُدمنين، وإمام أمة المساكين، شاة علمت الغناء، فِرَّ من كأسه، فإن فيها لأهل الفِطن خدراً كحشيش أصحاب الحسن».

ويقول أيضاً: «قال أحد الصوفية: صعد محمد النبي العربي إلى السمٰوات العُلا، ثم رجع إلى الأرض، قَسَماً بربّي: لو أني بلغت هذا المقام ما رجعت أبداً، والصّوفي لا بدّ عائد إلى عالمنا من مقام الشهود، ولكن عودته ـ ما دام يعتقد أنه حقّق غايته ـ لن تفيد المجتمع شيئاً».

وقد حلّ إقبال بذلك مسألة التصوّف نهائياً، فجعله في القوّة لا في الضعف، وفي إنقاذ الحياة لا في الهروب من الحياة، وعلى المتصوّفة أن يبدأوا بأنفسهم

فيُعيدوا النظر إلى ما توهّموه من المعاني، وأمامهم القرآن محكم النصّ، واضح التبيان، ثم إني لا أدري لماذا يقتدي المسلم بغير رسول الله، وهو الأسوة الحسنة، والمثل الأعلى في رأي الإسلام، وفلسفته الحقّ والقوّة تلك التي ينتهجها إقبال!؟.

هذه ناحية شغلت دائرة النقاش وقتاً ما في فلسفة إقبال، وهناك ناحية أخرى لا تقلّ عنها خطراً ونتيجة: فقد جاهَرَ الدكتور الصريح برأيه في الوطنية، وأعلن أنها دخيلة على مبادىء الإسلام إذ أن الإسلام كله وطن واحد، وأن الهندي أخ المغربي والفارسي والعربي والأفريقي والأوروبي، إذا جمعتهم عقيدة واحدة، وهي عقيدة الدين، فهي أقوى العقائد، ولن يقوم مقامها ما يصطنعه الناس من حدود جغرافية تسيطر عليها الجبال والصحاري والأنهار، أو تفرضها السياسة الغاشمة فرضاً، كما مزّقت بلاد الشام إلى أقطار مختلفة تمثّل: لبنان وسوريا وفلسطين!!.

والعجيب أن الذين عارضوا إقبال من دُهاة الغرب في رأيه الواضح، هم أنفسهم الذي حبّذوا قيام إسرائيل، وأجمعوا دون شقاق بينهم على ضرورة قيامها أجنبية دخيلة في موطن عربي متماسك!!.

وفرق بعيد بين قيام باكستان المسلمة، وقيام إسرائيل الصهيونية، يوجب ضرورة الأولى، وإعدام الثانية، فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار، ويذكرون من نصوص التلمود ما يؤيّد سموّهم واعتلاءهم على الناس، بل ما يدفعهم إلى إثارة البغضاء والكراهية في نفوس مَن عداهم من الأنام، أما المسلمون: فدينهم دين الإخاء الشامل، والحرية التامّة، والمساواة العادلة، وإن كتابهم الكريم ليقول في جلاء: ﴿ يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1]، وأن نبيّهم العظيم يهتف: «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى»، وقوم يدينون بهذه المبادىء المُنصِفَة كان الأحرى بالعُقلاء أن يذهبوا في تأييدهم إلى الحدّ البعيد.

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

ولكن الاستعمار يخدعنا حين يعلن أن المدنية الحديثة ترى الفصل بين الدين والدولة! على حين أن دول أوروبا المسيحية تقوم على الصليبية ديناً، يظهر في أسماء أحزابها السياسية، فهذا الحزب الديمقراطي المسيحي في بلجيكا، وهذا حزب الأحرار المسيحيين في غيرها، وتستجيب بريطانيا إلى آراء الكنيسة، ثم تسألها الرأي فيما تريد أن تصدر من القانون!، وبعد ذلك كله يقولون للمسلمين: إن الدين شيء والسياسة شيء، ويتوهّم مَن يسمّونهم علماء الاجتماع والسياسة أنهم قادرون على تحطيم مبادىء الإسلام، حين يعلنون في خدعة: أن الدولة لا تقوم على أساسٍ من الدين.

ولو كان إقبال رجلاً جبان الرأي لتقهقر أمام هذه السيول الجارفة من الادّعاءات، ولكن عظمته الجريئة دفعته إلى إعلان رأيه، وتفنيد أوهام خصومه، وإليكم بعض ما قال ننقله عن كتاب الدكتور عزّام ص ٥٤:

«أنا لا أقبل الوطنية كما تعرفها أوروبا، وليس إنكاري إيّاها خوفاً من أن تضرّ بمصالح المسلمين في الهند، ولكني أُنكرها لأني أرى فيها بذور المادية الملحدة، وهي عندي أعظم خطراً على الإنسانية في عصرنا. لا ريب أن الوطنية لها مكانها وأثرها في حياة الإنسان الأخلاقية، ولكن العبرة بإيمان الإنسان وثقافته وسُننه التاريخية، هذه هي في رأيي الأشياء التي تستحقّ أن يعيش لها الإنسان ويموت من أجلها، لا بقعة الأرض التي اتصلت بها روح الإنسان اتفاقاً».

ويقول في موضع آخر ص ٥٣:

«إنَّ رينان الفيلسوف الفرنسي، يقول: «إن الإنسان ليس أسيراً للجنس والدين، ولا لمجاري الأنهار وسلاسل الجبال، ولكن كل جماعة كبيرة من البشر صحيحة العقل، حيّة القلب ينشأ فيها شعور يجمعها، تسمّى: أمة.

يعني أن الأمة لا تنشأ بالأقوام والأوطان، ولكن بالشعور الذي يربط آحادها».

ثم قال إقبال: «إن الفِرَق الاجتماعية والجماعات الدينية في الهند لا تقبل التغاضي عن أشخاصها من أجل الوحدة الهندية حتى ينشأ لها هذا الشعور الذي ينشىء الأمة في رأي رينان فينبغي إذن ألّا نلتمس اتحاد الهند في محو الفوارق بين الجماعات بل نلتمسه في الاعتراف باختلاف الجماعات، والعمل للتعاون بينها».

هذا منطق الدكتور في نثره، أما إعجازه في شعره: فقد بلغ أقصى مداه حين قال في هذا المجال:

«لمّا نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت، فجاءه رجال من الجيش ولاموه على فعله، وقالوا له: لقد قطعت بنا الجبال، فكيف نرجع إلى أوطاننا؟ فوضع طارق يده على السيف، وقال: أنا لا أفكّر في الرجوع، وسنبقى في هذا المكان ونتّخذه وطناً، فإن كل ما كان لله من أرض وبلاد وطن لنا لا فرق في ذلك بين العجم والعرب والشرق والغرب».

ولكيلا يظن بعض السُذّج أن الدكتور «إقبال» بِدعٌ في رأيه، ننقل هنا عن علامة الشرق الأكبر ابن خلدون حديثه في المقدمة حين قرّر:

«إن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها، وإن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساوٍ عندهم، وهم مستميتون عليه، وأهل الدولة التي هم طالِبوها، وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل».

وما قرّره ابن خلدون: هو ما قرّره أساطين علم الاجتماع قبل أن يحتال الغرب على استعباد الشرق، وقبل أن تجمع الصليبية على تحطيم الإسلام بالدّهاء الخادع والثقافة المزوّرة، بعد أن عجزت عن تحطيمه بالسيف في الحروب الصليبية الفاشلة، ولولا نفر من أمثال إقبال: لاستطاع هؤلاء الدّهاة أن يقلبوا الحقائق ويشوّهوا الآراء...

لقد كان دفاع الدكتور عن الإسلام والمسلمين مَدعاة نقاش ثالث، تطرّق إليه مَن ينتقدونه، إذ يرون أدبه إسلامياً لا إنسانياً!!.

والمدهش حقّاً: أن هؤلاء يخلعون سِمَة الأدب الإنساني على كل روائي متهتّك، يتحدّث عن الغريزة الهابطة، والنزوات المُغرِضة حديث المحبّذ المبرّر، ويزعمونه كَشّافاً للسّرائر فضّاحاً للالتواءات، وربما عدّوه طبيباً اجتماعياً يشرح الأهواء ويفحص النفوس!، وهو بعد لم يزد عن خليع ماجن يقول ما تعرفه الساقطات، دون أن يجرأن على التفوّه به!. هذا هو الأدب الإنساني في منطق النَّقَدَة المُنصِفين!.

ولو تجاوزنا هؤلاء قليلاً إلى فريق أقوم وأعقل وأسدَ وجدناهم أيضاً يضعون دانتي في مقدمة الشعراء الإنسانيين، مع أنه لم يخلد في الأدب إلّا بروائعته المجيدة: «الكوميديا الإلّهية» وهي في لبابها رواية مسيحية كاثوليكية، توضح فكرة الثّواب والعقاب لدى فريق معين من المتدينين، حتى لقد قال عنها بعض نَقَدَة الغرب: إن رواية دانتي لا يستطيع أن يفهمها غير كاثوليكي فلورنسي، متعصّب!!، ومع أنَّ الشاعر الإيطالي يدور في هذا الفلك المحدود، فقصته إنسانية باعتراف الناقدين! أما إقبال فهو طائفي لا إنساني!!.

ولنا أن نقول من جهة ثانية: هل ما يتضمن الإسلام من هواتف الخير والحق والجمال، وما يدعو إليه من مبادىء الحرية والإنسانية والإخاء يخرج عن نطاق الأدب الإنساني، أم أنه يدعو إليه بأقوى ما تتحمّل دعوة سماوية من ساطع الأدلّة ورائع البراهين؟ مهما يكن من شيء لقد اضطر الدكتور إقبال أن يشرح وجهة نظره الصائبة حين قال ما نصّه نقلاً عن ترجمة الدكتور عزّام ص ١٧٣:

«حقٌّ أن الفلسفة والشعر ينبغي أن تكون لهما مقاصد إنسانية عامّة، ولكن هذه المقاصد إذا أُريد تحقيقها في أعمال الحياة، لم يكن بُدٌّ من تحقيقها أول الأمر في جماعة بعينها لها مسلك معين، ومذهب مستقل، ولكن طرائقها في العمل تتّسع بالدعوة والتبليغ إلى غير نهاية، وعندي أن هذه الجماعة هي الأمة

الإسلامية، فالإسلام عدوّ لعصبيات الألوان والأجناس وهي أصعب العقبات في سبيل اتحاد العالم، وقد خلط رينان حين ذكر أن الإسلام والعلم ضدّان، والحقيقة: أنَّ الإسلام وعصبية الأقوام لا يجتمعان.

إنَّ أكبر أعداء الإسلام بل الإنسانية: هذه العصبية فعلى مُحِبّي الإنسانية أن يجاهدوا جهد طاقتهم هذه العصبية التي اخترعها إبليس، لا أنكر أن عصبيات القبائل والأمم نافعة إلى حين، في نشوء الحياة الاجتماعية وارتقائها، فلست أعترض على الاهتمام بهذه العصبيات من هذه الجهة، ولكن إذا عُدّت القومية أعلى درجات الرقيّ الإنساني فهي عندي أكبر لعنة على الإنسانية، لا ريب أني أحبّ الإسلام وأهيم بحبّه، ولكن أخطأ المستر دكسن: حين ظن أني خصّصت المسلمين بكلامي عصبية لوطن أو أمة، لم يكن لي وسيلة أخرى لتطبيق هذه الفلسفة، إذ رأيت الجماعة الإسلامية أكثر الجماعات ملاءمة لقصدي.

ثم إنَّ الإسلام ليس من الضيق كما يتوهّم دكسن فالتعليم الإسلامي لا يخصّ قبيلاً دون قبيل، ولكن يقصد إلى أخوة البشر كافةً، فهو يدعو الناس أجمعين إلى التعاون والتآخي، وأن يغفل في هذا السبيل ما بينهم من اختلاف جزئي، ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾[1].

تلك شذرات مما دافع به الدكتور عن رأيه، وقد يرى القارى أنّا أسرفنا بعض الشيء في الاستشهاد بأقواله، وهو مما لم يكن منه بُدٌّ، وإذا كنت أجهل الأوردية والفارسية فقد رجعت في هذه النصوص إلى ترجمات الأساتذة: مسعود الندوي بمجلة: «الرسالة»، وأبي الحسن الندوي في كتيبه عن «إقبال»، والدكتور عبد الوهّاب عزّام في كتابه عن: «الشاعر» وهو المرجع الأول في لغة الضاد عن الرجل العظيم ـ طيّب الله ثراه ـ وحيا ذكراه.

---

(١) سورة آل عمران: آية ٦٤.



المؤرّخ المجاهد رفيق العظم

- ١ -

قرأت ما استطعت قراءته من مؤلّفات المغفور له الأستاذ: رفيق العظم، كما طالعت أكثر ما كتب عن تاريخ حياته الكريمة فوجدت خاطري يجيش جيشان الإعجاب والتقدير، ولم أشأ أن أتمهّل في الحديث عنه حتى أُهيّىء العناصر، وأُحلّل الأحداث والوقائع، بل وجدتني أندفع لتسجيل خواطري وتدوين آرائي كما تجيء دون ترتيب، ورُبّ مقالٍ مرتجل أوعى من مقالٍ متّئد.

إني أشبّه أعلام الفكرة الإسلامية الذين سطعوا في أُخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن، بمصابيح قليلة العدد في ليلٍ دامس الجوانب، آلت على نفسها أن تصارع الغياهب مهما عصفت الأنواء، وهاجت الرياح، حتى استطاعت أن تضيء طريقاً للمسير، متحمّلة كوارث الأعاصير وهبوب العواصف هكذا كان رفيق العظم وهكذا كان زملاؤه من المجاهدين.

نشأ رفيق العظم تحت سماء سوريا من بيت عريق المحتد، عظيم الجاه والثّراء، فرأى النور في دمشق سنة ١٢٨٢ هـ وأحضر له والده مَن قام بتعليمه في المنزل، دون التحاق بأيّة مدرسة، حتى إذا عرف المبادىء الأولى، أتحف بكبار علماء عصره، لينهل من مواردهم الصافية، فأخذ عن الأساتذة: طاهر الجزائري،

وسليم البخاري، وتوفيق الأيوبي، ما غرس في نفسه حبّ الإسلام والإعجاب بمبادئه التشريعية، وتاريخ السلف من صدور الصحابة والتابعين.

وكان توجيهه العلمي على أيدي هؤلاء الثقات من أعلام الشام نائياً بالفتى الثري الواسع الجاه عن طبقة أمثاله من مُترَفي عصور التقهقر، ممّن يحسبون الحياة لهواً ولعباً في أفياء نعمة وارفة الظلال، فثابر على الاطّلاع وأجاد مع العربية لغة أوروبية هي: الفرنسية، كما حذق التركية حذق كتابة ومدارسة، وقد قال صديقه الأستاذ محمد رشيد رضا: إنه لم يقرأ كتاباً واسعاً في النحو أو البلاغة، بل اكتفى بالمبادىء الأولى، ليتّصل مباشرةً بالمأثور الرائع من أدب العرب في التراث الخالد، فاكتسب فصاحة عزّت على دارِسي القواعد، وقد يكون في ذلك موضع العبرة لدى مَن يتخمون النشء بالمتون والشروح فلا يكادون يحصلون على طائل.

وشابّ مثقف في مثل علمه وماله، لا بدّ أن يتّصل بسياسة عصره وأحوال زمانه، وقد رأى من تضييق الأتراك على أبناء وطنه في الشام ما بكّر به إلى الهجرة لوادي النيل، فأمّ مصر سنة ١٨٩٤، ليجد المجال فسيحاً لنشر آرائه في جرائدها اللامعة فبرز اسمه مُصلِحاً سياسياً على صفحات الأهرام والمؤيد واللواء، وسطع نجمه كاتباً مؤرّخاً ومحقّقاً عالماً في صفحات الهلال والمقتطف والمنار.

وكان الشيخ: محمد عبده بين مَن سعد بمجالسهم من صفوة الأحرار، وعن طريقه تأثّلت صداقته بكبار الكُتّاب والزعماء في عصره، واعتنق الفكرة العثمانية في الدعوة السياسية، فأبلى بلاءً سديداً في رأْب الصدع وجمع الكلمة، وبذل في سبيل ذلك ما بذل من الصحة والمال والوقت.

ولا بدّ من وقفة موجزة أمام جهاده السياسي، لنعرف عن أيّ قوس ينزع.

كان رفيق العظم ممّن يرون في الخلافة العثمانية سبيلاً لرقيّ الإسلام ونهضة المسلمين، إذا تركت مساوئها الأنانية فرجعت عن حكم الفرد واستبداد السلطان، إلى حكم الشورى والخضوع للدستور، وأخذت بوسائل التقدّم الحضاري: جيشاً وتعليماً وإصلاحاً، فأسّس مع صاحب المنار جماعة الشورى العثمانية، لتقوم

بالدعوة إلى الخلافة المستنيرة المصلحة، وعمل على إنشاء فروع لها بأكثر البلدان الإسلامية ولكن السلطان في تركيا أساء بها الظنون، وعدّ دعوتها إلى الإصلاح السياسي مُناهضة لحكمه.

ثم رأى رفيق العظم أن يُحكِم صلته بجماعة الاتحاد والترقّي التركية، منخدعاً بما أعلنوه من مبادىء الحرية والمساواة، حتى إذا كشف الزمن عن شعاراتها الزائفة جاهرها العظم بالنقد اللاذع، وأعلن تأليف الحزب اللاّمركزي داعياً إلى خدمة الدولة العثمانية والبلاد العربية عن طريق الإصلاح الداخلي لكل قطر، بأيدي نخبة صالحة من أبنائه المخلصين، يعملون على رفعته السياسية، وإدارة شؤونه المصلحية في ظل الخلافة، دون أن يكون الوالي التركي صاحب الأمر والنهي بلا معقّب.

وكان يرى أن مجاهرة الخلافة بالانشقاق عليها والتحرّش بها وَهَنٌ في جسم الأمة الإسلامية، وهي كلها جسد واحد لا صَلاح لعضو به مع فساد عضو آخر، وقد كافح الرجل وجاهد، حتى لمس تغطرس الأتراك عن عناد، فعَلِمَ أنهم في وادٍ وأنه مع آماله وأحلامه في وادٍ بعيد.

ولم يشأ الرجل الغَيور أن يتخلّى عن مبادئه دون مُجاهرة علنية تكشف معادن الناس، فوالى رسائله السياسية مُعلِنة خيبة آماله في النهضة عن طريق الكلمة الواحدة والرأي الجميع، ومع كثرة ما كتب في الصّحف اليومية من مقالات توضح وجهة نظره، فقد أصدر كتاباً خاصّاً بنزاعه مع الأتراك، جعل عنوانه: (الجامعة العثمانية والعصبية التركية) وقف فيه موقف القاضي المُنصِف لا المحامي المتحيّز، فذكر أن أسباب الاضطراب في الجامعة العثمانية يرجع إلى أمرين:

أولهما: الشعوب العثمانية.

وثانيهما: مسلك الاتحاديين بعد إعلان الدستور.

أما الشعوب العثمانية ـ في رأي الكاتب ـ: فقد خضعت لسوء الإدارة خضوعاً تفكّكت به عُرى الصلة القانونية بين الأمة والحكومة، لأن الشعوب تطالب

الحكومة بالإصلاح دون جدوى، حتى رأى أكثرها في الانفصال التامّ معجزة النجاة وانتهزت الدول الاستعمارية هذا الخلاف المستحرّ بين شعوب الخلافة، فأذكت الضّرام وأشعلت الوقود، وقد أدّى صوت الإصلاح المنبعث في كل قطر إلى سوء ظنٍّ لدى الأتراك، يشمل كلّ مَن ليس بتركي، فنشطت الجمعيات السريّة في الشرق والغرب!.

وكان العرب أكثر الشعوب هدوءاً واعتدالاً، ولكن سوء الظن التركي جعلهم متّهمين بالتنابذ والشقاق والدعوة إلى الانفصال.

وقد جاء مسلك الاتحاديين بعد إعلان الدستور مما يثير الدهشة والعجب، إذ كان الظن بهؤلاء وقد أعلنوا الدستور أن يجعلوا المساواة والحرية والإخاء نصيب الشعوب العثمانية جميعاً، ولكنهم قصروا هذه الحرية الدستورية على الأتراك وحدهم، وذهبوا يدعون إلى اتحاد العناصر، واتفاق العناصر وهي شِعارات لا تجد الواقع العملي، وقد أفصح رفيق العظم عن كل ذلك في أسلوب يمتلىء بالمرارة والحسرة، تفيض به رسالته عن الجامعة العثمانية، ولنا أن نستشهد بمثل قوله ص ١٢٥ من مجموعة رسائله.

«والحقيقة التي لا ريب فيها أن الاتحاديين قد انفصلوا عن الأمة انفصالاً لا يرضاه لهم صديق للحرية، فأصبحوا في شقّ والأمة الإسلامية في شقٍّ آخر، منذ تظاهروا بالنعرة الجنسية وأعلنوا ما كانوا يضمرونه من الاستمساك بمبدأ سياسة التركي على العناصر العثمانية كلها، فنبّهوا بذلك العصب الحسّاس من الشعوب العثمانية الذي كانت إفاقته نفحات «حرية، أخوة، مساواة» في مبدأ إعلان الدستور، فانفضّت القلوب من حولهم، وعادت روح الجنسية وروح الشّقاق ترفرفان على آفاق البلاد العثمانية من تخوم أوروبا إلى شطوط البحر الأحمر، فعمدوا إلى المناداة باتحاد العناصر، واتفاق العناصر، وكيف يكون الاتحاد وهم لا يريدونه؟، هذا الخطأ مع ما أضيف إليه من الأغلاط التي صدرت عن حزبهم، وأخصّها: استعمال سياسة العنف والشدّة مع الشعوب العثمانية الأخرى كان السبب

الثاني لاضطراب حبل الجامعة العثمانية، إذ شعر هؤلاء بتبدّل مسلك الاتحاديين تبدّلاً غير منتظر من حزب يُعدّ حامي الحرية، ومقرّر سلطة القانون وهادم أركان الاستبداد، فأخذ سوء الظن يعود والثقة تتبدّد».

لا يدرك مرارة هذه الكلمات في حلق رفيق العظم إلّا مَن علم أن الرجل يضطر تحت سوط الواقع الأليم أن ينفض يده من قوم سلخ أطيب أوقات شبابه في الدفاع عن دولتهم، وقد كان صوته من أقوى الأصوات الأدبية التي دافعت عن الكيان السياسي للجامعة الإسلامية في مهبّ الزعازع الأوروبية، يوم اندفع أعداء الإسلام من المستعمرين يصفون الجامعة الإسلامية ظلماً بالبربرية والوحشية، ويجعلونها أكبر خطر على المدنية لاصطباغها بالصبغة الدينية في زعمهم، متناسين أن أوروبا ظلّت تسوق جيوشها الصليبية إلى الشرق منقادة لصوت الكنيسة دون تعقّل، وأنها بعد انتهاء هذه الحرب آلت على نفسها ألّا تستريح وللجامعة الإسلامية كيان، فاتفقت روسيا وإنجلترا على حربها لا لشيء سوى تقرّب نابليون منها! كأنها مصدر الخطر لا فرنسا فهاجمتاها في البرّ والبحر، ودمّر الأسطول الإنجليزي كل السفن العثمانية في مضيق الدردنيل، بينما كانت روسيا تهاجم الجيوش العثمانية عند نهر الطونة.

وما زال الكفاح الصليبي يتآزر حول إضعاف الخلافة بشتّى أنواع التآزر، غير عابىء بما يصادفه من المناقضات السياسية والخلقية في تآزره، حتى آلت الجامعة العثمانية على يد طغيانه إلى ضعفها المشهود. . . ويجيء اليوم ليعدّها مصدر التعصّب الخطر بعد أن أثخنها بالجراح!.

لقد أبلى رفيق أحسن البلاء فيما كتب من دفاع! وترك رسائله لتشهد باليقظة والحذر، ولتعذره بعد أن أمر قومه أمره بمنعرج اللوى، فلم يستبينوا الرّشد إلّا على صوت النذير.

قامت الحرب العالمية الأولى، وبدا من أعمال جمال باشا بالشام ما اشتهر وذاع من القتل والتشريد لأحرار العرب، فتأكد العظم أن لا نفع في تركيا، وودّع

اشتغاله بالسياسة العثمانية غضبان أسفاً، ولكنه لم يترك جهاده القلمي الذي صحبه منذ آنس من نفسه القدرة على الكتابة.

وإذا كان قد ترك من المؤلّفات الاجتماعية والدينية والتاريخية ما يرجع إليه القارىء في سهولة ويُسْر، فإن آثاره النقدية المتفرّقة في أنهار الصّحف اليومية والمجلّات الدورية طيلة ثلث قرن لجديرة أن نشير إليها في مجال الحديث عن فضله، لأن رفيق العظم كان من اليقظة الناقدة لكل ما يشمّ منه انتقاص لوجه الحقيقة، بحيث لم يكد يسمح لنفسه أن يسكت عن لفظ يُقال.

ولم يكن ممّن يتصدّرون للنقد العلمي تباهياً بالمعرفة وإثباتاً للأستاذية، شأن مَن يحملون العصا في كل وقت ليشتهر مكانهم في الناس، ولكنه كان يصدر عن حبٍّ للحقيقة تدفعه غيرة مُفرِطة على الحقائق التاريخية، وبخاصة ما يتعلّق منها بتاريخ العرب والإسلام.

فقد طرق سمعه أن محاضرة علمية أُلقيت بنادي المدارس العليا بالقاهرة، تحدّث فيها صاحبها عن التدوين في الإسلام حديث المنتقص، فبادر ليجمع بين السامعين شذوراً متفرّقة مما قيل، ثم رأى بعد أن استقامت لديه المادة الكافية أن يُلقي محاضرة في الموضوع نفسه وفي المكان نفسه، لتكون بمثابة ردٍّ هادم لما بلغه من التنقيص المُغرِض، فاستأذن أصحاب المكان ليقولها مجلجلة رنّانة، وكانت مكانته العلمية والسياسية مما تلزم القوم إجابة مطلبه، فاحتشد السامعون ليعلموا ما يجهلون.

فبدأ العظم حديثه في أدب خلقي متواضع، ولم يشأ أن تكون كلمته تنابذاً وهجوماً، بل جعلها موضوعاً مستقلاً ينتقض آراء سابقة دون أن يذكر حتى اسمه.

وقد نشرت المنار محاضرته التي تفنّد الرأي القائل: «بأن المسلمين لم يدوّنوا العلوم إلاّ في القرنين الثاني والثالث، لذلك كانت الرواية الممتدة قرابة قرنين عُرضَةً للتحريف والتبديل، مما يجعل تاريخ الحقبة الأولى غير موثق لدى الباحثين».

وقد قال العظم: إن هذا الزعم مردود من وجهين:

أولهما: ما عُرِفَ عن العرب من إتقان الحفظ والرواية.

وثانيهما: ثبوت التدوين وكتابة الأخبار في الإسلام من أول القرن الأول لعهد صاحب الرسالة.

وإذا كان الوجه الأول يكاد يكون مسلّماً، فقد أوجز المُحاضر الحديث عنه ليفيض في الوجه الثاني، فيثبت أن القول بأن العرب أُمّة أُمّيّة ليس بصحيح على إطلاقه، لأنه إذا انطبق على سكان البادية لا يشمل سكان المدن في اليمن ونجد والحجاز والعراق وأطراف الشام.

فالمناذرة والغساسنة والتدمريين والتبابعة كلهم ذوو كتابة معروفة الآثار، وعرب الحجاز كان لديهم مَن يقوم بالكتابة تارة بالخط الحيري وتارةً بالخط العبري، وممّن كتب بهما ورقة بن نوفل، وكتابة صحيفة الحقوق في حزب الفضول بالجاهلية تشهد لذلك.

وكان للرسول كتابه، بل إنه أمر بافتداء الأسرى الكاتبين في بدر إذا علّم كل كاتب نفراً من المسلمين.

ومن يومها والكتابة تتّسع وتستفيض حتى استطاع القائمون بها حفظ الأخبار والرسائل والوثائق.

ثم أفاض المحاضر في أمثال ذلك مستعرضاً لحقائق جوهرية ينقصها التحقيـــق.

وكان في المجال النقدي متسامحاً يميل إلى القول بالتي هي أحسن، وأذكر للتمثيل على ذلك نقده لكتاب تاريخ التمدّن الإسلامي لجورجي زيدان، إذ وفّاه حقّه دون أن يسكت عن مآخذه.

ومما أشار إليه منها اعتماده على الأحاديث الضعيفة دون نظر إلى حقيقة الإسناد. ملتمساً له العذر بأنه بعيد عن كتب الحديث فلا يرجع لغير صحف

التاريخ، وهو عذر لا يكاد ينهض لأن المؤرّخ محقّق لا جامع أخبار، كما أخذ عليه إكثاره من جمع مثالب الأمويين، وهم في رأي العظم ذوو مآثر جديرة بالتسجيل، وقد رجع الناقد باللائمة على مَن أفاضوا في ثلب القوم لاعتبارات سياسية، كما آلم المؤلّف وأوجعه حين ذكر أن آراءه الأموية مهّدت للظن بأنه شعوبي، فقد أطرى الدولة العباسية لمنزلة الأعاجم منها، ذاهباً إلى أن رقيّها العلمي والمدني يرجع إلى غير العرب.

وما زال العظم يواصل النقد النزيه، حتى في آخر فترة من حياته، حين تكالبت عليه الأسقام والعِلَل، وكان في شدّتها الطاحنة ما يلزمه الهدوء والراحة، ولكنه تحامل على قوّته الواهنة، ليدفع ما يشوب بعض المقالات المغرضة لعهده من ريب.

وآخر ما كتبه في ذلك ما سجّلته جريدة السياسة اليومية من ردٍّ حاسم على الدكتور طٰه حسين، في بحوثه الأدبية التي جمعها في الجزء الثاني من حديث الأربعاء، حيث ذهب إلى أن العصر العباسي بأجمعه كان عصر لهو ومجون، متّخذاً من وجود أمثال أبي نواس وبشّار ومطيع ووالبة، دليلاً على شيوع هذا المجون، ومعتمداً على ما اشتهر في كتاب الأغاني من روايات الخلاعة المنسوبة للخلفاء والشعراء.

فردّ عليه العظم بأن روايات الأغاني لا تقابل بالتسليم، وأنها كأخبار التاريخ تشبه الدرّ المُلقى بين الأشواك، يحتاج مُريد استخراجه إلى أناة ورَوِيّة ونظر في وجه السلامة من أذى الشوك، وقد قابلها أمثال ابن خلدون بالنقد النزيه، كما وضعت القصص الأدبية لبواعث سياسية أو تجارية، ثم غالى بعض الأخباريين في إيراد أخبار المجون والتهتّك والانغماس في الشهوات مُغالاة تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق، وهو ردّ حاسم نقله الدكتور طٰه حسين في كتابه ليردّ عليه بكلام مسهب مستفيض لا تعرف له رأساً من ذيل.

وأنا لا أدري كيف يكون ما ذكره صاحب الأغاني من شعر الجاهليين منتحلاً لدى الدكتور، ثم تكون أخبار المجالس وطُرَف النوادر في العصر العباسي بكتاب الأغاني صدقاً كلّ الصدق، ودليلاً على انحلال العصر بجميع مَن فيه؟

وإذا جاز لطه حسين أن يجعل من أبي نواس وبشّار دليلاً على انحلال العصر، فلماذا لا يجعل من الشافعي وأبي حنيفة وابن حنبل والأوزاعي دليلاً على أن الحياة العباسية لم تكن كلها مُجوناً، ولم تكن كلها جدّاً، وإنما كانت بين بين شأن الناس جميعاً في مختلف الأزمان.

- ٢ -

تاريخ الإصلاح الاجتماعي المعاصر في حاجة إلى مؤرّخ مُنصِف، لأن أكثر الذين حاولوا الحديث عنه قد صوّبوا نظراتهم إلى رجال التيار الغربي من كتّاب الاجتماع، وتحيّفوا تلاميذ الإمام محمد عبده ممّن نادوا بالإصلاح الاجتماعي عن طريق التربية الدينية القويمة.

وكان الأستاذ رفيق العظم من أبرز هؤلاء المُصلِحين مكانة، ومن أكثرهم حديثاً عن عِلَل المجتمع الإسلامي لعصره، وعمّا يراه من الدواء الحاسم لأدواء الناس، وقد أصدر في هذا المضمار كتباً ثلاثة تحفل بناضج آرائه، وناجع دوائه، وهي وفق ترتيب صدورها التاريخي:

١ ـ السوانح الفكرية في المباحث العلمية.
٢ ـ تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية في الإسلام.
٣ ـ الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية.

وروح ابن خلدون تسيطر سيطرة تامّة على أسلوبها تعبيراً وتفكيراً، ولعلّ من حظّ كتّاب الاجتماع الإسلامي في هذه الحقبة أن تسيطر عليهم جميعاً روح المقدمة الخلدونية، حيث أورثتهم الكثير من دسامة الفكرة، وشمول النظرة، وهدتهم إلى الانتفاع بما سجّله الباحثون من وسائل علم الاجتماع، فأضحى

الحديث الإصلاحي عند هؤلاء لا يقتصر على النصائح الجافّة والإرشادات المبتورة، والنصوص المقتضبة، بل يسير في نطاق كلّي يتآزر فيه العلم السديد، والنظر الثاقب، والتعبير القوي، لينتج عن ذلك كله حديث يقرأه المؤيّد والمُعارض معاً، قراءة مَن يحترم وجهة النظر المعروضة مهما اختلف مع قائلها في بعض ما يهتدي إليه من آراء!.

بدأ العظم كتاب السوانح الفكرية بحديث عن المدنية ودواعيها، فأكد مدنيّة الإنسان بطبعه، حين تحدّث عن نشأة الحياة الاجتماعية بما لا يخرج عمّا اهتدى إليه علماء الاجتماع، ولسنا نرميه في ذلك بالترديد لِما اشتهر، بل ننصّ مغتبطين على سبقه في تدوين هذه الآراء، لأن علم الاجتماع حينئذٍ كان لا يجد من كُتّاب العرب مَن يفسح الصّحف لترجمته، ومناقشته في مختلف أدواره التاريخية منذ خطّ ابن خلدون الصحيفة الأولى في سفره، حتى ازدهر على أيدي المفكّرين في أوروبا.

وقد مهّد العظم بهذا الباب ليتحدّث عن مدنيّة الشرق مكذّباً مَن يدّعي أن الغرب مهد التمدّن، ومتّخذاً من آثار المصريين والفينيقيين والمعنيين والأشوريين ما يثبت قيام مدنيّة مزدهرة عبر الزمن البعيد.

ومن العجيب أن تكون هذه الحضارات التاريخية موضع جدل لدى نفر يزعمون أن الحضارة الإنسانية تبتدىء من اليونان فالرومان.

وكأني بالعظم حين أفاض في ذلك يريد أن يقول للشرقيين: لا تغترّوا بتخلّفكم اليوم، فقد تصلون إلى ماضيكم المزدهر عن قريب.

ثم تحدّث عن الحروب الكونية حديث الناقم الساخط، ردّاً بذلك على ما خطّه بعض الكاتبين من مزايا الحروب في إنهاض العلوم واتّساع المعارف، وهو هراء يقوله مَن يعمي عينه عن مشاهد الدمار وسيول الدماء وأنقاض الآلاف من المنازل الخَرِبة، ليدفع الناس إلى جهنم لا تكاد تُبقي ولا تذر.

وإذا كانت الحروب الحاضرة وليدة المدنية الغربية فما أتعس وأبأس.

ثم انتقل إلى الحديث عن التربيتين الحسّيّة والمعنويّة، ليؤكّد نصيب العرب من هذه التربية، إذ ماثلوا اليونان في الإعداد الجسمي حين مرّنوا أولادهم على الرماية وركوب الخيل واللعب بالرّماح والسيوف، كما ماثلوا أعرق الأمم على العناية بثقافة العقل، ورقيّ المعارف، وقد يكون ما كتبه في ذلك أقرب إلى التاريخ منه إلى الاجتماع.

كما أن حديثه عن الأخلاق يتّجه وجهة تهذيبية فاضلة، فقد تحدّث عن تغيّر الخلق، وانتهى إلى جواز هذا التغيّر، إذ أن طبائع البشر تخضع إلى الصقل والتهذيب، ولولا ذلك ما افترق إنسان الغابة عن إنسان المدنية، مؤكّداً أن المقصود من تغيّر الأخلاق هو ردّها إلى حدّ الاعتدال، وهو وسط بين الإفراط والتفريط، عن طريق المجاهدة الخلقية بالتأديب والتهذيب.

وهذا الباب وما يليه يهدفان إلى الارتفاع بالخلق الشرقي إلى المستوى الأمثل، ونمرّ سريعاً على حديثه في السوانح عن الشعر والشعراء والصائب من القول لأنه من الشائع المعروف، وقد ساقه المؤلّف ليدفع أبناء عصره إلى الثقافة الأدبية الخالصة في عهد سيطرت فيه الألاعيب اللفظية والمحسّنات المتكلّفة سيطرة جعلت البيان معارض أسجاع، ومسارح طباق وجناس.

وأهم موضوع أخذ على المؤلّف منافذ تفكيره: هو موضوع التّفرنج الذي كان عِلّة العِلَل الوبيئة في صدر هذا القرن، إذ راعَ المؤلّف أن يجد شباب المسلمين آخذين بالتّفرنج، لا في مظاهره الراقية من الإقبال على الفنون والمعارف، بل بخِصاله الذميمة من الخلاعة وإطراح الحياء، والتباهي بالألفاظ الأعجمية، تُلاك لَوكاً قبيحاً دون محصول ثقافي، وقد دَوّن المؤلّف ملاحظاته الشخصية في مثل قوله:

«وأشدّ من ذلك جهلاً وغباوةً أن أحدهم إذا كان ليس له إلمام أصلاً بلغة من اللغات الأفرنجية، يكتفي بتعلّم مثل «برضون» «مرسيه» «بريفكس»؛ ويظن أن مَن ينطق بمثل هذه الألفاظ يكون متمدّناً رقيق الطبع، أما إذا كان مُلِمّاً بإحدى اللغات

الأوروبية، فإنه لا يكاد ينطق بحرف واحد من لغته، ولا يعاشر أحداً من أبناء جنسه إلّا بالتكلّف أو الضرورة.

وأعجب من ذلك أنك إذا أردت نصح أحد هؤلاء المتفرنجين، فقلت له: إن التفرنج لا يكون بترديد الألفاظ الأفرنجية فحسب، بل بانصراف الهِمَم إلى تحصيل العلوم والمعارف والصناعات التي تجلب الثروة، وتحثّ على الاختراع العلمي والاكتشاف الطبّي، قال لك: وكيف نصل إلى ذلك معشر الشرقيين ولسنا من الأوروبيين؟ ناسياً أن أوروبا قد نقلت عنّا أصول حضارتها العلمية والمادية!».

وقد طال حديث المؤلّف عن وباء هذا التّفرنج بما نعدّه اليوم من قبيل تحصيل الحاصل، ولكنه كان لعهده دفاعاً مجيداً وتوجيهاً ذا مهارة وسَداد.

أما كتاب «تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية في الإسلام» فصرخة عالية لإيقاظ النائمين في كهوفهم المظلمة، وكان في أصوله الأولى بضع مقالات نشرها رفيق العظم في مجلة الموسوعات عقب انتقاله إلى مصر، ثم أضاف إليها أشباهها وجمعها في كتاب برأسه صدر في سنة ١٩٠٠، مفتتحاً بحديث يقرب من افتتاح «السوانح الفكرية»، إذ تحدّث عن أدوار المدنية الإنسانية ليصل إلى أن ترقّي الأحوال المعيشية يزيد من تَبِعات الحياة ومسؤولياتها، حتى أصبح الشقاء الآدمي يزيد لدى الناس بازدياد الرخاء الحضاري. وإذا كان الشرق يشكو من الفقر، فقد ألَمَّ الكاتب بمذاهب الأوروبيين الاقتصادية ليثبت أن الإسلام قد سبق هذه المذاهب جميعها حين دعا إلى التكافل الاجتماعي، وحين فرض الزكاة ونادى بالبرّ والمعروف داعياً إلى العمل سعياً وراء الرزق، ومستشهداً بما يشفي الغلّة من النصوص الدينية وأحداث التاريخ.

وقد أطال المؤلّف تفكيره في واقع عصره، فعَجِبَ أشدّ العجب للفهم الخاطىء للإسلام لدى الكثرة الكاثرة من المسلمين إذ حسبوه زهداً واتّكالاً واستكانةً، وما هو بشيء من ذلك، فجعل يشرح النصوص الهادفة، ويأخذ من وقائع الصدر الأول في الإسلام ما يدلّ على حرية المسلم ومدنيته واستقلاله، وكأنه

رأى إعجاب القرّاء بكلّ ما هو أوروبي، فنقل سطوراً عن كتاب (تذكار العالم الإسلامي) للكاتب الفرنسي شارل ميسمر، تثبت أن الإسلام قد أفاد البشرية أكبر فائدة بما أسلف من حضارة وأعلى من قيم لم يصل إليها المجتمع الأوروبي في ذروة حضارته، إذ أن تقدّمه الراهن قد أغفل التربية الروحية، بينما كانت هذه التربية العزيزة في الإسلام درءاً يدفع التسفّل ويغلّ الشهوات.

وقد أكد العظم أن أفضل الأعمال ما أُكرِهَت عليه النفوس ليصيح بقارئه زاجراً عن التكاسل والقنوط من خير الأرض ورزق السماء، مؤكّداً أن الرضا بالحرمان تعطيل لوظائف الحياة وشلل لأكبر مظاهر الإنسانية الحيّة ذات السعي والإنتاج، ومتطلّعاً كدأبه ـ في كل كتاباته ـ إلى ما أحدثه الإسلام من انقلاب عمراني في مدى قرن واحد، بحيث أثمر للإنسانية ما عجزت عن إثماره حضارة اليوم.

وقارىء كتاب التنبيه يقف على حملة واسعة شنّها المؤلّف على علماء الإسلام منذ أفتوا بحُرمة الاجتهاد، ودفعوا بالعقل إلى التحجّر والتعبّد بآثار السّلف دون مناقشة ونقد، ثم تسامحوا مع الأمراء، فخبّ كثير منهم في رِكاب الأنانية والتسلّط، وخدّروا العامّة بما شوّهوه من معاني الشريعة ونصوص الكتاب طمعاً في المنصب والثّراء، وكأنه أحسّ لائماً يلومه على هذا الغضب الناقم على المتصدّرين من المقلّدين، فذكر أنه يقتدي بالقرآن الكريم في تقريع الجاهلين، وأن في بيان هذه النقائض استنهاضاً للهِمَم ودفعاً للعزائم، حتى يخلع المسلمون عنهم نِير الذلّة والاستعباد!.

وكلام العظم في ذلك شبيه بما ذكره عبد الرحمن الكواكبي في مقالاته النارية، لأن الفهم الصحيح للإسلام جعل كتّاب الفكرة الإسلامية ينزعون عن قوس واحدة فلا يكادون يختلفون.

وقد تابع المؤلّف حملاته على الجامدين من العلماء في ثلاثة فصول متتالية، فتارة ينعى عليهم سوء فهمهم للدين، وانتحاءهم طريقة الحشو والاستطراد في

التأليف، حتى تشعّبت بقرّائهم السُّبُل فضلّوا، وتارة يأسى من سكوتهم عن البدع والخرافات، وتعبّدهم لأقوال السابقين من أمثالهم دون مناقشة وكأن قُصاراهم الإذعان والتسليم، أما اشتغالهم بمسائل الخلاف دون أبواب الائتلاف فمما طفح به الكيل، إذ جعلوا الناس شِيَعاً وأقساماً، مُهملين وظيفتهم الأولى وهي الأخذ على أيدي الفَجَرَة من الظالمين، وقد أتبع ذلك كله برسم طريقة الإصلاح العلمي، إذ أوجب على أئمة الدين الخروج السريع من دائرة التقليد، وكرّر دعوته إلى الاجتهاد.

وكان متواضعاً في آماله حين ناشد القوم أن يوسعوا دائرة النظر، إذا استراحوا من الاجتهاد واطمأنوا إلى مذهب فقهي لا مَحيد عنه، وشدّد النكير على وُعّاظ العامّة من أرباب القصص الخرافية والأحاديث الموضوعة.

وفي رأيي أن رفيق العظم في نقده الجامدين من علماء الدين كان يتأثّر لا شعورياً بما قام به بعض علماء الأزهر، ومَن حذا حذوهم من علماء الشام من هجاء جمال الدين الأفغاني، ومناوأة الأستاذ محمد عبده مناوأة جاهرة متعدّية، حتى توسّع الشيخ يوسف النبهاني ـ رحمه الله ـ وكان قاضياً كبيراً ببيروت ـ فنقل الهجاء من النثر إلى الشعر، ووالى قصائده اللاذعة في تجريح أئمة الإسلام، والله يعفو عن كثير.

وننتقل إلى كتاب «الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية» وقد قال عنه السيد محمد رشيد رضا: إنه حاز إعجاب الأستاذ الإمام، فقرّر تدريسه على الناشئة من تلاميذ المدارس الخيرية الإسلامية التي كانت تحت رعايته العلمية.

والكتاب ذو أسلوب قوي رصين، وقد استطاع الناشئة أن يهضموا أفكاره القوية على طراوة العقل في دور التعليم الابتدائي والإعدادي، مما أعجَبُ له حين أقيس تلاميذ اليوم في هذا العقد بسابقيهم من تلاميذ العقد الأول من هذا القرن، فأرى أن أبناء اليوم لا ينهضون تمام النهوض بقراءة مقرّراتهم الدينية مع سهولة المادة، ويُسْر التناول، واستخدام الأسلوب القصصي في تقديم المعاني الدينية

والخلقية، ثم إتباع ذلك بالأسئلة الكاشفة والأجوبة الهادفة، مع شكل الكلمات وتضخيم الحروف!.

أتكون وسائل التربية الحديثة قد ضعفت عن تأدية رسالتها الآن على وجهها المقبول؟ أم نكون نحن قد ركنّا إلى التسلية القصصية فراراً من عبء الإرشاد القوي، وهروباً من الدسم المفيد!!.

لقد بدأ رفيق العظم كتابه المدرسي بذكر الهدف من تأليفه فقال فيما قال:

«رأيت أن الدواء لداء المسلمين إنما هو محصور في التربية على أصول الفضائل الإسلامية التي أهمها استقلال العقل والإرادة، وتوحيد الكلمة على مبادىء الشريعة التي تضمّ ما تفرّق من شمل المسلمين، وتحيي ما اندثر من معالم اليقين، وقد اخترت في الحصول على الدواء لداء التقهقر طريق الدين، لأن به قام المجد الإسلامي ومدنيته، وعليه تأسّست دعائم الدول العظيمة في الإسلام، وتبسّطت الأمة الإسلامية في مناحي العمران، فضعفها وقوّتها يكونان بنسبة ضعف الدين وقوّته، بخلاف الأمم الأخرى التي قامت من جهة غير جهة الدين».

كما ذكر المؤلّف أنه بدأ بإلقاء هذه الدروس وأمثالها على طلبة السنة الرابعة من المدرسة العثمانية بمصر حين أُنيطت به إدارة شؤونها، وهي ناحية تربوية تمثّل بعض الجوانب العلمية المجهولة من حياة الرجل الكبير، وروح علم الاجتماع تغمر الفصول الأولى من الدروس.

وقد استطاع الكاتب أو المعلّم تذليل الحقائق الكبيرة في صيغ هادئة هادفة، فصدر عن براعة قوية حين تحدّث عن قيمة المدنية ومكانة العقل، والإنسان الكامل، ليصل من ذلك إلى حاجة البشر الضرورية إلى الدين، مؤكّداً ما يعتنقه من أن الدين الإسلامي هو الجامعة الكبرى للمسلمين، ودراسته من أوجب الواجبات وألزم الضروريات، وقد اعتاد أن يُتبع كل عنوان من عناوين هذه الدروس بآية قرآنية تحدّد مجرى المعاني في الفصل المكتوب، بحيث يصير هذا الفصل تفسيراً

استشفافياً لما توحيه الآية الكريمة من معانٍ. فهو - مثلاً - يتبع درس «الحكومات والإسلام» بقول الله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم ﴾[1]، ويتبع درس «الحرية والمساواة» بقول الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذَكَرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾[2].

ثم يوازن في درس خاص بين الحرية الإسلامية والحرية الغربية، مُستهدِياً بقول الله: ﴿ هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾[3]، ومتّخذاً من أمثلة التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوروبي ما يعرض للقارىء مباهج النور في تاريخ وحوالك الظّلمة في تاريخ، خاتماً حديثه بقوله: «اللّهمّ إن حرية كحرية الغربيين الآن، يفرّق فيها بين الشرقي والغربي، والمسلم والنصراني، بل والبروتستانتي والكاثوليكي، والحق فيها للقوي، يسحق بقوّته الضعيف، لحرية حَرِيّة بالنبذ والاستهجان، لأنها استعباد تأباه الإنسانية والإنسان، ولا ينطبق على قانون الحرية في كل عصر وزمان».

والدروس كلها إيقاظ مجلّل بمعانيه وأهدافه لا بألفاظه وإيقاعه، ومن أجمل ما فيها هذه الموضوعات الإنسانية التي تهدف إلى الإيثار وحبّ الناس، والإخلاص للوطن، والتذكير بأمجاد السّلَف، والاعتماد على النفس، وهي موضوعات لا تبلى جدّتها بتقادم الأجيال، لأنها موضوعات الإنسان في كل زمان ومكان!.

- ٣ -

يرى الأستاذ رفيق العظم أن الإسلام قد وجد تطبيقه العملي في الفترة الأولى من حياته، إذ كانت سِيرة الرسول الأعظم، وتاريخ الخلفاء الراشدين الأربعة، مما يعطي النموذج الفريد للسياسة الإنسانية حرية رأي، وصلاح معتقد، واعتدال سلوك، لذلك جعل من وكده أن يكتب تاريخ هذه الفترة الحرّة من حياة الإنسانية

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣٥.
(٢) سورة الحجرات: آية ١٣.
(٣) سورة الرعد: آية ١٦.

جمعاء كتابةً تقدّم الدليل الناطق على عظمة الرسالة الإسلامية، وصلاح الشريعة القرآنية.

أما سيرة الرسول فقد أوجزها في كتابه المعروف «تاريخ السياسة الإسلامية» وهو بين مجموعة مؤلّفاته ورسائله التي أصدرتها مطبعة المنار عقب انتقاله إلى جوار ربّه في ٣٠ يونية سنة ١٩٢٥ م (٩ من ذي الحجة سنة ١٣٤٣ هـ).

وأما سيرة علي فقد تركت مخطوطة في الصفحات المبعثرة على مكتبه، حيث أعجله الداء العضال في الفترة الأخيرة من حياته عن أن يهيّئها للنشر، وبقيت بعد ذلك سِيَر الأعلام من أبطال الفترة اللّامعة في عهود أبي بكر وعمر وعثمان، وهي التي انتظمت كتابه الذائع الصّيت، الخالد الأثر: «أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة» بأجزائه الأربعة، ذات الأسلوب السَلِس السهل والنفع المحقّق الأكيد.

وإذا كانت كتابة التاريخ الإسلامي قد تعرّضت في القديم لخطر الجمع الحاشد لشتى الروايات المختلفة بين صحيحه وزائفه، كما تعرّضت في الحديث لحذلقة بعض متكلّفي التحليل البعيد ممّن يريدون إبراز مواهبهم العلمية، وملكاتهم التحليلية، فيُغرِقون القارىء في طوفان من القول يذهب به بعيداً بعيداً عن قطف الثمار الدانية من أقرب طريق، فإن كتابة الأستاذ رفيق العظم التاريخية قد كانت بمنأى عن هذين الخطرين، إذ نخل الأستاذ روايات السابقين نخلاً جيداً، ليختار منها الصواب في منطق العقل، وليقدّمه ناصع العبارة في سَلاسة ميسّرة، تمضي حلقاتها الذهبية في سلسلة متماسكة تسلم الألف منها إلى الباء، حتى تصل إلى النهاية في دقّة وإيضاح، كما أنه قام بالتحليل الهادف والتعليل الكاشف دون مُباهاة بعظمة فكرية، أو موهبة تحليلية.

وإذا كان يكتب تاريخه هذا لهدف واضح في نفسه، ساطع أمام عينه، وهو تقديم الأنموذج الرائع للحرية الإنسانية في أزهى فتراتها اللّامعة، فقد اضطره هذا الهدف إلى الموازنة بين الماضي البعيد السّارّ، والحاضر المشاهد المؤلم في كل

مناسبة تتيح ذلك، حتى بَعُدَ به الاستطراد بعض الشيء، وقد يظن أدعياء التأليف المنهجي أن هذا المسلك التأليفي بعض ما يؤخذ عليه، حيث يلتزمون بإطار معين لا يُجيزون لأنفسهم أن يخرجوا عنه، وقد فاتهم مرمى المؤلّف من كتابه، إذ أنه رجل إصلاح تمثّل في ذِهنه وارتسم في نفسه، ووجد تطبيقه المشاهد في إحدى حقب التاريخ، فرأى أن يخدم حركة الإصلاح الإنسانية ـ ولا أقول الإسلامية فحسب ـ بتقديم أنموذج فريد لهذا الإصلاح المثالي الذي احتضن الواقع في إحدى الفترات، وكان واقع الشرق العربي من الانحدار والسقوط، بحيث دفع الكاتب إلى إشعال بعض المصابيح التاريخية لتُضيء.

لقد أخذ الكاتب على أسلافه من المؤرّخين تدوين التاريخ الإسلامي في صورة تهمل الجانب الخُلُقي من تعاليم الإسلام، وتعرض في سلسلة مواقع حربية تسيل فيها الدماء لا عن هدف، حتى ليظن الجاهل والعدوّ أن الأمة الإسلامية إنما وُجِدت لإزعاج العالم بالحرب والقتال، فشوّشوا الحقائق الخلقية بما أهملوه في أخبار الفتوح الإسلامية من مواقف العدالة والحرية والمساواة، ولو عُنِيَ المؤرّخون بإيضاح المسلك الخلقي إيضاحاً مكتمل الجوانب متّصل الحلقات، لكان عهد الخلافة الراشدة مِنوالاً تنسج عليه الحضارة الإنسانية، ومنبّهاً يحرّكنا الآن إلى استرجاع ما فات. وقد قال المؤلّف عن نفسه بهذا الصدد ص ٤٠٣:

«أخذت على نفسي ألاّ أُغفل في هذا الكتاب خبراً يمرّ على القارىء من الأخبار التاريخية المهمة ما لم أردفه ببيان مفيد، لا سيما فيما يرجع للأخلاق ويصوّر الفضائل والرذائل، ويفرّق بين السعادة والشقاء».

كما أُنَحّي باللآئمة على مَن يحرمون الخوض في تاريخ الصحابة، ويعلّل ذلك تعليلاً سياسياً، كان أول مَن اهتدى إليه فيما أعلم من كتاب التاريخ الإسلامي، إذ يقول في حرارة وإيمان ص ٧٧٢:

«اعلم أن أخبار الصحابة إنما حرم بعضهم الخوض فيها لأنها أخبار قوم ملئت صدورهم بالحياة، ونفوسهم بالعزّة، وهم بالضرورة قدوة الأمة، والمُنادون

منذ نشأت الدولة بصوت العدل والحرية والحق، فوقوف الناس على أخبارهم والأخذ والردّ فيما حدث بينهم يُحيي في القلوب روح الحرية، ويبعث على استظهار عامّة الناس للحجّة التي يصادمون بها آلات الاستبداد من الخلفاء والملوك الذين حوّلوا الخلافة إلى المُلك العضوض، وأمعنوا في التمكّن من رِقاب الناس لهذا، ولمّا كثر خوض الناس في أخبار الصحابة أرادوا إلهاءهم عنها بحجّة حُرمة الخوض فيها، فأوعزوا إلى الوُضّاع والقصّاصين بوضع أخبار المغازي وقصة عنترة وأشباهها، ليتلهّى بها العامّة عن التاريخ الصحيح الذي يبعث في النفوس روح الجرأة على قول الحق، والتشبّه بسلف الأمة ورجالها، ورافِعِي دعامة دولتها في مناهضة أرباب العتو والجبروت، ومحبّي الاستبداد وآلهة الملك، وهذا ما أراه في هذا الباب والله أعلم بالصواب».

وإذا كانت كتابة التاريخ تسير اليوم في ظلال المناهج الاقتصادية أو الاجتماعية أو الجغرافية، فلماذا لا يكتب التاريخ الإسلامي في ضوء المنهج الخلقي للإسلام؟ وكيف يُعاب على العظم التزام وجهة نظر معينة يفسّر بها أحداث التاريخ في عصر كثرت فيه المناهج التفسيرية في تأريخ الماضي وتعليله، وفق ما يتّجه إليه الباحث من نظريات؟

أيكون التزام الكاتب الإسلامي بوجهة نظر واضحة موضع نقد لدى مَن يقدّسون التزام المناهج الخاصّة إذا التزم بها كاتب أوروبي يُجحِف، لا مؤرّخ عربي ينصف كصاحب أشهر مشاهير الإسلام؟

وسبيلنا الآن أن نعرض بعض النماذج الخلقية التي اهتمّ بها الأستاذ، وسلّط عليها مزيداً من الضوء، لتكون حافز الأمة الإسلامية إلى النهوض والتوثّب، والمناداة بكرامة الإنسان وحرية الإخاء.

١ ـ كان جند الأعاجم من الفرس والروم إذا انتصروا على عدوّ، أو استباحوا حمى ملك أو أمير، يحملون رؤوس البشر إلى سُدّة ملوكهم كبشائر للنصر، فرأى بعض أمراء المسلمين أن يفعل ذلك، فبعث عمرو بن العاص برأس بنان أحد

بطارقة الشام مع عقبة بن عامر، فلما قَدِم بهما أنكر ذلك أبو بكر فقال له عقبة: يا خليفة رسول الله: فإنهم يصنعون ذلك بنا فقال أبو بكر: أفتسلكان سبيل الروم وفارس؟ لا يحمل إليَّ رأس بعد الآن.

قال العظم تعقيباً على هذا الخبر ص ٨٣:

«اللّهمَّ ليست المدنية بالزخارف التي يتحلّى بها الغربيّون، ومن ورائها الشهوات تهدم ما يبنون، وتضع ما يرفعون، يحشرون إلى العُزّل مئات من البشر، ويسدّون عليهم فوهة الطريق بالحطب، ثم يُوقِدون النار ليُميتوهم خنقاً بدخانه، كما صنع الفرنسيون بمسلمي الجزائر، أو يصفّون الناس صفّاً، ثم ينسفونهم بقذائف البارود نسفاً، كما صنع الإنجليز بثوّار الهند، وإنما ما سننت لعبادك في كتابك ـ يريد القرآن ـ وما فطرت عليه من الرحمة نفوس أوليائك ـ يريد أمثال أبي بكر ـ.

٢ ـ حين فرغ أبو سبرة من السوس، ونزل بمَن معه بجندي سابور، وحاصر القوم مدة، وجد الأبواب تفتح فجأة، والناس يخرجون إلى الأسواق، فحارَ المسلمون في ذلك وسألوهم فقالوا: رميتم لنا بالأمان فقبلناه، وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا، فقال المسلمون: ما فعلنا، فقال القوم: ونحن ما كذبنا، فسأل المسلمون فيما بينهم، فإذا عبد اسمه (مكنف) هو الذي كتبه لهم، فقالوا: إنما هو عبد، فقال القوم: لا نعرف حُرّكم من عبدكم، فرجع أبو سبرة إلى عمر، فردّ عليهم باحترام ما كتبه (مكنف) وأمرهم بالوفاء.

قال العظم تعقيباً على ذلك ص ٣٣٢:

«ولو لم يعلم هذا العبد من أخلاق هؤلاء الفاتحين السامية أنهم يجيزون أمانه، وأن أخلاقهم الكريمة ونفوسهم الشريفة فوق كل فاتح محارب، لَمَا رمى للقوم بالأمان واستنزلهم من المعاقل، ولو أنصف جَهَلة المتعصّبين من المؤرّخين، وتتبّعوا أخبار هذا الفتح، وبحثوا عن سير الفاتحين وأخلاقهم البارّة بالإنسانية، لكفّوا أنفسهم مؤنة التهجّم على المسلمين».

ـ لمّا تمّ الصلح بين (أبي عبيد) وبين (فروخ) (وفردنداذ) جاءاه بآنية فيها أنواع لذيذة، من أطعمة فارس وقالوا: هذه كرامة أكرمناك بها، فسأل أبو عبيد أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله، فقالوا: لم يتيسّر ونحن فاعلون، فقال: أبو عبيد فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند فردّوه، وخرج حتى نزل باروسما، فأتاه الوالي الفارسي بمثل ما جاء به سابقه فقال له: أأكرمت الجند بمثله؟ فقال كلا، فردّ الطعام قائلاً: بئس المرء أبو عبيد أَنْ صَحِب قوماً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه، لا والله لا يأكل أبو عبيد مما أفاء الله عليهم إلّا ما يأكل أوساطهم». ثم يعقّب العظم على ذلك بقوله ص ٢٨٩:

«وهذا المبدأ الذي تأسّس عليه الاجتماع الإسلامي منذ نبت الإسلام في أرض العرب، هو مبدأ الاشتراك المعقول الذي يخبط للوصول إليه زعماء هذا المذهب لهذا العهد، خبط عشواء لضلالهم عن طريقه المستقيم وغلوّهم فيه، غلوّ الجاهل بخوافيه.

٤ ـ كان خالد بن الوليد قد خصّ بعض الأشراف بشيء من غنائم الحرب، فجمع عمر بن الخطاب الناس وقال فيهم: «إني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان، فنزعته وأمرت أبا عبيدة، فقام أبو عمر بن حفص بن المغيرة (ابن عمّ خالد) وصاح متحدّياً: «والله ما اعتذرت يا عمر، ولقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ، وأغمدت سيفاً سلّه النبي، وقطعت رحماً، وحسدت ابن العمّ».

فقال عمر هادئاً: إنك قريب القرابة حديث السنّ مغضب في ابن عمّك. ثم نزل ولم يزد على أن ردّ عليه ردّاً جميلاً».

يقول العظم تعليقاً على ذلك ص ٤٠٨: «هذا نهاية ما يقال في إطلاق الحرية للرعيّة، يناقشون بها عن أنفسهم، ويكفّون الأيدي عن حقوقهم، ومع وصول العرب إلى هذا الحدّ من الجرأة في الردّ على أمثال عمر بن الخطاب

ومناقشته الحساب، فإنهم كانوا أطوع له من بنانه، ولو كانت الحكومة ثمّة حكومة عسكرية، لكان خالد أول مَن لجأ إلى القوّة، وضرب بجيوشه وجه الدولة، وناصب خليفة المسلمين العداوة، وتوثّب على الخلافة، ومعاذ الله أن يحدّث خالد نفسه بشيء من ذلك، ما دام لا أمر يومئذٍ للقوة، وإنما كان الشرع هو الآمر الناهي عند المسلمين».

هذه فقرات ساطعة من الحديث الحافز عن عظمة الماضي وكرامته، ولها عشرات الأمثال ومئات النظائر، بما يجدر بالشبيبة الإسلامية استظهاره، إذا أُريد للنشء أن ينمو على العزّة المحمدية والكرامة الإسلامية، وإلى هذا يهدف الكاتب في كل ما يقول، ملتفتاً التفات المقابلة إلى الوجه المظلم من الحاضر حين يستعرض مقابح الاستعمار، وفظائع الاستعباد، وجمود المتأخرين، وتزلّف المنافقين، استعراض مَن يلتمس العبرة من مساق الأحداث التاريخية، ويأخذ الشاهد من روائع الأبطال، فهو مثلاً:

١ ـ حين يتحدّث عن يقظة عمر، وانتظاره البريد كل يوم لمراقبة عمّاله يقول في تحسّر ص ٣٨٠: هكذا حال الدولة عندما تبدأ في سُلّم الصعود، ومتى انقلبت إلى الهبوط جعل الأمراء العيون على الرعيّة لا على العمّال، ليكونوا عوناً للوُلاة على الرعيّة، بحيث لا يستطيع أحد أن يشكو ظلم العمّال وسوء الأحوال، ويا ويح مَن تبدو منه بادرة شكوى من هذا الخطب، إذ يُزَجّ به في ظلمات السجون أو يُنفى من الأرض، وهذا ما جعل الأوروبيين يتسلّطون على الممالك الإسلامية، ويلصقون عار الانحطاط بالمسلمين، واستسلامهم لعقيدة القدر والقضاء.

٢ ـ وهو حين يتحدّث عن عدالة الإسلام مع أهل الذمّة ويُسهِب في رأفة عمر وأمثاله بأهل الكتاب، يقارن بين المسيحية في الغرب والإسلام في الشرق فيقول في مرارة ص ٢٠٨:

هذا شأن الحكم الإسلامي مع أهل الذمّة أوردناه مؤيّداً بالشواهد التاريخية، ونحن ندرك ببداهة الحسّ أن اليهود والنصارى لا يزالون يتمتّعون في الممالك

الإسلامية ـ مدى ثلاثة عشر قرناً ـ بكل ما يتمتّع به المسلمون من الحقوق، فلم تُنزَع منهم أرض، ولم يُطرَدوا ولم يُشَرّدوا، ولم يُفتَنوا عن دينهم ولو أُصيبوا بما يُصاب به المسلمون في ممالك النصرانية لما بقي منهم في هذه القرون الطويلة باقية، مع أن الإسبان ما لبثوا أن دوّخوا بلاد الأندلس، واكتسحوا ذلك المُلْك الإسلامي العريض، حتى فتنوا المسلمين عن دينهم، وطردوهم عن مُلكهم واغتصبوا تراثهم، وسفكوا دماءهم، وشرّدوهم عن بلاد الأندلس تشريداً لم يبقَ لهم هناك من باقية، ومحوا كل ما تركوه من آثار العلم والمدنية في بلاد كانت جنّة العصر.

وحين يتعرّض إلى خُطَب الخلفاء الراشدين على المنابر أيام الجُمَع يقول عمّا يشاهد اليوم من شلل الخُطَب الدينية ص ١١٧ :

«أصبحت خُطَب الجُمَع من قبيل الرسوم التي تؤدّى على أيّ حال، وتنوسيَ مع الزمان ما قصد إليه من خطرها، فانقلب نفعها ضرّاً بمَن انتهت إليهم هذه الوظيفة السامية، من جُهَلاء المسلمين الذين أصبحوا واحزناه ينفثون من أعلى المنابر سُموم الجهل والأذى في العقول، بعد أن كانت تشرق منها شموس الحكمة، فكم فرج ذلك الموقف من كُرُوب! وكم أزال من خطوب، وكم أشرف من أعلاه رجال كانت صدورهم ينابيع للحكم يفيضونها على الناس فيضاً، ورؤوسهم بما تحمله من العقول أشبه بأوعية البخار، ترسل قوّته على الناس من أنابيب الأفواه، فتحرّكهم حركة مَن دبّت فيه الحياة. وقد اختصّ بهذه الفضيلة الآن خطباء السياسة الغربيون».

ولنا أن نسأل الذين ينقدون مساق هذه الخطرات الإصلاحية في كتابة التاريخ : هل قصّر الأستاذ في عرض مشهد تاريخي مما ندب نفسه إلى الحديث عنه، أو أغفل جانباً تحليلياً يلقي الضوء على ظلمته في غوامض البحث الذي تعرّض لمعالجته؟، فإذا اعترفوا له باستيفاء النظر وشمول العرض فمما يضاف إلى قدره أن يكون مؤرّخاً ذا رسالة إصلاحية لا أن يكون مؤرّخاً فحسب، كما يودّ هؤلاء ناسين طبيعة العصر وحتمية الإصلاح.

شـكيب أرسـلان
لسان العرب ومدرة الإسلام

- ١ -

كنت أقرأ عن كثرة مؤلّفات محمد بن جرير الطبري، وأبي الفرج الجوزي، وجلال الدين السيوطي، ما يدهش ويروع حتى عَنَّ لي أن أتّهم الرّاوين بالتزيّد والإغراق، ثم طالعت حياة الأمير شكيب، فوجدته في مدى ستّين عاماً لم يترك يوماً واحداً دون تحرير مقالة ضافية في جريدة، أو كتابة بحث علمي في مؤلّف، أو صياغة مذكّرة سياسية في شأن هامّ أو إجابة رسالة أخوية أو علمية، تفصل بعض المشاهد، حتى اكتمل له من ذلك كله ما يزيد عن خمسمائة مجلّد! ضاع أكثرها في أنهار الصّحف، وسجلّات السياسة، ومكاتب الأصدقاء، ومتفرّق المجلّات!.

ولو تفرّغت لجنة علمية مخلصة لجمع آثار الرجل ما استطاعت بعد طول الكدّ اللّاغب أن تبلغ شيئاً ذا بال في طريقها البعيد، لأن الأمير ـ كافأه الله أحسن المكافأة ـ كان يُراسل أُمّهات الجرائد في مصر وسوريا وتونس والعراق ومراكش والمهجر، ويكاتب أفذاذ الأعلام من ذوي الرأي السياسي والأدبي في شتّى ديار الإسلام، ثم يصدر مجلة باللغة الفرنسية تكون لسان العرب في دوائر الاستعمار!.
وقد ذكر أحد أصدقائه أن الرسالة الواحدة من رسائله كانت تتجاوز العشرين صحيفة، يكشف فيها الرجل عن دقائق خافية لا يلمّ بها سواه! وهي بعد رسالة فردية يكتبها الأمير ليقنع صاحبه وحده بوجهة نظره الخاصّة في مسألة عامّة!، فماذا

نقول في مقالاته المُسهبة التي كانت تحتل الصفحات الأولى دائماً من أُمّهات الصّحف الذائعة في الشرق الإسلامي؟!، ثم ماذا نقول في مذكّراته الضافية عن استعمار إيطاليا في طرابلس، وفظائع فرنسا في سورية ولبنان، ومأساة اليهود في فلسطين! ومحاولة الظهير البربري في الغرب، ودور الخلافة العثمانية في الأحداث العربية، ثم تراجمه الضافية لأصدقائه الأعلام ممّن فاجئوه بوفاتهم؟، ووجد من الوفاء لهم أن يشيد بتاريخهم في الذكريات المناسبة، حيث تفسح الصّحف صدورها لجميع ما يخطّه الأمير!.

هذا غير مؤلّفاته المتداولة، وهي على كثرتها المشرّفة ليست غير صبابة من كأس تمتلىء وتفيض! إن مَن يقف على آثار الأمير القلمية وحدها لا يدهشه أن يسمع عن ابن جرير والسيوطي وابن الجوزي ما سمع!! بل إن القياس مع الفارق الكبير لأن هؤلاء الأعلام كانوا يلقون العلم في حلقات الدرس فينقله الطلاب معزوّاً إليهم دون أن يتكلّفوا مشقّة التحرير في بعض ما ينسب إليهم من تصانيف! أما شكيب فيكتب ويُملي كلّ ما يصدر عنه دون أن يجعل من حديثه الدائر مجالاً للرصد والتسجيل، كما جعل طلّاب الحلقات أحاديث أساتذتهم مؤلّفات!!.

وطبيعي أن مجاهداً خطيراً كشكيب أرسلان لم تكن أكثر أحاديثه كأحاديث الناس تسلية تزجي الفراغ، ولكنها بطبيعة رسالته الكبيرة كانت مجال نقد وتوجيه، وموضع تعليق وتبرير، وعرض لما يضطلع به من شؤون! فما أحراه أن يتحدّث فيجيد!.

كتب شكيب ذات مرة إلى صديقه الأستاذ محمد الفاسي يقول في رسالة خاصّة: «وفي يوم عيد رأس السنة علمنا أنا وكاتبي حساب ما صدر عن قلمي من المكتوبات سنة ١٩٣٥ من أول يناير إلى ٣١ ديسمبر، نقلاً عن دفتر قيود المكاتيب فبلغ عدد الرسائل الخصوصية ١٧٨١، وعدد المقالات ١٧٦، وقصيدتين ومقطوعة، وعدا ذلك حرّرت كتاباً عن شوقي في ٣٥٠ صفحة، وحواشي ابن خلدون في ٥٦٠ صفحة، وطبعت روض الشقيق ديوان أخي وذيّلته بتفسير،

وأودعته ترجمة أخي، ونسب العائلة ملخّصاً، لأن الأصل أطول ممّا قرأتموه في روض الشقيق.

وفي سنة ١٩٣٥ كتبت قسماً غير قليل من الجزء الأول من كتاب الأندلس (يريد كتاب الحُلَل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية) لكني سأجعل ذلك عند تمام هذا الجزء من محصول سنة ١٩٣٦ إن شاء الله.

وفي سنة ١٩٣٥ قدّمت ديواني للطبع، وعلّقت عليه تفسير بعض الألفاظ، وقريباً يتمّ طبعه وأهديكه، وكتاب ليفي بروفنسال لخّصته في هذه السنة، فأنت ترى أن همّتي همّة شباب لا همّة شيوخ».

هذه بعض اعترافات صادقة تنبيء عن السّيل الزاخر الذي تدفّق به يَراع الأمير في مدى ستّين من الأعوام! ومن المُسَلّم به أن كثيراً من مقالاته كان يعالج مسائل سياسية موقوتة بزمانها، دون أن يكون لها عند الأجيال المقبلة فائدتها في العصر الذي نشرت به، وهي في هذه الدائرة لا تفتقد مَن يحرص على جمعها في نطاق خاصّ، أما الأكثر الأغلب من آثاره فيتطلّب عزيمة العصبة أُولي القوة في حصره وتصنيفه، وقد يرى بعض النقّاد أن أسلوب الأمير كثيراً ما يميل إلى السّرعة العاجلة، فهو يدوّن أفكاره دون اهتمام بنصاعة اللفظ وخلابة التعبير، ولم يكن في وسعه غير ذلك، وأحداث الزمن تُفاجئه كل ساعة بالجديد الملم، مما يتطلّب سرعة الرأي، وتشخيص العلاج دون التفات إلى براعة الصّنعة وجمال التركيب.

ولعلّ هذا هو الفرق الواضح بين الكاتب المُصلِح الدّاعية، والأديب المترصّن الفنّان، فالأول يقف على منبر جهير لا ينقطع سامِعوه فهو لا يفتأ يفيض عليهم بعاجل توجيهه، ويخصّهم بنصائحه ونقداته غير متمهّل أو متباطىء، والآخر يترك لنفسه من الفراغ المتأنّي ما يسمح باصطياد الخاطر البعيد، وتعليل الحَدَث المبهم، وتنسيق العبارةالأنيقة! ومن العبث أن نقارن بين الرجلين دون أن نلحظ بواعث الكتابة عندهما، أو نقدّر ما تفترق فيه من ظروفهما وطبائعهما ومشاربهما من أمور! على أن روح الكتابة في جوهرها الخالص هو الصدق!، فمتى كان الأديب

صادقاً مخلصاً في رسالته! فإن ما وراء ذلك من جمال الصّقل، وبهاء الرواء لن يكون صاحب الكفّة الراجحة في ميزان التفاضل والتمييز، ونصيب الأمير في صدقه المخلص غزير وفير!.

وأجمل ما في إنتاج الأمير، أنه لم يُرِد بالكتابة المتواصلة أن يكون مؤلّفاً كبيراً يُشار إليه بالبَنان، فهو كما تنطق آثاره الشاهدة، لا يهتم بإبراز إنتاجه إبرازاً متميّزاً يُحسَب له في سجل المشاهير، بل يجعل كثيراً من آرائه القوية حواشي وتعليقات، تكون زيادات مضافة لا أصلاً قائماً بذاته، وفي مكنته كأديب مرموق جهير المكانة، أن يجعل كلامه أصلاً قائماً بذاته، لو كان يميل إلى ادّعاء، أو يدلف إلى علوّ مكانة أو خلود صيت! وأمامنا تعليقاته الضافية على كتاب حاضر العالم الإسلامي، وكتاب ابن خلدون في التاريخ، فإنها تحتاج إلى مزيد في البسط يكشف عن تواضع الأمير وسكينة نفسه، فوق ما يكشف عن سداد بصره وعمق اطّلاعه، وتمكّنه الركين في عالم الرأي والبيان!.

لقد ألّف الكاتب الأمريكي لوثروب ستودار، كتاباً قيّماً عن حاضر العالم الإسلامي، قام بترجمته إلى اللغة العربية كاتب فلسطيني قدير هو: الأستاذ عجّاج نويهض، وشاء إخلاص المترجم أن يعرض على الأمير ليقول كلمة موجزة تكتب في مقدمته، ولكن الرجل المكافح وجد الكتاب المحدود يتحدّث عن العالم الإسلامي كله في القارّات المختلفة، حديثاً يتطلّب الإشباع والتفصيل وقد غفل عن أمور كثيرة ما كان لمثل مؤلّفه أن يدركها مهما واصل البحث وأحسن التعليل، فدفعته همّته إلى التعليق على كل صفحة من صفحات الكتاب بما يجلو الغامض في زاوية مبهمة، أو يردّ الحق في خطأ ناشز، حتى صار الجزء الواحد بعد تعليقات الأمير أربعة أجزاء ضخمة لا نظير لها فيما كتب يومئذٍ عن حاضر الإسلام! وقد نسي الناس كلام الكاتب الأمريكي إذ صار دون التعليقات الضافية، بحيث لا يُشفي غلّة القارىء في شيء!، واشتهر الكتاب اشتهاراً ذائعاً بما أبدع فيه الأمير من تعليقات نابهات.

والحق أن شكيب كان نسيج وحده في موضوعه، إذ لا يوجد سواه مَن يلمّ بتاريخ الدول الإسلامية في مصر، والعراق، والشام، والحجاز، والصين، وأندونيسيا، وأوروبا، وتركيا، والهند، وفارس، وبلاد القوقاز، وليبيا، وتونس، والمغرب، والجزائر إلمام اليَقِظ المتربّص لكلّ ما يلمّ بهذه الأماكن من دواهي الاستعمار ونوازله، وصار الكتاب بعد تعليقات الأمير المرجع الأوحد لمَن يتطلّع إلى معرفة أمور المسلمين.

وقد ظهرت في أيامنا هذه كتب مختلفة، تخصّ كل إقليم من الأقاليم الإسلامية النائية ببعض الحديث، وإني لأقرؤها فأجدها تعتمد اعتماداً كلّياً على ما كتبه الأمير في تعليقاته! مما جعلها دائرة معارف في الشؤون الإسلامية بكل مكان! ولو كان الأمير ممّن يتباهون بكثرة التأليف لجمع تعليقاته تلك في كتب متتابعة بعد إضافات يتطلّبها المقام، ثم خرج بها مستقلة على الناس دون أن يأتي بها تابعة لما قاله سواه! ولكن الرجل صاحب رسالة وقد وجد مجال القول فقال!.

وقد تعرّض الناقد الدكتور زكي نجيب محمود بمجلة الرسالة (٣٠ سنة ١٩٣٤) إلى نقد هذا الكتاب القيّم فقال عنه: «وبين يديَّ الآن مجلدات أربعة كُتبت في حاضر العالم الإسلامي، ألّفها الكاتب الأميركي لوثروب ستوادار، ثم نقلها إلى العربية الأستاذ عجّاج نويهض، وفيها فصول وتعليقات وحَواشٍ مستفيضة، عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطوّرها الحديث، بقلم الأستاذ الكبير والمجاهد العظيم الأمير شكيب أرسلان، وقد يظن القارىء ـ وله عذره في هذا الظن ـ أن الكتاب المترجم هو الأصل، وأن ما كتبه الأمير حواشٍ متناثرة هنا وهناك، ولكن الواقع نقيض ذلك، فالفصول المترجمة لا تتجاوز خُمس المقدار، وأربعة الأخماس الباقية هي حَوَاشٍ للأمير، وإنه ليخيّل إليّ أن كتاب لوثروب اتخذ تكأة لنشر هذه الفصول الكثيرة القَيِّمة، التي دبّجتها يراعة الأمير شكيب أرسلان في شؤون المسلمين والإسلام».

ثم يقول الدكتور ناقداً منهج الأمير: أما حواشي الأمير فليس إلى حصرها من سبيل، وكلّها شيّق مُمتِع، ولكنها ـ عندي ـ قد خرجت بالكتاب عمّا ينبغي أن

تكون عليه الكتب من تركيز في موضوع بعينه، وأدنته من دوائر المعارف، التي من شأنها أن تجمع بين دفّتيها شتيتاً من ضروب العلم والمعرفة، وهو يعترف بذلك في المقدمة إذ يقول عن هذا الكتاب: إنه لم يصل بعد إلى الدرجة المنشودة من السّعة والشمول، وإنه ليرجو أن تتّسع يوماً حتى يصحّ أن يُقال إن في اللغة العربية إنسيكلوبيديا إسلامية، أشبه بموسوعات العلوم التي عند الأمم الراقية».

هذا النقد المنهجي يصحّ أن يوجّه إلى كتاب جامعي، يؤلّف في مدىً متطاول يتّسع للتبويب والتنسيق، ولكنه لا يوجّه إلى كاتب كالأمير، ينتهز كل مناسبة ليأتي بالجديد، وحسبه أن يكون أول مَن أحاط بهذه الروائع والخبرات.

أما تعليقاته على تاريخ ابن خلدون فتنحو هذا المنحى، من التوضيح والبَسْط والاستطراد، فقد وصل الحديث عمّا انقطع من أحوال العرب والبربر وسائر مَن تعرّض لهم الفيلسوف الكبير، كما أسهب في الحديث عن الصقالبة والدولة العثمانية حتى خصّ تاريخ الأتراك وحدهم بثلاثمائة صحيفة من ذات الحجم الكبير! وأترك للقارىء أن يتصوّر تعليقاً عن أمة من الأمم يصل إلى ثلاثمائة! ولو أن الأمير أفرد مؤلّفاً خاصّاً بالأتراك وخرج مستقلاً في هذا العدد من الصفحات! لكان عملاً قائماً برأسه، يحرص عليه المتباهون بأصالة الإنتاج، ولكن الرجل يرسل تعليقاته الضافية كما تجيء عفو الخاطر، وحسبه أن يلمّ بها القرّاء في ظلال كتاب آخر قد يسيطر على القارىء بقوّة مؤلّفه العلّامة الاجتماعي، فينسى في بهرة الضوء ما سطّره الأمير شكيب!! إنه الإخلاص للرسالة دون اهتمام بالتفرّد والأصالة والتجديد! وجميعها في مقدور الكاتب لو أراد.

وما دام الحديث قد تطرّق بنا إلى مؤلّفات الأمير، فإننا نذكر منها: ديوانه الشعري وترجمته لرواية شاتوبريان، عن بني سراج، مع مقدمته الضافية في تاريخ الأندلس قبيل المغيب، كما نذكر كتبه التاريخية الرائعة: عن شوقي، والسيد محمد رشيد رضا، وأناتول فرانس، ورحلته إلى الحجاز، وتاريخه المبتكر لغزوات العرب في فرنسا، وسويسرا، وإيطاليا، وجزائر البحر الأبيض المتوسط، وبحثه التحليلي

عن أسباب تأخّر المسلمين وتقدّم غيرهم من الناس، أما ما نشره من الكتب القديمة فمن بينه كتاب اليتيمة لابن المقفّع، وكتاب محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، ورسائل أبي إسحاق الصابي وديوان شقيقه نسيب أرسلان، عدا المخطوطات المهيّئة للطبع مما تحدّث عنه أصدقاء الأمير.

وقد أخّرت الحديث عن كتابه «الحُلَل السندسية في الأخبار الأندلسية» لأقول عنه رأياً. فقد ذكر الأمير أنه يحرص على النصوص القديمة لتكون عمدة البحث في صياغة الفصول، ثم انتقد مَن يقرؤون المراجع، ثم يصوغون الأبواب العلمية بأساليبهم الخاصّة، فتخفى بعض الحقائق في ظلال ما يتركون ويأخذون مما يقوم ببنائه على منهجهم الخاصّ! ولست مع الأمير في تقيّده بالنصوص إلى حدٍّ ملحوظ، يجعل الكتاب معرضاً للنقول فقط دون أن تظهر شخصية الكاتب في الصياغة والتحليل والاستنتاج! ولست أعني بذلك أن كتاب الحُلَل مجرّد نقول تاريخية، فلشكيب شخصيته الملموسة، وبخاصّة في تصحيح الأخطاء مما زلّت به أقلام ذوي الاستشراق وبعض مؤلّفي العرب، ولكنّي أردّ على ما أشار إليه في مقدمة كتابه، ثم التزمه في أكثر صفحاته! وكلّ أديب وما يراه.

هذا ومع هيام الأمير بالاستطراد لأدنى مناسبة، فقد هام بالسّجع في كثيرٍ من آثاره، هياماً لم تخلص منه عناوين الكتب أيضاً، وكان الأستاذ محمد كرد علي قد أخذ عليه إفراطه في هذه السّجعات، حين قرّظ مقدمته لديوان الأمير نسيب بالسنة الثالثة من مجلة الرسالة سنة ١٩٣٥، فردّ عليه الأمير مبيّناً أن النثر قسمان مُرسَل ومسجوع، وأن السجع مما اختاره بُلَغاء القرن الرابع الهجري، فجاءت رسائلهم معرضاً من معارض الفصاحة لذلك مالَ إليه الأمير وارتضاه، ولا نعلّق على هذا الرأي بأكثر من أن لكل عصر ذوقه، فإذا قبل العصر المتقدّم أساليب البُلَغاء، ممّن راقهم التزام السجع كأبي إسحاق وابن العميد والصاحب، فإن عصرنا الراهن يرى جمال الأسلوب في شيء غير المحسّنات البديعية، والمسألة أوضح من أن تخصّ بالحديث! لقد كان الأمير كاتباً ذا خصائص ومميزات، وحسبنا أن نسجّلها له هنا دون انتقاص.

- ٢ -

نشرت مجلة الضياء الهندية خبراً مطوّلاً عن مجمع انعقد في سنة ١٩٣٥ ليبحث أيّ الرجال من المسلمين يستحقّ أن يُوصَف بأنه أعظم رجل في العالم الإسلامي اليوم، وقد حضر الاجتماع عدد كبير من الأدباء والمفكّرين، وخطب كل واحد منهم يؤيّد رأيه فيمَن يكون أرجح ميزاناً بين رجال الإسلام المعاصرين، وتردّدت أسماء محمد إقبال، وشكيب أرسلان، ومحمد رشيد رضا، وأبو المكارم الدهلوي، وسليمان الندوي، وعبد الكريم الخطابي، والسيد أحمد الشريف السنوسي، ومولانا محمد علي، وحسين أحمد المهتدي، وغيرهم، ولكن الأمير شكيب أرسلان فاز بأكثرية الأصوات في هذا الاجتماع[١].

هذا الخبر على صغره عظيم الدلالة على مكانة شكيب لدى المسلمين في قطرٍ ناءٍ، يقرأ أهلوه عنه دون أن يسعدوا برؤيته، وأنا لا أُسجّله هنا لأرجح بالأمير عن زملائه المجاهدين، فهذا ما لا نجد ضرورة للخوض فيه، ولكن لآخذ منه أن الرجل في مرأى العالم الإسلامي كان يجلس في الصف الأول من مُجاهديه، وإذا كان الإنسان يُعرَف بأصدقائه، فإن جميع قُرَناء شكيب كانوا في الذؤابة من جبهة الأحرار، ومُراسلاته المنشورة بين أيدينا إليهم، ومَراثيه الباكية على مَن تقدّموه منهم إلى رضوان الله! وتراجمه الحافلة لمواقفهم المؤازرة للقضية الإسلامية، كلّ أولئك مما ينبىء على أن شبيه الشيء منجذب إليه، وأن الطيور على أشكالها تقع لا محالة.

وحين يلتمس الدّارس مِفتاحاً صائباً لشخصية شكيب، لن يبعد عن إسلاميته المخلصة، فإسلامية الأمير قد خطّت له في الحياة طريقاً يقنع ذوي الخبرة ممّن يحرصون على كرامة الإسلام، وكلّ عمل قام به الرجل، وكل كلمة خطّها قلمه، إنما يسيران به في محيط الإسلامية الطاهرة، فعن قوسها ينزع وفي محيطها يدور.

---

(١) شكيب أرسلان، داعية العروبة والإسلام، للأستاذ أحمد الشرباصي، ص ٢٣٢.

فقد أُتيح للأمير أن يشهد نهاية القرن التاسع عشر، وقريباً من نصف القرن العشرين، فهو يبلغ سنّ الرّشد، فيلتفت ليرى الشعوب الإسلامية تغطّ في نومها العميق، ثم يلمح تحرّش المستعمرين بديار الإسلام في كل صقع من الأصقاع، وقد أخذت أعراض المرض تفتك بالدولة العثمانية، فهي تتخلّف وتتضاءل أمام أعدائها من الأوروبيين، بينما تستأسد على أتباعها من العرب بخاصّة، والمسلمين بعامّة، حتى إذا مرّت الأعوام دراكاً ظهر في الميدان مُستعمِر ثالث يزحف إلى ليبيا فيعاون قراصنة الاستعمار المحنكين من أبناء لندن وباريس، ثم تقع الحرب العالمية بأهوالها المبيدة، فتفسح عن أهوال دامية تحيق ببلاد الإسلام، حتى إذا انجلت غواشيها الداهمة، رأينا بلاد العرب نهباً مُقَسَّماً للمنتصرين.

ثم تتذأب الصهيونية على فلسطين، ويواجه العرب بإزائها شرّاً مستطيراً، تجثم خلفه دول الغرب مجتمعة لتدفع الصهيونية إلى بغيها الأثيم، وتظهر في محيط السياسة العربية أسماء يتستّر بها اللصوص الغاصبون، فلا نفتأ نقرأ في الصّحف كلمات الاستعمار، والوصاية والانتداب والتعاهد، ثم يصبح الشام أجزاء متفرّقة تدعى: بلبنان وسوريا والقدس والأردن.

أما ليبيا على صغرها فقد قُسمت إلى ثلاث ولايات، وعلى مقربة منها يبذل الفرنسيون جهدهم ببلاد المغرب لتنصير المسلمين! ظلمات بعضها فوق بعض يراها الأمير تتكاثف فيما حوله فلا ييئس من رحمة الله، بل يعلن جهاده المرير.

لقد كان من حظّه السعيد، أن يرى جمال الدين الأفغاني ويسمع عنه، كما تتأكّد صلته بالإمام محمد عبده، فيتشرّب مبادئهما في الحرية والإصلاح، ويشبّ على الأيام عوده، لتتحوّل هذه المبادىء نَفَساً يتردّد بين رئتيه، ويدعوه داعي الواجب إلى الكفاح اللاّغب، ففي أيّ الطرق يسير؟.

لقد كانت الدولة العثمانية إذ ذاك معقد آمال المسلمين ومهما استبدّ عبد الحميد بالحكم الفردي، فلدى المثقفين من عشّاق الفكرة الإسلامية آمال واسعة، في مقدرتها على القيادة وخلوصها من الاستبداد، لذلك نجد أرباب الفكر

ـ ولا سيما الشعراء ـ يحرصون على تهنئة الخلافة والإشادة بنفوذها الروحي، راجين أن تتقدّم الرّكب إلى التحرّر لتُعيد إلى الإسلام مجده الغارب!! وشكيب في مقدمة هؤلاء يرحل بين الفينة والفينة إلى عاصمة الخلافة ويؤكد صِلته برجالها، ويُنافح في سياستها ويُنتخَب عضواً في مجلس المبعوثان عن بلده، ويكتب المقالات الضافية في الاستمساك بعُروة الخلافة، حتى أن جريدة المؤيد كانت تُفرِد صفحتها الأولى لمقالته، وتصف كاتبها «بسعادة الكاتب العثماني الكبير»!.

وفي سنة ١٩١١ حلّت كارثة العدوان الطلياني على طرابلس فكان الأمير في طليعة مَن دعوا إلى صدّ هذا العدوان، فقد اتّصل بناظر الحربية في الآستانة وفتح باب التطوّع للجهاد في شتّى ديار الإسلام، ثم سافر متخفّياً إلى طرابلس ليشترك مع القائد العثماني في الدفاع، وأخذ يرسل الخطابات المتوالية إلى أصدقائه المسلمين، يدعوهم إلى مساعدة القطر البائس وانتشاله من مخالب المحتلّين، حتى إذا عِيلَ صبره سافر من طرابلس إلى تركيا، فأشرف على بعثات الهلال الأحمر، ثم سافر إلى المدينة المنوّرة، وكان في هذه الأزمة حركة لا تهدأ من الثورة. وقد تقدّم باقتراحات إلى الحكومة العثمانية، كانت موضع التقدير من ذوي الخِبرة المطّلعين، حتى قال الزعيم الطرابلسي سليمان الباروني فيما بعد:

«لو أخذت الحكومة العثمانية بتفاصيل الخطة التي رسمها الأمير شكيب، ونفّذتها بحذافيرها، لَمَا ضاع الأمل في إنقاذ طرابلس وبرقة، أو لاستطعنا على الأقل إطالة الحرب ثلاث سنوات أو أربع».

وقد قلنا إن إسلامية شكيب تسيطر على كل عمل يقوم به، وقد أخطأ بعض الناس فهم موقفه من تركيا أثناء الحرب العالمية الأولى، فذهبوا في تأويله مذاهب لا تُرضي الحق في قليل أو كثير لأن الحركة العربية التي انبعثت تناوىء تركيا إذ ذاك، واتخذت من إنجلترا وفرنسا وأمريكا ظهيراً تعتصم به أمام العثمانيين!.

هذه الحركة لم تكن لتُرضي باحثاً سياسياً عميق النظر كالأمير لأنه لم يكن يعتقد صدور خيرٍ ما من المستعمرين، فمهما أجلب الأتراك بخيلهم ورجلهم على

العرب، فهم في رأي الرجل أقرب إلى نفعهم من أعدائهم المُستعمِرين، وكلّ ما يزعمه الحلفاء إذ ذاك من نصرة العرب تمويه زائف، يدلّ على ما يسترون به نيّاتهم من طمع شره، واستكلاب جائع على أسلاب الرجل المريض!! فإذا اندفع فريق من العرب بزعامة الحسين بن علي وولده فيصل إلى مناوأة الأتراك ومعاضدة الحلفاء، فهو اندفاع المتسرّع العجول الذي تغرّه المطامع، وتخدعه الظواهر عمّا يوشك أن ينفجر تحت قدمه من براكين، لذلك آثر الأمير أن يقف مع الأتراك بإزاء المستعمِرين!. وقد كان من سوء حظّه أن يصبح أحمد جمال باشا السفّاح دكتاتور الشام أثناء الحرب العالمية، فقد كان في طغيان الظالم وتعسّفه الغاشم ما عصف بآمال شكيب في مسألة الأتراك، وقوّى وجهة مُخالِفِيه في الارتماء بين أحضان المستعمرين!!.

ومن هنا وُجِّهت سِهام النقد المرير إلى الأمير شكيب، إذ نظر إليه كنصير للطاغية السفّاح، يؤيّد سياسته ويسير في طريقه والحقّ أن شكيباً كان سدّاً منيعاً يدفع الطوفان في كثيرٍ من الأحيان يفيض بجبروته الآثم على الأحرار من المخلصين، فكم أنقذ من أرواح بريئة كانت تنتظر مصيرها الأليم على يد المتجبّر الطائش، وكم استطاعت لباقته المَرِنة أن تهدىء من غضب الدكتاتور على فريق من العرب سواء كانوا من المسيحيين أم من المسلمين فأنقذهم من هول المصير بشتّى أساليبه!! وحين عجز في النهاية أن يكفّ من غرب جمال باشا واجهه بالثورة، وأخذ يُراسل الآستانة بشأن جبروته وطغيانه، ويقول أقرب الناس إليه من أعضاء أُسرته: إنه مكث ليالي طوالاً لا يذوق النوم بعد أن نفّذ الطاغية أحكامه الباغية فشنق ثلاثين زعيماً من أئمة الفكر والرأي والنضال، في ديار العروبة بالشام!.

وكان شكيب في ثورته على الطاغية لا يجد كثيراً من القبول لدى الرأي العامّ العربي إذ ذاك، لأن الناس يعلمون ميله إلى التّرك دون المستعمرين، ولكن الحق قد حصحص في معترك الشكوك، فعرف الناس جميعاً دوافع شكيب ونوازعه، وبانَ لهم صدق حدسه حين انتهت الحرب الأولى، وتنمّر الحلفاء بالعرب فجعلوا ديارهم مناطق حماية ونفوذ، وتنكّروا لما أبرموا من مواعيد ، ثم داهموا العواصم

العربية بالقذائف المحرقة، والمدافع المكتسحة، وصرّح الشـرّ عن نابـه في ساحـة حمـراء، ارتفعت بهـا مئـات الأرواح تشكـو إلى الله طغيـان الآثمين، وتجمهـر المستعمرين في حرب صليبيـة مقنعة تتّخـذ لها وجـوهاً كـاذبةً من أسمـاء الحمايـة والانتداب والوصاية والاحتلال.

وقد أسفرت هذه الوقائع المُفـزِعَة عن التئـام الشمل العـربي في صفٍّ واحد ـ إلاّ مَن شـذّ من العملاء ـ يجـاهد الاستعمـار الغربي، ويسعى إلى الخـلاص من نيـره بعد أن خلص من الأتـراك، ويا لهـا مِحَناً متعـاقبات كليـلات المحاق تتـوالى متتابعات!!.

وقد شاءت له حماسته أن يهاجر إلى أوروبا، باسطاً قضايا العرب والمسلمين على منابرها الجهيرة، كما فعل أمثاله الأحرار من قبل ومن بعـد، أمثال: مصـطفى كامل، ومحمد فريد، وعبد العـزيز جـاويش، فحضر المؤتمـر السوري الفلسـطيني الـذي انعقد بجنيف سنـة ١٩٢١ مُطالِبـاً باستقـلال سوريـا ولبنـان وفلسـطين، مـع الاعتـراف بحقّها في الاتّحـاد، ثم رأى أن ينتقل نهـائياً إلى سـويسـرة ليكـون على مقربة من مقرّ عصبة الأمم، واتخذ لنفسه بيتـاً خاصّـاً يقرب من بحيـرة ليمان، ولـم تكن مساعيه مقصورة على سورية وحدها، بل كانت كما قال الأستاذ روفائيل بـطى بمجلّة الكتاب فبراير سنة ١٩٤٧ تتناول كل قطر عربي في آسيـا أو أفريقيـا، ولهذا نجد أهل المغرب العربي شأن بقية أبناء العروبة يتعلقون بشكيب تعلّقاً شديداً.

وظلّ الرجـل يتابـع جهاده الـدائب في عاصمـة عصبة الأمم، حتى قَـدِمَ مع الوفد العربي إلى مكتب العصبة من الوثائق والمذكّرات ما يقرب من عشرين مجلّداً أُهديت في سنة ١٩٣٧ إلى وزارة الخـارجية السـورية، ويستـطيع مَن يـزور مكتبتها في دمشق أن يتعجّب كثيراً لما يلمس من صبر الأمير، ويرى من نضاله في حومة لا يتطلّب أجْرها من أحد إلاّ أن يقوم بواجب الزعيم الأمين!.

لقد عقد الأستاذ أحمد الشرباصي في كتـابه (شكيب أرسـلان داعية العـروبة والإسلام) فصلاً هامّاً عن كفاح الأمير في سبيـل الإسلام، ونقـل من خلال مقـالاته

الكثيرة نصوصاً هامّة، تُفصِح عن آرائه في التقاء العروبة مع الإسلام في دعوة واحدة دون تعارض، كما أبرز آراءه الحاسمة في العلاقة بين الدين والدولة أو بين العقيدة والحكم، على نحوٍ يُوجِب التزام الناحيتين دون انفصال، وهو يردّ بذلك على ما تورّط فيه بعض الناس من دعوة إلى عَزْل الدين عن المجتمع، وانحجازه في حدود الصلاة والحجّ والصيام، منخدعين بما مَوَّه به أعداء الإسلام حين جعلوا فصل الدين عن الدولة باب الخلاص، ومعجزة الإنقاذ ثم يردّ عليهم بما يراه قائماً في أوروبا بالفعل من تأكيد العلاقة بين المسيحية والدولة، فهناك معاهدة بين الدولة الإيطالية والكرسي البابوي تفصل حقوق الفريقين على نحوٍ يهدف إلى الوفاق والسلام، ثم يضرب المثل بما يجري قريباً من ذلك في بلجيكا وغيرها، ويقول بصدد ذلك بتصرّف يسير:

«إذن فالمدنيّة تجتمع مع الدين، والحكومات الشرقية التي تزعم أنها تقطع صلتها بالدين الإسلامي اقتداءً بحكومات أوروبا التي تزعم عنها قطع الصلة بالدين المسيحي، إنما هي حكومات تضلّل أفكار السُّذَّج من رعيتها، وتموّه عليهم، وتقصد حرباً وتُوري بغيرها، وناشِرو دعايتها في مصر والبلاد العربية كاذبون».

أما ما كتبه في صلة العروبة بالإسلام، فأكثر من أن يُحصَر، لأن بلاد الشام بالذات قد تعرّضت إلى دعايات عريضة تلبس معنى القومية العربية بما يناقض الفكرة الإسلامية، وتخصّص لهذه الناحية أُناس يحرّفون الكَلِم عن مواضعه، بما يموّهه غُلاة المستشرقين وسماسرة الإعلام، وفيهم مخلصون خُدِعوا بظاهر من القول، دون أن يلتفتوا إلى ما خلف الستار من مؤامرات سوداء تتّضح بالمكيدة والغلّ، وشكيب يجاذب أولئك وهؤلاء حِبال الرأي والجدل، فيلين تارةً ويقسو تارات دون أن ينحرف عن رأيه الأصيل قيد شعرة، وهو أن العروبة طريق الإسلام فلا تناقض بين مَن يدعو إلى الفكرة الإسلامية ومَن يدعو إلى القومية العربية، حين يُراد بها خدمة العرب الحقيقية، والارتقاء بهم إلى أوج السعادة والحرية والعزّة، مما تؤكّده تعاليم الإسلام وإنه ليقول في هذه الناحية من مقالات طِوال:

«وإذا كان المُعتَرِض يقول: إذا كانت الوحدة الإسلامية هي المقدمة على كل وحدة أخرى من النسب والجِوار والمصالح المشتركة فأيّ فائدة إذن في أن يتّحد نصارى العرب مع المسلمين منهم؟، والجواب عن ذلك سهل للغاية، وذلك من وجوه:

الأول: أنه إذا كان القرآن قد جعل الرابطة الإسلامية فوق كل شيء، فإنه جعل الحق في المعاملات فوق الرابطة الإسلامية حتى أنه سوَّى في الحقّ بين المسلمين وغير المسلمين، ونهى أن تكون العداوة الدينية سبباً لحرمان الأعداء من حقوقهم، فقال تعالى في سورة المائدة: ﴿ولا يجرِمَنّكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتّقوا الله إن الله شديد العقاب﴾، وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿ يأيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرِمَنّكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتّقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾.

فإذا كان الشرع الإسلامي لا يُبيح لمسلم أن يجور على مسيحي، أو على أيّ كائن من غير المسلمين، ولو كان عدوّاً له وللإسلام عموماً، فهو يُوجِب أن يوفّر لهذا العدوّ حقّه غير منقوص فأيّ مكان بعد هذا للخوف من الاجتماع مع المسلم في حكومة واحدة، وأيّ محذور من جَعْل القرآن رابطة الدين فوق كل رابطة؟، وهي لا تقدر أن تبطل حقّاً، ولا أن تحقّ باطلاً في مُعاملات المسلمين مع غير المسلمين».

هذه لمحة يسيرة إلى بعض القضايا الهامّة التي عالجها الأمير في حومة الدفاع عن الفكرة الإسلامية، وقد يرى القارىء أننا أغفلنا الحديث عن نشأته الفكرية، وعوامل تكوينه الثقافي، ونضوجه الأدبي وعُذرنا أننا كتبنا كثيراً عن الأمير قبل ذلك، وحديثنا اليوم يتّجه إلى جهاده المكافح سياسياً ودينياً، فإذا أردنا التاريخ المستوعب فلدينا مجال آخر غير هذا المجال.

محمود أبو العيون
المُصلِح الديني والكاتب الاجتماعي

- ١ -

تمرّ مواسم الذكرى لرحيل النابهين من العلماء والمخلصين من رجال الدين، دون أن تجد لها صدىً فيما تقرأ من صُحُف وما تسمع من الإذاعات، فإذا سألت عن ذلك قيل لك: إن هؤلاء الراحلين من الأعلام نفر من الخاصّة لا يَعني الجمهور العامّ أن يتبع آراءهم العلمية ومؤلّفاتهم المنهجية، وإنما يرجع واجب التاريخ لجهودهم إلى تلاميذهم فيما يصدرون من كتب وبحوث، وهو ردّ متكلّف واهن لا يحتمل النقد، وإذا سلّمت به جدلاً فقط فلك أن تسأل هؤلاء عن مُصلِح كبير مثل الأستاذ محمود أبي العيون، يعرف العامّة قبل الخاصّة جهاده الحافل في شتّى ميادين السياسة والاجتماع والأدب والخلق، إذ قاد من معارك الإصلاح ما رنّ صداه في كل أُذُن، وسطّر من رائع المقالات الاجتماعية والأدبية والدينية في مدى أربعين عاماً من حياته ما جعل اسمه يتلألأ في كل أُفق باهر الضياء، جذاب الالتماع، بحيث لو اهتم ناشر بجمع ما كُتِبَ في الأهرام فقط من المقالات المتتابعة في كل مجال، لوجد من آثار الرجل في صحيفة الأهرام وحدها ما يملأ بضعة مجلّدات.

ولو كان الرجل ممّن يهتمّون بالخلود الأدبي لفكر في جمع هذه الآثار في كتب خاصّة، كما فعل زملاء له من الكاتبين، ولوجد من الناشرين مَن يرحّب بإخراج هذه الآثار في مظهر ممتاز يليق بمكانة عالِم جهير، ومُصلِح كبير، ولكن

الـرجل نسي نفسـه، فكـاد أن ينسـاه النـاس في زمن لا يقـدر المخلصين من ذوي الحَمِيّة الثائرة تقديره لذوي الطبول الهاتِفَة ممّن يصطنعون صِغار الكاتبين من رجال الصحافة، ليُوالوا الحديث عنهم في مناسبة وغير منـاسبة! وممّـا يحزّ في النفس أن الرأي الأدبي العامّ مع انتشار التعليم وازدهار الجامعـات لا يكاد يفـرّق بين الأصيل والـدخيل، ولعـلّ في إنصاف السمـاء لهؤلاء العـامِلِين في ملئهم الأعلى مـا يهـوّن إجحاف الأرض، حيث يتناسى الخَلَف مآثر السَّلَف عن جحود وإهمال.

لقـد قاد الأستـاذ أبو العيـون معارك كثيـرة تكلّلت بنصره وأبـرزت عن معدنـه الثمين حين احترق بنار الكيد والوقيعة والدسّ، ولن يستطيع مقال أو مقالان أن يلمّ بأبناء هذه المعارك الرائعة، لذلك نجتزىء بالإشارة إلى معاركـه الظافـرة مع البغـاء الـرسمي والاختلاط الجنسي في الشـاطىء، وإهمال التعليم الـديني في المدارس الحكومية، فوق قيادته السياسيـة لشباب الأزهـر في ثورة سنـة ١٩١٩، وهي معارك فـاصلة ذهب الرجـل العظيم بفخـرهـا الخـالـد، إذ رسم صـورة صـاحب الفضيلة النمـوذجي بين النـاس حين دعـا إلى الخلق الحيّ، والإسـلام النقي، والـحقّ الصريح.

إن مما يُذكَر للكاتب الكبير الأستاذ محمـود تيمور بـالخير والتقـدير أنـه كتب فصـلاً تحليلياً رائعـاً عن أبي العيون في كتـابه «مـلامح وغضـون» فجَلَا شخصيتـه الرائعة أبرع جلاء، واستطاعت ريشة الفنّان المصوّر لـدى القصّاص الكبيـر أن تُبرِز صورة الرجل الخالـد، في ملامحـه القويـة وقسماتـه الباهـرة إبرازاً دلّ على مهـارة واقتدار.

فكان تيمور وحده الأديب الكبير الـذي التفت إلى تقديـر مصلح عامـل غمط حقّه بين مُعاصِريه.

وقـد ذكر الأستـاذ تيمور: أن السبب في محـاربتـه البغـاء أنـه قـرأ في بعض الصُّحُف بعـد هدوء ثـورة سنـة ١٩١٩ عن قسّ أوروبي قـام بمنـاهضـة البغـاء في دولته، فانتفض الشيخ انتفاضة صارخة إذ هالَه أن يسبقه قسّ إلى محـاربة منكـر لا

يعترف به دين، وجمع عزيمته للقيام بدور القسّ الأوروبي، وأعتقد أن مثل أبي العيون لم يكن في حاجة إلى أن ينبّهه قسّ أوروبي إلى واجب ديني يؤمن به عن يقين.

فقد كان الشيخ منذ نشأته يذكر لائحة سنة ١٨٩٦ التي أباحت البغاء في عهد اللورد كرومر، ويراها سبة شنعاء وفضيحة يندى لها الجبين، ثم اشتعلت ثورته الغاضبة فتركته كالبركان الملتهب حين قرأ بعض ما ذكرته اللجنة الدولية التابعة لعُصبة الأمم المتحدة في تقريرها الخاصّ بتجارة الرقيق، وقد جاء فيه: «وقد أصبحت مصر ميداناً محبوباً، ومركزاً هامّاً من المراكز الدولية التي يَفِد إليها حُماة البغايا، يجلبوهنّ من سائر الأقطار، ويمكثن في مصر ريثما يؤهّلن، ثم تبقى بها مَن تُمارِس البغاء إذا رضيت بالإقامة في مصر، فإذا زاد العدد ذهبت البقية إلى مختلف الجهات».

ولا أدلّ على تصوير نفسية أبي العيون من قوله تعقيباً على ذلك: «استر وجهك يا صاحِ فحَسْبك من شرّ سماعه فلعمري لا يسمع ذلك القول كريم إلّا استغشى ثوبه، وغطّى وجهه، وتمنّى لو انفرجت الأرض تحت قدميه فابتلعته، أو مادت به فأهلكته، وارحمتاه، لقد فقدنا كثيراً من معاني الحياة أحوج ما نكون إليها في مركزنا المضطرب، والتي لا غِنىً لأمة ناهضة عنها، فقدنا استقلالنا السياسي، أو هو على الأكثر في الميزان فقدنا استقلالنا الاقتصادي، فقدنا استقلالنا الخلقي، وحتى الشّرف في المَزاد!! فماذا بقي لنا؟».

لقد رأى أبو العيون أن محاربة البغاء جهاد لا يقلّ عن جهاده الثّوري، حين تعرّض إلى الرصاص في مظاهرات الحرية فشمّر العزم لاستئصاله، وبدأ الحملة بنشر مقال بجريدة الأهرام، ثم تابعها بجولات يَقِظَة في أحياء البغاء بالعاصمة فعرف الأماكن الموبوءة وأحصى ضحاياها، وأصحاب المنفعة في إدارتها، واستكتب الأطباء ليتحدّثوا عن مآسي البغاء وأمراضه والاجتماعيين ليعالجوا الوضع بعد الإلغاء، ثم أصدر كتابه (مذابح الأعراض) حافِلاً بما يُسيء ويُخجِل من فضائح البغاء مشفوعاً بالإحصائيات الدقيقة، والأرقام الكاشفة.

ولعلّ من الاعتراف بالحق لأهله أن نذكر أن الأستاذ داود بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام قد أيّد الأستاذ أبا العيون تأييداً منقطع النظير، ففتح له أبواب الجريدة الذائعة ليقول كل يوم ما يشاء، إذ أن داود بركات كان ممّن شغلوا أنفسهم كثيراً بمحاربة هذا الدّاء قبل صيحة أبي العيون، وقد ترجم سنة ١٩١٣ كتاباً خاصّاً بذلك نقله عن طبيب إنجليزي كبير، ثم أسهم في تأييد الشيخ بمقالات واعية ذات حِجَج عقلية لا يتطرّق إليها التّوهين كما صدر كتاب الشيخ «صفحة ذهبية» بمقدمة رنّانة تهدم دعاوي الخصوم وتعصف بها كالهباء.

وكان الأستاذ أبو العيون يتصوّر في بادىء الأمر أن دعوته لن تجد مُعارِضاً من الناس، فهي دعوة الحق والإنسانية والكرامة ولكنه فُوجىء بأكثر الجرائد اليومية والمجلاّت الأسبوعية تشنّ عليه حملة ظالمة، تتّهمه بالادّعاء والنفاق وحبّ الظهور، بل توقّحت بعض المجلاّت الساقطة فرسمت لأبي العيون صوراً كاريكاتورية مع بعض البغايا في مواقف خليعة دون أن يعصمها خلق أو حياء، ولو كان مُعارِضو أبي العيون من الأغرار الأدعياء لهانَ الأمر، ولكنهم أعلام الأدب والصحافة في دنيا الناس فجريدة «السياسة» توالي حملاتها الظالمة على الرجل فتقول فيما قالت: «الشيخ أبو العيون يعرف قبل غيره أن ضجّته الكبيرة غير نزيهة، وأن ليس من حكومة رشيدة تأخذ بما يدعو إليه من رفع الرقابة الصحّيّة عن فئة تَعِسَة من الناس، رمى بها الشقاء إلى بؤرة البغاء، وهو يعلم أنه لا يقصد إلاّ الدعاية لنفسه والإعلان عنها.

أما الغيرة على الدين والبكاء على الفضيلة فكلمات جوفاء لم يقصد بها الشيخ لأكثر من خداع الجمهور، وجرّه وراءه مصفّقاً، أما الدعوة إلى إلغاء البغاء الرسمي مع انتشار البغاء غير الرسمي فلا معنى لها، إن مهمته أن يقول: إن البغاء حرام، وقد قالها، أما أن يلبس ثوب الطبيب فتطفّل من الشيخ غير معقول، وإن ما بُنيَ في أجيال لا يمكن هدمه في يوم، وليس أبو العيون بمَن يستطيع أن يجد العلاج، فهو أصغر من ذلك جداً، ومن الإجرام أن يتّخذ الرجل اسم الدين لإثارة موضوع خَطِر!!».

والعقّاد العظيم يندفع لمهاجمة الرجل أيضاً في (البلاغ) ومجلة «روزاليوسف» تتحدّث بأسلوب ساقط مختلّ، وسلامة موسى يهاجم الإلغاء بتمحّلات زائفة!، وكلّ ما قيل يدور في فلك جريدة السياسة، ويمطّ في عبارتها إذ هي صاحبة المَعوّل الكبير.

ولم يسكت أبو العيون عن مُناوِئيه، فجادلهم بالتي هي أحسن، إذ أخذ العفو وأمر بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين، وقال لمَن يزعمون أنه افتات على حقوق الأطباء والمشرّعين في موضوع هم أولى الناس بالحديث عنه: إنه رجع في مقالاته إلى آراء الأطباء الموثوق بهم، والإداريين والمتشرّعين، فلم ينفرد في ذلك برأي، ثم إن المسألة تتصل بالدين، فما يجوز للأستاذ فكري أباظة ـ مثلاً ـ أن يقول: إن إلغاء البغاء جريمة، وأن يدفع دفعاً فرعياً قانونياً بعدم اختصاص أبي العيون، لأنه عالِم دين ومن صميم عمله أن يحارب ما نهى الله عنه، وإن النظر إلى الأمر الواقع باعتباره مسألة لا غِنىً عنها، مسألة تمنع كل إصلاح وتُعيد قول الذين قال عنهم القرآن الكريم: ﴿ إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مُقتدون ﴾، ثم واجه هؤلاء جميعاً بصيحته الرائعة التي يفتتح بها كتابه (صفحة ذهبية) وقد صار غبّ المعارك الطاحنة سنة ١٩٢٨ فقال عن نفسه:

«يميناً لا تقبض تلك اليد بعد أن بسطناها ولو صافحتها السيوف البواتر، لقد التزمنا أن ندافع عن أعراض هذه الأمة المسكينة، وأن نذود عن عفافها ذياداً حقّاً، مستهدفين في ذلك لكل خطر حتى جدع الأنف ودقّ العنق. لقد صرخنا في صحيفة «الأهرام» صرخة مدوّيّة لبّاها أهل الحق، فنهدوا إلى قلب الباطل نهدة صادقة كان لها الأثر الظاهر، إذ تسابقت مجالس المديريات في هدم دُور الدّعارة، وإلغاء مواخير الفسق، ولولا أن وقفت إدارة الأمن العامّ حجر عثرة في طريق الحق لما بقي لتلك البُؤَر عين ولا أثر، وسيستمع ذلك الصوت الصارخ رجال مصر في برلمانها، وسيكون الفصل في المسألة على أيديهم:

فإما إلى صداحة تطرب الورى وإما إلى نواحة في المآتم

وإذا كـان مُعارِضـو الشيخ من زعمـاء الفكر في الـوطن ولهم أقلامهم القـوية وصُحُفهم اليومية الذائعة، فقد كان الشيخ كفيلاً بصدّ تيّارهم الزّاحف، إذ استنهض أنصار الفضيلة من أمراء ووزراء وعلماء ليقفوا معه، وبدأ المسعى بالاتصال بـرئيس الـوزراء وأعضاء وزارتـه مسجّـلاً كـلّ مـا يقـولـونـه، فنـاشـراً إيّـاه على صفحـات «الأهـرام»، وكان ذا أسلوب مُقنِع في النقـاش لا مجـال بـه للخـطابـة السـطحيـة والشقشقة اللسانية، وننقل مثالاً عليه من حديث لرئيس الوزراء إذ ذاك دولة «عـدلي يكن باشا» وهو قوله:

«الدّعارة يا دولة الوزير نُظّمَت لأمرين:

١ ـ مراقبة المريضات بالكشف، وعزلهنّ عن الاختلاط.

٢ ـ حصر دائرة الفسق في نِطاق خاصّ.

وقد ظهر بالاستقصاء أن الكشف لم يؤدِّ إلى نتيجة مرغوبة بـل بالعكس كـان ناشراً للأمراض السرّيّة، وكذلك لم يحصر الفسق في دائرة، فإن الدوائـر الرسميـة في العاصمة مثلاً هي: عرب المحمدي، والوسعـة، وسيدي زينهم، وهنـاك دوائر يضيق عنهـا الحصر كـالذهبيـات، والعـوّامـات، والأكشـاك على شـواطىء النيـل، والجـارسنيرات، والبـانسيونـات، ومحالّ التـدليك، والخيـاطة، والبيـوت السـرّيّـة «الجهـرية» وهي ذائعـة في كل شـارع ومضيق فلم يَسَعْ رئيس الـوزراء إلاّ أن وافق وحبّذ.

كما ننقل محاجّته «لفتح الله بركـات باشـا» وزير الـزراعة حين قـال معاليـه: «علينا أن نبحث هل هناك قوانين تقف أمام الإلغاء ونحتاج إلى تذليلها، أو أن هناك عوامل سياسية تمنع تنفيذ هذه الرغبة الشريفة فنأخذ في معالجتها».

فردّ أبو العيون سريعـاً بقولـه: «إن لائحة العـاهِرات صـدرت بقرار من وزارة الـداخلية، فهي ليست بقـانون، بـل بقرار، ولا يحتـاج إلغـاؤهـا إلاّ لقـرار وزاري مثله».

فوافق فتح الله باشا، وقال: سأعدّ نفسي سعيداً موفّقاً إذا كنت من العاملين على إزالة هذا المُنكَر الفظيع.

وقد حاول «نجيب الهلالي بك» بمحضر وزير المعارف «علي الشمسي باشا» أن يعترض أبا العيون بقوله:

«إن الزنا ليس بتشريع عندنا، ولكن الحكومة تنظّمه فقط».

فقال الشيخ صريحاً: إن الحكومة تحميه وتشجّع الناس على ارتكاب الفاحشة، وتسمح للغلمان بغشيان المواخير والمفاسق، فيكون مصيرهم مصير الباغيات، وعندي إحصائية رقمية بذلك، وأخجل من التصريح بأكثر مما ذكرت».

كما كان الأستاذ لَبِقاً سياسياً حين قال عقب هجوم بعض مُعتَرِضِيه: إنه لا يستقلّ بمشروع خاصّ في مُحاربة البغاء، بل يَكِل الأمر إلى لجنة ذات كفاءات متنوّعة تشمل القانون والطبّ والاجتماع والسياسة».

كما صرّح جريئاً بأن بوليس الآداب الذي يتذرّعون بكفايته، قد أصبح مروّجاً للفساد بدل أن يكون مانعاً له، وقد استعصى على الطبّ أن يستأصل غوائل البغاء، فلم يبقَ غير استئصال الأساس!. ثم استشهد برأي زعيم خطير قال فيه:

«وقد رأينا بعض الكتّاب يسألون ماذا تكون حالة هؤلاء النسوة بعد غلق مواخيرهنّ، وهذا سؤال بعينه يصحّ أن يقال عن كل فرقة ترتزق من السبل المحرّمة، إذا ما أغلقت في وجوههم هذه السبل: كالمتجرين في المواد المخدّرة وغيرهم، وبعضهم يخاف من انتشار الأمراض السرّيّة إذا حرّم البغاء الرسمي ورفعت الرقابة الطبّيّة، وهذا منطق معكوس، فإن الإباحة أشدّ نشراً لهذه الأمراض من التحريم، وهذا هو المشاهد الملموس، وواجب الحكومة يقضي بمنع المحرّمات والأمراض الاجتماعية الناشئة عن منعها لا أن تبيحها، ثم تزعم أنها تقاوم ما ينشأ عنها من أخطار».

مهما يكن من شيء فقد طالت المعركـة بين الشيخ وخصـومه ولكنهـا انتهت أخيراً بانتصار رأيه، إذ أعلنت الحكومة فيما بعد إلغاء البغاء نهـائياً من البـلاد، ولم تصادف من العقبات ما توهمه المعارضـون، ووضح بجـلاء أن أبا العيـون لم يكن أصغر من الموضـوع الذي تعـرّض له، بـل كان كفئـاً لكل نـازلة يقف منهـا موقف الشجاع الأبيّ حتى يذوق حلاوة الانتصار.

وقد فتح له موضوع البغاء الحديث عن موضوع آخر لا يقلّ أهمية وخطراً إذا ترك دون علاج، ذلك هو موضوع التعليم الديني ووجوب تقريره بالمدارس المدنية دون إبطاء، إذ أن أحد الشباب الثائر على محاربة الشيخ للبغـاء قد كتب في بعض الجـرائد يقـول: «ماذا يصنـع المراهقـون إذا أُلغِيَ البغاء الـرسمي وهم ما بين سنّ الـرابعة عشـرة والثلاثين، ولا تسمـح ظروفهم الاقتصـادية بـالزواج العـاجـل، وهم عاجزون عن النفقة على أنفسهم، فكيف بزوجاتهم ومَن يجد من أولادهم؟».

ثم انـدفع الكـاتب إلى حديث سقيم يتحدّث عن حـريـة المـرأة، ووجـوب خلاصها من تَبِعَة رجل معين، وعن نكاح المتعة وقُرب الصلة بينه وبين البغاء، إلى ما لا طائل تحته من الهراء الذي يعتمد على القشور دون اللبـاب، ظانّـاً بذلـك أنه يضع في طريق أبي العيون حجراً ثقيلاً لا طاقة له بإزاحته!.

ولكن المُصلِح الدّائب قد أدرك مكمن العلّة في كـل ما ينحـدر إليه الشبـاب من انحراف، وهو الجهل المطلق بالتربية الإسلامية، والاغتراب الشائن عن رعايـة الدين ووقايته، فرأى أن المناداة بتدريس الدين الإسلامي باعتباره مـادة أساسيـة في المـدارس المصريـة، مما يـدفع خـطر الانحراف عن المـراهقين إذا تفيئـوا ظـلال القرآن، وأُشرِبَت نفوسهم تعاليم الإسلام!.

وسارع بالإجابة على اعتراض هذا الشاب المندفـع فقال في حـديث بصير: «لو أن هؤلاء درسوا منذ طفولتهم تعاليم دينهم الأدبية لشبّـوا على كثيرٍ من الأخـلاق الفاضلة التي فطرهم الله عليها، واعتصموا من جموح النفس ونزواتها بترسّم الآثـار الصالحة والقدوة الحسنة، ولكانوا يرون في ضوء الدين ونوره صور الرذيلة واضحـة

فيمـا ترميهم بـه المـدنيـة الغـربيـة من تهتّـك، ولكـانـوا يعلمـون عن حقّ أن تلك المدنيات التي يخالونها ضوءاً مـزدهراً إنمـا تنبثق عن فجر كـاذب لا يلبث أن يعقبه ظلام حالك».

ثم أتبع القول بالعمل، فدعا إلى مؤتمر لمناقشة الموضوع في ضوء ما يلمس من انحلال الشباب، وطفق يقابل المسؤولين من وزراء المعارف ووكلائهم، مقدّماً المـذكّرات الخاصّة بوجوب تدريس الدين الإسـلامي في المدارس المصـرية على جميع المستويات!.

- ٢ -

وإذا كانت دعوة أبي العيون إلى إلغاء البغاء مع وضوحها الساطع الصريح قد وجدت من أفذاذ الكتاب مَن يقف منها موقف المُعارِض اللجوج، فإن الـدعوة إلى تـدريس الدين الإسـلامي بالمـدارس المصريـة لم تعدم من هؤلاء مَن يتـربّص بها السبيل مُحاوِلاً أن يذهب بها إلى الضياع، ولكن الكثرة العاقلة من ذوي النّزاهـة قد آزروا الأستـاذ أحسن مؤازرة، ومن ورائهم النـابهــون من أوليـاء الأمــور، وكـانت الصحـافة بعض ميـادين المجاذبـة الفكريـة في توضيـح الهدف البـارز من تدريس الدين الإسلامي، إذ دأب الأستاذ أبو العيون أن يتحدّث في مطلع كل عـام دراسي عمّا يوجّهه المعترضون على تدريس الدين من شُبُهات.

وإذا كـان بعض هؤلاء المعترضين من كبـار رجال التـربيـة، وممّن يـزعمـون لأنفسهم درايـة واعية بـأساليب التـدريس المعاصـر، فـإن أبـا العيـون قـد واجههم بدراسات مستأنية تنهض في وجوههم دون أن ينال منهـا المتباصـر المتشدّق بـدراسات علوم التربية والنفس والاجتماع، ولعلّ أقوى حجّة يتدرّع بها هؤلاء هي «أن تـلاميذ المدارس المدنية يكوّنـون عناصـر دينية مختلفـة فتقريـر الدين في امتحـانهم يُنافي وحدة الامتحان، ويُسيء إلى نظم الدرجات، ويدعو إلى تغيير نظام الامتحان تغييراً لا يتّفق ومصلحة التعليم»!.

وقد واجه أبو العيون هذا الاعتراض بمناقشة فاحصة تحمل أحد حلّين مُقتَرَحَين يتلافى بأحدهما ما قد ينجم من خطر في رأي المعترضين، ويسُرّنا أن نقول: إن وزارة المعارف فيما بعد قد أخذت بأحد هذين الاقتراحين مع بعض التعديل حين رجع المتباصرون بأساليب التربية إلى صواب أبي العيون بعد أن أقنعهم بما لا مزيد عليه من البرهان!، وقد قال الأستاذ يفنّد حجّة القائلين بأن التعليم الديني الذي يُنافي وحدة الامتحان ويُسيء إلى نظام الدرجات بما خلاصته:

«أما أنه ينافي وحدة الامتحان فصحيح، ولكن هذه الوحدة لم تكن نظاماً جوهرياً في امتحانات الوزارة، لأنها لا تراعي في القسم الثاني من التعليم الثانوي (إذ ذاك) بشطريه: العلمي والأدبي، مع أن شهادتهما واحدة، وقد تؤهّلهما لدخول كلية واحدة، وأما أنه يسيء إلى نظام الدرجات: فمن الممكن تجنّب هذه الإساءة بألّا تحسب درجات التعليم الديني ضمن درجات الترتيب في حالة نجاح التلميذ، على أن يعتبر راسباً إذا نقص عن النهاية الصغرى المحدّدة لمادة التعليم الديني، كما يمكن أن نجعل مادة الدين ومادة الأخلاق مادتين اختياريتين يدرسان معاً للطلبة، كلٌّ منهما في حصص مستقلة، وعند الامتحان يلزم الطالب المسلم بالإجابة عن أسئلة الدين، ويخيّر غير المسلم بين الإجابة على أسئلة الدين والإجابة على أسئلة الأخلاق، وتُحسَب درجات كلٌّ منهما في النجاح والترتيب أُسوة بالمواد الأخرى، وهذا النظام الذي نؤثره على غيره ليس غريباً في نظم الوزارة، إذ عمل به في مادّتي التاريخ والجغرافيا، إذ يكتفي التلميذ بالمدارس الابتدائية (إذ ذاك) على الإجابة عن إحداهما...».

وقد انتهت الوزارة بعد نقاش طويل صبر عليه الأستاذ أبو العيون عدّة سنوات إلى الأخذ باقتراحه الأول مع بعض التعديل، وكان ذلك نصراً أدبياً يُحسَب له في سجلّ الكادحين من ذوي الغيرة على الخلق والدين.

وفي خلال هذه الحومة التربوية انفرجت الحلبة عن جبهة ثانية نهض لها أبو العيون بشجاعة، حين أُنشيء معهد التمثيل في عهد الوزارة الصدقية الأولى، وكان

الرقص التوقيعي بين برامجه، فاعترض الأستاذ بشجاعة على «مراد سيد أحمد» وزير المعارف إذ ذلك، واتخذ من الأهرام منبراً لتأييد نظرته حتى ضجّ خصومه، واقترح مغرور منهم إحالته إلى مجلس تأديب إذ هاج الرأي العامّ على معالي الوزير، ثم جاء «حلمي عيسى باشا» فاستجاب لأبي العيون عن اقتناع، وقام الدكتور «طٰه حسين» وقعد مندّداً بالوزير.

وظلّت الرّحى دائرة حول الرقص التوقيعي حتى استجاب بعض المتسرّعين إلى إعادته، فواصل الأستاذ هجومه وآزره «أحمد مرسي بدر» وزير المعارف في سنة ١٩٤٩ حين قرّر إلغاء الرقص، ومَن يقرأ مقالات الأستاذ المتتابعة في هذا المضمار يعرف أنه ما قصّر في الدعوة إلى السنن القويم لحظة عين وقد جاءت الرياح في هذا الموضوع بالذات بما لا يشتهيه، إذ تعاون المفتونون ببرامج أوروبا على تزوير الحقائق، فضلّوا وأضلّوا كثيراً.

ولن ينسى أحد صيحة أبي العيون شيخ علماء الإسكندرية بالدعوة إلى تنظيم الشواطىء ومنع التبرّج السافر والاختلاط الفاضح، وقد تكالبت عليه الكثرة المفتونة بشهواتها، فملأت الصّحف تشهيراً بالرجل، وتوالت الصّحف الهازلة ترسم صورتها «الكاريكاتورية» تنديداً بعالم غيور، جاء بالحق من ربّه، وأفك المتخرّصون، فزعموا أنه يدعو إلى إلغاء المصايف المصرية خدمة للمصايف الأوروبية وفق اتفاق سرّي عقده الشيخ مع دُعاة الانحلال!، وهي كذبة مفضوحة ردّت على أصحابها خاسئة ذليلة، بل أن الصحف الجادّة قد شاركت الهازلة في بعض الحملة على أبي العيون.

فرأينا مثل الدكتور زكي مبارك يكتب في مجلة الرسالة الرصينة ليقول في عناد نقلاً عن العدد (٥٢٩): «ماذا أصنع وأنا أعتقد أن الشواطىء المصرية من أجمل ما خلق الله، وأن زيارتها تزيد في قوة العقل والفكر والذّوق؟، ولن يرضيني أن أفعل ما يفعل الشيخ أبو العيون وهو يتوهّم أن زيارة الشواطىء تفسد الأخلاق، إن أبا العيون يغرق في كوز ماء، فكيف نسمع كلامه في البحر المحيط؟، لقد آن

الـوقت لأن نُسمعـه كلمـة الحق، آن الـوقت لأن ننهـاه عن الغضّ مـن حيـاة الشواطىء، وهي نعمة عظيمة مَنَّ الله بها المنعم الوهّاب على أهل هذه البلاد، إن أبا العيون الواعظ يحتاج إلى واعظ، وأنا أخشى أن يغضب الله عليه إن استمر على هذا الأسلوب من الوعظ المقلوب». إلى آخر ما قال.

وقـارىء كـلام الـدكتـور الحصيف يـظن أن أبـا العيـون يحـارب المصـايف المصرية، ويـدعو إلى إبـادتها كمـا أرجف عليه سفهـاء الصّحف المبتذلـة، مع أن الشيخ يدعو إلى تطهيرها من المـوبقات وقـد لخّص دعوتـه الهادفـة في اقتراحـات موجزة، رفعها إلى نفر من المسؤولين، ودعا إليها بالأهرام، حيث أوجزها في هـذه النقـاط التي ننقلهـا عن ص ٣٨٨ بـالمجلد العـاشـر من مجلة الأزهـر سنـة ١٣٥٨ إنصافاً للتاريخ! وها هي ذي:

١ ـ تخصيص حمّـامات للسيـدات مجانـاً في المنـاطق القـريبـة كـالشـاطبي والإبـراهمية وجليمـو، أو تخصيص زمن للسيدات صبـاحاً كمـا هو متّبـع في بعض المصايف الأخرى، مع وضع رقابة على هذه الحمّامـات لوقـايتها من عبث الشبّـان بوساطة البوليس فتوجد فرص للأُسر الحريصة على صيانة كرامتها وشرف آدابها من اختلاط الجنسين وعبث المستهترين.

٢ ـ إيجـاد نقطة دائمـة من البوليس في كـل بلاجـات الثغر بشـرط أن تكـون النقطة ثابتة لا تنتقل من مكانها، ويكفي في كل بلاج كونستابل وجنديان لمعاونته.

٣ ـ تعـديل لائحـة الآداب الخاصّـة بالشـواطىء بما يمنـع أيّ منظر مُخـالف للآداب العامّـة سواء في المـاء أو على الشاطىء ويتـرك هذا لتقـدير رجـل البوليس الذي يختار من ذوي السيرة الشريفة، والسّمعة الحسنة.

٤ ـ ينصّ في اللائحة على أن يخوّل للبوليس سلطة إزالة أيّ كابينة استحمام أهلية تحدث فيها أمور مخالفة لـلآداب ويكون ذلـك عقب إنذار يـوجّه إلى سـاكن الكابينة كما تكون الإزالة على نفقة صاحبها.

٥ ـ تقفل الشواطىء جميعها، وتُخلَى من جميع ساكنيها وقت الغروب مباشرة.

٦ ـ يؤلّف بوليس نسائي لحماية هذه المقترحات مع التعاون بين بوليسي آداب المدينة والبلدية!.

ولا تزال هذه المقترحات العادلة تتطلّب التنفيذ السريع وإن ذهب صاحبها إلى رضوان ربّه، تاركاً آراءه الصالحة نبراساً للعاملين، بعد أن أسهم في كل نهضة اجتماعية مخلصة وحارب كل رذيلة فردية أو جماعية، مُستهيناً بما يهدّد منصبه وحريته، ونمثّل لذلك بحملته على الحفلات الماجنة التي أقامتها شويكار ودعت إليها فاروق، إذ كتب مقاله الشهير مفتتحاً بقول الراجز:

إحدى لياليك فهيسي هيسي   لن تنعمي الليلة بالتعريسِ

فترك من الأثر ما جلجل صداه في الضمائر والأسماع! وما بنا أن نفصل فحسبنا أن نشير.

أما نشاطه السياسي، فقد بدأ به كاتباً في جريدتي «المؤيد» و«اللواء» أيام كان طالباً بالأزهر، فمدرّساً ناشئاً يخطّ طريقه العلمي، وقد أمدّته مدرسة «مصطفى كامل» السياسية بجذوة مشتعلة تلهب صدره ضدّ الغاصبين، وكان على يده وأيدي رفقائه من خطباء الأزهر اندلاع الثورة المصرية في البلاد عقب اصطدام الإنجليز «بسعد زغلول»، إذ خطب أبو العيون مندّداً بالاحتلال في جمع حاشد لم يترك مكاناً لقدم بالجامع الأزهر، ثم انطلق الثائرون في أول مظاهرة كبرى أزعجت الإنجليز، وفوجىء بها «سعد زغلول» نفسه كما ذكر «العقّاد» في تأريخه عنه، إذ أن الزعيم الكبير لم يكن يتصوّر أن تنتفض البلاد انتفاضة رنّانة ما بين عشية وضحاها، ولكن خطباء الجامع الأزهر: من علماء و مُحامين وطلاب ومدرّسين قد أعلنوا صرختهم المدوّية، فدفعوا بالجمهور إلى مظاهرات عاصفة قادها أبو العيون، ومصطفى القاياتي، وعبد ربه مفتاح، وعبد اللطيف دراز على نحو ما ذكرناه في مقال لنا بمجلة الأزهر من قبل.

وإذا كان الحديث هنا مقصوراً على أبي العيون فإننا نذكر أنه تعرّض إلى رصاص الاحتلال أكثر من مرة، وحكم عليه بالسجن الجائر، فانتقل به الإنجليز إلى معتقل نازح على حدود رفح، فما لانت له قناة.

وقد رأى المحتلّون أن العاصمة الكبرى فوق منالهم بما ألهب خطباء الأزهريين من حَمِيّة ثائرة يندلع لهيبها في كل صدر، فأرادوا أن ينتقموا من الإسكندرية انتقاماً يكون موضع العبرة للقاهريين، فقاموا بمذبحة حمراء ذهب ضحيتها عشرات الأبرياء من الشهداء وطار النبأ إلى القاهرة، فكان أبو العيون أول خطيب ثائر ندّد بالمذبحة الحمراء في ألفاظ غاضبة تقتلع الأطواد، فأجّج النار في صدور المُصلّين يوم الجمعة بحيث خرجت الأفواج الغاضبة في مظاهرة مدوّية قاومها الإنجليز بالرصاص فسقط عشرات الشهداء، واعتقل الخطباء مرةً ثانيةً، وعلى رأسهم أبو العيون.

والعجيب: أن الرجل قد واصل جهاده القومي في ظلام السجن، فأخذ يرسل المقالات الملتهبة إلى الصّحف الوطنية، وحُرِّضَ السجين البريء على مقاطعة ملنر[1] في مقال وقّعه بإمضاء محمود أبو العيون السجين رقم ٤ برفح، فكان لتوقيعه مغزى كبير لدى الوطنيين والمحتلّين معاً.

ثم خرج من السجن ليكتب مقالاته السياسية تحت عنوان (الصحيفة السوداء) وقد بدأها في ٦ يناير سنة ١٩٢٢ وختمها في ١١فبراير من العام نفسه، فانتظمت سبع عشرة حلقة تتكلم عن جرائم بريطانيا منذ دنّست أرض مصر، وتفضح مآسيها في كل مرفق من مرافق الحياة بوادي النيل متحدّثة عن تدهور الجيش والخزانة والتعليم والصحة والمستوى الاجتماعي على أيدي الدخلاء، ومؤيّدة بالإحصاءات المدعمة بالأرقام، وكأن الأستاذ قد أعدّ نفسه لهذه الحلقات من سنوات.

---

(١) من بحث جيد عن أبي العيون، للأستاذ أنور الجندي في كتابه، «أعلام وأصحاب أقلام»، ص ٤٠٦ وما بعدها.

وكـان طبيعياً أن يغضب أعـداء البلاد لجـرأته الصـارخـة فحقّقـوا معـه، ولم يجدوا ما يتّهمونه بـه في التحقيق، إذ بهر وكيـل النائب العـامّ بصدقـه وإخلاصـه، فـاكتفوا بنقله من القـاهرة وحـرّم على جريـدة «الأهرام» أن تنشـر مقالات لـه تحت عنوان (الصحيفة السوداء)، وما زال المجاهد يدافع بلسانه خـطيباً ومتحـدّثاً وبعيـداً وقريباً، بعد أن حِيلَ بينه وبين الصّحف حتى قرّت الثورة وهدأ الناس!.

وإذا كان الفارس الأصيل لا يترك ميدان الكفاح في أيّة مناسبة تُتاح، فـإن أبا العيون قد خرج من نشاطه السياسي ليفتح جبهة اجتمـاعية ينـدّد فيها بمـا لمس من تـدهـور خلقي سـاعـد عليـه الاحتــلال، وروّج لـه الملوّثـون بـأقـذار أهـوائهم، والمنخـدعون بقشـور الحضارة الأوروبيـة الوبيئـة، دون الالتفات إلى لبـابها الجـادّ العامل، فَتَصدُر «الأهرام» ليخطّ مقالاته الرنّانة تحت عنوان (يـا ضيعة الأخـلاق في عهد الحرية) في عشر مقالات حافِلة بالتنديـد والتوجيـه معاً، وذلـك بعد أن نجـح نجاحاً ملموساً في محـاربة البغـاء بمعركـة دامت بضع سنـوات، فهيّأ الأذهـان إلى استفظاع هذا المنكر.

ثم انتقل إلى الحديث عن الأخلاق بعامّة في مقالاته العشر، فـأعلن أن ثورة سنة ١٩١٩ قد تمخّضت من الناحية الاجتماعية عن شرور خلقية مُبيـدة، لأن بعض الكاتبين من عملاء أوروبا قد خـدشوا الكـرامة الخلقيـة بما تـرجموا من اعتـرافات سـاقطة، ومـا وضعوا من مسـرحيات جنسيـة هابـطة ولم يروا غيـر الإباحيـة مجـالاً لإسفافهم الشائن، فتـأثّر بهم القـارئون من الشبـاب، واندفعـوا إلى التخلّص من آداب الشرف والكرامة تحت ستار الحرية والتقدّم الحضاري، وقال الأستاذ في نخـوة ثائـرة:

لقـد كانت النفـوس قبل هـذا العهد بعيـدة عن الأغراض والأهـواء، وكـانت أحكام الدين والأخلاق تدرك وتحتـرم، ولكن القحط الخلقي أصاب اليـوم جماعـة الشباب فأوهى فيهم الروابط الاجتماعية، ومكّن للرذيلة من نفوسهم، فانغمسوا في حمـأتها، وأصبـح الكثيـر منهم يحـذق المَلَق، والكـذب والنفـاق، ويـألف الـذلّـة والهوان، وأصبحت الكفاءات والأهواء بمقدار ما يبذله الشاب لـرئيسه من التخضّع

والمداهنة والرشوة، حتى صرت لا تجد من الشباب المتعلّم ـ إلّا قليلاً ـ مَن لا تنازعه نفسه إلى فجور، ولا تفتح له عين لريبة، فلا يلحقه في ذلك ذمّ، ولا تناله وَصْمة.

ولقد نظم كثير من أولئك الشباب للمآثم والمشاين دوراً ونوادي يختلف إليها الجنسان، وفي ساعة يغفل فيها الزمان تستباح كرامات، وتُمتَهَن أعراض، ومن البَلِيّة أن تجد نفوس أولئك الشباب قد مرضت مرضاً خُلقياً لا أرى علاجه هيّناً، فهم لا يرون عيباً في اقتراف أيّ شائنة تكون بعيداً عن العمل الرسمي، لأن تلك في نظرهم الخاطىء مسائل شخصية، لا تُسيء إلى العمل ولا إلى المجتمع في شيء، وأعجب أن تكون حالهم على ما وصفنا، ثم يؤمنوا في وظائفهم على دانق أو سحتوت، كأن الذّمم تتجزأ والضمائر تتقسّم!».

ولن نستطيع أن ننقل أكثر من هذه السطور، ولكننا ندعو القارىء إلى مطالعة مجموعة جريدة «الأهرام» سنة ١٩٣٤ ليرى نصوص هذه المقالات النارية كما خطّها كاتبها الغيور، كما يلمس صداها لدى القرّاء والكاتبين فيما حاولوه بإزائها من تعقيب.

والحقيقة أن أبا العيون كاتب اجتماعي غفل عنه المُنصِفون وكأنه ـ رحمه الله ـ ساعد على هذا الإهمال، حين ترك آثاره الكثيرة بدداً في الصّحف، دون أن يجمع مختارات منها في بضعة كتب تُسعِف القرّاء، ونحن في زمن كثرت فيه الدراسات الأدبية والاجتماعية، ونهض طلبة «الدكتوراه والماجستير» في كليّات الجامعات للحديث عن أصحاب الأقلام: من الأدباء والباحثين في رسائل جامعية تُعَدّ وتُناقَش وتُمنَح عليها الدرجات العلمية، أفلا يقوم طالب من هؤلاء بالبحث عن خصائص أبي العيون الكتابية أو اتجاهاته الإصلاحية، أو نشاطه القومي في الثورة المصرية، أو يجمع ذلك كله في ترجمة تحليلية تمدّه بالطيب المُفيد من التفكير والتحليل والتدليل.

نأمل أن نرى مثل هذه الدراسة الجامعية قريباً، فنعلم أن أمثال أبي العيون من حُماة الفضيلة وأُباة الضيم، وأئمة البيان مذكورون مقدّرون، لا أنهم كما نلمس الآن مجفوون مهملون.

عبد الحليم محمود
الإمـــــام النـــوراني

- ١ -

لا يفارقك ـ وأنت في مجلس الإمـام: عبد الحليم محمـود ـ إحساسـك أنك مع إنسان يعرف ربّه، وأنـه بهذه المعـرفة الحقيقيـة قد ارتفـع إلى مستوى وضيء، فأنت معه في مكان واحد، ولكن شعورك يدعوك إلى أن ترى أنه في السماء وأنـك في الأرض، والإمام ـ رضي الله عنه ـ متـواضع نبيـل، لا يأتي بمـا يوحي بـأنه من طراز نادر، ولكن هيبته تملأ مشاعرك، وتواضعه الـذي يكاد يكـون مسكنة مـطمئنة يزيده لألاء، ويزيدك إجلالاً للعارفين بالله، فتحاول أن تسمع منه ليعطيك، مفضلاً مأثرة السكوت الناطق أمام وجه وضيء الملامح، طـاهر القَسَمـات، تنطق أسـاريره المؤمنـة بمعانٍ لا تعـرفها الأرض، لأن بـوارقها الفـاتنة تلوح في الأفق الأعلى كمـا تلوك أشعة الشمس، وضياء القمر.

والإنسان ـ وإن كان بشراً حيّاً ـ فمن أنواعه: ما يأتلق ويشـعّ ويضيء، مثل: محمد عبده وعبد الحليم محمود!!.

طلبني الأستاذ: عبد الحليم محمود هاتفياً من كلية اللغة العربية ذات صباح، فسـارعت إلى تلبية دعـوته، وكـان حينئذٍ أميناً عـامّاً لمجمـع البحـوث، فـآنسني بمقدّمات مشجّعة، ثم سألني في هدوء: ماذا تعرف عن ابن عطاء الله السكندري؟ وكـان السؤال مفاجـأة لي، ولكن الله أمدّني بمـا يـرفعني في عينـه، فقلت وقلت،

فابتسم الشيخ، ثم قال ملاطفاً: تذكّر، فأنت تعلم أكثر من ذلك، فتذكّرت، وفتح الله عليَّ بما أتمّ وأكمل، فقال الشيخ: حدّثني عن رأيك في حكم ابن عطاء السكندري، فكأنه مهّد لي طريقاً جديداً للقول، فأفضت، وحين انتهيت من الحديث، قال الشيخ في هدوء: اجمع كل ما قلته لي في مقال جيّد، واكتبه سريعاً، ليكون فاتحة لفتح باب تبرّع خيري كي أبني ضريح ابن عطاء بمدفن الإمام: الليث بن سعد في حِمى الشافعي، لأنني زرته من أسبوع، فعزّ عليّ أن يكون مثواه هكذا، وهو الإمام العارف الحكيم.

اكتب المقال وادعُ أهل الخير إلى الخير فهم كثيرون، وسيحجز مكانه في مجلّة الأزهر من الآن، ليكون في مقدمة العدد القادم، فشكرت للإمام ثقته بي، وبادرت بتسطير المقال، فعلمت من إدارة المجلة أن الأستاذ عبد الحليم هو الذي فتح باب التبرّع بجزء كبير من راتبه الشهري، وأنه يتعجّل النشر ليدفع أهل الإحسان إلى الإحسان، وقد تمّ للشيخ ما أراد، فهيّأ الضريح اللائق وحفظ لابن عطاء حُرمته لدى الزائرين!!.

هذا موقف عادي، ولكنه ملأني تقديراً للرجل، فأخذت أحرص على قراءة آثاره، وأرصد مناحي توجيهه، إذ كان في سلوكه المتصوّف نمطاً فريداً بين زملائه المماثلين. فالرجل ضليع كلّ الضلاعة في ثقافته المتشعّبة العريقة، درس الفلسفة بفروعها المختلفة، على أساتذتها الكبار في فرنسا، وكتب وترجم فصولاً كثيرة تمتّ إلى علم النفس، وعلم الاجتماع والأدب المقارن، والفلسفة الحديثة بفروعها المختلفة ثم نال رسالة الدكتوراة في فرع من فروع الفلسفة كان مهوى فؤاده.

وكان المُنتَظَر من مثله أن يعود إلى الوطن مُباهياً بما درس من أعلام الفكر الحديث في أعرق بلاد الفكر الحديث، ولكن الرجل الفرد عاد ليكون فرداً في اتجاهه المثالي، فليت شعري ماذا كان؟!.

إن النفوس البشرية في شتّى مراحل الزمن منذ خلق الله آدم، إلى أن يَرِث الأرض ومَن عليها تتشابه وتتماثل، فقد يوجد في عصر بعيد مُفكّر تدعوه مُلابساته

الشخصية إلى وجهة ذاتية يؤمن بها كل الإيمان، ثم تمرّ القرون وراء القرون ويأتي مفكّر آخر يقع في مثل هذه المُلابسات، ويتميّز بما يتميّز به سابقه من قوّة النفاذ، وبُعْد الاستشفاف، فيُعيد كرّته في الحياة، لا عن تقليد يُحتَذَى ويُتابَع، بل عن اتفاق مطابق في طريق واحد متعارف الخطوات، محدّد الاتجاه.

وهذا ما كان من أمر عبد الحليم محمود، حين اتفق في طريق سلوكه مع أبي حامد الغزالي، إذ بدأ كما بدأ دارساً فاحصاً، متعطّشاً متطلّعاً، ناقباً منقراً، ثم انتهى إلى ما انتهى إليه: صوفيّاً ذوَّاقاً، لقلبه عين بصيرة ترى ما لا يراه الناظرون، ولعلّ الإمام عبد الحليم محمود قد فطن إلى ذلك، حين آثر أن يشرح كتاب: (المنقذ من الضلال للغزالي) وأن يفسّر اتجاهاته، وأن يقرّره على طلّابه، في كليّة أصول الدين، حيث كان يعتقد: أن الغزالي يعبّر عن نفسه وينطق عن وجدانه، ولست أقول ذلك استنتاجاً عقلياً فحسب، ولكني قرأت ما كتبه عبد الحليم عن الفلسفة الغربية الحديثة، فاعتقدت اعتقاداً جازماً: أنه يؤلّف نسخة جديدة من: (تهافت الفلاسفة) التي ألّفها الغزالي من قبل، مع فارق واضح هو: أن الغزالي كان يهدم الفلسفة كما تراءت مقرّراتها في زمانه البعيد، أما عبد الحليم: فيهدم الفلسفة كما تلوح الآن في صُحُف المحدثين، وأخالُ القارىء متعطّشاً إلى بعض الحقائق المجملة في هذا النطاق، فإليه ما يريد:

تحدّث الأستاذ عن أرسطو باعتباره ممثّلاً للفلسفة القديمة، فرأى أن منطقه لا يحسم خلافاً، ولا يفصل حقّاً عن باطل، إذ أنه يقوم على الاستقراء وعلى القياس، والاستقراء يُبنى على الحسّ، لأنه استقراء مُحِسّات، فهو يتبع جزئيات تتّصل بالواقع المُشاهَد، ولا تفطن إلى الغيب المستور، وليس الكون جميعه في مكنة الحواس فيه ما استتر واحتجب، وبه ما كان مستتراً أيام أرسطو، ثم استطاعت المَجاهِر العلمية أن تقف عليه، فكيف يحكم أرسطو عن طريق الاستقراء بما لا يستطيع استقراءه؟ إذ ليس من مقدرته الاستقصاء المتتبّع، الاستقراء بنوعيه: الناقص والتامّ لا يُفضي إلى يقين، فإذا وصل إلى مثل هذه القضية: (كل معدن يتمدّد بالحرارة) ويعدّها صحيحة عن طريق الاستقراء، فليس من المُحال أن

يكشف الغد القريب معدناً لا يتمدّد بهذه الحرارة، وإذن فقضايا الاستقراء ناقصة لا تستند إلى يقين.

أما طريق القياس فمركّب من مقدّمات، لا يشترط أرسطو ومَن تَبِعَه أن تكون هذه المقدّمات صحيحة في ذاتها، بل يشترطون أن يسلّم بها الخصم فحسب، لأن التسليم الجدلي مُعتَرَف به لديهم، وإذا كانت تلك منزلة المقدّمات لديهم، فما قيمتها إذا كان لا يعوّل على صحّتها الدقيقة؟ هذا إلى ما يتضمن القياس من استقلال دوري فاسد: لأن قولك «زيد إنسان، وكلّ إنسان ناطق، فزيد ناطق» يتوقّف على العلم بأن كل إنسان ناطق، ولا يستطيع أحد في الحياة أن يستقرىء النوع الإنساني بأجمعه ليتأكد مما يقول، وإذن: فالتعميم مفسدة، والقضية الكبرى باطلة بيقين.

فإذا تركنا الفلسفة القديمة إلى الفلسفة الحديثة لدى ديكارت: فإننا نجدها قائمة على الشك، فقُصاراها: أن تترك في مهابّ الريح وإذا استندت إلى يقين جازم ساعة من زمن فإن الساعة التالية ستعصف بيقينك.

ومن هنا: تتابع فلاسفة العصر الحديث لا ليشدّ بعضهم أَزْرَ بعض، بل لينكر بعضهم بعضاً، بل وصل الأمر بالفيلسوف الواحد أنه ينكر ما قال، وهذا جائز، لأن البحث قد يهدي إلى الحق، ولكن المأساة في هذا الفيلسوف بعينه أنه في يوم قابل ينكر غده القريب، ليعود إلى رأيه الأول، ثم يعصف به الشك، فينقل إلى الثاني! فأيّ فلسفة تلك التي لا تستقر على حال؟.

يقول الأستاذ: «عبد الحليم»[1] بعد استعراض طويل لهذه المسائل:

«فكّرت إذن في اختلاف الآراء، وفي هدم بعضها بعضاً في مواجهة كلّ ما يقوله الأساتذة، وكنت أقول في نفسي لأستاذ فيلسوف: سيهدمك المعاصرون لك، وسيهدمك الذين يأتون بعدك! وكنت أقول في نفسي: إذا كانت الأخلاق نسبية،

---

(١) مجلة الأزهر، ربيع الآخر ١٣٩٨ هـ، ص ٣٠٦.

فهل سيأتي الزمن الذي نعتقد فيه أن الصدق رذيلة، وأن الخيانة فضيلة، وأن العفّة جريمة، وأن الشجاعة شطط؟ بل هل يأتي الوقت الذي لا نقول فيه بوحدانيـة الله؟ ثم أدقّق وأدقّق فأقول: كلا».

هـذا هو الجوّ الذي سيطر على الدكتـور في أوروبا، وقـد يئس من فلسفـة القوم، فاتجه إلى يقين المعرفة عن طريق القلب، كما اتجه الغزالي من قبل: أليس التوافق تاماً بين الرجلين؟.

لنترك الدكتور: «عبد الحليم» يتابع حديثه عن اتجـاهه الصّـوفي إذ يقول[1]: «بعد تردّد بين هذا الموضوع أو ذاك هداني الله ـ وله الحمد والمِنّـة ـ إلى موضـوع التصوّف الإسلامي، فأعددت رسالة عن (الحارث بن أسد المحاسبي) فوجدت في جـوّ «الحارث بن أسـد المحاسبي» الهـدوء النفسي، والطمـأنينة الـروحيـة، هـدوء اليقين، وطمـأنينـة الثقـة، لقـد ألقى بنفسـه في معتـرك المشـاكـل، التي يثيــرهـا المبتدعون والمنحرفون، وأخذ يصارع مُناقشاً مُجادلاً، وهادياً مرشـداً، وانتهيت من دراسة الدكتوراة، وأنا أشعر شعوراً واضحـاً بمنهج المسلم في الحيـاة، وهو منهـج الاتّباع. لقد كفانا الله ورسوله كل ما أهمّنا من أمر الدين، وبعد أن قرّ هذا المنهـج في شعوري، واستيقنته نفسي، أخـذت أدعو إليـه كاتبـاً ومُحاضـراً، ومدرّسـاً، ثم أخـرجت فيه كتـاب (التوحيـد الخالص) ومـا فرحت بـظهور كتـاب من كتبي، مثل فرحي يوم ظهر هذا الكتاب، لأنه خلاصة تجربتي في الحياة الفكرية».

لقد كان التصوّف منقذ الإمامين معاً، وهو تصوّف عاقل فعّال، لم يكن هروباً من الحياة، بل كان علاجـاً لمعضلاتهـا، لقد كـان عبد الحليم لا يفـارق الناس إلاّ عنـد نومـه، ولكنه يـزور ويرحـل ويجتمـع وينـاقش، ويـدفـع إلى الخيـر، ويـأمـر بالمعروف، وينهى عن المنكر. والفرق بينه وبين سواه من النظريين، أنه يصدر عن يقين، وينفعل عن عقيدة، وينصح عن إدراك، وقد فهم رسالة المسلم في الحيـاة، فهم أنه خليفة في الأرض.

---

(١) مجلة الأزهر، ربيع الآخر ١٣٩٨ هـ، ص ٣١٨.

ومن هنا كان التصميم التامّ أقوى دعائمه الإصلاحية، وكان النجاح المُثمِر نتيجة هذا التصميم، لأنه تصميم الموقن الجازم، تصميم المتصوّف، الذي اعتقد أن عمره في هذه الحياة مرحلة محدودة، تُعَدّ ابتداءً لمرحلة مقبلة غير محدودة، حين يقرأ كتابه عند ربّه، فيجد سجلّه الواعي الدقيق، لا يغادر من كبيرة أو صغيرة إلّا أحصاها! هذا الإيمان الجازم المُوقن، هو مفتاح شخصية «عبد الحليم» وبه حالفه التوفيق وآزره النجاح.

- ٢ -

حين انتقل - إلى رحمة الله - عبد الحليم محمود، تحدّثت عنه بعض الصّحف الأوروبية، بما يخالف الواقع، فقد عدّته متعصّباً شديد التعصّب ضدّ المسيحية، لأنه أبى أن يشترك في ندوات تدعو إلى تعاون المسيحية والإسلام، والغرض يعمي ويصمّ، لأن الدين كتبوا هذا الهراء يعلمون مَن هو: عبد الحليم محمود في صدق تسامحه، وطهارة ضميره المؤمن، وشفافية تصوّفه، وقد كانوا يظنّونه درويشاً ساذجاً ينخدع بالثّناء الكاذب، والمؤتمرات الظاهرية التي تُبدي السطح الساكن، وتحجب الغور الثائر الممتلىء بثعابين البحار ووحوش الأمواج.

لقد درس الدكتور: عبد الحليم مأساة التبشير ظاهرة ومقنعة، ولمس جهود السابقين من شيوخ الأزهر في مجال التسامح الديني، وعرف أن الأستاذ الإمام محمد مصطفى المراغي حبّذ فكرة مؤتمر الأديان، وأرسل كلمة ضافية تدعو إلى السلام الروحي، وتمنع أن يتشاجر رجال الدين كما يتشاجر سماسرة البورصة في سوق الرّبا، فكانت النتيجة أن واصل المبشّرون اعتداءاتهم الصارخة على الإسلام، بمحاولة تنصير أبنائه في أفريقيا، ودسّ الشّبُهات المسمومة في تعاليمه بأيدي قساوسة المستشرقين، تحت ستار البحث العلمي النزيه!.

وقد تطلّع الدكتور عبد الحليم إلى عوامل هذه البغضاء الكامنة في أوروبا وأمريكا نحو الإسلام، فلمس أن الكنيسة تُقيم جهازاً دقيقاً للتبشير بين المسلمين في أفريقيا وآسيا، وأنها تبني المستشفيات والمدارس لا للعلاج والثقافة بل لتشويه

مكانة الإسلام، وتخالف الوقائع حين تعلن على لسان مبعوثيها أن الإسلام دين وثني! وهو دين التوحيد الخالص، والمسيحية بإزائه لا تصل إلى أصالته العريقة في التوحيد!.

ماذا كان ينتظر من عبد الحليم محمود: أمين المجمع، ثم وزير الأوقاف، ثم شيخ الأزهر، وزعيم المسلمين الروحي في كل بلد يعتنق الإسلام وهو يشاهد العمل المنظّم المؤيّد بالمال والذخيرة لاستئصال الإسلام من مواطن انتشاره في أفريقيا وآسيا؟.

ماذا كان ينتظر من شيخ المسلمين، وهو يرى البحوث التبشيرية تقلب الحقائق رأساً على عقب، مُحَاوِلةً أن تجعل الإسلام دين الصور والتماثيل والأصنام بغياً على الحق، وافتراء على الله؟.

لقد رأى الإمام المراغي يُبدي تعاونه المخلص، وشاهد الدكتور محمد عبد الله دراز ينطق بسلام الإسلام وتسامحه في مؤتمر الأديان، ليؤكد ما قال: المراغي من قبل، ثم شاهد ما أعقب ذلك من شذوذ مُنافِق لئيم، حين خرج المؤتمرون من رجال المسيحية على ما قرّروه، فأخذوا يطبّقون تعاليم الكنيسة في هدم الإسلام!.

أيكون الرجل متعصّباً لأنه جهر بالحق، وكشف خداع مَن يظنّون إمام المسلمين درويشاً متصوّفاً لا يُبصِر ما حوله وجاؤوا يُنافِقونه بتقديم صورة زيتية مكبّرة له في إطارٍ مُذَهّب جميل، ليوافق على حضور المؤتمرات؟!.

لقد كان الإمام حاسماً حازماً حين واجه الحقائق بلسان الصراحة، وحين ردّ هذه الدعوات المسمومة ردّاً صريحاً لا تعوزه شجاعة الحق، وجهارة الإيمان، فكمّم أفواهاً تعوّدت القول المعسول والفعل المرذول، حين قرأت ردّه الصريح الذي نسعد بتسجيله، ليكون عبرة ناطقة لمَن ألقى السمع وهو شهيد قال الإمام - رضي الله عنه - في خطاب وجّهه إلى الدكتور: ميجيل دي ايبالثا - سكرتير عامّ جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية بمدريد - إذ دعاه للاشتراك في مؤتمر تعاوني للمسيحية والإسلام، قال بعد الديباجة:

«إن الإسلام منذ بـدأ خالف الجـوّ العالمي اليهـودي والوثني في أمـر عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه، فهو وجيه في الدنيا والآخرة، وأمه صدّيقة طاهرة، فماذا لقي المسلمون من المسيحيين مقابل ذلك؟.

إن المسلمين والمسيحيين يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والإلحاد، وكان يجب أن يسيروا في خطٍّ متعاون متساند ضـدّ التيارات المنحـرفة، ولكن ـ للأسف ـ يسير المسيحيون في طريق تنصير المسلمين بالقـوة، فهم يعملون ليل نهار على أن ينصّروا المسلمين في كل مكـان في العالم، وكـل الدول الغـربية وأمريكا ترسل الإرساليات لتنصير المسلمين بأسلوب مكشـوف واضح، أو بـأسلوب خفيّ مستـور، ويضيق المسلمون بـذلك ضيقـاً شديـداً، ورغـم ذلـك فـإن مـلايين الجنيهات تُنفَق في سعة للتنصير بكل الطرق.

ومما هو مُـلاحَظ: أن الدول الإسـلامية ليس لهـا إرساليـات تبشيريـة، وقـد أُرسل المسيح لهداية خِراف بني إسرائيـل الضالّـة ومع ذلـك فإن المسيحيين تـركوا خِـراف بني إسرائيـل الضالّـة وأخـذوا يعملون على تنصيـر المسلمين، تسـاعـدهم الثـروة، وتساعـدهم وسائـل الحضارة الحـديثة، ولـو حصـروا نشـاطهم في تنصيـر الوثنيين لَمَا أثار ذلك ضيق المسلمين الشـديد، وكـراهيتهم للأسلوب، ولمـوضوع التنصير نفسه!.

والمسلمــون أقليّـات في بعض الأقــطار المسيحيـة، مثــل: الفلبين وهـذه الأقليات ينكّل بها باسم المسيحية، تؤخذ أرضها ويُيَتّم أطفالهـا، وتترمّـل نساؤهـا، ولا تجد إلّا ارتياحاً في نفوس الأغلبية المسيحية!.

وفي المؤتمرات التي تُعقَد في إسبانيا وغيرها، هناك أسلوبان للحديث:

أ ـ **التزام العقل**: وفيه يتحلّل المسلمون من مبادىء دينهم فيتناولـون المسيح ـ عليـه السلام ـ وأمـه بالأسلوب العقلي، فيكـون موقفهم منهمـا موقف اليهـود، إذ يقولون عن مريم وابنها ما يضيق به المسيحيون ضيقاً شـديداً، ولكن المسلمين في

هـذه المؤتمرات يتّبعـون مبادىء دينهم فيحتـرمون المسيـح وأمـه، على حين تجـد بعض المتحدّثين من المسيحيين عن الإسلام يتناوله بما يضيق به المسلمون!.

ب ـ **أما الأسلوب الثاني**: فهو التزام بمـا تُمليه روح التفـاهم، فلا يُسـاء إلى المسلمين في مقدّساتهم، ونحن من جانبنا قد قدّمنا أُسس التفاهم واضحـة سافـرة في احتـرام المسيح وأُمـه فماذا قـدّم المسيحيون؟ لقـد هاجمـوا رسـول الإسـلام، وما زالوا يهاجمون مبادئه!، أفيمكن مع ذلك التفاهم؟.

إن الإسـلام هـو العـامـل الأكبـر في تثبيت المسيحيـة حين اعتـرف بـوجـود المسيح، وحين برأ أمه، ومع ذلـك فقد قـوبل بجحـود لا مثيل لـه، وما زال يقـابل بهذا الجحود من المسيحيين وقد أدّى أكبر خدمة أُدّيت للمسيحية»[1].

هذا ما قاله الإمام! وهو كلام يردّ الهجوم، ولا يوحي بالتعصّب في شيء!.

وكيف يكون متعصّباً مَن يندفع إلى تـأييدك، ويتعـاون في سبيل سـلام عادل بينك وبينه، ثم يراك تحاربه ظاهراً وباطناً فيما يعتقـد، وترميـه بدائِـك وتنسلّ حين تزعمه متعصّباً وقد غرقت في طوفان التعصّب وحدك؟

لقد كان على اللاّئمين أن يرجعـوا إلى أعمالهم قبـل أن يُخدَعـوا بأقـوالهم، فالحقّ أبلج صريح، والباطل يذهب جفاءً دون نفع.

لقد كان الإمام منطقياً في سلوكه، وقـد أورد الأدلّة الصـريحة دون صخب أو ضجيج، وهو في مؤلّفاته الكثيرة التي بلغت حدّ المائة لم يكن يتكلّف القول ليُظهِر مقدرة عقلية، ولكنه كان يهتدي بهدي الداعية في غير مؤلّفاته الجامعية، فيلجأ إلى مخاطبة القلوب، وترطيب المشاعر!!.

كنت تستمـع إلى الرجـل في أحاديث وعـظه ـ وما أكثـرها ـ إذ كـان لا يخلو مجلس له من عِظَة دينية في مسجد أو تـوجيه إسـلامي في محاضـرة، أو دعوة إلى

---

(١) مجلة الأزهر، السنة الخمسون، رجب ١٣٩٨ هـ، ص ٦٧٧.

مشروع خيري في محفل، كنت تستمع إلى دارس السربون، وأستاذ الفلسفة، وعالِم النفس، ومُتَرجم الروائع العالمية في الشرق والغرب، فتتخيّل إذا لم تكن سمعته من قبل، أنك أمام بحّاثة، مَكين، يجادل بعلمه، ويصاول بعقله، ويقنع ببراهينه، ويُدهِش بتعبيره شأنه في ذلك شأن مَن جعلوا الكلام صناعة رائجة، وحيلة لافتة ولكنك لا تجد شيئاً من ذلك كله بل تجد بساطة التعبير، ويُسْر الهدف!!.

فما سرّ ذلك كله؟.

لقد اهتدى الإمام بعد عناء طويل في رحلته الفكرية إلى أن القلب موضع إقناع المؤمن، فالمؤمن لا يتطلب تغلغل العقل كي يقتنع، ولكنه يلتمس ماء الهداية كي يرتوي!.

المؤمن: مؤمن، قام يقينه على صخرة ثابتة لا تعصف بها الأعاصير، ولا تنال منها الزلازل، وقد آمن بكتاب ربّه وسُنّة نبيّه، وسِيرة السّلف الصالح من الصحابة والتابعين، وفي ذلك كله ما يقدّم الغذاء الهنيء والطعام المريء.

يصعد الإمام المنبر في مناسبة عامّة، فلا يجعل هذه المناسبة تأخذ عليه أقطار تفكيره، لأن المناسبات تتكرّر كل عام، وقد ألمّ المجتمعون بما قيل في موضوعها سنة وراء سنة: فالهجرة والميلاد النبوي، والإسراء، وصوم رمضان، وذكرى بدر وفتح مكة، ورحلة الحجّ والعمرة، مما تُقام له الحفلات العامّة وقد شبع المجتمعون حديثاً عنها، فإذا وقف الرجل في أمثال هذه المجتمعات فإنه يمرّ بالمناسبة مروراً سريعاً، ويختار آية من كتاب الله، أو حديثاً من حديث الرسول، ليجعل منهما مجال الشرح والتوجيه.

لقد وقر في ذِهنه أن القرآن كتاب المسلم الأول، وأن الحديث مورده الثاني، ولن يسأم مؤمن ترداد ما بهما من الكنوز، فجعل يتجه إلى الشرح الهادىء المبسّط وقد يعلو المِنبَر مرتين في اليوم الواحد، ثم يجد المدد المتجدّد المستفيض لأنه يرشف من مَعين الكتاب والسُّنّة.

وقد يأخذ عليه بعض المتسرّعين وُلوعه بسير المتصوّفة من الأولياء! وترداده لما تركوه من خوارق!.

ولست مع هؤلاء المؤاخذين! أليس الرجل متصوّفاً حقيقياً يرى في التصوّف راحة الضمير، وأمان العاقبة، وحُسْن الخاتمة فلماذا لا يجعل من المتصوّفة الصادقين مِثالاً يُحتَذَى؟!.

ثم مَن هو المتصوّف في رأي الإمام؟.

هو الذي التزم بتعاليم الإسلام سِيرةً وسلوكاً وقولاً وعملاً، وهو الذي يستحضر ذِكر ربّه في كل وقت! فإذا وصل المؤمن إلى إسلام حقيقي يجعله مستحضراً ربّه في كل وقت فلن يهتم بمعصيته ولن يأمر بمنكر، ولن ينهى عن معروف.

وإذا أفلح الشيخ في تكوين مجتمع يستشعر وجود الله في كل وقت فهو المجتمع البريء من الذنب، المتطلّع إلى الخير البعيد عن التنازع والتضادّ. وإذا جاهد الشيخ في سبيل إنشاء هذا المجتمع فما أعظم ما جاهد في سبيل الإصلاح!.

إن للكتب المنهجية طبيعتها التأليفية في الدراسة والتحليل، ولكن كتب الهداية والإرشاد ذات طابع رقيق تستميل العواطف وكذلك عِظات المجالس في المساجد وجمعيات البرّ، تحمل هذا الطابع الرقيق المؤثّر، وأنا أدعو مَن يواجهون الناس في محافل الكلام ألّا يصعدوا بالعقول إلى آفاق غائمة، فالدين يُسْر لا عُسْر، والهداية سلوك وقدوة قبل أن تكون براعة حِجَج ودِقّة براهين.

- ٣ -

هذه الأحاديث الواضحة اليسيرة جعلت نفوس المسلمين تتطلّع إلى الشيخ في كل محفل، وقد مهّدت له في مصر الطريق إلى شعبية متّسعة الامتداد، فاحتلّ من النفوس مكانة جعلته يقوم بأعباء كثيرة، تتطلّب أموالاً وفيرةً يجمعها من مُريديه، فيسارعون إلى تلبيته عن كرم واستبشار، وفي أنس وسماح.

لقد كان من قدر الشيخ أن يتولّى الإمامة الكبرى للأزهر، في وقتٍ اشتدّت فيه الحاجة إلى إقامة قاعدة عريضة من المعاهد الدينية التي تقلّصت دون مُوجِب، لأن جامعة الأزهر التي تضمّ أكثر من عشرين كليّة تتطلّب طلّاباً يملؤون فراغ الكليّات، ومعاهد الأقاليم في تضاؤلها الشاحب لا تنهض بمَن يقتعدون أماكن الدراسة في كليات الأزهر، ولهذا اضطرت الجامعة أن تأخذ كثيراً من طلّابها وطالباتها من حَمَلَة الثانوية العامّة بالمدارس، وهم لا يتزوّدون بثقافة دينية وعربية تؤهّلهم أن يكونوا حُماة الإسلام، إذ سيتعلّمون في جامعة الإسلام، ولن تفيد السنة التأهيلية شيئاً غير نسيان ما أخذوه في مادة التخصّص بالمدرسة الثانوية، إذ انقطع اتصالهم بها عاماً ذا شهور وأسابيع وأيام.

أدرك الشيخ عقبى ما ينتظر الأزهر من قضاء على صميم رسالته الدينية، فجعل يجوب القرى والمراكز والمدن ليدعو الناس إلى التبرّع الحتمي كي ينشئوا المعاهد الدينية في كل مكان وكان الرجل من قوّة العزيمة ومَضاء الهمّة، بحيث هانت عليه أعباء الطريق من أقصى الصعيد إلى أقصى الدلتا، فلم يترك محافظة ما دون أن يتصل بذوي أمرها، ودون أن يدعو الناس إلى استماع موعظته بالمسجد الجامع ليعلن رغبته في إنشاء معهد ديني في الإقليم.

ثم امتدّ بنظره إلى مكاتب تحفيظ القرآن لتكون المدد الأولى للمعاهد، حيث تسلّح الطالب الأزهري بحفظ قدر كبير من كتاب الله، وبذل ما بذل حتى ضمّ أكثر هذه المكاتب إلى إدارة الأزهر.

وليت المتسرّعين تركوه في جهاده الشاقّ، كي يجني جميع الثمار المُرتجاة، ولكن فريقاً يعارض لوجه المعارضة حيناً، أو ينسى الهدف الأساسي من ذيوع المعاهد على هذا النطاق الشامل حيناً آخر، أو يحاول إحباط مساعي الإمام لحاجة خاصّة في نفسه، هذا الفريق يَدّعي الحرص على الكيف، ويلوم مَن يسعى إلى انتشار المعاهد بدعوى أنها لا تجد ما تتطلّب من أساتذة ومقاعد وأبنية وغذاء، حتى رجفت الراجفة في صحيفة يومية دأبت على استنكار ما يقوم به هذا المجاهد

المكـافح من نضـال ولكن الرجـل لا يسكت عن لجـاج فشـرع يـردّ، وأخـذ يقنـع بالحجّة الداحضة، ليدمغ الشُّبهة الواهية، وكان من حججه الصريحة ما حكـاه عنه الأستاذ نصر عبد الغفور في رثـائه المنشـور بمجلة الأزهر، حيث قـال عن الراحـل الفقيد[1] رضي الله عنه:

«آمن بالتوسّع في المدارس والمعـاهد الـدينية، وعـارضه كثيـرون في الأزهر وخارج الأزهر، بدعوى التجديد قبل التوسّـع وضيق ذات اليد، يـد الأزهر، ونقص الموارد المُتاحة، وقلّة الأساتذة، وهبوط المستوى، وكانت آخـر كلماتـه في (منشأة سلطان) مركز منوف في افتتاح معهدها الديني: «إن الذين يدعون إلى عدم التوسّع مخطئون، فأنا مع التوسّع بلا قيود وحدود، وإذا قصرت الميزانية في تدبيـر الموارد فلديَّ بحمد الله الكثير من إعانات أهل البرّ والخيـر، وهم بحمد الله كثيـرون، فلا تثبيط للهِمَم، بل دفع لها، وأردّ عليهم فأقول: إن عدد الذين يتعلّمون في المعاهد الأزهرية كلها في جمهورية مصر بما فيها جـامعة الأزهـر خمسون ألفـاً، وفي وزارة التربية والتعليم سبعة ملايين، فأين التوسّع؟ ولماذا التخوّف»؟

ولـم يقف الشيخ لدى أغنياء البلاد في الداخل، فوطّد علائقه بـأبناء الإسـلام في كل قطر، وجعل يأخذ من ذوي الهِمَم العالية ما يـدّخره لمبـاني الأزهر وأدواتـه ومتطلباته، وكانت مكـانة الـرجل في البـلاد الإسلاميـة ذات حسد آكِـل في نفوس الأعداء، إذ كان يقابل في كل مكان مقـابلة الملوك والرؤسـاء، بل أكثـر من مقابلة الملوك والرؤساء، لأن الجموع المحتشدة التي هرعت لاستقباله في الهند وباكستان وماليزيا وأندونيسيا والمغرب وإيران ومكّة في موسم الحج، كانت تتدافع للقائه عن طـوع راغب لم يَدْعُ إليـه نظام حكـومي، أو يَسْعَ في تـدبيره مُنـاشد يحـرص على شكل مظهري، وذلك هو الحبّ الصريح.

---

(١) مجلة الأزهر، السنة الحادية والخمسون، محرّم ١٣٩٩ هـ، ص ٢٣٣.

لا بدّ من أن نتحدّث عمّا نعرفه من جهاد الإمام عبد الحليم محمود في أثناء مشيخته للأزهر، وهو جهاد شاهده الناس وعرفوه، ولمسوه بما يُغني عن القول إذا لم يكن مشفوعاً بالتحليل، وموقف الكاتب في سرد الأمور المُشاهَدَة في العصر الحاضر مما يسبّب له الضيق، إذ يشعر أنه يردّد ما يعرفه كافّة الناس، وقد يضطرّ للإيجاز فيظنّ به التقصير أو القصور، وقد يستمرىء الإطناب فيؤاخذ بأنه يردّد ولا يجدّد، على أنه مما يهوّن الأمر أن يعتقد الكاتب أنه يسجّل الحقائق للمستقبل لا للحاضر، فصنيعه من قبيل صنيع المؤرّخ الذي يُدوّن ما يشهده ليُطالع به أجيالاً لا يزال كثيرها في بطون الغيب، وهم في حاجة إلى معرفة ما كان ليُواصلوا ما ينبغي أن يكون.

حارب الإمام الأكبر في عدّة جهات، حارب الوجودية حين هبّت فئة تدعو لها كمذهب حرّ يجب أن يسود الناس، فأخذ الإمام يتساءل عن مَكمَن الحرية في المذهب الوجودي؟ أهي حرية مطلقة بحيث تصبح اعتداء على حقوق الآخرين، لينال الإنسان امتداده في أيّ مكان وإن كان يحتلّه سواه؟ وإذن فهي حرية فرد تنال بظلم فرد آخر، أم هي حرية مقيّدة تراعي الوضع العامّ ليعيش الناس جميعاً في سلام؟، وإذن ما الفرق بينها وبين الحرية في منطق الإسلام؟ ثم إذا كانت هذه الحرية في مرآة الوجوديين داعية إلى قضاء كل رغبة يتعشّقها المرء، فماذا يصنع هذا الوجودي إذا اصطدم بوجودي آخر يريد أن يقطف الثمرة من يده!.

وإذا كانت الاستجابة إلى الغرائز بعض مظاهر هذه الحرية فما نصنع إذا كان ضحية هذه الغريزة فتاة في أُسرة تحافظ على مكانتها، وترى في تهوّر بعض أعضائها انحطاطاً لمستواها الخلقي؟.

أيّ عطاء تقدّمه الوجودية يُسعِد الناس جميعاً حتى يعتنقها الأفراد والجماعات؟.

وإذا استحال هذا العطاء المجرّد من الظلم فلم ندعو إليه ولدينا عطاؤنا العادل في منهج الإسلام؟.

والشيوعية التي صادفت موقعها من زُمَر تجمّع لها الأعوان في مصر ، وتسلّط أنواع الإرهاب الباطش على مَن يناوئها، وقد مكّن لها في الحكم والصحافة والإذاعة بما جعل أنصارها نافِذِي الكلمة في وقت مظلم كان امتحاناً لمصر جميعاً عسفاً وبطشاً وانتقاماً! .

لقد صمد الإمام عبد الحليم محمود أمامها صمود الفارس الصنديد، فأخذ يُزيل الغشاء الخادع عن الماركسية الحاقدة، ليراها الناس في وجهها الكالح البغيض، وقد كشّرت عن أنيابها لتلتهم لحوم الضحايا، وليرقص دُعاتها على أنين المعذّبين من الشهداء.

كم كان الإمام رائعاً حين شَهَرَ قلمه ولسانه كاتباً وخطيباً ليُناوىء الشرذمة المتغطرسة دون تقهقر، فظهرت كتبه ومقالاته وأحاديثه فاضحة عوار الشيوعيين، وقام في وجهه مَن يزعمون كالعادة أنهم تقدميون، وأن الشيخ رجعي متأخّر! فتَعادوا بالسِّباب، وجأروا بالبهتان، وادَّعوا أن الشيخ يُعيد عهد الكهنوت الكَنَسي، وقد نسوا أنه لا كهنوت في الإسلام.

وكان من أعجب العجب أن يزعم بوق من أبواقهم أن الشيوعية لا تحارب الإسلام، وأنه صلّى الجمعة في مسجد طشقند حين زارها، يزعم هذا البوق ذلك، ومساجد القاهرة تشهد عليه أنه لم يصل الجمعة بها ذات أسبوع، أفتراه يعتقد أن صلاة الجمعة لا تَجِب إلّا في مسجد طشقند!! وقد كذّبه أبناء البلاد أنفسهم حين كتب مسلم منهم في صحيفة رابطة العالم الإسلامي؛ ليعلن أن الصلاة لا تُقام في مسجد طشقند، وأن هذا المسجد المظلوم لا يفتح إلّا إذا زار المدينة زائر أجنبي ينتسب إلى الإسلام، فيرى أن بالمدينة مسجداً خالياً لا يؤمّه أحد إلّا بحيلة مسرحية تُمَثّل على رؤوس الأشهاد دون حياء! .

هذا الكاتب وأمثاله قد تعادوا على الإمام الأكبر مُنتَفِخي الأوداج مُصَعّرِي الوجوه، وكأنهم أصحاب فكر حرّ، وما دروا أنهم عملاء! وقد أدّى الإمام واجبه فعصف يَراعه بما يأفكون وحين اعترفت الدولة بحزب اليسار أصدر الإمام الجريء

فتواه مُعلِنة: «أن الشيوعية كفر، وأن الماركسية هي المادية، وأن المادية تنكر عالم الغيب فلا إله، وختم الشيخ فتواه بأن المسلمة لا تحلّ لشيوعي، وأنه إذا مات الشيوعي فلا يُصَلّى عليه، ولا يُدفَن في مقابر المسلمين، وأن باب التوبة مفتوح، فإذا تاب الشيوعي تاب الله عليه» وهي فتوى صريحة لا تعرف خداع الكلمات، ولا نفاق الدبلوماسية، وقد ضاقت بها الصحف اليومية، حتى ظهرت في صُحُف الدعوة الإسلامية وحدها!.

أما المطالبة بالشريعة الإسلامية تطبيقاً والتزاماً، فما نعرف أن الإمام قد كَلّ عنها ذات يوم، فقد كتب عشرات المقالات ليُعلن أن مصر لم تعرف الأحكام المدنية إلّا بعد الاحتلال الإنجليزي سنة ١٩٨٢، وأن الشريعة بعد هذا التاريخ بقيت في مسائل الأسرة وما يعرف بالأحوال الشخصية، كما بقيت في أكثر مواد القانون المدني، وعلينا أن نطالب بتعميمها في كل المواد، جنائية ومدنية ودستورية ودولية!!.

وقد سارع رحمه الله فألّف لجنة علمية لصياغة قوانين الشريعة، في مواد محدّدة لتسهّل مهمة التطبيق، وراجع ما كتب من المواد، ونشره في الصّحف، ثم اتصل بأعضاء مجلس الشعب فرداً وراء فرد، ليجمع تكتّلاً إسلامياً ينادي بتطبيق الشريعة، وأخذ يتعجّل التطبيق مُلِحّاً، ولم ييأس ذات مرة، وكان يطالع آراء المسؤولين في وجوب تطبيق الشريعة فيتساءل متعجّباً: إذا كانوا صادقين في إصدار هذه الآراء، فما الذي يقعد بهم إلى الآن؟ وجاءه اليقين وهو يحشد جاهداً الآراء خلفه، ليظفر بموافقة مجلس الشعب، فليت الذين أعطوه الكلمة الواحدة يحترمون ذكراه فيعملون على تنفيذ ما تعاهدوا عليه، والله من ورائهم محيط.

وبعد، فهل ينسى أحد موقف الإمام العظيم من قضية التكفير الديني، حين شاء رئيس المحكمة أن يندّد بالأزهر، لأنه لم يوافق على أحكامه؟، وقد ظنّ أنه طعن الأزهر في مقتل صائب لأن الشعور العامّ كان معبّأ ضدّ مَن اغتالوا الشهيد الدكتور «محمد حسين الذهبي» ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ والأزهر لا مراء ـ أول

مفجوع هزّته اللوعة في مصرع الشهيد، ولكن فجيعة الأزهر رئيساً ومرؤوساً لم تمنع أن يهتف الشيخ الأكبر بالحق فيقول في بيان حاسم:

«وموقف علماء الأزهر من هذه القضية يتلخّص في أمور:

أولاً: أنه إذا كان المطلوب منهم إبداء الحكم الإسلامي في آراء غير معروضة عليهم عرضاً محدّداً دقيقاً كاملاً، فإنه يكفي في ذلك الرجوع إلى مؤلّفاتهم العديدة التي تملأ الأسواق وإلى مصنّفات العلماء السابقين عليهم التي يزخر بها التراث.

ثانياً: أما إذا كان المطلوب من علماء الأزهر إبداء الحكم الإسلامي، في آراء هذه الجماعة بالذات، فقد كان الأمر يقتضي «باسم العلم وباسم العدالة وباسم الإسلام»:

١ ـ أن تُعرَض عليهم آراؤها في مصادرها الأصلية، وأن يمكّنوا من الاستماع إلى شرح أصحابها لهم، وتوضيح غامضها، وتفصيل مجملها.

٢ ـ أن يطّلعوا على كافّة الظروف التي أدّت بهم إليها.

وهذا للأسف الشديد هو الأمر الذي لم تشأ المحكمة أن تمكّن منه علماء الأزهر، واكتفت بأن عرضت عليهم المحضر الذي سجّلته النيابة، من أقوال ومناقشة المسؤولين في هذه الجماعة، ومع شدّة احترامنا لجهود النيابة في تسجيل هذا المحضر، فإنه لا يخفى على أحد أنه لا يمكن أن يكون، مصدراً كافياً يقوم عليه بحث العلماء، أو أساساً متكاملاً تصدر عليه أحكامهم.

ثالثاً: إن علماء الأزهر وجدوا في قضية الفكر تباعداً بينهم وبين موقف المحكمة، فبينما تتصدّى المحكمة للحكم بتجريم هذا الفكر أو عدم تجريمه، يرى علماء الأزهر من وجهة نظرهم: أنها قضية رأي لا تحتمل غير الحكم بالصواب أو الخطأ، وبخاصة إذا لاحظنا أن ذلك يجري في مجتمع يتمتع بحرية الرأي والاعتقاد، وأن هذه الحرية تصل ـ خلافاً لما يراه علماء الأزهر ـ إلى حدّ

السّماح للفكر الإلحادي، وعلى قمّته الماركسية من أن يكون له فلاسفته ودولته وناشِروه، ومن هنا فقد رأى علماء الأزهر أن ما يُطلَب منهم بتجريم هذا الرأي أو عدم تجريمه، أو مساعدة على ذلك، ليس مما يدخل في دائرة اختصاصهم بحالٍ من الأحوال، وإنما الذي يدخل بيان الرأي[1].

تلك خلاصة ما ردّ به الدكتور الإمام على ما أثارته المحكمة العسكرية، وهو ردٌّ يحمل من الشجاعة الصريحة ما نفتقده لدى أدعياء الحرية من هُواة الإلحاد.

وكنت حريصاً على أن أعرض بالتفصيل لجانبٍ من أخلاق الدكتور عبد الحليم محمود قد اشتهر به وذاع عنه، وهو جانب الإحسان الشامل للضعفاء بإعداد مرتّبات شهرية تقتطع اقتطاعاً من ماله، لولا أن فضيلة ـ العارف بالله ـ الأستاذ الشيخ: «محمود أحمد هاشم» رئيس مديرية التعليم الأزهرية بالزقازيق قد اشترط على ألّا أُذيع شيئاً مما سمعته منه في هذا المجال، إرضاءً لروح الإمام العزيز، وإن كنت أرى: أن الإذاعة لعمل الخير، تفتح مجال الأسوة والاقتداء، فلأكتفِ بالإشارة عن صريح العبارة، راجياً للإمام ـ رضي الله عنه ـ حُسْن المثوبة، وواسع الرحمة، وهو بهما جدير جدير!!.

﴿ يا أيّتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّة ﴾.

---

(1) مجلة الاعتصام، سنة ١٣٩٨، ربيع الثاني، ص ١٨.

محمد رشيد رضا
صـــــــاحب المنـــار

- ١ -

لا يتهيّـأ لكـاتب أن يتحـدّث عن الأستـاذ الإمــام: «محمـد عبــده» دون أن يتحـدّث بإسهـاب عن أستاذه: «جمـال الدين الأفغـاني» وتلميـذه: «محمـد رشيـد رضـا»، فقد تضـافر هؤلاء الثـلاثة الأعـلام على أداء رسـالـة الإصـلاح في العـالم الإسـلامي، وحملوا مِصباح التجـديد بـاهِر الشّعلة، سـاطع النـور، ليتقدّم القـافلة النـاهضة مبـدّداً دياجيـر الشبه المـظلمة، وبـاعثاً لـلأمـل الحيّ في نفـوس أنهكهـا اليأس، وكادت تقنط من رحمة الله بالمسلمين.

أجـل: لقد حمـل هؤلاء الأعلام الثـلاثـة لِـواء التجـديـد في دنيـا الشـريعـة الإسـلامية، وأصبـح الحديث عنهم حـديث الحـريـة في القـول، والاستقـلال في الرأي، واليقظة في الفكر، ومحاربة الشائعات المغرضـة، والأراجيف المسمومـة، حول حقيقة هذا الدين الخالد، ومبلغ قيادته للشعوب!.

وأذكـر: أن المستشـرق الكبيـر تشـارلس أدمس حين أراد أن يكتب رسـالتـه الجـامعية عن: «الإسـلام والتجديـد»، جعل محـورها يـدور حول الأستـاذ الإمام: محمد عبده، ولكنه فسح المجـال لبابين كبيـرين من أبواب الـرسالـة، يتحدّث في أحدهما عن جمال الدين وفي الآخر عن محمد رشيد، معتقداً أن حـديث التجديـد

والنهوض لا يتمّ على وجهه الصحيح دون الإحاطة بأعمال هذا المثلّث الرائع في مضمار اليقظة والتجديد!.

ولئن ذكر الأستاذ الدكتور أسماء الكثيرين من تلاميذ الأستاذ الإمام ومُريديه غير الأستاذ: رشيد رضا فهو ذِكر المُستعرِض السريع.

أما حديثه المُسهب عن صاحب المنار فهو حديث المتأمّل الدّارس، المُحَلّل الشّارح، وذلك بعض ما يستحقّ الرجل دون نزاع!.

وقد توالت الكتب الكثيرة في هذه الحقبة الأخيرة عن «محمد عبده» وتعاليمه، وكلها تقريباً ترجع إلى مؤلّفات «رشيد رضا» وبحوثه، وتعدّه المرجع الأوفى لأستاذه والامتداد الطبيعي لتيّاره، وإذا وُجِدَ من المُغرضين مَن يتجاهل مكانة السيد في مضمار التجديد فهو تجاهل المُغرِض المُجحِف، بدليل: أنه لا يكاد يتعرّض لقول من أقواله إلّا بالتشكيك والإيهان مما يكشف ميوله المُغرِضة.

ولن يضير صاحب المنار أن يتجاهله متجاهل ما مهما عَلَت منزلته في دنيا الناس، وحسبه أن يجد مئات المُنصِفِين في الشرق والغرب يلهجون بذكره، ويقدّرون نضاله، ويعدّونه صاحب الإمام الأول، ومفسّر مذهبه، وشارح تعاليمه، وفيهم عالمان بارزان تبوّأا مشيخة الأزهر الشريف، وكتبا عن «محمد عبده» كتابة التلميذ المتشبّع بآرائه المهتدي بنبراسه، وهما بعد من المكانة والإجلال بالمنزلة التي لا تزاحم وماذا عسى أن نقول في «مصطفى عبد الرازق»، «ومحمد مصطفى المراغي»، ومكانتهما من الإمام والأمة والدين لا تحوج إلى إعلام!!.

يقول الأستاذ الأكبر «مصطفى عبد الرازق» نقلاً عن مجلة الرسالة (٦٢٧) ٩ يوليه سنة ١٩٤٥:

«أول مَن ترجم للشيخ محمد عبده، وعني بنشر آثاره هو السيد محمد رشيد رضا، والسيد محمد رشيد رضا هو أول مَن لقّب الشيخ محمد عبده بالأستاذ الإمام، وهذا اللقب نفسه يُنبىء عن الصورة التي أراد أن يرسمها السيد رشيد لشيخه فيما كتب عنه، وينبىء بالفكرة السائدة في وجهة نظر التلميذ إلى أستاذه».

«الشيخ محمد عبده عند السيد رشيد رضا: إمام من أئمة الإسلام، وله في الدين مذهب يقوم أصحابه على روايته وتدوينه، كما قام أصحاب أبي حنيفة والشافعي وغيرهما على ما لأولئك الأئمة من مذاهب.

وإذا كان الشيخ محمد عبده إماماً في الدين، فالسيد رشيد رضا لا شك صاحبه ومفسّر مذهبه، ومكمّله، وقد بذل مُنشىء المنار ـ رحمة الله عليه ـ في هذه الناحية مجهوداً ضخماً حافلاً بالمباحث الدينية، والمناقشات الفقهية، وكان لهذا المجهود العظيم أثر غير ضئيل في طلاب العلوم الدينية ومَن إليهم وفي توجيه الدراسات الشرعية في بلاد الإسلام المختلفة» اهـ.

ويقول الأستاذ الأكبر: محمد مصطفى المراغي، في حفلة تأبين السيد محمد رشيد رضا ـ رضي الله عنه ـ:

«كان فقيد الإسلام السيد: محمد رشيد رضا محيطاً بعلوم القرآن، وقد رزقه الله عقلاً راجحاً في فهمه، ومعرفة أسراره وحكمه، وواسع الاطّلاع على السُّنّة وأقضية الصحابة وآراء العلماء، عارفاً بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية مُلِمّاً بما في العالم من بحوث جديدة، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان، فهو ممّن أُوتِيَ الحكمة، ورزق الخير الكثير.

وقد كان ـ بلا شبهة ـ أكبر المدافعين عن قواعد الإسلام وأشدّهم غِيرةً عليها، فَنِيَ في خدمة دينه، وجاهد في الله حقّ جهاده، وأُوذِيَ في سبيل مبادئه، وصبر وصابر إلى أن توفي ـ رحمة الله عليه ـ.

كان مبدؤه مبدأ جميع علماء السّلف في كل ما يتعلّق بذات الإله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته، وكلّ ما يتعلّق باليوم الآخر، فهو رجل سِنّي سَلَفي يكره التقليد، وينادي بالاجتهاد ويراه فرضاً على نفسه وعلى كل مَن قدر عليه.

وكان مبدؤه مبدأ علماء السّلَف أيضاً في تخيّر الأحكام المناسبة للزمن، والنافعة للأمم في مواضع الاجتهاد.

وكان مبدؤه مبدأ جميع علماء السلف في التحاكم إلى الله ورسوله، عملاً بقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فرُدّوه إلى الله والرسول﴾[1].

من الحقّ أن نعدّ السيد رشيد من المجدّدين، وأن نعدّه من المجاهدين في إحياء السُّنّة، ومن الحق أن نعتبر بما كان للسيد رشيد من أناة وصبر في البحث والقراءة، والتأليف والفتوى والمناظرة، ومن الحق أن نذكر: أن هذه الأعمال الصالحة قام بها احتساباً وأدّاها في سبيل الله».

هاتان شهادتان مخلصتان، تسجّل الأولى: وراثة السيد لأستاذه وحمله لمذهبه، وتسجّل الثانية: أنه أكبر المدافعين عن الإسلام في عصره، ويا له من عصر مُجحِف، حُورِبَ فيه الدين بأوجع المُفتَريات وأقتل التخرّصات، فكان السيد رشيد بطل الدفاع وأسد العرين!.

وبعد: فكيف أدّى صاحب المنار رسالته؟ وكيف تهيّأ له أن يقطع طريقه الشاهق في ثبات وإيمان؟.

لقد نشأ السيد في أُسرة شريفة بقرية: (القلمون) ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٥ وهي إحدى قرى جبل لبنان على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، وترعرع في بيئة دينية تحترم التقاليد الإسلامية، إذ كان نسب أسرته ينتهي في بعض أُصوله إلى الحسين رضي الله عنه فيورثه عزّة في نفسه، وتفانياً في الذّود عن عقيدته، واهتماماً بسِيرة نبيّه وآل بيته، وقد حفظ القرآن في سنٍّ مبكرة، وتلقىٰ مَدَداً من الحديث النبوي، وفيضاً من السّيرة النبوية، فاجتمع له من ذلك ما حبّب إليه الدراسة الدينية، وبعث في نفسه الرغبة في التضلّع، في الثقافة الإسلامية، والدعوة إلى كتاب الله، وهدي الرسول.

وقد شاءت ظروفه السّارّة أن يلتحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس الشام، فيجد في أساتذتها الأماثل عالماً جديداً، يفهم طبيعة عصره، ويهضم

---

(١) سورة النساء: آية ٥٩.

تعاليم دينه، ويميّز بين الخبيث والطيب من أقوال المؤلّفين ونصوص الفقهاء، ثم يوجّه طلبته وجهة صحيحة هادفة، ذٰلكم هو: الشيخ حسين الجسر الأزهري، صاحب الرسالة الحميدية!!.

وقد امتاز هذا الأستاذ بالدّعوة المخلصة إلى التزوّد من العلوم الكونية ومُسايَرة الحضارة المزدهرة في أوروبا، دون جمود على القديم الرثّ في عصر تخلّف فيه المسلمون، كما امتازت رسالته الحميدية بمناقشة آراء الغربيين في الإسلام، والردّ على مُفتريات الخصوم وظنونهم المتربّصة بالمسلمين، وهذا شيء جديد حقّاً، لأن أكثر العلماء لعهده لم يكونوا يعبئون بما يقال عنهم في الغرب من آراء، فإذا اتّجه الأستاذ الجسر هذه الوجهة الناقدة فإنه يفتح عيون تلاميذه على مواجهة الخصوم، ويدفعهم إلى الذّود عن حقيقة الإسلام.

ولا ينكر أحد أثر هذا الاتجاه في نفس السيد رشيد، فقد حبّب إليه دراسة معارف عصره، وهيّأه لأن يكون واسع الأفق، مستنير العقل. يرهف سمعه وإحساسه لكل جديد طارىء فيتقبّل الصحيح وينفي الزائف المريب!.

والشابّ الناشىء يتطلّع في دور مراهقته إلى مَثَل أعلى يحتذيه، ويشعر بالظمأ إلى الحقيقة الناصعة شعوراً يدفعه إلى البحث والتطلّع، وقد غمرت رشيداً في عنفوان صِباه روح من التصوّف الشفّاف، دفعته إلى التأمّل المستغرق، وحبّبت إليه أن يقرأ كتاب «الإحياء للغزالي» فيجد به أسلوباً جديداً في التهذيب، ويلمس من تحقيقه العلمي وتشريحه النفسي ما يفتح على روحه منافذ من الإحساس، وعلى عقله روافد من التفكير المستقل الواثب.

وكادت روح التصوّف أن تنزع به منزعاً متطرّفاً يميل به إلى الانزواء، لولا أن وقعت في يده إحدى صحائف: «العُروة الوُثقى» فرجّت شعوره النفسي رجّاً عنيفاً، ووجّهت تفكيره العقلي وجهة جديدة، إذ أطلعته على حقيقة العالم الإسلامي المتخلّف عن ركب الحضارة، الغريق في ظلام الجمود والتقهقر والاحتلال، وأرَتْه

ما يبثّه أعداء الإسلام من نيّات غادرة بهذا الدين وأشياعه، وما يحاولون أن يلصقوه من مُفتريات!!.

فثارت ثائرة الناشىء المتطلّع، وأخذ يبحث عن أعداد «العُروة» جميعها، ثم جعل ينسخ بيده ما يستعيره من الأعداد لفترة ضيّقة، ليُحرِز النص لما يسجّله جمال الدين، ومحمد عبده من الأفكار، وقد انتزعته هذه الصحيفة القويّة من أحلام انزوائه وانطوائه، وصاحت به في هدوئه، فهبّ ثائراً يبحث عن المنفذ لنفسه، ويرى الدفاع عن الإسلام فرضاً محتوماً على مَن كان في مثل إيمانه وثقافته وإخلاصه، وصمّم على أن يأتي بالجديد.

لقد تخرّج الطالب من مدرسته ونال الشهادة العالمية فأصبح أستاذاً رسمياً للدين بلبنان، وكان الظن به أن يسلك مسلك التدريس في معاهد وطنه الصغير، لو لم تفعل به أعداد العُروة الوُثقى ما فعلت من تغيير، فرأى أن رسالته لا تنحصر في التدريس بمعهد إقليمي صغير، ولكن رسالته الحقيقية أن يدرس الحقائق الإسلامية للعالم الإسلامي بأجمعه، وما من سبيل إلى ذلك دون الالتحاق بركب الإصلاح، حيث يقود جمال الدين القافلة، ويحمل وراءه محمد عبده مشعل الإرشاد فلا بدّ إذن من مهاجرة لبنان والالتحاق برائِدِي البعث وقائدي الإيقاظ!!.

لقد فرض عليه أن يكتب في صحيفة شاميّة تدعى: «ثمرات الفنون» وأن يرأس تحريرها بمرتّب معقول، ولكنه رأى الرقابة العثمانية تحرّم عليه أن يحذو حذو العُروة الوُثقى فيما يقول، فهو إذن سيصبح هتّافاً مأجوراً، يردّد كلمات الثّناء ويسكت عن بغي الطغيان!.

ثم تجيئه الأنباء بوفاة جمال الدين، فلا تفتّ من عضده بل تدفعه إلى الإسراع بالهجرة، ليرى محمد عبده في مصر فيأخذ مكانه جواره، ويكون منه كما كان الأستاذ الإمام من جمال الدين.

والحقّ: أن إخلاص السيد رشيد قد هوّن لديه كل صعب، فقضى على شكوك اليأس في نفسه، ووجد من إرادته الحازمة ما يدفعه إلى السفر العاجل،

مهما جاءت العاقبة بغير ما يحبّ، وهناك ساعات حاسمة في كل فرد تدفعه دفعاً مُلِحّاً إلى أن يحقّق رغبته، معقولة أو غير معقولة، وقليلون هم الذين يستجيبون إلى هواتفهم الهادفة، فيلبّون النداء مُسرِعين تاركين كل تفكير مُجهِد في الإخفاق والخيبة، وكأنهم يستمعون إلى داعٍ مجهول يبشّرهم بالنجاح، ويعرض على عيونهم صور الانتصار باسمة مُشرِقة، فيقبلون على مجازفتهم الجديدة آملين واثقين!.

وقد كان السيد في رحيله العاجل إلى بلد لا يعرفه، وأستاذ يفوقه قدرةً ومكانةً ونفاذاً، وجهاد لا تتّضح معالمه في جَلاء، كان السيد في ذلك كله يستمع إلى داعٍ مجهول يبشّره بالنجاح، فنزل وادي النيل قوي الثقة عامر الإيمان.

وتمّ اللقاء سريعاً بين الرجلين، فتلقّى الأستاذ الإمام ضيفه اللبناني هاشّاً مسروراً، وفتح له منافذ القول، فاستمع إلى عقل راجح ونفس طموح، ولمح الإمام بفراسته النافذة ما يعتلج في نفس الطارىء الوافد من آمال في الإصلاح، وأدرك غَيْرته المخلصة، وكَلَفه الهائم بنصرة الإسلام، وإعادة مجد المسلمين، فتشعّب الحديث في شتّى الأنحاء دون حذر أو احتياط، وقد حرص السيد: محمد رشيد أن يسجّل في مذكّراته مجلس الإمام لأول مرة معه، فكتب إلى صديقه الأستاذ: عبد القادر المغربي[1] مُوجزاً أميناً لما دار من نقاش، وقارىء هذا الموجز على تشعّبه وإحاطته يقف على شيئين هامّين: على الثقة السريعة التي اتصلت عاجلة بين الزائر والمضيف، وعلى الهموم النفسية التي كانت تزدحم في صدر الإمام وتشغله، حتى بادر بإذاعتها في أول لقاء.

لقد تحدّث عن إصلاح الأزهر، وأظهر للسيد رشيد ما يتكاءده من العقبات في تنظيمه، وكشف نيّات المُغرضين حين يقفون باعتراضاتهم أمام كل إصلاح، ووصف الحالة العلمية للطلاب بالضعف والجمود، وقد قال في مرارة: «كنت في الامتحان أسأل أحد الطلبة عن عبارة، فيحلّ ألفاظها بإرجاع ضمائرها، وبيان

---

(١) نشرت رسالة السيد رشيد إلى الأستاذ المغربي بمجلة الرسالة، العدد ١١٤، ١٩٣٥/٩/٩.

متعلّق ظروفها ـ هذا إذا أحسن الجواب ـ فأسأله: عن المراد من هذه العبارة فلا يحير جواباً!.

ثم سأله السيد رشيد: عن الكتاب الذي يعتزم تأليفه عن سيرة الرسول، فصارحه الإمام بأنه يحتاج إلى مساعد أمين، يفحص له عن النصوص، لأن أصحاب التآليف الكثيرة كالغزالي وغيره كانوا كذلك، وإلّا فأين الوقت؟، فانتهز السيد رشيد هذه الفرصة، وأعلن استعداده للقيام بمثل ذلك، وقال في ثقة: ستجدني ـ إن شاء الله ـ من الصالحين.

ثم تعرّضا معاً إلى صعوبة التآليف الهامّة في اللغة العربية، وقال الأستاذ الإمام ما نصّه: «إذا أردنا أن نكتب في تاريخ علم الكلام مثلاً فمن أين نستفيد؟. كيف كان هذا العلم في عصر الصحابة ومن بعدهم؟، وكيف اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري؟، ومن أين جاءه ذلك الفكر في المخالفة؟، وهل غيره على رأيه؟، وما الذي حمل أبا الحسن الأشعري إلى القول: بأن الوجود عين الموجود مثلاً؟، وما غرضه من ذلك؟»[1].

مهما يكن من شيء فقد تفرّع الحديث تفرّعاً أدّى إلى ارتباط الرجلين، وانتهى بتعلّق التلميذ بأستاذه، وثقة الإمام في صاحبه، وكان من نتيجته الهامّة: هذه الأبوّة الروحية، التي دفعت الإسلام خطوات إلى التقدّم، بما هيّأت من أذهان وصحّحت من أخطاء.

- ٢ -

كان الشباب القوي المضطرم يدفع السيد محمد رشيد إلى العمل الجاهد، ويبسط أمامه من الأمل ما يتّسع لإنقاذ أمّة تستبدّ بها المخاوف والشكوك، وقد رأى: أن الصحافة المستنيرة أوسع مجال للإرشاد والإيقاظ، فصمّم على إصدار

---

(١) كان هذا على عهد الإمام رضي الله عن. أما الآن فقد كثرت الكتب الخاصة بتاريخ علم الكلام، ولعلّ أوجزها وأدقّها كتابا فجر الإسلام وضحاه للأستاذ أحمد أمين.

مجلة «المنار» لتسدّ الفراغ الذي تركته «العُروة الوُثقى» منذ سنوات!، وإصدار مجلة متحرّرة في أمة محتلة عمل شجاع يعوزه الصبر والعزيمة والإيمان.

فالقارىء العربي إذ ذاك من النّدرة بحيث لا تستطيع الصحيفة أن تقوم على تعضيده وحده، والمحتلّ المستبدّ يترصّد كل شعاع من ضياء الحقّ ليقذف به في ظلمات العدم إلى الأبد، والمتخلّفون من ذوي الدراسات الحشوية يتعصّبون للقديم، ويقفون بتزمّتهم أمام كل جديد!! فصاحب الصحيفة الحرّة حينئذٍ يقاتل وحده في ميدان عنيد.

ولكن خيال «العُروة الوُثقى» يُراوح رشيداً ويغاديه، فيقوّي من عزمه ويهوّن من صِعابه، ويرى في الأستاذ الإمام رصيداً معنوياً يشدّ أزره، ويعاضد رأيه، فيصدر العدد الأول من: «المنار» ويحصر أهدافها في:

«الحثّ على تربية البنات والبنين، والترغيب في تحصيل العلوم والفنون، وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم، والتنشيط على مُجاراة الأمم المتمدّنة في الأعمال النافعة، وطرق أبواب الكسب والاقتصاد، وشرح الدخائل التي مازجت العقائد للأمة والأخلاق الرديئة التي أفسدت الكثير من عوائدها والتعاليم الخادعة التي لبست الغيّ بالرشاد، والتأويلات الباطلة التي شبّهت الحق بالباطل، حتى صار الجبر توحيداً، وإنكار الأسباب إيماناً، وترك الأعمال المفيدة توكّلاً، ومعرفة الحقائق كفراً وإلحاداً، وإيذاء المُخالف في المذاهب ديناً والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً، واختبار العقل وسفاهة الرأي ولايةً وعرفاناً، والذلّة والمهانة تواضعاً والخشوع للظلم والاستسلام للضيم رِضاً وتسليماً، والتقليد الأعمى لكلّ متقدّم علماً وإيقاناً».

وتلك لعمري أغراض شاقّة، تتطلّب من الجهاد ما يبلغه أُولو العزم من المثابرين، وقد لاقت المجلة بادىء أمرها صعوبات مُرهِقة في التوزيع والذيوع، ولكن قوّة الإخلاص وسموَّ الهدف وعظم الاحتمال مما يهون كل وعر عسير، وكان انتساب المنار للإمام ـ رضي الله عنه ـ مَدعاة قبول لدى الصفوة المختارة من

المثقفين، حتى أصبح منبر الشيخ: محمد عبده، ولسانه في الآفاق يدوي بحديثه، ويسير بتعاليمه!.

ونظر الإمام فإذا رشيد على حداثته يؤدّي معه دور جمال الدين على أستاذيّته، فيفخر به ويعتزّ، وتشتعل نار الضغينة في صدور أعداء الإمام، ويرون في تلميذه خير مِعوان على إذاعة مُثُله وأمانيه، فيتعاظمهم الأمر تعاظماً يجعل خديوي مصر: عباس الثاني يخطب في مجتمع حافل، فيعرض بصاحب المنار، ثم يبلغ به الضيق أقصاه، فيرسل الأستاذ محمد شاكر إلى الأستاذ الإمام ليرجوه أن يقصيه عنه ما استطاع!.

ولكن الرجل القوي لا يكترث بأحد، ويقول مُباهياً:

«إن الله بعث لي بهذا الشاب ليكون مدداً لحياتي ومزيداً في عمري، إن في نفسي أموراً كثيرة أُريد أن أقولها أو أكتبها للأمة، وقد ابتليت بما شغلني عنها، وهو يقوم ببيانها كما أعتقد وأُريد، وقد رأيت في سفري من آثار عمله، وتأثيره مناره ما لم أكن أظن ولا أحسب، فهو قد أنشأ لي أحباباً وأوجد لي تلاميذ وأصحاباً».

ثم يقول للشيخ شاكر:

«كيف أرضىٰ بإبعاد صاحب المنار عنّي، وهو ترجمان أفكاري»؟!.

لم يكن عامّة المسلمين وحدهم في مَسيس الحاجة إلى المنار، بل إنّ خاصّتهم من العلماء كانوا يشاركونهم الحاجة المُلِحّة إلى هذه الصحيفة المُرشِدة، فأكثر علماء الأزهر كانوا يرون التقليد في المذهب طريقاً لا منأى عنه ولا مَحيد!، ويعدّون آراء الفقهاء من المتأخّرين أقوى من أحاديث الكتب الصّحاح! وفيهم مَن يجادل الأستاذ الإمام في ذلك، ويعلن أن دراسة السُّنّة المطهّرة لا تُثمِر شيئاً إذا قِيسَت بكتب الفقه ومسائل الفروع! ثم يزيدون، فيتمسكون بالخرافات الشائعة من تقديس القبور وزيارتها، وانتحال الكرامات لأصحابها، والاستشفاع بهم في قضاء المآرب!، ويملئون دروس الوعظ بالمساجد بأمثال هذه الأباطيل، فإذا حادوا

عنها قليلاً فإلى الزّهد في الحياة الدّنيا، والانزواء خارج معترك الحياة، والتخويف الميئس من النار، والحساب والحشر والقبر! أما النهوض بالأمة الإسلامية إلى المستوى اللائق: فمما لا يفكّر فيه ذوو الهداية من العلماء.

والحق أن السيد رشيد رضا قد استطاع بمناره المجاهد أن يهدم هذه الأباطيل، وأن يعرض الإسلام قشيباً طريفاً، كما نسجه محمد ـ ﷺ ـ من هدى القرآن، وضياء العقل!، وإذا بلغ كاتب إسلامي هذا المبلغ في بيئته الجامدة وعصره المظلم، فقد فاز بتوفيق الله.

يقول الكاتب الكبير الأستاذ العلاّمة: محمد فريد وجدي عن زميله النّابه وصنوه العظيم، نقلاً عن مجلة الأزهر (رجب ١٣٥٤ هـ):

«إن ثورة المرحوم السيد رشيد على البِدَع لا يوجد لها نظير، إلاّ في أفراد من السلف الصالح، فقد صمد لها صموداً أشفق عليه منه حتى الذين كانوا يُشاطرونه رأيه من العارفين، ولكنهم لم يؤتوا الشجاعة التي أُوتيها، فباتوا يتوقعون له الشرّ المستطير، وقد لقي منه ما لو لقيه سواه لصدّه عن السبيل، ولكنه ثبت للمُعارضين، واستبسل في الكفاح أيما استبسال، حتى استطاع بفضل إخلاصه وصبره أن يحدث في الصفوف المتراصّة حياله ثغرة، اقتحمها على مُناوِئيه، وفي أثره جمهور غفير ممّن كانوا لا يجزؤون على مواجهتها مجتمعين، وأصبحنا وللسُّنّة الصحيحة أنصار مُجاهرون، وحيال البِدَع خصوم مجاهدون.

فلو لم يكن لفقيد العلم والدين السيد: رشيد رضا غير هذا الموقف لخلّد ذكره في تاريخ المسلمين، فما ظنّك به وقد أسقط دولة التقليد، تلك الدولة التي قضت على المسلمين أن ينقسموا شطرين: شطراً جَمدوا على ما هم عليه من التقاليد المنافية لروح الدين، وقوماً مرقوا من الإسلام واتخذوا لهم غير طريق المؤمنين، فكان السيد رشيد البطل المعلّم في هذا الموطن الشريف تلقّى بصدره كلّ ما يتلقّاه المُصلِحون من الجامدين، وكان لجهاده أثر بعيد في تبصير المسلمين بسماحة دينهم وبقاء باب الاجتهاد فيه مفتوحاً إلى يوم يُبعَثون».

وإذا كانت الأعمال بالنيّات، ولكلّ امرئٍ ما نوى، كما يقول رسول الله، فقد كُوفِيء المنار مكافأة ممتازة بنيّته الطيبة النبيلة، ورنّ في العالم الإسلامي دويّه الرنّان، فأصبح ذا كلمة مقبولة في الشرق العربي وفي الهند وإيران وأندونيسيا، وبعض بلاد الصين واليابان، ومهّد لصاحبه بعد وفاة الإمام أن يحتلّ مكانته الدينية فيصبح إماماً من طرازه، يصدر كلمة الإسلام في كل طارىء، ويتعرّض إلى الخصومة العنيفة من صحف قوية ذات سيطرة ونفوذ، «كالمقطم والمؤيد واللواء» فما تنهنه من عزيمته!.

وإذا كانت خصومته للمقطم الاستعمارية طبيعية فإن عجبي لا ينتهي لخصومته للواء والمؤيد، وهما معاً صوت العروبة ومنار الإسلام في عصرهما الحفيل، ولو شاء الله لجعل الناس أمةً واحدة ولكن لكل وجهة هو مولّيها!.

وإذا كان الأستاذ الإمام: محمد عبده قد تبوّأ في خاتمة حياته منصب الإفتاء للديار المصرية، فإن تلميذه الناضج قد تبوّأ هذا المنصب من الناحية العلمية لا من الناحية الرسمية الحكومية، إذ تصدّر للفتوى عن جدارة في مجلة المنار: فكانت تأتيه الأسئلة العويصة في معضلات الحياة من شتّى بقاع الإسلام ليقول فيها كلمة الحق، وقد رزق تبحّره الواسع في فروع الشريعة الإسلامية توفيقاً كبيراً في الردّ وإقناعاً شافياً في الدليل. ولئن جمعت سلسلة فتاويه ليكونن منها خير كثير[1]، على أنه قد هاجم المارقين من ذوي التفكير المنحرف مهاجمة عنيفة ذات لدد وإفحام، وصاح برأي الإسلام في وجوه هؤلاء صيحات زلزلت إيمانهم من القواعد فآبوا فزِعين، وقد عمي موقفه الصريح على الأستاذ «تشارلز أدمس» فعدّ ذلك منه نكوصاً عن مذهبه التقدّمي في الدين وسيراً مع مَن سمّاهم بالمحافظين من المنكرين.

وهو يقول في ذلك ما نصّه: من كتاب «الإسلام والتجديد» ص ١٧٧ عن ترجمة الأستاذ عباس محمود:

«إن الوقائع تنطق أحياناً بأن صاحب المنار محافظ من المحافظين، فهو في

(١) وقد جمع فتاويه في (المنار) الدكتور صلاح الدين المنجد ونشرها في خمس مجلدات بعنوان: فتاوى محمد رشيد رضا.

تفكيـره كله يعتمد العسـر في اتّباع القـرآن والسُّنّة وسـائر أحكـام الشـرع، والأخـذ بأضيق المعاني والوجوه، وهو يرى أن النزعة الحـرّة في هذه الأمـور كالتسـامح في اعتبار الشرع هو القانون الأساسي لجميع البلاد الإسلامية هذه النزعة ربما أضعفت كيـان الدين كله، وعـرّضته للخـطر ولهـذا نجـد المنـار يُؤثِـر الـوقـوف إلى جـانب المُحافظين».

ثم يُفصِح الكاتب عن غرضه فيقول:

«لقـد تكلّمنا فيمـا سبق عن الوطنيين في مصـر وفي تركيـا ورأينا: أن المنـار يرميهم جميعاً بالإلحاد والمروق، لأن الدين ليس من مقوّمات آرائهم في الـوطنية، وهو يصف عالِمين من شباب العلماء والكُتّاب في مصر هذا الوصف نفسه، ويكفينا هنا أن نشير إلى أن موقف «المنار» من هذين الكاتبين لم يكن أقـلّ تطرّفـاً أو أخفّ حدّة من موقف المُغرِقين في المحافظة!».

والحق الذي لا مِريَة فيه: أن الأستاذ ـ رحمه الله ـ لم يعتمـد العُسْر في رأي ما في اتباع القرآن والسُّنّة وأحكام الشرع، والأخـذ بأضيق المعـاني والوجـوه، كما ذكر صاحب «الإسـلام والتجديـد»، ولكنه من نـاحية أخـرى لا يستطيـع أن يسكت عن عـالِمَين شابّين يقـول أحدهمـا: إن القـرآن يتحـدّث عن إبـراهيم حـديثـاً لا يكفي لإثبات حقيقة وجوده!، ويقول الآخـر: إن الإسلام دين فقط، ولا صلة لـه بالحكم والدولة على الإطلاق ولو كان الأستاذ «أدمس» متشرّباً لحقائق الإسلام الأصيلة لَمـا تورّط في الحكم على الأستاذ رشيد باتباع العُسْر والأخذ بأضيق المعاني والوجـوه، وكأني به وقد فهم أن التسامح هو الإباحة المُفضِية إلى الإلحاد والمروق!.

ولن يفوت متحدّثاً عن المنار أن يشيد بتفسير القرآن الكريم على صفحاته ثم جمعه في مجلّدات ذات أجزاء، إذ إن السيد رشيد رضـا ـ رضي الله عنه ـ قـد ألحّ إلحاحاً مُفرِطاً على الأستاذ الإمام أن يكتب تفسيراً عصرياً للقرآن الكريم، والرجـل لا يجد في زحمة أعماله وخصومه مـا يُيسّر لـه الوقت الهـادىء للتفسير والتحليـل، فكـان يكتفي بإلقـاء دروس في التفسيـر، يتّجـه بهـا وجهـة الإصـلاح، بعيـداً عن

مشكلات اللغة ومنازع القواعد والاصطلاحات، وكان السيد يسجّل ما يقول، ثم يضيف إليه ما يستلزمه البحث من نقاط، ويبادر بعرضه على الأستاذ فيأذن بنشره بالمنار، حتى إذا لحق بربّه تصدّر السيد لإكمال تفسيره، فجلّى معجزة الإسلام في عصر المدنية والضياء!.

وبمقارنة ما وصل إلينا من تفسير الأستاذ الإمام بما كتب من بعده الأستاذ محمد رشيد نجد أن صاحب «المنار» قد وُفِّق أكثر من أستاذه، لأن الشيخ محمد عبده كان ذا عقل مستنير وذِهن مفكّر، وروح شفّاف، ولكنه مع ذلك لم يتبحّر تبحّر السيد رشيد في دراسة الحديث النبوي وكتب الفقه والتشريع، فجاء تفسيره مرآة لعقله اللاّمع وذوقه البصير وأسلوبه الرائق، وجاء تفسير رشيد بحراً خضماً يموج بمختلف الحقائق الإسلامية، ويستند إلى شتّى النصوص الدينية، مما يشفي غلّة الصدور ويروي ظمأ الباحثين، وكانت العقول المعاصرة في حاجة ماسّة إليه، لأن كتاب الله هو: كتاب الزمن، ولا بدّ أن يفسّر في كل عصر بما يكشف إعجازه ويُنبيء عن أسراره.

والاقتصار على التفسيرات القديمة معرّة ومَعْجَزة، لأنها تسدّ مسدّ زمنها، ولا تتعرّض لما ينجم من أحداث تتطلّب التعليل على ضوء القرآن، هذا إذا عرف القارىء أن أكثر هذه التفسيرات السابقة لم يعمد إلى اللباب الخالص على ضوء القرآن، يكشف هديه ويفصِّل منحاه، فبعضها ينحو المنحى الإعرابي والبلاغي كالكشّاف، وبعضها يهتمّ بالحكم الفقهي كالقرطبي، وبعضها يموج بالإسرائيليات كالخازن، وبعضها ينوء بمشكلات الفلسفة والمنطق كالفخر الرازي، وبعضها يجمع من كل فرع ما يتيسّر لصاحبه، ثم يغفل عن إيضاح الهدي الربّاني في بيان يشفي الصدور.

فجاء تفسير المنار ليكون الحجّة القاطعة على أن الإسلام دين الفطرة، وليتحدّث عن حكمة الله في كل مسألة من المسائل العمرانية والآيات القرآنية، وليكشف المُلحِدين وأرباب الشُّبهة من الماديّين، بما يُظهِر صوت الإسلام، مع الحجّة البيضاء، والبلاغة المُفحِمة، والرأي السّديد!.

وقد انتهى به القول إلى ما قبل سورة الرعد بآيات، وفي هذا القدر على قلّته بالنسبة لكتاب الله ما يأخذ بيد الباحث المستفيد. ولو فسح في أجله لوالى التفسير باطّراد، ولكن أجل الله لا يُؤخّر إذا جاء.

وقد أخرج السيد رشيد للناس كتباً كثيرةً تعالج شتّى الموضوعات الثقافية والاجتماعية والأدبية والبلاغية، وكلّها تتّجه وجهة الدين، وتتفرّع عن معارف الثقافة الإسلامية مهما اختلفت عناوينها وتنوّعت أسماؤها، فهو في كتاب: «المنار والأزهر» أو «كتاب السّيرة المحمدية» أو في تحقيق «دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة» أو في التعليق على جميع مؤلّفات الشيخ محمد عبده، أو فيما ألّفه من «عقائد النصارى» و«مشكلة الخلافة الإسلامية» و«قضية المرأة المسلمة».

أقول: هو في جميع هذه الكتب وغيرها هو السيد: محمد رشيد البطل المجدّد المكافح، والداعية الإسلامي الغيور، وقد خاض عباب السياسة لعصره فجاهر برأيه في الخلافة وآل عثمان والاستعمار الإنجليزي والاحتلال الفرنسي، وكتب مئات الفصول في أحداث جيله، وآراؤه السياسية تحتاج إلى مؤلّف خاصّ ينزع بها منزع التحليل والتحقيق، ويكفي أن يقرأ المتعجّل المتسرّع رسائله إلى الأمير: شكيب أرسلان ورسائل الأمير إليه، وقد جمع أكثرها في كتاب خاصّ، أصدره أمير البيان بعد وفاة المجاهد الكبير.

يكفي أن يقرأ المتعجّل المتسرّع هذا الكتاب ليعرف مقام الرجل من أحداث زمانه، ونظرته الإسلامية إلى مفاجآت العالم الإسلامي، ثم ليرى تشعّب الميادين التي كافح بها الرجل بمفرده دون ناصر أو مُعين.

على أن كتابه الرائع: «الوحي المحمدي» قد احتلّ بين جميع المؤلّفات الدينية في العصر الحاضر مكان النباهة الجهيرة وطُبع عدّة مرات في سنة واحدة، ثم تُرجِمَ إلى عدّة لغات شرقية وغربية، لأنه يدعو الناس كافّة في شتّى بِقاع العالم إلى الدين الإسلامي، بالدليل العقلي والبرهان المنطقي، ويؤيّد بأقوى الأسانيد ثبوت الوحي المحمدي، ونهوضه على دعائم راسخة من التفكير الصحيح، ويقارن

بين رسـالات مَن سبق محمّداً من الأنبيـاء ورسالـة خاتم المُـرسَلين، معتمـداً على أحدث قوانين العلم ومكتشفاته في دنيا الاجتماع والتـاريخ والعمـران، وعامـداً إلى أقوى دلائل المُلحِدين، وأعنف شبه المغـرضين من ذوي الاستشراق، مفنّـداً مبدّداً ما يحوكون في مجال الوحي المحمّدي والرسالة النبوية من اعتراض وافتراض.

ولا أذكـر أن كتابـاً إسلاميـاً تهافت على تـأييده كبـار المفكّرين في الإسـلام والمُنصِفين في أوروبا ككتاب: «الوحي المحمّدي» فهو وحده معجزة رشيد ومفخرة بنبوغه، وهو وحده لسان صدق للإسلام وصيحة حقّ في آذان الغافلين.

لم يفتر السيد لحظة عن الكفاح، حتى لَقِيَ ربّه، بعد أن فرغ من تفسير قول الله في سـورة يوسف: ﴿ ربِّ قـد آتيتني من المُلْك وعلّمتني من تأويـل الأحـاديث فـاطِـر السمٰوات والأرض أنت وليّي في الـدنيـا والآخـرة تـوفّني مسلمـاً وألحقني بـالصالحين ﴾[1]، فكـان وقوفـه النهائي عنـد هذا الادّعـاء الربّـاني دليل القبـول، وإرهاص النّجاة، ومسك الختم... رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) سورة يوسف: آية ١٠١.

محمد البشير الإبراهيمي
داعيـــــــة الجـــــزائـــــر

- ١ -

كانت الدوائر الأدبية في الجمهورية العربية المتّحدة قد احتفلت بمرور ثلاثين عاماً على وفاة: «أحمد شوقي» شاعر مصر الكبير، وقد ضمّ الاحتفال صفوة القائلين والسّامعين من أنصار البيان، وحين كانت كلمات الإطراء تتوالى على ألسنة المتكلمين، وقف شيخ وَقور يتلألأ وجهه بنور الإيمان وجلال الشيب، فشارك المحتقلين بتكريم الشاعر مشاركةً ذات طابع ناقد، إذ ترك عبارات الثّناء المألوفة، ليقول: إنَّ من الخير أن نذكر أن شوقي قد مدح باريس وأشاد بالحرية الفرنسية كثيراً، وكان عليه أن يذكر مآسي فرنسا في بلاد الإسلام، وما لقيته آفاق المغرب العربي من أهوال دامية على يد الفرنسيين، وأنا أعلم أن الشاعر إنسان عالمي في أرقى مجاليه، لا رجل قومي يهتف بآمال ذويه، ولكن ما أقدمت عليه فرنسا يُغضِب كل إنسان حرّ، عربياً كان أو أوروبياً، فمبالغة شوقي بالإشادة بفرنسا مما يؤخَذ عليه أفدح المؤاخذة، مهما شفع مدائحه بما يشبه العتاب الضّارع في مثل قوله:

دم الأحرار تعرفه فرنسا ... وتعرف أنه نور وحق

وحرّرت الشعوب على قناها ... فكيف على قناها تسترقّ

وأفاض الشيخ الكبير في أمثال هذه المعاني إفاضةً مُفاجِئةً شطرت السّامعين إلى فريقين: فريق يجهل شخصية المتكلّم، ويرى أن جمال الدين الأفغاني قد

بعث فجأة في ثيابه، ثم يذهب في التساؤل عن اسمه وبلده، وفريق يعلم: أن المتكلّم الكبير هو كبير علماء الجزائر، وشيخ المجاهدين بها: محمد الإبراهيمي، فيعرف له مكانه ويقابل كلماته بالإطراء والتصفيق.

أما بعض الرعاع من مُحَرّري الصّحف: فقد لجأ إلى نقد الشيخ فيما يكتب من هراء، مُدّعياً أن شيوخ اللغة والدين لا يحكمون على الشعر والشعراء، ولو كان هذا القزم الدَّعي يعرف شيئاً عن تاريخ الشعر والشعراء لعلم أن الشعر العربي لم يحفظ على مدّ عصوره إلّا برواية شيوخ اللغة والدين، من أمثال أبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، والمبرّد، وابن قتيبة في القديم، وأمثال، المرصفي، والشنقيطي، والإسكندري، ووالي، والألوسي، في الحديث.

وإذا كان لا بدّ لأمثال هذا الكاتب من الاستشهاد برأي غربي، فليعلم: أن المستشرق الكبير تشارلز أدمس في كتابه عن الإسلام والتجديد في مصر قد جعل محمد عبده وهو شيخ الدين، زعيم الحركة الأدبية في هذا العصر وعلى يديه تخرّج أمثال: المنفلوطي وجاويش وشكيب أرسلان وحافظ إبراهيم.

إن الإبراهيمي حين تحدّث عن شوقي لم يكن دخيلاً على الأدب والأدباء، فهو أديب كبير صرفه الجهاد الإسلامي لا عن تأليف الكتب ـ فقد ألّف الرجل وكتب على وفرة أشغاله وعظيم نضاله ـ ولكن صرفه الجهاد عن طبع ما كتب وألّف، فقد كان يجمع آلاف الجنيهات ليُنشىء المدارس، ويبني المساجد ويعلّم الناشئين، ولو كان ملتفتاً إلى شخصه بعض الالتفات لطبع بعض مؤلّفاته، وجعلها مما يتقرّر تدريسه على طلّابه الكثيرين، وما أجزل ما سينالون من نفع أدبي علمي، وما أحسن ما سيوجّهون به من تسديد وتحصيل.

ولكن الرجل قد نَذَرَ نفسه للكفاح الخالص من كل غرض ذاتي، فلم يلتفت إلى نفسه في شيء، وترك كتبه العلمية رهينة مخطوطاته، غير مجموعة: (عيون البصائر) التي تضمّ الافتتاحيات الملهمة لجريدته، وقد كتب فهرساً لمخطوطاته، كان من بينه هذه المؤلّفات:

١ ـ بقايا فصح العربية في لهجة الجزائر.

٢ ـ النقايات والنفايات. وهو أثر لغوي يجمع كل ما جاء على فعاله من مأثور الشيء أو مرذوله.

٣ ـ أسرار الضمائر في العربية.

٤ ـ التسمية بالمصدر.

٥ ـ الصفات التي جاءت على وزن فعل.

٦ ـ الاطّراد والشذوذ في العربية.

٧ ـ ما أخلّت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة.

٨ ـ قصة كاهنة أوراس.

٩ ـ حكمة مشروعة الزّكاة في الإسلام.

١٠ ـ شعب الإيمان.

١١ ـ مخارج الحروف.

١٢ ـ الملحمية الرجزية في التاريخ.

١٣ ـ فتاوي متناثرة.

وبمراجعة هذا الفهرس الحافل نرى: المؤلّف الكبير كان متشعّب المعارف، شأن السّلف الأول من حَمَلَة الثقافة الإسلامية فقد كتب في الأصول والتشريع الإسلامي حين أفرد ثلاثة كتب للحديث عن مشروعية الزّكاة، وعن شعب الإيمان، وأصدر من الفتاوي ما يعالج حاجة الناس بروح العصر ومنازعه، كما كان في أكثر مباحثه متّجهاً إلى أصول اللغة ومتنها، إذ تحدّث عن أسرار الضمائر في العربية، وعن التسمية بالمصدر، وعن الصفات الآتية على وزن فعل، والاطّراد والشذوذ في العربية، وبقايا العربية في لهجة الجزائر، وهي بحوث دقيقة لا تُتاح لغير متخصّص يصل الليل بالنهار في خفاياها الغامضة، واتجاه البشير إليها مع عبئه الضخم في الكفاح يُبرِز تعدّد المواهب الإنسانية لدى بعض الكبار من الموهوبين.

أما الأدب الخالص: فقد هتف به نثراً ورجزاً وقصّةً فعيون البصائر مقالات نارية تحمل نفحات جمال الدين ومحمد عبده والزهراوي والكواكبي وجاويش، ولها مكانها الجهير في الأدب السياسي المناضل.

وقصة كاهنة أوراس قد قال البشير عنها: إنها أسلوب روائي مبتكر، يجمع بين الحقيقة والخيال، ولبابها الصميم تصوير المآسي الاستعمارية في الجزائر، وتسجيل عهود المجد الإسلامي فيما قبل الاحتلال.

أما الملحمة الرجزية: فعمل ضخم في الأدب العربي أترك للبشير أن يتحدّث بنفسه عنه فيقول[1]:

«ولكن أعظم ما دوّنت: ملحمة رجزية نظمتها في السنين التي كنت فيها مُبعَداً في الصحراء الوهرانية، وهي تبلغ ستّة وثلاثين ألف بيت من الرجز السَّلِس اللزومي في كل بيت منه وقد تضمنت من فنون المواضيع: تاريخ الإسلام، ووصفاً لكثيرٍ من الفِرَق التي حدثت في عصرنا هذا، وللمجتمع الجزائري بجميع فِرَقه ونِحَله، ولأفانين من الهزل للمذاهب الاجتماعية والفكرية والسياسية المستجدّة، والإنحاء على الابتداع في الدين، وتصويراً لأولياء الشيطان، ومُحاورات أدبية رائعة بينهم وبين الشيطان، ووصفاً للاستعمار ومكائده ودسائسه وحِيَله وتخديراته للشعوب للقضاء على مقوّماتها».

ثم يقول: ولم أقرأ للرجّاز رجزاً سَلِساً يلتحق بالشعر الفنّي مثل هذه الملحمة، إلاّ لابن الخطيب: في نظم الدول ولشوقي في رجز العرب وعظماء الإسلام، ولبعض الشناقطة وكأن الرجز موقوف على نظم المُتون العلمية، وأنا أعتبره بحراً كبقية بحور الشعر العربي، يرتفع فيه أقوام وينخفض آخرون، وقد قال فيه شوقي:

يرون رأياً وأرى خلافه الكأس لا تقوم السلافه

(١) مجلة مجمع اللغة العربية، جـ ٢١، سنة ١٣٨٦ هـ، ص ١٥٢.

فإذا انتقلنا من حديث مؤلّفاته إلى حديث جهاده، فلن نحتاج إلى عناءٍ ما، لندرك أن باعث هذا الجهاد الحافل هو: عقيدته الإسلامية، ودراسته الدينية، ذات الثقافة المجيدة التي تهتف بالحرية والعزّة والإخاء، فلولا أن البشير الإبراهيمي كان أحد الدارسين المؤمنين، والفاقِهين المتمكّنين، ما أورثته عقيدته المؤمنة هذه الصلابة في العزم، وتلك الشجاعة في مواجهة المخاطر، وتحدّي الصّعاب.

وقد دأب بعض الذين يؤرّخون الحركات التحرّريّة في بلاد الإسلام أن يُغفِلوا دور الدين عن عمد، وأن يرجعوا الهتاف بالحرية إلى انتشار الثقافة الأوروبية في بلاد الاحتلال، وهذا زيف صارخ متعمّد، إذ أن الحقيقة أن كل دعوة إلى الاستقلال والحرية كان وراءها علماء الدين الإسلامي المستنيرون، يصدعون بتحدّي الظلم، ويستمدّون من عقيدتهم الإسلامية وتاريخهم الممتدّ عبر القرون وقوداً لا تهدأ ناره ولا يخمد ضرامه، فهم قادة المشاعل في كل صقع من الأصقاع.

وقد رأينا مَن يكتب تاريخ الاستقلال في مصر فيغفل دور علماء الدين في المُناداة بمناوأة المحتلّ، حتى فزع فضيلة أستاذنا الكبير: محمد الغزالي لذلك، فأهاب بالكاتبين أن يُراعوا الله فيما يؤرّخون، وصادفت دعوته أثراً في نفسي، فتحدّثت بإسهاب في مجلة الأزهر عن دور الأزهر في الحركة التحريرية بمصر، وجئت أتحدّث الآن عن دور علماء الجزائر بقيادة: ابن باديس والبشير والطيب، في تبديد الاحتلال بما أثاروا من هِمَم وأحيوا من حَمِيَّة، وبنوا من مدارس، وأنشئوا من صُحُف مُستمدّين من كتاب الله غذاءهم الدّسم، وضياءهم الهادي في اسوداد المآزم، وتلاحم الخطوب.

لقد أقام مجمع اللغة الغربية حفلاً تأبينياً للبشير الإبراهيمي، افتتحه الأستاذ: زكي المهندس ـ نائب رئيس المجمع ـ بكلمة أشار فيها إلى بعض ما أعنيه الآن، حيث لخّص للحاضرين بعض أحاديث البشير عن جهاده.

وكان مما قال الفقيد الكبير من حديث أوجزه الأستاذ المهندس في يُسْرٍ جميل: «إن فرنسا قد جهلت أو تجاهلت أن أبناء الجزائر كغيرهم من أبناء العروبة، قد انحدروا من أصلاب قوم كِرام يأنفون الذلّ، ولا يصبرون على الضيم، بل كانوا يؤثِرون الموت في عزّةٍ وكرامةٍ على الحياة في ذلّة ومهانة، وإني أُومن إيماناً صادقاً أن لا بقاء للاستعمار في أمة مسلمة لأن مبادىء هذا الدين وتعاليمه وتوجيهاته خير دعامة للحرية، وأقوى حافز إلى الثورة ضدّ الذلّ والعسف.

إن الدين يأمرنا بالاتحاد والتعاون والتآزر، ويفرض علينا القتال والنضال كلما خِيفَ على حريتنا أن تُسلَب، وعلى كرامتنا أن تُهدَر، فكيف يتّفق أن يكون للاستعمار بقاء مع هذه المبادىء العظيمة التي قرّرها الدين».

ذلك بعض ما قاله الرجل الكبير، وهو قول نحرص على تسجيله في مقدمة هذه الخطوط البارزة في ترجمة البشير.

وُلِدَ الفقيد في عام ١٨٨٩ من أُسرة كريمة، ترتفع بنَسَبِها إلى الأدارسة العلويين من أمراء المغرب في أزهى عصوره وقد ظلّت الرياسة العلمية لأسرة البشير بعد أن فقدت رياسة الحكم، فظهر بها من رجال الإسلام مَن نشروا الدين بالجزائر وَعظاً وتدريساً وتأليفاً، وقد فتح البشير عينه ليرى عمّه الشيخ: محمد المكّي الإبراهيمي عالِم الجزائر لوقته، تنتهي إليه الأستاذية في علوم النحو والصّرف واللغة والفقه، بحيث لا تكون للإجازات العلمية قيمتها الحقيقية إلاّ إدا مهرت بتوقيعه، وكان طلابه يؤمّون مسجده الحافل لينهلوا من علمه المتشعّب لغةً ونحواً وأُصولاً، ثم يقوم بإطعامهم وإيوائهم جرياً على سُنّة آبائه في الكرم والتشجيع.

وما بلغ البشير السابعة من عمره: حتى تسلّمه العمّ الكبير، ووضع له نظام التعليم مُحَدّداً ساعات الراحة والنوم.

ويقول البشير عن هذه الفترة: إنه حفظ بعد القرآن مباشرةً ألفيّة ابن مالك، وألفيّة ابن معطي، وألفيتي الحافظ العراقي في السِيَر والأثر، مع جمع الجوامع في

الأصول وتلخيص المِفتاح للقزويني، ورقم الحُلَل لابن الخطيب، ومعظم رسائل بُلَغاء الأندلس أمثال: ابن شهيد، وابن بُرْد، وابن الخطيب، مع دواوين المشارقة كالمتنبي، والبحتري، والطائي، وديوان الحماسة، وأكثر كتب الفصيح لثعلب، وإصلاح المنطق لابن السكّيت، وكفاية المتحفّظ للطرابلسي وغيرها.

وبمراجعة هذه الكتب التي حفظها الطالب الناشىء نجد: أنه قفز إلى أمّهات المصادر العربية دون تمهيد، وكأنّي بعمّه الكبير وقد بذل جهد الجبابرة في تذليل صِعاب هذه المؤلّفات.

وكان البشير صادقاً حين قال عنه: إنه لم يكن يخليني من التلقين العلمي، حتى حين كنت أخرج معه في طريق الفسحة والراحة.

وإذا كان الرجل قد أضاف كتب الأدب ودواوين الشعر إلى المواد الدراسية للتلميذ الناشىء ـ على غير المعهود في عصره من الاكتفاء بمقرّرات العلوم اللسانية والشرعية ـ فإنه قد هيّأ بذلك فتاة للزعامة العلمية، في جيل يعتمد على الكتابة والخطابة والصحافة، وعدّة ذلك كله: أدب شامل ولسان مبين!.

بل إن هذا المحصول الضّخم من الثقافة العلمية المتنوّعة قد هيّأه للتدريس العلمي لزملائه عقب وفاة عمّه، وهو في الرابعة عشرة من عمره، وكأن والد البشير قد سرّ لأستاذيّة ولده المُبكِرة فتبرّع بإيواء الطلاب وإطعامهم، جارياً على سُنّة الأخ الراحل ومُشَجّعاً ولده على التصدّر العلمي، فبذل الجهد الجاهد في ذلك حتى بلغ العشرين من عمره، ثم آثر الرحلة إلى مراكز الثقافة الإسلامية في مصر والمدينة، فلعلّه يرى لدى علماء عصره في أمصارهم البعيدة ما يمدّه بزادٍ جديد، ولو كانت الوجاهة العلمية وحدها هي مقنعه المجزىء، لاكتفى بتصدّره العلمي في بلده، ولكنه طامح آمل، يودّ أن يرد كل مورد دون أن يقتصر على ما أصاب من توفيق.

على أن المتأمّل في سيرة البشير ـ رضي الله عنه ـ يرى المسجد صاحب الفضل في تعليمه وتثقيفه أينما توجّه، فإذا كان المسجد في الجزائر معهده

الدراسي متعلّماً ومعلّماً، فإن الجامع الأزهر بالقاهرة، والمسجد النبوي بالمدينة المنوّرة، كانا موضع درسه وتحصيله الثقافي، وهو بذلك لم يكد يشعر بفارق ما بين معاهد درسه المختلفة، فبيوت العبادة شرقاً وغرباً ذات نفح روحي خالب، ولها معارج معنوية تسمو بنفوس روّادها إلى الأفق الطاهر، ثم هي من وراء ذلك رمز للوحدة الإسلامية بين أبناء الدين الواحد، إذ ينتقل المسلم من مكان إلى مكان فيجد في اختلاف الحواضر ما قد يُشعِره ببعض الغُربة، ولكنه حين يَلِج ساحة المسجد في أيّ مكان يجد إحساسه بالغربة قد تبدّد في أقلّ من لمح البصر.

فها هم أُولاء إخوانه المسلمون يتّجهون وجهته، ويلهجون بدعائه، ويستقبلون سحائب الطمأنينة في بيوت أذِنَ الله أن تُرفَع ويُذكَر فيها اسمه، وما ارتدّ المسلمون على أعقابهم خاسرين إلاّ حين أغفلوا المعنى الروحي للمسجد، واكتفوا بالزركشة في بنائه، والهندسة في تصميه ورفع أعمدته، ونقش سقوفه دون أن يبلغوا من معانيه الروحية ما يشدّ العزم ويبعث اليقين!.

وهكذا صارت لدينا مساجد هندسية تفقد مضمونها الروحي، وتحوّل سقفها السميكة دون رحمة السماء.

أما الخيام فإنها كخيامهم   وأرى نساء الحيّ غير نسائها

لقد تعلّم البشير وعلّم في مهده الأول، ثم رحل إلى القاهرة فأقام بها ثلاثة أشهر فقط، إذ أعجله الشوق لأبيه، فآثر أن يؤمّ المدينة المنورة كي يلقاه هناك، وكنت أظنّ أن ثلاثة أشهر بالقاهرة لا تُغني الطالب المتعلّم في شيء، ولكني وجدت البشير في ترجمته لحياته يذكر: أنه حضر الدروس بالأزهر ولاقى كبار علمائه. إذ استمع إلى الشيخ: سليم البشري وحضر دروس الشيخ: بخيت المطيعي في الحديث بالرّواق العباسي، ودروس الشيخ: يوسف الدجوي في البلاغة بصحن الجامع الأزهر، ودروس الشيخ: السمالوطي بالمسجد الحسيني، وحلقة الشيخ: سعيد الموجي بجامع الفكهاني، ثم انتقل إلى دار الدعوة والإرشاد

التي أسّسها الشيخ: محمد رشيد رضا بمنيل الروضة فأصاب من كل ذلك ما صادف موقعه في نفسه.

وقد دفعه ظمؤه الأدبي إلى لقاء شوقي وحافظ، فرحّبا به وأسمعهما بعض ما يحفظ من قصائدهما الجِياد، فتهلّل شوقي واهتزّ، وفرح حافظ واختال.

ويخيّل إليَّ: أن البشير كان يكتفي بالفكرة العامّة فقط عن كل أستاذ في حلقته، لأنه كان مُعجّلاً ينشد لقاء أبيه.

ومع قصر المدة بالقاهرة، فقد توجّه إلى المدينة ليستأنف العلم في حلقات الحرم النبوي سنة ١٩١١، وقد سعد هناك بعالِمَين كبيرين هما: الشيخ عبد العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي.

يقول البشير عن الأول: إنه أخذ عنه الموطأ دراية، ولزم دروسه في الفقه المالكي، وشرح التوضيح لابن هشام. وعن الثاني: أنه أخذ عنه شرح صحيح مسلم.

ثم يعقب على ذلك بقوله عنهما:

وأشهد أني لم أرَ لهذين الشيخين نظيراً من علماء الإسلام للآن، وقد عَلاَ سِنّي، واستحكمت التجربة، وتكاملت الملكة في بعض العلوم، ولقيت من المشايخ ما شاء الله أن ألقى، ولكنّي لم أرَ مثل هذين الشيخين من فصاحة التعبير، ودقّة الملاحظة والغوص على المعاني، واستنارة الفكر، إلى آخر ما قال في تقريظهما الرائع.

وهو تقريظ لم يسقه البشير جزافاً دون تحقيق، ولكنه صدر من عقل مقتنع، وقلب مطمئن، وعزاء الأساتذة الكبار الذين لم يجدوا مَن يترجم لهم كهذين الأستاذين الكبيرين، أن يتركوا تلميذاً جهير الصوت كالبشير الإبراهيمي، يسطّر عنهم من الحكم ما يرسم لهم صورة تشرق كالشمس، فتقنع قارئها بما كانوا عليه من جلال وكمال!.

وأيّ جـلال أوفى وأيّ كمال أتمّ، من أن يتـابع البشيـر حديثـه عن أستـاذيـه فيقول:

«ولقد كوّنت لكثرة مطالعاتي لكتب التراجم والـطبقات صـورة للعالم المبـرز في العلوم الإسلامية منتزعة مما يقوله كتاب التراجم، وكنت أعتقد أن تلك الصورة الـذّهنية لم تتحقّق في الـوجود الخـارجي منذ أزمـان، ولكنّي وجـدتهـا محقّقـة في هذين العالِمَين الجليلين».

ـ ٢ ـ

كان مقام البشير في المدينـة المنوّرة نقـطة تحوّل خـطير في اتجـاهه العلمي والسيـاسي معاً، وهكـذا يشاء الله أن يكـون مهبط الوحي بـاعث حيويـة دافقة لمَن يؤمّون ساحته من شتّى بِقاع الإسلام، وكأن النور الذي بزغ في هذه الآفاق الوضيئة في عهد صاحب الرسالة الأولى لا يزال يُومِض الأفق ببريق يتّصـل بمصدره الأول، فيُوحي للمخلصين من الهداية والعزيمة ما يشدّ آمالهم ويقوّي نفوسهم.

هكذا أشرقت نفس البشير في هذه الرّحاب المُشرِقة، فتحدّد اتجاهه العلمي والسياسي معاً تحت سقوف المدينة حين يأوي إلى بيته في الظلام، وتحت سمائها الضاحية حين يجلس مع أصدقائه متّجهاً بعينه إلى الصفاء اللامـع في الآفاق، لقـد وجد في دار الهجرة مكتبات مليئة بكنوز العلم فأخذ ينهل منها ما استطاع، لقد زار مكتبـة شيخ الإسـلام «عـارف حكمت»، ومكتبـة «السلطان محمـود»، ومكتبـة «آل المـدني»، ومكتبة «آل الصـافي»، ومكتبة ربـاط «سيـدنـا عثمـان»، ومكتبـة «عبـد الجليل برادة»، ليجد في مخطوطاتها الكثيرة ما لم يكن يسمع به من قبل من روائع الآثار.

وقد سبقه إلى ارتياد هذه المنازل العلمية جماعة من إخوانه الشنـاقطة، كـانوا له خير أدلّاء، فجاذبوه الحديث تقريـظاً لبعض المخطوطـات، وحثّاً على قـراءتها، ونقداً لبعضها الآخـر، ودعوة إلى مجـافاتهـا، وكانت عنـاية الشنـاقطة بكتب الأدب واللغـة لا تقف عند حـدّ، فقرأ مـع شيـوخهم «الكـامـل للمبـرّد» و«البيـان والتبيين

للجاحظ»، كما حفظ كثيراً من دواوين الشعراء، فضمّ إلى تضلّعه الفقهي تضلّعاً أدبياً أمدّه بالطّلاقة والفصاحة، حيث تصدّر حلقات التدريس كعهده بالجزائر.

ثم قامت الحرب الكونية الأولى، فانتقل مضطراً إلى دمشق ليواصل التدريس بالمسجد الأموي، وليُزامل الشيخ «بدر الدين الحسني» و«الشيخ جمال الدين القاسمي» والشيخ «الخضر حسين» فيما يلقون من دروس ثمينة أعادت بهاء الشريعة وجمال العربيةفي ديار الشام، وما زال أبناء هذه الدروس من الطلاب يذكرون نوافحها العاطِرة كل حين، وأكثرهم ممّن تولّى الزعامة الروحية والسياسية في دمشق، وهم بعد غرس هذا السّلف الكريم!.

هذا عن الاتجاه العلمي للبشير بالمدينة، أما الاتجاه السياسي: فقد تحدّد في دار الهجرة عندما زارها عالِم الشمال الأفريقي بأجمعه، وزعيم الإصلاح الديني بالجزائر «عبد الحميد بن باديس»، فقابل البشير لأول مرة في المسجد النبوي الطاهر، وامتد الحديث إلى نكبة الجزائر بالاستعمار، فأخذ الرجلان الكبيران يضعان الخطّة لبعث الأمة الإسلامية بالجزائر.

وقد كان الأستاذ «الإمام محمد عبده» ـ رضي الله عنه ـ قد زار هذه الديار قبل وفاته بعامين، واجتمع بنفر من علمائها، فذكر لهم أن البعث الإسلامي بالجزائر لن يتمّ إلاّ بتربية جيل مؤمن يعتنق مبادىء الإسلام عن حَمِيَّة وإخلاص، وأن كل معركة سياسية تسبق هذه التربية الإسلامية لن تعقب أطيب الثّمار المبتغاة، ولأمر أراده الله قد وصلت كلمة الإمام إلى آذان ابن باديس بعد سنوات، فأضاءت له طريق الكفاح، وحين اجتمع بالبشير كانت الخطة العامّة معروفة مؤكّدة، إنما يدور البحث حول طريقة التنفيذ، وهي التي تتطلّب العقل البصير في الرسم والتخطيط.

يقول الشيخ البشير عن أيامه بالمدينة المنوّرة عقب زيادة ابن باديس: «كنّا نؤدّي فريضة العِشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي، ونخرج إلى منزلي، فأسمر مع الشيخ: ابن باديس منفردين إلى آخر الليل، حين يفتح المسجد،

فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنوّرة، وكانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصّلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلّها صُوراً ذهنية تتراءىٰ في مخيّلتنا، وصحبها من حُسْن النيّة وتوفيق الله ما حقّقها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣ ميلادية هي التي وُضِعَت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلّا في سنة ١٩٣١ م».

وقبل أن نتحدّث عن نشاط جمعية العلماء بالجزائر نُشير إلى رقاعة صفيقة يتّصف بها بعض المُغرِضين من الكُتّاب، حين يوهمون الناس أنهم يؤرّخون لحركة التحرير الجزائرية، فيعقدون موازنة ظالمة بين البشير وابن باديس، ليرجعوا بانتقاص هذا مرة وانتقاص ذلك مرةً أخرى، وكأن الرجلين متنافسان خصيمان، لا زميلا كفاح ورفيقا نضال.

إن البشير ـ رضي الله عنه ـ يعترف لصاحبه بالسّبق، وبأنه رجع إلى الجزائر قبل عودة البشير بسبع سنوات، فوضع اللَّبِنات الأولى في بناء الجهاد، وبادر باحتكار المسجد الجامع بقسنطينة، ليكون موضع دعوته العلمية والسياسية، فالتفّ حوله جمع غفير من الطلاب، حتى ضاقت بهم المدينة، وأعلنه على إطعامهم وإيوائهم جماعة من ذوي السّعة والبرّ، يؤيّدون حركة الإصلاح. وكان لوالد ابن باديس من الاحترام والهيبة ما منع أيّ تعرّض لنجله من سلطات الاحتلال، وقد دفع المسلمون بأفلاذهم إلى ابن باديس دون المدارس الرسمية للحكومة الفرنسية، مع ما تتضمّن من مُغرَيات في الوظائف والآمال، حتى بلغ مجموع الطلاب أكثر من ألف، يمثّلون بِقاع الجزائر المختلفة من الجنوب إلى الشمال، وقد عاد البشير ليرى الأساس قد وُضِعَ بالفعل، فصافح ابن باديس مهنّئاً، وانقلب إلى وهران ليصنع ما صنع رفيقه في قسنطينة، وهكذا وضعا الخطة معاً، وبادر ابن باديس بالتنفيذ فوضع الأساس وقدّم ثمرة التجربة، ثم عاد البشير ليشدّ أزره، وليحتذي صنيعه، ففِيمَ المفاضلة الرقيعة بين أخوين مخلصين؟ تقدّم أحدهما للعمل فمهّد

الأرض ووضع الثمرة، وجاء الأخ الثاني فبارك وأيّد ثم مضى يمهّد ويغرس في غبطة وارتياح.

اتجه البشير إلى وهران فعقد الندوات العلمية للطلاب، وأعدّ الدروس الدينية الموسمية لكافّة المسلمين من صغير وكبير، حتى إذا التفّ حوله النفر ذو العدد، انتقل إلى الدروس النظامية ذات المنهج المحدّد، وبعث بطلابه إلى البلاد المجاورة في الإقليم الوهراني يبشّرون بحركة الشيخ، ويهيّئون النفوس للقائه في أيام الجمع إذ كان يعدّد زياراته للقرى والمدن ليخطب الناس في احتفال الجمعة المشهود.

وقد صادف حماسة الإسلام تتّقد مشتعلة في النفوس، على حين ظنّ المُستعمِرون أنهم بما زيّفوا من قول، وبما خدعوا من حضارة وبهرج قد عملوا على إطفاء هذه الجذى المتأجّجة، وما دروا أن الإيمان الأصيل لا يخدع بإغراء، أو يقاوم ببرامج ودراسات لا ترتكز على عماد ركين، وقد فوجئوا دهشين بحركة البشير في وهران تؤازر دعوة ابن باديس في قسنطينة، فعملوا على تعويقه تعويقاً صارخاً، دعا المجاهد إلى غشيان الأسواق التجارية متظاهراً بالسّعي في طلب الرزق، ليصدّ عنه مَن يلاحقه بكتابة التقريرات، وتدبير المكايد.

وكانت الصلة حينئذٍ بين ابن باديس والبشير في غاية الصلابة والقوة، وفي المذكّرات التي تركها البشير ما يشير إلى ذلك بصراحة واضحة حيث قال: في هذه الفترة (ما بين سنتي ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠) كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية، وكنّا نتلاقى كلّ أسبوعين أو في كل شهر على الأكثر، يزورني في بلدي: (أصطيف) أو أزوره في «قسنطينة»، فنَزِن أعمالنا بالقسط، ونَزِن آثارها في الشعب بالعدل ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجاً للمستقبل بميزان لا يختلّ أبداً، وكنّا نعمل للمفاجآت حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصاً لتأسيس (جمعية العلماء الجزائريين).

كان ظهور جماعة العلماء عملاً فجائياً لمَن يرى البذرة قد انشقّت فجأة عن عودها الأخضر الصغير، ولكنه لم يكن مفاجأة لمَن شقّوا الأرض وأزاحوا الأشواك والصخور، وردموا المستنقعات، ثم وضعوا البذرة في مدى عشرٍ من السنوات الكاملة، نشأ فيها آلاف التلاميذ، وقامت عشرات المدارس والمساجد حافلةً بالتذكير والتوجيه.

وقد ظنّ المستعمرون أن جماعة العلماء بالجزائر ليست إلّا نمطاً من مشيخة الطرق الصّوفيّة، أنشأها العلماء لإقامة حفلات الذّكر وتلاوة الأدعية والطّواف بالأضرحة، وجمع الزّكاة لإشباع بطون المتواكلين من أدعياء الطريق، إذ لم يكونوا يعتقدون أن مرور مائة عام على الاحتلال الفرنسي بالجزائر يبقي في النفوس معنىً كريماً من معاني الإسلام، بل إنهم في هذا العام نفسه ـ عام إنشاء جماعة العلماء بالجزائر ـ قد رسموا خطة كبرى للاحتفال بمرور مائة عام على احتلال الجزائر، وقد قَدّروا أن تستمر المهرجانات البرّاقة ستّة أشهر حافِلَة بالمراقص والملاهي، وعارِضة ألوان الحضارة بتبرّجها وخمرها ونسائها واستهتارها.

وقد استدعوا من أعلام الفن الباريسي رجالاً ونساءً ممّن توهّم المحتلّون أنهم سيأخذون على الجزائريين أسماعهم وأبصارهم بما يعرضون من فنون، ولكن أبناء ابن باديس وطلاب البشير قد تفرّقوا في بقاع الجزائر يعلنون المقاطعة التامّة لمظاهر العدوان الفرنسي المستترة ببراقع المهرجانات والتمثيليات والألعاب الرياضية، فلم تكد تحين أيام الاحتفال حتى وجد الفرنسيون أنفسهم وكأنهم يحتفلون بأنفسهم، فلم يَفِد إلى مهارجهم الزائفة غير صنائعهم المأجورين، وحتى هؤلاء: قد ثارت عليهم ضمائرهم في بعض لحظات اليقظة فأخذوا يتخلّفون، وظهرت مقاعد المسارح ومجالس المهرجانات خاوية مُقفِرة، تصدم ذوي الأمر في أمانيهم الخوادع، وقد رجعوا بالبحث عن مدعاة هذه المقاطعة الصاعقة، فعرفوا أن الجمعية التي أُنشِئت منذ أيام قد تركت هذا الدويّ الرنّان، فكرّوا باحثين عن لائحتها الداخلية، فأخذوا يدرسونها متفحّصين.

وكان ابن باديس وزملاؤه من الحصافة بحيث أبدوا شيئاً وأضمروا أشياء، فقد اكتفوا في نصوص اللائحة الرسمية بإعلان الدعوة إلى الإصلاح الديني والتعليم تقيةً وحذراً، بينما تواصى المجتمعون في أول انعقاد رسمي لجماعة العلماء بمحاربة المحتلّين، وتقويض دعائم السيطرة الفرنسية على البلاد، وبثّ الروح الإسلامية عقيدةً ولغةً وتشريعاً.

هذا ما تواصى به القوم عن يقين لا تحرّكه الزعازع أمّا ما أعلنوه رسمياً من نصوص اللائحة فيُوجز فيما يلي:

١ ـ تنظيم حملة جارِفة على البِدَع والخرافات والضلال في الدين بوساطة الخطب والمحاضرات ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأندية والأماكن العامّة والخاصّة، حتى في الأسواق والمقالات في الجرائد الخاصّة التي تخدم الفكرة الإصلاحية.

٢ ـ الشروع العاجل في التعليم العربي للصغار فيما تصل إليه الأيدي من الأماكن، ربحاً للوقت قبل بناء المدارس.

٣ ـ تجنيد المئات من التلاميذ المتخرّجين في الحقبة الماضية للجهاد، مع دعوة الشبّان المتخرّجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب.

٤ ـ العمل على تعميم التعليم العربي للشبّان على النمط الذي بدأ به ابن باديس.

٥ ـ مُطالبة الحكومة برفع يدها عن مساجد المسلمين ومعاهدهم التي استولت عليها، لتكون أماكن للدراسة والتوجيه.

٦ ـ مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجبتها ووزّعتها كما تشاء، لتصرف في أبوابها الإسلامية وهي من الكثرة بحيث تساوي ميزانية كاملة لدولة متوسطة.

٧ ـ مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي في الأحوال الشخصية مبدئياً، وبعدم تدخّلها في تعيين الموظفين الدينيين.

تلك هي الخطوط البارزة في اللائحة، وقد وزّعت نصوصها بكميات ضخمة في القرى والمدن، وبدأ أنصار الجماعة يشرحون كل نصّ بإظهار ما يحمل في أطوائه من معانٍ، وتفرّق أعضاء الجماعة في زيارات متوالية لجميع البلاد، ليرشدوا الجزائريين إلى ضرورة التعليم الديني وإحياء التراث الإسلامي، والدعوة إلى الاكتتاب العامّ لإنشاء المدارس الدينية في كل مكان بعيداً عن سيطرة مناهج الاحتلال.

وقد اختصّ ابن باديس بالإشراف على مقاطعة: «قسنطينة» بما تضمّ من القرى والمدن، واختصّ البشير بالإشراف على مقاطعة: «وهران»، كما اختصّ الشيخ الطيب العقبي بالإشراف على مقاطعة «الجزائر»، ولكل مُشرِف دُعاته وتلاميذه وحواريّوه، فسرعان ما أُقيمت عشرات المدارس والمساجد، وطبعت الكتب الإسلامية القديمة لتقدّم الزّاد الحيّ للنشء الجديد، أما المُشرِفون الثلاثة: فما أكثر ما بذلوا من مجهود.

لقد قال البشير عن نفسه: إنه كان يلقي عشرة دروس في اليوم الواحد يبتدئها بدرس الحديث بعد صلاة الصبح، ويختتمها بدرس التفسير بين المغرب والعشاء، ثم ينصرف بعد الصلاة الأخيرة إلى بعض النوادي الجامِعة ليُلقي مُحاضرات في التاريخ الإسلامي على نهج محاضرات الشيخ: «الخضري في مصر»، أما أيام العطلة الدراسية فكانت جولات سياحية في القرى، تنشّط العزائم وتبعث الهِمَم، وكانت أعياداً للأمة الإسلامية في الجزائر، إذ ينهض أبناء القرى في تكبير وتهليل لاستقبال رسول الإسلام ممثّلاً في ابن باديس، أو الطيب أو البشير.

وقد نتج من ذلك كله: بناء أربعمائة مدرسة إسلامية، تضمّ مئات الآلاف من البنات والبنين، وإنشاء أكثر من مائتي مسجد للصلوات والمحاضرات مما أفزع

المستعمرين فعجّلوا باعتقال البشير ونفيه إلى صحراء «وهران»، ثم فوجىء العالم الإسلامي بوفاة ابن باديس فارتجّت الجزائر المسلمة لرحيله، ونعته صُحُف الإسلام في شتّى ديار الدين الحنيف أبلغ منعى وأحرّه وأوجعه، وتجاوز مشيّعو جنازته عشرات الألوف، إذ نهضوا من كل مكان في أقصى الجزائر وأدناها لتوديعه إلى مثواه باكين مُستَرحِمِين، وقد اجتمعت جمعية العلماء يوم وفاته، وانتخبت بالإجماع الشيخ: البشير لرياسة الجمعية من بعده، وقد أبلغ إليه هذا الاختيار في منفاه بصحراء وهران، فتحمّل التَّبِعَة الكبرى بعزيمة شمّاء وعمل على إرسال تلاميذه إلى الأمكنة النائية، ليواصلوا الجهد في محاربة الاحتلال، حتى إذا فكّ قيده عاد إلى عمله، يَعِظ ويُرشد ويُحاضر ويُنشىء المدارس ويضع المناهج، ويرأس تحرير جريدة البصائر، ويدير جمعية العلماء، ويقوم بالصّلح بين الجماعات المتخاصمة في ربوع البلاد، حتى كان يصل الليل بالنهار دون نوم في بعض ليلات الأسبوع.

ثم طمحت هِمّته إلى إنشاء المدارس الثانوية بعد الابتدائية فبدأ بإنشاء معهد ثانوي كبير «بقسنطينة» أسماه: معهد ابن باديس تخليداً لذكرى الرائد الأول في ميدان الكفاح، وكان تلاميذ السنة الأولى به أكثر من ألف طالب مُختارين!، ومن تلاميذ هذا المعهد كان دُعاة الحركة التحريرية بالجزائر، حيث تقدّمت الوفود المؤمنة إلى معركة الاستقلال بحَمِيَّة مشتعلة!.

وهكذا: كانت التربية الدينية في مئات المدارس والمساجد والمعاهد ثكنات حربية مؤمنة، قدّمت الجنود إلى ساحة الحرية فاستأصلوا الاحتلال الفرنسي في معارك رهيبة، صدق القوم فيها صدق المناضلين فما وهنوا لِما أصابهم في سبيل الله، بل تمّت كلمة الله باستقلالهم الباهر، ونكوص المستعمرين!.

فليت الذين يتجاهلون دور الإسلام في تحرير الجزائر يفطنون إلى الحقّ الصريح حين يتساءلون عن جنود معارك التحرير مَن ألهمهم الحَمِيَّة الباسلة، ومَن أعدّهم للمأزق المتلاحم، ومَن وعدهم بنصر الله عند اللقاء، بل مَن حطّم غرور

الاحتلال الفرنسي، وقضى على أوهامه التي تجسّدت في عبارات وَقِحَة هتف بها الحاكم الفرنسي في قسنطينة سنة ١٩٣٠ حين قال في افتتاح ما أسماه بمهرجانات الحرية بعد مائة عام من الاحتلال؟: «لا تظنوا أن هذه المهرجانات لبلوغنا مائة عام في الجزائر فحسب، فقد أقام الرومان من قبلنا ثلاثمائة عام وخرجوا كارِهين، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو: تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار»، وهو قول متوقّح فاجر كدت أن أكذبه، إذ لا أستطيع أن أفهم كيف تُسفِر الدبلوماسية جهاراً عن مثل هذا الحقد، لولا أن الذي رواه هو: محمد البشير الإبراهيمي في مذكّراته الشخصية التي نشرتها مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢١ ص ١٤٧، وما البشير غير صادق أمين!.

كنت أفهم أن يقال ذلك في اجتماع سرّي بمقرّ الحاكم المتغطرس، أما أن يقال في خطبة علنية بمهرجان ذائع يحضره ممثّلو الأمم الكونية، فذلك ما يوحي بغرور تعدّى طوره، فصار هذياناً ينحدر على لسان محموم!، وكان له أثره الحسن إذ بعث ابن باديس ورفاقه إلى الجهاد، حتى انبلج صُبْح النصر في أمَدٍ قريب، وتنفّس العمر بالبشير حتى هنىء بتحقيق أمله، فاقتطف ثمرة الجهاد ناضرةً زاهيةً، وعاش مُبَجّلاً مُكَرّماً في ربوع الإسلام، يعرف له كل بلد مكانه الصريح من الزعامة والتوجيه، إلى أن لحق بربّه في مايو سنة ١٩٦٥، فشيّعته الجموع باكيةً مسترحمةً، وغاب جسده الطاهر في باطن الأرض لتبقى سيرته العَطِرة رمز كفاح باهر، ودليل نجاح شريف.

سيّد بن علي المرصفي
شـــيخ أعـلام النهضة الثقافية

يحسب بعض الواهمين: أن الحديث عن دائـرة الثقافـة العربيـة يبعد بقـارئه عن نواحي النهضة الإسلامية، وهو ظن مُخطىء، لأن الثقافة العـربية في صميمهـا الأصيل ثقافة إسلامية وكتاب الله وسُنّة رسوله ـ عليه السلام ـ هما لُباب هذه الثقـافة عنـد أئمتها الأصـلاء، ممّن ينظرون لـلأدب نـظرةً واسعـةً، لا تقصـره على الشعـر المنحدر والقصص المجوني، بـل تمتدّ بـه إلى شِعاب الفكـر العربي على تـراميها البعيد، وقد كانت كتب التراث العربي أحد روافد النهضة الإسلامية العامّة في هذا العصـر، وبالأدب العـربي المُشـرِق كتبت صحـائف الـدعـوة المعـاصـرة للحـريـة والاستقـلال في أكثر بقـاع الإسلام، فـإذا تحدّثنـا عن عالِم أديب كـالسيد بن علي المرصفي، أو بَحَّاثة موسوعي كأحمد تيمور في هذا الكتاب، فـإننا نمثّـل بهما دور التراث العربي في إذكاء النهضة، وأبدأ بالمرصفي ـ رحمه الله ـ فأقول:

«مـا أظن أستاذاً من أسـاتذة الأزهـر رزق الحظوة في تـلاميذه، والنجـابة في أشباله، كما رزقها الأستاذان: محمد عبده، وسيد بن علي المرصفي، فقد كـانت دروس الأستاذ الإمام في تفسير كتاب الله حقلاً خصيباً، أنتج في ميدان الإصـلاح والتشريع أساتذة أعلاماً، حملوا الرّاية وتقدّموا الركب وحسبك أن يكـون منهم على سبيل المثال: محمد مصطفى المراغي، وعبد المجيد سليم، ومحمد رشيـد رِضا، ومصطفى عبد الرازق.

كما كانت دروس السيد المرصفي روضاً يانعاً آتى أُكُله الشهي، فأنتج رياحين، وأزاهر ذات عبق شذي ومنظر مونق، وحسبك أن يذكر من أبنائه في مجال الزعامة الفكرية، والقيادة الأدبية: مصطفى لطفي المنفلوطي، وأحمد حسن الزيّات، وطه حسين، وعبد العزيز البشري، وعلي عبد الرازق، وزكي مبارك، وأن يذكر منهم في مضمار التحقيق العلمي ونشر آثار السّلف في اللغة والدين: محمود حسن الزناتي، وأحمد محمد شاكر، وحسن السندوبي، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، وأن يذكر منهم في دنيا الصحافة والتحرير: محمد الههياوي، وعبد الرحمن البرقوقي، ومحمد إبراهيم هلال، وفهيم قنديل.

أما الشعراء المُجيدون من طلابه: فأنت تعدّ منهم ولا تعدّهم، إذ تستطيع أن تختار على سبيل المثال: حسن القاياتي، وأحمد الزين، وعلي الجارم، وأحمد شفيع السيد، وإبراهيم الدباغ، ورمزي نظيم، وأستاذ كالمرصفي يترك هذه المؤلّفات الحيّة من الأفذاذ تنشر معارفه، وتذيع هديه، حقيق أن يكتب له في سجلّ التاريخ الأدبي المعاصر صحيفة وضّاءة تتألّق سطورها بالزهو والاعتزاز.

لقد استطاع سيّد بن علي أن يُعيد إلى القاهرة في مطلع هذا القرن مجالس بغداد في أسطع عصورها الزاهية، فكنت تتخيله وقد عكف وحده بين زملائه الشيوخ على دراسة الأدب واللغة إماماً كبيراً من صدور السّلف، كأبي عمرو، وأبي عبيدة، والأصمعي، والخليل، والمبرّد فهو يروي الشعر الجزل، ويناقش التركيب الناشز، ويعالج اللفظ الغريب، ويردّ النسبة المخطئة إلى وضعها الصحيح، ويناقش بعض ما اتّفق عليه من قواعد اللغة والتصريف في ثقة خارقة، وعن بصر نفّاذ.

ولعلّه كان أشبه أسلافه بأبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، فقد كانا يؤثِران أدب العصر الجاهلي ويفضّلانه، وكذلك كان للمرصفي بهذا الأدب وَلَع شغوف، وصبابة حَنَّانة، وإن كان تأخّره الزمني قد أتاح له من استيعاب المعارف المتشعّبة في مختلف فنون اللغة وأبواب العلوم ما لم يتيسّر لهما من قبل، فأينع

درسه بكل شهيّ من ثمار المعرفة، ورأى فيه طلاب اللغة والأدب مورداً عذب المشرب صافي النمير.

على أن ناحية العجب في تاريخ الرجل: أنه كان فذّاً غريباً بين لداته، فقد كانت حلقات الشيوخ من حوله تبدىء وتُعيد في دراسة حواشي مستفيضة، في الشريعة وعلوم اللسان، فلا تزيد على أن تُعيد المكرّر المألوف وتلوكه، وأكثره قد تاه في بحر من المؤاخذات اللفظية والاعتراضات السطحية، وتكلّف الاحتمال البعيد، وتعسّف الردّ الناشز، أما دروس الأدب والشعر: فلم يلمّ بهما غير الشيخ في درسه، وكان ينظر إلى زملائه فيدهشه هذا التكالب المزدحم على دراسة الخلاف اللفظي، والتشقيق الفرضي، ويروعه أن ينصرف العلماء عن أدب اللغة وآثار المتقدّمين من الإخباريين والرّواة، وأنه ليعبّر عن ذلك فيقول في مقدمة كتابه: «أسرار الحماسة»:

«وقد رأيت نفوس القوم مصروفة إلى تحقيق المسائل العلمية، والمباحث العقلية، والعليم عندهم مَن نظر إلى الاستدلال، وأكثر طرق الاحتمال، وولّد ما لا يُولَد، وأوجد من الأفهام ما لا يوجد، ولو علموا ـ هداهم الله ـ ما علمناه من خصائص اللغة وأساليبها، وما أودعت من لطائف الأسرار في تراكيبها، لهجروا تلك الكتب ذوات التنافر والتعقيد، وغنموا لغة القرآن المجيد والحديث الحميد».

وإن رائداً بطلاً يناهض هذا التيّار القوي، فيقف فريداً يدرس الأدب واللغة موقف المُزاحِم المُنافس، حتى يجذب الأنظار إلى حلقته، ويجمع الصفوة من الطلاب على مذهبه، إن رائداً بطلاً يفعل ذلك لجدير أن يطلق اسمه على إحدى قاعات المحاضرات بكليات الأزهر، وأن ينشأ كرسي في كلية اللغة العربية لدراسة آثاره ومَنحاه وشروحه، وأن تطبع مؤلّفاته المخطوطة، ليعلم الناس أيّ أديب فذّ كان المرصفي!! رحمه الله.

لقد كانت كتب الأدب لعهد المرصفي أول هذا القرن مجفوّة مهملة، وكان أكثرها مخطوطاً مَنسيّاً، لا يجد النور في الحياة، وبعض المطبوع منها على قلّته

رديء الطبع سيىء التحريف، كثير التصحيف، فعمد المرصفي إلى أكثرها صعوبةً، وأوعرها مركباً، فأخذ نفسه بدراستها دراسة نافذة فاحصة، فكان الكامل بين يديه يتمّ قصائده، ويشرح عويصه، ويتعرّض لنسبة الأبيات، ويترجم لصاحب الأثر، ويشرح ما تركه المبرّد دون إيضاح.

وكانت أمالي أبي علي القالي كذلك موضع اجتبائه، يناقش لغوياتها المعماة، ويعارض نصوصها المختلفة، ويبحث في المخطوطات المتآكلة عمّا غاب من القصائد، فيكمل ما نقص، وقل مثل ذلك في حماسة أبي تمام، وعقد ابن عبد ربّه، وأراجيز رؤبة والعجّاج، مما ترك أكثره مخطوطاً في ظلمات النسيان!!، حتى جعل للأدب في الأزهر ركناً متين الدعائم، وكانت حالته به إذ ذاك مدهشة مذهلة، يصفها الأستاذ البشري بالرسالة فيقول[1]:

«والأدب في ذلك الوقت: أن تقول شعراً مقفىً موزوناً، فإذا أعوزك العروض، وعميت عليك أوزان الشعر، فحسبك أن يكون المصراع في طول المصراع، على شرط أن تتغزّل: فتتغزّل كلما طلبت مديحاً أو رثاءً أو هجاءً، وكان الأدب يحمد من (المجاور) عند أشياخه، إلّا أن يسرف فيه، ويجرّد له صدراً من وقته، فإنهم كانوا يكرهون ذلك منه، لأنه في الواقع يشغله بقدرٍ ما عن توفير الذّهن على الدرس والاستذكار، ويرون هذا منه آية على (عدم الفتوح)، وحسبه في العام قصيدة يمدح بها شيخه يوم يختم الكتاب، وقصيدة أو اثنتين يرثي بهما مَن يموت مَن علِيّة العلماء، فإذا أمكن الأستاذ: المرصفي في هذا الوسط المعرض أن يجعل مؤلّفات المبرّد، وأبي علي، وأبي تمّام، وابن عبد ربّه، تجد مكانها بين حواشي الآسنوي والصبّان والباجوري والسيوطي والعطّار، فذلك فضل كبير».

وأنت حين تحاول أن تدرس الخطوط الأولى لحياة الشيخ لا تجد ما تطمئن إليه مما كتب عنه أو تناقله تلاميذه، فجميع مَن حدّثتهم عن نشأته العلمية يذكرون أنه تتلمذ في الأدب على السيد عبد الهادي نجا الأبياري، أحد علماء الأزهر

---

(١) الرسالة، عدد ٦٩، سنة ١٩٣٤.

وأدبائه، وأنه تأثّر به تـأثّراً دفعـه إلى الإكباب على دراسـة آثار السّلف المتقـدّم في اللغة والشعر، وأنا شخصياً ـ وقد أكون مخطئاً ـ لا أستطيع أن أقـرّ ذلك، إذ أن مـا لدينا من إنتاج الأستاذ الأبياري شعراً ونثراً وتأليفاً، يخالف منهج المرصفي ومنحاه، بل يقف منه موقف النقيض من النقيض، فنثره مثقل بالبديع المستكره، وشعره نمط من الطراز المملوكي في سطحيته وتكلّفه، وتـآليفه ضـرب من الثقافـة الغابـرة التي تفضّل القشور على اللباب.

ويكفي أن تعرف أنه أصدر كتاباً في مجلدين كبيرين، جعله يـدور على لغز ذهني في اسم الخديوي إسماعيل، ثم استطرد فذكر فنوناً من القول لا يجمعها في نطاق واحد غير التكلّف والإرهاق، وقد يكون الرجل معذوراً فيما يصنع، لأنه يمثّل ثقافة عهده واتجاه معاصريه، ولكنه مـع ذلك لا يمكن أن يتخـرّج على يديـه أديب فحـل مطبـوع كالمـرصفي العظيم، وربمـا أكبّ الـطالب على حلقـات أستـاذه في طفولته الأدبية، ثم بَدَا له أن يتحوّل عنها دون أن يترك أثراً ما في اتجاهه ومشـربه، وكم من تـلاميـذ شـافهـوا بعض الأسـاتـذة دون أن ينتفعـوا بمـذهبهم في الـرأي، ونظرتهم للعلم.

وقـد هداني الـرأي المتئـد إلى أن أميـل إلى أن الأستـاذ: حسين المـرصفي الأول صـاحب (الوسيلة الأدبيـة) هو: أستـاذ المرصفي الثـاني وملهمـه، فصـاحب الوسيلة قد شذّ على متعارف جيله، ورجـع بالشعـر إلى أخصب عصوره في الأدب العباسي، وعلى يديه تخرّج البـارودي شاعـراً فحل التـركيب ناصـع العبارة، رائـع البيان، والرجـلان بعد من قـرية واحـدة، وللكبير مكـانة لـدى الصغير، فـلا بدّ أن تكون «الوسيلة الأدبية» قد هدت صاحب «رغبـة الأمل» إلى مَعِين لا ينضب من البيـان، فبحث عن الأدب اللباب مما حَوَته بـادئاً، ثم تخـطّى العصر العبـاسي إلى عصريّ الجاهلية وصدر الإسلام، فذهبا بإعجابه كل مذهب، وطفق يبحث عمّا ضمّ أدبهما من الكتب، فقـرأ القـديم من آثـار الجـاحظ والمبـرّد، وابن قتيبـة، وأبي الفــرج، وتخرّج وحده على الآثـار السلفية، أديبـاً فحلاً، ونـاقداً لا يُشقّ لـه غبار، على أن

هـذا الهيـام الكَلِف بكتب اللغـة والأدب لم يمنعـه أن يـدرس حـواشي الشـريعـة والأصـول، ويلمّ بالنحـو والصّرف إلمـام مَن يدرك القـاعدة العـامّيّة، إدراك النـاقد المتفرّس ونظرة مُنصِفَة إلى شرح الكامل تدلّ على ثقافة الرجل وإحاطته.

فهـو يناقش سيبـويه، والمبـرّد، وابن جنّي، والمازني، والخليـل، في دقائق غامضة، من قواعد النحو والصرف، فيناهض دليلاً بـدليل، وقـاعدة بقـاعدة، حتى ليخيّل إلى القارىء أن الرجل صاحب نحو فقط، وليس أديبـاً جامعـاً يأخـذ من كل فن بجوهره الأصيل.

وإذا كنت لم أقف على ترجمة دقيقة لتاريخ الأستاذ، تأخذ بيـدنا في تحـديد مركزه الأدبي في تاريخ الثقافة المعاصرة، فإن ما ذكره تلاميـذه الكثيرون عنـه، في نُبَـذ سريعـة، وشذرات مـوجزة، تكفي لأن تصـوّر مـلامحـه إذا جمـع بعضهـا إلى بعض، وهي بعدُ أقوال مخلصـة، لم تدفـع بها رغبـة مغرضـة في تملّق إنسان، إذ كتب أكثرها بعد وفاة الشيخ من ناحية، وبعد أن أصبـح المتحدّث في منـزلة أدبيـة تجعله فوق المَلَق الرخيص من ناحية ثانية.

على أننـا لا نستطيـع أن نسـرد جميـع مـا قيـل، وإنمـا نكتفي بـالبعض عن الجميع. . . فالدكتور: طٰه حسين يحدّد مكانة أستاذه بين نقّاد اللغة وأساتذة الأدب في عصره فيقول في كتابه: «تجديد ذكرى أبي العلاء»:

«أستـاذنا الجليـل سيّد بن علي المـرصفي أصحّ مَن عـرفت بمصـر فقهـاً في اللغة، وأسلمهم ذوقاً في النقد، وأصدقهم رأياً في الأدب، وأكثرهم روايـةً للشعر، ولا سيما شعر الجاهلية وصدر الإسلام.

كـان يدرس الأدب في الأزهـر الشـريف، وبـدأت أختلف إليـه، ولمّـا أعْـدُ السادسة عشـرة، فلزمته أربـع سنين، ما أذكـر أني انقطعت عن درسـه، أو تخلّفت عن مجلسـه، ولم يقف الأمر بيني وبينـه على مـا يكـون بين الأستـاذ والتلميـذ من صلة، بل نشأ بيننا نوع من المحبة يشوبهـا في نفسي الإجلال والإكبـار، وفي نفسه

العطف والحنان، وتبعث كلينا على أن يتعصّب لصاحبه، ويناضل عنه، على نحو ما يكون بين الأبناء البَرَرة والآباء المثقفين.

سعدت بهذا الحب قديماً، وسأظلّ سعيداً به طول الدّهر، لأنه صادف قلبي في غضارة الطفولة، ونضارة الصّبا، ولأنه حبٌّ مصدره العلم، لم تفسد عنصره المادة، ولم تكدّر جوهره مآثم هذه الحياة. حبّ الأستاذ ودرسه قد أثّرا في نفسي تأثيراً شديداً، فصاغاها على مثاله، وكَوَّنا لها في الأدب والنقد ذوقاً على مثال ذوقه.

إيثارٌ للبدوي الجزل على الحضري السهل، وكَلف بمناحي الإعراب في فنون القول، ونبوّ عن تكلّف المولدين لأنواع البديع وانتحالهم لألوان الفلسفية والمنطق، وبُغض شديد لحكم الضرورة في الشعر، واللفظ السهل المهلهل يقع بين الألفاظ الجزلة الفخمة، إلى غير ذلك مما هو إلى مذهب القدماء من أئمة اللغة ورُواة الشعر أدنى منه إلى مذهب المحدثين من الأدباء والنقّاد.

كلّ قديم في هذا المذهب جيّد خليق بالإعجاب لرصانته ومتانته، وكلّ جديد فيه رديء سفساف لحضارته وهلهلته، فإن كان من المحدثين مَن أخذ نفسه بمذاهب القدماء، فسلك مسالكهم، وتأثّر خُطاهم فهو حقيقٌ أن نقرأه وننظر فيه، وإلاّ فدرسه لألسنتنا فساد، ولملكاتنا كساد، وعلينا أن نُلقي بيننا وبينه من الصدّ والإعراض حجاباً صفيقاً».

ويعود الدكتور إلى الحديث عن منهجه الأدبي في مقدمة كتابه: «الأدب الجاهلي» فيقول: «ومذهب القدماء ما كان يمثّله الأستاذ الشيخ: سيّد الرصفي حين كان يفسّر لتلاميذه في الأزهر ديوان الحماسة لأبي تمّام، أو كتاب الكامل للمبرّد، أو كتاب الأمالي لأبي علي القالي، ينحو في هذا التفسير مذهب اللغويين النقّاد، من قدماء المسلمين بالبصرة والكوفة وبغداد، مع ميل شديد عن النحو والصرف، وما أَلِفَ الأزهريون من علوم البلاغة».

وكلام الدكتور عن أستاذه يتّفق مع حديث الأستاذ: أحمد حسن الزيّات عنه إذ يقول[١]:

«كان أستاذنا المرصفي يطبعنا في النظم: على غرار الحماسة، وفي النثر على غرار الكامل، ويزيّن لنا أن ننظم مُعَلّقة كطرفة، أو نُنشىء خبراً كأبي عبيدة».

فشهادة هذين الأديبين الكبيرين تؤكد: أن الرجل كان مُولَعاً بالشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام، كَلِفاً بالغريب من القول، والعويص من التراكيب، متّجهاً إلى الذخائر السلفية العريقة في شرحه وتفسيره، وإن كنّا نقف قليلاً عند ما قاله الدكتور: طٰه حسين بصدد انصرافه الشديد عن مباحث النحو والصّرف، لأن ما لدينا من شرحه للكامل ـ وهو في مجموعه صورة أمينة لما ألقى في حلقات دراسته ـ لا يؤكد هذا الانصراف الشديد.

فللمرصفي مع أعلام النحاة والصرفيين مواقف كثيرة، تدلّ على الميل المقتصد لا على الانصراف العازف، ولكنه لم يتّخذ الحديث النحوي مجالاً للمُماحكة اللفظية والغرض الجدلي، مما امتلأت به حواشي المتأخرين، واتجه إليه زملاؤه من الأزهريين، بل نهج منهج الكسائي، وسيبويه، والمبرّد في التصدّي إلى الجوهر دون العرض، أما طريقته البارعة في إنشاء الشعر، وشرح الغريب: فقد ألمح إليها تلميذه الأستاذ محمود محمد شاكر حين قال عن أستاذه[٢]:

«وكان الشيخ حسن التقسيم للشعر حين يقرؤه، فيقف حين ينبغي الوقوف، ويمضي حيث تتّصل المعاني، فإذا سمعت الشعر وهو يقرؤه فهمته، على ما فيه من غريب أو غموض أو تقديم أو تأخير أو اعتراض فكأنه يمثّله لك تمثيلاً لا تحتاج بعده إلى شرح أو توقيف، وكان في صوت الشيخ معنىً عجيب من الثقة والاقتدار، وفي نبراته حين ينشد الشعر معنى الفهم للذي يتلوه عليك، فلا تكاد تخطىء المعاني التي ينطوي عليها، لأنها عندئذٍ ممثّلة لك في صوته».

---

(١) الرسالة، العدد ٤٠، سنة ١٩٣٤.

(٢) الرسالة، العدد ٦٩٦.

فإذا أردت بعد ذلك أن تعرف كَلَف طلّابه بدرسه، فإليك ما حدّثنا به عنه أستاذنا الكبير: أحمد شفيع السيد في إحدى محاضراته بكلية اللغة العربية، حين جاء ذكر المرصفي، فأفاض في تعداد مواهبه، وكان مما قال ـ معنىً لا لفظاً ـ:

«إن درس الشيخ كان لا ينتهي بالأزهر حتى يبتدىء في منزله، لأن أفواج الطلّاب كانوا يتزاحمون على السير معه في الطريق إذا نهض إلى بيته، فإذا أتاه دخل معه نجباء أبنائه، فأخذوا تحيتهم العاجلة، وظلّوا وإياه في سَمَرٍ أدبي مُشبَع بالحب والاعتزاز، وكانت الكتب الأدبية تتراءى في حُجرة الشيخ مركومةً متراصّةً عن يمين وشمال، يقرأ فيها الطلاب كما يشاؤون، ويستعيرون ما يريدون في شغفٍ ونَهَمٍ وإقبالٍ ودودٍ».

هذه نصوص مختلفة للأجلّاء من تلاميذه المُختارين، وأظنها ترسم صورة واضحة عن منهجه وخلقه، وقد أبدع الدكتور: زكي مبارك إبداعاً موفّقاً، حين لخّص ريادته الأدبية، وقيادته العلمية، في مواقف محدودة، فجاءت كلمته الصائبة في إيجازها الشامل، لسان صدق وميزان تقويم، فهو يقول عن أستاذه في اعتزاز[1]:

«كان الشيخ المرصفي أول رجل تسامى إلى نقد مؤلّفات الأكابر من القدماء، وكان أول رجل أقَرّ كرسيّ الأدب بالأزهر الشريف، وكان أول رجل جعل للأديب مكانة بين جماعة كبار العلماء، فكان بتلك الصفات أوحد عصره بلا جدال».

وتسامي الأستاذ ـ رحمه الله ـ إلى نقد مؤلّفات الأكابر من القدماء كان حَدَثاً غريباً في بابه، إذ أن زملاءه حينئذٍ كانوا يتعبّدون بأقوال السّلَف من أُولي العلم، فإذا اضطر أحدهم إلى مخالفة مؤلّف سابق جعل يتلمّس له المعاذير، في وَجَلٍ وهيبةٍ، وكأنه يركب مَطِيّة ناشِزَة، لا تؤمَن مع حياة، فجاء السيد المرصفي ليحاسب المبرّد، وأبا تمّام، وأبا علي، وابن عبد ربّه، محاسبةً قويّةً مُفحِمةً، فهو في

---

(١) الرسالة، العدد ٣٩٨.

شروحه المتتابعة للكامل والحماسة والأمالي والعقد[1]، كان صلب المِراس، قويّ المؤاخذة، شديد العناد، مما دفع بعض المتسرّعين من الأساتذة إلى وصف الرجل بالغرور والادّعاء!!.

وإذا كان أكثر هذه الشروح الرائعة لا يزال مطموراً في دفائنه الخطّيّة، فإننا نأمل أن يرى النور إذا فطنت إليه لجنة إحياء التراث القديم، في وزارة الثقافة والإرشاد، وحسبنا اليوم، أن نحكم على صنيعه بالمبرّد في الكامل، فهو الوثيقة الميسّرة للباحثين، وبه يتّضح الحكم عن حيدة وإنصاف.

لقد اعترف السيد المرصفي في مقدمة الجزء الأول من شرحه الكبير: «أنه لم يجعل من رغبة الآمل شرحاً تفسيرياً لنصوص الكامل فقط، بل اهتمّ ببيان ما حادَ فيه أبو العباس عن سنَن الصواب من خطإٍ في الرواية، وخطلٍ في الدراية، إذ كان المبرّد يعتمد كثيراً في لفظه على جُودة حفظه، فربما نزع في غير منزع عن القصد سهمه، أو صعد في الأدب مرتقىً زلّت به إلى الحضيض قدمه»[2].

فهو إذن يجعل من همّه الأصيل بادىء ذي بدء، أن يكشف عن أخطاء المبرّد، معتقداً أن صنيعه هذا أمر محتوم، تُوجِبه الدراسة الناقدة والنظرة الفاحصة، ولو كان الشارح قد سجّل على المبرّد سقطاته، وستر محاسنه، لقلنا: إنه متحيّز مُمالىء!!، ولكن المرصفي يُنصفه من خصومه تارةً، ويُنصف الحق منه تارةً أخرى، وإذا كان لنا أن نميل عليه في شيء، فإننا نؤاخذه على قسوة العبارة في كثيرٍ من التعليقات، فقد كان من اللائق أن يطرد النقاش في هدوء العالِم، وسماحة الحليم!!.

على أن المسألة نفسية قبل كل شيء، فقد يكون المرصفي إذ يكتب بعد التعليقات هادىء الخاطر مستريح البال من بعض هواجسه، فيقابل الخطأ الكبير من

---

(١) كان المرصفي يسمّيه: «العقد» بضم العين وفتح القاف.
(٢) رغبة الآمل، جـ ١، ص ٣٨.

المبرّد بكثيرٍ من التسامح، فلا يزيد عن أن يقول: غلط أبو العباس أو سَهَا أبو العباس، وقد يكون ضائق الصدر لبعض المحرجات من شؤون الحياة، فيضيق صدره لأدنى سهو، ويهاجم الخطأ اليسير مهاجمةً قاسيةً، فإذا نسب المبرّد بيتاً من الشعر لغير قائله، قال المرصفي في غلظة: كذب المبرّد[1]، وإذا بدّل سهواً كلمة مكان كلمة قال المرصفي في قسوة: هذا خلط وجهالة[2]، وإذا رأى الناقد قولاً في اللغة ينفرد به صاحب الكامل ردّه وقال: هذا مما انفرد به!!.

ولست مع المرصفي في ذلك إذ أن مَن حَفَظَ حجّة على مَن لم يحفظ، وقد يكون أبو العباس مطّلعاً على ما لم نطّلع عليه مما غابت دفائنه، وانقطعت روايته، وأولى بالناقد أن ينظر إليه كراوية صدوق، على أن نقد الناقد في أكثر مناحيه يرجع إلى ذوق شخصي، قبل أن يرجع إلى وضع منهجي.

وقد أدركنا من قراءة الكامل وشرحه سِعَة علم المبرّد وكثرة محفوظه، كما لمسنا دقّة فهم المرصفي، ورقّة ذوقه، ومن هنا: اتّسع المجال أمام الشارح للردّ والمؤاخذة، فقد جعل يُوازِن بين الروايتين، ويُفاضل بين النصّين، فيهديه ذوقه إلى ما يرفض به رواية صاحبه عن ثقة واطمئنان، فإذا روى المبرّد ـ مثلاً ـ قول الشاعر في هجاء الحجّاج[3]:

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر

قال المرصفي: هذا خطأ، والصواب: رواية ياقوت في معجم البلدان، وتعليمه صبية الكوثر، والكوثر قرية بالطائف كان الحجّاج معلّم صبيانها، والحقّ مع المرصفي، لأن معلّم القرآن الكريم لا يعلّم سورة الكوثر فقط بل يعلّم غيرها، فلا وجه لتخصيصها بالذكر دون حادثة معينة يظن أن الشاعر قد اطّلع عليها، أما رواية صبية الكوثر: فمنزّهة عن الاعتراض.

---

(1) رغبة الآمل، جـ٣، ص ١١٦ وغيرها.

(2) المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٥ وغيرها.

(3) المصدر السابق، جـ٥، ص ٣٨.

وإذا روى المبرّد ـ ثانياً ـ قول القائل(١):

فيـا بعـل سلمى كم وكم بـأذاتهـا ... عـدمتـك من بعـل تـطيـل أذاتي
بنفسي حبيب حـال بـابـك دونـه ... تـقَـطّع نـفسي دونـه حسـراتي
ووالله لـولا أن يـسـاء لـرعتـهـا ... بمـا ليس بـالمـأمـون من فتكـاتي

قال المرصفي مهتدياً بذوقه السليم: الرواية لولا أن تساء لرعته، وهـذا حق، لأنه يقصد ترويع الزوج وإفزاعه، ويحرص على سلمى وهدوئها الأمين.

وقد يكون للفظ اللغوي معانٍ مختلفة، فيفهمه المبـرّد في سياق خـاصّ على غير وجهه، ولكن ذوق المرصفي من ورائه يشيـر إلى الخطأ في بصيـرة نفاذة وفهم عميق، فقد ذكر المبرّد مثلاً قول الشاعر(٢):

منعّـمـة بيـضـاء لـو دبّ محـول ... على جلدهـا بضّت مـدارجـه دمـاً

فجعله شاهداً على أن بضّت مأخوذة من بضّ يبضّ بضـاضة بـالفتح والكسـر في المضـارع إذا رقّ لونـه وصَفَا، ورآه المـرصفي من بضّ يبضّ بالكسـر فقط إذا ترشّح من صخر أو حجر، والمصدر البضّ والبضيض لا البضاضـة بمعناهـا الأول، كما فهم المبرّد. وتلك لعمري دقّة بالغة في الفهم تـدعو إلى الاحتـرام النّزيـه ولها نظائر وأشباه(٣).

أمـا إنصـافـه المبـرّد وردّه على خصـومـه، فقـد تكـرّر كثيـراً في صفحـات الكتاب(٤)، وهو برهاننا الذي لا يدفع على أن الرجل لا يريد انتقاص صاحبه، ولا يتكلّف الادّعـاء مغترّاً بمـا علم، كما وهم الـواهمون، ولكنهـا جمحـات القلم في ظروف خاصّة، تدفع صاحبها إلى بعض الشّطَط، ثم يُعاوده الهدوء المتّزن، فيميل

---

(١) رغبة الآمل، جـ ٢، ص ٥١.
(٢) رغبة الآمل، جـ ٢، ص ٤٢.
(٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ٨٧ وغيرها.
(٤) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٤٨، وص ٢١٧.

إلى النصفة والاعتدال، ولو كان المرصفي يرى المبرّد غير ثقة فيما يقول، ما عكف على شرح الكامل وتدريسه، فقطع زهرة شبابه في تفهّم أسراره، واكتناه مراميه، وجاء شرحه الفخم في أجزائه الثمانية دليلاً ملموساً، على أن المبرّد قد عاد إلى الحياة مرةً أخرى بالأزهر، واستبدل القاهرة بحاضِرَة العباسيين.

وقد عاش الرجل العظيم مُقَدَّراً مهيباً بين تلاميذه ورؤسائه مرموق المكانة في محيطه وأمته، فكان في شبابه موضع احترام الأستاذ الإمام وتقديره، ثم اختِير في كهولته عضواً بارزاً في جماعة كبار العلماء ليحفظ بها للأدب مكانته، ولم يفارق الحياة سنة ١٩٣١ حتى رأى بعينه أبناءه في حلقات الدرس، يقودون زمام الرأي في مِضمار الصحافة والتأليف، ويتسنّمون زعامة الفكر في أقطار العروبة، فقرّ عيناً بما غرس، وأدرك أن دوحته الوارفة قد آتت من كل زوج بهيج.

محمــد الخضري
المــؤرّخ، البحّــاثة، الأديــب

- ١ -

قال الأستاذ عباس محمود العقّاد في كتابه: «رجال عرفتهم» ص ١٧٩:

«من بعد جمال الدين، ومحمد عبده، أصبح من هَمّ كـل ناشىء أن يصبح أستاذاً إماماً، أو نمطاً آخر من جمال الدين، ومن هنا: نشأت مدرسة رشيد رِضا، ومصطفى المراغي، وطنطاوي جوهري، وعبد الحميد الزهراوي، ومحمد الخضري، ومحمد المهدي، والنجار».

وكلام العقّاد مع ما يتضمن من التهكّم المستتر، يعبّر عن واقع صريح، فإن أثر جمال الدين ومحمد عبده قد انتقل إلى كل دارِس يهتم بالثقافة الإسلامية من بني الإسلام، وفي هؤلاء الدارسين مَن مَثّل دوراً كبيراً كان مما يسرّ هذين المُصلِحَين الكبيرين أن يمثّل، بل إن جهود هؤلاء التلاميذ كانت باعثاً قوياً على ذيوع آراء الإمامين الخطيرين! ولو قُدّر لهما أن يفقدا هذه النخبة المختارة من هؤلاء الحواريين الأعلام، لذهبت تعاليمهما الخالدة أدراج الريح، وذلك شيء معروف في تاريخ العلم، ولعلّ من شواهده أن أكثر أئمة المذاهب الفقهية، قد تركوا من التلاميذ أضعاف ما تركوا من المصنّفات، وبتلاميذهم المختارين أصبح لكل إمام منهم مذهب معتمد الأصول، ممتدّ الفروع والأحكام.

وقد صاحب الأستاذ: محمد الخضري شيخه الأستاذ الإمام: محمد عبده مصاحبة علمية مُثمِرة، فقرأ كثيراً من الكتب بإشارته، وألّف بعض البحوث بتوجيهه، وحَذَا حذوه في الأخذ من العلوم النافعة باللباب المتخيّر، وقد عبّر فَقيد البيان الإسلامي الأستاذ: مصطفى صادق الرافعي عن ذلك أصدق تعبير، حين قال بالجزء الثالث من وحي القلم ص ٤٠١ ص ٧:

«إن الذي يريد أن يقول قولاً صحيحاً في هذا الفقيه العالِم المؤرّخ الأديب، يجب أن يرجع بتيّاره إلى منبعه، ليعرف مبلغ انبعاثه وقوّة جريته ومدّ عبابه، فما كان الخضري شيئاً قبل أن يتعلّق بمدار ذلك النجم الإنساني العظيم، الذي أهدته السماء إلى الأرض، وسَمّى في أسمائها: «محمد عبده».

لقد أخرجته دار العلوم كما أخرجت الكثيرين، ولكن دار علومه الكبرى كانت أخلاق الأستاذ الإمام وشمائله وآراءه وبلاغته وهمّة نفسه، إلاّ أنه لا بدّ من رجل واحد يكون هو الواحد الذي يبدأ منه العدد في كل عصر، وأنت إذا تأمّلت الخضري فاعلم أنك بإزاء معنىً من معاني الشيخ: محمد عبده، على فرق ما بين النفسين، بل أنت من الخضري كأنك ترى الشيخ سارياً في مظهر من مظاهر الزمن».

ولقد كان الأستاذ الإمام في بعض نواحي تجديده داعية إلى تذليل الكتب المعقّدة، وإعادة تدوين العلوم الإسلامية والعربية بلغة العصر، وقد بدأ من ذلك برسالة التوحيد، فجدّد أعوص مسائل علم الكلام، بأسلوب شفّاف مُبين، ينضح بعبير القرآن، فجذب بذلك تلميذه الأستاذ: محمد الخضري إلى تذليل علم الأصول في مذكّرات واضحة شارِحة، وكتب الأصول كما يعلم جمهرة المثقفين بالعلوم الإسلامية من أعقد الكتب وأعوصها فهماً واستشكالاً، وأشدّها مجاذبة للفكر في تيارات غامضة عسيرة، لأن الأئمة الذين دوّنوا مسائل هذا الفن، سواء على طريقة المتكلمين من البحث على مذهب علم التوحيد في الاستدلال، من غير التفات إلى موافقة فروع المذهب لها أو مخالفتها إياه، أو على طريقة الحنفية

التي تُراعي تطبيق الفروع المذهبية على قواعد العلم، إذ تدور بـه دوراناً لا يتـرتّب عليه مخالفة حكم فرعي للأحناف!!.

هؤلاء الأئمة الأوائل قد خلف من بعدهم خلف سلكوا في التأليف الأصـولي مسلك الاختصار والإيجاز والألغاز، حتى صارت كتاباتهم الأصولية أحـاجي تتطلّب التفسيـر، وكأنهم لم يكـونوا يكتبـون للفهم، بل للتحـدّي، فـاحتـاجت كتبهم إلى شروح وحَوَاشٍ وتقـارير!، ومصيبـة هذه الشـروح: أنها كـانت تُثير الغبـار ولا تُنير الطريق، فهي تستشكل، وتجيب قبـل أن توضـح وتشرح، ويـدور النقاش شجـون ملتوية لا يهتدي في ظلامها غير الأقل الأندر من ذوي الجلد البصير!.

وكـان من محـاسن الصُّـدَف السّـارّة لـطلّاب هـذا العلم: أن يقـوم الأستـاذ الخضـري بتدريسـه ابتداءً في كليـة غوردون بـالسـودان، ثم في مـدرسـة القضـاء الشرعي تالِياً فيخطو الخطوة العلمية في إزاحة الدياجير المتراكمة حول هذا العلم، ويجد من الأستاذ الإمـام مرشـداً وهاديـاً، وإن الشيخ ليتحـدّث في مقدمـة كتابـه: أصول الفقه عمّا يشير إلى ذلـك فيقول ص ١٠ ط ٣: «وفي سنـة ١٩٠٥ كُلِّفْتُ أن أُملي دروساً في أصول الفقه على طلبة كلية غوردون، الـذين يُرَبّـون ليكونـوا قضاة بمحاكم السودان الشرعية، فبذلت الجهد في أن أجعل ما أُمليه عليهم سهل العبارة واضح المعنى، ورأيت أن لا فائـدة من إكثار المـوضوعـات مع استغـلاق الألفاظ، فكنت أختـار لهم المسائـل معتمداً على أصـول البزدوي، وشـروح ابن الحاجب، وتنقيح الأصول، وشرح الأسنوي للمنهاج.

وصادف بعد ذلك أن زارنا الأستاذ الإمام الشيخ: محمد عبـده ـ عليه رحمـة الله ـ، فأحببت أن أعرض عليه ما كتبته ليكون عندي شيء من الاطمئنان، فعرضته عليه، فقرأ كثيراً منه، وناقش الطلاب في بعض مسائله، وأثنى على ما كتبته خيراً، ولكنه أشار عليّ أن أُطالع كتاب الموافقات للشاطبي، وأمـزج ما أُملي بشيء منـه، ليكون في ذلك لفت نظر لطلاب هذا العلم إلى معرفة أسرار التشـريع الإسـلامي، فـاستحضرت هـذا الكتاب، وأخـذت أطالعـه مرّات، حتى ثبتت في نفسي طـريقة

الـرجل، وجعلت آخـذ منه الفكـرة بعـد الفكـرة، لأضعهـا بين مـا آخـذه من كتب الأصول، حتى جاء بحمد الله ما أمليته وفق مرامي، وعلى قـدر حاجـة الطلاّب في تلك البلاد النائية... إلخ».

وكتاب الخضري ـ فيمـا بعد ـ: مشهـور متداول، وقـد حَذَا حـذوه مَن كتبوا حـديثاً في الأصـول من أساتـذة كليّتي الحقوق والشـريعة الإسـلامية بمصـر، وكان سابِقة هادية في هذا الأصل القوي من أصول العلم.

ولعـلّ القارىء بعـد ما ذكـرناه من أثـر الأستاذ الإمـام في تلميـذه الخضـري يعجب لتشارلز أدمس صاحب كتاب الإسـلام والتجديـد في مصر: إذ يغفـل الشيخ الخضري فلا يعدّه من تلاميذ الإمام، في حين يـذكر أنـاساً لم ينتفعـوا بخيره، بـل ناوؤوه مناوأة العدو الحاقد، فيعدّهم من مـدرسة التجـديد، ثم يمـرّ كتابـه دون نقد لافت!، وهو في حاجة ماسّة إلى التصويب!.

ـ ٢ ـ

لقد ولد الأستاذ: محمد الخضري في بيئة دينية صالحة سنة ١٨٧٢، فـأبوه: الشيـخ عفيفي الباجـوري من علماء الأزهـر كان خـطيباً وإمـامـاً لمسجـد قـاهـري بـالحلمية، وكـان من أنصار بعض الـطرق الصوفيـة، وله شيـخ يسمّى الخضـري، فسمّى ابنـه: (محمد الخضـري) تيمّناً بـه، وكان يُـظَنّ أن الخضري لقب عـائلته، وليس الأمـر كذلـك، فنحن نعـرف أن الأستـاذ عبـد الله عفيفي الأديب المصـري، صاحب كتاب «المرأة العربية» هو شقيق الشيـخ الخضري، ولكنـه حمل اسم أبيـه دون أخيـه وليس معنى ذلك: أن الشيـخ دُعِيَ إلى غير والـده، ولكنه سُمّيَ بـاسم شيخ أبيه، واقتصر في التوقيع على اسمه المركّب، إذ به اشتهر!!.

وقد أشرنا إلى هذه الحقيقة لندرك البيئة الصّوفيّة التي نشأ في رِحابها الشيخ، فهي بيئة تقوى وعبادة، وطبيعي أن يشبّ وليدها متّجهاً إلى حفظ القرآن في الأزهر الشريـف، ثم التحق بدار العلوم سنة ١٨٩١، وتخرّج منها سنة ١٨٩٥ وعُيّن مُدَرّساً للعربية بمدارس المنصورة وشبين الكوم والناصرية، ثم اختير قاضيـاً بالسـودان سنة

١٩٠٢، فأستاذاً بكلية غوردون سنة ١٩٠٤، فأستاذاً بمدرسة القضاء الشرعي بمصر سنة ١٩٠٧ وظلّ بها إلى سنة ١٩٢٠، مع اشتراكه في تدريس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية، حتى انتقل إلى التفتيش بوزارة المعارف، وما زال مفتّشاً إلى أن لَقِيَ ربّه سنة ١٩٢٧، عن خمسة وخمسين عاماً، كما يُنبىء بذلك ملفّ خدمته، ولكن صورته الشمسية ذات اللّحية الكثيرة البياض تُعطي أكثر من هذه السنّ، فربما تأخر تدوين ميلاده بضعة أعوام، كما كان ذلك ذائعاً في أواخر القرن الماضي، إذ أن الحرص على تدوين كل مولود لم يأخذ طابعه الجدّي إلاّ بعد مفتتح القرن العشرين!.

وقد يكون تعجيل الشيب وتكاثر الغضون من آثار الجهد العلمي لكاتب متوثّب لم يُرِحْ نفسه يوماً واحداً من القراءة والتأليف وقديماً قيل:

وما شابَ رأسي سنين تتابعت   عليَّ ولكن شيّبتني الوقائع

كان أول كتاب ألّفه الأستاذ الخضري هو: «نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين»، وعنوانه مسجوع كما يرى القارىء إذ يمثّل تفكير مُدرّس مبتدىء تخرّج حديثاً من دار العلوم، ثم عُيّن بالمدرسة الصناعية بالمنصورة، فلم يتقوقع في مدرسته، بل اتصل بالجمهور الثقافي في المدينة، وحاضر وناظر، ودارت له شُهرة بين المثقفين، جعلت قاضي المحكمة الأهلية يقترح عليه: أن يؤلّف في سيرة الرسول كتاباً يقرّبها من الناشئة وذوي التعليم المدني، ممّن لا يصبرون على قراءة صُحُف القدامى من المؤرّخين!.

ويخيّل إليَّ أن فكرة تذليل الكتب القديمة بمحاولة تأليف عصري يقدّم خلاصتها السّهلة، قد نجمت لدى الشيخ منذ عزم على تأليف نور اليقين، فأكبّ على وضع ملخّص سهل لسِيرة الرسول، ولم يكن من همّه أن يناقش الحوادث، ويعلّل النتائج، ويصحّح المَرويّات، بل إن شعور المؤمن بضرورة تقريب حياة الرسول كما رَوَتها كتب الثقات قد صرفه عمّا سوى السّرد المتتابع في سهولة وإيمان.

وقد أخذ بروايات الكتب القديمة كما جاءت، وأفاض فيما نسب إلى الرسول من معجزات دون أن يحاول دعمها بحِجَج العلم والمنطق، وكأنه يرى: أن المعجزة في معناها الأول عمل خارق يعجز العقل أن يقف على سِرّه، فمحاولة تعليله بتفسير منطقي مما يخرج به عن معنى المعجزة الخارقة إلى حدث معقول تلتمس له المبرّرات، وقد رزق كتاب: «نور اليقين» حظوة بالغة، حيث تعدّدت طبعاته في حياة صاحبه، وبعد وفاته إلى الآن، حتى قاربت العشرين ونحن نحمد له أن نأى عن مبالغات سابِقِيه، ممّن يسجّلون كل غريبة، كما تخفّف من حذلقة بعض المحلّلين، ممّن يهمّهم أن يبرزوا شخصياتهم بالتعليل المتمحّل، والتفسير المغتصب، وكأنهم لا يعنون بتوضيح الحقائق قدر ما يعنون بإظهار براعاتهم الكتابية، !!.

ثم أعقب الخضري كتاب: نور اليقين بمؤلّف عن الخلفاء الراشدين دعاه: «إتمام الوفاء في تاريخ الخلفاء»، سلك فيه مسلكه السّلفي من عرض المرويّات المأثورة!، دون أن يتخرّص في نقد لبعض الحوادث والأشخاص، بل آثر ألّا يحكم بشيء في نحو الخلاف بين معاوية والإمام عليّ ـ كرّم الله وجهه ـ، وهو مسلك نعرفه لدى المُحافظين ممّن يعزّ عليهم أن تكون سِيَر صحابة رسول الله موضع النقد والتجريح!، ولكنه مع ذلك شيء وكتابة التاريخ شيء آخر وقد تخلّى الأستاذ عن خطّته المُسالِمة نوعاً ما فيما كتبه بعد ذلك من صحائف التاريخ.

لقد كان «نور اليقين» و«إتمام الوفاء» فجراً صادقاً لبحوث تاريخية هامّة، اضطلع بها الأستاذ عن جدارة واستحقاق إذ أسند إليه منصب أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية فعكف على تمحيص الكتب القديمة عكوف المخلص الدؤوب وكانت مهمته من المشقّة والعُسْر بحيث تتطلّب الجَلَد المستميت والسّعي الحثيث، إذ أن آثار القدامى من أمثال الطبري وابن الأثير وأضرابهما من رجال التاريخ، قد كتبت أحداثها وفق السنوات لا الوقائع والأشخاص.

فأنت مُطالَب بقراءة مؤلّف كامل لتتبّع حادثة، أو تتعقّب سيرة، كما كانت طريقة الحشد والجمع ورواية الصحيح والخطأ، مما يُثقِل كاهل الباحث لأن أمثال

الطبري كانوا يسجّلون كلّ ما يقعون عليه، وفيه ما تظهر لديهم دلائل تكذيبه، إذ همّهم الأوفى: يتّجه إلى الرصد لا التحقيق، فمهمّة المؤرّخ كما فهمها أكثر هؤلاء، هي الإحاطة بكل ما قيل، كما يحرص وكيل النائب العامّ أن يدوّن جميع ما يسمع من الشهود صواباً أو خطأً في محضر التحقيق، ثم يأتي بعد ذلك دور الترجيح والتخطئة، إذا قدّمت للقارىء جميع الوثائق والأسانيد!.

هكذا فهم مؤرّخو العرب الأُوَل كتابة التاريخ، فحشدوا من المَرويّات الصادقة والزائفة ما تتطلّب من المؤرّخ المُعاصر يقظة البصيرة، وسلامة الإدراك، ودقّة التخيّل الصائب للوقائع، كما يعقل أن تكون!، وقد أدرك الأستاذ: الخضري دقّة مهمته، فتحدّث في مقدمة الجزء الأول من تاريخ المحاضرات الإسلامية عن واجب المؤرّخ حيث قال:

«وكثيرٌ ممّن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكّم في حوادثه تحكّماً تضيع به الفائدة من دراسة التاريخ، فإن عاطفة الحبّ تجعل كلّ ما ليس بحَسَن حَسَناً، وتجتهد في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة، حتى ما أدّى منها إلى سقوط فاعله وخيبته، وعاطفة الكراهة تدعو إلى ضدّ ذلك، فتجعل الحَسَن قبيحاً، وتستنبط من الخير شرّاً، ولم يخلص من هذا الشرّ العظيم الذي يطمس معالِم التاريخ، ويضيع الفائدة من تجارب الأمم إلّا نفر قليل جداً. . .

فلا بدّ أن نجعل أمام أعيننا أنّا ندرس تاريخ أُمم، إن كانت أخطأت في بعض تصرّفاتها فليس علينا من تَبِعَة ذلك الخطأ شيء، وليس لنا إلّا أن نعرفه ونستفيد منه، وإن كانت أصابت المَحَجّة فإن ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم، لذلك: يحتاج دارِس التاريخ إلى سعَة صدر تحتمل كلّ ما يَرِد على تاريخ قومه من نقد، حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسُحُب عاطفتي الحبّ والبغض».

وبِهَدْيٍ من هذا القول سار المؤلّف في حديثه الجيد عن عصر النبوّة وعهد الخلافة الراشدة، وزمان الدولة الأموية ووقائع الدولة العباسية!، ولا بدّ لمَن

يتحدّث عن هذا المدى الحافل من الزمان والوقائع والشخصيات أن يلمّ بما تختلف حوله الآراء، وتتضارب النظرات، فقد كان للرجل من الأحكام الصائبة ما ضمن لآثاره الذّيوع والسّيرورة، بحيث أصبحت مصدراً هامّاً من مصادر التاريخ الإسلامي، وقد كثرت بعدها مؤلّفات الأساتذة الجامعيين في كلّيّات الشرق العربي، دون أن تُزاحِمها على التقدّم والصدارة، بل إن أكثر مَن خاضوا مَخاض الأستاذ الخضري يحرصون في معظم صحائفهم على الائتناس برأي الشيخ الكبير.

ولكن الناقد البصير يجد روح الشيخ المُسالِمة تستجيز من الحوادث أحياناً ما يقع لديه الخلاف الشديد، ومن أمثلة ذلك: حديثه عن اختيار يزيد للخلافة وتصويبه، وقسوته على أهل المدينة يوم الحَرّة وقوله: إن ثورة الحسين ـ عليه السلام ـ، لم تكن ذات أسباب حقيقية لمصلحة الأمة، وتهوينه مصرع أبي مسلم الخراساني، وموافقته قول مَن حكى عن الرشيد المُترَف: أنه كان يصلّي في اليوم الواحد مائة ركعة، وعدم نفاذه إلى حقيقة مأساة الأفشين!.

ولعلّ لنشأة الخضري الدينية أثراً كبيراً في تسامحه لدى بعض الأحكام، ومحاولة تجنّبه كثيراً من المسائل الشائكة، حول رجال الصّدر الأُول من البعثة المحمدية بالذات، على نحوٍ لا نعرفه الآن، بعد أن أخذ البحث التاريخي عدّته من الاستيعاب والتدقيق والجرأة والتفنيد!، ويخيّل إليّ: أن طبيعة الزمن الذي أملى فيه الشيخ محاضراته كانت تلزم المؤرّخ بشغف مُفرِط بمواقف السّالفين من رجال العرب والإسلام إذ أن مَعاوِل الناقدين من باحثي الغرب قد أحدثت اتجاهاً عكسياً لدى أمثال الشيخ: الخضري، فتجنّبوا إثارة الغُبار حول بعض الأحداث!.

ولم يكن الأستاذ فذّاً في ذلك، بل كان زميله المؤرّخ الأستاذ: رفيق العظم ممّن يصدرون عن هذا الاتجاه في مؤلّفه: أشهر مشاهير رجال الإسلام، وقد قال في مقدمته ما نصّه ص ٧: «وإني وإن كنت عزمت على اجتناب الخوض في الفتن التي ثار ثائرها بين المسلمين في عهد الخلفاء: عليّ، وعثمان، ومعاوية ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ ولم أرَ بُدّاً من إيراد ذِكرهم مع الخليفتين السابقين: أبي

بكر، وعمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ، لأنهم جميعاً من دعائم الإسلام التي قامت عليها صُروحه، وأعضاء الدين الذين بانَ بهم صريحه، فقد اكتفيت من سِيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يعلق بذكره من هذه الفتن أثر في النفس، إلّا ما كان فيه حجّة بالغة يجري بها القلم، أو حِكمة زاجِرة يحتاج إليها العاقل، ويتّعظ بها الجاهل، لهذا لا يؤخذ عليَّ ما يرى من الاختصار في تراجمهم، والاقتصار على ذكر بعض سيرتهم».

وهذا حديث مَن يريد أن يكون كتابه مجال عبرة واقتداء ومُفاخرة بالسّلف بعثاً للهِمَم وإيقاداً للعزمات.

- ٣ -

ونحن لو تجاوزنا عصر الصحابة ومشيخة التابعين نجد للأستاذ شخصيته القوية فيما تحدّث به عن عصر الفتوح الإسلامية، أيام الدولة المروانية، كما نلمس استشفافه البصير إذ يتصدّى لتعليل الهزّات الثورية، وما أعقبتها من سقوط دولة بني أميّة، مُفصّلاً بواعث هذا الانهيار تفصيلاً كاشفاً، هذا إلى حديثه المُلِمّ بالخَراج، والقضاء، والجيش، والإدارة، مما يعتبر بالنسبة للشيخ الخضري مجال سَبْقٍ وتجديد، إذ أنه كان كثيراً ما يتّكىء على نفسه، دون استشارة شاملة لمراجع الاستشراق، ولا كذلك زميله المؤرّخ المُعاصر الأستاذ: جرجي زيدان، حيث أشبع الحديث عن مظاهر الحضارة الإسلامية في كتابه عن التمدّن الإسلامي إشباعاً يجد روافده الكثيرة من فصول ذوي الاستشراق!، ولكلٍّ وجهة هو مولّيها.

وأذكر بهذه المناسبة: أني في سنة ١٩٤٩ كتبت فصلاً تاريخياً عن الأستاذ: جرجي زيدان بمجلة الثقافة المصرية، وقد اقتضت الضرورة أن أرجع ببعض الموازنة المنهجية بين زيدان والخضري، فتحدّثت عن الرجلين في سطور ظننتها صائبة حاسمة، وكان من المصادفات السّارّة: أن يقرأ مقالي المؤرّخ الكبير الأستاذ: عبد المجيد العبادي ـ رحمه الله ـ فتفضّل بتشجيعي ببعض الثّناء المُعين، ثم قال لي ما معناه: إنه لا مجال للموازنة إطلاقاً بين الخضري وزيدان، لأن

الشيخ الكبير كان يكتب متأثّراً بمصادره العربية التي لا يرى غيرها تؤدّي مؤدّاها في الصدق والإخلاص، وهو فوق ذلك: يكتب محاضراته التاريخية مقيداً بمنهج دراسي معلوم، فرضته الجامعة المصرية فرضاً على التلاميذ، ولم تترك له أن يفيض فيما تعذّر عليه استيفاؤه من بحوث، فجاءت محاضراته التاريخية محصورة في نِطاق لا تتعدّاه، أما الأستاذ زيدان: فكتب كما أراد!.

وتلك حقيقة هامّة لم تفُتْني الإشارة إليها في مقالي عن زيدان، ولكن تأكيدها وتبسيطها من أستاذ كبير كالمرحوم: العبادي، قد ضاعف أهميتها لديّ!، فإذا تركنا المحاضرات الأموية إلى المحاضرات العباسية فإننا نجد من السّعة والعمق والنّفاذ شيئاً كثيراً، إذ لا مِراء في أن كل مؤلّف ينتفع بتجاربه الشخصية.

وقد كان تاريخ الخضري للأمويين تمريناً دقيقاً للبحث التاريخي الكاشف، فجاءت محاضراته العباسية أصلب عوداً على النقد، وأكثر إشعاعاً على الحقائق والعصر العباسي بزمنه الطويل مجال للكلام المتشعّب عن دول وممالك كثيرة، قد أنبتت عن الدولة، وأسّست حضارات مستقلة أو تابعة تبعاً اسمياً مظهرياً، ولكن الشيخ قد اكتفى من ذلك بما يتحتّم الإلمام به على كل متطلّع إلى معرفة هذا العهد.

ولا أدري كيف استطاع الشيخ أن يقدّم خُلاصات موجزة دقيقة لحركات العلويين، والقرامطة، والروم، والبويهيين، والصليبيين، والسلجوقيين، والتتار، والمغول! وكلّ حركة واحدة من هذه العواصف تتطلّب كتاباً ذا أجزاء!.

وإذا كانت طبعات المحاضرات قد تعدّدت على ممرّ السنين، فإن ذلك يدلّ على أن القارىء العربي كان في حاجة ماسّة إلى كتاب تاريخي، يقدّم الخلاصة الوافية لعصور العهود الماضية، فحين قام الشيخ بذلك أشبع جوعاً ونقع غلّة!.

وقد ظهرت كتب منافسة لمحاضرات الخضري، وقد تمتاز عنها بتعدّد الزوايا المختلفة للبحوث، ولكنها لم تستطع مُزاحمتها مُزاحمة جدّيّة، وأُشير إلى مثال لهذه الكتب: فيما كتبه الدكتور: فيليب حتّى بمؤلّفه: (موجز تاريخ العرب) إذ قام

بنصيبٍ جادٍّ مُخلِص في تصوير التاريخ العربي، وقد تُرجِمَ أكثر من مرة في مصر ولبنان، ولكنه مع ذلك يؤكّد ضرورة الرجوع إلى المحاضرات دون أن يضائل من بريقها.

وقد كان الشيخ الخضري دقيقاً في مسلكه حين قصر الحديث على الناحية السياسية، وأعلن في مقدمة المحاضرات العباسية قوله: «وقد تركت تاريخها العلمي لمّا رأيت من جعل ذلك في محاضرات خاصّة، تنتظم تاريخ الإسلام العلمي لارتباط بعضه ببعض، ولعدم اتّباع الحركة العلمية لقوّة بني العباس السياسية، فقد كانت الدولة العباسية في عهد آل سلجوق في حال ضعف سياسي شديد، لأن الخلفاء لم يكن لهم إذ ذاك إلاّ الاسم، ومع ذلك: فقد كانت الحركة العلمية قوية، وإنّي أعِدُ قُرّاء كتابي هذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية في البلاد الإسلامية، وأرجو من الله التوفيق اهـ».

أجل: كان الشيخ دقيقاً في فصل الناحية السياسية عن الناحية العلمية، لأن محاولة الحديث عنهما في كتاب واحد مما يتحيّف القول في أكثر جوانبه، وأذكر: أن الدكتور: حسن إبراهيم حسن في كتابه: تاريخ الإسلام السياسي، قد خالف نهج الخضري، فجعل كتابه شبه موسوعة للحديث عن السياسة والعلم والتاريخ والاجتماع، ولكنه لم يفلح في إعطاء قارئه شيئاً ذا بال عن الأدب والعلم والثقافة، وكلّ ما ذكره في ذلك مقررات مدرسية لا يريدها المتخصّص، إذ يعرف أكثر منها، ولا يحتاج إليها غير المتخصّص لأنها موجودة في كتبه الدراسية، وبذلك: تضخمت أجزاء الكتاب تضخماً لم يكن القارىء في حاجة إليه، هذا إلى أن تخصّص الدكتور: حسن إبراهيم حسن تاريخي، فإذا ألمّ بالدراسات العلمية للجوانب الأدبية والعقلية فقد سار في غير ميدانه!، وهل كان يتصوّر من الباحث العربي أن يجعل كتابه مرجعاً للبحتري، وابن الرومي، وأضرابهما، حتى يتحدّث عن كل شيء دون تحديد!!؟.

وإذا كان الأستاذ الخضري قد عاجلته المَنِيّة دون أن يؤلّف كتابه عن الحياة العلمية، فإن تلميذه الكبير الأستاذ: أحمد أمين قد سدّ مسدّه في كتبه القيّمة، عن

فجر الإسلام وضحاه، وظهره، ولئن كان منهج صاحب فجر الإسلام أوفى وأدقّ، فذلك ما يحتّمه تطوّر البحث بمرور الزمن، حيث نضجت لدى المؤلّفين من العرب طريقة التحليل والاستقراء!! وما زالت كتب الأستاذ: أحمد أمين حجّة أولى لدى المنصفين!! وقد جرى الكثيرون في أثرها فلم يلحقوا لها بغبار، والرجل بَعْدُ ثمرة طيّبة من ثمار الشيخ الخضري، إذ كان تلميذه بمدرسة القضاء!!.

ولن يفوتنا في هذا المجال الحديث عن تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ، فقد كان تجربة رائدة أقدَمَ عليها الأستاذ دون سابِقَة في هذا المضمار، إذ أن ما تركه السابقون في ذلك لا يخرج عن تراجم تاريخية، تزدحم بها كتب الطبقات، فهناك تراجم الشافعية، وتراجم الحنفية، وتراجم المالكية، والحنابلة وغيرهم تحشد حشداً دون ترتيب، وتهتم في أكثرها بظواهر الحياة دون لبابها!!.

أما تأريخ التشريع في كتاب متسلسل يوضح أدواره ويرسم تيّاراته، فذلك ما فتح الله به على الأستاذ دون سابقة، وقد رتّب حديثه وفق العصور التاريخية، فتحدّث عن التشريع في عصر النبوّة، ثم في عصر الصحابة، ثم في العصور المتتالية حتى مطلع القرن العشرين!!.

وقد قال الشيخ عن منهجه ما نصّه: «يتردّد الكاتب لتاريخ الفقه والفقهاء بين أن يجعله مبنيّاً على العصور المتمايزة، وأن يبنيه على أشخاص المجتهدين تبعاً لاختلاف طوابعهم النفسية، ولكن نظرة واحدة جعلتنا نرجّح الوجه الأول، وهو بناء ذلك التاريخ على العصور المتمايزة، لأنها أقوى وأعمّ أثراً، وأما نفسيات الفقهاء، فسيتّضح أنها لم تكن على اختلاف حقيقي، ولا سيما مَن كانوا منهم في عصر واحد».

ونظام التاريخ العلمي أو الأدبي وفق العصور السياسية كان موضع المناقشة لدى كثيرٍ من الناقدين، لأن التطوّر الأدبي أو الثقافي لا يسير مُحاذياً للعصر العباسي، حتى يحدّد به، وقد وُجِّهَت إلى كتب تاريخ الأدب في ذلك ملاحظات

هامّة!، أما كتاب تاريخ التشريع للخضري: فقد تعرّض لمثل هذه الملاحظات حيث قال عنه الأستاذ: أمين الخولي في كتابه عن مالك جـ٣ ص ٥٩٥:

«وهكذا: سلك تاريخ التشريع الإسلامي في أدوار ستّة، كانت أول ما صدر به المكتوب في تاريخ التشريع بمدرسة القضاء، ودارت الأقسام على ظهور الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين، وانتهاء زمن الأموية وهلمّ جرّاً، وكان سقوط بغداد حدّاً فاصلاً في حياة الفقه، كما هو في حياة الأدب، كما كان بعد سقوط بغداد إلى الآن دوراً واحداً، مثال ما هو في الأدب دون نظرٍ ما إلى الاختلاف في الأقاليم المختلفة، وقيام دول مسلمة فتيّة في أرجاء المشرق والمغرب، كالعبيدية، والغزنوية، وغيرها، ولا يضيرها ضعف السياسة ولا يقف نشاطها بجمود بغداد أو اجتياحها، بل حاكى أصحاب الفقه وتاريخه أصحاب الأدب وتاريخه مُحاكاة تكاد تكون تامّة منذ العهد الأول في درس تاريخ التشريع إلى اليوم».

وقد أفاض الأستاذ: أمين في مثل ذلك، وكأنه يقرّر أمراً يجهله الأستاذ الخضري، والحقيقة: أن الشيخ ـ رحمه الله ـ كان يدرك اختلاف الفقه باختلاف البيئة والإقليم، وقد اتّضح ذلك في فصول كتابه عندما تحدّث عمّا بين مكّة والمدينة، وبين العراق ومصر، من فروق فقهية هامّة، كما بَدَا من حديثه في مقدمة كتابه التي نقلنا بعض سطورها فيما سبق، أنه فكّر في طريقة التأليف أتُبنى على العصور أم الأشخاص؟ هذا التفكير وحده يفيد أن اعتراضات الأستاذ: أمين الخولي كانت قائمة في ذِهنه كشيء واضح معروف، ولكنه سلك طريقة العصور لشيء واحد، هي: أنها ـ رغم ما يتوجّه إليها من اعتراضات البيئة والعقلية والإقليم ـ أقرب الطرق إلى صواب التاريخ!! وبخاصّة في كتاب موجز يتقدّم به المؤلّف إلى طلاب مدرسة القضاء!!، وقد ترجم الأستاذ الخولي لحقبة من عصور الفقه الإسلامي حين تحدّث عن مالك في ثلاثة أجزاء!! فهل يظن أن انتحاءه منحى الشخصيات في تاريخ الفقه لا يخلو من اعتراض؟!.

إن كتابه على سعته لم يقدّم كل شيء عن عصر مالك وحده، فليبحث لنا الأستاذ عن طريقة عملية لتاريخ التشريع، ثم يقوم بتنفيذها ليقدّم الدليل الملموس

على نشوز كتابة التاريخ الفقهي وفق العصور نشوزاً يفوق نشوز غيره، أما النقد والاقتراح وحدهما فلا يزالان بقصورهما الحقيقي يثبتان: أن طريقة العصور السياسية أقلّ خطأً من غيرها! وأن الطريقة المرموقة لم توجد بعد، ويكفي أن ينجح الأستاذ الخضري في تقريب كثيرٍ من حقائق التاريخ التشريعي في كتابه الرائد على نحوٍ لم يُتَحْ من بَعْدُ لطريقة مُخالِفِيه!، وأين ما كتبوه؟.

وأُرَجِّح أن قوّة الأستاذ الخضري في فهم روح التشريع الإسلامي لم تنفعه في دروسه الأصولية، وفي تحليله التاريخي لأدوار الفقه فحسب، بل نفعته نفعاً جزيلاً في كتابة التاريخ الإسلامي، حتى صرت أرى أن من تمام الكتابة لمؤرّخ الإسلام أن يكون متمكّناً من روح التشريع، وقد ظهر ذلك بجلاء في كثيرٍ من صفحات المحاضرات التاريخية، إذ تحدّث الشيخ بإتقان عن التشريع المكّي والتشريع المدني، والإسراء والمِعراج، وعن مشروعية القتال في الإسلام، وعن النّظم الاجتماعية والدينية كما سنّها القرآن، ثم عن المعاملات والحدود والأسرة والخلافة والبيعة ونظام الحكم... كلّ ذلك بالجزء الأول، وهي أمور هامّة لا بدّ أن تكون مهضومة للمؤرّخ الإسلامي الذي يتصدّر لكتابة التاريخ عن خِبرة واستعداد.

وكذلك حديث الخلافة والقضاء والخَراج والصدقات والعُشُور والانتخاب وولاية العهد والبيعة بالجزء الثاني. ثم ما ينحو هذا النحو في تاريخ بني العباس مما يرجع فيه المؤلّف إلى أقيسة شرعيّة وأصول فقهيّة، قد ألمّ بها عن دراسة شاملة مستوفاة، بل إن روح الشريعة غلبت عليه حين نقل في المحاضرات العباسية رسالة أبي يوسف في الخَراج جميعها، واحتلّت أكثر من عشرين صحيفة، ولعلّ مكانها الحقيقي في هذا الكتاب من مؤلّفات الأستاذ إذ أن مؤرّخ الخَراج العباسي لا يبحث عن الأحكام الدينية قدر بحثه عمّا كان من التطبيق والإلزام، ولكنها روح الفقيه تمتزج بروح المؤرّخ امتزاجاً دَعَا إلى مبالغة يسيرة في هذا المجال...

أقول: إن الأستاذ الخضري قد أثبت عمليّاً فشل الذين يدرسون تاريخ الإسلام دون إلمام بأصول الشريعة، وليسوا جميعاً من ذوي الاستشراق

الاستعماري، بل إن فيهم مسلمين فهموا التاريخ الإسلامي على أنه حروب وأحداث، وسقوط وارتفاع بحيث يصعب عليك أن تلمس لدى كثيرٍ منهم وعياً بصيراً بالإسلام.

ولعلّ أحدهم حين يترجم الآية القرآنية من مصادرها الأجنبية يُكابد رهقاً في الرجوع إلى النص القرآني من كتاب الله!. وقد رأينا من هؤلاء مَن نسأل الله لهم التوفيق في مهمتهم الشاقّة، وقد أصبحوا أساتذة التاريخ في أرقى الكليّات!.

على أن روح الفقيه الأصولي لم تترك الشيخ في بحوثه الأدبية، ومقالاته الصّحفية، فأنت إذا قرأت شيئاً من ذلك للشيخ في أُمّهات الصّحف والمجلاّت، وجدت عقل العالم يملك زمام الأديب، فأنت منه أمام كاتب عالِم، مهما جرى الحديث عن الأدب والاجتماع!، وقد كان الرجل معتزّاً بموهبة الإقناع البياني لديه، فحاضَرَ وناظَرَ وملأَ الصّحف كتابةً وبحثاً، بحيث لم تكن تدور مشكلة دينية، أو أدبية أو اجتماعية، إلاّ كان في طليعة المتحدّثين في المحافِل والكاتبين في الجرائد، فاشرأبّت إليه الأعناق في ترحيب وإكبار.

وأذكر: أنه كان صاحب المقال الفَصْل في مسألة التعريب في اللغة، أو الوقوف لدى الكلمات المتوارثة، حين ثارت عجاجتها في الصّحف سنة ١٩١٠، فاحتدم النقاش بينه وبين زميله الأستاذ: أحمد السكندري، ونشرت مجلة المنار آنذاك كلام المُتناظرين، وقد مال الجمهور إلى الأخذ بضرورة التعريب دون الوقوف عند المتوارث، وفق ما اتجه إليه الشيخ الخضري في مبحثه!!، وعندما صدر كتاب الشعر الجاهلي: كان الخضري أسبق ناقِدِيه، وقد دَعَا إلى محاضرة عامّة بالجامعة المصرية، حيث أُلقِيَت فصول الكتاب على الطلاب ولكن القائمين على الجامعة قد هالَهم أن تندحر بحوث الأساتذة بصَولات أُناس تعُدّهم غُرباء عن حرمها الأمين، فمنعوا المُحاضِر عن الإلقاء، واضطر الشيخ أن يُصدِر نقده في مؤلَّف لطيف خاص!!.

وقد حكى الأستاذ الرافعي في مقاله عن الشيخ بالجزء الثالث من وحي القلم ص ٤٠٣ : أن للخضري كتاباً في جزئين كبيرين عن الأدب المصري، لم يُقَدّر له أن يرى الضياء!! ولو بُذِلَت الهِمَم المخلصة في البحث عن أصوله لاستفاد الناس بخيره الجزيل، ولكن المخطوطات المُعاصرة تلحق بأخواتها العتيقة دون اهتمام!، وإلّا فأين شرح السيد المرصفي لكتاب العقد الفريد وقد فعل به ما فعل بالكامل، فجاء خزانة أدب ولغة وعلم؟! وأين تاريخ الشيخ السكندري للأدب العربي؟ وقد تركه مخطوطاً في ألفين من الصفحات!، أين ذلك كله لأساتذتنا المُعاصرين، وتلاميذهم الآن ملء الأبصار والأسماع؟!.

هذا ولا بدّ أن نلمّ بصنيع الشيخ الهائل بكتاب الأغاني فقد رأى أن يقوم على تهذيبه وتوضيحه، فقضى خمسة عشر عاماً في إخراج المهذّب بريئاً من مآخذ أصله، إذ إن مؤلِّفه لم يرتّب شعراءه ومُغنّيه، بل كتبه كما اتّفق، كما بَتَرَ كثيراً من القصائد الرائعة فلم تُستَكمَل، ثم ترك الضبط والتفسير، فمُنيَ الكتاب بتحريف كثير، وزاد، فترخّص في ذِكْر ألوان من المجون لا تُربّي خلقاً أو تُحيي عاطفةً، فبادر الشيخ إلى تلافي ذلك كله، وتقدّم بأجزاء المهذّب وقد بلغت تسعة كاملة إلى القرّاء، تشهد بما عانى من بحث، وتكبّد من مَشاقّ.

ولكن الدكتور: طٰه حسين قد انتقد تهذيب الأغاني بجريدة السياسة، ورآه تشويهاً لصنيع مؤلّف قديم، وقد كان على الشيخ ـ في رأي طٰه ـ أن يترك أبا الفرج وما صنع، ثم يؤلّف كتاباً أدبياً يحمل اسمه وينجو من سَقطات صاحبه، وأفاض الدكتور في نحو ذلك بما يجده القارىء في الجزء الثالث من حديث الأربعاء من ص ٦٨ إلى ٧٣، وقد ردّ عليه الأستاذ ردّاً حاسماً نُشِرَ بحديث الأربعاء أيضاً ص ٧٦ وفيه يقول مُخاطباً الدكتور:

«أَلِفْتُ الأدبَ العربي مبدّد الشّمل فرتّبته، ووضعتُ كل درّة بجانب أُختها، وكلّ إلْفٍ بجانب أليفه، فإذا أراد القارىء أن يقرأ ما تقرّ به نفسه من شِعْر عصر، أو شِعْر قبيلة بعينها كان ذلك ميسوراً، وهذه ضالّة تنشدها أنت بما تُتحِف الجمهور به

في صحيفتك الأدبية، وجدتُ تحريفاً كثيراً يُضِلّ الشّادي ويُتعِب العالِم، وقد أحسستَ أنت بأثره، فبذلت من الجهد ما الله به عليم في إصلاح ذلك الفساد.

وجدتُ نقصاً في فاخر الشعر وجيّده، كما يصفه أبو الفرج فأتممت ذلك النقص لِما توقّعت من جدوى ذلك على طلاب الآداب.

وجدتُ نقصاً في ضبط الغريب وتفسيره، فاحتملت عبء ذلك كله، وأزَلْتُ عَناءً كان يشعر به أمثالي من قُرّاء الأغاني وقد تلقّيت كتباً كثيرةً تزيد من هذا الضبط وهذا التفسير وسأكون عند هذه الرغبة فيما أستقبل من الأجزاء إن شاء الله.

أما ما نقصته منه: فلم يعد إحدى اثنتين، إما فُحْشٌ صدّ عن الأغاني وجوه كثيرٍ من أهل الأدب، كانوا يشكون ذلك منه، ومن أكثر كتب الأدب العربي وإني معهم في ذلك... وإما أشياء قلت عنها: إنها لا تُفيد أدباً ولا تُرقِي فكراً».

ولكن الدكتور قد أصرّ على رأيه واهِماً أن هذا العمل تشويه للأغاني، ومقطع الردّ على ذلك أن كتاب الأغاني لم يفقد من الوجود، حتى يشوّهه الخضري في مهذّبه، ولكن كتاب أبي الفرج موجود لمَن يرغب قراءته، وكتاب المهذّب انتقاء سديد لرجل يقدّر مهمّته!، فهل مَحَقَ الشيخ نُسَخ الكتاب محقاً وبدّلها تبديلاً آخر بكتابه، ثم أطلق عليه كتاب الأغاني ليُوهِم الناس أنه يقدّم نِتاج أبي الفرج؟ لم يفعل الشيخ سوى أن هذّب ما وجده في حاجة إلى تهذيب، ثم ترك للقرّاء أن يختاروا ما يشاؤون!.

وإذا كان الدكتور قد لخّص قصصاً فرنسيةً في كتابه: (لحظات)، وارتضى ذلك لنفسه عالِماً أن تلخيص قصّة ما يَخِلّ ببنائها الفنّي كعمل متكامل أفيضنّ على أستاذ كبير أن يلخّص أبواباً من تراجم أدبية تُساق سَوْقاً دون ترابط فنّي وأين هذا البَتْر الصارم في الفن، من ذلك الرّفق الرفيق في تكميل خطوات السابقين!؟ على أن الدكتور قد رجع عن رأيه فيما أعتقد حين سمح لنفسه أن يقوم على تحقيق كتاب: تجريد الأغاني لابن واصل الحموي، فهو اختصار آخر لكتاب أبي الفرج،

والدكتور حين يُقبِل على تقديمه وتحقيقه لا يعتقد أنه تشويه!، لكنه عَدَلَ عمليّاً بذلك عن رأيه في المهذّب، بعد تأمّل وتحقيق.

أما بعد: فقد أردت أن أتحدّث عن جهاد الخضري في اليقظة الفكرية الإسلامية فتحدّثت عن مؤلّفاته أبلغ الحديث وهي بَعْدُ شاهِد عدل لا يقبل التجريح.

أحمد غلوش رئيس جماعة منـــع المُسكِرات وداعية الإســـلام

- ١ -

في صمت هـادىء انتقل إلى جـوار ربّه البـطل المجاهـد الدؤوب الـدكتـور «أحمد غلوش» رئيس جمعية منع المُسكِرات بمصر، وداعية الإسلام بأوروبـا، وقد قـرأت نَعْيَه بـالصّحف في سطور محـدودة نشرتهـا أسرتـه، ودفعت ثمن النشر كمـا تعلن وفاة كلّ مَن يقدر أهله على نفقات مَنْعَاه في صفحة الوفيات.

وانتظرت أن تفيض الأقلام عقب ذلك في وصف كفاحه الدؤوب في ميـادين العمل النافع ابتغاء مرضاة الله حقباً طوالاً جاوزت الستّين، إذ أن الفقيد الجليـل قد شارف التسعين من عمره المبارك السعيد، فما قرأت شيئاً قلّ أو كثُر!.

أفلو كان الراحل ممثّلاً عصرياً شارك في إفساد النشء بمـا قدّم من أبـاطيل، أفلو كـان الرّاحـل مطربـاً فنيّاً سـاعد على الهـدم الخلقي بانتشـار الأغاني المـاجنة والتخريب الإنساني، أو لو كان الرّاحل قصّاصاً يلتقط فضائح الجنس، وينسج حِيَل الإثم! لـو كان الـرّاحل شيئـاً من ذلك، لـرأينا الصـور الحـزينـة والمَـراثي الحـارّة والأعمـدة الطِّوال، والكلمـات الإذاعية تحتشـد لذِكـراه احتشاداً وتضجـر الأسمـاع والعيون بما تهرف من أراجيف!.

ولكن الرّاحل بعضُ مَن أسلم وجهه إلى الله وهو مؤمن، واستمسك بالعُروة الوُثقى، وقد كرّمته الدولة حين منحته جائزة التقدير في بعض أعياد العلم، ولكن الذين يكتبون في الصّحف ويتحدّثون في الإذاعة لا يهتمّون بأمثال هؤلاء الأبطال، إذ حِيلَ بينهم وبين ما يعملون!.

كان الدكتور غلوش في أوائل هذا القرن شابّاً موظّفاً بالإسكندرية، وهي حينئذٍ تعجّ بالأجانب، إذ تضمّ أكبر مجموعة من الجاليات الأوروبية، ولكلّ جالية حاناتها المنتشرة في ربوع الثغر، فصارت الخمر تُشرَب علناً في الطرقات، وأصبح شارِبوها المُعَربِدون لا يجدون مَن يمنعهم حين يتوقّحون مخمورين، ويتمايلون عابثين، إذ أن قانون الامتيازات الأجنبية كان في عهد الاحتلال يحمي هؤلاء المُفسِدين أن يُؤاخَذوا بما يصنعون!.

وزاد الأمر سوءاً أن الذين في قلوبهم ضعف، وفي إيمانهم فُتُور من المواطنين، اندفعوا يقلّدون هؤلاء الفَجَرَة فيما يأثمون إذ رأوا في مُحاكاتهم الوقحة مَدعاة مدنية وحضارة، ودليل تقدّم وحريّة، فكثرت الحانات بالإسكندرية كثرةً لم تلبث أن امتدّ وباؤها إلى أكثر عواصم القطر المصري وحواضره، وكان مما يؤسف المؤمنين أن تُقام الحانات في بعض أحوالها قريباً من دُور العلم وأماكن العبادة، دون أن يستشعر أصحابها خجلاً من أنفسهم!.

وقد كان الموقف يتطلّب داعيةً جريئاً للفضيلة يشنّ الحرب على هذا الوباء الفاتك، داعية لا يكتفي بالنصوص الدينية والأقوال المأثورة في زمان تدجّت آفاقه، وغاب هاديه! بل يعمد إلى التحليل العلمي والتشريح الطبّي، فيعلن للملأ ما أثبته الطبّ المعاصر من أوبئة المُسكِرات، وينقل أقوال الأعلام في دنيا الطبّ الأوروبي عن مآسي الخمر، وأدوائها الفاتكة بالأجسام! ثم تُثمِر جهوده في اجتذاب نفر من ذوي الهِمَم البصيرة ليؤلّف معهم منذ ستّين عاماً جمعية منع المُسكِرات والخمور بالإسكندرية ويتّخذ لها مكاناً جهيراً بأحد الشوارع الرئيسية، ثم يوالي الاجتماعات بالشباب من الموظفين والطلاب ليجعلهم ألسنته الناطقة بين أُسَرهم وذَويهم.

واستيقظ أصحاب الحانات فجأة ليجدوا أنفسهم أمام حرب لافحة يقودها الدكتور «غلوش»، فلجئوا إلى الحرب الباردة، إذ أذاعوا أن الدكتور غلوش يتاجر سرّاً في الحشيس والأفيون، فهو يحارب الخمر بضراوة كيلا تقف دون رَواج تجارته!، وانتشرت الأكذوبة في الناس، فما كان من المجاهد الذكيّ إلاّ أن أعلن أنه غيّر اسم جماعته من (جمعية منع الخمور) إلى (جمعية منع المُسكِرات) كيلا تقف عند الخمر وحدها، بل تناول كل مُسكِر أو مخدّر، ثم أخذ في اجتماعاته يحلّل ما تتضمنه المُسكِرات بعامّة من شرور!، وكان تغيير الاسم مفاجأة مُفحِمَة جعلت أصحاب الشائعات يرتَدّون خائبين! وإذا كان بعضهم من ذَوي الصّلات الوثيقة بالحاكمين في القاهرة فقد سعوا إلى نقله من الإسكندرية وأُجيبوا إلى ما يطلبون.

فاتّجه الدكتور «غلوش» إلى القاهرة ليسير بنشاطه في ميدان أوسع وأشمل. فاتّخذ مقرّاً رئيسياً لجمعيته في حيّ السيدة «زينب»! ووجد أنباء جهاده تسبقه وتشقّ له الطريق فارتاح إلى ما قُدِّر له من هجرة الثغر، لأن الصّحف اليومية والأسبوعية باتت على مقربة منه، فجعل يمدّها بشتّى الأبحاث الخاصّة بأضرار المُسكِرات.

وحين رأى خصومه يواجهونه بانتشار الخمور في جمهرة البلاد الأوروبية دون أن تحدث لذَويها ما يشير إليه من الأدواء عمل جاهداً على أن يتصل بجمعيات منع الخمر في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا، وسائر العواصم العربية، ليأخذ عنها ما تقول، كي يُقنِع بعض مَن لا يعجبهم غير المنطق الأوروبي ممّن هانت نفوسهم، ففقدوا الثقة في عقولهم، وصاروا هباءً تبدّده أعاصير المستعمِرين، وقد لبّت هذه الجماعات رغبته فأرسلت إليه إحصائيات كثيرة بما انتاب طوائف المُدمِنين من إنهاك الجسم، وجنون العقل، وانحطاط قِوى النّسل، مؤيّدة ذلك بتقريرات المجامع الطبية، والهيئات العلمية.

وكأن الدكتور «غلوش» لم يكتفِ بما سِيقَ إليه، فرأى أن يرحل بنفسه إلى أوروبا، ليستمع إلى رؤساء الجمعيات من أمثاله، ويناقشهم الرأي في أمضى

الأسلحة، وقد كانت رحلته الأولى إلى الغرب بركةً وخيراً على الإسلام، إذ ناقش القوم وحادثهم فوجد الكثرة الكاثرة لا يفهمون الإسلام على وجهه بل يتصوّرونه ديناً وثنياً خرافياً لا يلائم حاجة المدنية، ولا يقوم برغبات العصر!، فهالَه أن يعرف ذلك، وانطلق يكتب بالإنجليزية مؤلَّفاً وافياً بأصول الإسلام وتعاليمه، ثم يطبعه على نفقته، ويقوم بإهدائه إلى مَن يتوسّم فيهم الإنصاف من صفوة المفكّرين، ثم علم أن قُرّاءه في حاجة إلى نصوص قرآنية ونبوية، فبادر بترجمة مَعانٍ شافية لآيات القرآن ونصوص الحديث!.

وهكذا اتّسع ميدان الجهاد الإسلامي أمام الدكتور «غلوش» فأصبح من دُعاة الإسلام في أوروبا! وصارت كتابته الإسلامية موضع النظر والمراجعة. ولا يجب أن نغفل في هذا الصّدد زميله الداعية المُصلِح الدكتور «زكي علي»، فقد أقام في جنيف ليضع مؤلَّفاً قيّماً أسماه «الإسلام والعالم» سالكاً سبيل المُكافحين البَرَرة من أمثال «غلوش» ومولاي: «محمد علي» و«فريد وجدي» وغيرهم ممّن أصدروا الطلائع الأولى للمكتبة الإسلامية المستنيرة في الغرب!.

وأذكر أن مجلة الأزهر بدأت في السنة الحادية عشرة من مجلّداتها سنة ١٣٥٩ هـ تنشر كتاب الدكتور غلوش (دين الإسلام كما يحفظه المسلمون) في ملحقاتها الإنجليزية ليشمل نفعه الجزيل مدىً أوسع ويعمّ قُرّاءً أكثر، وقد مهّد رئيس تحريرها العلاّمة: «محمد فريد وجدي» لذلك بقوله في ص ٢٤١ من المجلد الحادي عشر:

«يرى حضرات قرّائنا أننا ألحقنا اليوم بمجلة الأزهر ملزمة إنجليزية من كتاب (دين الإسلام كما يحفظه المسلمون) وهي الملزمة الأولى من كتاب قيّم، وضعه حضرة الأستاذ الألمعي الجليل «أحمد غلوش» رئيس جمعية منع المُسكِرات في القطر المصري، وضعه خصّيصاً للتعريف بالإسلام للأمم التي تتكلّم الإنجليزية، وقد سبق لنا الاطّلاع على هذا الكتاب الذي اطّلع عليه عدد كبير من رجال العلم من إنجليز وعرب فوجدناه جديراً بأن ينشر ملحقاً لمجلّة الأزهر تباعاً حتى يتمّ.

والذي يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة أن واضعه الفاضل توخّى فيه بيان مزايا الدين الإسلامي وصلاحياته لكل زمان ومكان، وتَوفِيَته لجميع حاجات القلوب والعقول، بعبارات بليغة تؤثّر في قارئيه من أهل تلك اللغة أبلغ التأثير، وقد جلّى فيه المسائل الإسلامية الكبرى تجلية جديرة بباحث واسع الاطّلاع نيّر البصيرة!».

هذا ما قاله الأستاذ «فريد وجدي» عن كتاب «غلوش»! وهو قول يزيد في قيمته ما أعرف شخصياً عن الأستاذ «وجدي» رحمه الله، حين طلب منه أن ينشر كتاب «المدنية في الإسلام» تباعاً في ملحقات مجلة الأزهر، وكان قد أصدره بالفرنسية، فذاع في أوروبا ذيوعاً صادف التوفيق والقبول فاعتذر اعتذاراً يُنبىء عن خلق مثالي يتعذّر أن نراه بين مَن نعهد الآن من المُحتَرِفين، إذ قال في تواضع نبيل:

«كتاب الدكتور غلوش أوفى وأولى!».

وهي شهادة رائعة يزيدها لألاء في دنيا المُثُل الرفيعة أن قائلها العظيم مؤلّف «دائرة معارف القرن العشرين» وحده.

والجدير بالذكر أن كتاب الدكتور غلوش كان سفيراً طيّباً لدى الكثيرين من قرّائه، فبنوره اعتنق الإسلام نَفَرٌ من الناس، وبهديه أُنشئت بعض المراكز الإسلامية في عواصم الغرب، وإذا كنّا نعرف أن الدكتور «غلوش» كان يمثّل الحكومة المصرية كثيراً فيما يعقد من المؤتمرات الدولية خاصّاً، بمكافحة الخمر، فإنه كان ينتهز هذه الرحلات المباركة للدعوة إلى الإسلام، حيث يقيم أسابيع متوالية بعد انتهاء المؤتمرات ليعقد الصّلات بين رجال الفكر من المثقفين، وليعرض عليهم تعاليم الإسلام في صِيَغ محبّبة له، منتهزاً ما يَعِنّ من المناسبات!.

وكان يتهيّأ للموقف في القاهرة قبل أن يبدأ الرحلة فيختار نصوصاً دينية تتصل بما يشغل الرأي العالمي من شؤون المجتمع والقانون والسياسة، ثم يترجم معانيها ترجمة تسهّل طريقها إلى العقول، فيُدلي بها عند الحاجة.

ولعلّ مما أكسبه كثيراً من التأثير العميق ما كان يرتسم على مُحَيّاه الأسمر من براءة، وما تُوحيه لحيته المُرسَلَة من غيرة وما تشعّ به ابتسامته من تسامح، هذا غير نظرته الحانية العَطوف التي تنفرج عن صفاء هادىء يُوحي بسلامة السّريرة ونقاء الطَوِيّة، والصبر على مشاقّ الكفاح!.

وكم تعرّض بسبب هذه الرحلات إلى مضايق كاربة قابلها بتؤدة الحازم، وتفاؤل المؤمن. وأذكر أنه توجّه إلى فنلندا سنة ١٩٣٩ ممثّلاً لمصر في أحد المؤتمرات، وكان قد قرأ أن بعض المسلمين الأتراك يعيشون في فنلندا متمسكين بعقيدتهم في عُزلة هادئة، فصمّم على أن يتصل بهم، وأبطأ به الوقت في البحث عنهم دون يأس، ثم قامت الحرب العالمية الثانية فجأة، فاشتبه في أمره ووقع في الأسْر أياماً طالعته بالعذاب والمرارة، وحِيلَ بينه وبين العودة إلى وطنه، ولم يجد مَن يبعث برسالة واحدة إلى المسؤولين في مصر ليبذلوا مَسعاهم في إنقاذ رجل سافر ليحضر مؤتمراً طبيّاً خلقياً لا ليأتمر بدولة لحساب دولة كما توهّم مُعتَقِلوه.

وإذا كان الله عزّ وجلّ لا يترك أولياءه، فقد استطاع الدكتور غلوش أن يجد بعد لأيٍ، مَن يستمع إليه فيعلم أن إبطاءه بعض الوقت في فنلندا لم يكن مكيدة سياسية، وإنما كان إشباعاً لرغبة دينية يحسّها المؤمن إزاء ذوي مِلّته وأبناء عقيدته!، فسُمِح له بالعودة إلى مصر، على سفينة مُسالِمة كانت تحلّق فوقها الطائرات متربّصة بقذائفها في الجوّ وتسرّب تحتها الغوّاصات ممتلئة بصواعقها في البحر، ففي كل أُفق منطاد، وفي كل مسرب لغم! بحيث كان الخطر قابَ قوسين أو أدنى من الراكبين، وقد اعتصم الدّاعية المسلم بالقرآن في رحلته يتلوه ملتمساً ثبات إيمانه، وهدوء قلبه حتى انجلَت الغمّة، باقتراب السفينة من الشاطىء، ورؤية البصيص الضئيل يلوح من منار الإسكندرية في ظلام الغارات وأحاديث المخابىء وصفّارات الإنذار!.

لم يفتر لغلوش نشاط في مقاومة المُسكِرات، بل كانت تزيده السنوات الطِّوال كفاحاً واستماتةً في ميدانه، وقد أراد أن يتّخذ من أحكام الدين الإسلامي

سلاحاً باتِراً في معركته فأخذ يوجّه الأسئلة التحريرية على صفحات المجلّات الدينية والجرائد اليومية إلى كبار علماء الأزهر يستفسر فيها ـ ليُعلّم العامّة ـ عن حُكْم المُسكِرات في الإسلام، وعن النصوص القاطعة في التحريم، وعن إهداء الخمر والاتجار بها، وغشيان مجالسها وتأجير حاناتها، ثم عمّا استحدث من الكوكايين والبيرة وكلّ مُسكِر مائع أو جامد، فإذا صدرت الإجابة في الصّحف والمجلّات لم يكتَفِ بذلك، بل يطبع المنشورات المتضمّنة لها، عامِلاً على توزيعها بالمدارس والمساجد والأندية العامّة في نشاط لا يبالي بتقدّم السنّ أو ضيق اليد، أو وقوف المعترض.

ومن روائعه في ذلك أنه تقدّم إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ «عبد المجيد سليم» ـ رحمه الله ـ وكان حينئذٍ مُفتِياً للديار المصرية ـ يسأله عن حكم الخمر وعن عقوبتها المقرّرة في الشريعة، وعن مسألة التجارة فيها ثم يستوضح رأي الشّرع في حدّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين يقوم مسلم غيور فيدعو المسلمين إلى إغلاق الحانات، وقَصْر الخمور على أحياء أهل الذمّة وحدهم!.

وهو استيضاح دقيق أجاب عنه الفقيه الكبير إجابة منطقية تحتاط للظروف والمُلابَسات فقال ما نصّه[1]، بعد أن ذكر نصوص الكتاب والسُّنّة، وأحال إلى الغزالي في الجزء الثاني من «الإحياء»، وإلى ابن القيّم في الجزء الثالث من «إعلام الموقعين»:

«ومن هذا يعلم أنه إذا كان المسلم الذي ساءه الاستهتار بالدين حين رأى الحانات تفتح أمام المساجد، دعا المسلمين إلى العمل على إغلاق هذه الحانات بطريقة لا يترتّب عليها شرٌّ أعظم ولا فتنة أكبر بأن دعاهم إلى مطالبة ذوي الأمر بمنع هذه الحانات والاتجار بالخمر، ومنع سائر المنكرات التي فَشَت في الأمة فأماتت القلوب وأفسدت على العقول إدراكها فأصبح كثير من الناس يستحسِنون

---

(١) مجلة الأزهر، السنة العاشرة ١٣٥٨ هـ، ص ٢٤٠.

القبيح، ويستقبحون الحسن، وفقدت منهم قوّة التمييز بين الخير والشرّ، والنافع والضّارّ، والحَسَن والقبيح، كان هذا المسلم ومَن يقوم معه قد أدّوا ما هو واجب على حسب استطاعتهم.

أما إذا قاموا بأنفسهم بإزالة هذا المنكر، وتغييره بأيديهم، وكان هذا مما يترتّب عليه فتنة وشرّ بالأمة أعظم من الاتجار بالخمر فذلك ما لا يجوز فعله، بل هو محظور لما يترتّب عليه من المفاسد والمضارّ كما قدّمنا».

وما قدّمه الفقيه الكبير هو ما ذكره عن ابن القيّم حين قال في «إعلام الموقّعين»:

«إن إنكار المنكر أربع درجات، الأولى: أن يزول ويخلفه ضدّه، والثانية: أن يقلّ وإن لم يزل بجملته، والثالثة: أن يخلفه ما هو مثله، والرابعة: أن يخلفه ما شرّ منه، فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة: موضع اجتهاد، والرابعة: محرّمة».

هذه خُلاصة الفتوى الدقيقة! وقد يضيق بها بعض المتحمّسين عن قُصُور! ولكنها في منطقها الصائب ذات نظر وسَداد.

- ٢ -

تعتبر المذكّرات الشخصية إحدى الأسانيد الهامّة التي يرجع إليها في تسجيل الأحداث، إذ أنها تمثّل وجهة كاتبها، وتكشف عن أسرار مستترة تُضيء سبيل الحقيقة، وبخاصّة إذا كان صاحب المذكّرات ممّن سَلِموا من الغرور الشخصي، ونجوا من رواسب البشرية الأنانية، فاندفعوا يسجّلون ما يعلمون في صدق وحيدة، بل إن ذوي الغرض المريض من كتاب المذكّرات لا تخلو آثارهم من نفع، لأنها تقدّم ما يصلح للمناقشة والتحليل والتفسير، وستعارض لا محالة بكتابات أخرى في معرِض الدراسة الناقدة، حتى يتميّز الخبيث من الطيب، ووراء ذلك كله تتكشّف معميات التاريخ.

وقد ترك الدكتور غلوش مذكّرات متواضعة تتحدّث عن بعض مواقفه العملية في ميدان الإصلاح الاجتماعي، ونحن في حاجة إلى إذاعتها، إذ أن أكثرها لا يزال مخطوطاً في أدراج مكتبه، وأضابير صناديقه، وليست الحاجة إلى إذاعتها تنحصر في اكتناه ما تثبته من الأضرار الجسيمة للمُسكِرات، فذلك ما نجد أمثاله في مؤلّفات الأطباء والباحثين، ولم تكن لدى الرجل أسرار طبيّة يجهلها الناس عن الخمر حتى نسعى إلى اكتشافها بين أوراق الأضابير، ولكن الحاجة الماسّة إليها ترجع إلى ضرورة الإلمام بخُطى داعية عملي واجهته الصِّعاب الواقعية في كثيرٍ من مواقفه ورحلاته واجتماعياته، وقد تغلّب عليها بجهود مُضنِية دائبة! ونحن إلى الوقوف على مناحي صراعه، ومَطاوي أزماته، وخطوات نجاحه أحوج ما نكون، لنجد العبرة، وننتفع بخير ما تكشف عنه الكفاح.

لقد كان من حظّي الحَسَن أن أجلس إلى الرجل بعض الساعات، وأن أقرأ نُبَذاً من هذه المذكّرات النافعة، وقد تفضّل وأهداني منها مقالة جيدة كتبها عن رحلته إلى المؤتمر التاسع عشر لمكافحة الخمر سنة ١٩٢٨، وكان قد نشرها بإحدى المجلّات العلمية، واحتفظ ـ رحمه الله ـ بنُسَخ منها منتزعة من العدد بحيث لم أستطع تحديد اسم المجلّة أو تاريخها! وكلّ ما لديّ من ذلك ثلاث ورقات ذات صفحات ستّ مطبوعة، تسجّل جهاداً محموداً، هو في واقعه العلمي تاريخ لموقف خالد من مواقف الرجل الكبير، كلّلته العناية بنصر عالمي ساحق، يحتسب له أجره عن الله، وتقديره لدى المخلصين، وقد يكون من المفيد أن أُلِمّ بخُلاصة هذا الموقف الرائع مستنداً إلى ما لديَّ من الصفحات!.

- ٣ -

عُقِدَ المؤتمر الدولي التاسع عشر لمكافحة المُسكِرات سنة ١٩٢٨ بمدينة «أنفرس» البلجيكية، وقد توزّع أعضاؤه العلماء على لِجان مختلفة، لكل لجنة عملها العلمي وقراراتها المقترحة، وأدلّتها المبسوطة للنقاش، فهناك اللجنة الدينية التي تذكر النصوص المقدسة في ذمّ المُسكِرات، وتُوجِب البُعد عمّا تسبّبه من

الموبقات، وأكثر أعضائهـا من أساقفـة الدين المسيحي وهنـاك اللجنة الـطبّيّة التي تحلّل عناصر المُسكِرات، وتشرح موادّها التركيبية، ثم تشفـع تحليلها بمـا تراه من أضـرار هذه المـواد في الأجسام، ضـارِبة الأمثلة على ذلـك بما انتشـر من أمراض المُسكِرات في العالم الغربي، وأكثر أعضائها من أعلام الطبّ وأفذاذه في جامعات أوروبا، وهناك اللجنـة الاجتماعيـة التي تناقش مسـألة الحـرية الشخصيـة للإنسـان وصِلتهـا بتحريم المُسكِـرات قانـونيـاً عليـه، كمـا تتحـدّث عن أضـرار الخمـر في المجتمع البشري شافعةً ذلك بأدقّ الإحصائيات وأرجـح الشواهـد، وأكثر أعضـائها من أساتذة الاجتماع وأئمة الدراسات النفسية في العالم المتحضّر.

وقد تكلّم أعضاء اللجنة الدينية في الجلسة الأولى للمؤتمر ولم يشأ الـدكتور «غلوش» أن يعقب على أحاديثهم بشيء إذ أنهم اتّجهوا في بحوثهم الدينيـة إلى أن المسيحية الحقيقية تحرّم الخمر، وأن ما يراه عامّة المسيحيين من إباحتها لا يستنـد إلى أصول المسيحية الأولى في شيء، ثم أفاضوا في هذه الناحيـة إفاضـةً مُشبَعَة، وإذا كان الدين الإسلامي قد اشتهر بتحريم المُسكِرات تحريماً قاطعاً لا خلاف معه في مذاهبه الفقهية المختلفة فلم يكن أعضاء المؤتمر بحـاجة إلى مَن يتحـدّث عن ذلـك، وهم في اجتماعهم البلجيكي إنمـا يصـدرون قـطعـاً عن روح الإسـلام في تحريم المُسكِرات، أذعنوا لذلك أم جادلـوا فيه، ولـذلك تـريّث الدكتـور «غلوش» فلم يهم بـالتعقيب بشيء عند النقـاش المتبادل بعـد محاضـرات اللجنـة الـدينيـة، وتحيّن فرصة الكلام عند مناسبات قريبة.

وجاء دور اللجنة الطبيّة فأعلن كبير الأطباء في مستشفى «ڤيينا» حاضِرَة الدولة النمسوية: «أن رجـال الطبّ كـانوا على شَـطَط عظيم حين كـانوا يـوصون بتعـاطي جرعات من المشروبات الكحولية للاستعانـة بها على مقـاومة البـرد، لما كـان يبدو من تأثيرها الظاهر في تدفئة الجسم عقب تناولها، حتى لا يكاد شارِبها يتصبّب عرقاً من شدّة الحرارة في الجسم إبّان البرد، وذكر المُحاضِر أن هذا الشعور بالدفء إنما هـو شعور كـاذب، إذ يعقبه انخفـاض في درجة حـرارة الجسم يحـدث نكسـة من الصعب تلافيها.

ثم قام طبيب آخر ـ عند مناقشة المحاضرة ـ فأعلن أن جـزيرة «إيسلنـدا» من أشدّ البلدان برداً، وقد كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بتعاطي المشـروبات المُسكِرة، فكثرت بينهم الوفيات إلى حـدٍّ مُذهِـل، وقد ألّفـوا لجنة طبيّـة أثبتت أن كثـرة الوفيـات ترجـع إلى أن القوم يستنفـذون حرارة أجسـامهم بمـا يتعـاطـون من الخمر، فيصعد الدم بتأثير الكحول من داخل الجسم إلى سطح الجلد فتبيده برودة الجوّ تدريجياً حتى تأتي على آخره، وتنتهي الحياة بانتهاء الحـرارة من الجسم ومن ثَمّ فقد أصدر البرلمان «بآيسلندا» قانوناً بتحريم المُسكِرات على أهل البلاد».

وقـام ثالث فتحـدّث بأن الـرحّـالـة الـدكتـور «سكـوت» أدرك تـأثيـر الخمـر في الأجـــواء البـاردة بالقطب الجنوبي، فأوصى أصحابه بعدم شربها، وقد نسي بعض أصحابه نصيحته فكانت النتيجة كما دوّنها الدكتور «سكوت» في مذكّراته تنطق بـأن النجاة قد كُتِبَت لِمَن امتنع عن الخمر دون سواهم!.

قال الدكتور غلوش: وهنا رأيت المقام مناسباً لأن أُعلن بعد مقدمة مناسبة أن رسول الله ﷺ قد أخبر منذ أربعة عشر قرناً: أن الخمر لا تصلح لمقاومة البرد، فقد جاء في كتاب السُّنّة الصحيحة ما نصّه:

«عن ديلم الحميري قال: سألت النبي فقلت: يا رسـول الله إنّا بـأرض باردة نعالج فيها عملاً شديداً، وإنّا نتّخذ شراباً من هـذا القمح نتقـوّى به على أعمـالنا، وعلى بـرد بلادنـا فقال: «هـل يُسكِر»؟ قلت: نعم، قـال: «فـاجتنبـوه»، قلت: إن الناس غير تارِكِيه، قال: «فإن لم يتركوه فقاتلوهم»» رواه أبو داود وصحّحه.

فكانت دهشة الحاضرين عظيمة، وقوبلت أقوالي بعاصفة من الهتـاف، وجاء الكثيرون منهم عقب رفع الجلسة يريدون النصّ النبوي لكتابته.

ثم قـال الدكتـور غلوش ما ملخّصـه: «وفي اليوم التـالي تكلّم المُحاضِـرون فـأثبتـوا أن (جـرعـة تـود) المُسكِـرَة لا تفيــد في التـداوي، إذ أن فكــرة العـلاج بـالمُسكِـرات لا تقـوم على أسـاس صحيـح، فهنـاك آلاف المـرضى كنّـا ـ معشـر

الأطباء ـ نَصِفُ لهم أنواعاً من الخمر تعجّلاً لشفائهم، فكنّا ـ دون قصد ـ نعجّل بالقضاء عليهم، فانتهزت ـ القائل غلوش ـ هذه الفرصة وقلت في معرِض النقاش: هذه معجزة أخرى لنبيّ المسلمين ﷺ حيث لم يَقضِ في التجارب الطبيّة يوماً واحداً بل عشرات السنين التي لا بدّ من قضائها لمعرفة أثر أيّ نبات أو عِقار أو شراب في الجسم، وإنما عرف بطريق الوحي أن الخمر لا تنفع للتداوي.

فقد روى مسلم وأبو داود والترمذي عن طارق الجلفي أنه سأل رسول الله ﷺ عن الخمر فنهاه عنها فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: «إنه ليس بدواء ولكنه داء».

وهذا الإرشاد النبوي جعلنا ـ نحن المسلمين ـ نتمسك به حتى ليفضّل أحدنا أن يقضي نحبه على أن يشرب دواء في مُسكِر حذراً من مخالفة الله ورسوله، وما انتهيت من كلامي حتى بَدَت علامات الاستحسان في الوجوه، ونقل الكثيرون نصّ الحديث عنّي.

ثم جاء دور اللجنة الاجتماعية في اليوم التالي، وكان موضوع الحديث عن تحريم الخمر والحرية الشخصية، فأثبت المُحاضِر خطأ الرأي القائل: بأن في تحريم الخمر مصادرة للحرية الشخصية، إذ بَدَا للعَيان ما بَدَا من مساوىء الخمر في المجتمعات البشرية حين تترك من الضحايا ما لا يُقاس به ضحايا الأوبئة والحروب، ولا مَناص حينئذٍ من اللجوء إلى القوة والإكراه في منع الجُهَلاء عمّا يحيق بهم من الشرّ الخبيث.

وقد طلب الدكتور غلوش الكلمة بعد انتهاء المحاضرة ليقول في شجاعة: «لعلّكم أيّها السادة والحالة هذه لا تنفرون عن الدين الإسلامي حين تعلمون أنه يُوجِب حدّ شارب الخمر بأن يُجلَد ثمانين جَلدَة، وهذا الدين لم يكتفِ بتحريم الخمر: شُربها وبيعها وصُنعها وحملها وتقديمها وأكل ثمنها، بل إنه لم يترك الناس وشأنهم فيها، فأنزل بشارِب الخمر عقوبة بدنية زَجْراً له وصَوناً للحرية العامّة من أن

تكون عُرضَة لاعتداء مُدمِني الخمر» فعَلاَ هِتاف المُؤتَمِرين وارتفع صـدى تصفيقهم الطويل!!.

بعد هذه المواقف المتكررة في سبيل الله! قال الدكتور «غلوش»: وكـان بين المؤتمرين قسّيس إرلندي فأقبل يحيّيني في بِشْرٍ ويشدّ على يدي، ثم قال: أراك يا عزيزي قد أفلحت تماماً في توجيه الأنظار نحو ديانتك المحمّدية فأُهنّئـك على هذا النجاح، فتبسّمت وقلت: أما أنـا فأشكـر المؤتمر ورجـاله أن كشفت أبحـاثهم عن معجزتين علميتين لرسول الإسلام، فقال قائل: وهل لنبيّكم هـذا أقوال مـأثورة في شؤون الحياة العامّة؟ فقلت: إنه لم يـدع شيئاً من شؤون الحيـاة ولا أمراً من أمـور الناس إلاّ فاضَ في تفصيله، فسُئِلتُ: وهل توجد هذه الأقـوال في كتاب إنجليـزي مثـلاً؟ فأشـرتُ: إلى بعض الكتب المترجمـة في هذا المـوضوع ذات القـرابـة من الأصل العربي ومن أهمها: «كتاب مشكاة المصابيح»!.

وحـدث قبل رفـع جلسات المؤتمـر واختتامهـا أنّي دُعِيت إلى تنـاول الشـاي والحلوى في منزل بعض وجهاء البلجيكيين فلبّيت الدعوة، وهناك لقيت جمعاً كبيراً من مختلف الأجناس حضروا ليستزيدوني إيضاحاً وبيـاناً عن دين الإسـلام وتاريـخ صاحب الشريعـة عليه أفضـل السلام، فـذكرت لهم طـرفاً من ذلـك حسبما اتّسـع الوقت المحدود، وكنت أحـرص على أن أذكر جميـع الأنبياء بـالتبجيل والتعـظيم، مُعلِنـاً أننا معشـر المسلمين لا نفرّق بين أحـدٍ من رُسُل الله، وأُقسِم أنـه لـو كـانت الـظروف مواتيـة وأقمت بين ظهراني أولئـك القـوم عـامـاً أو عـامين لأمكن هـدايـة الكثيرين منهم إلى نور الإسلام وطريقه المستقيم».

- ٤ -

نجـد بعد الإلمـام بموقف الـدكتور «غلوش» في المؤتمـر البلجيكي أنه كـان سفيراً لدينـه بين أكثريـة لا تكاد تفهمـه، إذ أن الدّاعيـة الحصيف لم يشأ أن يتقـدّم بمحاضرة طنّانة يقـولها بين أعضـاء اللجنة الـدينية، فتمتلىء بـالنقول دون أن تجـد مناسبتها اللاّفتة، ولكنه استعمل أدقّ أسلوب للحصافة البارعة حين جعل آراءه تأتي

خلال المناقشات باعتبارها تعقيبات ضرورية قد هُيّىء مكانها ومناسبتها، لذلك وجدت الانتباه القوي، وشدّت الأبصار والأسماع إلى صاحبها حتى سعى إليه الأسقف الإرلندي متعجّباً من يقظته البارعة في توجيه جميع الأنظار إلى مبادىء الإسلام.

وهكذا كان الرجل خير سفير مسلم في جماعات مثقفة لا تؤيد الآراء الصائبة دون أن تجد لها أدلّة حاسمة تحوطها بسياج متين، وإذا كان هذا موقفه بين الغرباء فإن حصافته البارعة لا تخذله في كفاحه الداخلي بين جدران وطنه العربي المسلم، بل تدفعه إلى أن يعود من رحلاته المتكرّرة حاملاً خُلاصة الآراء الطبيّة الجديدة في تأثير الكحول والمخدّرات ومُقَدّماً رَسْماً بيانياً يثبت مدى انتشار مكافحة الخمور في بلادٍ لا تكاد تدين بتحريمها سماوياً، وإنما يتّجه المخلصون إلى ذلك وراء ما يشاهدونه من أسوأ آثار المُسكِرات ـ وأذكر مثالاً لذلك ـ ما طبعه الدكتور «غلوش» بعد عودته من المؤتمر الفنلندي في أعقاب سنة ١٩٤١ من منشورات هادفة تثبت اتّساع النطاق الأوروبي لمكافحة الخمور، وقد تضمّنت وقائع هامّة عن مكافحة المُسكِرات في بلاد النرويج والدانمارك والسويد وسويسرة وفنلندا وأستراليا وغيرها، ومن أهم ما جاء بها نداء وجّهه إلى شباب سويسرة الجنرال (جويزان) القائد العامّ للجيش السويسري إذ ذاك جاء فيه:

«إن أرض الوطن وديعة في يد شبابه، ولن تسلم هذه الوديعة المقدسة من يد الغاصب المستبدّ إلاّ إذا سَلِمَ الشباب من غائلة الخمر، فاتّقِ الله أيّها الجندي في وطنك ونفسك واعلم يقيناً أن في يدك وحدك الخاتم الذي ستطبع به بلادك فلا تلطّخ جبهة الوطن، ولا تطبعه بطابع المَذَلّة والعار، ولن يكفل لك ذلك إلاّ مُجانبة الخمر، فاغنم هذا الشّرف بقوّة عزيمتك».

وقد نُشر هذا النداء بمجلة الأزهر المصرية بالمجلد الحادي عشر (١٣٥٩) ص (٤٣٢) بين وقائع إصلاحية أرسلها المكتب الدولي لمكافحة المُسكِرات «بلوزان»، وكان المرحوم الدكتور «غلوش» قد بادر إلى طبعه وتوزيعه تلقائياً قبل أن

يهتم به مكتب لوزان، مما يؤكّد أن عينه كانت تشعّ دائماً بإبصار نافذ يحيط بكل ما يصلح من الأسلحة الباترة في كفاح المُسكِرات فيستخدمه دون إمهال.

هذه بعض أعمال الرجل الكبير، وقد اتّجه في خاتمة حياته إلى كتابة دراسة مستوفاة عن التصوّف الإسلامي في شتّى عصوره، ولا تزال مخطوطة في مسودّاتها كأكثر مذكّراته الشخصية عن جهاد المُسكِرات!.

ولعلّ من حقّه على أُسرته أولاً، وعلى الدولة ثانياً أن تطبع هذه الآثار الرائعة لأن جدواها الثمينة ليست مجال الخلاف.



عبد الوهّاب النجّار
المـــؤرّخ، البحّـــاثة، المُجاهد

- ١ -

الثقافة الإسـلامية ذات أصـول متشابكـة متجاورة، ولا بـدّ لعالِم الإسـلام أن يمتدّ نظره إلى أعماق هذه الأصـول المتجاورة ليجعـل من روافدهـا المختلفة تيّـاراً ينحـدر إلى ذِهنه، فيفيض بمختلف المعـارف عن ضلاعـة وأصالـة، ولكن الأخـذ بالنظم الجامعية الحـديثة قـد ساعـد على فَصْم هذه الأصـول مساعـدة ضاءلت من حصيلة رجـل الثقافـة، حتى أصبحنـا نـرى المتخصّص في الأدب بكليّـة اللغـة أو الآداب لا يلمّ بشيء مما يعرفه أخوه في كليّة أصول الدين أو في كلية الشريعة! مع أن رجال الإسلام في القديم والحديث كانوا لا يقيمون هذه الحـواجز الفـاصلة بين المعارف الإسلامية.

فالشافعي مثلاً كان راوية شعر ولغة وعنه أخذ بعض الرّواة شعر الهذليين مـع إمامته في التشريع، والأستاذ «محمد عبده» كان يحلّل دلائـل الإعجاز وأسـرار البلاغـة في الأزهر، كما كان يفسّر القـرآن في الرّواق العبـاسي ويشرح مقـدمة ابن خلدون لطلّاب دار العلوم، ويقرأ رسالة التوحيد ببيروت!.

ولسنا ننكر بذلك أهميـة التخصّص العلمي ولكنّا نحـذّر من الالتزام بـه على هذا النحو المُفرِط، التزاماً جعل الواقع المُشاهَد بين أبنـاء الكليات لا يـوحي بخير كثير.

ولعلّ في سيرة الأستاذ «عبد الوهاب النجّار» ما يتّخذ برهاناً على ضرورة الإلمام بأصول الثقافة الإسلامية مهما تشعّبت أطرافها وامتدّت جذورها، وما ظنّك بعالِم مُستنير، تقلّب في المدارس العالية والكليّات الجامعية ليدرس علوماً مختلفة، كان أستاذها البارز ومحقّقها الشهير؟! فإذا كان قد بدأ حياته مُدَرّساً للغة العربية ببعض المدارس الأميرية، فإن مواهبه الذائعة قد رشّحته بعد ذلك إلى تدريس الأدب العربي في كلية الخرطوم بالسودان، فأنشأ جيلاً يهيم بالأدب والثقافة، ثم عاد إلى مصر ليكون أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية البوليس، فأبدى من المهارة ما جعل طلابه يعتقدون أن قوانين أوروبا التي يدرسونها على المتخصّصين مما لا ينهض لأصول الشريعة الإسلامية في شيء.

وزاول مع ذلك المُحاماة الشرعية فأبدى أُصولاً حيّة في فروع الأحوال الشخصية: من مواريث وطلاق وزواج وحضانة ونفقة! ثم اتّفق له أن يكون أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية القديمة، فكان هو والشيخ «محمد الخضري» فرَسَيّ رهان، وفي مضمار التاريخ كُتِبَ له الخلود العلمي بما كتب ودرس وحلّل، ثم انتقل إلى تدريس المنطق بدار العلوم، فكان سامعه يظن أنه لا يعرف غير المنطق لدقّة جدله، وصحّة تطبيقه!.

ثم رأت مشيخة الأزهر أن تختاره أستاذاً للدعوة الإسلامية بكلية أصول الدين، فدرس تاريخ الدّعاة من الأنبياء والقادة دراسة وضعت الأساس الثابت في صَرْح هذه المادة المستحدثة! ولقي الله عزّ وجلّ بعد جهاد حافل متعدّد المناحي متنوّع الأفنان.

وإذا كان الظمأ إلى المعرفة إحساساً يتطلّب الريّ فإن النجّار قد تعدّى الثقافة الإسلامية القديمة إلى العلوم العصرية المستحدثة، فاتخذ من ثقافة عصره سلاحاً يدافع به عن اتجاهاته الروحية والعلمية، وكان بذلك السلاح قريباً إلى نفوس تلاميذه أثيراً لدى قلوبهم، قال عنه الأستاذ «عبد المنعم خلاف» بالعدد (٤٣٩) من مجلة الرسالة:

«قد ساعده على الاقتراب من قلوبهم اتصاله بنصيب وافر من العلوم العصرية التي كان يعلم منها ما جعله ابن زمانه وربيب عصره، لا رجلاً متخلّفاً عن ملاحقة سير الحياة بالأحياء، وسرعة نموّ هذه المدنية العجيبة التي تتفتّح فيها أسرار الطبيعة للعقول تفتّحاً متلاحقاً يُحيّر الألباب ويُثير الدهشة، ويكشف عن كلمات الله ليس لها نهاية ولا نَفاد، فكان عليه رحمة الله يعلم من مباحث علوم الطبيعة والكيمياء والكهرباء وفنون الصناعات والآليات ما كان يثير الإعجاب ممّن يسمعونه، وهو شيخ مُعَمّم تقدّمت به السنّ، وتوجّه فكره من قديم إلى الأدبيات وعلوم اللغة والشريعة والجدليات، وما إليها من الميراث الشرقي النظري».

وُلِدَ الأستاذ النجار بالقرشية في منتصف مارس سنة ١٨٦٢، وكان والده ممّن يميلون إلى التصوّف، وحدث أنه كان يقرأ في كتاب الطبقات للشعراني ساعة بُشِّرَ بمولده، فسمّىٰ وليده عبد الوهّاب تيمّناً بمؤلّف الطبقات، وكأنه أراد بذلك أن يكن الوليد من رجال العلم الصّوفي، وقد سار في تربيته على نحو يؤهّله لما يريد، فعمل على أن يحفظ القرآن في طفولته، ثم أرسله إلى الجامع الأحمدي في طنطا، ليتلقّى الدراسة الأزهرية في يفاعته.

وكانت للطالب نفس تهيم بالأدب على حداثته، فتناقل الطلاب حديثاً عن شاعر ناشيء يعمل كاتباً لدى أحد المُحامين بطنطا، ورَووا بعض شعره الذي أعجب النجار، فسارع إلى التعرّف بالشاعر الذي أصبح فيما بعد شاعر النيل: «حافظ إبراهيم»، وقد أفاض الأستاذ في تسجيل ذكريات ذلك العهد بمجلة أبولو (يوليو سنة ١٩٣٣) فقال إنه أحسّ إليه بجاذب من الأدب، فشاهد مجلسه الحافل بالظَّرَف ولطف المحاضرة وسُرعة البديهة وحضور النّادرة، وكان يصلّ المغرب والعشاء معه، ثم يلبثان الليل في سَمَر ممتع، ومُطارحة لذيذة حتى صار مجلس حافظ ندوة ليلية في طنطا، وصار النجار أحد فرسان هذا المُنتدى مع فريقٍ من نابِهِي طلبة المعهد الأحمدي.

لقد تأصّل حبّ الأدب في نفس الطالب الناشيء، فأكبّ على كتبه روايةً وحفظاً واستيعاباً، ثم جدّ من الأحداث ما دفعه إذ ذاك إلى دراسة المسائل الدينية

في أصـول الإسلام والمسيحيـة وهو بَعْـدُ في سنواتـه الدراسيـة الأولى، إذ إن أحد القسس الإنجليز من البروتستانت قد تـزيّا بـزيّ الأقباط، ووفـد إلى طنطا في بعثـة تبشيرية سرّيّة، وكان أكبر همّه أن يَحُوك الاعتراضات المُغرِضة ويذيعها بين الناس، ثم أخـذ يجتمع بـطلبة المعهـد الديني ليُلقي إليهم سُمـومـه في ثـوب أسئلة دينيـة تتطلّب الإجابة، فلم يطق الفتى النـاشىء صبراً على هـذا التبشير المقصـود، وأخذ يحاصر القسّ مع نفر من زملائه سائلاً، مُساجِلاً، متّهمـاً، حتى تحوّلت طنـطا إلى ساحة سِجال ديني.

وانتقل صدى هذا النقاش إلى القاهرة، ثم أبـرق القسّ عنه إلى الجهـة التي أرسلته في إنجلترا فضجّت التيمس واتّهمت المصريين بالتعصّب الديني!، وتدخّل اللورد كرومر المعتمد البريطاني حين رأى من الحكمة إبعاد القِسّيس عن طنطا كيلا يؤجّج حرباً دينية، ولولا ثبات النجار ورفاقه لتمادى المبشّـر في غيّه مشمـولاً بعنايـة الحاكمين من المحتلّين.

ثم انتقل النجار إلى القاهرة والتحق بدار العلوم، فكان نجماً لامعاً، وزميـلاً عـظيماً «لعبـد العزيـز جاويش» و«أحمـد إبراهيم» و«حسن منصـور» من أبناء فـرقته الدراسية، ولم يكد يقوم بتدريس اللغة العـربية في مـدرسة عـابدين الأميـرية حتى وجد المدرسـة الإنجليزيـة بباب الخلق تقـوم بالتبشيـر العلني للمسيحية، مشمـولة برعاية كرومر السافرة! وقد ضمّت إليها نَفَراً من القسس يـدعون المسلمين صـراحةً إلى الـدين المسيحي فتـذكّـر جِهـاده السّـالف في طنـطا، واختـار نفـراً من رفـاقـه المدرّسين وتوجّه إلى مقرّ التبشير ليناقش القسس فيما يدعون! ثم والَى ذهابه يوميـاً إلى المدرسة مع رفاقه، إلى أن فُوجىء ذات مساء بكوكبـة من الجند تخفّ للقبض عليه مع زمـلائه، وتحـرّم عليهم دخول هـذا المكان! فـاتّجه من الفـور إلى الأستاذ محمد زكي الدين سند وكان من خِيـرة الدّعـاة للإسـلام، حيث اتّفقا على تـأسيس جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية، لتجمع الشباب الإسلامي كـل مساء في منتـداها العلمي مفنّـدة مزاعم التبشيـر، وهاتفـة بمجد الإسـلام! وكانت أول جمعيـة تُؤَلَّف

للدعوة الإسلامية في مصر وقد اتّسع نشاطهـا، فضمّت الكبار من الـوزراء والعلماء والقُضاة وصار لها مجلة تسجّل محاضراتها وتذيعها على الناس.

ثم رأى الأستـاذ أن يغذّي الصّحف اليـومية بـآرائـه الـدينيـة والاجتمـاعيـة، فظهرت مقالاته المتابعة تعالج شؤون الإصلاح حتى سار لـه ذكر طـائر في قـومه، فانتُدب إلى التدريس بالمدارس العالية، ورحل إلى الخرطوم في سفارة علمية، ثم رجع ليكون أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية القديمة، فأُتيح له أن يُشرِف على تهيئة جيل جديد يتفتّح للبحث العلمي في شتّى فروعه.

وكـان عجيباً أن يُشـرِف الأستـاذ على إعـداد رسـائـل الـدكتـوراه في فـروع مختلفة، وأن يناقش اليـوم رسالـة في الفلسفة ليناقش في الغد رسـالة في الأدب، وليناقش بعد الغـد رسالـة في التاريـخ بمشهد من النـظارة، وبمحضـر من جمـوع المثقفين، وقد اعتاد أن يكتب تقريراً مفصّلاً مُسهباً في كل رسالـة يناقشهـا فيضمّنه آراءه النقدية في الرسالة باباً باباً على وجه التفصيل.

وقد اضطر الدكتور زكي مبـارك إلى أن يقيّد آراء النجـار في هوامش رسـالته المطبوعـة عن أخلاق الغـزالي، وقد نـال بها جـائزة الـدكتوراه في الفلسفـة، وكان الأستاذ من أبرز المُناقشين دقّةً وتحديداً واعتـذاراً! أما الـدكتور «أحمـد البيلي» فقد افتتح الطبعة الثانية من رسالته التاريخية عن صلاح الدين بمذكّـرة الأستاذ النجّـار، وهي تقـرير مُـدوَّن في صفحاتٍ عشـر، تتضمن نظرات النـاقد في الـرسالـة منهجاً وموضوعاً وأسلوباً، ذاكِرة أرقام الصفحات التي يتّسع المجال فيها للنقاش النظري.

وكان جميلاً من الشيخ أن يقول في تقريره عن مراجع الرسالـة: «إن الكاتب قد جمع طائفة من الكتب يستأنس بها ويسترشد فيما عساه أن يقوله، ثم نقد الكتب العربية التي اطّلع عليها وإني لا أُعارض فيما قال عنها، وأما عن الكتب الأوروبيـة فمما يدعو إلى أسفي واغتباط صاحب الرسالة أني لا أعرف لغة أجنبية، ولو عرفت لاستدركت عليه في اختياره بعض الكتب ولدلّلته على غيرها وأمسّها بموضوعه».

وبمناسبة الحديث عن اللغة الأجنبية أذكر أن الأستاذ قد اضطر إلى أن يجلس مجلس التلميذ من تلميذه الدكتور «علي العناني» ليتعلم على يديه اللغة العِبرية، حيث كان في حاجة إلى قراءة التوراة بلغتها الأصيلة، لتمدّه بما يريد من الحجاج في دراساته المقارنة للأديان! وقد كان الشيخ وحيداً في طريقته الفذّة حين يقارن آيات القرآن بما ورد في موضوعها من كتب العهد القديم والعهد الجديد.

ولعلّ أبرز مجال انفسح أمام الشيخ في مِضمار الدعوة الإسلامية هو مجال جمعية الشبّان المسلمين، منذ سعى مع الأستاذ «عبد العزيز جاويش» والدكتور «عبد الحميد سعيد» إلى تأليفها لتقوم برسالة الإسلام الثقافية والاجتماعية، فتصدّ التيّار الغربي المُناوِىء، وتدعو إلى إحياء أمجاد السّلَف، وتردّ الثقة بحضارة العرب وعظمة الإسلام.

وفي قاعة هذه الجمعية جلجل صوت النجار عالياً في كل مناسبة تحين، بحيث صارت مُنتدىً رفيعاً لكِبار المخلصين من رجال الشرق والإسلام وأصبحت مِنبَر الداعين إلى الله، فاجتذبت أفواج الشباب وكشفت خداع المروّجين لماديّة الغرب وبهارجه، وأقامت حصناً واقياً للفكرة الإسلامية، وظهرت مجلّتها الرسمية تذكّر المسلمين بسلفهم الصالح، وقد يكون غريباً أن يصبح الشيخ النجّار محرّر باب الإفتاء الفقهي في المجلة، ليصدر عن ثقافة أصيلة تمدّها خِبرة وافية بأحوال العصر، ومُلابَسات العُرْف وتطوّر التشريع!.

وإذا كان من رسالة جمعية الشبّان المسلمين أن تؤكد علائق المحبّة بين الدول العربية والإسلامية، فقد أرسلت سفراءها إلى عواصم هذه الدول تدعيماً للأخوّة، وتذكيراً بالآمال المشتركة، وكان النجّار أصلح وافِد يرحل إلى سوريا وتركيا والعراق وفلسطين، مؤدّياً رسالة الجمعية، ومتحدّثاً في الأندية، وكاتباً في الصّحف، وله مذكّرات مخطوطة عن رحلاته المتتابعة، نرجو أن يكون أولاده الكِرام قد حفظوا لها مكانتها دون أن تعبث بها أيدي الضياع!.

ولعلّ رحلته الأخيرة إلى الهند سنة ١٩٢٧ كانت أعظم هذه الرحلات أثراً، إذ تناقلت الصّحف إذ ذاك أنباء تُشير إلى اتجاه نفر كبير من المنبوذين في الهند إلى اعتناق الإسلام فاهتمّ الأستاذ الأكبر «محمد مصطفى المراغي» شيخ الأزهر بما أُذيع، وكاتب أعيان المسلمين هناك ملتمساً تأكيد ما يقال فجاءت الردود متضاربة متناقضة، فرأى أن يُوفِد بعثة أزهرية إلى الهند لترقب الأمر عن عَيان، واختار الأستاذ عبد الوهاب النجار مع اثنين من كبار علماء الأزهر ليكونوا ألسنة صادقة للأزهر، وليشدّوا أزر المسلمين في الهند حين يعلمون أن إخوانهم في مصر يحرصون على أن تكون كلمة الله هي العُليا في الهند!.

وقد سافرت البعثة لتؤدّي دورها الإرشادي نصحاً وتوجيهاً ولترجع إلى شيخ الأزهر بمذكّرة ضافية تصف شتّى التيّارات المتعارضة، وتنقل آراء ذوي الكلمة المسموعة في الهند، أمثال محمد إقبال، ومحمد علي جناح، والكلونيل مقبول توشي.

وقد احتفظ النجار بمذكّرات خاصّة كتبها لنفسه، ونشر بعضها في صحيفة دار العلوم عقب وفاة السيد محمد إقبال، إذ تعرّض إلى تفصيل ما دار بين الشاعر الفيلسوف وأعضاء البعثة الأزهرية من حديث مُسهَب، أوضح صِلة المسلمين بالهنادكة، وبيَّن تحامل الإنجليز على المسلمين بالذات، ثم ردّ على المُفتَريات الظالمة التي تشوّه عن عمد بطولة المسلمين من الهنود، وتوضح بالأدلّة المُقنِعة كيف كان المسلمون في الهند الأعداء الحقيقيين للإنجليز، وكيف فهم الإنجليز ذلك فعملوا على مساندة الهنادكة وحاولوا أن يهدوهم بعض المساجد الإسلامية لولا ما اشتعل في صدور المسلمين من الحَمِيّة الثائرة فواجهوا الإنجليز والهنادكة معاً ببطولة منقطعة النظير.

وهكذا تفيض مذكّرات الرجل في شؤون هامّة يجب أن تكون موضع دراسة مستأنية بصيرة، لدى أبناء الإسلام في كل مكان، لأن تاريخ المسلمين كُلٌّ لا يتجزّأ، ومحاولة اقتصار كل دولة على تاريخها المحدود فَصْم للعلائق الوطيدة التي

أكّدها الإسلام، وتوهين لحبل الله الذي أمر المسلمين جميعاً أن يعتصموا به بعد أن أصبحوا بنعمته إخواناً، فمن مبلغ إخواننا المسلمين في الهند والباكستان، أن تاريخ جهادهم الرائع حلقة ذهبية في سلسلة ثمينة الحلقات عامِرة البطولات.

- ٢ -

كان المظنون أن التصوّر الزمني يُتيح للعرب والمسلمين تقدّماً ملموساً في ميادين البحث العلمي، بمعنى أن كل باحث جديد يضيف إلى ما تقدّمه أثراً ذا بال، وربما تحقّق ذلك في بعض مَناحي الثقافة المعاصرة، ولكن دراسة التاريخ الإسلامي بالذات لم تظفر بمَن يمدّها بأسباب الجدّة المخلصة على نحوٍ يُظهِر أصالة هذا اللون العريق من ألوان الدراسات الإنسانية، ولن أكون مُغالِياً حين أقول: إن رجال التاريخ الإسلامي في الجيل الماضي من مثال «محمد الخضري ورفيق العظم وعبد الوهّاب النجّار ومحمد حسين هيكل» كانوا أكثر توفيقاً، وأخلص نفاذاً من مؤرّخي الجيل الحاضر مع ما أُتيح لهؤلاء من وَفرة المصادر المطبوعة وكثرة الفهارس الدّالّة! وتلك قضية هامّة يجب أن نقف لديها متأمّلين!.

إن كثيراً من مؤرّخي اليوم قد تخرّجوا في كلّيات الجامعات العربية عن طريق المدارس الثانوية المدنية، بمعنى أن دراستهم الإسلامية في الصفوف الابتدائية والثانوية كانت بضع آيات قرآنية، تُشير إلى مناحي الأخلاق دون أن يُتاح لهم بعض الإلمام بحقائق التشريع الإسلامي، حتى إذا انتقلوا إلى الجامعات رأوا أعلام الاستشراق وتلاميذ المستشرقين، يسيطرون على عقولهم بما لَفَّقوا من تاريخ! فكان قُصاراهم أن يجروا خلفهم في كل طريق!.

والتاريخ الإسلامي بالذات في حاجة إلى مَن يفهم أدواره المتعاقبة على ضوء الشريعة الإسلامية، فكيف يُتاح إذن لطالب جامعي لم يقرأ جميع القرآن، ولم يطالع كتب المفسّرين ولم ينفذ إلى لباب الحديث النبوي، أن يتحدّث عن مسائل الحرب والقتال، وعن القضاء والخراج والوزارة والحكم وشتّى مناحي الإدارة الإسلامية في عهودها الزّاهرة؟!.

إن جلّ اهتمامه أن يرجع إلى أقوال أساتذته، وأكثر هؤلاء لا يسعفونه بغير اتجاهات المُغرِضين ممّن كتبوا التاريخ الإسلامي بأهوائهم المريضة، لذلك يحقّ لنا أن نقول إن طراز عبد الوهّاب النجّار، ومحمد الخضري، ورفيق العظم كان أقرب إلى الصواب ممّن خلف! لأن هذا الطراز قد درس الشريعة الإسلامية دراسة تمكّنه من تفسير الأحداث واستكناه الأسرار، وقد خَلاَ من التحامل المُغرِض الذي سيطر على نفر من باحِثِي اليوم، وكان ثمرة عَفِنَة لتوجيه دنيء كشفت عن مثالبه السُّتور!.

ثم إنَّ كتب التاريخ القديمة ـ في أكثرها ـ لدينا كتب رواية وإسناد، بمعنى أن المؤرّخ القديم كان يتتبّع شتّى الروايات ليسردها في كتابه وفي بعضها من التضارب ما يقف به موقف النقيض من بعضها الآخر! لأن أمثال الطبري والمسعودي وابن الأثير كانوا لا يكتفون بتسجيل ما صحّ لديهم وقوي، بل وجدوا من الأمانة العلمية أن ينقلوا كل رواية معزوّة إلى مصدرها. وعلى القارىء أن يستعرض كل خبر ليقوم تلقائياً بالترجيح والتعليل.

وقد عَفَى الزمن على طريقة الرواية والإسناد، فسلك المؤرّخون مسلك البحث المتماسك ذي المقدمات والنتائج! وهنا يكمن الخطر في كتابة التاريخ، إذ إن أساتذة الاستشراق يعمدون كثيراً إلى روايات ضعيفة، يمهّدون لها بالمقدّمات الخادعة ليصلوا إلى نتائج مُغرِضة تجعل تاريخ السّلف مظنّة الانحدار والهبوط، ثم يغفلون عن عمد ما يناقضها من الروايات الصحيحة ليستقيم لهم القول على نحو ما يبتغون! ويجيء الطالب الجامعي فيجد هذه الكتب تحشوا ذِهنه، وتميل به إلى فهم خاطىء خادع، إذ يجد مصدر الرواية مَعزوّاً إلى الطبري أو المسعودي أو ابن الأثير فيحسب أن الأمر جدّ، وأن كلّ ما لفّقه الكاتبون أصيل صحيح! لذلك كانت الحاجة ماسّة إلى طراز مسلم أصيل يكتب التاريخ.

هذا من ناحية التأليف الجامعي في الكتب، أما الإلقاء التوجيهي في حُجُرات الدرس فأعجب وأغرب، لأن بعض الأساتذة المستغربين يسردون تاريخ

محمـد ﷺ، وأبي بكر، وعمـر، وعثمان، وعليّ كمـا يسردون تـاريخ جنكيـزخان، والإسكنـدر، وتيمورلنـك، وهتلر، وستالين! بمعنى أنهم يُشعِـرون الطالب المسلم حين يتحـدّثون عن أعـلام الإسـلام أنهم يتحـدّثـون عن أُنـاس غُـربـاء أدّوا دورهم الزمني ومضوا، لذلك كانت كارثة الإلقاء الجـامعي لا تقلّ عن كـارثة التـأليف! مع أن الأستاذ الحقيقي هو الذي ينفث روحه في تلاميذه، فيُعيد الوقائع والأحداث حيّة متحرّكة كأنه يعرضها في شريط سينمائي يشاهده النظارة.

ولست أريد أن أجعل المؤرّخ داعيـة! كلا وألف كـلا، ولكني أقول: إن تـاريخنا الإسلامي حيّ بمشاهده الرائعة، رائع بمـواقفه الصـادقة، فـلا أقلّ من أن نتحـدّث عنه كما كان، لا كما حتّم ذَوو الغرض أن يكون.

إن أثـر الإلقاء البـارع في المحاضـرات الجامعيـة ليعظم ويمتـدّ حتى يخلق رجالاً يهيمون بمبادىء الكرامة والحريـة والإخاء التي سنّهـا الإسلام، وإذا كـان لنا أن نضـرب المَثَل على ذلـك فلنستمع إلى الأستـاذ الكبير أحمـد رمزي سفيـر مصر السـابق في روما حين يتحـدّث في كتابـه «منادمـة الحروب» ص ٢٤٥ عن الأستـاذ عبد الوهاب النجار، فيقول:

«أمـا الأثـر الـذي تـوطّـد في نفسي، فجـاء عن التـاريـخ الإسـلامي نتيجـة للمحاضرات التي ألقاها علينا رجل من نوادر رجال مصـر، ومن أشجعهم وأشدّهم تمسّكاً بتعاليم هذا التاريخ الإسلامي الذي طالما أهملناه، أعني به المرحوم الشيخ «عبد الوهاب النجار».

كنّا في السنوات الأولى بمدرسة الحقوق وكانت الدراسة في الصباح، فأخذنا نتلقّى دروساً بكليّة الآداب بالجامعة المصرية القديمـة، وتتلمذنـا جميعاً على هـذا الأستاذ الكبير الذي عرفنا منه رجال المراجع، مثـل الطبري وابن الأثيـر والبلاذري وغيرهم، وكان إلقاؤه رحمة الله عليه وقت الدرس يحـرّك مشاعـر الطالب، فهـو إذا تحدّث عن الدولة العباسية جاء بالأسانيد، وقرن التاريخ بـالأدب، وتحدّث حـديث المؤرّخ الواعي الذي يعيش في الفترة التي يتكلّم عنها، فهو لا يسرد لك الحوادث

فحسب، بل يعلّق عليها وينتقل بك إلى تلك الفترة فكأنك عشت فيها، وعرفت رجالها وسمعت خطبهم.

وكان رنين كلامه قوياً يتغلغل في النفس، فكنت أخرج من الدرس وفي مخيلتي الألفاظ والكلمات التي استعملها، وأبيات الشعر التي رتّلها فتلازمني، وأجد نفسي مدفوعاً إلى مراجعة هذ النصوص واستكمالها، لكي تلصق في ذاكرتي لأتكلم بها وأستشهد بما فيها.

ومن فيض هذا الأستاذ العظيم عرفت التاريخ الإسلامي واطّلعت على كنوزه، وكتبت فيه، فإليه يرجع الفضل الأول وإني لأعدّه في الطليعة الأولى من خدّام هذه النهضة الإسلامية المباركة».

وهذا ما خطّه الأستاذ السفير بعد وفاة الإسكندر النجار ببضع سنوات! والذين يقرؤون آثار النجار يدهشون لسِعَة حرّيته وأصاله نقده وعمق تحليله، إذ كان يعمد إلى كثيرٍ من المسلّمات فيضعها تحت مِجهره، وما يزال بها تقليباً وتنقيباً حتى يصل إلى حقائق جديدة، مع حَمِيّة مخلصة، وغيرَة ملتهبة في النظر والاستدلال. وقد ورث هذا النظر المنقّب عن الأستاذ الإمام «محمد عبده» حين كان يدرس مقدمة ابن خلدون لطلبة دار العلوم، ومن بينهم الأستاذ النجار!.

وإذا كان ابن خلدون أستاذ التاريخ التحليلي، والدراسة المنهجية دون منازع، فإن اصطفاء القدر للأستاذ الإمام محمد عبده ليشرح مقدمته ويفسّر مراميه مع بُعد في الغور وسعة في الأفق، كان توفيقاً كبيراً وجّه الأستاذ النجار إلى الطريقة المُثلَى في دراسة التاريخ وقد تحدّث عن ذلك في بعض مذكّراته حين قال:

«لقد عشقت كتابة ابن خلدون، فأصلح ذلك العشق من كتابتي وقوّم أسلوبي حين أغرمت بمحاكاته، ذلك في حين الحداثة وعنفوان الشباب، وجلبت كتابته في التاريخ قراءة التاريخ حتى صار نهمة النفس، وغذاء الروح، وسلوتي في خلوتي، فقد حبّب إليّ نقد عبارات المؤرّخين، ووزن الحوادث بالبصيرة، فكل حسنة عندي

من التاريخ من عنده، كان أستاذنا محمد عبده قبل نفيه إلى بلدة محلة روح مدرّساً بدار العلوم، وكان يكلّف الطلبة بدراسة المقدمة، وكان يكتب هو معهم مع مراعاة تغيّر الأزمان واختلاف الأحوال والمُلابسات بين الزمنين، فتكوّن في كتابة أستاذنا جزء عظيم من الموضوعات التي تناولها ابن خلدون في مقدمته».

على أن الأستاذ النجّار كان نسيج وحده في معالجة التاريخ! إذ هدته بصيرته إلى مناقشة الافتراءات الزائفة شُبهة شُبهة في كل مناسبة تعنّ، وقد ساعده على ذلك ذاكرة نَيّرة تستوعب الأحداث المختلفة استيعاباً شافياً، ومن ورائها عقل مُدرِك ينظّم ويرتّب، وينفي ويثبت! وما زال الباحثون يتناقلون آراءه الصائبة في بيعة أبي بكر ومقتل عمر، وحادث التحكيم وخرافة إحراق مكتبة الإسكندرية، وما خبّ فيه المغرّضون مما استطاع المؤرّخ البصير أن يجلوه أنصع جلاء! ولن نستطيع في هذه المقالات السريعة أن نلخّص قضاياه التاريخية التي حكم فيها ببراعة وإتقان، ولكننا نكتفي بنموذج واحد يدلّ على عشرات من أمثاله، ويرشد عن طريقة الأستاذ في البحث والتحليل.

لقد كانت موقعة الحَرّة بالمدينة مما خبط فيه المستشرقون خبط عشواء، حتى قال قائلهم تعقيباً على حادثها المشؤوم: «هكذا شاء القدر أن تنتصر الوثنية ولو مرة ضدّ الإسلام، تلك الوثنية التي كان ثأرها وردّ فعلها في موقعة الحَرّة بالمدينة قاسياً مؤلماً» وهو كلام لا يؤيّده التاريخ في شيء، وحين هَمَّ الشيخ النجار بمناقشته ساءل نفسه عن أمور ثلاثة:

١ ـ هل جاءت موقعة الحَرّة ارتجالاً دون تخطيط؟

٢ ـ هل ساقَ يزيد بن معاوية جنوده إلى المدينة كوثني ينتقم من الإسلام؟

٣ ـ هل كان ليزيد في أعناق أهل المدينة بيعة آذنوه بخلعها وطردوا عامِلَه فساق إليهم الجيوش ليردّهم إلى الطاعة؟

وللإجابة على هذه الأسئلة استعرض الباحث موقعة الحَرّة من ابتدائها، فذكر بيعة يزيد بالخلافة وتعذّر عامله على المدينة أن يأخذها له بيثرب، ومناوأة ابن

الزبير بمكّة، وتسلّل بالحديث ـ وكأنه يقصّ حكاية شائقة ـ فذكر عَزْل عمر بن سعيد بن العاص وتَوْلِية الوليد بن عتبة ثم عزله وتَوْلِية سواه، وما سبّب ذلك من أحداث تتابعت في سَرْدٍ أمين، حتى استقدم الخليفة وجوه المدينة فأرضاهم، وأخذوا ماله، ثم رجعوا ناقمين ثائرين، ويبلغ النجّار صميم المسألة حين يقول في براعة عن وفد المدينة:

«وهل من النُّبْل وكرامة النفس أن يمدّوا أيديهم إلى يزيد يتسلّمون منه العطاء وتطول ألسنتهم بالثّناء عليه والدّعاء له، على ما طوّقهم من مِنّة وألبسهم من كرامة، حتى إذا ولّوا مُدبِرين التَوَت ألسنتهم عن مدحه إلى ذمّه بأبشع ما يُذَمّ به شخص، ولم يَكْفِهم ذلك حتى طاروا في حربه بأجنحة قد أنبت فيها ريشها ورموه بسِهام من ماله صاغوها! وأنا أُسلّم تسليماً جدلياً أن يزيد كان على الوصف الذي وصفوا، ولكني أقول إن مسألة خلع خليفة تمّت له البيعة في أعناق أهل الآفاق، وصار في قبضته ولايات الشام ومصر وبَرقة وطرابلس والعراق، ومملكة إيران وأرمينية واليمن والحجاز، لا بدّ لمَن يقوم عليها أن يحسب لها ألف حساب، ومن سوء التقدير أن يظنّ ظانٌّ أن الخليفة يتغاضى عن عملهم، وقد رأوا عمّاله بالأمس يحاربون الحسين بن علي سبط رسول الله، فإذا كانوا قد علموا بذلك وأرادوه فقد ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة».

ثم يتابع الحديث التاريخي في تسلسل مطّرد، فيذكر أثر انقلاب الوفد في نفس يزيد وقيام النعمان بن بشير بالسّفارة وخلع الوالي وتولية عبد الله بن حنظلة، ومحاصرة الأمويين في دورهم بالمدينة، ثم زحف الجيش الشامي من دمشق، وحيلة عبد الملك بن مروان في دخول المدينة، وما كان من حرب ضَروس انتهت باستباحة المدينة استباحة ظالمة قال عنها الأستاذ:

«ألم يكن حقّاً ليزيد أن يجهّز جيشاً يردّهم للطاعة، وقد أحسن حين أمر جيشه بالتربّص بهم ثلاثة أيام، يدعوهم إلى إيثار العافية والإقلاع عن الفُرقَة، ولكنه خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً إذ أمر مسلمة بن عقبة أن يقاتلهم إذا أبوا إلاّ

الحرب، فإذا انتصر عليهم أباح المدينة لجنده ثلاثاً ينهبون ما عندهم من ذهب أو فضّة أو طعام أو سلاح، ونحن نعلم أن الجندي إذا أُرخِي له الحبل تمادى في الطغيان، وأمعن في الظلم ومثل هذا الأمر لم يصدر من خليفة حتى في حروب الردّة، فهي زِلّة كبيرة زلّها يزيد وليست المسألة مسألة انتقام الوثنية من الإسلام، بل مسألة ملك يريد صاحبه أن يرتق الفُتُوق، ويظهر لمَن تحدّثه نفسه بالثورة قوّة بطشه وفتكه بالمخالفين».

إن محاولة تلخيص أقوال الأستاذ في معركة الحَرّة تطفىء كثيراً من لألائها الواضح، إذ أن الدفاع المحكم لا يقنع إلا بقراءته لا بتخليصه، ولكني أُحاول فقط أن أُشير إلى اتجاه المؤرّخ في البحث، ذاكِراً أنه لم يترك القلم حتى ذكر فتويين متعارضتين عن يزيد أصدرهما الغزالي والكيا الهراس نقلاً عن الإحياء ووفيات الأعيان! مما يؤكّد سعة اطّلاعه، ويدلّ على أن تصدّره لمباحث التاريخ قد اكتمل بدراسة الروافد الأخرى للثقافة الإسلامية، مما ينبغي أن يرِد موورده المؤرّخ الأمين.

فإذا تركنا التاريخ الإسلامي السّالف إلى تاريخنا المعاصر فإننا نجد الأستاذ النجار قد اختطّ منهجاً سديداً في تأريخ الثورة المصرية لسنة ١٩١٩، حين كتب يومياته المعروفة بالأيام الحمراء، وقد نشرها تِباعاً بجريدة البلاغ، فكان يذكر حوادث المدن والأقاليم كما يتناقلها المُراسلون، سارِداً ما يراه من التعقيب الكاشف والملاحظة الموجّهة! والذي يقرأ ما دونه الجامعيون عن ثورة سنة ١٩١٩، يرى أكثر الكاتبين يُسهِبون في نقل الوثائق السياسية بين وزارة الخارجية الإنجليزية وزعماء الأمة من أمثال سعد وعدلي وثروت! فإذا تعرّضوا لانتفاضات القاهرة وعواصم المديريات اقتضبوا القول اقتضاباً، فهو تاريخ رسمي لا شعبي.

وقد كان اتجاه النجار مُعارِضاً لهذه الرسمية الأرستقراطية في التاريخ، حيث جعل أبناء المُكافحين تسيطر على الموضوع وتوجّهه! وهي الطريقة الإسلامية التي اختطّها الجبرتي في تاريخ الحملة الفرنسية، مُقتَدِياً بكتب الأسلاف من

المؤرّخين، وكأن الشيخ رأى بـألمعيّته النـافذة أن مـا سيكتبه الـرسميون لن يتعـدّى السطح البارز، فحفظ كـرامة التـاريخ حين أعـطى كلَّ ذي حقٍّ حقّـه، وحفظ لكل مناضل جهاده، وقد قال قي مقدمة اليوميات: «لقد لاحَ لي الأمـل عندمـا أُرِيق أول دم في سبيـل المطالبـة بحريـة البلد، وكنت أرى المظاهـرات تفرّق من قبـل برشّ الماء على المتظاهرين، ولكن معارضة السلطة الإنجليزية لذلك الشعور الفيّاض قد أكسب القضية المصرية عطفاً عامّاً.

- ٣ -

ألّف الأستاذ النجار كتابه تاريخ الإسلام في عدّة أجزاء وكتب الأيام الحمـراء في مخـطوط كبير نُشِـرَ تباعـاً بالبـلاغ، وترك مئـات المقـالات في صحـائف اللواء والأهرام والجهاد وكوكب الشرق، وفي مجلّات الرسالة والإسـلام ومكارم الأخـلاق والشُّبّـان المسلمين والهلال ودار العلوم والجـامعة المصـرية، ولكن كتـاب قصص الأنبياء هو الكتـاب الأول بين مؤلّفاتـه، إذ كان فتحـاً جديـداً في تاريـخ النبوّة على مـدى أجيالهـا منذ آدم، وقـد أُحيط بجدل حـادّ عنيف قامت لـه الدوائـر الـرسميـة بالأزهر، وامتدّ أثره إلى الجرائد والمجلّات، ولا بدّ لمَن يؤرّخ الحركة العلميـة في جيلنا الراهن أن يخصّ الأمر بمزيدٍ من التفصيل. ابتُليت قصص الأنبياء في بحوث السابقين من المؤرّخين والمفسّرين بمُفتَرَيات ظـالمة، ألصقهـا الرّواة من الـروايات الإسـرائيلية عن عمـد، وتقبّلها المؤلّفـون عن حُسْن نيّة، وقـد استغلّها الـوُعّاظ من القصّاص قديماً وحديثاً في الاستثارة والتشـويق، فأُضيف إليهـا ركام أسـود، يخفي وجه الحقيقة عن العيون، ثم جاء من المؤلّفين مَن جمـع هذه الخـرافات عن كعب ووهب ومَن لا أدري من الـرّواة، فشحنها شحنـاً في كتـاب خـرافي مُتَـداوَل سمّـاه «عرائس المجالس» وقـد انتدب الأستـاذ النجار لتـدريس قصص الأنبياء على طلبـة التخصّص في الوعظ والإرشاد بكليـة أصول الـدين، فتصدّى لأول مـرة في تاريـخ التحقيق العلمي النّزيه إلى كشف الزّيـف المختلط بسِيَر الأنبيـاء، وقد وضـع أمامـه قواعد علمية تحدّد اتجـاه البحث، ولأهميتها الـدقيقة في مجـال التحقيق التاريخي نسردها فيما يلي نقلاً عن مقدمة الطبعة الثانية لقصص الأنبياء:

١ ـ إن العقل ركن المعتقدات الأول، فما أوجبه كان واجباً وما أحاله كان مُحالاً، وما أجازه كان جائزاً.

٢ ـ إن الخبر الوارد عن المعصوم إذا كان قطعي الثبوت والدلالة فهو حجّة قاطعة على ما تضمّنه، وذلك يشمل شيئين: الكتاب الكريم، والخبر المتواتر.

٣ ـ إذا عارض الخبر العقل وجب تأويل الخبر بما يُزيل هذا التّعارض.

٤ ـ الخبر إذا كان رُواته آحاداً، فلا يصلح أن يكون دليلاً على ثبوت الأمور الاعتقادية، لأن الأمور الاعتقادية الغرض منها القطع، والخبر الظنّي الثبوت أو الدلالة لا يفيد القطع.

٥ ـ ما نقل عن الأنبياء مما يُشعِر بكذب أو معصية، فما كان منقولاً بطريق الآحاد سواء بلغ حدّ الشُّهرة أو لا فمردود لأن نسبة الخطأ للرّواة أهون من نسبة المعاصي للأنبياء.

٦ ـ ما نقل مما يُشعِر بكذب أحد الأنبياء أو معصيته وكان النقل متواتراً فما يمكن صرفه عن ظاهره صُرِف إن أمكن، وإلاّ فيُحمَل على أنه ترك الأولى أو قبل البعثة.

٧ ـ المعجزات لا تثبت بخبر الآحاد، لأن المطلوب فيها اليقين، وخبر الآحاد لا يقين فيه.

٨ ـ إنكار المعجزة الثابتة بنصٍّ قطعي الثبوت والدلالة كفر.

٩ ـ الإسرائيليات لا حَرَج في مخالفتها، ولا في إنكارها جملةً وتفصيلاً.

١٠ ـ كتب العهد القديم والجديد ما كان منها موافقاً للقرآن فهو حقّ، وما كان منها مُخالفاً للقرآن فهو باطل، وما كان القرآن ساكتاً عنه فلا نقطع بصدقه أو كذبه، ويجوز نقله والاستئناس به.

١١ ـ أقوال المفسّرين ليست حجّة قاطعة فيما نصّت عليه بل هي أوجه، كما يجوز حمل القرآن عليها يجوز مخالفتها، وحمل عبارته على غيرها، ولا مؤاخذة على مَن خالفها.

١٢ ـ القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد غرائبه فلكل امرىءٍ أن يتدبّره بعقله، ويفهمه على الوجه الذي يستقرّ في اعتقاده، بشرط أن يكون ذلك جارياً على مقتضى العربية غير مُخِلٍّ بفصاحته، ولا مُخِلٍّ بشيء من مقاصد الدين.

ثم ختم هذه القواعد بروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل وعن شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال الأول: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي». وعنه أيضاً أنه متى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجّة على بعض. وحيث قال الثاني: «ما نقل عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين».

هذه هي الأصول التي ارتكز الأستاذ عليها في تحقيقه ولا بدّ لمَن يضع هذه القواعد المتّزنة أن يخالف بعض المُشتَهر من روايات كعب ووهب، أو أن يُوهِن خبر آحاد لم تثبت صحّته، أو أن يجد من الأسباب الوجيهة ما يُثبت به حَدَثاً لم يشتهر ثبوته، وكلّ ذلك حقٌّ لا مِريَة فيه، ولكن الكتاب يدرس في إحدى كليات الأزهر، ولمؤلّفه الكبير نَقَدَة لا ينحون مَنْحاه فأقاموا الضجيج الصاخب، ورفعوا الأمر إلى شيخ كليّة أصول الدين الأستاذ «عبد المجيد اللبّان» فبادر بتشكيل لجنتين علميتين لقراءة الكتاب ونقده، فقامت اللجنتان بمجهود كبير حيث نشرتا تقريرين يتضمنان بعض المآخذ! وكان جميلاً من الأستاذ النجار أن يثبت التقريرين في الطبعة الثانية وما وَلِيَها من كتابه، ثم يعقب على كل مأخذ بما يدحضه دحضاً لا شُبْهَة فيه، وقد كان الأساس المقرّر لدى الناقدين أن آراء السّلَف لا تقبل التعديل، وأن ما ذكره النجار يبعد في بعض اتجاهاته عمّا دُوِّن في كتب الأقدمين!.

وإذا كان النقد قد تشعّب فشمل أكثر من ستّ عشرة نقطة علمية فإن محاولة تلخيصها نقداً وردّاً مما لا يتّسع له هذا المقال وكيلا نحرم القارىء من الوقوف

على منهجين متعارضين في التفكير العلمي، فإننا سنجتزىء بمِثال واحـد يشير إلى المنحى الذي يتّجه إليه كِلا المُتناظرين، ومَن شاء أن يستزيـد فلديه كتاب «قصص الأنبياء» في طبعاته الثانيـة والثالثـة والرابعـة، حيث اتّسعت هوامشـه لتسجيل النقـد ونقضه، وإنها لمتعة فكرية رائعة يحرص عليها مَن يعشقون تصاول الآراء وتصـارع العقول.

حين ألَمّ الأستاذ النجار بقصة إبراهيم عليه السلام تعرّض إلى ما نقله الـرّواة عن انتقـاله إلى مصـر في عهد ملوك الـرّعاة المعـروفين بالهكسـوس، وما كـان من طمع الملك في زوجته سارَة، وادّعاء إبراهيم عليه السلام أنها أُخته، كي يسلَم من أذاه، ثم نقـل المؤلّف رواية التـوراة ليتـولّى تفنيـدهـا بـوجـوه عقليـة استقـامت من منطقه، ولم يشأ أن يذكر ما لم يثبت لديه من الأحاديث النبوية المُشيرة إلى ذلـك، ليكون التفنيد لقول التوراة وهو صنيع يتمشّى مع خطّة المؤلّف في عدم الركون إلى أحاديث الآحاد.

ولكن اللجنة الناقدة رأت في تجاهل هذه الأحـاديث زَلَلاً خـطيراً، فـأفاضت في تسطيرها برواياتها المختلفة كما تناثرت في كتب الحديث، وكان أول مـا بدأت به رواية أبي هريرة عن رسول الله أنه قـال: «لم يكذب إبـراهيم النبي عليه السـلام قطّ إلاّ ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله، قوله إني سقيم، وقولـه بل فعله كبيـرهم هـذا، وواحدة في شـأن سارة، فـإنـه قَـدِمَ أرض جبـار ومعـه سـارة، وكـان أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبـار إن يعلم أنك امـرأتي يغلبني عليك، فـإن سألـك فأخبِريه أنك أُختي فإنك أُختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيرك وغيري.

فلما دخل أرضه رآها بعض أهـل الجبّار فـأتاه، فقـال له: لقـد قَدِمَ أرضـك امـرأة لا ينبغي لها أن تكـون إلاّ لك، فـأرسل إليهـا فأتي بهـا، فقام إبـراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده عليها، فقُبِضت يـده قبضـة شديـدة، فقـال لهـا: ادعي الله أن يُـطلِق يـدي ولا أضـرّك، ففعلت، فعـاد

فقُبِضَتْ، فقال: ادعي الله أن يُطلِق يدي فلك الله ألاّ أضرّك ففعلت فـأُطلِقَت يده، ودعا الذي جاء بها، فقـال: لقد أتيتني بشيـطان ولم تأتِني بـإنسان، فـأخرجهـا من أرضي وأعطِها هاجر».

وأفاضت اللجنة في ذكر روايات مُشابهة لـرواية أبي هـريرة مُنكِـرة أن يغفلها الأستاذ، ويعمد إلى رواية التوراة (مع أنه عمد إليها ليفندها) ثم شـاءت أن تلتمس لذلك بعض التعليل فرأت الأمر لا يخرج عن أربعة احتمالات:

١ ـ أن يكـون المؤلّف لم يقف على هذه الأحاديث، مع أن ذلك ـ في رأي اللجنـة ـ مُستَبعَد من أستـاذ فاضـل يدرس في كليـة أصـول الـدين لـطَلَبَـة الـوعظ والإرشاد.

٢ ـ أن يكـون قـد وقف عليهـا ورأى فيهـا مـطعنـاً يخـرج بهـا عن دائـرة الاحتجاج، ولو صحّ ذلك لوجب ـ في رأي اللجنة ـ أن يذكر مطعنه الناقد بأدلّته.

٣ ـ أن يكون قد وقف عليها ولم يعلم فيها مطعناً غير أنه لا يـراها ممـا يتّخذ مصدراً للأحداث التاريخية.

٤ ـ أن يكون قد وقف عليها ولم يعلم فيها مطعناً غير أنه قد سَهَا عن ذِكرها.

وقد استعرض المؤلّف هذه الاحتمالات، وذكـر في الإجابـة عليها أنـه يعرف هذه الأحاديث، ويعلم أنها تسند الكـذب إلى نبيّ كريم، وهـو أمر يمسّ العقيـدة، وقد قال صاحب الفتح جـ ٨ ص ٤٣١: إن الأحـاديث إذا كانت في مسـائل علميـة يكفي في الأخذ بها بعد صحّتها إفادتها الظنّ، أما إذا كـانت في العقائـد فلا يكفي فيها إلاّ ما يفيد القطع متناً وسنداً.

وعلى ذلك فلا تصلح تلك الأحاديث أداة لتقرير اعتقاد كذب إبراهيم لـوجوه كثيرة استطرد في ذكرها المؤلّف، نـاقلاً مـا يدلّ على صـدق إبراهيم من مثـل قول الله: ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبيّاً ﴾ [سورة مريم: ٤١]، ومثـل قوله: ﴿ إن إبراهيم كان أمـة قانتـاً لله حنيفاً ولم يَـكُ من المشركين شـاكراً لأنعمـه

اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم ﴾ [سورة النحل: ١٢٠]، ومعقّباً عليها بآراء الثقات من المفسّرين.

وانتقل إلى القاعدة العلمية التي تُوجِب ردّ الحديث إذا كانت روايته آحاداً وفيه نسبة المعاصي أو الكذب إلى الأنبياء مسجّلاً ما ذكره العصام في شرح العقائد النسفية، بعد أن ذكر وجوب اتّصاف الأنبياء بالصدق حيث قال: «إذا تقرّر هذا فما نُقِلَ عن الأنبياء مما يُشعِر بكذب أو معصية، فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره إن أمكن، وإلاّ فمحمول على ترك الأولى، أو كونه قبل البعثة».

وبعد أن نقل ما يُشير إلى ذلك عن بعض حواشي العصام أيّد رأيه بما ذكره العلاّمة السيالكوتي في شرحه على العقائد العضدية ص ٢٠٣ بما لا يخرج عمّا ذكره العصام في المعنى، وإن اختلفت الألفاظ، ثم رأى أن يأتي بالقاصمة لقوم يتمسكون بالنقل، ويعدّونه الحجّة الأولى في مناقشة الرأي فذكر ما سجّله الفخر الرازي في تفسيره الشهير، حيث قال عن إبراهيم: «أما قوله لسارة أنها أُختي فالمراد أنها أُخته في الدين، وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء عليهم السلام فحينئذٍ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلاّ زنديق، ثم جهر الفخر بردّ الحديث ونسبه إلى بعض الحشوية ممّن يخبطون في الرواية خبط عشواء، وكأن الأستاذ النجار قد اغتبط بمظاهرة الفخر إياه، فقال تعقيباً على ردّه الحديث ص ٩٢ ط ٤ ما نصّه:

«إن لي سلفاً في ردّ الأحاديث الناطقة بكذب إبراهيم ـ نزّهه الله عن ذلك ـ وهو الفخر الرازي وقد حاول حضراتهم أعضاء اللجنة ـ الحطّ من هذا القول، لأنهم متى زيّفوا الفخر الرازي فقد زيّفوا قولي، وأكبر ظنّي أنهم لو لم يجدوا كلام الفخر الرازي مُطابقاً لما أوردته لَمَا خطر ببالهم هذا الخاطر وآية ذلك أنهم يعلمون أن الفخر الرازي قد قال ذلك قبل أن يصدر كتابي، ومع ذلك فلم تنشط بأحدٍ منهم همّته إلى الردّ عليه كيلا تضلّ الأمة بقوله»!.

هذا مثال موجز لنقاش علمي شمل نقاطاً هامّة تدور حول سِيَر النبيّين، ولعلّ من بَرَكَة هذا النقاش أن مضى بالكتاب إلى آلاف القرّاء من غير المتخصّصين، فتعدّدت طبعاته، وظهر تأثيره فيما كُتِبَ بعد ذلك عن قصص الأنبياء، إذ كان أول كتاب يركل الإسرائيليات الكاذبة بقدمه، ويقدّر نعمة العقل البصير فيجعله صاحب القول الفصل فيما سكت عنه النصّ القرآني والحديث المتواتر، وإذا كان كل أثر علمي متحرّر لا يعدم المُعارِض والمؤيّد فقد سجّل المؤلّف في مقدمة الطبعة الثانية موقف القرّاء من كتابه فجعلهم فريقين: فريقاً مستنيراً قرأ فاقتنع وبارك وقرظ، وفريقاً مُعْرِضاً قرأ فتجهّم وثار وأزبد، وتلك سُنّة الله في خلقه، إذ لو شاء لجعل الناس أمّةً واحدة، ثم ختم كتابه بقوله عن أعضاء اللجنة الناقدة:

«إني لا أنكر أن لهم فضلاً عليّ في توجيه أنظار العالم إلى الوقوف على كتابي، ولهم الفضل عليّ لأنهم بتقريرهم هذا قد حفّزوني إلى المطالعة والدرس، فازددت رسوخاً في كل المعاني التي أوردتها في كتابي، ووثوقاً بما ضمّنته ذلك الكتاب».

ولنا أن نختم الحديث عن الأستاذ النجار بما يطبع أسلوبه الكتابي من ميزة قلّ أن توجد في أسلوب غيره، ونعني بها كثرة استشهاده بالأمثلة السائرة والآيات الذائعة، والحوادث التاريخية مما يدلّ على سعَة اطّلاع وحضور ذِهن، وذلك بعض ما قرّب حديثه ومقاله من النفوس.

وأذكر أن الأستاذ «محمد خلف الله» كان قد خصّ «أبا الفرج الجوزي» بحديث تحليلي أثبت فيه براعته الفائقة في تصيّد النوادر وجمال الاستشهاد، وحُسْن المحاضرة وامتلاء الذاكرة بأطايب المُفاكهات، وروائع القصص، وشوارد الآيات، ثم قرنه في ذلك بالأستاذ «عبد الوهّاب النجار» الذي يجمع خصائص ابن الجوزي جمعاً جذب إليه كثيراً من المُريدين وجعل حديثه فاكهة المجلس، ومحاضراته ريحانة الأندية! ونحن نحمد الله أن جعل الزمن لا يضنّ بأمثال هذه

النوادر الرائعة مهما باعَدَ ما بينها كثيراً في حقبه المتطاولة ولكنه يسمح بها من جيل إلى جيل لتكون روحاً ورحمةً للعالمين. . .

أحمد حسن الزيّات
فقيد البيان العربي والأدب التوجيهي

- ١ -

تعتبر السنوات المباركة التي ازدهرت بها «مجلّة الرسالة المصرية» من أقوى فترات النهوض في أدبنا المعاصر، حيث استطاع صاحب الرسالة أن ينبّه العيون المتطلّعة إلى مشرق ساطع من مشارق البيان العربي، وقد جمع حوله من أعلام الفكر العربي في مصر والأقطار الشقيقة مَن بلغوا الاتفاق الكامل والقدرة الضليعة على إرسال القول صائباً سديداً، هادفاً حيّاً ملهماً موحياً بحيث أصبح مشتهى النفوس، ومطمأن الأرواح وبحيث صارت الرسالة دوحة الأدب الزاهر، ومورد العقول الصافي، وهي بذلك كله كانت رسول النهضة، ورائد الإصلاح!.

كان الأستاذ الزيّات في إدارة مجلته كالمعلّم في حُجرة دراسته فهو يفترض نفسه أستاذاً يقوم بتصحيح ما يقدّمه للقرّاء، وكان له مع زملائه الكبار مناقشات كثيرة حول ما يبعثون به إليه، إذ لم يكن يعتمد على الصّيت المدوّي، والشُّهرة الذائعة في تيسير النّشر، وتقبّل ما يكتب على غير وجهه، وقد اشتكى «زكي مبارك» في حديثه ذي الشجون من رقابة الزيّات، وأعلن أن صنيعه معه يذكّره بعهد التلمذة في الصفوف الابتدائية والثانوية غير أن سلوك الزيّات، وطريقته في الاسترضاء، وابتسامه الهادىء لدى النقاش، مع وضوح الحقّ في جانبه؛ كلّ ذلك مما كان يهوّن من رقابته.

وقد شاهدته ذات مساء بدار الرسالة يقدّم مقالة إلى كاتبها، وهو أديب مرموق، قائلاً في ابتسام وديع: يا أخي أنت تكتب مقالك للرسالة في الظهيرة بعد إجهاد العمل اليومي، وأنا أريد أن تُعيد كتابته في هَدأة الليل، أو في مشرق الصباح! وقد تسلّم الأديب المرموق رسالته راضياً غير غاضب ثم انبرى الزيّات ليقول لنا جميعاً: إنه ينقد مقالاتي بأسلوبه الناري، فأنا أُعابثه يا قوم! وكأنه بذلك في سياسة الأدباء يسلك مسلك الدبلوماسي الرقيق.

كانت الفترة التي ازدهرت بها الرسالة من أقوى فترات النهوض في أدبنا المعاصر، لأن الزيّات ممّن يعرفون حدود المقالة الناجحة، والبحث العلمي الموفّق، والقصّة الكاشفة، والقصيدة الملهمة، والنقد الهادف، يعرف حدود هذه الأجناس الأدبية ليطبّقها على ما يَفِد إليه من الأدباء، فهو لا يرحّب بالمقالة التي تتّسع مقدمتها، ويضيق عرضها، وتُخفى خاتمتها، فإذا سألته عن رأيه فيما أهمل أجاب بكل ذوق ورفق.

وهو لا يرضى بالبحث المبتسر، الذي يقتصر على الجمع الحاشد دون أن يضيف الجديد أو يجنح إلى التحليل والموازنة، أو يغفل الأهم من المراجع والأسانيد، ثم هو لا يهشّ إلى كلٍّ من القصة أو القصيدة أو النقد إذا انخفضت نماذجه إلى مستوى الشادين، إذ يصرّح في كل مناسبة أنه لم يجعل صحيفته ميداناً للتمرين، وإذا كان لا يستطيع أن يشجّع الضعيف، فهو في الوقت ذاته لا يُجامل القوي.

أذكر أنه قرأ ذات صباح بحثاً أدبياً حمله البريد، فكان ضائقاً بَرِماً بمستواه، ثم رماه جواره في فتور، وقد زاد عجبي حين تقدّم به إلى المطبعة لينشر، فسألته: عن ضيقه وبرمه، فقال في هدوء: الموضوع ركيك العبارة قليل التماسك، ولكنه يُحيي ذكرى أديب مغمور، ويرشد إلى بعض المراجع عنه، وفي نشرة ـ على ما به ـ إشارة بإنسان منسي، ولعل قارئاً ناضجاً، يتتبّع مراجعه ويقوم بدراسة أخرى لصاحبه، وذلك ما يصادفني كثيراً، ثم مَضَت الأيام، فتلقّى الأستاذ بحثاً جيداً في

الموضوع ذاته، فلم ينسَ أن يذكّرني بما كان، وأن يشفع ذلك بقوله الهادىء: ألم أقل!.

وثانيةً أذكرها عن نفسي، فقد بدأت أنشر مقالاتي بمجلّة الرسالة، وأنا طالب، وكان الأستاذ يفسح في وقت سريع لي مكاناً طيباً قبل أن أُشرف بمعرفته الشخصية، ثم دفعني الشوق إلى زيارته، فتلقاني لقاءً كريماً، وحادثني مؤنساً مُلاطِفاً، ولكني حين أرسلت إليه بعض المقالات عقب هذا التعارف رأيته يتباطأ في نشرها ـ على غير ما كان ـ بحيث لا يظهر المقال إلّا بعد أربعة أسابيع أو ثلاثة، فأرسلت له خطاباً عاتِباً، أُصرّح فيه أن تعارفنا كان وِبالاً عليَّ، وما كاد الخطاب يصل إلى يده، حتى طلبني من الكلية بالهاتف، وقال في مُلاطفة: يا أخي أنت من الآن صديقي فأنا أرجئك واثقاً من رضاك، أما غيرك ممّن لا أعرف فلا يتحمّل الإرجاء، وقد فرحت بمحادثته فرحاً لا يحدّ، لأنه تنازل فمنح الطالب الصغير صداقته، وهي ما هي!.

وإذا كانت الرسالة قد رزقت حظوة واسعة في الذيوع والانتشار، فذلك لم يكن محض المصادفة ولكن صيحتها العالية قد جذبت إليها الأنظار، إذ كانت لساناً قوياً من ألسنة الحق في دنيا الباطل، حيث ظهرت في فترة شائهة، تبلبلت الأفكار واختلطت معايير القِيَم، فانطلق المستغربون يشوّهون لغتهم وتاريخهم ودينهم ببعض ما ينقلونه عن أوروبا من المُفتَرَيات، وصار التنكّر للعروبة والإسلام حلية يدّعيها المغرورون من ذيول الغرب وأتباعه، حتى أصبح الإلحاد في مصر إذ ذاك دليل التحرّر واليقظة، وصار الإعجاب بالتراث العربي آية التأخّر والجمود.

وكم برزت الصّحف المُريبة لتنشر قصص الخلاعة، ولتصوّر نزوات الإسفاف، ولتشيد «ببيرون وإسكار وايلد وبودلير وفلوير وجيد ولورنس»، كأعلام للفكر، وكقِمَم عالية ترصد على بُعْد ولتجعل من التراث العربي القديم مهزأة العابث، ومتهكّم اللاّغط، وتلك ظلمة طال ليلها، واشتدّت حوالكها حتى كادت تطمس العيون! لولا أن أذِنَ الله فظهرت الرسالة.

لا ننكر أن الحق لا يعدم أنصاره في كل زمان ومكان، فقد ثابر ـ من قبل الرسالة ـ الصفوة المختارة من أعلام العقيدة في الدين، وأرباب البلاغة في الأدب، وأصحاب الأدلّة في الحجاج «كمصطفى الرافعي ومحمد لطفي جمعة ومُحِبّ الدين الخطيب وشكيب أرسلان وفريد وجدي ومحمد أحمد الغمراوي ومحمد الخضر حسين» على مُنازلة هؤلاء المغرورين المخدوعين، وكانت الصّحف اليومية الطاهرة والمجلّات المؤمنة الهادفة ميدان جهادهم الشريف، ولكن ذلك كله كان في حاجة إلى صحيفة قوية ممتازة تضيف عناصر جديدة إلى الصفوة القديمة من المُدافعين، وتؤلّف بين ذوي البصائر المُنيرة، لتدفع بهم إلى الميدان في قوة وإيمان، وقد شاء القدر أن يكون «أحمد حسن الزيّات» صاحب هذه الراية المنتظرة التى وحّدت الكتائب، وجمعت الصفوف وشقّت طريقها إلى الميدان.

نشأت الرسالة ـ في تقدير صاحبها ومَن حوله من جماعة التأليف والترجمة والنشر ـ لتقاوم طغيان السياسة بصقل الطبع، وبهرج الأدب بتثقيف الذوق ، وحيرة الأمة بتوضيح الطريق، وجعلت مبدأها ربط القديم بالحديث، ووصل الشرق بالغرب، كما ذكر ذلك «الزيّات» في افتتاحية العدد الأول منها، ومَن يتأمّل هذه الأغراض، يجد أن الإسلام لم يُشِر إليه صراحة في منهج العدد الأول، فكيف صارت الرسالة لسانه الناطق في أكثر ما عالجت من أبحاث، ونشرت من نقود، وأقامت من معارك؟.

هنا يتحتّم الإفاضة الصريحة في علاقة الأدب العربي بالإسلام كما صوّرتها الرسالة تصويراً حقيقياً، تنطق به التجربة الملموسة في مجلداتها الأربعين، لا كما حاول بعض المخدوعين أن يلووا ألسنتهم بالقول المُنحرف، إذ يزعمون أن الأدب العربي شيء لا يتّصل برسالة الإسلام! وأن الأدب أدب، والدين دين.

لقد كان القرآن بلغته العربية العالية، كتاب البيان الأول في أدب العرب، فرسم للصياغة الراقية في بلاغتنا العريقة أعظم أسلوب وأرقاه، وصار متأدّبو العرب منذ أشرقت شمسه يرجعون إليه دارسين مستفهمين، يرون طريقته في الأداء

والتصوير والحوار والإقناع أعلى ما يتطلّع إليه عيون المتأمّلين، ولم يقتصر أثره على النثر بل انتقل إلى الشعر، فجمّله بالنصاعة والروعة والتماسك والإيحاء، ودارت الأيام بعد الأيام، وأسلوب القرآن يعطي النمط الأمثل للتعبير في الأدب العربي، حتى اضطر أدباء العربية ممّن لا يدينون بالإسلام إلى الوقوف عند روائعه، واستظهار كثيرٍ من آياته، وما نبغ أديب في القديم والحديث إلاّ كان القرآن أعظم روافده، وأشهر موارده.

هذه حقيقة جَلِيّة، ظلّت معتقد الناس في سالف العصور، حتى نبتت في مطلع هذا القرن نابتة خاسئة، نَهَلَت من كتب الغرب ولقّنت أراجيف الاستشراق، فأخذت تتنكّر للبلاد والبيان، وترى الديباجة الناصعة والأسر القوي آثاراً متحفيّة تعرض ولا تشترى وتقرأ ولا تحتذى، ثم فاض بها الضغن الكريه فأعلنت أن الأدب العربي شيء والقرآن شيء! ورأت من ذيول الأدعياء مَن ناصرها بالباطل، فألّف الكتب المُغرِضة، وأنشأ المقالات الزائفة، ليرجع بالعربية إلى لغة الحديث المتساهل، وليُحيلها ترجمة شوهاء لا شرقية ولا غربية!.

ظهرت الرسالة وكان هدفها الأدب وحده كما سبق القول، ولكن استقامة صاحبها على النهج السّويّ كانت ردّاً عملياً، وتجربة دافعة تقول لهؤلاء الأغرار: إن لغة الأدب لدى الأصلاء هي لغة الدين، وأن أهداف البيان الحق هي أهداف الإسلام، وأن الرسالة لسان الإسلام، لأن أدبها صريح النسبة إلى العرب، وأهدافها قوية الصّلة بالحق، وهكذا يتحتّم أن يتعانق الأدب العربي الحيّ مع الإسلام الصريح لغةً وهدفاً وتوجيهاً، فإذا وُجِدَت مجلاّت أدبية ـ كالتي تظهر وتغيب غير مأسوف عليها ـ تتنكّر للقوة والرصانة والبلاغة فهي بَرَاء من الفن، خواء من التأثير، وقُصارى أمرها أن تكون ترجمة عن إحساس مزوّر، تُساق إلى مَن لا يشعر به فيرمي بها إلى المَهوى السحيق!.

يقول نابغة البيان العربي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في مقاله «الجملة القرآنية» في كتابه «تحت راية القرآن» ص ٢٤ ط ٤:

«وإذا أنا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسُموّها، وقيامها في تربية الملكة، وإرهاف المنطق، وصقل الذّوق مقام نشأة خالصة في أفصح قبائل العرب، وردّها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا فيه، وصلتنا به حتى كأنه فينا، وحفظها لنا منطق رسول الله ﷺ ومنطق الفصحاء من قومه، حتى لكأن ألسنتهم عند التلاوة هي تدور في أفواهنا، وسلائقهم هي تقيمنا على أوزاننا، إذا أنا فعلت ذلك ورضيته، أفتراني أتبع أسلوب الترجمة في الجملة الإنجيلية، وأَسِفُّ إلى هذه الرطانة الأعجمية المعربة، وأرتضخ تلك اللكنة المعوجّة، وأعين بنفسي على لغتي وقوميتي، وأكتب كتابة تُميت أجدادي في الإسلام ميتة جديدة، فتنقلب كلماتي على تاريخهم كالدّود يخرج من الميت ولا يأكل إلّا الميت، وأُنشىء على سُنّتي المريضة نشأة من الناس يكون أبغض الأشياء عندها هو الصحيح الذي كان يجب أن يكون أحبّ الأشياء إليها».

وما عَناه الرافعي في قوله، وما جاهد في سبيله طول عمره، هو ما قام به الزيّات منذ أصدر «الرسالة» فجاءت مجلة البيان الرفيع، تشعّ بنور الإسلام، وتهتف بأمجاد الشرق، وتُحيي آثار السّلف الصالح من الآباء والأجداد. . .

نشأ الأستاذ الزيّات نشأة دينية خالصة، فحفظ القرآن والحديث، وتعلّم في الأزهر على كبار شيوخه، وقد لا يعلم بعض قرّائه أنه كان يحفظ القرآن بقراءاته المختلفة، ويُطيل النظر فيما بينها من اختلاف في اللهجات والإعراب والوقوف، وكان مجلسه في بعض مناحيه مجلس لغة ونحو وصَرْف وفقه لغة!، حتى أنك لتعجب من تعمّقه العميق في هذه الدراسات العلمية، وهو الكاتب الفنّان ذو الأسلوب الموسيقي والتصوير الشعري!.

هذه الدراسة الجادّة المستأنية لأساليب اللغة قرآناً وحديثاً ونظماً ونثراً، ولقواعدها نحواً وصرفاً وبلاغةً وتجويداً وقراءات، قد طبعت «الزيّات» بطابع جزل أصبح به أمير البلاغة العربية في عصره غير مدافع. وأن كتابه الشهير «دفاع عن البلاغة» قد صوّر مذهبه في البيان تصويراً رائعاً ملك إعجاب دارِسيه!.

ولعلّ مصدر هذا الإعجاب أن المؤلّف كان يمتاح من خاطره، ويرجع إلى نفسه فلم يكن يُطيل الاستشهاد ويُسرِف في النقول، ليقول قد قرأت وقد درست، إنما كان يدعم النمط البياني الذي يتخيّله في نفسه ويصوّره في تأليفه، ويدعو إليه في رسالته! وأن حديثه عن الصدق والذّوق والتعبير والتصوير والإقناع ليُجبِر قارئه على استعادته وتلخيصه، ومحاولة تطبيقه إن كان ممّن يعشقون الأنماط العالية في دنيا البيان، وهكذا تربّى الزيّات في مِهاد الدين ثم نهل من ينابيع البيان الأصيل، وتسلّح بثقافة العصر، وألمّ بأدوائه وعِلَله فأشرق قلمه بما ألهم، وفاض خاطره بما استوحى فكان ذلك كله وحي الرسالة في معرضه البديع!.

طلعت الرسالة على القرّاء بما يعشقون من أدب، ويؤثِرون من اتجاه، وقد جذب طابعها الإسلامي إليها آلاف القرّاء فكانت ردّاً حاسماً على الذين يُسيئون الظن بتراث السلف، وأدب الأقدمين، وقد عملت على إحياء الذكريات الإسلامية في كل موسم فهي تتحدّث في محرّم عن الهجرة في عدد خاصّ يجلجل في دنيا العروبة جلجلة رنّانة، إذ يجمع أعيان البيان على طريق الدعوة الإسلامية!!.

وقد نظر القرّاء فوجدوا للإسلام أدباً حيّاً يقدّمه «المراغي والعقّاد والمازني وشكري وشلتوت والمغربي والزيّات والرافعي وعبد الوهّاب عزّام والعبادي وأحمد أمين والغمراوي والبشري والخولي ومصطفى عبد الرازق» وأمثال هؤلاء الأفذاذ في عدد ممتاز يصدر في مطلع كل عام هجري، متحدّثاً عن مباهج الماضي ومآسي الحاضر، وأحلام المستقبل، حتى اضطر بعض الكُتّاب إلى الجري في ميدان الرسالة الديني ليكونوا مع الرّكب، ويكفي أن تعلم أن الفصول الأولى من كتاب: «على هامش السيرة» للدكتور «طٰه حسين» قد ظهرت في الرسالة قبل أن تجمع في كتاب!.

هذا الاتجاه الرائع إلى تصوير أمجادنا الزاهرة قد كان بعض مذاهب الرسالة، إن لم يكن أفضل مذاهبها، وبه أصبحت مجلة «الزيّات» مهوى النفوس، ومشتهى القلوب في ربوع العربية وديار الإسلام، وكان «الزيّات» ربّانها الماهر يسير بها وسط الأعاصير الهوج إلى المرفأ الأمين في يقظة وإيمان.

- ٢ -

رفع الزيّات النثر العربي في عصرنا الحاضر إلى مستوى الشعر الراقص المصوّر لأدقّ العواطف، وأرقّ الخوالج، فكانت افتتاحيات الرسالة مسرحاً من مسارح الفن الرفيع، ونمطاً من أنماط البيان المصفّى، فهي تُقرَأ وتُستعاد مثنىً وثلاث، لأن القارىء يجد في استعادتها من ألوان البهجة وأفنان المتعة، ما يجده في اللحن الموسيقي إذا تكرّر، والصوت الملائكي إذا تردّد فأنت تصغي لما تكرّر دون سأم، وأنت تقرأ ما قُرِىء دون مَلال.

كان قرّاء الأدب العربي في شتّى أقطاره الشقيقة في حاجة إلى شاعر إسلامي عربي، يهتف بالآلام والآمال، وكان «أحمد محرّم» هو ذلك الشاعر، لولا أن قصائده البديعة كانت تنحصر في الصّحف اليومية، فتكاد تكون وقفاً على مصر، ولكن الرسالة الأسبوعية ديوان العرب المشترك، وسجلّ الأدب الحديث في الشرق، فهي تشرق مع الشمس في كل مكان، وقد حمل «الزيّات» رسالة الشاعر في إلهاب العواطف وإمتاع المشاعر فتحدّر على قيثارته أعذب نغم، ورنّت أوتاره بأشجى غناء!.

لقد كان «أنطون الجميل» رئيس تحرير «الأهرام» يحرص على قراءة الافتتاحيات بالرسالة كل أسبوع، ويعقب ذلك - دائماً - بمحادثة تلفونية للزيّات تحبّذ وتقرظ، وقد قال ذات مرة لجمع من الشعراء في ندوة الأهرام: لقد عهدنا الشعر مما يتطاول في المحافل والأوراق، فجاء الزيّات ليُخفض رأس الشعر في حضرة النثر البليغ، ومهما تكن المبالغة قد وجدت سبيلها في قول «الجميل» فإنه يُعبّر عن إعجاب صادق بنمط من النثر الرائع زاحم الشعر وعارضه، إذ قام برسالته في التصوير والتأثير فوق ما يتضمن من جلال الفكرة وسموّ الاتجاه.

كان الزيّات ناقداً دارساً كما كان كاتباً بارعاً، وقد ذكر في دفاعه عن البلاغة: أن الفكرة والصورة في الأسلوب كُلٌّ لا يتجزّأ ووِحدة لا تتعدّد، وليس أدلّ على اتحادهما من أنك إذا غيّرت في الصورة تغيّرت الفكرة، فقولك: أعنيك غير قولك

إيـاك أعني، كمـا ذكـر أن الأسلوب خلق مستمـر ليس هـو المعنى وحـده أو اللفظ وحده، وإنما هو مركّب فنّي من عناصر مختلفة يستمدّها الفنّان من ذِهنـه ومن نفسه ومن ذوقـه، تلك العناصـر هي الأفكار والصـور والعـواطف، ثم الألفـاظ المـركّبـة والمحسّنات المختلفة.

وخلص من ذلـك كله إلى أن الأسلوب الفنّي يتكـوّن من الصـورة والفكـرة، كما يتكوّن الماء القراح من الهيدروجين والأوكسجين وكما استحال في فنّ الطبيعـة أن يتكـوّن الماء من إحـدى عنصريـه فقد استحـال في فنّ الإنسـان أن يتكـوّن من الأسلوب إحدى جزئيه.

وفي ضوء ما قرّر «الزيّات» في أحكامه، تجلّى أدبه الرائع يطير بجنـاحين من الفكـرة والصورة، وقـد خدع بعض الأغـرار فعـدّوه من أربـاب الصنـاعـة اللفـظيـة لاشتهاره بجودة الصقل وتنويع الموسيقى وبشاشة اللفظ. وقـارىء الزيّـات الناضـج يلمس اعتساف ذلك الـرأي وخطأه، فمكـان الفكرة في أدبـه ممهّد مبسـوط، ولكنه يعرضها في ثوب رائق شفّاف! أفيكون ذلك الرونق الزاهي، مَدعاة نقد ظالم يحيـد عن الإنصاف؟!.

لقد تميّز الزيّات بطابعه لا فيما ألّف ناقـلاً عن إحساسـه الخاصّ، بـل تعدّى ذلك إلى ما تُـرجِمَ مُصوّراً أحـاسيس سواه فـأنت تقرأ متـرجمات الـزيّات في قصـة «رفـائيل وفي آلام فـرتر» وفي مجمـوعته الخـاصّـة بـالأدب الفـرنسي، فتجـد روح الزيّات بارزة واضحة دون أن يخيس ذلك بصدق الأصـل، ودقّة أدائـه إذ لا يكتفي بالترجمة الحرفية حين يُعرِب، بل ينقل الـروح الأدبية في النص الأوروبي إلى روح تماثلها في النص العربي، ونستطيع أن نختار من تـرجمته «لشـاتوبـريان» عن كتـابه «عبقرية المسيحية»، ما يقدّم المثل المنشـود!، فقد تحـدّث الكاتب الفـرنسي عن عظمة خالق الكون فحلّق، ثم نقل الزيّات حديثه الرائع إلى اللغة العربية، فشاركه الـروعة والتحليق، وإذا كـان مؤلّف «عبقريـة المسيحية» عنـد نقّاد فـرنسا أميـر النثر هنـاك، فمترجمـه العربي لـدى المُنصِفِين من النقّاد أميـر النثر هنـا، وإليك مـا قال «شاتوبريان» مترجماً عن الزيّات:

«إن ذي الكون إلّهاً تقدّسه أعشاب الوادي، وتمجّده أدواح الجبل، وتسبّح بحمده الحشرة، ويُحيّيه في الصباح الفيل، ويغرّد به على الغصون الطير، وتبرق بقوّته الصاعقة ويدلّ على سعته البحر، والإنسان وحده يزعم أن ليس في الكون إلّه، كأنه لم يرفع بصره إلى السماء في بلائه، أو لم يخفض نظره إلى الأرض في رخائه، وكأن الطبيعة بعيدة عن تناوله، وخارجة عن تأمّله.

لعله يعتقد أنها أثر من فعل المصادفة، ولكن أيّة مصادفة استطاعت أن تُرغِم مادّة نافرة عَصِيّة على هذا النظام الكامل المحكم؟.

إن في أمكانك أن تقول إن الإنسان فكرة الله المُعلَنة، وأن العالم مخيلته المُحَسّة، وأن الذين قبِلوا أن يكون جمال الكون دليلاً على قوّة الإدراك وسموّ البصيرة كان يجب عليهم أن يلاحظوا شيئاً تعظم له كرة العجائب، وتزيد به بدائع الخلق ذلك أن ما ينوّع زخرف الدنيا، وجمال الوجود، من الحركة والسكون، والظلام والنور، وتوالي الفصول، وسبوح الكواكب ليس تعاقبه إلّا في الظاهر، أما في الواقع فكلّ شيء ثابت فالمشهد الذي يُمحَى من عيوننا، يشرق في نظر قوم غير قومنا إنما يتغيّر الناظر، أما المنظر فهو باقٍ على حاله، وهكذا يجمع الله في صنعه بين البقاء المطلق والدوام المتجدّد، فوضع الأول في الزمان والثاني في المكان، وجعل بالدوام المكاني جمال الكون ثابتاً غير محدود، وجعله بالدوام الزماني متكاثراً متجدّداً غير مُتناهٍ، وبدون هذا لا يكون تنوّع الطبيعة، وبغير ذلك لا تتمّ عظمة الخليقة».

هذا بعض ما نقله صاحب الرسالة عن «عبقرية المسيحية» «لشاتوبريان»! وقد عارض الكتاب الفرنسي بكتاب عربي أتمّه الأستاذ «الزيّات» قبل وفاته بأيام أسماه «عبقرية الإسلام» وأخاله سيظهر للقُرّاء عن قريب، ونحن لا نملك منه الآن غير افتتاحيته التي نشرها بالجزء الثاني من «وحي الرسالة ص ٣٩٣» وهي تحمل طابع الزيّات في إيثاره الإيجاز البليغ إذ كان يرى أن عبقرية اللغة العربية من حيث طريقة الأداء تستكنّ في الإيجاز، ويعلن أن الوجازة في بلاغة العربية أصل وروح وطبع،

وأن الإيجاز ـ وهو تأدية المعاني الكثيرة بـالألفاظ القليلة ـ قـوّة في التعبير، وامتـلاء في اللفظ وشدّة في التماسك لذلـك جاء بيـان محمد ـ ﷺ ـ مـوجزاً دقيقـاً وشاعت جـوامع الكَلِم في خـطبه تلك التي تعمـد إلى الإيجاز الـدقيق، وإذا كانت مقـدمـة «عبقـرية الإسـلام» من أصـدق المثـل على أسلوب الـزيّـات في وجـازتـه وتنسيقـه وتصويره وازدواجه فنحن ننقل منها الآن عبيراً يفـوح فيُنعِش، ونقتبس شُعاعـاً يأتلق فيُضيء، قال الزيّات:

«عبقـريـة الإسـلام هي ذلـك الإشـراق الإلّهي الـذي انبثق من غـار حِـراء، فكشف للرسـول ـ ﷺ ـ عن أطوار النفس البشـرية في طـوايا الغيب، فـدعا دعـوته الخالدة إلى تكـريم الإنسان، وتنـظيم العمران، وتعميم الخيـر، وتحقيق السعادة، من طريق التوحيد والمؤاخاة والمساواة والحرية والسلام، فالتوحيـد سبيل الكـرامة، والمؤاخاة سبيل التعاون، والمساواة سبيـل العدل، والحـرية سبيـل الكرامـة، والسلام سبيـل الرخـاء، وتلك الغايـات هي التي ترجـو الإنسانيـة بلوغهـا عن طـريق العلم والمـدنية، فـلا تنكشف أمانيهـا بعد طُـول السّـرَى وفـرط اللغـوب إلاّ عن سحـاب خلب، وسراب خادع.

وفكرة الوحـدة الإنسانيـة هي مزيَّة الدعـوة المحمديـة على كل دعـوة، وفي سبيلها صَدّق الإسلام بكل دين أُنزِلَ، وبكل نبي أُرسـل، ودعا الـذين فرّقـوا دينهم وكانوا شيعاً إلى خطة واحدة وكلمة سواء، ثم وصل الدين بالدنيا، وكانت اليهوديـة والنصرانية تفصل بينهما، فالأولى كان همّها الصفق والاجتراح، والأخـرى كان سبيلهـا الرهبانية والتنسّك، ولكن الإسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسـد فلا تعمـل إلاّ بوحيه، ولا تسيـر إلاّ بهديـه، ثم آخى بين المؤمنين، ليجتمعوا على صـدق المودّة ويتعاونوا على لأواء العيش، فلا يبغي قويّ، ولا يبخل غنيّ، ولا يظلم متسلّط.

بدأ ذلك بالتأليف بين الأوس والخزرج والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجـرين، ثم توثّقت عُرى الإخـاء بين المجاهـدين في سبيل الله، حتى صـار المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، وأصبح هؤلاء الإخـوان القِلال الضِّعـاف في بضع سنين أئمة للناس ووَرَثَة لكسرى وقيصر».

هذه فقرة يسير من مقدمة الكتاب، ومكان الفكرة فيها من الوضوح بحيث لا ينكر، وإذا كانت روح الشِعر المعهودة في نثر الكاتب لا تواصل رفيفها المتأرجح في نشوة، فلأن الكتاب كتاب علمي، والبحث بحث منهجي، وسنرى فيما نقدّم من النماذج ما يمثّل العاطفة والشعور، ولكن أيّة نماذج نختار، و«وحي الرسالة» بأجزائه الأربعة يقوم عثرة دون هذا الاقتطاف المختار، إذ لا يفضل موضوع موضوعاً! فالإبداع قاسم مشترك، يزهق المتخيّر! ويجرّه إلى مأزق!.

وإذا كان الزيّات قد عزف على وتر الألم تارةً، وعلى وتر الأمل تارة، فلنستمع إلى وترة الأول يصوّر مآسي العروبة في بعض ما قال:

١ ـ «إن مُسلِمِي هذا الزمن الأخير صاروا من جهلهم بالدين وعجزهم في الدنيا على أخلاق العبيد، يطأطىء أشرافهم فلا يندى لهم جبين، وتنقص أطرافهم فلا يُحمى لهم أنف وتنزل بهم الشدّة فيتخاذلون تخاذل القطيع عاث فيه الذئب، ويغير عليهم العدو فيتواكلون تواكل الأخوة دبّ فيهم الحسد، وتجمعهم الخطوب فيُغرِقهم الطمع والهوى، ويلجؤون إلى جماعة الدول المتحدة، فيخذلهم العدو والصديق.

كأن الإسلام الذي كان عامل قوّة وائتلاف، قد انقلب اليوم علّة ضعف واختلاف، وكأن الذين كنّا نقول لهم بلسان الجهاد: أسلموا تسلموا، يقولون لنا بلسان الاضطهاد: تنصّروا تُنصَروا، ولكن الإسلام دين الله لا يغيّره الزمن، ولا تُجافيه الطبيعة، ولا يُعاديه العلم، ولا تنسخه المذاهب، وإنما المسلمون اليوم هم أعقاب أمم، وعكارة أجناس، وبقايا نظم، ورواسب حضارات، وربائب جهالات، وطرائد ذلّ، ففسدت مبادىء الإسلام في نفوسهم المشوبة، كما ينفسد الشراب الخالص في الإناء القذر.

٢ ـ هذه هي الأرض كلها أمامك، تستطيع أن تنفضها قطعة قطعة، فهل تجد العيون تتشوّف والأفواه تتحلّب والأطماع تتصارع، إلاّ على ديار الإسلام وأقطار العروبة؟ فأيّ ذنب دفع خُمْس البشرية في هذه العبودية المهلكة، وهو الخمس

الذي انبثق منه النور، وعرف به الله، وكَرُمَ فيه الإنسان، ليس للثلاثمائة مليون من العرب والمسلمين من ذنب يستوجبون به هذا الاستعمار المتسلّط إلاّ الضعف، وما الضعف إلاّ جريرة الاستعمار نفسه، فلو كان المستعمِر الأوروبي صادق الحجة حين قال: إننا نتولّى شؤون الشرق لنقوّي الضعيف ونعلّم الجاهل وندفع المتخلّف، لَوَجَد من العرب سنداً قوياً لحضارته، ومن الإسلام نوراً هادياً لعقله، ولكنه ورث الخوف من الإسلام عن القرون الوسطى، فهو يسايره من بعد، ويعامله على حذر، وإذا عذرنا قسوس العصور المظلمة فيما افتروا من جهالة، فما عذر الذين كشفوا الطاقة الذرّيّة إذا جمدوا على الضلال القديم؟ وكتاب الله مقروء ودستور الإسلام قائم.

٣ ـ إن الشرق الإسلامي منذ غفا غفوته الثقيلة الطويلة لم يرد أن يبصر بعينيه، ويسير على قدميه، ويعلم أن له تاريخاً ممتازاً، ووجوداً مستقلاً، وطابعاً خاصّاً، ووحدة كاملة ومدنيّة أصيلة، وإنما ذهب يتحسّس من طريقه على نداء الصائد، ويتوكّأ في سيره على عمود الشرك، ويطمس على شخصه بالفناء في الغرب، كأن أهله لم يكفهم أن يكونوا عبيداً لأوروبا بالجسم عن قوّة وقهر، فرضوا أن يكونوا عبيداً لها بالروح عن رِضاً وطَواعية، فهم يتكلمون بلغتها، ويتأدّبون بأدبها، ويتّسمون بسِمَتها، ويتخلّقون بخلقها، ويطبعون أذواقهم بالكُرْه على غرار ذوقها، ويُغالِطون طِباعهم في أصل الفكرة، فيزعمون لعقولهم أن النفس المتمدّنة لا يلائمها إلاّ ما يلائم الأوروبي من أدبه، ورقصه، وغنائه، وموسيقاه، كأن المسافة بين الشرق والغرب، لا تُحدِث فرقاً، ولا تُغيّر خلقاً، ولا تبدّل طبيعة!.

إن الاستعباد المادي دهمنا أمس على يد الآباء، والاستعباد الأدبي يدهمنا اليوم على يد الأبناء، وشتّان بين استعباد كان عن إجبار وجهل، واستعباد يكون عن اختيار وعلم، والعبودية العقلية أشدّ خطراً، وأسوأ أثراً من العبودية الجسمية، لأن هذه لا تتعدّى الأجسام الحِطام والعرض، ومثلها مثل الجسم يُرجى شفاؤه متى عُرِفَ دواؤه، أما تلك: فحُكمها حُكم العقل إذا ذهب، والروح إذا زهق، وهل يُرجى لمجندل شفاء، أو ينتظر لمقتول رجعة»؟.

هذه أنغام حزينة ترنّ بالألم، وليس بيانها في حاجة إلى تحليل وضّاح، فهو سحر يأخذك ويستبيك، ومن دلائل سحره أنه يغزو الإحساس قبل أن يملك العقل، ويشيع في أطوائك لتمتلىء به نفسه مرةً واحدةً، لا أن يتناثر رذاذه قطرات، فإذا أردت بعض ما عزف به «الزيّات» على وتر الأمل فدونك فاسمع:

١ ـ تنتظر الأمة العربية رجلاً عظيماً له آيات تمهّد له وتدلّ عليه، فمن الآيات المُمَهّدة لظهوره: انحلال الأخلاق، فلا تماسك في قول ولا فعل، وتقاطع القلوب، فلا تتواصل في وطن ولا دين، واستئثار النفوس، فلا تتعفّف في صداقة ولا نسب، وجموح الشهوات، فلا تنقدع[1] بلِينٍ ولا شدّة، واستبهام المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس، وانقطاع الأمة عن ركب الحياة فلا تتحرّك قبله ولا دبره.

ومن آياته المُنبِئة بوجوده: أن يكون لغيره لا لنفسه ولأمته قبل أسرته، ولإنسانيته بعد وطنيته، ومِصداق تلك الآيات: أن تموت «أنا» في لسانه، وتحيا في ضميره، ويتّحد في ذِهنه وجود ذاته بوجود شعبه، فهو يحسّ ألمه لأنه مجتمع شعوره ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله، ويملك قياده لأنه مظهر إرادته وهو في سموّ نفسه، ونزاهة هواه قد ارتفع عن أقذار الأرض وأوزار الناس، فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا، ولا يحقد لأن همّه أرفع من العداوة، ولا يقول قولاً ولا يعمل عملاً إلّا إذا وافق الدين الذي يعتقده، والمبدأ الذي يؤيّده، والشعب الذي يقوده.

ربّاه: لقد امتدّ بنا التّيه في مجاهل الأرض إلى قرون، وفسد في نفوسنا الإيمان بالحياة حتى تحوّل إلى ظنون، فمتى نخرج من التّيه خروج موسى؟ ونتبوّأ من صور الحياة العاملة مكان محمّد؟.

٢ ـ الإسلام: قوّة في الرأس، وقوّة في اللسان، وقوّة في اليد، وقوّة في الروح.

قوّة في الرأس: لأنه يفرض على العقل توحيد الله بالحجّة وتصحيح الشرع بالدليل، وتوسيع النص بالرأي، وتعميق الإيمان بالتفكّر.

---

(١) فلا تكف ولا تمتنع.

وقوّة في اللسان: لأن البلاغة هي معجزته وأداته والبلاغـة: قوّة في الفكـره، وقوّة في العاطفة، وقوّة في العبارة.

وهـو قوّة في اليـد: لأن مُوجِيـه الحكيم الخبير قـد علم أن العقل بسلطانـه، واللسـان ببيانـه، لا يُغنيان عن الحق شيئـاً إذا مـا أظلم الحسّ، وتحكّمت النفس، وعميت البصيرة، فجعل من قوّة العضل ذائِداً عن كلمته، وداعياً إلى حقّه، ومنفـذاً لحُكمه، ومؤيّداً لشرعه، كتب على المسلمين القتال في سبيل دينهم ودينه، وفرض عليهم إعداد القوّة والخيل إرهاباً لعدوّهم وعدوّه.

والإسلام بعد ذلك: قوّة في الـروح، لأنه يمحص جـوهرهـا بالصيـام والقيام والاعتكاف والتأمّل!.

وإذا كان الإسلام قوّة جبّارة، فالأمل في بنيـة أن يهتدوا بهـديه، فيكـون لهم منه في حاضرهم ما كان لأسلافهم الماضين منه، من دولـة تقيمها الفضيلة، وعـدّة يرهبها الطغيان!.

وما أفاض الـزيّات في تعـداد مناحي القـوة الصلبة في هـذا الدين إلاّ ليبـزغ شُعاع الأمل في ضباب اليأس، وينبثق فجر العزّة في ظلام الهوان:

علیـك سـلام الله أحمـد هـامـداً وأستغفـر المولى فمـا الفضـل يهمـد

- ٣ -

للأزهر مكانته العالية في ديار الإسلام، ومجلة «الرسالة» وقد أنشأها صاحبها لإيقاظ الوعي الأدبي، وبعث الروح الإسلامي وإحياء المجد العـربي ـ كانت تـرى «الأزهـر» حقلاً خصيبـاً لتنمية مـا ترمي إليـه من غايـات، فهو أفسـح ميدان لتـربية الشباب المسلم المعتزّ بأرومته العريقة، وتقاليده الكريمة، ودينه الأصيل، وهو عدوّ الاحتـلال الذي كـان جاثمـاً على ربوع الشـرق الإسلامي، يُنـاوئه بسـلاح الدين، ويغزوه بتاريـخ السّلف، ويهدمـه بمعاوِل الأدب، فـلا بدّ للمُصلِحِين أن يـدعموا بنـاءه الراسخ ليستكمل أداة التعليم، ويُساير حاجة العصر، وإذ ذاك ينهض بالشرق نهضة أصيلة تنشأ من قواه، وتقوم على مزاياه وتتغلغل في أصوله.

وثمّة صلة قوية ثابتة بين «الرسالة» و«الأزهر» فالرسالة: وهي في جوهرها صحيفة الأدب العربي الأصيل ترى: «أن الدين الإسلامي ينفرد عن سائر الأديان باعتماد دعوته على الأدب، وقيام معجزته على البلاغة، والدين الإسلامي والأدب العربي متلازمان تلازم المعنى واللفظ، والفكر والأداء، ولا يتسنّى لرجل الهداية والإصلاح أن يبلغ دعوة محمد إلاّ إذا تمكّن منهما تمكّن «الجاحظ ومحمد عبده»، وغيرهما من أئمة الأدب والدين».

وإذا كان الأزهر داعية الإسلام فقد التقى بالرسالة في أقرب ميدان.

وتسجيلاً لإحدىٰ حلقات التاريخ التجديدي للجهاد الثقافي نذكر: أن الرسالة قد قدّمت في سنواتها العشرين مختلف الآراء المتشعّبة عن طريقة الإصلاح لكُتّاب كثيرين، ما بين مُؤيّد ومُعارِض، وإذا كانت طبيعة الإصلاح المنشود مما يحتّم هذا الاختلاف، فإن صاحب الرسالة قد كان عند رأيه الخاصّ في طريقة التجديد المرتقب، فهو يعرف أن مجلته ليست وَقْفاً عليه فإذا نشرت غير ما يذهب مذهبه، فذلك حقّ القرّاء في التعرّف إلى شتّى الوجهات المتعارضة، وعليه: أن يواصل دعوته نقاشاً وجدلاً ونقداً، وعلى الأيام أن تنفي الزّبد عن الصحيح.

لقد بدأ الأستاذ الزيّات، فحدّد رسالة الأزهر، ووجّهها إلى ثلاثة مَنَاحٍ:

١ ـ تنقية الإسلام من العقائد الواغلة، والمذاهب الباطلة، والعادات الدخيلة، وسبيل ذلك ما يأتي:

أ ـ تفسير القرآن على هدى الرواية الصحيحة، وفي ضوء العلم الصحيح، تفسيراً يجمع ما صحّ من أقوال السّلف وما صلح من أقوال الخَلَف.

ب ـ تأليف كتاب يجمع ما لا ريب فيه من أحاديث الرسول ويُستعان على شرحه وتبويبه بعلوم التاريخ والفلسفة والاجتماع.

جـ ـ تصنيف كتاب شامل للمذاهب الفقهية الصحيحة فيوضع متنه مواد كالقانون، ثم يشرح شرحاً يستوعب الأصول والفروع، على أن تكون هذه الكتب الثلاثة مادة الدراسة ومصدر الفتوى ومرجع القضاء.

٢ ـ إعداد الوُعّاظ والدّعاة في الشرق الإسلامي من أهل اللّسن والخلق والعلم، وسبيل ذلك ما يأتي:

أ ـ إمدادهم بالثقافة الحديثة، واللغات الحيّة فوق التكوين الأزهري.

ب ـ إيفادهم إلى الأمم الإسلامية البعيدة عن مواطن العروبة، ومهبط الوحي.

جـ ـ العناية اليقظة بالبعثات الإسلامية في الأزهر فأصحابها أقدر على إرشاد قومهم باللغة والقدوة والنفوذ.

٣ ـ جعل اللغة العربية لغة المسلمين كافّة، فليكون لكل مسلم في الأرض لغتان: لغة لوطنه الأصغر، ولغة لوطنه الأكبر، وسبيل ذلك ما يأتي:

أ ـ أن تحمل مشيخة الأزهر أقطاب الرأي في البلاد الإسلامية بالمفاوضة والائتمار، على أن يجعلوا تعلّم اللغة العربية إجبارياً في مراحل التعليم المختلفة.

ب ـ أن تتكفّل بإرسال المعلّمين من المتخصّصين بالأزهر ليضطلعوا بهذه الرسالة.

هذه رسالة الأزهر كما حدّدها الأستاذ في مقالته الافتتاحية بالرسالة الصادرة بتاريخ ١٩٣٩/٣/٢٧، ولم تكن مقالته هذه غير حلقة متوسطة تقدّمتها حلقات، وتَبِعتها حلقات، ولا بد لنا أن نتابع حديث الرسالة مع الأزهر، آخذين بخيوطه الأولى في إيجاز يغني عن التفصيل.

لقد صدر العدد الأول من الرسالة، والشيخ: «الظواهري» يتولىٰ مشيخة الأزهر، وقد هبّت عليه من داخل الأزهر نفسه حركات تُناوىء ترمّته ووقوفه، وتدعو إلى الوثوب للإصلاح وَثْباً لا يعرف التباطؤ، فكان «الزيّات» مع مُعارِضِيه، يبارك جهودهم، حتى أقصى شيخ الأزهر ليأخذ مكانه الأستاذ: «محمد مصطفى المراغي»، فاستقبلته الرسالة فرِحَة مسرورة، ونشرت صورته مع ترجمة موجزة

لحياته فور توليته المشيخة الكبرى وما زالت تُولِيه المودّة والتقدير، وتخصّه بكتابة افتتاحيات الأعداد الهجرية الممتازة، واثقة بتواصل جهوده في معركة الإصلاح.

إذ أن الشيخ المراغي في رأي الزيّات إذ ذاك: «إمام هذا العصر بإعداد من الله تجلّى في فهمه الدقيق لرسالة دينه وإدراكه الصحيح لحاجة عصره، وعلمه الراسخ بطبيعة قومه ومَلَكَته السليمة في أدب لغته، وأُفقه الرحيب لاقتران المشكلات الاجتماعية فيه، تحت ضوء من الفكر الثاقب، يبدّد عنها ظلام الإشكال، فترجع إلى طريقها الواضح من الدنيا والدين «الرسالة (٣٥٦)».

وقد دافعت الرسالة عن الشيخ حين قدّم مُعارِضوه عريضة تشكو وتولول، وكتب الزيّات بالعدد: (٢٩٥) كلمة تؤيّد الأستاذ الأكبر في مهبّ العاصفة، وكان المظنون بالشيخ أن يمضي بالإصلاح المرتقب إلى وجهته، ولكن أموراً شائكة اعترضته وقد أشار إليها الزيّات في مَنْعاه حين كتب رثاءه فقال:

«وكان الظن بالفقيد الكريم وقد ورث خصائص الأستاذ الإمام أن يؤدّي رسالة الإصلاح على الوجه الذي يرتضيه العلم، ويقتضيه العصر، ويرتجيه الناس، ولكن الأسباب المعوقة من مهادنة السياسة حالت بين الشيخ وبين ما يريده: «الرسالة» (٦٣٤)».

لذلك كله نرى الرسالة، تتّجه إلى الأستاذ: «محمود شلتوت» وتدفع به مع جماعة الشيخ: «عبد المجيد سليم»[1] إلى أداء دوره الفاصل في معركة الإصلاح، وأن الأستاذ الزيّات ليعلن ذلك صريحاً حين يقول بالرسالة: (٤٠٦) ما نصّه:

«تعتقد الرسالة: أن الأستاذ شلتوت لسان صادق من ألسنة الإصلاح الديني في هذا العصر، فإذا أيّد الرسالة في دعوتها الإصلاحية بقلمه ولسانه كسبت منه ما كسبته الدعوة الكبرى من عمر».

---

(١) لنا عن هذا الفقيه الكبير ترجمة منصفة في كتابنا: «علماء في وجه الطغيان».

ومنذ هذه الكلمة: والأستاذ: محمود شلتوت يتسنّم مكانه في أوج الرسالة، والزيّات يتابع جهوده الإصلاحية بالتزكية والتعضيد، وكان يمهّد لمقالاته الأولى بالرسالة تمهيد الصديق المؤيّد على قلّة احتفاء الزيّات بتقديم الكاتبين، مما ربط بين شلتوت وصاحبه بأقوى رباط في معركة الإصلاح والتجديد.

ومن السهل الميسور لمَن يريد أن يؤرّخ كفاح «شلتوت» في نهضة الأزهر: أن يرجع إلى أعداد الرسالة، فقد سايرته في دعوته مُسايرة نشيطة، وقدّمت صفحاتها لمَن يحلّلون مواقفه ويباركون حركته، والحق: أن أستاذنا المرحوم الشيخ: «محمد محمد المدني» كان في طليعة هؤلاء توقّد حماسة، وإذكاء غيرة، إذ كان العضد الأول للشيخ في دعوته الإصلاحية يبسطها على صفحات الرسالة شارحاً، ويهاجم خصومها ناقداً.

ولا أدلّ على التقارب بين وجهتي النظر لدى الزيّات وشلتوت في الحركة التجديدية مما تقدّم به الأستاذ: «شلتوت» إلى هيئة كبار العلماء من اقتراحات إصلاحية، لا تخرج عمّا دَعَت إليه الرسالة بإلحاح، وكان من أهمها هذا الاقتراح القوي الذي سجّلته الرسالة بالعدد: (٤٣٧) وهو يدعو إلى أن تُنشيء جماعة كبار العلماء مكتباً علمياً تكون مهمته:

أ ـ معرفة ما تهاجم به الأديان بعامّة والدين الإسلامي بخاصّة في عصرنا الراهن والردّ عليه.

ب ـ بحث ما يحصل فيه الاختلاف بين علماء العصر من جهة أنه بدعة يجب تركها، أو ليس كذلك، ووضع الأصول الكفيلة بتمييز السُّنّة من البدعة.

جـ ـ العمل على وضع مؤلّف يحتوي على بيان ما في كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات التي دسّت على التفسير، وأخذها الناس على أنها من معاني القرآن.

د ـ بحث المعاملات التي جدّت وتجدّ في العصر الحاضر من جهة حُكم الشريعة فيها.

هـ ـ تنظيم طرق الوعظ والإرشاد، والاتصال بالهيئات المُعَدّة لذلك.

و ـ إحياء الكتب النافعة في مختلف العلوم، والإشراف على مجلة (الأزهر) وإصدار الفتاوي فيما يطلب من الاستفتاء.

مضت الرسالة في دعوتها المخلصة للإصلاح الديني، ونَعَت على الجامدين تقهقرهم عن ركب التطوّر، «من شيوخ غاية أمرهم أن يتزيّوا بالورع، ويتفقّهوا في العلوم بتشقيق الجُمَل، وتوليد الألفاظ، وتعديد الفروض».

ثم رأى الزيّات أن يتقدّم باقتراح حاسم لحلّ مشكلة الأزهر كان لبابه:

١ ـ أن يُلغَى التعليم الابتدائي من جميع المعاهد الدينية، ليُلقي بمقاليده إلى وزارة المعارف، فتُقيمه على الوجه الذي تراه، وذلك بدء الوحدة الثقافية.

٢ ـ أن تتحوّل المعاهد الثانوية الدينية إلى مدارس ثانوية لحامِلِي الشهادات الابتدائية العامّة، وتعلّم فيها الرياضيات والعلوم وفق منهج الوزارة، وفي أول السنة الثالثة يتّجه طلاّبها اتجاهين مختلفين: إما إلى الدين وعلومه أو إلى اللغة وفنونها، فإذا انقضت السنوات الخمس تقدّم طلاب الشعبتين إلى امتحان الشهادة الثانوية مع سائر إخوانهم بالمدارس، يمتحِنون معهم فيما يتّفقون فيه، وينفردون انفراد شعب التوجيهية فيما اختصّوا به.

٣ ـ أن يقتصر في التعليم الجامعي بالأزهر على كليتين اثنتين: كلية الدين، وتشمل كليتي الشريعة والأصول، وكلية اللغة وتشمل كلية اللغة العربية ودار العلوم.

هذا هو الاقتراح الحاسم كما تصوّره الزيّات، وقد أثار جدلاً عاصفاً بين الأقلام ما بين مؤيّد ومُعارِض، وهاجمه من كبار كُتّاب الأزهر شيوخ أعلام، وأدلى الأستاذ: «العقّاد» برأيه فيه على صفحات الرسالة.

وكانت اعتراضات الناقدين متعدّدة مختلفة، فهناك مَن يقول:

إن المواد المدنية على نهجها الوزاري ستطغى على المواد الدينية.

وهناك ثانٍ يقول: إن تحفيظ القرآن لا يتمّ على وجهه الأكمل إذا كان القسم الابتدائي عامّاً للجميع.

وهناك ثالث يقول: إن هذا الاقتراح سيحرم الطالب ستّ سنوات، كان يقضيها في دراسة اللغة والدين.

ورابع يرى: أن الاعتماد على الشهادة الابتدائية العامّة في تغذية الأقسام الثانوية يعرضها للهزال والجدب، لانصراف التلاميذ عنها إلى المدارس الأخرى.

هذه خُلاصة الاعتراضات الناهضة بإزاء الاقتراح المعروض، وقد أجاب عنها الأستاذ: «الزيّات»، فبيّن: أنه لا خوف من طغيان المواد المدنية على غيرها، ما دام الوقت متّسعاً والأستاذ كفؤاً، والكتاب مهذّباً.

وبيّن ثانياً: أن القرآن الكريم يمكن حفظه بسهولة إذا فرضته إدارة الأزهر على كل طالب في كل سنة من سِنِي الدراسة في المدارس الثانوية الأزهرية.

وأوضح ثالثاً: أن المعاهد المدنية التي ستصير مدارس ثانوية، ستظلّ تابعة للأزهر، خاضعة لإدارته فله أن يفرض عليها ما يشاء من الدراسات الدينية.

كما بيّن أخيراً: أن الاقتراح يقصر وظائف تدريس اللغة العربية والدين والأدب في جميع مدارس الأمة على الأزهر، فكلّ مَن يرغب في ممارسة أمر من هذه الأمور يجب أن يدخل الأقسام الثانوية الأزهرية، ليحقّق رغبته، ولن يتعرّض بعد ذلك إلى الهزال والجدب.

وما زالت الأيام تتقلّب بالأزهر، حتى انبعث قانون الإصلاح الجديد في عهد الأستاذ: «محمود شلتوت» فأزال كثيراً من العقبات، ومهّد الطريق إلى سيرٍ أقوم، وحقّق كثيراً مما عَناه الزيّات!.

على أن صلة الأستاذ بالأزهر قد تأكّدت متيناً حين أسند إليه تحرير مجلة: «الأزهر»، فقام بعبئها أكثر من عشر سنوات واستطاع أن ينهض بها نهوضاً لا يُنكره غير ذوي الغرض ممّن يظنّون مجلّات الإسلام تُحَفاً أثرية، تبتدىء بتفسير آية،

وتُثني بشـرح حديث، وتعقّب بتلخيص غـزوة، ثم تأتي بتـرجمـة مهلهلة لشخصيـة إسلامية معروفة، وتُقَفّي ببعض الفتاوى المكرّرة، كلّ ذلك في نسق مِنبَـري، يعمد إلى التضخيم اللفظي المصطنـع والاستشهاد القلق المُفتَعَـل، وهو بـذلك: يُهمِـل تحديد الموضوع وإصابة الهدف، كما نرى في كثيرٍ مما نطالع من المجلاّت!.

أما الذين يعرفون أن مجلة الأزهر كما يراها الـزيّات تجـدّد ولا تقلّد، وتسمو ولا تسفّ، وتعالج ما تمسّ إليه الحاجة الدينية والثقافية والأدبيـة من بحوث تقـارب الجودة وتسعى إلى الكمال فهؤلاء مَن يقدّرون رئيس التحريـر حقّ قدره، ويعـرفون بُعْدَ هدفه وجُودَة اختيـاره، وعُمْق فراستـه في الكاتبين، والأستـاذ بَعْدُ عـريق أعمق العـراقة في دنيـا الصحافـة والدين، والأدب والنقـد والتوجيـه، فهو ابن بجـدتها، وفارس ميدانها، فلا يقعقع له بالسنان.

ثم شاء الله، فرحل الزيّات إلى أوج خلوده، وخَلاَ مكـانه في مجمـع اللغة، وفي مجلس الفنون، وفي مجلّة الأزهر، وصـار حديثـه ذكرى تـردّد لـدى عـارِفِيـه، وحَمْداً يُسَجّل عند مؤرّخيه، وصُحُفاً تُتلى على الأجيال! وشرفاً يعزّ على الأمثال.

طنطاوي جوهري
البـاحث المفسّـر المُصلِح

- ١ -

حين قام (جاجارين): رائد الفضـاء الأول برحلتـه المُثيرة أخـذ يتحدّث عمّـا شـاهده في الكـواكب النـازحـة من غـرائب وأعـاجيب وقـد طلعت بعض الصحف الإنجليـزية على النـاس ببعض أحـاديثـه مشفـوعـة بمـا تنبّـأ بـه الكـاتب الشهيـر: (هـ جـ. ويلز) عن العوالم البعيدة. ثم فسحت مجال المقارنة بين ما تخيّله الكاتب الإنجليزي وما شاهده الرائد الروسي، ومن الطريف: أنها ذكرت في نهاية الموازنة: أن عالماً عربياً كبيراً هو الشيخ: «طنطاوي جـوهري» قـد رحل إلى الكـواكب رحلة خيالية كرحلة هـ جـ. ويلز. وقد سجّلها بدوره في كتابه العظيم: «أين الإنسان»؟.

وقد غمرني شعور الفرح والزهو لتوفيق عالم إسلامي إلى إبراز حقائق طبيعية وفلكية تُضارِع ما سجّله أعلام الفكر الحديث في الغـرب، وهَرَعت من فـوري إلى كتاب: «أين الإنسان» وأخذت أُطالع روائعه المـدهشة، وأعجب لتسـاوق الأسلوب الأدبي مـع الحقائق العلميـة في نسق فنّي جميل، وأستمـع مـأخـوذاً للكـاتب حين يقول منذ نصف قرن أو تزيد:

«الأرض تجري أمامي جرياً حثيثاً، وهي تتلألأ جمالاً وحُسناً لِما يسطع عليها من نور الشمس، وحجمها كبير ممتدّ. الأرض تجري مُسرِعة في الفضاء، كأنه قلة

المدفع، إن قلة المدفع تجري عشرة أميال في الدقيقة، والأرض تجري قدرها مائة مرة حول الشمس لتتمّ حركتها السنوية! . لعمرك لقد هالَني المنظر! حركات الأرض الثلاث تدور حول نفسها كهيئة النحلة في لعبة الأطفال، وهي بنفسها وهيئتها مُندفِعة تجري حول الشمس أسرع من القلة مائة مرة، وهذا المجموع الشمسي مُسَخّر مسكين كأنه أرض تجري حول كوكب مجهول، أدهشتني الأنوار، وغطّت على عقلي عجائب الحركات، نظرت أسفل فإذا زُحَل تُحيط به حلقاته الساطعة الجميلة، وهو يجري حول الشمس كأرضنا.

ولقد تعجبت من الأنوار الساطعة البديعة البَهِيّة الدائرة حول المرّيخ، فهناك قمران جميلان طالعان، عجيبٌ أمرهما وبَهيٌّ نورهما، ولمّا رأيت أقمار المُشتَري الأربعة زاد تعجّبي، وما كنت أظنّ في العالم أقماراً غير قمرنا»!.

وتمضي الرحلة على هذا النّسق البديع، فتتحدّث عن زُحَل، وأُورانوس، ونبتون، وأكثروس وغيرها مما لا يحيط به غير المتخصّصين من الأفذاذ.

قرأت هذا في كتاب: «أين الإنسان» وتعجّبت! لأني أعلم أن هذا الكتاب الخالد تُرجِمَ إلى عدّة لغات شرقية وغربية، وقد تقدّم به مؤلّفه إلى جائزة نوبل للسلام! ولكني قلت في نفسي: إن الصفحات الأولى من الكتاب حديث بديع عن المشاهد الطبيعية والفلكية في الكواكب البعيدة، فكيف يخدم هذا الحديث قضية السلام حتى يتقدّم به الفيلسوف لجائزة نوبل للسلام؟!!.

ولم يطل بي مدى السؤال، فقد اهتديت إلى فلسفة الأستاذ حين ينظر إلى العالم نظرة واحدة، فيرى أن نظام الكون يخضع إلى قانون عادل دقيق، لا يشذّ عنه كوكب من الكواكب والإنسان بعض هذا الكون، فلا بدّ أن يخضع لمثل هذا القانون فلا ينحرف عن سُننه العادلة إلى طريق جائِرة تفضي إلى الحروب والدمار.

والكاتب يوضح ذلك بجلاء إذ يقول في رحلته المُثيرة: «لم أرَ كوكباً حادَ عن كوكب، ولا شمساً غادرت فلكها، ولم تختلّ حركة الأرض اليومية، ولا حركة المجموعة الشمسية، إن هذا لعدل! إن هذا لهو الميزان، ما لي أرى أكابر الأمم

وسواسهم يقوّضون معالِم الإنسانية! أليس النظام واحداً؟ أليس عالم الإنسان تابعاً لهذا الجمال البديع؟ وكيف يقولون ما لا يعملون ويُبطِنون ما لا يُظهِرون؟ وهل يعمّ العالم والنظام هذه العوالم البديعة، ويذرنا نتخبّط ويقتل بعضنا بعضاً، ونحن في الحياة ظالمون معذّبون جاهلون!!».

ثم يُطيل الكاتب المتعمّق في مثل هذه الحقائق والأقيسة حتى تُفضي به إلى نتيجة محتومة هي: صيانة نظام الكون، واطّراد سُبُل العدالة في جميع الكوائن، ومن بينها: الإنسان! ذلك الكائن المتمرّد الذي شذّ عن طريقه فجلب على نفسه الدمار.

يا لله! هذا كتاب علم وفلسفة وسياسة، وهو جدير بما ناله من ذيوع في الشرق والغرب، وإذا كانت بعض الأقلام العربية لا تهتدي إلى تقديره، فإن المُخلِصين من عشّاق الفكر الخالد في أوروبا قد عرفوا له مكانته، وفسحوا مجال النقد والتقريظ لحقائقه ـ وفي طليعتهم العالِم الطلياني الكبير: «سانتيلانه»! والبارون: «كرادي فو» الذي يقول في كتابه: (مفكّرو الإسلام) بعد حديث طويل عن الشيخ:

وكتاب: «أين الإنسان» وضعه المؤلّف بطريقة روائية فلسفية وهو في هذا يشابه الفارابي من حيث الفكرة، وابن طفيل من حيث الأسلوب والمنهج، فجمع بين دقّة الفكر وجمال الأسلوب والأستاذ في مَنحاه يذكّرنا بأساليب عُلمائنا وأدبائنا في أوروبا مثل: «توماس موروس»، و«كامبا نيلا» ومعاصرنا: «هانير بينز».

ثم عرج «كرادي فو» على وصف الأستاذ للجمعية الإنسانية بما لا يشرّفها، وأنه يتمنّى أن تكون الدول جميعها مؤسّسة على الحب العامّ وتبادل المنافع، ثم وازَنَ بين فكرة الأستاذ طنطاوي وفكرة دارون الإنجليزي، ونيتشة الألماني وهي إبادة الضعفاء وغَلَبَة الأقوياء وقال ما نصّه:

«فمثل هذا الكتاب المملوء حكمةً وعلماً، الغزير المادة السّامي الفكرة، الناتج عن تفكير عميق، وبحث يقلّ نظيره يدعو دعوة حارّة إلى سعادة الأمم

أجمعين، ويدعو أيضاً بالحماسة الشديدة إلى التجديد العامّ، وهو مفخرة لمصر والإسلام».

يا ليت قومي يعلمون أيُنسى الشيخ طنطاوي في الأمة العربية ويذكره أعلام الغرب مُقارناً بالفارابي وابن طفيل ونيتشة وداروين ومورروس!؟ وهكذا نظلّ غافلين عن أفذاذنا، حتى يقدّمهم إلينا المُنصِفون من مكان بعيد! أيكون العود العاطر في أرضه نوعاً من الحطب كما يقال؟!.

على أن الدعوة إلى الإسلام العالمي لم تكن مجرد فكرة قوية لدى الأستاذ، سيطرت عليه بإلحاحها زمناً ما فسجّلها في كتاب «أين الإنسان» وفرغ منها لغيرها، كما يفعل كبار الكُتّاب بل كانت هذه الدعوة العظيمة دماً يسري في عروقه، وعصباً يمتدّ في رأسه، فأخذ يقلبها على شتّى الوجوه ويُدَعّمها بما يزيد رسوخها من الأدلّة والبراهين، ورأى أن ينشرها في أُفق عالمي فسيح فكتب كتابه: (أحلام السياسة) باللغة الإنجليزية، ونشره في أوروبا، ثم ترجمه في خريف حياته إلى اللغة العربية ليستفيد منه مَن يأنس إلى النظر الثاقب من صفوة قرّاء العرب ـ وقليل ما هم ـ ونحن بعد قراءة «أحلام السياسة» وموازنته «بأين الإنسان» نجد الروح الطنطاوي واحداً لا يختلف، وإن كنّا نلمس من البراهين والحجج الكونية كلها طريف جديد.

لقد نظر الأستاذ إلى أبعاد الكواكب السّيّارة عن الشمس فوجدها جارية على سُنن هندسية مضبوطة محدّدة، فهي كما كشفها العلاّمة يود:

٣ ـ ٦ ـ ١٢ ـ ٢٤ ـ ٤٨ ـ ٩٦ وهكذا.

والنسبة بين هذه الأعداد لا تشذّ، فكلّ عدد يسلّم إلى ضعفه دون زيادة أو نقصان.

ثم نظر إلى أشكال المادة وتنوّعها فوجد الأحجار الساقطة تتبع نظاماً حسابياً يرجع إلى الجذر والتربيع والمتواليات العددية ثم يجد هذا الجذر مسيطراً على

حساب البنادل وحركات الضوء والصوت والحرارة والكهرباء، بنظام لا يشذّ بزيادة أو نقصان، كما وجد العناصر المشهورة المبدوءة بالأيدروجين المختومة بالأورانيوم تتبع جدولاً يضمّ متفرّقها، ويجعل بينها نسباً أُفقية وأُخرى رأسية بحيث لو وُضِع في غير موضعه لاختلّ النظام!.

وتابع النظر في عشرات الأشياء حتى وصل إلى هذه النتجة التي لخّصها في آخر مقال نشره في حياته بمجلّة الرسالة ٢٠/٣/٣٩ فقال مستنداً إلى (أحلام السياسة):

«كيف يكون لهذه العوالم هذا الجدول المنظّم، وتكون بينها هذه النِّسَب البديعة، ولا يكون للإنسان هذا النظام؟! كلا العقل ينكر هذا!، هاهنا تحلّ مشكلة العالم، هاهنا عرفنا سبب النزاع المقام بين الأُسرات والممالك، هأنذا عرفت سبب الجمال في الحقول والسمٰوات ليلاً ونهاراً، فأما أسباب الشقاء والنزاع بين الإنسان: فالبحث جارٍ فيه.

وكما رأينا نظام العناصر المختلفة في جدولها تماماً، رأينا لأوراق النبات على الأشجار المختلفة جداول منظّمة ذوات نسب في الصفوف الرأسيّة والأفقية، فهل في شرعة الإنصاف أن نعتبر أفراد الإنسان في هذا العالم كمية مهملة لا نظام يجمعهم ولا قانون يكبحهم، وقد رأينا النسب والقوانين لم تذرّ ذرّات الأيدروجين مع ذرّات الصوديوم، ولا ورقات التفاح من ورقات الأعشاب ولا حركات سقوط الأحجار: كلا، كلا، إن قوى نوع الإنسان وعقوله لها نسب خفيّة، وكل امرىء في الأرض له نسب إلى غيره في أمّته وفي غيرها، ولَمَا خَفِيَ ذلك على الناس حاروا في أمرهم فلم يجدوا مَناصاً من الحرب، لأنهم لم يهتدوا إلى نظامهم، فكلٌّ يزعم أن له عند الآخر حقّاً يريد أخذه بالقوة».

وتمضي «أحلام السياسة» في هذا النسق فتعرض صفحات مُثيرة عن نظام الحشرات والجوارح والضّواري، وممالك النّحل والنّمل والهوامّ، وتتحدّث عن المعادن والأحجار بما يؤيّد قضية السلام في منطق جريء.

ولم يكد يظهر هذا الكتاب في أوروبا، حتى قام له المفكّرون وقعدوا، وتحدّث عنه العلاّمة الشهير «مارغيلوس» بمجلة الجمعية الآسيوية الملكية فيمَن تحدّثوا من مشاهير النقّاد، وقد وازَنَ موازنة دقيقة بين الفيلسوف: «كانت» الألماني والأستاذ «طنطاوي جوهري المصري» فقال:

«إن عنوان هذا الكتاب يذكّرنا بكتابين نشرهما العلاّمة «كانت» الألماني في السلام العامّ، فإنه وإن كان عالِماً بالرياضة والفلك، لم يستعملهما في السلام العامّ، أما الشيخ: «طنطاوي جوهري» فإنه أدخل فيه هذين العلمين، وأضاف إليهما علم النبات والكيمياء والتشريح وعلم النفس، فهذه العلوم كلها قد جعلها المؤلّف وسيلة توصل إلى حلّ مشكلة السلام العامّ»[1].

أما العلاّمة «كريستان جوب» فقد حضر من لكسمبرج إلى مصر سنة ١٩٣٨ ليلقى العالِم الفيلسوف الشيخ «طنطاوي جوهري»! وقد نقلت جريدة المقطم حديثاً عنه بتاريخ ٨ يناير سنة ١٩٣٨ يعلن فيه:

«أنه حضر إلى مصر هذه المرة مخصوصاً للتشرّف بمعرفته شخصياً، بعدما عرفه عن بُعْد، وترجم كتابيه: «أحلام السياسة» و«أين الإنسان»!!.

ولم يكتفِ بهذا الحديث الصّحفي بل ألقى محاضرة في جمعية الشّبّان المسلمين، كلها شرح مستفيض لابتكارات الأستاذ وتفكيره الهادف الأصيل!.

هذا قليل من كثير مما يقال عن الفيلسوف خارج بلاده، أما داخلها: فلم تكن جميع الأذهان مُهَيّأة لفهم أهدافه الإصلاحية ومَراميه العلمية، فأعجب قوم بآثاره، واقتنوا أبحاثه، وأسرعوا إلى دروسه ومحاضراته، وحجب الضّباب عقولاً كثيرةً عن نوره فناوؤه وصاوَلوه، وانتقلوا من الجدل العلمي إلى الوقيعة السياسية، حتى اضطر إلى أن يردّد الشكوى المريرة من هؤلاء وأن يقول في أحد مؤلّفاته:

---

(١) أُخذت هذه النقول من صحيفة دار العلوم (إبريل سنة ١٩٣٩).

«إليك اللّهمَّ أشكو جور الحسّاد وغيظهم، يقولون إذا خلوا مع الموظفين من أمّة الإنجليز: إن هذا إلّا متعصّب للدين فإذا تركتموه وشأنه أثار الثائرات، وشنّ الغارات، ويقولون للموظّفين المصريين: ألا إنما هو خارج مؤوّل في الدين، وإذا لقوا فريقاً آخر، قالوا: إنه خلط العلم مع الدين، ومزجهما معاً خبط ضائع، اللّهمَّ إني سأعمل بما قلت لنبيّك ﷺ: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين، إنّا كفيناك المستهزئين».

وقد أثمرت هذه الدسائس ثمرها المرير، فحُورِبَ الرجل في وظيفته ردحاً ما، وانتقل من التدريس الجامعي إلى التدريس الثانوي، وترك القاهرة إلى العواصم النائية، وحُوصِرَت داره مرّات، وصُودِرَت مُسوَدّاته ومخطوطاته، ولكن الليل لم يمتدّ به فقد أشرق عليه الصباح، فواصل الكفاح في استبسال.

وقد كان السرور النفسي يغمره حين يجد التقدير الصائب من ذوي الإنصاف، ويهوّن عليه ما يكابد من غصص الحاقدين ومكايد الجاهلين، فهو يعرف لنفسه قدرها، ويقرأ ما يكتبه أعلام الفكر في أوروبا عنه، فيشعر بالارتياح.

لقد كانت الصّحف الغربية تقرنه بالأستاذ الإمام «محمد عبده» إذا تعرّضت لبعض مؤلّفاته بالنقد والتحليل، ويوازن الدكتور «هارتمان» بين المُصلِحَين الكبيرين، فيجدهما يعملان على التوفيق بين المدنية الغربية والعلم الغربي، وبين الحياة الاجتماعية والدينية في مصر، ويقول: إن الشيخ «الطنطاوي» كان يردّد تعاليم الأستاذ الإمام مثل قوله:

«إن الإسلام دين العقل لا دين التقليد، وإن العلم إذا أحسن فهمه يصبح أداة صالحة لفهم الدين، ومثل مناهضته للمُغالاة في تقديس الأولياء، ومثل قوله: إن الاقتصار على مذهب واحد من مذاهب الفقه سبب للجمود والتأخّر في الإسلام، وإن الاجتهاد هو خير حلٍّ لجميع العِلَل»[1].

---

(١) الإسلام والتجديد في مصر، ص ٢٣٩.

والحق أن الرجلين كانا يلتقيان في أمور كثيرة، ولكن الإحاطة الشاملة بدقائق الطبيعة والفلك والرياضيات كانت من نصيب «الجوهري»، وليس هنا مجال التفضيل والترجيح بين إمام وإمام.

- ٢ -

وتسألني لماذا اتّجه الفيلسوف الديني إلى دراسة العلوم الطبيعية والكونية، هذه الدراسة المتخصصة، مع أن نشأته التعليمية لا تُفضي به إلى التعمّق في غير فروع اللغة والتشريع؟ والإجابة عن ذلك تحوجني إلى الإلمام بنشأته الريفية والمدنية لنعرف كيف هبّت الريح على زورقه، فحوّلته إلى اتجاهٍ كان هو الأصلح في رأيه دون سواه.

وُلِدَ الفيلسوف بإحدى قرى مديرية المنوفية في سنة ١٨٦٢ فتطلّع إلى الريف الجميل الأخضر، ورأى من مشاهد الكون ما خلبه وجذبه، حتى كان يخرج إلى الحقول ساعات ليتأمّل هندسة الأشجار، ومجاري الماء في القنوات، ويرى ألوان السماء وهي تتبدّل في الشروق والظهيرة والأصيل، فتشفّ عن لوحات بديعة رائعة، وكان استعداده الخاصّ لإدراك مجالي الطبيعة يغمره بنشوة هائمة، فيسأل مَن حوله عن مصدر ما يرى ويلمس من هذه المُشاهَدة الفاتنة، فيصدم بالسخرية والاستهزاء، ويصيح به الصائحون: نحن نعيش في القرية كما تعيش، ونرى الدنيا بأعين كعينيك، فلا نحسّ هذه الخلابة التي تزعمها في نواضر الحقول وألوان السماء!!.

ثم أذِنَ الله فالتحق بالأزهر الشريف، ونهض مُشوَّقاً إلى حلقاته وهو يُحسِن الظنّ في دروسه، ويتخيّل أن بها إرواء لظمئه وإطفاء لأشواقه، ولكنه صُدِمَ مرةً ثانيةً بحفظ المتون واستظهار القواعد دون تبسيط، بل إن القاهرة قد حجبت عن عينه مباهج الزروع، وسوانح الطيور، وجعل يشعر بأنه في بيئة لا تشبع رغبته - وكابد من الضيق والمَلَل ما أجبره على الرجوع حزيناً إلى القرية، ليشتغل بالزراعة! كما فعل من قبل الأستاذ «محمد عبده».

ومَضَت الأيام وجواذب المعرفة تدفعه إلى البحث، وتبسّط له صحيفة الأمل، حتى عاد ثانيةً إلى الأزهر، وعكف على تحصيل علومه، ثم سنحت الفرصة المواتية فالتحق بدار العلوم!، ورأى العلوم الحديثة من طبيعة وكيمياء وهندسة وحساب تُقدّم إليه في تبسيط، فأحسّ أن الله قد أذِنَ له بالفلاح، وأكبّ على دراسة هذه المعارف بفكره وإحساسه، وبدأ ينتشي ويتذوّق ويلتذّ!.

وحان ميعاد التخرّج فعُيِّن مُدَرّساً بإحدى مدارس الوزارة، وانطلق إلى العالم الفسيح، وقد كان «الغزالي» في هذه الفترة رفيق اطّلاعه، فتصفّح آراءه، ورآه يتحدّث عن النّمل والعنكبوت وسائر الحيوانات، ويتّخذ من مشاهد الكائنات دليلاً على قدرة الله، فصادف ذلك موضع هواه، وعلم أن معرفة الله تتوقّف على دراسة الكون، وأخذ يحصي آيات القرآن التي تدفع إلى طلب المعرفة فوجدها كما ذكر في كتابه «التّاج المرصّع» أكثر من سبعمائة آية كريمة! فقال في نفسه:

«هنا الدليل على وجود الله إن كتب الأزهر تقتصر في أدلّتها على أمثال قولها، «العالم متغيّر وكلّ متغير حادث إذن فالعالم حادث» أما كيف يتغيّر العالم بمشاهده ومجاليه فهذا ما لا تُجيب عليه هذه القضايا، ولا بدّ من دراسة حيّة لِما نرى ونشاهد، ومنن ثَمّ فقد أكبّ على اللغة الإنجليزية، فدرسها في أمدٍ وجيز ليستطيع أن يصل عن طريقها إلى كتب العلوم والمشاهد فيطفىء ما يعتلج لديه من أوار، هذه ناحية أولى.

أما الناحية الثانية: فقد نظر فيما حوله، فوجد العالم الإسلامي بممالكه ودوله يرزح تحت نِير الاستعمار، والمسلمون في حالة يائسة من الجمود والجهل والتزمّت تدفع إلى الرثاء بينما انطلقت أوروبا تفتح ميادين الحضارة، وتقود مواكب المعرفة وتسيطر على الشرق فتمتصّ خيراته وكنوزه، وترمي الدين الإسلامي بالجمود والبربرية، وتراه العلّة الأولى في تأخّر المسلمين، لأنه كما زعم «رينان» الفرنسي وأشياعه يحارب العلم والتقدّم، ولم يعد صالحاً لقيادة الشعوب في القرون الزاهرة، وقد انتهت رسالته بانتهاء العصور البدوية في القرون المتخلّفة،

هذا قليل من كثير ضالّ يلوكه المُغرِضون، ويحاولون أن يقنعوا به المسلمين في كل عاصمة من عواصم الإسلام: في مصر والشام والهند وفارس والصين والمغرب، وهو في حقيقته افتراء زائف، وتدليس أثيم!!.

فكّر الأستاذ وتدبّر، فلمس أن عِلّة التأخّر والجمود لا تنبع من طبيعة الإسلام كما يزعم أعداؤه الحاقدون، فقرآنه ينادي بالعلم والتفكير، ولكنها ترجع إلى انحراف المسلمين عن تعاليم الإسلام، وأولها الحرص على المعرفة، ودراسة الكون وما خلق الله في السماوات والأرض، وتصريف الليل والنهار فصاح صيحاته الجهيرة، وأعلن أن دراسة هذه العلوم فرض عين في الإسلام من جهة، وتفسير لكتاب الله من جهة ثانية!!.

ثم أخذ يُصدِر مؤلّفاته المتتابعة في الدعوة إلى التقدّم العلمي، وتجلية حقائق الطبيعة وما تزخر به في عوالم الحيوان والأكوان والكواكب والأجرام، وأصدر كتاب «نظام العالم والأمم» فكان دعوة فذّة إلى الجهاد العلمي، ووجد فيه أساتذة أوروبا نغمة عالية غير مألوفة، فعدّوه ظاهرة خطيرة تستحقّ التسجيل.

وتحدّثت عنه صحيفة «الجمعية الآسيوية الفرنسية» فقالت من مقال طويل بعدد فبراير سنة ١٩٠٨:

«إن كتاب «نظام العلم والأمم» وهو أحد كتب أُلّفت للنشأة الحديثة الإسلامية، بناها المؤلّف على نظريتين اثنتين أولاهما: أن الدين الإسلامي دين الفطرة، أي مُلائم للعقول الإنسانية والطّباع البشرية، وثانيتهما: أن هذا الدين على مقتضى ما قرّره المؤلّف يسوق إلى استكناه جميع النواميس وسائر القوانين الطبيعية.

ثم أشادت بالفصل الخامس الذي تضمّن باباً مُسهَباً عن الحيوان وسلسلة ارتقائه مقارناً بين مذهبي اليونان والعرب، وبين مذهب «داروين» وشرح فيه ترتيب الحيوان شرحاً مُسهَباً، حتى أنه لم يأْلُ جهداً في إيضاح ما يسمّيه «داروين» بقاء الأصلح، ويسمّيه العرب دائرة الوجود وترتيب المواليد، وقد ذكر المؤلّف أن

مذهب «داروين» كان معروفاً عند علماء اليونان والعرب، وأنه كان يسمّى دائرة الوجود وأنهم كانوا يقولون : العالم مُرَتّب هكذا (المادة الأثيرية ـ العناصر ـ المعدن ـ النبات ـ الحيوان ـ الإنسان ـ الملك ـ الله فوق الدائرة) وكانوا يربطون الإنسان بالحيوان في مثل القرد والفيل والبُلبُل والحصان. . .

إن مذهب «داروين» محصور في الإنسان والحيوان فقط، فهو لذلك قوس من الدائرة التي شرحها العرب، وأن «داروين» ربط ما بين الإنسان والحيوان بالقرد وحده، ويستنتج من ذلك ضعف الرابطة لديه وقُصُور البحث على قوس من الدائرة»!!.

هذا الهيام بالحقائق العلمية قد دفعه إلى تفسير القرآن تفسيراً علمياً، فتحدّث في ستّة وعشرين جزءاً من كتابه «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم عن كل ما حصّله من العلم في عصره، وربطه ربطاً قوياً بآيات الكتاب الحكيم، وقد ترجم هذا التفسير إلى عدّة لغات شرقية، وانتفع به المسملون في الهند والتركستان والصين واليابان وتركيا، حيث قامت اللجان المختلفة بترجمته إلى شتّى اللغات، فدفع قارِئيه إلى حبّ المعرفة وجعلهم يعتقدون أن العلوم الحديثة من صميم ما يدعو إليه كتاب الله!.

ولن نترك هذا المقام، دون أن نذكر رأينا في التفسير العلمي للقرآن، فنعلن أن تفسير الجواهر قد تعرض لحملات كثيرة من كبار المفسّرين في العصر الحديث، وعلى رأسهم صاحب تفسير المنار إذ يقول نقلاً عن مجلة المنار شعبان سنة ١٣٤٨ هـ:

«ثم توسّع المؤلّف ـ يعني الشيخ طنطاوي ـ بوضع هذا التفسير الذي يرجو أن يجذب طلاب فهم القرآن إلى العلم، ومُحِبّي العلم إلى هدى القرآن في الجملة والإقناع بأنه يحثّ على العلم لا كما يدّعي الجامدون من تحريمه له، أو صدّه عنه فهو لم يُعْنَ ببيان معاني الآيات كلها، وما فيها من الهدى والأحكام بقدر ما عُنِيَ من سرد المسائل العلمية وأسرار الكون وعجائبه، ولا يمكن أن يُقال: إن

كل ما أورده فيه يصحّ أن يسمّى تفسيراً له، ولا أنـه مراد الله تعـالى من آياتـه، وما أظن أنه هو يعتقد هذا».

هـذا الكلام المهـذّب الذي سـاقه السيـد رشيد يعتبـر أرقّ مـا قيـل في نقـد الكتاب وأخلصه، وقد اخترنـاه لموضـوعيته أولاً ولمكـان صاحبـه ثانيـاً، ولعلّ ممـا يُقـرّب شقّة الخـلاف بين صاحبي الجـواهر والمنـار، وهمـا أكبـر مُفَسّـري العصـر الحاضر دون منازع أنهما تلاقيا على معنىً واحد هو: أن الحقائق العلمية المسرودة في الجواهر ليست تفسيـراً لروح القـرآن، ولكنها كمـا يقول الشيـخ «طنطاوي» في مقدمة تفسيره:

«لقد رأيت أن يشرح الله به قلوباً ويهـدي به أُممـاً فتنقشع الغشـاوة عن أعين عـامّة المسلمين، فيفهمـون العلوم الكونيـة وليكـون هـذا الكتـاب داعيـاً إلى درس العـوالم العلويـة والسفليـة، كيف لا وفي القـرآن من آيـات العلوم مـا يـربـو على سبعمـائـة وخمسين آيـة، ولقـد وضعت في هـذا التفسيـر مـا يحتـاجـه المسلم من الأحكام والأخلاق، وعجائب الكون، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق».

على أننـا مع ذلـك لا نمنع التفسيـر العلمي بشروطـه، وقـد أوضحت ذلـك بمقال مُسهَب نشرته بمجلة الأزهر جمادى الأولى سنة ١٣٨٠ هـ وكان فيه:

«ونحن نجد أن الذين ينادون بابتعاد القرآن عن التفسير العلمي مُصيبون كـلّ الإصابة، إذا كان هذا التفسير قائمـاً على الظن الـوهمي، والتعسّف التأويلي، أمـا إذا كان مستنداً إلى الصريح من القول، معتمداً على اليقين الثـابت من العلم، فلا نمنع إطلاقاً أن نستضيء بشُعاع العلم في إيضاح حقائق الـذّكر الحكيم، وإذا كـان القرآن كتاب هداية وإرشاد فإن آياته العلميـة لا تَحُول دون هـذه الهدايـة المُبتغاة، بل تؤكّدها، وتدعو إليها الجاحدين، أما مَن يقول: إنـه نزل في أمّـة أُمّيّة لا تعـرف النظر العلمي فنحن نردّ عليه بأنه لم ينزل لأمـة واحدة، أو قـرن واحد، بـل نزل لجميـع الأمم في شتّى القرون المتعاقبـة، ليأخـذ كل جيـل من هديـه ما ينـاسب استعداده الذّهني النفسي» إلى آخر ما سمح به الحديث.

وإذا لم يكن في تفسير الجواهر العلمي من نفع سوى أنه دفع آلاف القرّاء إلى استكناه حقائقه العلمية الحافِلة في مدى ستة وعشرين مجلّداً من المجلّدات، فألمّوا بغرائب الكون ومُستَحدَثات الطبيعة وعجائب الضوء والصوت، والحرارة وصور الجبال والأنهار والثلوج والبراكين، ونواضر النباتات من: أشجار ونخيل وثِمار وأزهار، كلّ ذلك في سياق رائع شفّاف، يدعو إلى التبصّر ويؤكّد قول الله: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلْك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبثّ فيها من كلّ دابّة، وتصريف الرياح والسّحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[1]. أقول: إذا لم يكن هذا التفسير الذّائع في شتّى بلاد الإسلام غير هذه المعارف فقد نجح وأفاد.

وإذا كانت الأعمال بالنيّات، فقد كافأ الله ـ عزّ وجلّ ـ فيلسوفنا الكبير على نيّته، ورزق مؤلّفاته من الذّيوع والشُّهرة ما جعل لها صليلاً يجلجل في كل مكان، ولن أتحدّث عن مدى هذا الذيوع، بل أترك لعالِم كبير هو الأستاذ «محمد حسن الأعظمي» عميد كلية اللغة العربية بالباكستان يقول ما لمسه ورآه عن مؤلّفات الأستاذ، فقد نشر مقالاً طيّباً في جريدة فتى النيل المؤرّخة بتاريخ ٢١ محرّم سنة ١٣٥٨ هـ، ١٢ مارس سنة ١٩٣٩ م وفيه يقول:

«لم تشتهر في الشرق شخصية من المصريين كما اشتهر شيخنا العلّامة الشيخ «طنطاوي جوهري»، ومَن يشكّ في هذا فليدر في أقطار الهند والفرس والصين، والتركستان وأندونيسيا والعرب وغيرها من الشرق، وسيجده إن شاء الله عَلَماً مرفوعاً فيها، وأني لست بمُبالِغ إن قلت: إنه كما أحسن إلى مصر بتعريفه إيّاها للشرقيين ولم تُحسِن مصر إليه فإنك تجد في الشرق مَن عرف مصر بعد معرفة شيخنا، والشرقيّون يعتقدون فيه أنه المصري الوحيد الذي عرف الثقافة الدينية الحديثة أتمّ المعرفة، والرجل الذي ليس هكذا خطر على رُقيّ المسلمين في عصرنا هذا، فالناس لا يعتمدون على رجل ديني محض، ولا على رجل عصري

(١) سورة البقرة: آية ١٦٤.

محض، لأن الأول يقـود النـاس إلى وادي الجمـود، والثـاني يجـرّهم إلى بحـر الجمود.

ولعلّكم تدهشون لو سمعتم أن التركستان لمّا استقلّوا استقلالاً تامّاً، وأقامـوا جمهـورية إسـلامية بـريـاسـة مسلم «الحـاجّ تيـاز» وابتـدعـوا في إقـامـة المـدارس والجـامعات، اتفقـوا على أن يسمّوهـا باسم شيخنـا «طنطاوي جـوهـري»، وفعـلاً سمّوها حسب اتفاقهم جامعة طنطاوية ومدارس جوهرية وهكذا.

وألّف زعمـاؤهم وعلمـاؤهم كتبـاً في لغتهم للتـدريس بهـذه الجـامعـات والمدارس باسم شيخنا مثل (كتاب العقائد الجوهرية) وغيره لأنه في عقيدتهم حجّة الشرق وفيلسوف الإسلام، وتصانيفه منتشرة في الشرق، وهو نجم لامـع يستضيئون بـه، ويحترمـونه ولكنـه مع الأسف الشـديد مفقـود في إخواننـا المصريين لأنـه بين أيديهم، وكل شيء يستحسن في غيابه».

والعجيب: أن الأستـاذ مع هـذه الفتوح العلميـة الباهـرة قـد ألّف في الأدب والبـلاغة، وتـرجم شعراً عن كبـار شعراء الإنجليـز، أفرده في ديـوان خـاصّ مُقَفّى وموزون، وتناول بعض حقائق التاريخ بالبحث: كالبرامكـة والعباسـة والرشيـد فمَن قال: إنه ـ وقد ترك هذه المؤلّفات الحافِلَة ـ دائرة معارف متنوّعـة لم يبعد عن الحق في قليـل، على أن مؤلّفات الـرجل نفسهـا تتحـدّث عن حيـاتـه، إذ أنـه لا يسـوق الحقائق جافّة، ولكنه يمزجها بوجدانه وينظر إليها من داخله، فيتحدّث عن شعـوره بالمعرفة والطبيعة، ويُوازن بين عهود حياته الحافِلة، وقـد امتدّت إلى مـا يقرب من الثمانين، فيوضح همومـه العلمية ومعضـلاته الفكـرية، ويُفصِـح عن تيارات نفسـه وخلجات وجدانه.

ويحدّثك كيف كـان طبيب نفسه، يـرى خواصّ الـطعام فيبتعـد عن التغذيـة المعقّدة، ويفطر في رمضان على الطماطم النيئة ، ويشرب اللبن من الضّرع سـاعة الحلب، ويتجنّب الأملاح والسُكّريات، كلّ ذلك في عرض مَشوق تقرؤه فلا تدري أتنصت إلى أديب أم فيلسـوف أم فقيه أم طبيب! ولكنـك بعد ذلـك تفهم أنك مـع فيلسوف الشرق وحكيم الإسلام. . . رحمه الله.

محمــد عاكف
شــاعر الإسلام في تركيا

- ١ -

حين أُلغيت الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال، فرّ أنصارها إلى بعض المدن الإسلامية في الشرق، وكان ممّن قَدِموا إلى مصر شيخ الإسلام «مصطفى صبري» ووكيل المشيخة العثمانية «محمد زاهد الكوثري» وشاعر الوحدة الإسلامية «محمد عاكف» فنفّسواعن صدورهم في صُحُف وادي النيل ببعض ما يريدون أن يقولوه، وكان لكلٍّ منهم طريقه في الجهاد.

وقد كان شيخ الإسلام مصطفى صبري متطرّفاً في تشدّده على نحوٍ لا يرضاه المُنصِفون، فقد أخذ رحمه الله يُسيء الظن بكل مجدّد مُخلِص، وطفق يصدر الكتب والمقالات تجريحاً صارخاً لأعلام الفكر الإسلامي المعاصر، من أمثال «محمد عبده» و«محمد مصطفى المراغي» و«محمد رشيد رضا» و«محمد فريد وجدي» و«محمود شلتوت»، وأذكر على سبيل الفكاهة أنه رماني بالكفر الصريح في كتابه الأخير «موقف العقل والعلم والعالم» لأني مدحت معروف الرصافي في إحدى مقالاتي بالرسالة! وقد تعاظمني ذلك حين بلغني قبل أن أقرأ الكتاب، فلما تصفّحت المُؤلّف الضخم بأجزائه الأربعة، وجدت ما قيل عنّي لا يساوي شيئاً جوار ما قيل عن محمد عبده! فقلت: إن الرجل في غُربته ثائر الأعصاب، ويحتاج إلى أن يُعذَر لا إلى أن يُلام!.

أما الأستاذ الكبير محمد زاهد الكوثري، فقد انتقل نشاطه إلى دراسة المؤلّفات السلفية لرجال الفكر الإسلامي في قرونه الزاهرة، فكتب من المقدمات والدراسات والبحوث ما دلّ على عمق اطّلاعه، وكانت الفِرَق الإسلامية ذات الجدل الكلامي موضع اهتمامه، فجَلا كثيراً من آراء علماء التوحيد، واستعان بالتاريخ على فهم التيارات الفكرية المتصارعة، فأبلى بلاءً حميداً، كما أنه اتجه إلى تعريف المشارقة بعلماء الإسلام في تركيا ممّن تعاقبوا بمؤلّفاتهم وفتاواهم على مدّ الخلافة العثمانية دون أن تصل أنباؤهم إلى إخوانهم في مصر والدول العربية! فكشف عن الجديد الطريف.

أما تواضعه العلمي فقد كان مضرب المثل، إذ أنه وهو وكيل المشيخة العثمانية في دار الخلافة لبث يسعى إلى منزل الشيخ يوسف الدجوي ليقرأ عليه موطأ مالك بإسناده المتّصل من الشيخ الدجوي إلى المؤلّف رحمه الله! وما كان الكوثري في رأيي ذا حاجة ماسّة إلى ذلك، ولكنه يُحيي سُنّة السّلف ويُعيد سِيرة المتقدّمين!.

بعد ذلك نتحدّث عن شاعر الوحدة الإسلامية محمد عاكف فنعلن أنه قَدِمَ إلى مصر فأقام بحلوان زمناً شغل فيه وقته بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة التركية، وقد أتمّ الترجمة بعد جهد شاقّ متحرّز، وأخذ يراجعها حَذِراً متشكّكاً ثم تعاظمه أن يقع في خطأ غير مقصود فيحمل على القرآن الكريم ما لا يريد، وتجسّد شكّه أمامه فطوى الترجمة عن الناس وذهب جهده الشّاقّ أدراج الرياح، وقد تعرّف به الدكتور عبد الوهّاب عزّام، فرشّحه لتدريس التركية بكلية الآداب المصرية، فقَبِلَ أن يكون أستاذاً بالجامعة، ولكن حنينه إلى موطنه لم يهدأ، فسافر بعد اثني عشر عاماً إلى أنقرة، ليودّع أصدقاءه وعارِفِيه قبل أن ينتقل إلى رضوان الله، حيث لم يلبث غير أشهر معدودات! وفارق الحياة!.

- ٢ -

كان اتجاه أنصار الخلافة الإسلامية إلى الفرار من تركيا بعد إعلان الجمهورية متمشياً مع ما يعتقدونه في مصطفى كمال، فهم يرونه عدوّاً مُبِيناً للفكرة

الدينية، ولكي ننصف هذا الرجل، نعلن أنه من وجهة نظره الخاصّة كان معذوراً في ضيقه بالخلافة الإسلامية، لأنه لم يدرس شيئاً عن رأي الإسلام في الخليفة كيف يختار؟ وعلى أيّ نهج يسير؟ فظن أن الخلافة لا تكون إلّا كما تتراءى في صورة هؤلاء! فالخليفة منهم لا يهتمّ بغير شخصه، يحرص على أن يُذكَر متوّجاً بالألقاب الشاهانية، فهو السلطان الأعظم إمام الحرمين، سلطان البحرين والبرّين، والخاقان الأفخم، ظلّ الله في الأرض، وله عشرة آلاف جندي يقفون للمحافظة على حياته وإظهار أُبّهته وجلاله، يجتمع بالمُرائين من الممخرقين، ويستنبىء المشعوذين والعرّافين عن مستقبل حياته، ويدعو العلماء ليفسّروا له حلماً رآه في منامه، ويُنفق ببذخ مُترَف على مئات الجواري وعشرات القصور دون أن يكون له معقّب، يسأل عن مال الدولة، فِيمَ أُنفِق؟ وكيف يُجبى؟.

أما الجاسوسية فقد اتّسعت على أسوأ نطاق، فكلّ مَن أراد حظوة لدى خاقان البرّين والبحرين، أو عند الصدر الأعظم، تكهّن بمؤامرة موهومة، وتقدّم بعشرات الأسماء من أعدائه ليكونوا طعام السمك في البسفور! أما الجهل، وأما الفقر، وأما المرض المنتشر في ربوع الدولة فلا يلتفت إليه والٍ أو وزير! فكلّ والٍ يصل إلى منصبه عن طريق الرشوة، فإذا أخذ ولاية نائية أو دانية اجتهد في أن يستردّ أضعاف رشوته من عرق العمّال وكدّ الكادحين دون رقيب!.

دع عنك السياسة الخارجية، فلقد تكالبت الدول الأوروبية على استقطاع الدولة جزءاً جزءاً، فهي تشجّع الثوّار في البلقان، وتزيد التوتّر بين الرّوس والأتراك، والرجل المريض يلفظ أنفاسه في بطء، أما الخليفة فلا يزال يسأل عن الجواسيس عن أعداء وهميين! تاركاً بلاده على حافّة البركان! وإنها لنكبة فادحة، جعلت أتاتورك يركب رأسه دون أن يدرس تاريخ السّلَف الراشد، أو يستمع إلى وظيفة الحاكم كما حدّدها الإسلام!.

والحقّ أن الغازي مصطفى ـ كما كان يُوصَف في شتّى ربوع الإسلام ـ قد أحرز صيتاً رنّاناً بانتصاره على أعداء بلاده، وبتصميمه على طرد اليونان من أزمير

رغم مساعدة الدول الأوروبية فلما تمّ له ذلك قامت الأعراس في شتّى ربوع الوطن الإسلامي، وأصبح مَناط النفوس ومعقد الرجاء! وكان أحرى به أن يستغلّ هذا الحبّ الخالص، فلا يأتي بعد ذلك من الأعمال، ما يقلب نهاره إلى ظلام! فقد أخذ يتنمّر للتقاليد الإسلامية تنمّراً حقّق إرهاص عاكف وزملائه النازحين حتى فيما يمسّ الشعور المسلم في صميمه، إذ جعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد! وهو عمل يُنبىء وحده عن اتجاه واضح لا يحتاج إلى تفسير! فعمّت الكارثة وندّد به الأحرار في كل مكان! وصدّق ما قاله عنه شوقي رحمه الله:

إن الغرور سقى الرئيس بكأسه كيف احتيالك في صريع الرّاح

ولن نستعرض بقية أعماله المجترئة، فيطول بنا المقال، ولكننا نُشير إلى ذلك لندلّ على أن عاكفاً رحمه الله كان على حق حين ضاق بالبلاد وآثر الرحيل.

- ٣ -

كان والد عاكف مُدَرّساً في مدرسة الفاتح بإستنبول، وذا نزعة دينية حميدة، فحين وُلِد نجله الشاعر سنة ١٨٧٣ اهتمّ بتربيته وألحقه بالمدارس النظامية، فنال قدراً من التعليم المدني أهّله إلى الالتحاق بكليّة الطب البيطري، فتخرّج منها ظافراً بشهادتها النهائية، وفي الوقت نفسه زاوج تعليمه، فحفظ القرآن وروى الحديث، ودرس اللغة العربية، والفارسية، والفرنسية مع التركية، فكانت دراساته الشخصية ذات أثر بالغ في حياته لأنه حين دعا إلى الوحدة الإسلامية كان يغترِف من قراءاته الخاصّة.

وكان هناك رجلان طغيا على تفكيره في صدر شبابه، فأثّر كِلاهما بشخصيته تأثيراً قوياً في نفس الشاعر، أما الرجل الأول: «فجمال الدين الأفغاني» وجمال الدين الأفغاني دائماً أستاذ المُصلِحين في ربوع الإسلام، فتح عيونهم على الهوّة العميقة التي تنحدر إليها ممالك الإسلام بتكالب أوروبا، ومكايد أحقادها الثائرة، ورسم الطريق إلى الخلاص بإيضاح حقوق الحاكم وواجباته، وتحقيق سعادة الرعيّة ورفاهتها، والانضواء تحت ألوية المعرفة والحضارة، بعيداً عن الجمود

والقنوط والاستسلام، ثم الدعوة إلى وحدة شاملة عزيزة تجمع ممالك الإسلام نحو هدف واحد!!.

هـذه الآراء قد لمست من قلب عـاكف وتراً حسّـاسـاً، فهـامَ بهـا واعتنقهـا، وأصدر جريـدتين كبيرتين للدعـاية لهـا، ورسم طريقـه في الإصلاح على نهجهـا، منجذباً إلى تـلاميذ جمـال الدين ممّن يجتمعـون معه في الـرأي والاتجاه، فتـرجم كثيراً من آراء محمد عبـده إلى اللغة التـركية، لا سيمـا ردّه المُفحِم على «هانـوتو» وبعض تفسيـراته العصـرية لآيـات من كتاب الله، كمـا كان معجبـاً أكثر الإعجـاب بالمُدافعين عن الإسلام في العربية من أمثال «محمد فريد وجدي» إذ أفرد لمقالاتـه الذائعة جانباً في جريدتيه، يترجم منها ما يفيد حركة الثقافـة والإصلاح، وأذكـر أنه تـرجم كتابـه: «المرأة المسلمـة» إذ لمس الحاجـة الماسّـة إلى إيقاف الـرأي العامّ التـركي على منزلـة المرأة في الإسـلام، وموقفهـا من الثقافـة والمعـرفـة والمنصب والحدود الفاصلة بين السّفور والحجاب والتبرّج والاحتشام.

أما الرجل الثاني صاحب التأثير البعيد في نفس عاكف، فقد كان «أبا الهدى الصيادي» ذا النفوذ البعيد لدى عبد الحميد، فقد تزيّى بـزيّ رجال الـدين، ونصّب نفسـه حاميـاً للشرع والخليفـة، وهو في أطـواء نفسه أفّـاق محتال يعمـل لـرغبـات شخصية، لا يبالي أن تتجاوز حدود الله، نـاصباً شتّى المؤامـرات لإبادة مَن يجبهـه بكلمة الحق.

يقـول عنه الـدكتور أحمـد أمين في كتـابـه: «زعمـاء الإصـلاح» ص ٢٤٣: «سوري من حلب، فقير المال والحسب، دفعته المقادير إلى الآستانة وكـان ماهـراً ذكيّـاً، وسيم المحيّا، مـاضي العزيمـة قادراً على معـرفـة النفـوس ومن أين تؤتى، فتغلب على عقـل السلطان بأحـلامه وتفسيـراته، والـطرق ومشيختها، فـربط نفسـه بـأعلى نسب، فهو قـرشي هـاشمي علوي، وهـو في الـطريقـة رفـاعي لـه الأتبـاع الكثيرون، لا يعبأ بالمال يـأتيه على كثـرته فينفقـه ويستدين لأن عـزّ الجاه والسلطة عنده أقوى من عزّ المال.

له أعيُن تأتي له بكل الأخبار فيستغلّها أمهر الاستغلال، يحلم فلا حدّ لحلمه، ويبطش، فلا حدّ لبطشه، سمّي: مستشار الملك، وحامي العثمانيين وسيّد العرب، استمال كثيراً من الأمراء والعلماء، فكانوا عَوْناً له يبطش بهم حين يريد البطش، ويؤلّف بهم الكتب حين يريد شُهرة العلم، والدنيا كلها يجب أن تُسَخّر لشخصه، وأن تخضع لأمره، والحقّ ما أتى عن طريقه، والباطل ما جاء عن طريق غيره، عدوّ كلّ إصلاح، وخصيم كلّ حرّ، كم له من ضحايا في السجون وفي أعماق البحار، وفي ذلّ الفقر، وفي بؤس النفي، وكم أنفذ أمره وبطل أمر السلطان، وكم تذلّل على «عبد الحميد» فاسترضاه وبالغ في الطلب فأوفاه».

هذا الداهية الوصولي قد أثّر في نفس عاكف تأثيراً لا يقلّ عن أثر جمال الدين، وإن اختلف اتجاه التأثيرين إلى درجة التناقض، حيث أن محمد عاكف قد عزّ عليه أن يكون الإسلام السَّمح بعدله وإنسانيته ستاراً يحتمي به الممخرقون، من أدعياء الولاية والتصوّف! وهاله أن يعدّ هذا الأفّاق المحترف مع أشياعه من كبار حُماته وأساطين أعلامه، ثم يقترفون الأوزار فترجع في نظر الناس إلى دينهم البريء لا إلى فُسُوقهم الشائن، فصمّم على أن يقوم بدعوة الإصلاح الديني، ليفضح هؤلاء الفَجَرَة المارقين.

وكان طريقه في مُفتتح حياته شاقّاً تهبّ به الأعاصير في كل اتجاه ولكنه استطاع أن يكون ذا أنصار وأتباع بجهاده الصابر ودفاعه المستميت! وقد كان إلى ذلك كله أستاذاً في الجامعة التركية وعضواً في المجلس الوطني، وصاحب مجلتي الصراط المستقيم وسبيل الرشاد، وكلّ ذلك يجعله ممّن يقولون فيسمعون، بل إنه ما وصل إلى مكان القيادة في الجامعة والمجلس الوطني إلاّ بما عُرِفَ عنه من سَداد وإخلاص!!.

ولم يخدم الفكرة الإسلامية بقلمه الثائر وحده، بل بدواوينه الخمسة التي توالت حارّة قوية نفّاذة، تحت عنوان واحد هو «الصفحات»، وإذا كان الشِعر أخلد من النثر لكثرة رُواته، وعظيم تأثيره، فإن الكاتب المُصلِح «محمد عاكف» قد شاء

له القدر أن يدخل حرم التاريخ من باب الشِعر على أن يذكر جهاده الإصلاحي الدائب، وكفاحه العلمي الثائر من بين معارجه الرفيعة، التي حملته إلى ذروة الوحي فتلقّى أشعة الإلهام ليترنّم بها أبناء اللغة التركية في فخر وإكبار.

وقد كان ادّعاء أبي الهدى الصيادي سمت التصوّف، دافعاً للشاعر أن يبحث عن أصول التصوّف الحقيقي في الإسلام، فدرس فطاحل المتصوّفين في العربية والفارسية والتركية، واشتدّ إعجابه بابن الفارض في العربية وبسعدي الشيرازي في الفارسية، حتى ترجم عنه أكثر أشعاره في صدر شبابه (بمجلة ثروت فنون) ففتح عيون القارئين على بحر عميق الغور، ووصل بين الفارسية والتركية بأسباب أكيدة فوق ما عرف عن اللغتين من الامتزاج المتقارب في بعض الوجوه والسِّمات!.

على أن أكبر أديب احتلّ شعوره وملك عليه منافذ تفكيره كان الشاعر المعاصر محمد إقبال، إذ أن صيحات إقبال العظيم في إيقاظ الشعور الإسلامي قد وجدت صَداها الرنّان في نفس عاكف، فكانت دواوينه الرائعة سلوى نفسه ومَثار عواطفه، يتحدّث عنه صديقه الكبير الدكتور عبد الوهّاب عزّام حين ودّع الحياة في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٦ فيقول بالعدد (١٨٧) من مجلة الرسالة الغرّاء:

«وكم تحدّثنا وقرأنا في سيرنا وجلوسنا في الآداب الثلاثة العربية والفارسية والتركية، وكنت أحبّ أن أقرأ عليه شعره، وكان يسرّه أن يستمع إليه، وكانت كل أحاديثنا وقراءاتنا متعة نجتمع فيها على الفكر والذّوق والأمل والألم، وكان أطيب المجالس مجلساً نفرغ فيه إلى شِعر محمد إقبال، فقد عرّفني رحمه الله بإقبال يوم أعارني ديوانه (بيام مشرق) فإذا صَفَا الوقت عمدت إلى أحد كتب إقبال فقرأت، واستمع مُقبِلاً مستغرقاً، يقطع إنشادي في الحين بعد الحين بالاستعادة أو الاستحسان أو التعجّب أو التأوّه، وشدّ ما كان يثير إقبال نفسه أو يثلج صدره وشدّ ما كان يُحزنه أو يُفرحه، وأذكر أننا بدأنا كتاب إقبال «أسرار خودي» فوالينا الجلسات حتى أنهيناه إنشاداً، ثم أتبعنا به أخاه «رموز بي خودي» فختمناه على شوق إلى الإعادة.

- ٤ -

تطرّق بعض الباحثين إلى الموازنة بين شعر إقبال وشعر عاكف، وما قرأته في هذا الصّدد يشير إلى أن إقبال كان إنشائياً! إيجابياً في شعره، فهو متفائل يلتمس القوة في ذات المسلم ويرى روحه الوثّابة طاقة كبيرة، تستطيع القيام بعمل ضخم كبير، لو فطن إلى ذخائرها النفيسة، واكتشف عناصرها الفتيّة، مع أن الشاعر المتفائل ليست له أمة متماسكة، بل مُسلِمو الهند لعهده أباديد هائمة في جماعات متنازعة متناحرة، مما كان يدعو إلى التشاؤم، لولا أن إقبال قد آلى على نفسه أن ينفخ في الصور ليستيقظ النائمون من أجداثهم إلى بعث جديد.

أما عاكف فقد أمضّه تقلّص الظلّ الإسلامي واقتطاع أجزائه وسوء الواقع في تركيا وما ترعاه من ممالك، فاكتفى بالنّواح والبكاء، ونظم زفراته الحارّة أبياتاً باكية ذات شجن ملتاع! مع أنه يعيش في وطن متماسك ذي حيّز، يدعو إلى التفاؤل لو كانت له روح إقبال وعزيمته! وفي رأينا أن البكاء النائح نفخ في الصّور من لون آخر فهو يدعو القارىء إلى تفهّم المأساة، ويبصّر عينيه بالكارثة الحاقّة، ليهبّ هبّة عاتية، ينتقم من أعدائه ويثأر من غاصبيه! وإذن فلِعاكف أثره الملموس في إيقاظ الهِمَم، وبعث العزائم! وإن كان لا يُقاس بأثر إقبال إذا قِيسَ به! لأن كل شاعر يخطّ مجراه وفق مَنزعه الوجداني، واستعداده النفسي، ولا يعقل أن يكون شعراء الإسلام جميعاً على جادة واحدة! وإن كانوا جميعاً على طريق سَواء!.

لنا أن نستمع إلى بعض زفرات الشاعر كما ترجمها صديقه عزّام، فقد صدر الجزء الأول من صفحات ديوانه بقوله:

«سَلْني أيّها القارىء الحبيب أُنبئك، سَلني ما هذه الأشعار الماثلة أمامك؟ إنها أكداس من الكَلِم لا براعة فيها إلاّ الإخلاص، لست أعرف التصنّع لأني لست صانعاً، يقال إن الشعر دمع العين لا علم لي بهذا، ولكني أرى أن كل ما أُسطّر هو بكاء العجز، أنا أبكي فلا أستطيع أن أبكي، وأشعر فلا أستطيع أن أُبين، وإن الشقاء أن يُحرَم القلب الشاعر لساناً، اقرأ إن كنت تنشد قلباً حسّاساً، اقرأ فما كتبت كلمتين إلاّ سطّرت هذا القلب».

كما قال في ديوانه الأخير ـ والترجمة لعزّام أيضاً ـ:

«ما كنت لأقف معقول اللسان أقلب الطرف فيما حولي، لم يكن لي بُدٌّ أن أنوح لأُوقظ الإسلام، إنما أُريد أن تفور القلوب المرهفة الحسّ، الراسخة الإيمان، وأما التفكير الطويل فقد هجرته منذ أمَد بعيد، إني أنوح، ولكن لمَن؟ أين أهل الدار؟ أُقَلِّب طرفي فلا أظفر إلاّ بأُمَم نائمة.

لقد خنقت صرخاتي، وحملت نعشها، ثم مزّقتها تمزيقاً، ودفنتها في شِعري المنهمر، أسيله في غير هدير كالدموع الخفيّة لا أجد في هذه القبّة الصمّاء لآلامي أثراً، فليئنّ الخسران الذي في صفحاتي دون حسٍّ ولا ركز».

ونحن حين نعرض نماذج من شِعره لا نريد أن نحدّد مكانه الأدبي، ونَصِف سِماته الأسلوبية بقدر ما نريد أن نحدّد اتجاهه الإسلامي، والجزء من شِعره في هذا المجال يُنبىء عن كله، إذ أنه جمرات ملتهبة تشبّ في أتون مسجور! هو قلبه اللهيف!.

لقد قَدِمَ القاهرة في سنة ١٩١٢ زائراً المشتى الجميل بالأقصر، وواصل الخطو في ديار الإسلام، فوجد نفسه غريباً بين أهله وذويه، عن يمينه وشماله أوروبيون من إنجليز وفرنسيين وألمان يملؤون الكؤوس ثَمِلين، ويُواصلون السَّمَر ضاحكين، وأمامه معابد الفراعنة تُشير إلى مجدٍ عَفَا وسلطان أدبر، وواقع العالم الإسلامي من حوله يشير إلى ظلمات تتراكم وتمتد حتى يسود الأفق، وتهمد الأنفاس، كلّ ذلك قد هاجَ لواعه، فنظم قصيدة طويلة جعل عنوانها (في الأقصر) بدأها بوصف الطبيعة الهادئة ساعة الأصيل بالصعيد الأعلى عند غروب الشمس، فرسم مناظر بديعة للنيل بزوارقه ومجاديفه. وللنخل السامق الباسق، وللفلاّح الكادح اللاّغب، ثم انفجر يقول نقلاً عن ترجمة الأستاذ «أكمل الدين إحسان» بالعدد الرابع من مجلة الشِعر: «ورأيت أمامي نحو ثلاثة عشر نفراً من السائحين، ما بين فرنسيين وإنجليز وألمان، مجتمعين زُرافات ووحداناً، وللكؤوس بينهم رنين.

فالفرنسيّون يضحكون لأن كيسهم المملوء يهزّ الدنيا المدينة لهم هزّاً عنيفاً، وليس في الدنيا ما يُحزِنهم إلاّ هزيمة «سيدان» ومع ذلك فإن الرّغَد والرفاهية يُنسِيان الإنسان أنكى الجروح.

والإنجليز يضحكون وما أجدرهم بالضحك، لأن الدنيا كلها رهن إشارتهم، إن قالوا لها موتي فستموت، يؤلّبون شعوب الأرض بعضها على بعض، وينظرون عن بُعْد فَرِحين، فبينما يصطدم الحجر والفولاذ يُشعِلون غليونهم.

والألمان يضحكون لأن قوّة عضدهم كفيلة بأن يصدق العالم جميع ما يقولون، وما دام البشر لا يعطي الحقّ إلا للقوّة، فما الحيلة في الوصول إلى الحق بغير القوة؟!.

أضَعيف أنت إذن؟ فالنحيب أولى بك!.

نعم في هذه الساحة من الصخب، صخب الحبور، وجَلَبَة السرور، أنا وحدي اليأس الذي لا يبتسم! قد أخذت أبكي وما أجدرني بالبكاء! فأنا كالغريب من ديار ديني! لا من تراب هذه الديار ولا من نهرها.

هذه السهول لا ترجع حديثي! أيها الشرق العظيم، أيها العالم المترامي الأطراف! ليت شعري في أيّ بقعة من بقاعك نجد أبناءك السعداء! إن رأسك ترزخ تحت الشدائد وعضدك واهٍ! وذراعيك مغلولتان! ولمّا يهبّ نسيم الاستقلال على قلبك بعد! قد طفت في أرجائك كلها، لأرى أمامي داراً للإسلام فكلّت قدماي.

وكلما تناهت إليّ من سبيلي أصوات الأجانب، لم تفض روحي الباكية إلاّ بخيبة الأمل! فهل كان نصيبي أن أكون غريباً في قلب الإسلام! إن هذه العاقبة لأقصى انتقام للأيام! والآن وقد تقدّمت بي السنون، ووَهَت قدماي فعلى بُنَيَّ أن يجاهدوا ويأخذوا بثأري!».

تلك جذوات ملتهبة مما اشتعل في صدر هذا الأتون المسجور وهي على ضآلتها القليلة كمّاً فقط تشير إلى معدن أخواتها، وتدلّ على درجات حرارتها، وفي الاقتصار عليها نفع وعزاء.

- ٥ -

ولنا أن نوضح الآن نصيب محمد عاكف في معركة الإصلاح الديني، فنذكر أنه كان زعيم الحركة الإصلاحية التي ترى قيام الإصلاح السياسي والاجتماعي على سُنَن من هدي الدين الخالص بعيداً عمّا أضافته الأجيال المتعاقبة من قيود مذهبية تكبّل حركة التطوّر الفقهي، وتقفل باب الاجتهاد، استناداً إلى ما عُرِفَ بالإجماع دون نظر إلى ما في أُصول الشرع من مرونة واتّساع، تجعل دين الإسلام صالحاً للزمان والمكان على تناسل الأحقاب والإجماع بمدلوله المتحجّر عند الجامدين يُلزِم الناس بالوقوف لدى ما انتهى إليه أصحاب المذاهب دون أن يتعدّى القرن الثالث الهجري، ولكنه بمعناه الأصيل يشمل كل إجماع للعلماء في كل عصر، لأن لكل وقت ظروفه ومُلابساته التي تدعو إلى أحكام خاصّة، يجتهد في أمرها، ويُصدر إجماع بشأنها.

وقد كان مذهب عاكف يعارض مذهبين مختلفين في تركيا: مذهب الرجعيين من رجال القصر، والمنتفعين بغنائم الحكم ممّن يرون في استبداد الحاكم مَغنَماً شخصياً تتحقّق رغائبهم في ظلّه، فهم يتمسكون بالأوسمة والألقاب والرُّتَب والنياشين، وقد جعلوا وظائف الدولة مقصورة على المسلمين، فكلّ مثقّف من أبناء هؤلاء يبحث عن الوظيفة ويجعلها هدفه الأخير والأول، مُنشَغِلاً عن ميادين النشاط في البلاد: من تجارة وصناعة وزراعة! حتى وقر في الأذهان أن المسلم كسول متواكل لا يُغامر في مَعاش أو يهدف إلى جديد!.

أما المذهب الثاني: فمذهب الإصلاح القومي، وقد تزعّمه المفكّر الكبير ضياء جاك آلب ـ وصاحبه أديب شاعر ممتاز ـ نشأ في ظروف متشابهة لنشأة عاكف، وكان ذا غيرة وطنية، وحماسة قومية، نادى بالإصلاح عن صدق وغيرة،

ولكنه تطرّف تطرّفاً كبيراً، حين دعا إلى القومية الطورانية مُعارِضاً بها فكرة الوحدة الإسلامية.

ومن سوء حظّه أن دعوته فُهِمَت على غير وجهها حتى حسبه بعض الباحثين عنصرياً طائفياً، مع أن الذي يتعمّق أفكاره ويدرس آراءه يراه يعدّ الدين عاملاً هامّاً من عوامل القومية، إذ أن الشعب في رأيه ليس مجموعة تربطها أواصر الجنسية، أو المناخ أو الإدارة، ولكنه مجموعة من الأفراد تجمع بينهم روابط الدين واللغة والأدب والأخلاق المشتركة! وقد صرّح أنه لا يؤمن بالقومية ما لم تكن قائمة على أساس ديني قويم، فاليهود الأتراك في رأيه ليسوا قوميين وإن سكنوا تركيا سنين كثيرة، وتجنّسوا بالجنسية التركية، وإنما هم (وطنداشي) أي بنو الوطن.

وإنما يرجع خطأ ضياء جاك آلب، إلى أنه نَسِيَ أن الدين الإسلامي الذي يعتبره عاملاً هامّاً في القومية لا يعترف بالجنسية والدم، حتى يجوز له أن يدعو إلى القومية الطورانية في ظلاله، كما أنه تزعّم الدعوة إلى لغة شعبية لا تحترم تقاليد النثر والشِعر، بل ترفض قواعد التأليف منحدرة إلى مستوى الحديث العلمي أسلوباً وتركيباً!.

وزاد الطين بلّة حين فهم مدلول كلمة (علماني) بمعنى (لاديني) واهِماً أن العلم في الإسلام لا يتّفق مع الدين في كل وجوهه، ومن أجل هذا التطرّف في آراء ضياء جاك آلب كانت حركة مذهب الإصلاح الديني التي تزعّمها محمد عاكف ذات صدىً رنّان في توضيح مبادىء الإسلام ومُثُله! فلولا أنه ترأس جماعة تقوم بهذه الرسالة الخطيرة وتضمّ أمثال «جناب شهاب الدين» «وتوفيق فكرت» لشاهت معاني الإسلام في أذهان الجيل الصاعد ممّن تربّوا بعد صدور الدستور سنة ١٩٠٦، وشهدوا الصراع بين الشرق والغرب في معركته الساخنة ذات المدد الحفيل.

لقد كتب الأستاذ الألماني «ريشارد هرتمان» رسالة موجزة عمّا سمّاه أزمة إسلامية تشمل عرضاً لدعوات التجديد في الحجاز والهند ومصر وتركيا، فكان من

الطبيعي أن يبرز دور عاكف ويتعرّض للموازنة بينه وبين أنصار المذهب القومي، فيما ترجمه الدكتور علي حسن عبد القادر بقوله:

«ومن الممكن على احتمال قليل أن نميّز المذهب القومي بأنه سياسي ثقافي، والمذهب الإصلاحي بأنه ديني إصلاحي والمهم هنا: هو أن كِليهما قد وضع لمسألة الدين طريقاً واحداً للسّير فيه، فكلٌّ منهما يرفض الإسلام التاريخي ويطلب الرجوع إلى الإسلام الأول، وكلٌّ منهما يرفض اعتبار الشريعة للوقت الحاضر ويطلب حرية الاجتهاد».

وفي هذا الكلام غموض يستدعي الإيضاح، فالمراد بالإسلام التاريخي هو قول هرتمان، هو ما أُضيف إلى الإسلام على مدّ العصور من آراء وفتاوي لا تحمل عناصر بقائها، بحيث حُمِلَت عليه وظن أنها من تعاليمه، وهي أحكام جزئية لعلماء يُصيبون ويُخطئون! أما رفض اعتبار الشريعة للوقت الحاضر فمعناه أن أقوال الفقهاء التي كوّنت ما ورثناه من كتب الفقه، لا تُقبَل على علاّتها كقانون جازم لا مَحيد عنه، بل لا بدّ من النظر في هذه الأقوال من ناحية، والاجتهاد المطلق في إصدار أحكام أخرى تناسب أصول الإسلام، وتصلح لأبناء هذا الزمن.

وقد فصل «هرتمان» ذلك بقوله عن مذهب «عاكف» فيما بعد: (فهو مع إحاطته على العموم بالحياة الثقافية والسياسية بتعمّق من الوجهة الإصلاحية في الدين، وما يعنيه من الرجوع إلى الإسلام يعني به الرجوع إلى الإسلام القديم، لا بإبعاد الأمور التي غيّرت منه أثناء تطوّره التاريخي فحسب، بل أيضاً وقبل كل شيء يريد الوقوف ضدّ هؤلاء العصريين المندفعين في تيار الغرب، وضدّ دُعاة المذهب القومي، فهي حركة دينية تريد أن يكون الدين قوّة تخضع لها كل الحياة المدنية في غير إضرار بحركة الفرد).

هذا هو عاكف العظيم! وتلك أضواء تشير إلى بعض مواقفه! طيّب الله ذكراه، ونضّر بالرحمة مثواه...

عبد الوهاب عزّام
الأديـــب المجاهد الغيور

- ١ -

تحتاج الأمة الإسلامية في حاضرها الراهن إلى أقلام مجاهدة، تدفع بالباطل عن طريق الحق في إيمان راسخ لا يتزعـزع فهي تتطلّع ذات اليمين وذات الشمـال بـاحثة عن كمـاة باسلين تـركوا أمكنتهم دون أن يخلفهم مَن يسـدّ الفراغ، ويُحسِن البـلاء، وإن في طليعـة هؤلاء الـذين يفتقـدهم الخـابـطون في حنـادس الليـل «عبـد الوهـاب عزّام» إذ أن مكـانه من القضيـة الإسلاميـة والأمة العـربيـة، والبيـان المحمدي، ينادي تلاميذه بلسان صارخ، أن هبّوا من رقادكم، لتُحسِنوا القدوة بمَن سلف فتحملوا الراية، وتواصلوا الكفاح!.

لقد كان عبد الوهاب عزّام مكافحاً أيّ مكافح، لم يتشدّق بالثقـافة والمنصب وأعلى الدرجات العلميـة، وأخصب المؤلّفات الفكـرية التي تـوّجت نضالـه! ولكن خُلق الإسـلام قد أكسبـه تواضـع الـزاهـدين، وهـدوء البـاحثين، ولـو شـاء لضـجّ وصخب، ولأعانته ثقافته الرفيعة على أن يجهـر بنبوغـه، فيعلن عن نفسه في تكبّـر واستعلاء، ولكن عزّاماً قد درس وتعلّم، لتكـون دراسته الخصيبـة المتعددة الأفنـان تـربية سلوكيـة، تدعـو إلى الخطة المُثلى في دنيـا الخلق، كما كـانت منارة مُشِعّـة تمزّق الحوالك في دنيا الظلمات!.

لقد كان الرجل الكبير ذا هدف بارز حيّ يتّضح بجلاء في جميع ما كتب من مقالات، وناقش من أبحاث، وسطّر من مؤلّفات، وعالج من قضايا، ونظم من شعر، وترجم من آداب، فقد نشأ بالأزهر، وتعلّم في مدرسة القضاء، ثم رحل إلى أوروبا متزوّداً من ثقافة العصر، ورجع ليأخذ مكانه في قيادة الشبيبة من أبناء الجامعة، وهو في مختلف أدواره، وتقلّب أطواره المسلم الغيور الذي تزيده الثقافة المطمئنة إيماناً بدينه، وهياماً بمُثُله، وبصراً بمزالق الريب في مسلك الثقافة المعاصرة، وخلوصاً إلى اللباب المستكنّ من الحقائق بعد أن تنكشف عنها قشور الخداع، وأغطية التمويه، وأنت تتابع بحوثه ومعاركه فتشهد نعمة الله السابغة تتجلّى في عمق النظرة، ونصاعة القول وعِفّة القلم، ثم تأسى على رحيله المُباغت دون خلف.

لقد رسم «عزّام» صورة المسلم المثالي حين درس لغات أبناء الإسلام من فارسية وأردية وتركية وعربية، دراسة تعاطف وتَوادّ وإيمان، قبل أن تكون دراسة ليسانس وماجستير ودكتوراه، فقد شعر في أطوائه العميقة بدافع قوي يجذبه إلى أن يلمّ بمعضلات المسلمين في كل مكان، وأن يكون سفيرهم الفاحص عن أدوائهم المستعصية عن طريق مباشر لا تغيم فيه كدورة الناقلين، أو خداع المُضِلّين، وقد رأى الأخوّة الإسلامية لا تتمّ بحقيقتها الرائعة إلّا إذا خاطب كل مسلم بلغته، وشافه كل مؤمن بلسانه، فألمّ بقضاياه ومعاضله، ثم اندفع ينادي بالإلفة والتحابّ، ويدعو إلى التوادّ والتراحم في أمّة «كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسّهر» وصدق رسول الله ﷺ.

لقد سمعت مَن يتحدّث عن «عزّام» فيقول: إنه كان عصبة أُمم إسلامية، مُشيراً بذلك إلى تضلّعه الموسوعي في شؤون المسلمين بكل مكان! ولئن صدق هذا المتحدّث في مضمون قوله فقد أعوزه التعبير الدقيق في توضيح مُراده، إذ أن عبارة «أمم إسلامية» كاذبة خادعة، فالإسلام أمة واحدة لا تعرف التعدّد وقد قال الله عزّ وجلّ في كتابه ﴿ إن هذه أمّتكم أمة واحدة وأنا ربّكم فاعبدون ﴾، ووضع كلمتي أُمم إسلامية مكان دول إسلامية خديعة نكراء بدأ بها كهنة الاستشراق عن

غرض، ثم فعلت السياسة أفاعيلها في تضليل المسلمين، فأصبحوا يـرون أنفسهم أُمماً مختلفة، وقد قال الله عنهم إنهم أمة واحدة.

وقد كانت حياة «عزّام» الخصيبة العريضة بعض الأمثلة الحيّة لأحد أفراد هذه الأمة العريقة، إذ كان يصدر في أحاديثه ومؤلّفاته عن روح الأمة الواحدة، ولنضرب الأمثلة على ذلك ببعض ما أُثِرَ عنه، وهو مما تشتدّ الحاجة إليه في زمان تصدّر فيـه للحـديث عن المسلمين مَن لم يقـرؤوا شيئـاً من كتبهم وتـاريخهم وإنمـا وجـدوا شذرات مبتورة بنوا عليها الأحكام الجائرة، فطفقوا يتخرّصون.

يتـزيّد كثيـر من المتحدّثين عن الشعـوبية في الأدب والقـومية تـزيّداً تـرفضه حقائق التاريـخ الصحيح، فهم يتصيّـدون بيتاً أو أبيـاتاً قـالها بشّـار أو أبو نـواس أو مهيـار، وكتابـاً ألّفه أبـو عبيدة أو الكلبي، ليجعلوا من ذلـك دليـلاً على اضـطغـان الفرس على العرب في الدولة العباسية، وهي شنشنة نعرفها من دُهاة المستشرقين، ولكن الاندفاع في تضخيمها وتجسيمها مما يُنافي الحقائق الصارخـة، فإن جمهـرة القائمين على الدولة العباسيـة من الفارسيين كـانوا من حصـونها الـواقية وأسلحتهـا المُدافِعة، ومحاولة الانتقاص على الحكم العباسي قد وجدت من العرب في بعض أحوالها كما وجدت من الفـارسيين، وليس معنى ذلك أن مؤامـرة شعوبيـة تدبّـر من فـارس للعرب كمـا يحاول بعض المُغـرِضين أن يجوّفـوا الحقائق ليمـزّقـوا أعضـاء الجسد الواحد.

فالدولة العباسية وجدت أنصارها سياسةً وعلماً وأدباً من الفارسيين، ولم تكن لتقوم بغير تكاتف أبناء الإسلام جميعاً على صيانتها والـذّود عنها، وإن انتفـاضة ثـائر أو ثائرين استثناءً من القاعدة المطّردة يلحق بالشواذ، ولا يمكن أن يكـون أصلاً تـرسو عليه الأحكام.

وأنت إذا أحصيت الثائرين على الدولة العباسية من العلويين والخـوارج وهم من العرب الأقحاح، وجدتهم أكثر من ثائِري الفرس والديلم، فلم تكن الثـورة إذن شعوبية تهدف إلى كيد دولة لدولة ولكنها مما تضطر إليه طبائع البشر، وفي الأسـرة

الواحدة ذات الجدّ الواحد أبناء يتخاصمون ويتنازعون دون أن يفسّر ذلك ببعض ما نتصيّده من بذور التّفرقة والشّقاق لأمور يعلمها الله، وبهذه الروح الصادقة يكتب الأثبات من دارِسِي التاريخ، وفي هذا المجال يتحدّث «عزّام» عن علاقة العرب بفارس فيقول عن مجلة الرسالة ٦ شوّال سنة ١٣٥١ أول فبراير سنة ١٩٣٣ ص ١٧:

«فتح العرب الأقطار باسم الدين، فلم يكن إلاّ أن يسلم الفارسي فإذا هو واحد من المسلمين الفاتحين، ثم كان حكمهم على رغم مصائب الحروب وفظائعها عدلاً لا عنف فيه، وكان في الفرس على هذا مَن وجدوا في الفتح الإسلامي مخلصاً من اضطهاد ديني، فالديلم من جند الفرس انحازوا للمسلمين بعد القادسية وأسلموا، وعاونوا في واقعة جلولا، ثم استوطنوا الكوفة، ونجد من الفرس مثل (أبي الفرخان) الذي عاون العرب في فتح الريّ فوُلِّيَ عليها، ونجد «مرزبان مرو» يخذل يزدجر ويرسل أمواله بعد أن قُتِل إلى أمير العرب هناك، وقد أعطى العرب الفرس الذين قاتلوا معهم حظهم من الغنائم، وفرض عمر في العطاء لمثل المرزبان في المدينة، وأحسن «عمر» إلى الفلاّحين الذين لم يقاتلوا.

ويقول الطبري عن أهل فارس: «وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا في زمن الأكاسرة، فكانوا كأنما هم في ملكهم، إلاّ أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم فاغتبطوا وغبطوا، وقد بقي الفرس أحراراً في دينهم وبقيت معابد النار في الجهات كلها ولا سيما فارس، فقد حكى المؤرّخون «كالاصطخري» و«ابن حوقل» أنه لا توجد قرية في فارس بغير معبد نار، وأن جمهور أهلها من عَبَدَة النار، وأنهم في شيراز لا يمتازون عن المسلمين في مظاهرهم، وكانت معابد النار تُحَمّى ويُعاقَب مُخَرِّبوها.

وإنما تناقص عدد الزرادشتيين بدخول كثيرٍ منهم في الإسلام وقد دخلوا فيه أفواجاً حتى شكا عامل خراسان إلى «عمر بن عبد العزيز» قلّة الجزية فأرسل إليه «أن الله بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابِياً»، على أنهم بقوا كثيرين إلى عصرٍ قريب.

إنما أُفيض في هذا لأُبَيّن أن العرب والفرس بعد الفتح لم يكـونوا في نضـال مستمر، وأن العرب لم يستعبدوا الفرس كما يحسب بعض الناس. لم يفعل العرب إلّا أن حطّموا الحدود الوطنية فشاركوا الفرس في جماعة أوسـع، ونالـوا من العلوم والآداب التي تعاونت عليها الأمم الإسلامية، ونالوا عليا المناصب، فالبرامكـة مثلاً كانوا يديرون للعباسيين مُلكاً أعظم وأوسع ممّا كان يديره بزرجمهر لأنوشروان».

هذا نمط من اتجاه عزّام في موضوع كَثُرَ فيه التخرّص المقيت، ونحن نحبّذه لا لأنـه يُرضي عـواطف المخلصين من أبناء الإسـلام، بل لأنـه ينحـو منحى الحقّ الصـريح، فيعلن أن كثيـراً ممّن اعتنقوا الحنيفيـة السَّمحَـة في فـارس قـد أسلمـوا طواعية دون إكراه، وفيه مَن وجد في الدين الجديد مُخَلِّصـاً من الاضطهـاد الطبقي الكريه، ولم يكن المُسارِعون إلى الإسلام من صغار الكادحين، بل شاركهم السّبق نفـر من ذوي السلطان والجـاه، ومَن بقي على دينـه تُـرِكَت لـه معـابـده وطقـوسـه وصلواته ليُزاول أمور ديانته دون تحرّش أو انتقاص.

وظلّت معابد النار تؤدّي دورها في كنف الإسـلام، فإذا هـاجمها متسـرّع من ذوي الـطيش لقي جزاءه الصّـارم من العِقاب، أمـا ذوو السياسـة منهم في الـدولـة العباسية فلم يحملوا للإسلام أو العرب ضغناً يدفعهم للثورة الحاقدة، ومـا كان من ذلك فمذهبه مذهب الحياة المُشاهَدة في الدولـة الواحـدة والجنس الواحـد والدين الواحد، فكيف مع هذه الحقائق الصريحة تُقام الدعاوي العريضة مستندة إلى شعر يقوله بشّار أو عَبَث ينظّمه أبو نواس، فإذا قال الأول:

أحين كُسِيـت بعـد العُـري خـزّاً ... ونـادمـت الكِـرام عـلى العـقـار
تـفـاخـر بـابـن راعـيـة وراعٍ ... بني الأشـراف يـا لـك من خسـار

وإذا قال الثاني:

يبكي على طلل المـاضين من أسـد ... لا درّ درّك قُـل لـي مَـن بـنـو أسـد
ومَـن تـمـيـم ومَـن قـيس ولـفّـهـمـا ... ليس الأعـاريب عنـد الله من أحـد

وإذا قال غيرهما نظير ما قالاه، فذلك دليل الحقد العارم على العروبة! وعنوان الشعوبية التي تفيض بالثورة والحفيظة والانتقام، وكأن الناس لا يعلمون أن عَلَم العروبة ودين الحنيفة لم يخدما بأكثر مما كتبه علماء وأدباء وفقهاء ومحدّثون، منهم: «البيهقي والنيسابوري والخوارزمي والجرجاني والتفتازاني والزمخشري والرازي والشيرازي والبيضاوي والبخاري والنسائي والفارابي والقزويني والطوسي والسمرقندي والترمذي والسجستاني والنسفي والهمذاني» ومَن لا نستطيع أن نحصي من أسماء هؤلاء! فيا ليت قومي يعلمون فيقصرون.

ونُتبع هذا المثال بمثال آخر لعزّام، تحدّث فيه عن علاقة التّرك بالعرب والمسلمين حديث المؤمن الذي يرأب الصّدع، ويضمّد الجرح، وذلك حين حاول الكماليّون أن ينتقصوا العروبة والإسلام، فيرجعوا إليهما وإلى الخلافة الإسلامية ما نزل بتركيا من التقهقر والخذلان، ووجدوا من أعداء الدين مَن يظاهرونهم على الباطل فيشيدون بِهرائهم الزائف مُسرِفين، وكادت نفوس الضعفاء تتزعزع في مهبّ العاصفة لولا أن صمد للباغين نفر من ذوي العزم الصادق كان في طليعتهم عبد الوهّاب عزّام، حين انبرى يسلسل المقالات المتتابعة في مجلة الرسالة المجلد الثالث ص ٩٤١ وما بعدها، تحت عنوان النهضة التركية الأخيرة ويتحدّث عن مشاعر المسلمين إزاء الأتراك فيقول:

«الترك العثمانيون إخوان لنا، نشأنا على حبّهم ومنحناهم قلوبنا فتمكّن بها ولاؤهم، وشببنا نعدّهم عَلَم المسلمين الخفّاق في زمن تنكّست فيه أعلامهم، وجيشهم المُجاهد على حين تفرّقت الأجناد، وتخاذلت الأعضاد، كنّا نعدّ مفاخرهم مفاخرنا، ومثالبهم مثالبنا، ونرى صَلاحهم صلاحنا، وفسادهم فسادنا، نفرح كلما فرحوا ونبتئس كلما ابتئسوا، وكلما نزلت بهم نازِلة نصرناهم جهد العاجز بألسنتنا وأموالنا وأيدينا، وسع الأيدي المغلولة والأعضاد المغلوبة، ولمّا قذف جنود الترك الأنجاد بجيش اليونان في البحر كاد الناس في مصر وفي غير مصر يجنّ جنونهم فرحاً وزهواً. . . ثم قال:

«مهما يقل القائلون في صحّة الخلافة العثمانية وفسادها وجدواها وضـررها، ومهما يفتن المجادلون في تبيان ما جلبت على الدولة من المصائب، ورمتها به من عداوة أوروبا، فـلا ريب عندي أن الخـلافة مـا أضرّت بـالدولـة العثمانيـة قطّ، بل نفعتها أحياناً.

ما حاربت أوروبا العثمانيين بمـا كانـوا دولة الخـلافة بـل بأنهم دولـة مسلمة شـرقية، وقـد ثارت الحـروب منذ نشـأت الدولـة، وقبـل أن يلقّب السلطان بـأميـر المؤمنين، ولم يكن مكـان الترك في الخـلافة الإسـلامية واضحـاً في معظم أطـوار حروبهم، بل استقرّت لهم الخلافـة عند المسلمين ودول أوروبـا أثناء هـذا الجلاد المديد والحروب المتوالية، إذ اعترف المسلمون أن رأسهم هو هذه الدولة القويـة المجـاهدة، واعتـرف الأوروبيـون في العصـور الأخيـرة أن للتـرك أن يتكلمـوا عن المسلمين، كما يتكلم الروس عن المسيحيين، فلم تكن الحروب نتيجة الخـلافة، بـل كانت الخـلافة نتيجـة الحروب، وهي على هـذا لم تكن واضحة، ولا ادّعـاها العثمـانيون صـراحةً إلاّ في العصـور الأخيـرة، ولـو أن أوروبـا شنّت على الـدولـة العثمانية غاراتها من أجل الخلافة، فلماذا قضت على الدولة التيمـورية في الهنـد، ودولة الأشراف السعديين في المغرب وغيرهما؟.

الحق أن انتحال الخلافـة نفع الـدولة العثمـانية حين ضعفهـا، وكساهـا هيبةً وجـلالاً في الشرق والغـرب، وقد أدرك ذلـك السلطان «عبد الحميـد» فاجتهـد أن يمكّن هـذه الخلافـة في نفوس المسلمين كـافّة ليـرهب بهم أوروبا». أقـرأت هذا المنـطق المُتّزن في تعمّق الأمـور، واكتناه الأسبـاب؟! ألمست هذا الشعـور الحـارّ بعواطف المحبة والإشفاق نحو أُناس نابذوا العرب العداء وتنكّروا للإسلام في أكثر ما يشرعون؟! لقد كان الدكتور عزّام يعلم أنـه يخاصم الحكـومة التـركية لا الشعب التركي، ففاض بمقالاته المتتابعة ونفسه تتقطّع ألماً، دون أن يسمح لبوادر الغضب أن تعصف بهدوئه، ومثله في اتّزانه الحكيم، جدير أن يقول فيُسمع.

فإذا تركنا الفرس والترك إلى العرب أنفسهم، فـإنك واجـد لدى «عـزّام» من مشاعر الحب العميق ما تحسّه في أطوائك وتتبيّنه في عواطفك، وتريد أن تعبّر عنـه

فلا تبلغ مبلغ الكاتب الأصيل حين يقول نقلاً عن الأوابد ص ٢١٩٧ من الطبعة الثانية: «يذهب المصري إلى أحد الأقطار العربية، فكأنما برح بقعة في مصر إلى أخرى، يرى وجوهاً يعرفها ولا تنكره، ويسمع من أحاديث الماضي والحاضر ما يسمعه في بلاده، ويحدّث عن الهموم والمطامح التي تنطوي عليها نفسه ويخفق بها قلبه، حيثما توجّه وجد أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان، وأبصر من ذكر التاريخ ومشاهد الحاضر وخطط المستقبل، ما يُوحي إليه أنه في وطنه وبين قومه، وأنه لا يذهب إلى هذه البلاد، إلّا ليرى بعينه ما حدّثه به التاريخ، وأحكمته في نفسه النشأة والتعليم.

ذهبت مرّات إلى فلسطين والشام والعراق، فكان يخيّل إليّ أينما سرت أني لا أخطو إلّا على صفحات من التاريخ المجيد ولا أرفع بصري إلّا على عنوان من عناوينه في صورة مسجد أو مدرسة أو قبّة وُضِعَت على عظيم من أسلافنا أبطال الإسلام والعربية، وطوّفت في العراق مدنه وقراه وحضره وباديته فكانت بغداد عندي القاهرة بل أجلّ ذكراً، وكانت الكوفة والبصرة والموصل أعظم أثراً في نفسي من طنطا والمنصورة وأسيوط، وكانت مضارب شمر وبني تميم أذهب بي في التاريخ من مضارب القبائل المصرية، وأما دمشق الجميلة الجليلة فما دخلتها إلّا ازدحمت عليّ أحداث التاريخ، ودفعتني مواكبه فسارعتُ إلى المسجد الأموي أنشد قول شوقي:

هذا الأديم كتاب لا كفاء له   رثّ الصحائف باقٍ منه عنوان

ولست بدعاً في هذا، فما أحسب مصرياً ذهب إلى هذه البلاد إلّا شعر بما أشعر به».

- ٢ -

خاض الدكتور «عبد الوهاب عزّام» معارك قلمية كثيرة وعالج شؤوناً أدبية متشعّبة، فصدر عن فكر حيّ، وعاطفة بصيرة، ومثل عزّام من أصحاب الرسالات الهادفة يعرفون بسِيماهم فيما يصدرون من أحكام، ويعالجون من قضايا، فقد ظهر

من كُتّابنا الأحرار في هذا القرن أُناس يلتزمون المنهج الإسلامي في كل ما يكتبون، فإذا حَمِيَ الجدل في أمر من أمور الثقافة أو الاجتماع أو السياسة تدافعوا يركضون في الحلبة ونورهم يسعى بين أيديهم، فأنت قبل أن تقرأ مقالاتهم تعرف اتجاهها ومَرماها، لأنك تعرف رأي الإسلام الذي يصدرون عنه، وليس معنى ذلك أنهم لا يأتون بالجديد، فكلّ حججهم دامِغة، وجُلّ أفكارهم جديدة يطّرد نسقها الطريف في تسلسل مُقنِع وإحكام شافٍ، وإنما معناه أنهم جنود في معركة ذات أهداف، وأن إيمانهم بقوة الهدف، وسلامة الاتجاه، يحدّد لهم معاني القول الكليّة، ويرسم إطار الحديث رسماً واضحاً، فهم في أمان يعصم من الزّلل، وفي استواء على الجادة يمنع السقوط.

ولعلّ من مزايا الإسلام الواضحة أنه يهيمن على أحاسيس أبنائه هيمنة تُبرِز تأثيره في جميع ما يصدر عن المسلم الصادق من قول أو فعل، لذلك كان الأديب المسلم لا ينسى دينه لحظة في جميع ما يُبدِع، فهو إذا تكلّم في الأدب أو التاريخ أو الاجتماع أو الفلسفة فإن شُعاع القرآن يتألّق في حديثه ائتلاقاً باهر الضوء، فيُكسِبه إشراقاً يتّضح في نصاعة اللفظ، ووضوح الفكرة، وسُطُوع البرهان.

وإذا كان الإسلام لا يُعادي العقل بل يؤازره في اتجاهه ويستعين به في استدلاله، فإن الكاتب الإسلامي الملتزم لن يقدّم لقرّائه أفناً غير معقول، أو هذراً غير مقبول، بل إنه يجلّي الحقائق الكاشفة لأُولي الألباب مخاطباً إياهم بقول الله عزّ وجلّ: ﴿ فاعتبروا يا أُولي الأبصار ﴾.

لقد عاش الدكتور في عصر امتلأ بفوضى المذاهب والأعمال والأخلاق، وقد تقدّم فيه العلم التجريبي تقدّماً شاسعاً دون أن يتقدّم معه الوعي الخلقي، فانفرجت مسافة الخلف بين الحضارة الصناعية القائمة على قوانين الطبيعة، والنفس الإنسانية التي غرقت في شهوات العصر، دون أن ترتفع إلى منازل الكمال وترتّب على ذلك فساد المجتمع بما افتنّ فيه تجّار المآثم من إغراء، حتى سُمّيت الأشياء بغير أسمائها، فصار التبذّل حرية والسقوط تحرّراً، والرِّبا تجارة، والاتّزان جموداً، والدين رجعية.

وتلك حال دفعت الكاتب الغيور إلى أن يتحدّث عن أدواء العصر في مقالات متتابعة، سجّلتها افتتاحيات الرسالة في سنتها السابعة عشرة، فنطق بحكم الإسلام فيما يشهد من انحراف، وإذا كان العلماء الرسميون قد أكثروا من الوعظ الكتابي والخطابي في هذا الحقل الخطير، فإن مثقفاً ضليعاً كالدكتور «عزّام» لا بدّ أن يأتي بجديد القول والبرهان فيما يسنّ من علاج ويشخّص من داء، وإن مكانته العلمية والأدبية في العالم المتحضّر لتجعل حديثه ذا بال، وسنلمّ بلوامع بارقة من حديثه، ليقف القارىء على نمط رائع من الأدب الإسلامي يعزّ علينا أن نفتقده الآن فتراه قليل الحَوْل ضعيف النصير.

تحدّث الدكتور عن الحضارة الأوروبية فأوضح أنها حضارة قوم ناصبونا العداء في القديم والحديث، ثم انتصروا علينا بما أتاح لهم العلم الصناعي من أسلحة الفتك والدمار، وأدوات التّرف والمدنية والتقدّم، فبهروا النفوس بما أبدعوا من رقيّ وفتنت الأغرار منّا أضواء المسارح والمعارض والأزياء فاندفعوا إلى اقتباسها، وقعد بهم عجزهم عن اقتباس وسائل العلم الحضاري، فأقعدهم مركّب النقص عن التسابق مع الأوروبيين في ميدان العمل المُثمِر، وقد نتج من ذلك أن أنكرنا أنفسنا وحقّرنا ما عندنا، وكم زرينا على أشياء ورثناها وعرفناها حتى إذا أخذها أهل أوروبا وأعجبوا بها سارعنا إليها ورضينا بها لأنها حازت قبولهم المرجّح.

ثم أتبع ذلك الدكتور بقوله المرير: «ليتنا حين أخذنا عن غيرنا أخذنا الجليل والحقير، وحاكينا في الجدّ والهزل، وكم في الغربيين من قدوة صالحة، وأُسوة نافعة، وخطّة حميدة، ولكن عظائم الأعمال لها وسائل من الكدّ والدأب واحتمال المشاق والصبر عليها، وللمجد مصاعد شاقّة وتكاليف، مرهقة، وسفاسف الأعمال هيّنة قريبة، لذيذة يستطيعها كلّ مَن شاءها ويهبط إليها كلّ مَن لم يكلّف نفسه الصعود، فقد أسرعنا في هزل الغربيين ولهوهم وشقّ علينا أن نضطلع بكثيرٍ مما اضطلعوا به، وعملوا له في نظام مُحكَم وخطّة شاقّة ودأب لا يكلّ».

ونـظر الدكتـور في محيط حياتنـا العملية، فـرأى أننا نسيـر على غير منهـج، فليست لنـا رِقابـة هادية إلى الفَلاَح، وقـد ترك الأمـر ـ في انحدار هـذه الآفات إلى حياتنا الإسلامية ـ لطوائف من أصحاب الهـوى المُغرِض آفـة، ولمعشر من التجّـار السّـاعين وراء الكسب الرخيص بمـا يجلبون من سِلَع ضـارّة، ولنفـر من أصحـاب المـلاهي يقومـون على مرافق هـامّة من المسـارح والأنديـة والصّحف، فيـوجّهـون الناس إلى ما يسوء! وضرر الصحافة الخادعة، أشرّ وأفدح إذ أنها تلج كل مجتمع، وتتسوّر كل منـزل، وتقدّم من الأفكـار ما يعـظم فيه حظّ الخـطأ، وجانب الهـوى، حتى أصبحنا نرى أُنـاساً يتصـدّرون لقيادة الجمهـور دون ركيزة من علم أو خلق أو حَياء، وقد يختلقون الأراجيف ليرفعوا باطلاً، ويهووا بحق، وأكثـر القرّاء سـاذجون يقرؤون فيصدّقون، ويغرّون فينحدرون.

أما المدارس ودُور العلم فلدينا آلاف تغدو وتروح إليها وهمّها الظّفر بالشهادة ثم المطالبة بالوظيفـة، ولكن الشعور بـرابطة الـودّ بين الأستاذ والتلميـذ منقطعـة أو كالمنقطعة، فالتلميذ يتلقّى الدروس بفتور لينجو من نقاش أهله، والمدرّس يعـطي المعلومـات ليخـرج من تَبِعَـة الحسـاب، ويـرتـاح من تهجّم النـاظـر أو المفتّش أو العميد، ونحن نريد ضميراً يـرتاح لمـا يؤدّيه، نـريد أن تكـون المعاهـد كلّها أُسَـراً كبيرةً قائمـةً على التراحم والتعـاضد تخـرج للأمـة كل حين مَن يتـولّى إصلاحهـا، ويكفل هدايتها، نريد أرواحاً لا أجساداً، وأشخاصـاً لا أعداداً، ومعـاني لا ألفاظـاً وحقائق لا صوراً.

فإذا تركت المدرسة إلى الأُسرة، رأيت البيت يُهجَر يوماً بعد يوم، تُؤْثِـر الأُم عليه جولات في الأسـواق أحيانـاً، وجلسات في المـلاهي أحيانـاً، ويفرّ الأب إلى المقهى والملهى مُؤْثِراً لراحته ولذّته، ساكِنـاً إلى لهوه ولعبـه، مشفقاً من تَبِعـاته في داره وواجباته في أُسرته، والولد يقسو على والديه، ويلقى بالغلظة أبـويه، ويطالب بحقّه ويُحاسِب عليه، ويعصى الوالـدين أكثر ممـا يُطيـع! والمرأة تستبـدل بكرامـة الأمومة وعزّ الزوجية، ذلّ الخدمة، وعبوديّة المصنع وابتذال السوق، وتهمـل جمال الخلقة ونضرة الطبيعة، إلى زيف الأصباع والألوان.

وإذا كنّا نحن المسلمين قد سبقنا إلى تكريم المرأة والإشادة بحقّها في الميراث والمُلْك والتصرّف فيما تملك بكل الوجوه، ونُوليها كل أنواع العقود مما لم تنله المرأة الأوروبية في بعض دول الغرب إلى يومنا هذا. . . إذا كنّا قد طفرنا بالمرأة هذه الطفرة الرائعة فإننا لا نزال نسمع مَن يقولون إنها في البيت مغلولة مقيدة، ولا بدّ أن تخالط الرجال في كل مجتمع، وتغلبهم في كل عمل، لتأخذ بحقّها من المدنية! وقد نسوا أن مدنيتهم هذه تدبير أسواق اللذّة ومجامع التّرف وأندية اللهو على المرأة البائسة وحدها! فهم لا يجدون غيرها سلعة رخيصة يتداولونها دون حياء أو تحرّج، وقد عبّر الدكتور «عزّام» عن الحقيقة المُرّة حين قال:

«لقد أدرتم على هذه المخلوقة البائسة كل دار للهو وكل مباءة للإثم، وعرّضتموها على النظارة رقيقة في صورة حرّة ومُكرَهة كأنها مختارة، وباكية بوجهٍ ضاحك، وشقيّة في ثياب سعيدة، ومبتذلة بدعوى التكريم، ومسخّرة باسم التحرير جعلتموها وسيلة إلى كل كسب، وشركاً لكل صيد، وجلبتم بها المُشتَرين إلى متاجركم، ونشرتم صورها في آلاف الأشكال للترويج لبضائعكم، وجذب القُرّاء لصُحُفكم، فأخذتموها إلى سواحل البحار، وإلى مسابح الملاهي، فعرّيتموها ولهوتم بها ليلاً ونهاراً وسرّاً وجهاراً، وكذّبتم على أنفسكم وعلى الحقائق فقلتم حرّرناها وأسعدناها، وليس للمرأة في هذا كله تحرير إنها مُسَخّرة مُسَيّرة بأهواء الرجال وأشراك عُبّاد المال».

والحقّ أن الكاتب الكبير قد أشبع قضية المرأة تحليلاً وتدقيقاً في صفحات رائعة تذكّرنا بما قاله الأستاذ العلاّمة «محمد فريد وجدي» رحمه الله في كتابه المرأة المسلمة الذي عقده للردّ على «قاسم أمين»!، ومع أن كتاب المغفور له الأستاذ «وجدي» قد صدر منذ أكثر من ستّين عاماً حين لم يعمّ بلاء الاختلاط السافِر كما عمّ الآن، فإن الأستاذ «وجدي» كان يرى بعين عقله ما نشاهده الآن على مسرح الحياة من عبودية المرأة واسترقاقها، مما فصله الدكتور «عزّام» تفصيل

المشاهد المتطلّع بعد أن حكاه الأستاذ «وجدي» حكاية المتفرّس المترقّب فتقابلا معاً على حكم سواء.

ويطول بنا القول لو ذهبنا نشير إلى كلّ ما سجّله الدكتور عزّام في مقالاته الرائعة «أمم حائرة» وهي فصول صادقة الحسّ، قويّة العاطفة شفّافة التعبير، وقد ختمت بآراء حاسمة تلخّص العلاج الناجع بما يهدي إلى الطمأنينة والخير، مهتدية بأصول راسخة من سُنن الاجتماع وهدي الخلق وما يُوحي به الدين من الإيمان بالله والصدق والعدل! وهي في لبابها الخالص تذكير بما سبق أن أفاض فيه الكاتب المؤمن حين بسط الصفحات الطّوال بالسنة الثامنة من مجلة الرسالة، متحدّثاً عن أخلاق القرآن وهي صفحات مؤمنة تأخذ مكانها الرائع في أدبنا التوجيهي المعاصر، ولن نعفي أنفسنا من الإشارة الهادفة إليها في هذا المجال!.

لقد اندلعت الحرب العالمية الثانية على الناس، فذهب الكُتّاب يطبّون لأدوائها المستعصية كل مذهب، وكلٌّ منهم يفتنّ في تشخيص العلاج كما يُمليه اتجاهه الفكري في الحياة! وقد انبرى الدكتور عزّام ليُسمِع المثقفين في الإذاعة الأثيرية بمصر ثم على منبر الرسالة ما أوضحه القرآن للبشرية من أخلاق ترتفع بالناس من وهدة الشرّ إلى أوج الخير، وكان جديداً على الناس أن تظهر هذه الموضوعات التقليدية في قالب أدبي ممتاز يضمّ الفكرة الهادفة إلى الصورة الكاشفة إلى التعبير المحكم في غير تشدّق أو تكلّف أو مُباهاة! وإنما هو حديث يتحدّر تحدّر المزن الصافي إلى العقول فيخصبها، وإلى النفوس فيرويها ومن أعجب ما فيه هذا النفاذ السريع إلى الحقائق الأصيلة في آيات الله، وحديث الرسول، وسِيَر السلف من الصالحين.

وإنك لتسمع عشرات المتحدّثين يتكلمون عن الرحمة والعفو والإحسان والصدق والصبر والعدل وصلة الأرحام في أبحاث طويلة، ولكن الكثيرين منهم يفقدون بصيرة المؤمن النافذة إلى الجوهر، الهادية إلى اللباب، في غير ضجيج أو فرقعة، بل ربما ساقَ لك الدكتور عزّام من القول ما تحسبه بدهياً واضحاً يعرفه

الخاصّة والعامّة، ولكن مكانه من السياق، يجذبك إليه وكأنك تسمعه للمرة الأولى، فأنت تقرأه مستعيداً مأخوذاً، وتودّ لو طال القول أكثر مما طال لتستمرىء طعاماً هنيئاً له في حلقك مذاق الشهد، وفي جسمك نبض القوة وبأس الفتوّة، ولك أن تقرأ طرفاً من مقدمة أخلاق القرآن نقلاً عن عدد الرسالة (٣٧٥) لتجد الداعية المؤمن يقول:

«كلّ ما يزدان به تاريخ الإسلام من سِيَر الملوك والوُلاة والقُوّاد والقُضاة والعلماء والصالحين وغيرهم، فهو أخلاق القرآن تتجلّى في صور مختلفة، فإن رأيت مِلكاً من المسلمين مَلَكَ الدنيا ولم تملكه، وسيطر على الأرض ولم تسيطر عليه، فساسَ عباد الله بعدل الله، وأتعب نفسه ليُرِيح رعيّته، وراقب فيهم ربّه ليله ونهاره، فهذا من أخلاق القرآن، وإن رأيت والياً دخلت الدنيا يده ولم تدخل قلبه، وكفّ يده عن المحارم ولم يأْلُ جهداً لخير الناس، فهذا من خلق القرآن، وإن رأيت قائداً يحتقر المهالك، ويقذف بنفسه في المعارك، ويفتح البلاد ولا يعيث الفساد، قد ملكت القناعة قلبه ويده، وكفّه العدل عن العدوان فهذا خلق القرآن في أحسن مظاهره، وإن رأيت قاضياً كدّ عقله في معرفة الحق والتثبّت، وآثر العدل وجانب الجور وأخلص لله فكره وحكمه وأقضّ مضجعه عظم التَّبِعَة، فذلك من قضاة القرآن، وإن رأيت عالِماً توجّه إلى الله بفكره وأدام النظر في ملكوت السماوات والأرض، ودأب في البحث ابتغاء الحق لا يميل مع الهوى ولا يرجو غير وجه الله فهو من علماء القرآن».

هذه فقرة من مقالة واحدة وكم لها من أخوات! ولا أتّهم نفسي بالإعجاب بها دون مبرّر، حين أترك الدكتور: «زكي مبارك» رحمه الله يعلن رأيه فيها فيقول في العدد (٣٧٤) من الرسالة ص ١٣٧٥ ما نصّه: «سمعت المحاضرة التي ألقاها في المِذياع عن أخلاق القرآن، فبهرت قلبي وعقلي، وأشعرتني أن من العقوق أن أسكت عن توجيه القُرّاء إلى متابعة هذا الباحث المِفضال، وإنما وجب ذلك التوجيه لأن مباحث الدكتور عزّام تتّسق بالدقّة وتخلو من البريق، فهو لا يجذب إليه

من السامعين غير طلّاب المعاني من الذين يعرفون من قبل أنه باحث على جانب عظيم من الدقّة والعمق.

شعرت وأنا أسمع محاضراته عن أخلاق القرآن أن القرآن نزل أمس، فهو يحدّثنا بما نرى ونسمع من معضلات الوجود، ومع أن الدكتور: «عزاماً» أضاء روحي بهذا المعنى فما أحسست أنه تكلّف أو تعسّف، أو حاول الظهور بمظهر الغير على الشريعة الإسلامية، فهو يُلقي كلاماً فطرياً سمحاً لا زخرف فيه ولا تنميق وهو ينقل إلى سامِعِيه آيات القرآن في لطف ورفق حتى لتكاد تحسب أنه وجدها مسطورة في صفحة واحدة من صفحات المصحف الشريف».

ومن العجب أن مقالات عزّام عن الأمم الحائرة كمقالاته عن أخلاق القرآن، وكغيرها من البحوث الضافية لم تُجمَع بَعْدُ في كتاب بل انسابت جداولها في أعداد الرسالة والثقافة! مع أهميتها البالغة في تكوين رأي إسلامي ثاقب وأدب ديني مستنير! ولعلّ كتابه الأوابد أقرب الكتب إلى طبيعة هذا الأدب الديني المنشود إذ أن أكثر صفحاته تنفح بعبير الإسلام وتضيء بتاريخ أبطاله وغرّ مواقفه، وقد قال عنه في المقدمة: «إن كلماته ذات حظّ من النزعات الروحية العالية التي تسمو بالإنسان عن الأهواء التي تقسمه، والمطامع التي تستعبده، ومن المقاصد الجليلة التي تجمع الناس على خطّة من الخير والحق، وتؤلّف الناس كلهم على شُرعَة من الإنصاف والعدل».

وللدلالة على مكانة الأوابد من الأدب الإسلامي نذكر أنها ضمّت فصولاً رائعة عن الهجرة والمولد النبوي ومجلس رسول الله، والإسلام، والكعبة والحجّ وعرفات، ومؤتة، واليرموك، وعن عمر، وبلال، وعقبة بن نافع، والمثنى بن حارثة وعقبة، ومحيي الدين النووي، والمعتصم بن صمادح، وعثمان بن أبي العلاء، والمنصور بن عامر، وسعيد بن جبير، وعمر المختار، ومحمد إقبال، وديوجين، ومصطفى صادق الرافعي، وعن مصر وسوريا وعين جالوت والصحراء والأندلس وبغداد وعن ما لا أحصر من الفنون الأدبية والمُناجاة الصوفية والغزل الشعري

العفيف. . . كلّ ذلك بقلم نأسى لاجتجابه بعد أن كان يفيض بإلهامٍ صادق، وشعور أمين!.

فهيهات العقيق وكيف يدنو   وهيهات الغداة فتى العقيق

- ٣ -

ذكر الدكتور «زكي مبارك» أن عزّاماً يتّجه إلى المعاني مُتحاشياً البريق اللفظي الخادع، وتلك سِمَة الكاتب الموضوعي الذي يجد لديه ما يقوله، دون أن يشعر بضرورة تلفّته إلى التباهي برونق الصياغة، وجمال العبارة، وفي استطاعته كل الاستطاعة أن ينمّق وأن ينسّق، ولكن رسالة الإصلاح التي يحملها في قومه تربأ بصاحبها أن يظلّ رهين الاستعارات والكنايات دون ما ضرورة، ولسنا بذلك ننكر جاذبية النثر الفنّي في دنيا البيان، ولكننا نؤكد أن ميدان الإصلاح الاجتماعي ومجال البحث الأدبي يحتّمان على الكاتب الجادّ أن ينصرف إلى الموضوع دون إجهاد. . .

لقد كانت البحوث الأدبية في بعض اتجاهاتها عند عزّام ردّاً علمياً على مُفتريات تأخذ طابع البحث في النظر والتعليل، وكانت أخلاق الكاتب تأبى عليه أن يتعرّض إلى الأشخاص صارِفاً وقته في إيضاح البواعث وكشف الأغراض، فهو يتّجه إلى الموضوع وكأنه يبسط فكرة علمية لا تتّصل بمعارضة متشدّق، ونستشهد على ذلك بمقالاته المتتابعة عن الأدب العربي ومكانته بين الأمم وقد ظهرت أولاً بمجلة الثقافة سنة ١٣٦١ هـ سنة ١٩٤٢ م ابتداءً من العدد (١٩٧) وما يليه، إذ دفع إليها ما أُذيع حينئذٍ من ضآلة الأدب العربي إذا قيس بغيره، وهي دعوى تعتمد على السفسطة أكثر مما تعتمد على الحقيقة، وقد أصبحت تعلة المستغربين من أدعياء البحث المقارن، وتطلّبت كاتباً ذا ثقافة واسعة كعزّام يصدع بالحق في هذه الدعوى المريضة، فنشط الدكتور للقول محدّداً هدفه الموضوعي، فأعلن أن الأدب العربي أوسع ما نعرف من الآداب مكاناً، وأطولها زمناً.

فالآداب الأوروبية الحديثة كلها تؤرّخ بالعصر الذي يسمّى عصر النهضة ولا يزيد أطولها عمراً على خمسة قرون، والأدب الفارسي قد نشأ في حضانة الأدب

العربي منذ عشرة قرون، فأخذ الفرس أوزان الشعر العربي وقوافيه، ولم يكن لهم غيره مِثالاً يحتذونه إذ لا نعرف حتى اليوم شيئاً عن الشعر الفارسي قبل الإسلام، وكذلك أخذ أدباء الفرس موضوعات النثر العربي وأساليبه، وأخذوا كذلك فنّ البلاغة العربية موضوعاً وألفاظاً، فبحثوا في البيان والمعاني والبديع على السُّنن المعروفة في الكتب العربية، وعن الفرس أخذ الترك والهند، كما أخذوا عن العربية مباشرة، لذلك يُعَدّ الأدب العربي أدب المسلمين كافّةً.

أما فلسفة اليونان وعلومهم، فلم تؤثّر في البيان العربي قدر ما أثّرت في علوم البلاغة إذ أن أثر المنطق وأرسطو يتّضح في تقسيماتها وتعريفاتها اتّضاحاً يُنبىء عنه أمثال قُدامة في نقد النثر.

وقد كان للأدب العربي من القوّة والمكانة ما حفظ خصائصه على مرّ الدهور، وينبغي أن يُقال إن هذا الأدب كأهله، اعتزّ بنفسه، واعتدّ بها مزهوّاً فكان من هذا الإعجاب ما صدّه أن يأخذ كثيراً من آداب الأمم، وهذا يصدق على الشعر أكثر من النثر لأن طرائق الشعر الجاهلي كانت أبين وأرسخ، ولأن الاعتداد بها كان أشدّ وأوفى.

وإذا تحدّثنا عن الآداب الأوروبية فإن المخلصين من باحِثيها لا يُمارون في اتصال الآداب العربية بها والتأثير فيها، فقد نشأ في جنوبي فرنسا في القرن الخامس الهجري ضرب جديد من الشعر ليس له أصل أوروبي، ولكنه يشبه أوزان الموشّحات الأندلسية ـ يقصد شعر التروبادور ـ وموضوع هذا الشعر الجديد هو الغزل السامي العفيف المقتبس من الغزل العذري في الأدب العربي، والذي يحمل من العواطف الرقيقة ما يُوضِح أثر الاحتذاء الواضح لأمثال جميل بن معمر وكُثَيِّر عَزّة والعباس بن الأحنف وقيس بن ذريح، هذا من ناحية الموضوع أما من ناحية الشكل فإن أوزان هذا الشعر المستحدث مأخوذة من الأدب الأندلسي أزجالاً وموشّحات، وكما تسرّب الأدب العربي إلى أوروبا من الأندلس فقد تسرّب إليها من جنوب إيطاليا، وأثّر في النثر كما أثّر في الشعر، إذ أن أثر كليلة ودمنة،

والمقامات وقصة المِعراج ورسالة الغفران مما خاض فيه الباحثون لينتهوا إلى حقيقة هذا التأثير.

وقد أفاض الدكتور في هذه الحقائق إفاضة لم تذهب بقلمه إلى الإسراف والغلوّ، بل وقفت به إلى حدود الإنصاف المُحايد فقال في صدق: «وقد نظر الباحثون إلى الشعر العربي فلم يجدوا ملحمة كالإلياذة، ولا شعراً تمثيلياً كشعر أورستوفان فقالوا: إن الشعر العربي غناء كله ليس فيه قصص ولا تمثيل، وعابوه بهذا واشتدّوا في العيب، ولسنا في مقام الدفع عن شعرنا ولا نرتضي لأنفسنا العصبية في تفرّق الحق والاعتراف به، بل نعترف بأن ما في شِعرنا من قصص قصير لا يُقاس بما أثر عن قدماء اليونان والرومان والهند والفرس، لأن شعراءنا عُنُوا بالقيمة لا بالكثرة فأتوا بالأبيات الرائعة القليلة في وصف المعارك الكبيرة، حين أطال غيرهم وأظهروا براعتهم في التفصيل والإطناب واستغنوا بهما عن الإبداع».

ثم أفاض الباحث في شعر الحماسة العربي وفي روائع الحكم الخلقية في التراث الأدبي! ونقد شعر الطبيعة لدى العرب بوقوفه عند المحسوسات السطحية دون التعمّق في المعاني، ولكنه خصّ المدح في الشعر العربي بحديث جيّد يُعلِن أن الأماديح ليست كلها استجداء يخلو من العاطفة، بل إنها تتضمّن أحاسيس الشعر وانفعالاته كإنسان ملهم، كما توضح وقائع السّلم وحوادث الحرب، وتشيد بالمكارم الإنسانية والفضائل الخلقية والنقد يتّجه إلى الطريقة التي عُولِجَت بها دون أن يمسّ ما تضمنته من كرام الأحاسيس! وهكذا اتّسع نطاق الدفاع المخلص عن الأدب العربي في مقالات عزّام اتّساعاً ينقصه التلخيص! ولكننا نشير إليه، دالّين على موضعه من مجلة الثقافة ليقرأه مَن يشاء.

وقد امتدّ حبل الجدل في مسائل هامّة تعرّض لها الأستاذ الكبير «أحمد أمين» في الرسالة أولاً والثقافة ثانياً، ورأى عزّام فيها ما يدعو إلى النقاش الجادّ، وعزّام تلميذ أحمد أمين في مدرسة القضاء، ثم هو بعد ذلك زميله في الجامعة ولجنة التأليف وأكثر ما شاهداه من مؤتمرات ولِجان ورحلات، فإذا تعرّض لمجاذبته

الرأي فهو تعرّض المخلص الودود الذي لا يفوته شيء من مقالات أستاذه وصديقه! لقد ناقشه في السنة الأولى من الرسالة وفي السنة الأولى من الثقافة، ثم في السنة الخامسة منها وكأن عزّاماً أحسّ بعد الاعتراض على متابعة صديقه في نقاشه الأخير بالثقافة العدد (٢٨٢) فقال:

«ولعلّ الأستاذ الفاضل ـ يريد أحمد أمين ـ لا يقول ما بالُ فلان لا يكتب في مشاكلنا ولكن يعترض ولا يبتدىء ولكن يعقب، لا يقل الأستاذ هذا فإني لا أجادله إلّا قليلاً حين لا أجد من الجدال بُدّاً، وربما تتوالى الأعوام لا أعترض له فيها رأياً وقد مضى على مناقشتي إياه في الأدب الجاهلي أربعة أعوام لم أجادله فيها».

ولباب ما اتجه إليه النقاش في المرة الأخيرة بعد هذا التبرير المتواضع، ما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين من اصطناع لغة عربية خالية من الإعراب ومن الألفاظ الضخمة، ومستعملة للكلمات العالمية ذات الأصل العربي لتكون لغة الجمهور، أما الخاصّة فلهم اللغة الفصحى يكتبون بها للمتخصّصين، ويقرؤون بها التراث القديم، وينتفعون به وينقلون منه ما شاؤوا إلى اللغة الجديدة لنفع الجمهور.

وقد قال الدكتور عزّام في تفنيد ذلك: إني أردّ هذا الرأي من وجهتين: الأولى أنه يجعل للأمّة لغتين حقاً، ويبقى هذا الفرق البيّن بين الخاصّة والعامّة، ويلزم الأديب أن يكتب مرة للعامّة ومرة للخاصّة، ويضطر القارىء إلى الاضطراب والقلق بين هذا وذاك، فليس بين العامّة والخاصّة حدّ واضح، وكثيراً ما يشتركون في قراءة مقالات وكتب، ثم أنكتب الجرائد بلغة معربة أم بلغة غير معربة؟ لقد توهمنا أن لنا لغتين فنفرنا من هذا، ورأينا رأياً للخلاص منه فإذا هو يحقّق ما توهّمناه ويوقعنا فيما أشفقنا منه.

ثم تعرّض عزّام إلى إهمال الإعراب فقال: «وأنا أزعم أن العامّي يستوي عنده أن تكتب له ألفاظاً معربة أو غير معربة طالما كان اللفظ معروفاً عنده، والموضوع في حدود معارفه، فإذا كتبت له: «محمد شارك عليّاً في التجارة» فهمها كما يفهم محمد شارك علي في التجارة. فالشرط الأول لكل إفهام أن تضبط له

الكتابة ضبطاً ييسّر له قراءة الجملة كما أرادها الكـاتب وسيّان عنـده بعد أن يقـرأها مضبوطة صحيحة وأن تكون معربة ومهملة».

وكم يلذّ الباحث أن يُفرِد موضوعاً خاصّاً بمناقشـة عزّام «لأحمـد أمين»، لأن صاحب فجر الإسلام عالِم مُصلِح وكاتِب غيور، ولكنه يميل إلى التجديد والابتداع في أكثر ما يقترح! ولا بدّ لصاحب المقترحات المتتابعة من طفرات متسـرّعة تكـون ميـدان المجاذبـة، وعزّام كـاتب مطمئن يميل إلى الابتداع المعتـدل دون شطط في الابتداع! وقد كـانت مُساجلتـه لأستاذه حـول موضـوع جنايـة الأدب الجاهلي على الأدب العربي موضع ارتياح القارئين إذ أنها قُورِنَت بمناقشـة أخرى صـاخبة أدارهـا الدكتور زكي مبارك في الرسالة تحت عنوان جنايـة أحمد أمين على الأدب العـربي وقـد تسلسلت حلقاتهـا حتى بلغت العشرين! وإذا بَـدَا مبارك ثـائراً غـاضبـاً محنق الأسلوب فقد كان عزّام هادئـاً مقنعاً يجـادل بالتي هي أحسن، لـذلك كـان موضـع الإيثار لدى المنصفين.

وقـد سبق الأستاذ أحمـد أمين صديقـه وتلميذه إلى لقـاء ربّه فكتب الـدكتور عزّام ذكرياته عنه في مرارة وحـزن، وعرج على اختـلافهما الأدبي في بعض الآراء فقـال: «لا أذكر أني خـاصمت الأستاذ أو نـازعته أو نـافرتـه ساعـة واحدة في هـذه السنين الـطويلة على اختلافنـا في الآراء أحيانـاً واختلافنـا في الـطرائق والأسـاليب والنزعات أحياناً.

ومما يحضرني الآن أنه كتب مقالات عن الأدب الجـاهلي في مجلة الرسـالة ـ الصحيـح أنها مجلة الثقـافة سنـة ١٩٣٩ ـ فخالفتـه بمقالات في المجلّة نفسهـا، وقلت في نفسي، ولعلّي قلت لـه أيضـاً سـأجعـل هــذه المقـالات مثـلاً للجـدال الخـالص من الشوائب الـذي لا يقصـد إلّا الحق ولا يبخس المخـالف حقّـه، ولا يحيد قيد شعرة عن أدب المناظرة.

ولـمّا طبع كتاب «فجر الإسـلام»، كنت معه في لجنـة التأليف فـأرسلت المطبعـة نسخاً من الكتاب، فحرصت على أن تظفر يديَّ بأول نسخة، ولما أراد إعادة طبعـه

سألني أن أقرأه وأُبيّن رأيي فيما آخذه عليه ففعلت، وذكر هذا في مقدمة الطبعة الثانية. كذلك كان يأنس بي ويركن إليَّ، وكذلك كنت أستشيره وأستهديه».

وإذا كان أدب الخطاب وعفّة النقد من سُنّة النقاش لدى عزّام فإنه إذا أحسّ إنقاصاً متجنّياً من متكبّر يتعالى بغروره على الجدل المنطقي، فلن يدعه سادراً في غلوائه إذ يقدم على مهاجمته دون مبالاة أو اكتراث، وموقفه من عبد العزيز فهمي (باشا) ينطق باعتزازه بالحق، وهو أن الباطل لديه، مهما استند إلى كبير يتشدّق بفقهه على الناس في شموخ لا يملك من مقوّماته العلمية سوى الادّعاء والتطاول.

فقد كان من آفة عبد العزيز فهمي حين قدّم اقتراحه الخاصّ باستعمال الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية إلى مجمع اللغة العربية أنه أُحيط بنفر من السياسيين وكبار الكتّاب يمجّدون عبقريته، ويرونه صاحب سبق لا يلحقه العصر، وذو رسالة مستقبلة، ستقدّرها الأجيال القادمة حين ينضج التفكير في الشرق، وقد صدَّق المسكين ما سمع وقرأ من المَلَق الخادع، فعدّ نفسه صاحب اقتراح تقدّمي متحرّر يعصف بالجمود المتخيّل ويَئِد التزمّت المتوهّم.

وكان من مصادفات عزّام أنه ألقى محاضرة عن الخط العربي بسط فيها القول عن بدعة الحروف اللاتينية، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعالج فيها الدكتور قضية الحروف اللاتينية، إذ سبق أن بسط القول فيها بالسنة الثالثة من مجلة الرسالة سنة ١٩٣٥، أي قبل أن يتقدّم الباشا باقتراحه بتسع سنوات، فلما أُتيح له أن يعالج مشكلة الخط العربي سنة ١٩٤٤ رجع بالقول إلى ما سبق أن أوضحه بشأن هذه البدعة غير الطريفة دون أن يشير إلى عبد العزيز بشيء!.

ولكن الباشا المتغطرس ظن نفسه المقصود بالنقد متخيّلاً أنه وحده صاحب الاقتراح الميت! إذ أوهمه ذلك مَن نافقوه مع أنه مقلّد متأخّر لأصحاب البِدَع الغربية، ولم يطق الرجل الكبير أن يسمع حجّة تدفع حجّته، إذ رأى أسلحته تكلّ دون أن تنال عزاماً بجرح، فانطلق يسبّ ويشتم! كأن السّباب يصلح لمعركة علمية تتقارع بها الحجج.

وقد عمد إلى حشو صفحات من كتاب «الحروف اللاتينية للكتابة العربية» بالهجوم الظالم على عزّام ونظرائه من ذوي الرأي المحاجّ، وقد اختصّ الدكتور عزّاماً بما نترفّع عن ذكره إذ سجّله مُطيلاً مُسِفّاً مُحنقاً فيما بين ص ٥٨ و٧٣ من الكتاب المُشار إليه، وقد ظنّ أن مكانته السياسية ستدفع الرجل الحازم عن مجابهته، ثم احتاط فأوعز إلى بعض حوارييه برجاء عزّام أن يكفّ عن الردّ!.

ولكن الدكتور المتواضع للمخلصين المتكبّر على الأدعياء المثرثرين قد كشف البهتان في مقال صارم نشره بمجلة الرسالة بالعدد (٥٨٧) ١٥ شوّال سنة ١٣٦٣ هـ قال فيه بصراحة كاوية: «أبدأ بمجادلة الأستاذ في الخطّة التي ارتضاها لنفسه فأقول غير متردّد، إنها خطة جائرة منكرة تكفل لصاحبها ألّا يهتدي إلى صواب ولا يبتعد عن ضلال، خطة تعنى بأصحاب الآراء أكثر مما تعنى بالآراء، ثم لا ينال أصحاب الآراء من هذه العناية إلّا الاستهزاء والبغي والافتراء، وسواء على صاحبها أن يقارب الحق أو يباعده، أو يصف خصمه بصفاته أو بما يناقضها. . . وقد وصفني بالتزمّت، ثم كتب صحيفتين في هذا التزمّت كأن مقصده الكلام في التزمّت لا في الدفاع عن بدعة الحروف اللاتينية، وأنا أعرض على القارىء مقدمة كلام الأستاذ إذ يقول:

«والتزمّت ـ أجارَكَ الله ـ متى أخذ بخناق الرجل نكر خلقه إنه يورثه اقعنساساً[1] فيبدو مقعّر الظهر، محدب الصدر، منتفخ الأوداج، محتقن الوجه، بارز الحدقتين، في الأوج هامته، وفي الحضيض همّته، إن لم يكن كالمعلّق بحبل المشنقة فهو على الأقل ضابط صفّ معلّم بأورطة الأساس، يمشي متشامخاً مُدِلّاً بكفايته بين أنفار القرعة المستجدين، هكذا يفعل التزمّت، ثم هو يُخرجه في تصرّفاته عن التعابير المألوفة بين الناس، يجعله متى أراد إخراج كلمة من فِيْه رطلاً خرجت على الرغم منه قنطاراً، وإذا أرسل صوته يميناً التوى فذهب شمالاً، وإذا

---

(١) اقعنسس: خرج صدره ودخل ظهره خِلقة.

بصق أمامه على استواء نكص البُصاق إلى الوراء ثم هو يُخرِجه من فِيْـه فيرتـدّ إلى مآقيه» .

هراء طويل لا طائل تحته! ولكن الدكتور عزّاماً جعله حقيقة مريرة تدعـو إلى الرثاء والضحك معاً حين واجه الأستاذ عبد العزيز فهمي بهذا القَسَم المُحـرِج فقال تعقيباً على حديثه:

«وأنا أنشد الأستاذ الله الحقّ أن يسأل نفسه هادئاً إن استطاع: أهذه الأوصاف تنطبق عليّ أو عليه خلقة وخُلُقاً؟ ثم أنشده الله ألا يشعر بشيء من التناقض والتهاتر والتهـافت في أن يصف إنسانـاً في مقال واحـد بأنـه من أرباب الحنـاجـر وأنـاشيـد الوطنية اللفظية، وبأنه متوتر متـزمّت؟ إني لا أنال من سعـادة الأستاذ بمثـل أن أدعو القارىء إلى قراءة هذا الفصل المُضحِك المُبكي فهو أبلغ شيء في وصف كاتبه» .

ووجـه المرارة في تعقيب عـزّام أنـه أكـد الحقيقـة الصـارخـة التي تؤكّـد أن الصفات الخلقية لتعابير الجسم من احتقان وانتفاخ الأوداج وما إليها هي أقـرب إلى صورة عبد العزيز وأبعد ما تكون عن صورة عزّام! وليس بعد العيان بيان!.

إن الحديث الطيّب ليتّسع عن عزّام ولكنّي هنا أسطّر مقـالاً ولا أؤلّف كتابـاً! فلأجتزىء غير مُطيل.



محمد مصطفى المراغي
جبهة عالية

- ١ -

لبعض النـاس ولع شـديد بمهـاجمـة الشـرفـاء من الأحـرار، واختـلاق شتّى المثالب المندية اختلاقاً آفكاً كي يلصقوها بالبرءاء، وأشدّ ما تكون هذه المفتـريات وقيعـةً وحرجـاً حين تُلصَق بأعـلام الإسلام من أئمـة الدين، وتفسيـر هذه الشـائنـة النفسيـة واضح لا لبس فيـه، لأن هؤلاء يستشعِـرون في أعمـاقهم من النقـائص مـا يطفح به الكيل، فيحاولون انتقاص الشرفاء ليكونـوا معاً في طـريق، ولكن الحق لا يعدم النصير، فلا بدّ أن تشرق الشمس ذات صباح فتتبدّد الغيوم، وفقاً لسُنّة طبيعية هتف بها شوقي حين قال:

إن الـذي جعـل الحقيقــة علقمـاً　　　لم يُخْـلِ من أهل الحقيقـة جيـلاً

لقد كان محمـد مصطفى المـراغي إمام المسلمين في عصـره، وحامِـل لِواء الإصـلاح الأزهري تشـريعاً وتنفيـذاً ومراجعـةً، وكان من الشمم الـرفيـع، والخلق النزيه، والترفّع النبيل، بمنزلة يعرفها كبار الحاكمين، فيعدلون سلوكهم المتغطرس في حضرته رعاية لمقامه، وخوفاً من كلمة الحق أن تحرقهم حين تتّقد من فمه، ثم شـاءت الظروف السيـاسية، أن يسكت الكـاتبون عن الإفـاضة في تـدوين مـآثـره، سلوكاً أغرى المُنتقصين بما هو منه براء، فقـد تجرّأ كـاتب متسرّع على القـول بأن

المـراغي كان صنيعـة الإنجليز، فغـرس بـذرة ظـالمـة أخـذت تنمـو في صحـائف الآفكين، وكأنهم عثروا على كنز ثمين، ينفقون منه متى يشاؤون، فكثرت تُرّهات، وسُوِّدَت صحائف، وراجت أراجيف.

ولكن الله يشاء أن يُظهِـر الحق على لسان الأعـداء أنفسهم، إذ رأت جريـدة الأهرام ذات عام أن تُلهِي القرّاء عن واقع مصـر الحاضـر، بنشر تقـريرات السفـارة البـريطانيـة عن زعماء الأمس جميعـاً، وكـانت صـراحـة «لامبسـون» أقـوى من أن تُحجَب، فقد عرّى نفوساً كانت متدثّرة بأكثف الطبقات من الملابس الواقية، ولكنه وقف حـائراً أمـام المراغي لا يستـطيع أن يفتـري عليه مـا يشين، فلم يسعه إلاّ أن يقول نقلاً عن جريدة الأهرام الصادرة في ٢٠/٢/١٩٧٠ م:

«المراغي شيخ الأزهر السابق، وُلِدَ حوالي ١٨٨٠ م، وأمضى سنوات عديدة قاضياً لقضـاة السودان، ثم أصبـح رئيس المحكمة العليـا الشرعيـة، رجل يحـظى باحترام عـالمي، أخلاقه ممتازة، وآراؤه مستنيـرة إلى أبعد الحـدود، طراز فـريد من رجـال الدين، سـافر في بعثـة من قبل الملك فؤاد إلى الحجـاز، لبحث احتمالات التدخّل المصري، لإعادة السلام بين الملك علي وابن سعود، عُيّن شيخـاً للأزهـر في مايو سنة ١٩٢٨ حين أحسّ كلٌّ من القصـر وزعماء الـوفد المسـؤولين أنهم لا يستـطيعون تخـطّي رجل مثله بكـل علمه وفضـائله، وقد تجلّى حمـاسـه لإصـلاح المجتمع الإسلامي فيما قدّمه من مقترحات لتعديـل قوانين الـزواج والطلاق، وبـدأ في محاولته للاقتراب من مسألة إصلاح الأزهر، وهي مسألة شديدة الحساسية، وقد مدح باتباعه أسلوبـاً مزج فيـه الصراحـة والمديـح في كسب القصر إلى صفّـه، في الجهود التي يبذلها لتوجيه تطوّر المجتمـع الإسلامي في مصـر، إلى صور تتنـاسب وتتّفق مع المدنية الحديثة.

وكـان مشروع القـانون الـذي وضعه لإصـلاح الأزهر يستهـدف توسيـع آفاق طالب الأزهر، وضمان فُرَص أوسع لعمله بعد أن يتخرّج من الأزهر، وقد لقي هذا المشروع تأييد غالبية الطلبة، وتأييد هيئة التدريس والعلماء، بـاستثناء الغـارقين في

الرجعية منهم، وكان لا بدّ من الموافقة على المشروع في أوائل أكتوبر سنة ١٩٢٩ م ليبدأ تطبيقه في العام الدراسي الجديد، ولكن الملك فؤاد أخّر توقيع القانون طويلاً بحيث لم يجد الشيخ المراغي بُدّاً من الاستقالة، وكانت استقالته خسارة لفرصة كبيرة.

وبعد صدور دستور سنة ١٩٣٠ م، وما تجلّى في قانون الأزهر الجديد من انعكاس لازدياد سلطان الملك وامتيازاته، قام الشيخ المراغي بدور ملحوظ في زيادة التنسيق بين الوفد والأحرار الدستوريين في المعارضة، ودفعه شعوره بالظلم الذي وقع عليه إلى القيام بتصرّفات لم يقصد بها إلاّ إحراج الملك فؤاد، وكان من بين هذه التصرّفات تبنّيه بصفته رئيساً لجمعية الدفاع عن الإسلام ـ لقضية الدعوة ضدّ الإرساليات في صيف سنة ١٩٣٣ م. وكان ربط اسمه بقضية من قضايا التعصّب هذه مما أساء إلى مكانته.

وفي سنة ١٩٣٤ م أدّى عدم شعبية خلفه في مشيخة الأزهر إلى سلسلة من الإضرابات، بدأت في نوفمبر وانتهت بعودته مظفراً إلى منصبه كشيخ للأزهر، وقد تردّد اسمه كثيراً كمرشّح لمنصب وزير الأوقاف في وزارة نسيم باشا، وكمرشّح لمجلس الوصاية على العرش.

وقد أُعيد تعيينه شيخاً للأزهر في آخر إبريل سنة ١٩٣٥م، وفي سنة ١٩٣٧ م لعب دوراً هامّاً وإن كان متواضعاً في السياسة المصرية، فقد كان له باعتباره أستاذاً للملك فاروق نفوذ لدى تلميذه الشاب، وكان هو والأمير محمد علي مسؤولين تماماً عن الاتجاهات المحافظة التي تجلّت في سياسة القصر، وحيث أنه كان ضدّ الوفد بحكم مشاعره المحافظة، وصداقته القوية لمحمد محمود، فإنه استخدم نفوذه في تحويل الأزهر إلى حصن للحركة الطلابية المُعادية للوفد».

هذا ما كتبته السفارة البريطانية عن الرجل، وهي كتابة صريحة كان الغرض منها أساساً أن يكون لديها سجلّ صادق عن كل رجل بارز في مصر، لتحدّد موقفها منه، مهما خالف اتجاهها، وخالفته، وقد أغنانا هذا التقرير عن تسجيل حياة الإمام

الرسمية، إذ أشار إليها في إيجاز مفيد، وإذا كان لي أن أُعلّق عليه بشيء، فإنني أُخالف ما جاء عن انتقاده بشأن موقفه من الإرساليات الأجنبية، إذ ثبت مما نشرته الجرائد المصرية جميعها أن هذه الإرساليات قد قامت بمحاولات يائسة لتنصير عدد من المسلمين، إغراء بالمال والمنصب، حتى دَعَت جريدة السياسة أمام هذه الوقائع المنكرة إلى إغلاق جميع الإرساليات، فيا لله، كيف يهب الغيورون حفاظاً على إسلامهم من جميع الطبقات، ثم يأمل كاتب التقرير من الأستاذ المراغي أن يسكت عن تنصير المسلمين، كيلا يُساء إلى موقفه!!.

إن المنتظر المتوقّع منه أن يقود جماعة الدفاع عن الإسلام صيانة لدينه، ومُراعاة لرسالته، لا إغاظة للملك فؤاد كما فهم كاتب التقرير، وأيّ شيء أعزّ على المراغي من الإسلام؟ حتى نلتمس في نصرته إياه شتّى التأويلات، أما المأخذ الحقيقي الذي وُوجِه به المراغي عن حق فهو انضمامه لحزب ضدّ حزب، حين حاول نصرة محمد محمود، فدفع بالطلاب إلى مأزق ما كان أحراهم أن يبتعدوا عنه، وكفى المراغي شرفاً أن يكون ذا مأخذ واحد.

بقي أن نعرف بعض مواقف المراغي الشجاعة من الإنجليز، وفي طليعتهم صاحب هذا الخبر «السّير مايلز لامبسون» و«لورد كليرن» فيما بعد!! ليعلم الذين يفترون الكذب على الأحرار أنهم واهمون مُنخَدِعون.

حين قامت الحرب العالمية الثانية، كان مركز إنجلترا في بدايتها ضعيفاً حَرِجاً، إذ توالت انتصارات هتلر على نحوٍ يُؤذِن بانهزام الحلفاء، واضطرت إنجلترا أن تُذيع في الناس أنها تحارب من أجل الإنسانية المندحرة أمام دكتاتورية النازية، وطلب السّير مايلز لامبسون، من الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي أن يذيع على العالم الإسلامي بياناً يعلن فيه، أن إنجلترا تحارب في سبيل الديمقراطية، لترعى حقوق العدالة والأخوّة والمساواة، وتعاظم الشيخ الأكبر أن يجرؤ السفير على طلبه، فلم يشأ أن يغفل الطلب، كأن لم يكن، ولكنه انتهز فرصة الاحتفال بموسم ديني، فألقى أمام الملك خطبة رنّانة تُوضِح ما قاسته مصر،

والعالم الإسلامي من أهوال هذه الحرب المدمّرة، حين سقطت القنابل على الإسكندرية وبعض المدن المصرية، فأحدثت من الضرر النفسي ما فاق الضرر المادّي، ثم هتف صريحاً بأن مصر تكابد حرباً لا ناقة لها فيها ولا جمل، وأن المتحاربين في المعسكرين المتنابذين لا يمتّان إليها بسبب.

وانتشرت خطبة الإمام على الأثير في شتّى أنحاء العالم، ففزع السّير مايلز لامبسون فزعاً شديداً، وهاتف رئيس الوزراء «حسين سري» في منتصف الليل يطلب منه إقالة المراغي، وفزع رئيس الوزراء تبعاً لما شاهد، واتصل تليفونياً قبل الفجر ليحتجّ على المراغي، وينذره بأنه لا بدّ أن يحيطه علماً بكل ما يقول قبل أن يخطب به.

واستمع الشيخ متعجّباً ثم قال للرئيس حسين سري: «أتريد أن أعرض عليك كلامي؟! مَن أنت؟ أنا أستطيع أن أقيلك من منصبك بخطبة واحدة من فوق منبر الأزهر، أو منبر الحسين!! قل هذا لمَن هدّدك يا حسين! وانتقل الحديث إلى السفير البريطاني، فخاف العاقبة وآثر السكوت!.

هذا هو المراغي صنيعة الإنجليز كما يزعمون، وهذا موقفه الرائع في وقت كان زعماء البلاد جميعاً في قبضة السفارة، لا يجرؤون على تحدّيها في الصغير أو الكبير، فكيف ـ يا لله ـ تُختَلَق بشأنه الأراجيف وممّن؟ من الأذناب!!.

أما قبل ذلك فقد كابد الإنجليز منه في السودان رهقاً كارباً، حين صار قاضي القضاة، إذ كان يصرّ على ألّا يتقدّمه الحاكم البريطاني في موقف، وحين شبّت ثورة سنة ١٩١٩ دعا المراغي أعيان السودانيين إلى التبرّع لمُصابي الثورة المصرية، وأرسل وفوده لقضاة الشرع في شتّى الأقاليم، ومعهم منشورات تثبت فظائع الإنجليز، فأراد الحاكم الإنجليزي أن يمنع التبرّع، وأرسل المستر (دن) رئيس القضاء المدني إلى الشيخ المراغي ليُبلغه بضرورة السكوت، واحتدّ النقاش بين الرجلين، وفجأة قال المستر (دن) للشيخ المراغي: «أنا أُكلّمك كرئيس» فانتفض الشيخ المراغي ليصيح في وجهه: مَن أنت؟ أنا رئيس مثلك، وأنا مُعيَّن

بأمر ملكي كما عُيِّنت أنت!! وأنهى الحوار، فجاء السّير (لي ستاك) حاكم السودان العامّ، ليرجو المراغي شخصياً في إيقاف التبرّعات ومنع المنشورات، وكان مما قاله الحاكم مُداوراً: أنا إرلندي، والإنجليز ينتهكون بلادنا، ولكني أُمثّل الآن إنجلترا، فلا علاقة لي بإرلندا، وأنت الآن في السودان ولا علاقة لك بمصر! فقال له المراغي مبتسماً: أنا لم أقم بغير جمع التبرّعات، وكان في استطاعتي أن أُهيّج الشعور سياسياً ودموياً، ولكني اصطنعت الحزم، فتخاذل الحاكم، ولكنه وقف دون إيصال التبرّعات إلى لجنة الوفد المركزية، فأخذ الشيخ يسأل عن زائري مصر من أبناء السودان، ليحمّلهم ما جمع من المال حتى بعث به لمُستحقّيه، ورأت بريطانيا أن تعمل على إعفائه من منصبه حين وقف أمامها ثابت الجأش، قوي المراس، فألغت عقده، ورجع الرجل مهيباً كريماً إلى مصر، ليتبوّأ مركزه القضائي في المحكمة العليا الشرعية عن جدارة وإيمان! فأين هو إذن صنيعة الإنجليز يا قوم؟.

وإذا وُجِدَ مَن ينسى الحوادث العادية في حيوات العظماء، فإن الحوادث الخارقة في حيوات هؤلاء أعصى على النسيان، ومهما حاول المُغرضون أن يطمسوا لألاءها الساطع فالحق أظهر من أن يضيع، ومن هذه الخوارق النادرة في حياة الإمام المراغي: موقفه في قضية الوقف، إذ حاول بعض الكبراء أن يُغريه بعشرة آلاف من الجنيهات، نظير أن يتنحّى عن نظر القضية فقط، إذ لا يمكن أن يتصوّر أحد من الناس أن يحكم المراغي بغير ما يعتقد أنه الحق، وكانت عشرة آلاف تساوي مائتي ألف في حساب اليوم، فلمس القاضي الأكبر بوادر الاحتيال الدنيىء، وأصرّ إصراراً جازماً على أن يبتّ بنفسه في الحكم، وقد ضاق هذا الكبير المتغطرس ذرعاً بموقف الشيخ، وغرّه الشيطان فسوّل إليه أن يقتله في الطريق إلى المحكمة كيلا ينطق بالحكم، وفُوجِىء القاضي النزيه بمَن يرمي ماء النار عليه فيحرق رقبته، ويولّي هارباً ظانّاً أن الموت محقّق، ولكن الشيخ تحمّل النار الكاوية في جِيدِه، وذهب إلى المحكمة لينطق بما يعتقد أنه حُكم الله، ثم يتوجّه إلى المستشفى كي يُعالَج. وحين أُقيمت دعوى التعويض على الجاني، كان محامي الشيخ هو الأستاذ «أحمد لطفي بك» نقيب المُحامين إذ ذاك، وقد مات بعد

المُرافعة دون أن يترك لأُسرته شيئاً ذا بال، فرأى الشيخ أن يتنازل عن الآلاف لوَرَثَة المحامي عن كرمٍ وسَماح! أفليس في ذلك ما يدلّ على رحمة الشيخ وسموّه وعزّته وهمامته! فإذا أُضيفت إلى هذه الخارقة مواجهته لفاروق حين طلب منه أن يفتي بتحريم زواج الملكة فريدة بعد طلاقها منه، حيث قال للملك في وضوح: أما الطلاق فلا أرضاه، وأما التحريم فلا أملكه، إذا أُضيفت هذه إلى تلك كفتاك معاً كل تعقيب، وقد آن لنا أن ننتقل إلى تحليل أبرز أعمال الإمام في مضمار الإصلاح الديني بعد هذا التمهيد.

- ٢ -

أجمع الصفوة ممّن تحدّثوا عن الأستاذ المراغي، كالأساتذة: العقّاد، وأحمد أمين، وأحمد حسن الزيّات، ومصطفى عبد الرازق، أن الشيخ أحقّ تلميذ بوراثة الأستاذ الإمام محمد عبده، إذ قام على تنفيذ برنامجه الإصلاحي في الشريعة وفي الأزهر، والحقّ أن المراغي قد تتلمذ على محمد عبده، وكان من حظّه أن ينال درجة العالمية على يده، ثم يذهب مبعوثاً إلى السودان باقتراحه، وقد اجتمع به قبل السفر، وحمّله نصائحه العلمية والخلقية، ومثل الإمام محمد عبده خليق بأن يلفت نظر تلميذه، بل بأن يأخذ بمجامع قلبه، إذ صادفت تعاليمه منه نفساً متطلّعة وقلباً عاشقاً، وعقلاً يقظاً وعزيمةً ذات حَسْم ومَضاء.

وفي الاحتفال الكبير الذي أُقيم لتكريم المراغي بمناسبة عودته للأزهر شكر المحتفلين، وأدار كلمته الضافية على الإصلاح الأزهري، وأثر الإمام محمد عبده في التمهيد له، وكان ينتهز سوانح الفُرَص ليتحدّث عن أستاذه في الصّحف، والإذاعة، ومجالسه العامّة والخاصّة.

وقد نقلت مجلة الأزهر بعض أحاديثه عن الإمام[1] في مطلع الجزء السابع من المجلد الثاني عشر ص ٣٨٥ وننقل منه ما يُلقي الضوء على صنيع المراغي

(١) مجلة الأزهر، السنة الثانية عشرة، رجب، سنة ١٣٦٠ هـ.

نفسه، إذ عبّر تعبيراً دقيقاً عن بواعث اهتمامه بالإصلاح الأزهري حين عبّر عن جهاد أستاذه، فكان مما قال:

«نشأ الشيخ في عصر من العصور القاتمة، كل شيء فيه مُمِضّ مؤلم للنفوس الحرّة والفِطَر السليمة، الأُمم المسلمة تنحدر علمياً وسياسياً واجتماعياً إلى أحطّ الدّركات، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفس، فالدين يفهمه الناس على غير وجهه، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات العجم، والزّلفى إلى الله لها طرق لم يشرعها الله، والزّلفى إلى الحكّام لها طرق لا يرضاها ذو مروءة، ذهبت ريح المسلمين، وتداعت عليهم الأُمم كما تداعى الأكَلَة على القِصاع، وليسوا قلّة ولكن غُثاء كغُثاء السّيل، ذهب يتعلّم كما يتعلّم غيره قواعد جافّة، ليس لها حياة تصلها بمنابعها من الكتاب الكريم، والسُنّة المطهّرة، ولا بأُصولها من لغة العرب وأساليبهم، فتعلّم القواعد في مختصرات، رضيها ذلك العصر المظلم، لا تُفهَم إلّا بشروح وحَوَاشٍ، وصناعة خاصّة.

فلا اللغة العربية بمُساعِدة على إجادة النّظم والنثر والكتابة والخطابة، وفهم القرآن الكريم، ولا الفقه يسدّ حاجة المجتمع وحاجة الحكومات والدول في التشريع والتنظيم، ولا دراسة الكلام والمنطق مُوصِلة إلى الاستدلال الصحيح الذي يطمئن إليه العقل، ويقنع الخصم، والمتحدّث في الاجتهاد وتخيّر الأحكام لتطابق حاجة العصر، ولتلائم أحوال الأمم والأزمنة، مبتدع مخالف لما أجمع عليه المحقّقون، والدّاعي إلى سِيرة السّلف الصالح، داعٍ إلى مخالفة سِيرة العلماء المبرزين، والدّاعي إلى كتب الأوّلين، مقصّر عن فهم كتب المحقّقين من المتأخرين، والمُنادي بأن كتب الفقه، وكتب التفسير، وكتب الحديث مُلِئَت بمعلومات خاطئة، وبأوهام لفّقها من قبل علماء الإسرائيليات، مُخالِف لما دَرَجَ عليه صالِحو هذه الأمة وجهابذتها».

كان بودّي أن أسترسل في نقل هذا الحديث الضافي، وقد شغل عدّة صُحُف من مجلّة الأزهر، لأُظهِر كيف أحسّ المراغي بما كابده أُستاذه من هول الصراع

أولاً، ولأقول ثانياً إن هذه المكابدة الأليمة صادفت وتراً مَرِناً من قلب التلميذ، فظلّت شغله الشاغل طيلة حياته وقد عمل جهده، قبل أن ينال مشيخة الأزهر على إصلاح ما يقدر عليه، في وظائف المحاكم والمساجد، ثم شاء الله أن يصطفيه بالإمامة حين تبوّأ منصبه الأعلى في الأزهر، فأُبيح له أن يأخذ في أسباب التنفيذ، بعد أن شرح أستاذه العلّة وشخّص المرض، ووصف الدّاء، وكان مرور أكثر من عشرين عاماً على وفاة الإمام مما لم يذهب بأثر البيئة الأزهرية ذهاباً يمهّد الطريق أمام المُصلِح البصير، فجاهد الشيخ جهاد الأبطال حتى ظفر بمُبتغاه، وحسبك أن تعلم أن ظروفاً كبيرةً أجبرته على الاستقالة، حتى لا يمضي في سُنَن الإصلاح.

وكان ذوو الأمر يُؤثرون أن يطوي برنامجه الإصلاحي ويبقى على رأس الأزهر أستاذاً أكبر، ولكن الرجل غضب فآثر الاستقالة، ودوّت العاصفة من بعده سنوات عدّة، ولم تسكت ريحها الهبوب حتى أذعن ذوو الأمر للواقع، فعاد الأسد إلى عرينه على رؤوس الحِراب، وما هذه الأصوات الهاتفة بزعامته، والمظاهرات الداعية إلى قيادته، إلاّ حِراب قاتلة أجبرت المسؤولين، أن يتداركوا النار قبل استفحال الحريق.

ونحاول في إيجاز ـ نُجبَر عليه لضيق المقام ـ أن نلمّ إلماماً عاجلاً بأهم خطوات المراغي الإصلاحية في سبيل الأزهر والتشريع واللغة، وتلك الثلاث هي أبرز مناحي جهاده، ليجد القارىء نتائج القضايا تابعة للمقدمات دون اعتساف، وليعرف كيف كان الصادقون من ذوي العزم يجابهون الواقع المتحجّر، مواجهة قوية لا تعرف النكوص، وكيف كانوا يستروِحون نسائم الأمل في محابس اليأس القاتل، فيمدّهم بروح واثق، إذ إن رحمة الله قريب من المُحسِنين.

كان الأزهر الذي نراه الآن في كلّياته العلمية المزدهرة، ومعاهده المترامية المنتشرة، قبل المراغي محجوراً في نطاق ضيق، يُوحي بالاختناق، فطلاّبه يقطعون النهار وزُلَفاً من الليل في دراسة المتون والحواشي دون أن يحسّ بهم أحد، لقد كانت الجامعة المصرية مطمح الأنظار بكلياتها الناهضة، ذات الشموخ

والكبرياء، وكانت الوظائف الراقية تحتضن المتخرّجين منها احتضاناً، يدلّ على أنهم مع أبناء المدارس العالية مناط الحظوة والرجاء، وطالب الأزهر يقطع عمره الطويل في دراسة متقهقرة، ثم لا يعترف به أحد! لقد حلّ غيره محلّه إذ فتحت مدرسة القضاء الشرعي لتخريج القضاة، وهُيّئت دار العلوم لإعداد مُدرِّسي اللغة العربية والدين، وشرعت وزارة الأوقاف في إعداد مدرسة مُماثلة للوُعّاظ والخطباء، فماذا عسى بعد ذلك يبقى لهؤلاء المتيقظين قبل الفجر في المسجد الجامع، يصلّون ويقرؤون حتى تحين العشاء، ثم يمضي بهم العمر الشاسع دون أن يشعر بهم أحد!.

إن المطالبة بحقوقهم، لن تكون مقبولة منطقية، إلّا إذا أُعِدّ نظام جامعي لإصلاح التعليم، وإلّا إذا اتصل الأزهري بثقافة عصره، وألمّ بحضارته المدنية، وعلومه الحديثة، وهُيِّىء بسلاح مُماثل لسلاح النظراء! لا بدّ من إنشاء كليات أزهرية ثلاث، تختصّ إحداها بالشريعة، وثانيتها بالعقيدة، وثالثتها باللغة، ولا بدّ أن يكون الكتاب، والطالب، والأستاذ، في مستوى الإفادة المتحقّقة، ثم لا بدّ أن يُتاح لمَن يتخرّجون في هذه الكليّات أن يأخذوا بنصيبهم من الحياة، حين يعطون الأمة من جهودهم المُثمِرة ما يهدي ويُنير.

لقد رسم المراغي خطّة الإصلاح واضحة النقاط، سافِرة الحقائق، فحدّد الزمن، وعيّن المنهج، واختار المواد، وأعدّ المشروع الضخم في قالبه القانوني بعد أن مهّد له خطيباً في المحافِل، ومُناقِشاً في الصُّحُف السّيّارة! وكان من الاستهتار العقلي أن يُناوئه مَن يحرصون على القديم لأنهم لا يُحسِنون سواه، أو لأنهم يحسدون صاحب هذا الارتقاء الدّافع إلى الازدهار الفكري والتقدّم العلمي، وأن يجدوا من ذوي الأمر مَن يحرص على أن يظلّ رجال الدين في مطاوي الخمول لا يؤدّون رسالة، ولا ينعمون بفكر، ولا يتمتعون بحياة، ولكن ذوي البصائر النيِّرة من شباب الأزهريين، قد اشرأبّوا إلى مشرق النور في برنامج الإصلاح فتواصوا بالجهاد، وأعلنوا الثورة حين حِيلَ بين المراغي وبين ما يريد.

ثم جاء خلفه فاضطر إلى إسكات الثوّار بتنفيذ ما ارتآه المراغي، فأُنشئت الكليّات، ونُظِّمَت الدراسة بالمعاهد، ولكن روحاً من الإرهاق أخذت تضع الحواجز، حتى ليُخَيّل للرائي أن المباني قد أُنشئت ذرّاً للرماد، وأن روح الإصلاح الحقيقي لا تزال بعيدة عن شبيبة الأزهر في صالات الدرس وباحات البحث، وقد تجمّعت الأسباب لإحداث رجّة مزلزلة، فاعتُقِل طلاب، وفُصِلَ مُدرِّسون، وعُطِّلت دراسة، وانتظمت مظاهرات، وصار الأزهر بركاناً يغلي ويثور، وقد بذل القصر الملكي، ورئيس الوزراء القائم جهدهما كي يستكين الثائرون دون جدوى، حتى إذا تحقّق الجميع من وشك انفجار يعصف بذوي الأمر سارعوا بدعوة المراغي إلى مكانه القيادي، وكانت فرحة غامرة دوّى صداها البهيج في ربوع الإسلام.

وطبيعي أن يجد المراغي في سبيل التطبيق بعض العقبات، فالنفوس لا تنهض فجأة من حالٍ إلى حال دون تمهيد، فهناك مَن يتعذّر عليه أن يترك أساليب المتأخرين في حفظ التفريعات، ومناقشة التراكيب وإرجاع الضمائر، وهناك مَن لا يهشّ لأفانين البحث المنظّم من جمع الحقائق للموضوع الواحد من مظانّها المختلفة، وصياغتها صياغة علمية، ذات مقدّمة وعرض وخاتمة، لأن إلْفَ المرجع الواحد جعل المدرّس ظلّاً باهتاً لكتاب قد لا يكون أحسن الكتب في بابه، وهناك مَن ينكر أن يفتح باب الاجتهاد في مسائل الفقه واللغة وتفسير الآيات وشرح الأحاديث، إذ يرى أن الأول لم يترك للآخر شيئاً، بل هناك مَن حاول أن يطمس لألاء التجديد، بدعوى أن الأزهر قد انصرف عن العلم الحقيقي إلى المظهر الخارجي.

وكان هذا القول المسموم يوجّه من نفوس ذات شأن سياسي، يهولها أن يجد الإسلام مكانه المطمئن من نفوس الأزهريين، وأن ينهضوا إلى إعلان رسالته العادلة في الناس، فيشيدوا بالحرية والإخاء والعدالة والمساواة!.

كان هؤلاء يترحّمون على زمن الجمود، ويرون انسياح الأزهريين في المجتمع الإسلامي طلباً للدنيا، وحرصاً على الحياة، وكانت أراجيفهم تصل إلى

الإمام المراغي فيقابلها بالابتسام، ولكنه اضطر إلى التعقيب عليها حين وجد الأمير محمد علي يقرّر أن الأزهر القديم أفضل من الأزهر الحديث، وأن حديث الأمير وجد ألسنة تردّده من كبار العلماء، فانتهز الإمام الأكبر أول احتفال أُقيم بالجامع الأزهر بمناسبة عيد الجلوس الملكي، وجعل خطبته الحافلة ردّاً على هذا العبث المقصود، وقد نقلتها مجلة الأزهر في الجزء الرابع من السنة العاشرة في الافتتاحية التي تخصّص لكلمات الإمام[1]، ولا مَناص من الاجتزاء ببعضها ليكون فيه عِظة بالغة لمَن كابر عن جحود.

قال الإمام المراغي: «سيتبيّن من هذه المقارنة أن هذا الوهم وَهْم باطل، لأن الأزهر الحديث أفضل من الأزهر القديم، من الناس مَن يقولون: إن الأزهر القديم كان متمسكاً بدينه أكثر من الأزهر الحديث، وأنا أقول لهؤلاء: لا، فالأزهر الحديث متمسك بدينه أكثر من الأزهر القديم ـ كل المفاسد الموجودة الآن ليس للأزهر الحديث شأن فيها، إلّا أن يطلب إزالتها، فقد نظم البغاء وليس للأزهر الحديث أثر فيه، وأُبيحت الخمر في البلاد وليس للأزهر الحديث شأن فيها، ووُجِدَت البِدَع في الموالد والأسواق والقبور وليس للأزهر دخل في وجودها. كلّ هذا وُجِدَ في عهد الأزهر القديم، ولم يرفع صوته مُطالِباً بإزالة هذه المنكرات التي استقرّت في البلاد، وكأنها شأن من شؤونها القومية، والتي يُطالب الأزهر الحديث بإزالتها، فالأزهر الآن مُكَبّل بآثار الماضي، وهو يعاني في سبيل إزالة تلك الآثار ما يعاني ولا أظن هذه المنكرات كانت تستطيع أن تُوجد في الأزهر الحديث، لقد اتصل الأزهر الحديث بالناس، بالوعظ والإرشاد، وعلى صفحات الجرائد ليُفهِمهم دينهم، فاستفادت الأُمة منه، واستفاد العالم الإسلامي كذلك، أما الأزهر القديم فكان قابعاً بين الجدران، لا أثر له في الخارج، ولا يعرفه الناس إلّا بطريق السّماع».

ثم قال الإمام مقارناً بين نظم الدراسة في الماضي والحاضر:

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد العاشر، (د) من الجزء الرابع، ربيع ثاني، سنة ١٣٥٨ هـ.

«يمكنني أن أُقارن بين الحياة العلمية في الأزهر الآن وفيما مضى، لقد كان أكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعدّدة في عبارات الكتب، وكان هذا كل شيء اشتهروا به في العلم، وما كان يوجد بينهم مَن يستطيع أن يحاضر في موضوع علمي، ولا أن يلخّص مسألة من المسائل بعبارة يمكن أن تُفهَم، وكانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الأدلة ومقارنة المذاهب ونقدها، بل كانوا يعنون بالألفاظ، فلم تكن الدراسة شهيّة مُثمِرة، ولكن الأزهر الحديث احتفظ من تلك الطرق بما يجب أن يحتفظ به دائماً، وأضاف إلى ذلك أنه استطاع أن يحصّل العلم تحصيلاً حقيقياً، وأنه استطاع أن يتصل بالبيئات الأخرى ويُجاريها، ولا شك عندي أنه في هذه الناحية يفضل الأزهر القديم».

هذا بعض ما قاله الإمام، ومقطع الرأي في هذه القضية إذا احتاج النهار إلى دليل أن ننظر إلى مرافق الدولة في كثيرٍ من نواحيها، لنجد الأزهريين قد أسهموا بنصيبهم المُشَرّف في إدارتها وإصلاحها، وإلى الصُّحف العلمية والمجلاّت الأدبية لنرى الأزهريين يخاطبون الناس بأسلوب العصر ومنطق الحياة، وإلى المؤلّفات - دراسية وغير دراسية - لنجد لأبناء الأزهر نصيبهم الموفور في مضمار البحث الأصيل، فأين كان الأزهر القديم من ذلك كله؟.

نترك إصلاح الأزهر إلى إصلاح المجتمع الإسلامي، فقد قام المراغي بنصيبه الموفور في إقرار النصوص الدينية إقراراً يعود بالخير على الأمة الإسلامية، بعد أن توقّف الاجتهاد في الشريعة توقفاً جعل الفقهاء منعزلين في زواياهم الضيقة، دون أن يستطيعوا إمداد العصر بفقيه الإسلام في معضلات الحياة، وقد كان الرجل كبير القضاة في محاكم الشرع، وقف على مشكلات الأُسَر، ومآزق الطلاق، ومعضلات النفقة، وأزمات الميراث، وجعل يتصفّح أقوال الفقهاء من جميع المذاهب، ليختار منها ما يُريح الناس عن بصيرة مُوغِلة في أسرار التشريع وقضايا الأصول، ومُوجِبات القياس، والأخذ بالاستحسان، وسدّ الذرائع، ومُراعاة المصالح المرسلة، مما سجّله الأصوليون دون تعنّت في التطبيق، أو تنطّع في التعليل، أو ليّ للمسألة على غير وجهها الصريح.

وللمراغي في هذا المجال رسالة فقهية تُنبىء عن ألمعيّة شفّافة، وتنطق بأن التشريع لا يفقد في شتّى العصور إماماً يرضي دين الله بتيسير حاجات الناس، ولعلّ هذا بعض ما عَناه الأستاذ عبد الجواد رمضان حين قال في رثائه:

لقد ودعت منه الشريعة مذهباً إماماً له شُرّاحه ومُتونه

وطبيعي أن يثور الجامدون على سعة فكره، وهمّ الواحد منهم أن يلتزم بما قاله إمام واحد، لا يتعدّى مذهبه في كلّ ما قال، ولم يكن دين الله وقْفَاً على فقيه يختار بين عشرات من أمثاله المُبرَزين، وقد جادلهم المراغي بالتي هي أحسن، فكتب فصولاً في ذمّ التقليد، هي من أبرع ما قيل في موضوعها، وأظهر قانون المحاكم الشرعية للأحوال الشخصية، فكان رحمة للناس حين أخذت به الوزارة، وألزمت القُضاة أن يعملوا بمُقتضاه، ولئن خالفه مُخالِف فتلك طبيعة العلم في كل زمان ومكان، وما زالت الأئمة في القديم والحديث تأتي بما يُؤخَذ منه ويرد، دون أن يُجحَد لفاضل فضله، وحين تولّى الإمام مشيخة الأزهر للمرة الثانية ترأس لجنة لمُدارسة الأحكام الفقهية، ورسم خطّتها السديدة، وتحدّث مع الأعضاء ـ وكلّهم من رجال الفقه والتشريع ـ بما يُوضِح حجّته دون نقاب، وقد سجّلت مجلّة الأزهر ملخّصاً جيّداً لحديث الأستاذ جاء فيه(1):

«قد يظن أن في هذا العمل (تخيّر أصحّ الأحكام من مختلف المذاهب) ابتداعاً وأن سَلَف الأمة لم يعملوا بمثله، وأنا أدفع هذا الظن بما أُطلعكم عليه، مما هو مذكور في كتاب (الوُلاة والقُضاة للكندي) إذ جاء في مواضع متفرّقة منه ما يلي:

كان أبو عبيد يذهب مذهب أبي ثور، ثم صار يختار، فجميع أحكامه بمصر باختياره، فحكم بما لو حكم به غيره ما سكتوا عنه، ولم ينكر عليه أحد، لأن أبا عبيد لا يطعن عليه في علم، ولا تلحقه تهمة في رشوة، ولا يحيف في حكم، وهو آخر قاضٍ ركب إليه الأمراء في مصر. قال الطحاوي: وكان أبو عبيد يُذاكرني

(1) مجلة الأزهر، السنة السابعة، ص ٥٩٢، سنة ١٣٥٥ هـ.

بالمسائل، فأجبته يوماً في مسألته فقال لي: أو كما قال أبو حنيفة؟ فقلت له: أيّها القاضي أوَ كلُّ ما قال أبو حنيفة أقول به؟ قال: ظننتك مقلّداً، فقلت له: وهل يقلّد إلّا عصبي أو غبي، فطارت هذه الكلمة حتى صارت مثلاً.

ثم قال الإمام: وفي كتب الفقه الإسلامي من الآراء والمذاهب ما فيه شفاء للناس، إذا أحسن التخيّر، وصدقت النيّة، وصحّت العزيمة، وأعتقد أنه لا يكاد يخطر رأي ببال، في حادثة عرضت للفقهاء من قبل، إلّا وهذا الرأي موجود، يمكن العثور عليه للباحث المجتهد، غير أنه لا يفوتني وقد كنت قاضياً من قبل، أن إصلاح القانون إصلاح لنصف القضاء فحسب، أما النصف الآخر فهو بين القاضي وبين نفسه، لأن عليه أن يفهم الوقائع أولاً، كما هي بعد تلمّس أدلّتها ونقدها، وبعد الموازنة بينها، وعليه أن يبذل الجهد لئلا يطول الوقت، فيفلت الحقّ من يد صاحبه، وعليه أن يُشعِر الناس جميعاً بالاطمئنان إليه، وأن يحملهم على الرضا بحكمه ولو كان عليهم، بسِيرته الطاهرة، وبُعده عن الشُّبُهات».

وقد أنشأ الإمام تخصّص المادة، وزمانه ستّ سنوات بعد الدراسة العالية، بكل كليّة من الكلّيّات الثلاث، لتُخَرّج كليّة الشريعة فقهاء من طراز مالك وأبي حنيفة والشافعي، وتُخَرّج كليّة اللغة أدباء من أمثال المبرّد والجاحظ وعبد القاهر، وتُخَرّج كليّة أُصول الدين متكلمين من أمثال الأشعري والغزالي، هكذا كان يقول المراغي رحمة الله عليه. وحين بدأ الطلّاب يقدّمون رسائلهم الجامعية، كان المراغي في طليعة مَن يتصدّرون المناقشة في رسائل الفقه، ليبثّ تعاليمه الناجعة في هذا الوسط الثقافي، بين الأساتذة المُناقشين، والحاضرين من المستمعين، ففي أول رسالة بمدرج كليّة الشريعة غصّ المَدرَج بجمهور العلماء، ووقف الطالب يعرض رسالته في جوٍّ صافٍ من الحرية.

ثم دارت المناقشة سافِرة واضحة دون حَرَج، واهتبل الإمام المراغي الفرصة ليوجّه تلاميذه من العلماء وجهة ذات سداد، وقد كان الأستاذ محمد المدني أحد شهود هذا المحفل، فكتب بمجلة الرسالة فصلاً ممتازاً، يصوّر الجوّ العلمي الرائع

كما رآه لأول مرة في تاريخ الأزهر الحديث، وقد أبدع إبداعاً نعهده في قلمه السيّال، وكان مما قاله رحمه الله[1]:

«وكان من المبادىء الجليلة التي سمعناها، ما قرّره فضيلة الأستاذ الإمام المراغي من أن الدين في كتاب الله غير الفقه، وأن من الإسراف في التعبير أن يُقال عن الأحكام التي استنبطها الفقهاء، وفرّعوا عليها، واختلفوا فيها، وتمسكوا بها حيناً، ورجعوا عنها حيناً أنها أحكام الدين، وأن مَن أنكرها فقد أنكر شيئاً من الدين، فإنما الدين هو الشريعة التي أوصى الله بها إلى الأنبياء جميعاً، وأما القوانين المنظّمة للتعامل والمحقّقة للعدل، والدّافعة للحَرَج فهي آراء للفقهاء مستمدّة من أُصولها الشرعية، تختلف باختلاف العصور والاستعدادات، تبعاً لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها، وتبعاً لاختلاف البيئات والظروف، ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع ما نرى من اختلاف الفقهاء بعضهم مع بعض، وتفنيد كل آراء مُخالِفِيه وعدّها باطلة لحقّت علينا كلمة الله ﴿ إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾ [الأنعام/ ١٥٩].

وكان من المبادىء التي قرّرها فضيلة الأستاذ الأكبر: مسألة تأثير العُرْف في المعاملات، وقد ضرب لذلك مثلاً بأن عُرْفنا الحاضر قد أهدر المعايير والأوزان في التعامل بالذهب والفضة، فأصبحنا نصرف الذهب بالفضة من غير نظر إلى الوزن ولكن على أساس العدّ، وكذلك الأمر في صرف الفضة بالفضة، وكان من المبادىء التي قرّرها فضيلته أيضاً: التفريق بين ما حرّم لنفسه وما حرّم لغيره، وما ينبني على هذا التفريق من جواز إباحة الأخير عند الحاجة».

وفي كليّة أصول الدين كان الإمام يختار أعلام الفكر المصري لمناقشة رسائل الطلاب، من أمثال: أحمد لطفي السيّد، ومنصور فهمي، وكذلك يختار في

---

(١) مجلة الرسالة، السنة التاسعة، العدد ٣٩٦، (٧/١/١٣٦٠ هـ).

رسائل كلية اللغة أمثال: عبد الوهّاب عزّام، وعلي الجارم، وأمين الخولي، ليصل الأزهر بتيّار الثقافة المعاصرة في كل اتجاه، وذلك تقدّم واثب سريع.

أما دروس المراغي في تفسير القرآن فكانت مواسم عالمية في شهر الصيام لمُدارسة القرآن الكريم، حيث كانت الإذاعة المصرية تنقل هذه الدروس إلى شتّى ممالك الإسلام وبِقاعه. وكان الإمام من جُودة الإلقاء، وقوة الاختيار، وسهولة العرض، وصدق النظر، وبراعة الاستشفاف، وجمال التعبير، بحيث كان مطمح العلماء وموضع احتذائهم، وما عُرِفَ بعد محمد عبده من جذب الجمهور المثقف إلى مُدارسة كتاب الله كما جذبه المراغي، وليت أعماله الإدارية الكثيرة لم تُحِلْ بينه وبين هذا التفسير في كل أسبوع لا في شهر رمضان فحسب، إذن لغَنِمَت المكتبة القرآنية من دروس الأستاذ ما يُضيف إليها الطّارف المفيد.

وكأنَّ الله قد شاء لرجال الإصلاح الديني من أمثال: جمال الدين، ومحمد عبده، وحسن البنّا، ومحمد مصطفى المراغي، أن يكون نصيبهم من التأليف القلمي بحيث لا يظهر مواهبهم الحافلة، إذ انصرفوا إلى المؤلّفات الحيّة من البشر، حين ترك كل إمام صفوة من تلاميذه يُذيع آراءه وينشر مبادئه، وتجعل منه مِصباحاً يُضيء إذا ادلَهَمّ الظلام.

ومما وُفِّقَ إليه المراغي خطبه المنبرية يوم الجمعة، إذ كانت موضع العجب والإعجاب، حيث جعلت إمام المسلمين يقف موقف رسول الله والخلفاء من بعده على جذوع المنابر ليهتفوا بكلمة الله، وما رأى الناس قبل المراغي إماماً يخطب الجمعة متحدّثاً عن وقائع الزمن، وداعياً إلى الله في بيان ساحر، وكان من الأوفق أن يخصّه باحث أدبي بالتحليل في رسالة جامعية، ليرى الناس كيف صار البيان الديني باباً من أبواب الأدب المُعاصِر، حين ابتدأه محمد عبده، وقفا آثاره تلميذه المراغي، ثم ناشئة من أبناء الأزهر ترى النموذج الساحر، فتحاول أن تحتذيه، راجعة إلى الأصول الأولى من كتاب الله، وسُنّة الرسول، وروائع عليّ بن أبي طالب، والحسن البصري، والأوزاعي، ومَن تبعهم بإحسان.

إن الكلام عن المراغي يحتاج إلى كتاب يُسهِب لا إلى مقالٍ يُوجِز، ولعلّنا قد أشرنا إلى نقاط هامّة، تهيّىء عناصر متعدّدة لمَن يريد أن يمتدّ بتاريخ المراغي إلى أُفقه الفسيح، فيمتّع ويُجيد.

مصطفى صادق الرافعي
مدره الإسلام، وعبقري البيان

- ١ -

تستطيع أن تجد لكل أديب شبيهاً يماثله في السابقين أو المعاصرين، ولكنك لا تستطيع أن تجد لمصطفى صادق الرافعي في نثره هذا الشبيه، إذ كان الرجل نسيج وحده دون خلاف.

إذا طلبت للرافعي الناثر شبيهاً يُحاكيه، فاترك الإنسان إلى غيره من مظاهر الطبيعة لتجد للرافعي ذلك الشبيه المنشود.

هل رأيت الرعد المجلجل، الذي يأخذ عليك سمعك وشعورك حين يدوّي في الفضاء؟ هكذا يكون الرافعي، حين يزأر غاضباً لحُرمَة تُنتَهك، أو معصية تُذاع.

هل رأيت الزلزال المدمّر، يبعث اللّهب، ويرمي بالشواظ؟ هكذا يكون الرافعي، حين يقف أمام أعداء الإسلام، ليرجمهم بالنقد القاتل، ويسحقهم بالصاعق المُبيد.

ثم هل رأيت النسيم الهادىء، يرفّ على الروض الزاهر، فيحمل عبيره الفوّاح إلى النفوس، يشرح به الصدور، ويمتّع الأحاسيس؟ هكذا يكون الرافعي، إذا رقّ في عتاب، أو عذب في مناجاة، أو حنّ إلى غائب حبيب.

ثم هل رأيت النمير العذب يترقرق به الجدول الصافي، فتنهل منه شراباً لذيذ الرّشف، حلو الوقع من اللّهاة والصدر؟ هكذا يكون الرافعي، إذا روى حديثاً عن السّلف الصالح، يفيض بالعبرة الواعظة، ويدعو إلى القدوة الحسنة، عن هدى وإيمان.

هذه هي أشباه الرافعي، حين تتطلّب الشبيه في دنيا النثر والناثرين.

لقد آمن الرافعي برسالته في الحياة كداعية له مذهبه الهادي إلى الصراط المستقيم، فأصبح مدرة الإسلام، يكافح ألدّاءه، ويُناوىء أعداءه، ويدعو إلى التي هي أقوم.

وإن من أعظم خوارق الرافعي البيانية: أن يتكلم في حادثة تعرفها تمام المعرفة ـ إذ قرأتها مرّات عدّة في كتب التاريخ ـ ثم تُطالع ما كتب الرافعي في هذا المجال الذائع، فلا تجد غير الطريف الجديد، حتى لكأنك تقرأ عن موضوع لم تسمع به قبل الآن.

أتعرف موضوعاً أشهر من موضوع الإسراء والمعراج على سبيل المثال، فاستحضر إذن كل ما سمعت وقرأت عنه، ثم اقرأ مما كتبه مصطفى صادق الرافعي في هذا الموضوع:

«لقد حارَ المفسّرون في قوله تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنُريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ [الإسراء/١] فإن السرى في لغة العرب لا يكون إلاّ ليلاً، والحكمة (في ذكر كلمة الليل) هي الإشارة إلى أن القصة قصة النجم الإنساني العظيم، الذي تحوّل من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة، ويتمّم هذه العجيبة أن آيات المعراج لم تأْت إلاّ في سورة النجم.

وأنا ما يكاد ينقضي عجبي من قوله تعالى: ﴿ لنُريه من آياتنا ﴾ مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة، يخيّل إليك أن ليس وراءها شيء، ووراءها

السرّ الأكبر، فإنها بهذه العبارة نص على إشراف النبي ﷺ فوق الزمان والمكان، يرى بغير حجاب الحواس، مما مرجعه إلى قدرة الله لا إلى قدرة نفسه، بخلاف ما لو كانت العبارة: ليرى من آياتنا، فإن هذا يجعله لنفسه في حدود قوّتها وحواسّها وزمانها ومكانها، فيضطرب الكلام ويتطرّق إليه الاعتراض، ولا تكون ثَمّ معجزة وتحويل فِعْل الرؤية من صيغة إلى صيغة كما رأيت، هو بعينه تحويل الرائي من شكل إلى شكل، كما ستعرفه، وهي معجزة أخرى يسجد لها العقل، فتبارك الله مُنزِل هذا الكلام.

وإذا كان النبي ﷺ نجماً إنسانياً في نوره، فلن يأتي هذا إلّا من غلبة روحانيته على مادته، ومتى غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مُهَيّأة في الدنيا لمثل حالته في الأخرى، فهو في هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرّك، فقل لي: أيعترض على الهواء إذا ارتفع أنه لم يرتفع في طيارة!.

ومن ثم كان الإنسان إذا سما درجة واحدة في ثبات قواه الروحية، سَمَا بها درجات فوق الدنيا وما فيها، وسخّرت له المعاني التي تسخر غيره من الناس، ونشأت له نواميس أخلاقية غير النواميس التي تتسلّط بها الأهواء، ومتى وُجِدَ الشيء من الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه، فالنار مثلاً إذا تضرّمت أوجدت الاحتراق فيما يحترق، فإن وضع فيها ما لا يحترق أبطل نواميسه وغلب عليها».

ويمضي الرافعي في مثل هذا التحليل الخارق حتى يشغل حديث الإسراء والمعراج سبعة أعمدة طِوال، تشرق بها صفحات الرسالة، وكلّها كما يقول سعد زغلول في بيان الرافعي : «تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم».

أمامك «وحي القلم» بأجزائه الثلاثة، اقرأ فيه ما تناوله الرافعي تحت عناوين: (أمراء للبيع) و(الأسد) و(قصة زواج) و(قبح جميل) و(اليمامتان) وما يجري هذا المجرى من حوادث التاريخ، فإنك تجد ما لا تعهد من موضوعات تعرفها جيداً، وقد ألمَمْتَ بها في مظانّها الكثيرة، لأن الرافعي يتلقّف الخاطِرة الصغيرة، فيطير بها إلى آفاقه الرحيبة، فإذا هي في مرآته الوضيئة شيء آخر غير

الذي نعهد، بل إذا هي إبداع خارق يدهش له العقل، وينحني لـه التحليل، ثم لا يجد القارىء تعليلاً لما يفجؤه من خيال الرافعي، إلّا أن الكاتب مُبدِع فـذّ من أئمة المُبدِعين، وأن الارتقاء إلى أُفقـه الأعلى يتطلّب جنـاحاً قـوياً يقـدر على التحليق، فليس كـل قارىء بقـادر على أن يرتقي إلى أُفق الـرافعي، والسهولـة في الأداء قـد تكون سِمَة بارزة لغير مصطفى صادق، ولكنها تواتيه في أحيان دون أحيـان، تواتيـه حين يتسـرّع في الإنشاء وفق مـا يسنح بـه الخـاطـر العـابـر، وتُخْلِفُـه حين يجلس لاصطياد الفرائد منمّقاً مدقّقاً، إذ إن الفن البياني في رأيه هندسـة وتصميم وبناء ثم زخرفة وتنميق ووشي، ويحيط بذلك كله شجر ذو مرأى وظلّ وثمر ليكتمل الإطار.

وكان الرافعي أعلم بنفسه حين قال متحدّثاً عن صناعة البيان[1]:

«إذا قِيـلَ الأدب فاعلم أنـه لا بدّ معـه من البيـان، لأن النفس تخلق فتصـوّر فتحسن الصورة، وإنما يكـون تمام التـركيب في معرضـه، وجمال صـورته، ودقّـة لمحاته، إذ ينزل البيان من المعنى الذي يلبسه منزلة النضـج من الثمرة الحلوة، إذا كـانت الثمرة وحـدها قبـل النضج شيئـاً مُسمّىً أو متميّزاً بنفســه، فلن تكـون بغيـر النضج شيئاً تامّاً ولا صحيحاً، وما بدٌّ من أن تستوفي عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها، وهذه مسألة كيفما تناولتها، فهي هي حتى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيت في الثمرة ونضجها، فإن البيان صناعة الجمـال في شيء جمالـه من فائـدته، وفـائدتـه من جمالـه، فإذا خَـلاَ من هـذه الصنـاعـة التحق بغيـره، وعـاد بـابـاً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التأثير، وصار الفرق بين حاليه كالفـرق بين الفاكهـة إذ هي باب من النبات، وبين الفاكهة إذ هي بـاب من الرحيق، ولهـذا كان الأصـل في الأدب البيان والأسلوب في جميع الفكر الإنساني، لأنه كذلك في طبيعة النفس الإنسانية».

وقد أفلح الرافعي مدى عمره الأدبي في أن يكون له طبقـة ممتازة من صفـوة القرّاء تهيم بدقّة وصفه، وبراعة توليده، وبُعْد غوره، وجُـودة تصويـره، وتشتاق إلى

---

(١) الرسالة، (العدد ١١٠)، سنة ١٩٣٥ م.

آثاره في حنين وانجذاب، وله في دنيا الشعر نظراء آثروا العمق والتأنّي، والغوص والنّفاذ، وأكاد أجزم أنه في النثر شبيه بأبي تمام في الشعر يعلوان ويعلوان! وسأحاول بعد حين أن أُحدّد مكانه الأدبي بين أئمة البيان العربي المعاصر ليتميّز الزميل عن الزميل.

- ٢ -

على أن الرافعي قد ظلم بالنسبة إلى سواه لدى مؤرِّخي الأدب المعاصر، حيث تعرّض إلى حملات ظالمة شنّها عليه أعداؤه الكثيرون، فقد تواطأ خصوم الفكرة الإسلامية، وأذناب الدول الاستعمارية، وأشياع المجون الإباحي على النيل منه، والحطّ من أدبه، إذ كان حرباً عليهم جميعاً، يقف حيالهم في طليعة المُناضلين عن دين الله، وتاريخ العروبة، ومجد الشرق، وقوف القائد المدجّج بالسلاح، وينادي البراز مؤيّداً بالحجة والعقل، مُصاوِلاً بعزيمة المؤمن، وهِمّة المُثابر الشامِس، حتى كُتِبَ له النصر في مواطن كثيرة، تركت جِراح مُناوِئيه تسيل، وقلوبهم تنغر، ثم مات الرجل وأصبح جهاده في ذمّة التاريخ، وأدبه في ميزان النقد، فهبّت فئات ناقمة تصمه بما هو منه بَراء، تشفّياً من دائها القديم.

ترعرع الرافعي في عهد سيطر فيه الاحتلال الأوروبي على أكثر بلاد الإسلام، فحاول أن يخدع المسلمين عن مُثُلهم الرائعة بقشور من المدنيّة الزائفة، وانطلق صنائعه يدعون إلى المذاهب المنحرفة قولاً وعملاً، ثم يعمدون تحت ستار من البحث المُغرِض إلى تشويه الحقائق الدينية، وإشاعة الأراجيف الشائنة عن أبطال التاريخ الإسلامي، ثم إلى الحطّ من البيان العربي، والفصاحة البليغة، تمهيداً للطعن في كتاب الله ذي الإعجاز المُبين.

وكان للدُّخلاء من سعة النفوذ، وامتداد الجاه ما مكّن لهؤلاء المُغرِضين من مطايا الصُّحُف ومنابر التوجيه في الجامعات والمدارس، فرزقوا الحظوة الآهلة، والدويّ الصاخب، ولكنهم وجدوا مَن ناوأهم عن صدق وإيمان، فكشفوا سواد الضمائر وعقارب الصدور، وفي مقدمة هؤلاء كان الرافعي يتصدّر الجبهة المُدافِعة

مدرهاً مبارزاً، ولن نبخسه حقّه حين نقول إن زملاءه من المجاهدين الكِبار أمثال محمد فريد وجدي، وشكيب أرسلان، ومحمد أحمد الغمراوي، وغيرهم، كانوا يقفون معه في صفٍّ واحد، ولكن مصطفى صادق الرافعي كان أبعدهم تأثيراً لِما رُزِقَ من قوة في الحجاج، ولدد في الحوار، ولما أُعطِيَ من تهكّم ساخر، يعصف بالضلال عصف النار بالهشيم، فرجع بنصر من الله، وعرف له المخلصون مكانه الشجاع.

لا ننكر أن أساتذة مخلصين كمحمد سعيد العريان، قد وضعوا اللّبنات الأصيلة في كتابة تاريخ صادق لمصطفى صادق، ولكن نأسى لأُناس لم يتركوا أحقادهم، فجعلوا يذكرون الرافعي بعد مماته بما كانوا يصِمونَه به في حياته، وليتَهم كانوا صادقين مع أنفسهم، فنعذرهم لصدق الاتجاه، وإن وقعوا في الخطأ، ولكنهم يعرفون من الرافعي روعة خيال، ودقّة غوص، وجمال تصوير، ثم يحاولون أن ينكروا ذلك في صَلافَة تدلّ على الغباء!.

ولم يكن هؤلاء وحدهم، بل أُضيف إليهم مَن أخلصوا للرجل في حياته، ثم بَدَا لهم أن ينتفعوا بآثاره بعد مماته، إذ عمد أحد أصدقاء الكاتب الكبير إلى نشر رسائل خاصة كان الرافعي يرسلها إليه متعرّضاً إلى ثَلْب مَن يناوئونه، والرافعي بشر لا نبيّ، فليس المُنتَظَر منه أن يكتب خطاباً خاصّاً لمُريد تلميذ بالنسبة إليه، ليقول له: إن خصومي ذَوو مواهب، بل ليجد في هذه الصفحة التي لن يقرأها غير تلميذه مُتَنَفَّساً لآلامه، فكأن هذه الرسائل بهذا الاعتبار لا تخرج عن كونها شبيهة بحديث شفوي يلقيه كبير ضائق الصدر على نفر من خلصائه في ساعة ترويح، تمثّل الخواطر الوقتية المُعارضة التي تذهب وتجيء، ولكن هذا التلميذ الانتهازي أراد الكسب والاشتهار عن طريق هذه الرسائل، وأكثرها موجز لا يحمل معنىً ذا بال، فقدّمها بخيرها وشرّها للنشر ليتلقفها خصوم الرافعي، فيفرحوا بها فرح الأعمى بالضياء، وتكون هي وحدها ـ بين كتبه الكثيرة ـ مَناط الحكم على إسلامه أولاً، وأدبه ثانياً، ونفسيته ثالثاً، وقد يصطنع بعضهم الخبرة المُفتَعَلَة باللّاشعور والكبت والإسقاط، وسائر هذه الاصطلاحات الطريفة في علم النفس، لكي ينتهي إلى أن

الرافعي حاقد مريض، وقد نسي أن هذا المقياس المصطنع لو طُبّق عليه فيما يكتبه جادّاً ـ فوق ما يكتبه هازلاً ـ لسلب عنه أبرز خصائص الإنسان.

وثالثة الأثافي: أن يعمد كاتب متعجّل إلى ما سطّره الرافعي في كتاب (على السفود) فيجعله وحده خُلاصة أدب الرافعي في صِباه وشبابه وكهولته! ومع أن مصطفى صادق الرافعي لم يظهر هذا الكتاب باسمه الصريح مقدّراً ما يحمل من قسوة النقد على الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقّاد لأسباب كثيرة كان من سوء الحظّ أن تتجمّع حول الرجلين العظيمين، مع هذا التخفّي المتهرّب، واعتراف الرافعي نفسه أنه سلاح كريه يضطر إلى استعماله في ساحة اللّجاج، فقد شاء الكاتب المُغرِض أن يجعل مدار حكمه على الرافعي كتاباً واحداً تبرّأ منه صاحبه حين باعد النسبة إليه، وكان مثل هذا الكاتب المُغرِض فيما تعمّد من سوء مثل مَن يعمد إلى قصر واسع يشغل عشرات الحُجَر والأبهاء، مزدانة بأجمل الرِّياش، ومُحلّاة بأرقى وسائل البهجة والنعيم، فيترك ذلك كله ليسلّط نقده الحادّ المتشنّج على غرفة ضيقة في أعلى السطح يقيم فيها صغار الدّواجن! أفيليق في منطق العقل أن يكون ذلك طريقنا الأوحد في مجال النقد الأدبي، والموازنة بين المتماثلين!.

لقد أدّى الرافعي دوره الضخم في بعث اليقظة الإسلامية وإيقاد الحمية العربية، وعلى مَن يتصدّر للحكم عليه ألّا يقف عند الكلف الباهت في وجه القمر ليجعله وحده مجال القول، تاركاً أثر هذا الكائن المُشرِق في هداية المدلج، وإضاءة الطريق، وجمال الليل، وسلام الحياة.

وُلِدَ الرافعي في أُسرة تحتلّ مقاماً دينياً مرموقاً، إذ كان أكثر رجالها يتداولون القضاء الشرعي بمصر والشام، وقاضي المحكمة الشرعية في الإقليم الكبير حينئذٍ هو رئيسه الروحي، وموضع فتواه وهدايته وإليه المرجع في شؤون الدنيا والدين، وداره مُنتدى العلماء والأدباء والباحثين.

وأُسرة الرافعي تضرب بجذورها البعيدة إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، ولأعضائها افتخار معتزّ بهذه النسبة الفاروقية، سواء في الشام أو مصر، وقد بلغت من المنزلة الرفيعة أدباً وعلماً ما أشار إلى بعضه أحمد شوقي حين قال في تكريم شاعر طرابلس الشام (عبد الحميد الرافعي)، وابن عمّ مصطفى صادق، وأمين الرافعي، وعبد الرحمن أخيه:

أعــرني النجم أو هبني يَـرَاعــاً ... يــزيــد الـرافـعيـين ارتـفــاعــاً
إذا أســد الشــرى شبعت فعفـت ... رأيت شبــابهم عـفــوا جيــاعــاً
هُمُـو زادوا القضـاء جمــال وجـه ... وزادوا غــرّة الـفتيــا التمــاعــاً

وكان والد مصطفى يهيّئه لحياة عملية مُثمِرة. فألحقه بالمدارس الابتدائية حتى نال شهادتها، وعزم على أن يمتدّ به إلى الدراسة الثانوية، ولكن الحُمّى أصابته ولم ترحل عنه إلّا بعاهة أصمّت أُذُنه، فوقفت حجر عثرة في طريق مستقبله التعليمي، ومن هنا عكف الطالب الناشىء على مكتبة أبيه يقرأ منها ما يقرأ، مهتدياً بفِطرته الذاتية إلى ما يُرضيه، وكانت مكتبة القاضي الكبير لا تخرج عن محيط الدين والأدب والتاريخ الإسلامي، فأتاحت للناشىء المتطلّع أن يدرس كل ما يقع في يده دراسة الدؤوب المُثابر، وصادفت هذه الدراسة منه نفساً متطلّعةً، وقلباً شاعراً، وعقلاً نفّاذاً، فعادت عليه بما يعود النمير العذب على الأرض الطيبة بعد أن وضع فيها البذر الجيد.

وقد آثر في مطلع حياته أن يكون شاعراً يلتحق بالكوكبة المجلية من تلاميذ البارودي، أمثال شوقي، وحافظ، ومحرم، والكاشف، والكاظمي، فنظم الشعر الجيد، وأصدر في الثالثة والعشرين ديوانه الأول، فكان حديث الأندية، وقد أفردت له جريدة المؤيّد صفحتها الأولى لتنشر مقدمته الأدبية، ذات الطابع الجزل الآسر، ففاجأت القرّاء بباحث كاتب نقّاد، حتى إن الشيخ إبراهيم اليازجي قد هاله أن يأتي ناشىء بهذا البيان، وعكف على مراجعة الكتب الأدبية ليهتدي إلى أصولها، حتى إذا استيأس أفرد مقالاً مُقرِظاً للمقدمة والديوان في صدر (الضياء).

وشِعر الرافعي حينئذٍ يُنبىء عن موهبته، فقارئه لا ينزل به عن مستوى أعلام الشعر في عصره، ومثل هذه الشاعرية الدّافقة لا يمكن أن تستتر في نفس صاحبها الجائشة، وأخالها بعد صدور ثلاثة أجزاء من الديوان، آثرت الشعر المنثور لتجد الأفق الطليق الممتد على نحو لا تعوقه القوافي والأوزان، فجاء أكثر ما كتبه الرافعي في حديث القمر، وأوراق الورد، والسّحاب الأحمر، ورسائل الأحزان، شِعراً عاطفياً تنقصه القافية والوزن، بل إن كثيراً مما جاء في أجزاء وحي القلم يمثّل الرافعي الشاعر، أكثر مما يمثّل الرافعي الكاتب، فأنت تقرأ خطرات الكاتب المؤمن، فتجد نمطاً من البيان الديني لم يعهد في العربية من قبل، إذ كان أكثر مَن يتعرّضون للمعاني الإسلامية ينحون منحى العلماء والمؤرّخين لا مَنحى المُلهَمين من الشعراء!.

إن الرافعي يقف أمام الحادثة الصغيرة لتنبثق أمامه ينابيع ثَرّة تجيش بالموج الزاخر، وله براعة في اختيار ما يمتع، ويروق ويلذّ، فهو إذا تعرّض مثلاً لحكاية فتح العرب لمصر، جعل عنوانها المختار (اليمامتان) وأخذ يستلهم هذين الطائرين أنبل ما ينتظر من أطهر الخواطر، وأرقّ الأحاسيس، وروح الشاعر هي التي وجّهته هذه الوجهة البارعة، إذ كان موقف عمرو بن العاص من يمامة الفسطاط حين انتظرها بعض الأمد، فلم يزعج أفراخها الصغار، مما يصلح قصة شاعرة، لها من القصة براعة التسلسل، وعذوبة الحوار، وجُودة التحليل، ومن الشعر فيض الإلهام، وقوّة الطيران، ونغم الموسيقى الخالب، وروعة التصوير الجاذب! وكأن الشعر بمعناه الحقيقي قد أبى إلّا أن يفرض نفسه وحده في ختام القصة، فشاء الرافعي المُبدِع أن يختمها بهذا السحر الوثّاب، حين قال بعد أن صوّر بطلتي القصة (مارية وأرمانوسة) ثم قال على لسان مارية:

«على فسطاط الأمير يمامة جائمة، لو سُئِلت عن هذا البيض لقالت: هذا كنزي.

هي كأهنأ امرأة ملكت ملكها من الحياة، ولم تفتقر، فهل أكلف الوجود شيئاً كثيراً إذا كلفته رجلاً واحداً أحبّه!؟.

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها! الشمس والقمر والنجوم في عينها أصغر من هذا البيض، هي كأرقّ امرأةٍ عرفت الرقّة مرتين: في الحبّ والولادة، فهل أكلف الوجود شيئاً كثيراً إذا أردت أن أكون كهذه اليمامة؟.

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها، تقول اليمامة: إن الوجود يحبّ أن يرى بلونين في عيني الأُنثى، مرة حبيباً كبيراً في رَجُلِها، ومرةً حبيباً صغيراً في أولادها، كل شيء خاضع لقانونه، والأُنثى لا تريد أن تخضع إلاّ لقانونها!.

أيّتها اليمامة: لم تعرفي الأمير، وترك لك فسطاطه، هكذا الحظّ، عدل مضاعف في ناحية، وظلم مضاعف في ناحية أخرى.

احمدي الله ـ أيّتها اليمامة ـ أن ليس عندكم لغات وأديان، عندكم الحبّ والطبيعة والحياة.

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها، يمامة سعيدة ستكون في التاريخ كهدهد سليمان، نُسِب الهدهد إلى سليمان، وستُنسَب اليمامة إلى عمرو! واهاً لك يا عمرو، ما ضرّ لو عرفت اليمامة الأخرى؟».

وقد يظن أحد أن جوّ القصة التاريخية هو الذي نفح الرافعي بهذه الخواطر الحارّة، والحقيقة أن الكاتب الموهوب رائع في كل ما يكتب تاريخاً أو أخلاقاً أو رسالةً أو قصيدةً! حتى العبادات التي تعوّد الأدباء أن يبعدوا عن استلهامها نجد الرافعي قد كتب فيها أبدع ما يكتب أديب فنّان، فما تحدّث أحد عن مزايا الصّوم والصّلاة والحج والزكاة بأحسن مما تحدّث الرافعي رضي الله عنه في القديم، والحديث، بل إن صوت المؤذِّن الصّادح بقوله: (الله أكبر) قد ألهم الكاتب المؤمن ما لا تظنه يخطر على قلب بشر، فهو يقول إن الصوت الصارخ بحقيقة السماء رهيب، يقع على الآثم المُذنِب كأنما تفرغ السماء منه ملء سحابة على الرجس فيطهر.

ويمضي في أمثال هذه المعاني الطاهرة يسطّر صفحات تزدهر بالنور، وتنفح بالورد، وتُشرِق بالأمل حتى يصل إلى الختام، فتهتف به شاعريته كي يحلّق في أجوائها الطليقة، ليضع نشيد الأذان من قافية الإيمان، فيكون مما استتمّ له هذا الجمال الساحر، يلوح في مثل قوله من فقرات النشيد:

الله أكبر، بين ساعات وساعات من اليوم، ترسل الحياة في هذه الكلمة نداءها يهتف: أيّها المؤمن إن كنت أصبت في الساعات التي مضت، فاجتهد للساعات التي تتلو، وإن كنت أخطأت، فكفّر وامحُ ساعة بساعة، فالزمن يمحو الزمن، والعمل يغيّر العمل، ودقيقة باقية في العمر أمل كبير في رحمة الله.

بين ساعات وساعات يتناول المرء ميزان نفسه حين يسمع الله أكبر، ليعرف الصحّة والمرض في نيّته، كما يضع الطبيب لمريضه بين ساعات وساعات ميزان الحرارة.

اليوم الواحد في طبيعة هذه الأرض عمر طويل للشرّ، تكاد كل دقيقة بشرّها تكون يوماً مختوماً بليل أسود، فيجب أن تقسم الإنسانية يومها بعدد قارّات الدّنيا الخمس، لأن يوم الأرض صورة من الأرض، وعند كل قسم من الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، تصيح الإنسانية مُنَبِّهة نفسها: الله أكبر، الله أكبر.

بين الوقت والوقت من النهار والليل تدوّي كلمة الروح: الله أكبر، ويجيبها الناس: الله أكبر، ليعتاد الجماهير كيف يُقادون للخير بسهولة، وكيف يحقّقون في الإنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد، فتكون الاستجابة إلى كل نداء اجتماعي مغروسة في طبيعتهم بغير استكراه.

فلا تضطربوا، هذا هو النظام، ولا تنحرفوا، هذا هو المنهج. لن يكبر عليكم شيء ما دامت كلمتكم الله أكبر[1].

هذا نمط من الشعر المنثور يلهمه كاتب البيان الديني فيكون إماماً في مدرسة جديدة لا تزال تنتظر إلى اليوم خِيرَة التلاميذ وصفوة الطلاب.

(١) مجلة الرسالة، السنة الثالثة، العدد (٧٩)، ٢ شوّال، سنة ١٣٥٣ هـ.

- ٣ -

ولكي نحدّد مكانة الرافعي بين أئمة النثر البياني المُعاصِر نذكر أن الكتابة الأدبية في العصر الحديث قد تنوّعت إلى منزعين واضحين: منزع الترسّل، ومنزع السّجع، وزعيم الوجهة الأولى محمد عبده، ومن تلاميذه: المنفلوطي، والرافعي، والبشري، والزيّات، على اختلاف أقدارهم وطاقاتهم الفنية، وزعيم الوجهة الثانية: عبد الله فكري، ومن تلاميذه: حفني ناصف، ومحمد المويلحي، وتوفيق البكري، على اختلاف طاقاتهم أيضاً، وقد تمّ الغلب لمدرسة محمد عبده، لأن ضروريات الحياة الأدبية، وانفساح ميادين الكتابة، وظهور الصُّحُف اليومية حافِلة بالجديد من المقالات المُعالِجة لشؤون الأمس واليوم، بل لشؤون الساعة والدقيقة، كلّ أولئك لم يفسح الوقت لتؤدة ذوي الأسجاع، بل فرض الترسّل فرضاً على الكاتبين.

كان المنفلوطي والرافعي والبشري والزيّات إذن من مدرسة واحدة، تتّجه وجهة البيان المُشرِق، وقد مضى كلّ واحد من تلاميذ هذه المدرسة إلى حيث يؤهّله استعداده ومنحاه، فالمنفلوطي يُؤثِر السهولة والانسياب، لذلك نجد بيانه عذباً سهلاً ينحدر انحدار الماء في مجراه دون كدرة أو غثاء.

أما عبد العزيز البشري فقد برع في التصوير الظاهر لمعالِم الجسد المرئي، والوصف الباطن لخوافي النفس المستكِنّة مع نكتة ظاهرة، وخفّة روح لا يضائلان من رصانة الأسلوب وقوّة أمره.

وقد أُولِعَ أحمد حسن الزيّات بالتنسيق اللفظي، والتصوير الوجداني، دون أن يغفل جانب الفكر الهادىء الذي يعرض الميسور دون المستتر، فجاء بيانه آية في حلاوة نسقه، وصفاء مورده، وجُودة تقسيمه، وصحّة ازدواجه.

فإذا تركنا هؤلاء الثلاثة إلى الرافعي رحمه الله فإننا نجده أعمقهم فكرةً، وأبعدهم غوصاً، وأنآهم منالاً، حيث تتوالى معانيه في براعة ومقدرة، وقد أُوتِيَ تحليلاً فلسفياً يكشف الغوامض، وتعليلاً منطقياً يؤيّد له الظواهر، وخيالاً شعرياً

يبعث البهاء والجلال والروعة فيما يكتب، وإذا دقّ حيناً وغمض فلأنه نسيج وحده وفريد نوعه.

وقد فتح كتاب البيان الديني في سجلّ الأدب المعاصر، ليقول لمَن يترصّدون الغرائز الهابطة، ويتعمّدون النزوات الساقطة: ليس البيان آهة مخدع وعهارة ساقط، ووقاحة مُبتذلة، وقضاء حاجة دنيئة، لأن بواعث الغرائز المُسِفّة كائنة لدى الحيوان قبل الإنسان، بل ربما أدّاها الحيوان ببراعة أكثر من براعة الإنسان، فهي أولى بالتستّر والاحتجاب، إنما البيان سموّ بالعواطف، وارتقاء بالنوازع، وارتفاع بالأحاسيس لأن البياني ملائكي أفقه السماء وليس شيطانياً وحله في الأرض فإذا ترك الذروة إلى الحضيض فهو إثم مُفتَرى وذنب مفضوح.

هذا الاعتقاد الشريف في سموّ البيان وطهارة رسالته، دفع مصطفى صادق الرافعي إلى حمل راية الجهاد ضدّ أعداء العروبة وخصوم الإسلام، ومقالاته النقدية في أُمّهات الجرائد اليومية والمجلّات الدورية، تدلّ على زعامته المؤمنة في هذا المجال، وبها صار مدرة الإسلام وكاتب العرب، ولعلّ كتابه الذائع (تحت راية القرآن) قد جمع ما يدلّ على اتجاهه الأدبي روحاً وتفكيراً وحبّاً وبغضاً، ومُوالاة ومُعاداة، وجدّاً وسخريةً، ورمزاً وتصريحاً، وجهراً وتلميحاً، وكان هذا الكتاب القيّم ضرورة من ضرورات الدفاع المؤمن لهجمات الإلحاد المادّي، والترفّع الغربي، وإعادة لمقدّسات العروبة، في أدبها النابض وثقافتها المتشعّبة، وهداها المنير، وإذا كان اصطلاح القديم والجديد كان الشِّعار المتردّد حينئذٍ بين الرافعي وخصومه، فإن الكاتب الكبير قد أعلن رأيه في هذه القضية الحسّاسة حين قال:

«إن أرادوا بالمذهب الجديد العلم والتحقيق، وتمحيص الرأي والإبداع في المعنى، على أن تبقى اللغة العربية قائمة على أُصولها، وعلى أن يكون التفنّن طرائق لا مذاهب يُراد بها إثبات ومحو، فإننا لا ندفع شيئاً من هذا، ولا ننازع فيه بل هو رأينا ورأي الحياة، وقانون الطبيعة، ولكننا مع هذا نزيد عليه أن الأصل في

ذلـك كله هو سـلامة اللغـة وسلامـة القوميـة، فلا نـنظر في آراء الأمم إلاّ على أننا شرقيّون، ولا ننقـل من لغات الأفـرنج إلاّ على أننـا أهل لغـة لها خصـائصها، فـلا تصـرفنا مـدنيتهم عن أنفسنا، ولا نـأتي بسيوفهم لـرِقـابنـا، بـل نُؤْثِـر الفضيلة على الرأي، ونرغب في المصلحة الجافية على المفسدة اللينة.

وإن أرادوا بالمذهب الجديد أن يكتب الكاتب بالعـربية منصـرفاً إلى المعنى والغرض تاركاً اللغة وشأنها، متعسّفـاً فيها، آخـذاً ما يتّفق كمـا يتّفق، معتبراً ذلـك اعتبار مَن يرى أن مخّه بلا غلاف من عظمه وأن أصابع قدميه كأهـداب عينيه، وأن اللغة أداة، ولا بأس بالأداة ما اتّفق منها، ولا بأس أن يمزع الجراح مـزعاً من جلد العليل بأسنـانه، أو بـأظافـره، أو بنصل الفـأس ما دامت معقّمـة، إن أرادوا بهذا أو بأشباهه ما يسمّونه بالمذهب الأدبي الجديد، قلنا: لا ثم لا ثم ثلاث لاءات»[1].

ويواصل الرافعي حربـه القاهـرة على أعداء البيـان الجزل ومَن يـزعم أن لغة القرآن الكريم، والجملة القرآنية بالذات، تنأى بقارئها عن أسلوب العصر، فيفسح المجال الرائـع لبراهينـه السّاطعـة، كي يدحض بـاطل المُغـرِضين، حين يقول في صراحة:

«إن هذه العربيـة بُنِيَت على أصل سحـري يجعل شبـابها خـالداً عليهـا، فلا تهرم ولا تموت، لأنهـا أُعِدّت من الأزل فلكـاً للنيرين الأرضيين العـظيمين: كتاب الله، وسُنّة رسول الله ﷺ، ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء كأنهـا آخذة السّحر لا يملك معها البليغ أن يأخذ وأن يدع، وكيـف تريد ممّن عجـز عن الفصيح أن يثني عليه، وهو لو أثنى عليه لطُولِبَ به، ولو طُولِبَ به لبَانَ عجزه وقُصوره، ولو ظهـر منه النـاس على هذا العجـز لما عـدّوه في شيء ولذهب عنـدهم قليل مـا لا يحسنه بالكثير الذي يحسن»[2].

وقـد اشتهر الـرافعي بمناوأتـه للدكتور طٰـه حسين، وللأستـاذ عباس محمـود العقّاد، أما معركته مع الدكتور طٰه حسين، فقد كان فيها صاحب حقّ صريح، لأنـه

(١) تحت راية القرآن، ص ١٥، ط ٤.
(٢) تحت راية القرآن، ص ٣٠، ط ٤.

يدافع عن حقائق مُشتَهِرة قام الدليل على ثباتها، وجاء الدكتور ليُوهنها مستنداً إلى قراءات في كتب التبشير والاستشراق المُغرِض، ولا يُؤخَذ على الرافعي إلّا قسوة التعبير، فلو أنه عمد إلى الحقائق الصريحة دون إيغال في التجريح، لبلغ من النجاح أكثر مما بلغ، ولعلّ مَسلَك الدكتور طه المتعالي المتشامخ دون حق كان السبب في عناد الرافعي، وركوبه الصّعب في مجال التجريح.

أما معركته مع الأستاذ العقّاد، فقد كنّا نؤثر ألّا تقع، لأن الرافعي كالعقّاد، كِلاهما مُخلِص غيور، وكِلاهما لا شُبهَة في دينه ولا أدبه ولا عروبته، ولخير لأبناء الحق أن يجتمعوا في صفّ واحد، ولكن تنافس النظراء حالَ دون الالتقاء، وكان في الرافعي تقحّم واجتراء وفي العقّاد صلابة واعتداد، ولعلّه بثقافته المعاصرة أقوى منطقاً وأبلغ سداداً من صاحبه! وإن كان للرافعي عراقته الآسرة في قوّة البيان وروعة التصوير! رحم الله العملاقين.

ولي اقتراح أدبي لا أدري ما موقعه لدى النقّاد! هذا الاقتراح هو أن نعمد إلى مقالات الرافعي في وحي القلم، وأوراق الورد، والسّحاب الأحمر، ورسائل الأحزان، فنختار من كل مقال ما يسهل تناوله على الناشئة، ونبدؤه بتقديم يُوضِح مَراميه، ونختمه بأسئلة تُشير إلى أهم محتوياته، وبذلك نيسّر أدب الرافعي على الناشئة، فينتفعون به سموّاً وتوجيهاً وإيماناً، حتى إذا بلغوا مبلغ المتمكّنين رجعوا إليه في كتبه الأساسية، دون حاجة إلى التيسير، وكذلك نفعل في كتاب (إعجاز القرآن) لأن حقائقه القوية تغلّف كثيراً في صياغة متأبّية إلّا على مَن عرف معادن البيان، وجرى في الأدب على عرق يضرب بجذوره إلى عهود الفصاحة الزاهرة!.

وهنا يكون تراث الرافعي مُتداول الصفحات، مُشتَهِر الخواطر بين جمهرة القرّاء، وهنا نهتك حجاب الصمت. . . الذي غلّف إنتاج الأديب النابغة في هذه الأيام، فذكر الناس تلاميذه وتلاميذ تلاميذه، وتركوه في معقله الأشمّ، لا يرقى إليه غير النّسور القوية، ذوات الأجنحة الفتيّة! وما أقلّها في عالم البغاث.

الإمام الأكبر محمود شلتوت
الفقيه المُصلِح المجدّد

كان الإمام محمود شلتوت فقيهاً كبيراً بين فقهاء كبار من أساتذته ولداته، ولكنه كان أوسعهم صدىً، وأبعدهم تأثيراً، وأشدّهم نفوذاً، حيث كانت تنتشر آراؤه في كل بيئة، وتتداول في كل قطر، وتُناقَش في كل وقت، وقد ساءلت نفسي كثيراً لماذا كان لشلتوت هذا الدويّ المُرِن المصلصل، وقد يأتي غيره بما يأتي به فلا يطنّ صداه حتى ينقطع، ثم نظرت فوجدت أن الرجل الكبير كان بلاغياً يُراعي مقتضى الحال زماناً ومكاناً وأُناساً، فهو يتحدّث في الإذاعة عن موضوع ما، فيصوغه صياغةً واضحةً سافرةً، يصل بها إلى قلب كل سامع، مهما كانت درجته متواضعة في الفهم.

ثم يتحدّث عن الموضوع نفسه في صحيفة يومية فيعلو بمستواه إلى درجة القارىء الذي يمضي بخطواته الأولى في طريق الثقافة، فإذا انتقل الحديث إلى مجلة شهرية وجدت الموضوع نفسه قد زاد عمقاً واتّساعاً على وضوح معانيه، وسُفور وجهه، أما إذا انتقل به إلى ميدان التخصّص فألقاه على طلبة الدراسات العليا للتشريع أو حاضر به في مجمع علمي، فإنك ترى العمق العميق والفهم الدقيق، والاستشفاف النافذ، والرأي الجديد! هكذا كان الرجل بين أبناء جيله.

وهكذا امتدّ تأثيره إلى كل نفس، بل هكذا شغلت فتواه الجريئة عقولاً وألسنةً وأقلاماً، والرجل جريء حقاً، ولكن جراءته الفقهية ليست جراءة الدّعيّ

المتطلّع للمخالفة، فيسوق الفتوى الجريئة ليُقال مَن ذا قالها، ولكنها جراءة البحّاثة الذي ألمّ بمعضلات الجيل، ووقف على ثنية عالية من ثنايا الزمن السائر، ليراقب موج الأجيال قرناً وراء قرن، فيعلم أن لكل زمان عرفه المتعاهد، ومصالحه المرعيّة، وذرائعه التي يجب أن تسدّ، وإذ ذاك يصدر فتواه وقد عاش معها مصبحاً ممسياً، وراجعها رائحاً وغادياً، حتى إذا تمكّنت من نفسه، ونزعت كل خالجة من خوالج شكّه، نطق بها صريحةً رنّانة، فأثارت أقلاماً، وحرّكت أفكاراً، وشغلت صُحُفاً، وملأت أنديةً!!.

أي والله، وقد كان الرجل كأئمة العلم الراسخين واسع الصدر، فسيح العطن، رحب الأناة، يقابل مُعارِضه بابتسام مُشجّع، إذا أنِسَ منه ميلاً للحق، وبحثاً عن الدليل، وركوناً إلى المنطق، ولكن ضيقه يغلبه على قوم يعارضون لوجه المعارضة، ويتلمسون له الشُّبُهات، ويبحثون عن النيّات المستترة دون دراية وفراسة، فهم يؤوّلون كل منزع بما يُلقي الريب، ويفسّرون كل اتجاه بما يبعث الفتنة، وهؤلاء لا يتحمّلهم حليم مهما اتّكأ على صبره، وماذا عسى أن تبلغ أعصاب الإنسان، حين ترى الدسائس تُحاك، والغشّ يستظهر، واصطناع الغيرة على الحق من ذوي الباطل، ما عسى أن تبلغ أعصاب الإنسان من الصبر، ومَن يدّعون وراثة الأنبياء يجادلون لوجه المجادلة ويتعصّبون لأنفسهم الجامدة، دون أن يتعصّبوا لما عرفوا من أدلة، وما لقّنوا من براهين، وما دعوا إليه من القول الحكيم، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

إن شئت أن تجد من مسلك الشيخ مثالين مختلفين يكونان تطبيقاً لما نقول، فانظر إلى موقفه من الأستاذ العلّامة محمد الخضر حسين، ومن شيخ الإسلام التركي مصطفى صبري رحمهما الله! فقد عارض محمد الخضر حسين شلتوتاً في اتجاهات كثيرة، أظهرها موقفه من موضوع: «شخصية الرسول»، كما عارض الشيخ مصطفى شلتوتاً في أكثر من فتوى ولكن الشيخ شلتوت يعرف للخضر مقام المخلص المناضل عمّا يعتقد، فيحترم رأيه ويشيد به، ويعدّه في طليعة مَن رُزقوا الفقه علماً والثبات خلقاً.

ويرى في كلام شيخ الإسلام التركي لجاجاً ورمياً بالكفر، واتّهاماً بـالخيانـة، دون أن يقتصر على مناقشة الرأي، فيعلم أن الرجل جاوز حدّه معه، كما جاوزه مع الإمـام محمد عبـده، والشيخ محمـد مصطفى المـراغي، والأستـاذ محمـد فـريـد وجدي، إذ رمى هؤلاء جميعاً بفساد العقيدة، فـلا يستطيـع شلتوت صبـراً على مَن يترك أصول المناظرة وأدب البحث إلى الرمي بالزّيغ والضلال، ويشبهها ناراً حاميةً، والرجل معذور لأنه ينتصر بعد ظلمه، فما عليه من سبيل، إنما السبيل على الـذين يظلمون الناس.

التحق الطالب محمود شلتـوت بمعهد الإسكنـدرية الـديني بعد وفـاة الأستاذ الإمام بعام واحد، وقد انتظمت الدراسة في معهد الثغر على نحوٍ جديد يقـوم على تعاليم محمد عبده، وقد اختير له من فضـلاء الأساتـذة مَن يقدّرون حـاجة المعهـد الجديد إلى الرقيّ العلمي، والأخذ بأساليب العصـر قدر المستـطاع، وكان الشيـخ الكبير محمد شـاكر رحمـه الله شيخ المعهـد، وهو لسـان بارز من ألسنـة الإصلاح الديني، فسهر على رعاية العلم بالمعهد، وأيقظ في الطلاب غوافي الأمل، إذ فتح عيونهم على ما يجب أن يكون عليه أزهـري المستقبل من حيث اليقـظة الفكريـة، والإسهـام الحقيقي في هدايـة قـومـه، بـاذلاً جهـده في ضـرورة الـدراسـة الجـادّة والاستيعاب الشامل، لأن العلم الجادّ طريق التفوّق.

وهذا ما وعاه الطالب محمود شلتوت، إذ حرص على التفوّق العلمي حـرصاً كلّفه الكثير من الصبـر والجهاد، حيث كـان ينال الأوّليّـة كل عـام، فيُجَلّى بين قوم نُبَهـاء، والأوّليّة في هـذا العصر كـانت موضـع فخر ونبـاهة، إذ بهـا وحدهـا يصيـر الـطالب مفـرداً بين لـذّاتـه، وليس سبيلهـا بهيّن ممهّـد، ولكن اجتيـازه في مقـدور الصفوة من النابهين، هذا النبوغ المتكرّر كل عام قد أعطى الطالب ثقـة في نفسه، وتقـديراً لـدى شيخ معهـده وأساتـذة المواد، فجعلوا يشيـدون بـه، ومنهم مَن كـان يدعوه لقراءة الدرس ليـلاً في منزلـه قبل أن يلقى على الـطلاب في صبيحة الغـد، وتلك شهادة بكفاءة الطالب الممتاز حقّاً.

وما زال محمود يواصل السّبق حتى انتهى من الدراسة قبل شبوب ثورة سعد زغلول بعام واحد، فعُيِّن مُدَرِّساً بالمعهد غبّ التخرّج دون أن ينازعه مُنازع، ولم يكن التعيين إذ ذاك سهلاً هيّناً كعهدنا به اليوم، لأن التدريس الرسمي بالأزهر كان موضع اتّئاد فاحص، ونظر مديد، ولكن سطوع شلتوت قد رشّحه لإجماع أساتذته على اختياره، فعهد إليه بتدريس الفقه للفرقة الرابعة لا الأولى.

ولم يكن من المُنتَظَر أن يعكف المُدرّس الناشىء على الدرس وحده، فإن آماله الواثبة وحميته الوطنية دفعتا به إلى المشاركة في الثورة المصرية بالثغر، وكانت الإسكندرية يومئذٍ موطن اعتقال القاهريين، كما كانت القاهرة موطن اعتقال أبناء الأقاليم، فأخذ الشيخ الشاب يجمع التبرّعات لأُسَر المعتقلين، ويتحسّس أنباءهم وراء القضبان، وكان اختياره لهذا العمل البارّ استجابة لنفس خيِّرة، وجدت الجهاد الوطني يتّسع لأكثر من ميدان، إذ لا يقتصر على المظاهرات السياسية، والخطب النارية، ولكنه يمتد إلى إرواء النفوس، وإشباع الجسوم، وقد ظلّ حبّ الخير عالقاً بنفس الشيخ في كافّة أدوار حياته، وهو ما يجب أن يكون موضع الاحتذاء.

وكانت الفترة الحَرِجَة بعد الحرب العالمية الأولى قد دفعت المبهورين بالتقدّم الحضاري لأوروبا أن يشنّوا حرباً طاحنةً على الثقافة الإسلامية، ويرونها من أسباب التقهقر السياسي، فملؤوا الجرائد والمجلاّت ادّعاءً وتخرّصاً، ونهض في وجوههم مَن يدفعون هذا الزّيف من علماء الأزهر وغيرهم، فكانت أقلام الأساتذة محمد شاكر، وعبد الباقي سرور نعيم، وعلي سرور الزنكلوني، ويوسف الدجوي، من كبار العلماء، ذات صدىً قويّ في نفس العالِم الشاب، فرأى أن يكون للصحافة من قلمه نصيب مماثل، أخذ يُدلي بدلوه في مسائل الدين، وصِلَته بالاجتماع والتقدّم، ثم فتح الله على الأستاذ محمد مصطفى المراغي فكتب مذكّرته التفصيلية في شؤون الأُسرة، وضمّنها من الآراء الفقهية ما لم يقف عند حدّ المذاهب الأربعة كما هو طريق العلماء، بل تعدّى نظره هذا الأُفق إلى شتّى الآراء في المذاهب المختلفة لكبار الفقهاء في الإسلام.

وقد عكف الأستاذ شلتوت على دراسة ما قاله المراغي، فأثّر في نفسه تأثيراً نقله نقلةً فسيحةً من سرداب ضيق إلى ميدان واسع، ومن حينها والرجل يكتب في الفقه الإسلامي بروح ممتدّة، ونظر بعيد، فلم يتقيّد بالفقه الحنفي الذي درسه في الأزهر، واتخذه مذهباً له في الدراسة، ولم يقتصر على المذاهب الثلاثة الأخرى، بل جعل كل رأي إسلامي موضع النظر، نظر في فقه زيد بن علي، وجعفر الصادق، وابن حزم، وعكف بصفة خاصّة على آراء ابن تيمية، وتلميذه ابن القيّم.

وجالَ قطاف هذا الثمر في تكوينه الفقهي، فرأى فيه الناس عالِماً فقهياً من طراز متجدّد، ودفعته شجاعته الواثبة إلى أن يكون ـ على شبابه الباكر ـ صاحب رأي في كل ما يقال، وبذلك لفت أنظار أساتذته إلى موهبته، فاختير لتدريس مادة الأصول في القسم العالي بالأزهر، دون أن يمرّ على تخرّجه أكثر من عشرة أعوام! مع أن الدراسة في القسم العالي، (ودراسة الأصول بالذات) كانت وقفاً على مَن بلغوا النهايات من أعمارهم الدراسية، وكان شلتوت الشاب جديراً بما أُسنِدَ إليه، وكان من تلاميذه بالقسم العالي مَن انبهروا بعلمه الراسخ، وشجاعته الفكرية.

ومَن سجّل ذلك في إعجاب مثل: عبد الحليم محمود، ومحمود الشرقاوي! بل كان له مع الأخير موقف يدلّ على إفراط في السماحة، إذ كان الأستاذ الشرقاوي ممّن يضيق بالأساتذة في غير تحفّظ، وممّن يواجههم بالنقد الصائب تارة والمُخطىء تارات، وقد ناقش الشيخ شلتوتاً دون أن يرعى الصغير مكانة الكبير، وانتهى الأمر إلى شيخ القسم العالي الأستاذ عبد المجيد اللبّان، وكان صديقاً لوالد الشرقاوي، إذ هو زميله في الدراسة، فرأى أن يعفو شلتوت، وأن يُقبّل الطالب يد أستاذه كالمعتاد في الأزهر، بين التلاميذ والشيوخ، ولكن الطالب فاجأ الشيخ اللبّان بالامتناع، فقام شلتوت إلى رأسه مُقَبّلاً، وقال له: يعجبني اعتزازك برأيك، وصحبه إلى حلقة الدرس مُشَجّعاً عاطِفاً.

ثم ترأس الأزهر شيخه المجدّد محمد مصطفى المراغي، وبدأ عهده بدراسة النظم التعليمية في الأزهر، وبإعداد مذكّرته الشّهيرة عن إصلاح الأزهر، وما كاد

شلتوت يقرأها في الصحف حتى احتلّت منافذ إحساسه، وسيطرت على شِعاب تفكيره، وأخذ يكتب في السياسة والأهرام والمقطم داعياً إلى تنفيذها، وقد هزّه هزّة العجب أن يقول الإمام المراغي:

«يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسةً حرّةً خاليةً من التعصّب لمذهب، وأن تُدرَس قواعده مرتبطة بأُصولها من الأدلّة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المَساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسُّنّة، والمجمع عليها، والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها مُلائمة للعصور والأمكنة والعُرْف، وأمزِجَة الأمم المختلفة كما يفعل السّلَف من الفقهاء، ويجب أن تُدرّس الأديان ليُقابَل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود في الدين الإسلامي، لنُظهِر للناس يُسْرَه وقُدسه وامتيازه عن غيره من مواطن الاختلاف، ويجب أن يُدرّس تاريخ الأديان وفِرَقها، وأسباب التفرّق. وتاريخ الفِرَق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها»[1].

كان شلتوت ممّن أُشرِبَ حبّ التشريع الإسلامي فقهاً وأُصولاً، وممّن عكف على دراسته وتدريسه طالباً وأُستاذاً، فلفت المراغي ذِهنه إلى ضرورة التجديد الفقهي، كي تكون الشريعة الإسلامية قائمة بحاجات العصر، وعدّ نفسه منذ قرأ المذكّرة من جنود المراغي في موكب الإصلاح! وطبيعي أن يغضب كلّ الغضب لابتعاد المراغي عن الأزهر مُجبَراً غير مختار، وأن يزداد غضبه حين يرى الشيخ التالي يقف من آراء الشيخ التجديدية موقف المُعارِض، فلئن قامت الكليّات على وفق ما جاء بمذكّرة المراغي، فإن النظرة إلى الفقه الإسلامي لم تزل في حيّزها الضيق، وهذا ما دعا شلتوتاً إلى الكتابة عن ضرورة الإلزام بما جاء في المذكّرة، وإلى أن يقود حملة صادقة من ذوي ميوله، كي يدفع بالأزهر في كليّة الشريعة إلى نحوٍ آخر من التدريس، حتى ضاق به الأستاذ الأكبر محمد الأحمدي الظواهري فأصدر قراره بفصله، مع مَن اتّجهوا اتجاهه من العلماء.

---

(١) مجلة الرسالة، العدد (٤١٢)، ٢٦/٥/١٩٤١ م.

وهكذا حُورِبَ الشاب المجدّد في مصدر رزقه فلم يحزن، واندفع إلى المُحاماة الشرعية الحُرّة لتكفل لأُسرته لُقمة العيش، وكأن الله عزّ وجلّ قد هيّأ ذلك، ليدرس أحوال الأُسرة دراسةً ميدانيةً، فيرى مسائل الزواج والطلاق والميراث والنفقة على طبيعتها الحيّة بين المتخاصمين، وليُراجع ما كتبه الفقهاء مُراجعة مَن ينشد استقرار الأُسرة الإسلامية في ضوء التشريع الصحيح، ثم انقضت أزمة الباحث المجتهد، وعاد إلى مكانه مُدرِّساً بكليّة الشريعة، فاختار أن يدرس مادة جديدة لم تكن مقرّرة من قبل، هي مادة الفقه المقارن، وقد حصر اتجاهه في المذاهب الأربعة وحدها، ليمنع هبوب الاعتراض، من جهات قوية لا تكاد تسمح بالمقارنة بين مذهب وآخر، من المذاهب الأربعة إلّا بحَرَج وضيق، فكيف يكون صراخها لو وُجِدَت مذاهب أخرى تزحم مذاهب الشافعي ومالك وابن حنبل وأبي حنيفة!.

لقد كان اتجاه شلتوت إلى الدراسة المقارنة نقطة تحوّل عملي أمام الطلاب والمُدَرِّسين، فعرفوا ـ تطبيقاً ـ أن آراء الأئمة يؤخذ منها ويرد، وأن طالب الأزهر المستنير قد ورث هؤلاء الأئمة جميعاً، ولم يتحجّر أُفقه في زاوية خاصّة، بل في كتاب خاصّ، هو موضع هواه، وسرّ نجواه، وكان الأستاذ محمد علي السايس شريك الأستاذ في العناية بالفقه المقارن تأليفاً وتدريساً، فأصدرا كتاباً قيّماً لا أدري لماذا لا يُطبَع الآن مرة جديدة، ولماذا لا يدرسه طَلَبَة كلية الشريعة والقانون، وهو الأمثل في بابه طرافة استنتاج، وأصالة ترجيح، وعدالة ميزان، ولم يغفل الشيخ قضية فقهية من قضايا عصره دون أن يُصدِر رأيه فيها، فكان مصدر الفتوى في كثيرٍ من شؤون الفقه ومسائله، يُزاحم أساتذته الكبار مُزاحمةً ناهضةً مُشرَئِبّة إلى الاجتهاد، حتى زامَلَهم مُزاملة الكفء للكفء! وصار ينتظر رأيه الفقهي فيما يختلف فيه المتجادلون، فإذا تصدّر للحكم، فالرأي المؤيّد بالدليل، والإفتاء المستند إلى الترجيح والتصحيح.

وكان من حظّ الأزهر أن يبعث الأستاذ محمود شلتوت ليمثّله في مؤتمر لاهاي العالمي سنة ١٩٣٧، وقد انعقد بهولندا لدراسة القانون الدولي المقارن،

حيث جمع أساطين الفقهاء والأصوليين في الشرق والغرب، ليوضحوا ما يحبّذونه من الأفكار القانونية، فألقى الشيخ بحثاً ضافياً تحت عنوان (المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية) مُوضِحاً معنى المسؤولية في الإسلام، وشارِحاً نصوص الفقهاء في الضمان والتعويض، ومستشهِداً بنصوص القرآن والسُّنّة في تحديد المسؤولية، وقد امتدّ بها الإسلام بحيث تشمل مسؤولية الطبيب عن مريضه، ومسؤولية مَن يقصر عن إغاثة الملهوف، ومسؤولية الحيوان حين يُتلِف زرعاً مملوكاً لسوى صاحبه، ومسؤولية المسلم أمام إتلاف مُحترزات غيره التي يحرّمها الإسلام كالخمر ولحم الخنزير، موضحاً المراد من قول الفقهاء: حقوق الله، وحقوق العباد.

ولم يغفل الحديث عن المسؤولية الناشئة عن مخالفة العقد، والاستيلاء القهري مما عُرِفَ في الفقه باسم الغصب، وتحقّق السببية بين الفعل والضرر، مُقسِّماً التسبّب إلى إيجابي وسلبي، والتسبّب الإيجابي واضح معروف، أما التسبّب السلبي فقد فسّر الشيخ غامضه بأمثلة ونصوص ذات إقناع.

وامتدّ البحث إلى المسؤولية الجنائية، فتحدّث عن الحدود في الإسلام حديثاً جمع من نصوص الفقهاء ما كان غائباً عن الكثيرين حتى من ذوي التخصّص أنفسهم، وختم البحث بقوله: (إن الشريعة الإسلامية لم تقيّد الفقهاء بعد أصولها الكليّة بخطّة معينة في البحث، وإنما فوّضت لهم الرأي والاعتماد على ما يقدرون من مصالح وحقوق وواجبات في العصور المختلفة والبلدان المتباينة)[1].

وكانت نتيجة البحث سارّة، إذ قرّر المؤتمر بإجماع أعضائه اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع الحديث، مع الاعتراف بصلاحيتها للتطوّر، كما قرّر المؤتمر أن تكون اللغة العربية ـ لغة الشريعة الإسلامية ـ إحدى لغات المؤتمر في دوراته المقبلة، وأن يدعى إليه أكبر عدد من علماء الإسلام على اختلاف المذاهب والأقاليم، وكان الأستاذ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر السابق

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، ط ٢، ص ٤٤٩.

زميلاً للأستاذ شلتوت في المؤتمر، وقد ألقى بحثاً آخر في موضوع مختلف، فأحرز فضلاً مُماثلاً، رحمهما الله.

عاد المراغي إلى الأزهر، وانفسحت آمال المُشرَئبين للإصلاح، حين رأوه يُوسِد إلى صاحبه، وكان الذين حُورِبوا في وظائفهم من زملاء شلتوت أشدّ الناس وثوقاً باطّراد مجرى الإصلاح على يد الإمام المراغي، فظلّوا يرتقبون خطوات التنفيذ السريعة، وكان الإمام المراغي قد أدرك أن الإصلاح مُحتاج لبعض المُصانعة كيلا ينقلب عليه الأمر ببعض المكايد، التي لا يغفل عنها المُغرِضون من أعداء التوثّب الأزهري، فرأى التؤدة والانتظار، ولكن ما ركن إليه من هذه التؤدة قد أغضب شيعته، فأخذوا ينادون بضرورة التجديد الفعلي في المقررات والمناهج والأساتذة، ويُعيدون نَشْر المذكّرة التي تقدّم بها الإمام المراغي في مشيخته الأولى.

وكان أكثرهم جرأة في ذلك مَن عُرِفوا بجماعة «الشيخ عبد المجيد سليم» وهم نفر من المتطلّعين إلى نهضة الأزهر، يتقدّمهم شلتوت، وينضمّ إليهم الأساتذة: محمد البهي، ومحمد المدني، وعبد العزيز عيسى، وذوو الأقلام المبيّنة التي اتخذت من مجلة الرسالة منبراً جريئاً لآرائها فدَعَت الكُتّاب من الأزهر وخارجه إلى المناداة بضرورة الإصلاح، وكان الإمام المراغي ـ على عكس ما توهّم بعض الناس ـ مغتبطاً بما ينادي به هؤلاء فهم غَرْسُ يده وثمرة دَوحته، بدليل أنه عمل جاهداً على أن يكون الأستاذ محمود شلتوت عضواً بجماعة كبار العلماء، وكان أصغر المتقدّمين سنّاً فاصطفاه وباركه ونشطت الجماعة بمَقدَم الشيخ، إذ أنه ابتدأ كفاحه بتقديم اقتراح جوهري، يبعث في هذه الجماعة فيضاً من الحركة الواعية ويحدّد لها طُرُقاً من العمل المُثمِر، وخلاصته ما يلي:

أن يكون لجماعة كبار العلماء مكتب علمي دائم، وأن يجعل لهذا المكتب مكان معين معروف، شأن كل هيئة رسمية من الهيئات التي تعمل لأغراض خاصّة.

أما مهمة هذا المكتب بعد إنشائه فهي ما يأتي:

أ ـ معرفة ما تهاجم به الأديان عامّة، والدين الإسلامي في عصرنا الحاضر، والردّ عليه ردّاً كافياً مُقنِعاً بأسلوب مُلائم لطريقة البحث الحديث.

ب ـ بحث ما يحصل فيه الاختلاف بين علماء العصر من جهة أنه بِدعة يجب تركها أو ليس كذلك، ووضع الأصول الكفيلة بتمييز ما هو بِدعَة مما ليس بِدعَة، والعمل على نشر ذلك ليرجع إليه الناس.

جـ - العمل على وضع مؤلَّف يحتوي على بيان ما في الكتب المتداولة من الإسرائيليات التي دُسَّت على التفسير، وأخذها الناس على أنها من معاني القرآن، والتي لا يدلّ على صحّتها نقل، ولا يؤيّدها عقل.

د ـ إصدار الفتاوي في الاستفتاءات التي تَرِد من المسلمين في جميع الأقطار، إلى مشيخة الجامع الأزهر.

هـ ـ بحث المعاملات التي جَدّت وتجدّ في العصر الحاضر من جهة حكم الشريعة فيها، حتى يظهر للناس سعَة صدر الشريعة وقدرتها على تلبية حاجات الناس في مختلف العصور.

و ـ تنظيم طرق الوعظ والإرشاد، والاتصال بالهيئات المُعَدّة لذلك، كوزارة الشؤون الاجتماعية، والجمعيات الإسلامية في مختلف الأقطار.

ز ـ التنقيب عن الكتب المفيدة في مختلف العلوم، والعمل على إحيائها وإخراجها إخراجاً علمياً متقناً.

حـ ـ الإشراف على مجلة الأزهر، والعمل على توجيهها في طريق تخدم به الحركة الفكرية الإسلامية. وتُبْرز به ثقافة الكليّات الثلاث.

كان اقتراح الأستاذ شلتوت ذا إزعاج لبعض الكبار، من أعضاء الجماعة فتحدّثوا بشأنه مع الأستاذ الأكبر المراغي متعجّبين أن يكون أصغر الأعضاء سِنّاً هو الذي يتولّى رسم الخطة لأساتذته، وكان في المراغي حلم وتؤدة فرد بالتي هي

أحسن وأوصى أن تُؤَلّف لجنة برئاسة العالِم الفقيه الحُجّة عبد المجيد سليم[1] مفتي الديار المصرية حينئذٍ لدراسة الاقتراح ، ووضع الضروري منها موضع التنفيذ ـ وكلها ضروري مُلزِم ـ ولكن اللجنة أُلِّفت ممّن يعارضون الاقتراح في أكثريتهم لا في جميعهم، فكانت عوامل التثبيط تكتنفها من كل مكان، حتى انتهى أمرها إلى الجمود الثقيل، وقد ظلّ الاقتراح عالقاً بنفس صاحبه يدعو له في كل مكان، إذ يعزّ عليه أن يكون للأزهر هيئة من أكبر علمائه، ثم لا تصنع شيئاً!! بل يعزّ عليه أن تكون الأكثرية من هؤلاء بعيدة عن التأثير العلمي في محيط الأزهر نفسه، بل المحيط العلمي العامّ في مصر، وفي العالم الإسلامي على امتداد ربوعه، وأن يكون في غير العلماء من رجال الأزهر مَن يعالج شؤون الثقافة الإسلامية على نحوٍ لا يستطيعه كثير من هؤلاء الكبار!.

ولو رجع الأستاذ شلتوت إلى أناة صابرة لأدرك مبلغ الحرج الذي أوقع فيه الإمام المراغي حين جعله يقارن بين العبء الثقيل، ومَن فرض عليهم حينئذٍ أن ينهضوا به فيجد القوى كليلة، والسّواعد هزيلة! ونحن ـ علم الله ـ نصوّر واقعاً، ولا نفتات على أحد، كما يسرّنا أن نقرّر أن الوضع في عهدنا الراهن قد تغيّر، وأن الكبار من العلماء قد تحمّلوا المسؤولية عن اقتدار.

مضى الشيخ شلتوت في دعوته الإصلاحية دون ترقّب، وقد اجتمع حوله خُلاصة من نابِهِي الطلاب في الكليّات الثلاث يشدّون أزره، وينشرون أفكاره، ثم فاجأ المسؤولين بمحاضرة صريحة ألقاها في كليّة الشريعة تحت عنوان: (السياسة العلمية التوجيهية للأزهر) أثنى فيها على المذكّرة الإصلاحية التي أشرنا إليها من قبل، وألمّ بخُلاصة جيدة لما قرّره بها الإمام المراغي من ضروب الإصلاح، وانتهى إلى أن أمداً طويلاً قد مرّ على الأستاذ الأكبر دون أن يأخذ بما يرى، فلم تزل كتب الأزهر هي الكتب المعقّدة التي تنحو في التأليف منحىً عسيراً لا يسهل على القارىء اجتيازه إلّا بشرح الألفاظ، وإرجاع الضمائر، وشغل الأفهام بصحيح

---

(١) لنا ترجمة وافية عن هذا الإمام الجليل في كتاب (علماء في وجه الطغيان).

العبارة، وكأنها هدف لذاتها دون ما تقصد إليه من معنىً ضاع في ضباب الصياغة، ولم نزل نشغل أنفسنا بالفروض الفقهية المستحيلة كما اشتغل بها فقهاء العصر المملوكي، ولم تزل الإسرائيليات ذائعة تملأ من كتب التفسير التي تدرس بالأزهر فراغاً كبيراً، ولم يزل الطلاب يمتحنون في المقروء فحسب، دون أن يتمّوا المنهج، وهم لا يقطعون من الزمن الدراسي في العام الطويل غير أربعة أشهر إن لم تقلّ! وإن ذلك كله يدلّ على أن الإصلاح المُدَوّن في مذكّرة الأستاذ الأكبر قد تجمّد ولم ينطلق.

والحقّ أن صاحب المحاضرة قد واجه المسؤولين مواجهة خطيرة بعد أن أذاعها وطبعها وبعث بها إلى الجرائد والصُّحُف، فنقلت خلاصتها، واضطر أنصار المراغي أن يهاجموها، وأن يقولوا إن خطوات الإصلاح تسير بنجاح، وانطلق أنصار الشيخ شلتوت يدفعون الردّ، وكان من غير هؤلاء وأولئك مَن أراد أن يصطاد في الماء العكر، فتظاهر بتأييد الشيخ شلتوت لا اقتناعاً بما قال، ولكن كيداً لشيخ الأزهر، ودبّت القطيعة بين ذوي الإصلاح من شيخ يترأّس ويملك الرأي ثم لا يُسرِع في التنفيذ، ومن ثائر كان بالأمس نصيراً ثم أضحى مُعارِضاً، وانتقل الإمام المراغي إلى جوار ربّه، وأعقبه سواه وسواه، والعلّة هي العلّة.

على أن الشيخ شلتوت قد شغل نفسه بنوع آخر من الجهاد العلمي، وهو التقريب بين المذاهب الإسلامية، حيث حضر إلى مصر أحد الكبار من علماء الشيعة ليقرّب بين مُفكّري المذهبين الأساسيين في الإسلام، وليقضي على أسباب الخلاف بين أصحاب العقيدة الواحدة، فتألّفت جماعة للتقريب برياسة وزير مُصلِح نابه هو محمد على علوبة باشا، وبتأييد الإمام المراغي، والإمام عبد المجيد سليم، والإمام مصطفى عبد الرازق، وكلهم من رؤساء التوجيه الإسلامي في الشرق، فدعت إلى نبذ الخلاف وتلافي الشِّقاق، وأكّدت أن القرآن الكريم والسُّنّة المطهّرة هما أساس الدين، فبهما تقرّرت قواعده وإليهما يرجع المسلمون في كل شأن من شؤون الحياة.

وما زال الأئمة من سابِقِي الفقهاء يَرِدون حوضهما في ذكاء ولقانة، وجودة استنباط، حتى ظهرت طبقة من المتعصبين كلّت هِمّتهم عن حمل ما نهض به السّلَف، فأوقفوا الاجتهاد، وضيّقوا دائرة الفقه الإسلامي إلى حيث لم تعد تتّسع لمعضلات الحياة، كما اتجهوا إلى علم الكلام فجعلوه مصدر تنابذ واضطغان، ولوّنوه بأفكار باعدت بينه وبين حقيقته القرآنية، وبه صار المسلمون شيعاً وأحزاباً، فتعدّدت الأمة الواحدة إلى فِرَق، وتعدّدت الفرقة إلى شعب، وكلهم متقاطعون متدابرون، ينظر بعضهم إلى بعض نظر أصحاب الأديان المختلفة، لا نظرة أصحاب الدين الواحد، حتى طفح الكيل، وتحتّم أن ينهض المُصلِحون برأب الصدع وإزالة الخلاف.

كانت مهمة الجماعة شاقّة، إذ وجدت المُعارضين ممّن يعزّ عليهم أن يشذّوا عمّا ألِفوه، وأن يُفسِحوا عقولهم إلى مدىً يستحوذ كتباً لم تُقرَأ، وأفكاراً لم تُعهَد بالنسبة إلى مَن في مثل مستوياتهم المحدودة، ولكن ذوي العزم ثابروا على الدعوة إلى التقريب المذهبي، حتى أصبح هدفاً يُرتجى، وكان من نصيب الشيخ شلتوت أن يقوم بالدعوة إلى الجماعة مُحاضِراً وكاتباً، وفي ظلال جماعة التقريب أصدر تفسيره القوي لكتاب الله، إذ ظهر منجّماً على صفات مجلة «رسالة الإسلام» وهي لسان حال جماعة التقريب.

والحق أن مَن يتصدّر لتفسير كتاب الله إذا كان ذا أهلية مقتدرة، وذا مسؤولية يلتزم بها جانب القيادة العلمية، إذا كان كذلك، فعليه أن يتجنّب المكرور الذائع من القول، وكتب التفسير من الكثرة الكاثرة بحيث لم تدع مجالاً للإعادة والتكرار، فلا بدّ للمفسّر من منحىً جديد يفتح آفاقاً مُضيئة، وهذا ما اتجه إليه الشيخ حين جعل تفسيره ذا منحىً طريف، يُساير جماعة التقريب في طرح الخلافات المذهبية، التي حملت حملاً باطلاً على كتاب الله، بأن يكون التفسير تفسير المسلمين جميعاً، لا يتعصّب لمذهب فقهي، ولا يميل إلى لون خاص من ألوان السياسة أو العقيدة الكلامية، كما ينجو من سطوات العلوم اللسانية من نحوٍ وبلاغة، والعقلية من فلسفة ومنطق، ليجيء سافِر الصفحة، وَضِيء الدلالة.

ومن منهج هذا التفسير أن تكون السورة ذات وحدة واحدة، تتّسع دائرتها لتضمّ جزئيات منفردة تنتمي إلى المحيط العامّ دون نشاز، وأن يتباعد عن إقحام المصطلحات والنظريات العلمية على النص، كيلا نحمّل كلام الله ما لا يطيق، وأن يعقّب على آراء السابقين بما يعنّ له من تصويب إذا وجب التصويب.

يقول الأستاذ الدكتور محمد البهيّ في تقدمة تفسير الشيخ شلتوت[1]: «والقارىء لهذا التفسير، في طريقه إلى القرآن الكريم، وفي مروره بصنعة المفسّرين المتعدّدة الطوابع والخصائص، لا يمرّ بهذه الصنعة مروراً عابراً، وإنما في أثناء سيره يقف على ما كان لهذه الصنعة من أثر في تفكيك وحدة المسلمين، وفي تعقيد فهم كتاب الله، وفي حجب المسلمين عن تلك الروح الصافية، لهداية القرآن الكريم.

وهذا التفسير هو أجدر أن يسمّى: «تفسير مشاكل التفسير» أو يسمى نهضة في تفسير القرآن، ورجوعاً به إلى طبيعته لردّ المسلمين إليه، لا إلى أقوال قد يحجب الكثير منها ما له من مدلول أو قيمة، هو أجدر أن يسمّى تعقيباً على تفسير المفسّرين، ليرفض الصنعة، ويردّ الأمر إلى مصدره فيؤخذ منه في وضوح، وبذلك يرفع العقبات ويُزيل الحواجز».

ومع التسليم بما قاله الدكتور البهيّ، من أن هذا التفسير جدير بأن يسمى تعقيباً على التفسير، فإن موضع الانتقاد على هذا التفسير، أنه لم يشمل كل ما تعرّض له من آيات السور القرآنية، إذ جعل يختار من نصوص السورة ما يتّصل بطابعها العامّ، بمعنى أنه ترك آيات كثيرة دون تفسير، ومعنى ذلك أنه لا يُغني عن سواه فيما تعرّض إليه من السّور، فأنت مثلاً إذا قرأت تفسير المنار وهو مَعنيٌّ بما عني به تفسير الشيخ شلتوت من مراعاة الوحدة ومن التعقيب على ما لا يرتضي من أقوال السابقين، فإنك تجده يشمل السورة جميعها، ألفاظاً وتركيباً وغرضاً، بحيث يجوز أن يُغني عن سواه، أما تفسير الشيخ شلتوت فاكتفاء بالبعض عن البعض،

---

(١) مقدمة تفسير القرآن الكريم، للدكتور محمد البهي، ص ٦، ط ١.

ورسم لإطار عامّ لا يشمل جزئيات كثيرة تندرج فيه وتأوي إليه، وهو جهد كبير لا مَحالة، ولكنه في مضمونه الصريح تعقيب وتوجيه.

ولا ننكر أن الشيخ شلتوت قد اختصّ مشكلات العصر بمزيد من التحليل، وأوغل في إيضاح بعض ما اختلطت مراميه لدى سابِقِيه، فاهتدى إلى يُسْرٍ حميد، ولكن المفهوم من تفسير كتاب الله لا ينحصر في ذلك وحده، بل على مَن يتصدّى لتفسير كتاب الله في مؤَلَّف يحمل عنوان (تفسير القرآن الكريم) أن يقف عند كل آية ليأخذ القارىء نصيبه الأوفى من الكتاب المبين.

ومن حظّ القرّاء أن آثار الشيخ قد جمعت في مجلّدات أربعة، فلم تَمْضِ بها الصُّحُف والمجلاّت في أنهارها المترامية، كما مضت بمقالات المراغي وأحاديثه وفتاويه، ولكن هذه الآثار قد تعدّدت طبعاتها إذ أشبعت حاجات القرّاء، فظهر كتاب له: (الإسلام عقيدة وشريعة) في نحو ستمائة صفحة ليتحدّث عن أصول الإسلام، في العقيدة والتشريع، فيتكلم عن ذات الله وصفاته، وعن القضاء والقدر وعالم الغيب، والجبر والاختيار، ثم عن طريق ثبوت العقيدة في كتاب الله، وعن السُّنّة ومكانتها في الإسلام عقيدةً وتشريعاً، وعن الإجماع وثبوت العقيدة، وكلها فصول تمسّ الحاجة إلى الإلمام بها في منطق معاصر لم تضيّقه المتون، ولم تشتّته الشروح.

وقد جاء الفقيه الكبير بالجديد حقاً فيما أفاض فيه من حديث الأسرة زواجاً وطلاقاً ونَسْلاً وميراثاً، ومن حديث المال والحدود والقصاص، والمسؤولية الجنائية والمدنية، ومن حديث أُسس الدولة في الإسلام، ومكانة الشورى وأُولي الأمر، والتكافل الاجتماعي، والعلاقات الدولية، وأنا أدعو كل مسلم غير متخصّص في هذه المسائل أن يقرأها في كتاب (الإسلام عقيدةً وشريعةً) حيث هيّأ الله لها فقيهاً متمكّناً، نافذ البصر يجلوها أتمّ جلاء.

وللشيخ كتاب آخر تحت عنوان (من توجيهات الإسلام) في حجم أخيه السابق، وهو مُكَمِّل له من ناحية، إذ اشتمل على بعض ما لم يأْتِ به، وهو مُفَصّل

ما أجمل من ناحية ثانية، إذ عالج بعض ما عالج من بحوث سابقة رأى أن تُكتَب على نحوٍ آخر من البَسْط والتذليل، لتصل إلى كل قارىء! وأنا أنصح بقراءة كتاب (التوجيهات) قبل قراءة كتاب (العقيدة والتشريع) ليتدرّج القارىء بأفكاره درجة فدرجة، وليت الحريصين على الخير يعملون على إعادة طبع (مقارنة المذاهب) فيكتمل بين يدي القارىء فكر الشيخ، على أتمّ ما كان.

أما مجموعة الفتاوي فالحاجة إليها ضرورية، إذ شملت مشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية والعامّة، وقد أحسن الدكتور محمد البهيّ التنويه بها على نحوٍ صادق الدلالة كاشف المرمى فيما كتبه في مقدمتها، التي نختار منها قوله[1]: وإذا كانت الضرورة تدعو إلى تنوير المسلمين في حياتهم اليومية عن طريق الفتاوي، فإن فتاوي الأستاذ الأكبر تتميّز بطابع خاصّ، هو الإحساس القوي بالحياة اليومية وبأحداثها، والعمق في فهم الإسلام وتطبيق مبادئه.

فالأستاذ الأكبر قد عاش في فتاواه بين المسلمين، وفي صلات المسلمين بغيرهم، ومرّت عليه التطوّرات العديدة والقوية في حياة الإنسان، وهو مُقَدّر لهذه التطورات التي دفع إليها تقدّم العامّ، وكانت ثمرتها الحضارة الصناعية والمادية التي يتمتع بها الإنسان حيناً وتسدّ حاجته اليومية حيناً آخر، وقد يشقى بها حياته أحياناً، فهو لم يكن في عُزلة عن الحياة الإنسانية المعاصرة، يوم حلّل المُشكِل، ووضّح عناصره، وآثاره على الفرد والمجتمع ثم استوحى القرآن والحديث الصحيح بما أفتى به.

وقد أحدثت آراء الشيخ في فتاويه تارةً وفي مقالاته تارةً أخرى جدلاً كبيراً بين المفكّرين من الفقهاء والعلماء، لأن النزعة التجديدية لدى الرجل الكبير، لا بدّ أن تصطدم بنزعة محافظة لدى قوم يحملون من الغيرة على الحقيقة مثل ما يحمل، ولا بدّ أن يوجد في محيط التشريع مَن يحافظ ومَن يجدّد، لكلٍّ منهما نصيبه المشكور فيما يُدلي به من رأي، والذين لا يقدّرون الرأي المُخالف متى صدر عن

(١) مقدمة الفتاوى ص (ت)، ط ١.

إخلاص حميد وبحث أمين، يحبّون أنفسهم أكثر مما يحبّون الحقّ، وما هكذا يجب أن يكون الوضع بين علماء الإسلام!

وسنمثّل ببعض النماذج التي دار حولها الخلاف بين الشيخ ومُعارِضِيه، لنعرف كم كافح شلتوت وجالَدَ ولنرى أن قوماً سلكوا في معارضته مسلك الحق فكانوا شرفاء، وأن قوماً ركبوا جناح الغرض فكانوا دخلاء.

النموذج الأول: جاء سؤال للشيخ عن المصارف المالية، والقرض منها بربح، وعن حكم الشرع في الأسهم والسندات فأجاب الشيخ بما خُلاصته، أن الله قد حرّم الرِّبا، بأن يكون لرجل على آخر دين فيطالبه به، فيقول له أخّره وأزيدك على مالك، وهذا الصنيع لا يجري عادةً إلّا بين مُعدَم غير واجِد، ومُوسِر يستغلّ حاجات الناس غير مُكترِث بشيء من معاني الرحمة المشروعة، وهذا حرام قطعاً.

وقد توسّع الفقهاء كثيراً فيما يتناول الرِّبا، ورأى كثيرٌ منهم أن الحُرمَة فيما يحرّمون، تتناول المتعاقدين معاً المُقتَرِض والمُقرِض، وإني أرى - كلام الشيخ - أن ضرورة المُقترِض وحاجته مما يرفع عنه إثم التعامل، لأنه مضطر أو في حكم المضطر، وقد صرّح بذلك بعض الفقهاء فقالوا: يجوز للمُحتاج الاستقراض بالربح، وإذا كان للأفراد ضرورة أو حاجة تُبيح لهم هذه المعاملة فإن للأمة ضرورة أو حاجة كثيراً ما تدعو إلى الاقتراض بالربح، والإسلام الذي يبني أحكامه على قاعدة (اليُسْر ودفع الضرر) يعطي للأمة في شخص أفرادها وهيئاتها هذا الحق، ويُبيح لها أن تقترض بالربح تحقيقاً لتلك المصالح، ولا يكون ذلك إلّا بالقدر المحتاج إليه، ولدفع الضرورة والحاجة ولا يكون قرض إلّا من جهة لا تضمر استغلالنا.

أما الفرق بين الأسهم والسندات، فهو أن الأسهم من الشركات التي أباحها الإسلام باسم المضاربة، وهي التي تتبع الأسهم فيها ربح الشركة وخسارتها. أما السندات وهي القرض بفائدة معينة لا تتبع الربح والخسارة، فالإسلام لا يُبيحها إلّا حيث دَعَت إليها الضرورة الواضحة التي تفوق أضرار السندات.

هـذا ما قـاله الشيـخ مخلصـاً، وليس لي مقـدرة الحكم الفـاصـل بينـه وبين مُعـارِضِيه من كبـار الفقهاء، ولكني أقـول: إن الشيخ مسبـوق في فتـواه بمـا قـالـه الشيخ: محمد عبده، والشيخ رشيد رضا، والشيـخ عبد الـوهّاب خـلاف في مجلة (لواء الإسلام) وأنصّ في مجلة لواء الإسلام بالذات، لأن رئيس تحـريرهـا الأستاذ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله قد حمـل على الفتوى حمـلاً ثقيلاً، ولـه الحق أن يعارض ما لم يقتنـع به، وأن يعقـد ندوة خـاصّة لتخـطئة شلتـوت، فأبـو زهرة عَلَم شامخ في مجال التشريع، ولكني آخذ عليه تعريضه رحمه الله بالنيّات، إذ كان من الـلائق ألاّ ينشر مـا كتبه تحت عنـوان (المفتي يفتي بالحق لا بمـا يشتهي) بعد أن نشر فصولاً فنّدت رأي الشيخ! في عددي: رجب وشعبان من سنة ١٣٨٠ هـ، فمَن يقدر على الزعم بأن شلتوتـاً يفتي بما لا يـرى أنه الحق! لنفـرض جدلاً مـع الشيخ أبي زهرة رضي الله عنه أن شلتـوتاً قـد أخطأ، ولكن كيف نفـرض أنه تعمّـد الخطأ لشهوة في نفسه!!.

أما **النموذج الثاني** ففتوى الشيخ بشأن نزول عيسى آخر الزمن، إذ أحال عليه الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي سؤالاً خاصّـاً بنزول عيسى كي يُجيب عليـه بما يراه، فأجاب بما خلاصته[1]:

١ ـ أنه ليس في القرآن الكريم ولا في السُّنّة المـطهّرة مستنـد يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رُفِـعَ بجسمه إلى السمـاء، وأنه حيّ إلى الآن فيها، وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض.

٢ ـ أن كل ما تفيـده الآيات الـواردة في هذا الشـأن هو وعـد الله عيسى بأنـه مُتوفّيه أجله، ورافعه إليه وعاصمه من الذين كفروا، وأن هـذا الوعـد قد تحقّق فلم يقتله أعداؤه، ولم يصلبوه ولكن وفّاه الله أجله ورفعه إليه.

٣ ـ مَن أنكـر أن عيسى قـد رُفِـعَ بجسمـه إلى السمـاء، وأنـه فيهـا حيّ إلى الآن، وأنه سينزل منها آخر الزمان، فـإنه لا يكـون بذلـك منكراً لمـا ثبت بالـدليل

(١) الفتاوي، ص ٥٨، ط ١.

القطعي، فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه، ولا ينبغي أن يحكم عليه بالردّة، بل هو مسلم مؤمن ولا شِيَة في إيمانه عند الله.

لم تكد هذه الفتوى تُذاع حتى كانت مَثار لغط قوي في مجلاّت كثيرة، وقد تورّط شيخ الإسلام التركي في عهد الخلافة العثمانية في إسفاف ما كان منتظراً من مثله، حين هاجم شخص شلتوت لا رأيه، وأخذ يزعم أن الفتوى كتبت بروح قاديانية، وأن المسلمين في الهند سيحزنون لمَن ينصر القاديانية عليهم، والمثل العامّي يقول: «أنا وابن عمّي على الغريب»[1] وهذا منطق يعزف عن روح الحق، ومن الصواب أن نقتصر على التعليق عليه فلا نطيل.

وأما **النموذج الثالث** فهو ما أثاره مقال الشيخ شلتوت عن «الهجرة وشخصيات الرسول»[2]، حيث ذهب إلى أن لرسول الله ﷺ شخصيات متعدّدة، شخصية الرسول، وشخصية الإمام العامّ، وشخصية المفتي، وشخصية القاضي، فهو بالشخصية الأولى مبلِّغ عن الله، لا يخرج فيما أُوحِيَ إليه عن حدود ما أمر به، أو نهى عنه. والمسلمون مُكَلّفون به كما تلقوه عنه، وهو بالشخصية الثانية رئيس المسلمين، وزعيم قوميتهم يعمل على تركيز أمته، وطبعها بطابع مميّز، وهو بشخصية المفتي إما أن يُجيب بلسان الوحي فليس له اجتهاد في ذلك إلاّ في تطبيق النص على جزئيات الحوادث، وإما فقيه يجتهد، ويقدر، ويلاحظ أحوال السائلين فيُجيبهم بما يراه كما يفعل سائر المجتهدين، وهو بشخصية القاضي حَكَم بين المتخاصمين، يسمع دعاواهم ويتعرّف الحق، ويقدّر ظروف القضية وأحوال المتقاضين، وأحكامه في هذه الدائرة، لا عموم لها في الأشخاص، كما يقول العلماء الأصول فليس لها صفة التشريع العامّ.

وكان لا بدّ أن يكثر التعليق على ما حدّده الشيخ، وإن كان مسبوقاً به. ومن الذين كتبوا المقالات المتتابعة في نقد هذا المقال: أستاذنا العلاّمة محمد الخضر

---

(١) مجلة الرسالة ٤/٥، ١٠/٥/٤٣ من ردّ الشيخ شلتوت على مُعارِضيه.

(٢) مجلة الرسالة ٤٤٩، ٩/٢/٤٢، العدد الهجري الممتاز.

حسين، حيث جرى على طريقته الخاصّة في الوقوف لدى كل لفظ من الألفاظ، ومناقشة كل ما يحتمله من المعاني، وهو منحىً يوضح وجه الخلاف بين شلتوت والخضر، إذ يعتمد الأول على روح النص العامّ، ويقف الثاني عند مدلوله الحرفي، ولم يضق شلتوت بما قاله الخضر، حيث صدر عن روح مخلصة، ولم يفهم ذلك مَن تملّقوا الشيخ شلتوت، إذ حاولوا الوقيعة بين الرجلين، حين تقدّم الشيخ الخضر حسين إلى هيئة كبار العلماء بكتابه (القياس في اللغة والنحو) وكان الشيخ شلتوت المناقش الأول في الجماعة، فحسبه الصغار متعصّباً، وظنوا أنه سيرفض كتاب معارضه، ولكن الشيخ قال لهم قولته الذائعة: مَن أسقط محمد الخضر حسين فقد أسقط نفسه!! ولا يَفِي مقال برأسه حقّ هذه العبارة من الإعجاب.

ومضت الأيام فأصبح شلتوت شيخ الأزهر، وعمل على إنشاء مجمع البحوث الإسلامية، ليعطي الصورة القوية التي أرادها لهيئة كبار العلماء، وأضاف إليها اتّساع المجمع، كي يشمل غير الأزهريين من أعلام الدين في العالم الإسلامي جميعه، كما عمل على تعليم الفتاة في الأزهر فأنشأ معاهد الفتيات، وكلية البنات الإسلامية، أو قل إن ذلك قد تمّ بتوجيهه ومَسعاه، ثم دبّ خلاف بينه وبين السيد وزير الأزهر لعهده في تطبيق القانون الجديد للأزهر لا نرى أن نتعرّض لأسبابه، إذ مكانه غير هذا النطاق.

وقد تمتّع شلتوت بالإمامة الحقيقية للمسلمين أثناء قيامه على أمر الأزهر، إذ رحل إلى مختلف البلاد الإسلامية زائراً وداعياً إلى الائتلاف. فلمس من أحوال المسلمين ما دعاه إلى العمل على تقرير اللغات الأجنبية بالأزهر، ليبعث من طلابه مَن يصلحون لمخاطبة المسلمين في كل مكان، ومن البلاد التي زارها: أندونيسيا، والملايو، والفليبين، وهونج كونج.

وكان ممثّلو الجيش والحكومة ورجال السلك السياسي يشاركون الشعب المسلم في استقباله، وهو ما تكرّر من بعد، عند زيارات الإمام عبد الحليم

محمـود، فعلى مصر أن تعمـل جاهـدة على تقويـة أواصـرهـا بـالمسلمين في كـل مكـان، لأن الجميع أبنـاء أمة واحـدة، يأمـرون بـالمعـروف، وينهـون عن المنكـر ويؤمنون بالله.

ثم أراد الله عـزّ وجلّ أن يختـاره إلى جِواره ليلة الإسـراء والمعراج من شهـر رجب ١٣٨٣ هـ فأحدث مَنعاه أثراً أليماً في النفوس، وفـاضت الصُّحُف في مرَاثيـه وتقديره، وظلّ حديثه ساطع الأرج على أسلات مَن تحدّثوا عنه، وفي كتبه العلميـة التي تعـدّدت طبعاتهـا من بعده، لتحمـل مشعل التـوجيه، وتـوقد جـذوة الإيمـان، وتُرسي دعائم اليقين، رضي الله عنه وأرضاه.



الدكتور محمد أحمد الغمراوي
بين البحث العلمي والنقد الأدبي

- ١ -

رأيته مرة واحدة، في مختتم حياتـه، حين كان في إدارة مجلة الأزهـر، يقدّم بحثاً كتبه عن (الجبـال في القرآن)، وكنت مَشـوقـاً جـدّ الشـوق أن أتحـدّث إليـه فأفيض، ولكني أجللت شيخوخته أن تكون موضع ثرثرة لاغية، وآثرت أن أنظر إلى عينه الهادئة المطمئنة من وراء مِنظاره، تصوّر بهدوئها المطمئن قلباً مؤمناً أثلجه برد اليقين، فسكن في صدره مستريحاً من هبات الزعازع، وأوهام الظنون، بعد كفـاح بطولي تناءت شقّته واتّسع مداه.

ثم خـرج الزائـر، وخاطـري يجول بي في عـالمه الفسيـح، متذكّـراً ميـادين نضاله، وقفزات جواده.

ومرّت الأيام فقرأت نعيه، فاستشعرت مع لوعتي المكـظومة أسفـاً كاويـاً بين سريرتي، إذ مضى دون أن أسعد بالحديث إليه، مع مواتاة الفرصـة، ولكني عزّيت نفسي أني لست وحـدي الذي أتهيّب مقـامه الجليـل، فزمـلاؤه الكبار من أسـاتـذة الجيل في كليّة الطب، وكليّة الصيدلة، ولجنة التأليف والتـرجمة والنشـر، وجمعية الشبّان المسلمين، كانوا جميعاً يتهيّبون جلاله العلمي، وإيمانـه اليقيني، وقد عبّـر عن هؤلاء جميعـاً الدكتـور أحمد أمين حين تحـدّث عن زملائـه في لجنـة التـأليف والترجمة، وقال عن الدكتور الغمراوي:

«وهذا عالِم آخر طبيعي كيماوي، أيضاً جعل علمه ونفسه وكلّ ما يملك من ملكات وثقافات لخدمة دينه، وأثّر في كثيرٍ من الطلبة في مدرسته العالية فدَيَّنَهم، وملأ المسجد به وبهم، قد حفظ القرآن وأطال قراءته، وبذل جهداً في فهمه، فهو يفهمه كما يقول المفسّرون، ويزيد عليهم ما يفهمه من نظريات الطبيعيين والكيمائيين، وما يقتبسه من أقوال المتدينين من العلماء الأوروبيين، يحلو له الكلام في الدين وهداية الضالّين، ويعزّ عليه أن يسمع إلحاداً، أو كلمة يشمّ منها إلحاداً، بل لا يسمح أن ينقد أمراً من أمور الدين، ولو كان في التفاصيل، وهو في كل ذلك مخلص، لا يقول كلمة بلسانه ينكرها قلبه، قوي الحجّة، طويل النفس في المناظرة، مؤثّر إذا قال، جزل الأسلوب إذا كتب، يدرس الكيمياء والطبيعة، فتكون ديناً، ويشرح النظرية الكيماوية فتكون من سُنن الله الكونية، يتحرّج صحبه أن يذكروا أمامه شيئاً يمسّ شعوره الديني، وعاطفته المسلمة، ويهابونه في طربوشه أكثر مما يهابونني في عمامتي»[1].

وكلمات الأستاذ أحمد أمين ذات إيجاز مركّز ولو وفّقني الله إلى تفصيلها في هذا المجال لقلت عن الرجل الكبير بعض ما يستحقّ، إذ من حقه على الشبيبة المؤمنة والنشء المتأهّب أن يلمّوا ببعض مواقفه ليكون بيقينه الراسخ مناراً يهدي إلى السبيل القويم.

وُلِدَ الغمراوي قبل أن ينتهي القرن التاسع عشر بسبعة أعوام في إحدى مدن محافظة الغربية، ونشأ في أسرة دينية، إذ كان الرابع بين إخوة خمسة حفظوا القرآن جميعاً في الطفولة وهيئوا للالتحاق بالأزهر الشريف، وقد كان صاحبنا استثناء بينهم حيث قدّر له أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية بطنطا ثم الخديوية بالقاهرة، وكان هواه أن يُزامل أشقاءه في الأزهر. وإذ سار في غير طريقهم فقد أخذ على نفسه أن يتزوّد بالثقافتين المختلفتين، فكان يبدأ بعلوم المدرسة، ثم يأخذ كتب إخوته ليقرأها معهم، وليسأل عمّا يستعصي عليه من معضلات الفقه والتوحيد والنحو والبلاغة!

---

(١) حياتي ص ١٥٥، ط ١، للدكتور أحمد أمين.

وذلك توفيق من الله أن هداه إلى الكتب الإسلامية مع ما يقرأ في كتب المدارس في وقت واحد.

وكان يحسّ بدافع يحثّه إلى التفوّق في علوم الأزهر، وعنده الأصل من كتاب الله يحفظه عن ظهر قلب، ومن حديث البخاري يتناول حفظه وشرحه مع أخيه محمود، الذي قُدِّر له أن يكون شيخاً لمعهد الزقازيق الثانوي فيما بعد. وكاتباً مُصاوِلاً تعرفه صُحُف المقطّم والأهرام والأخبار (الرافعية) في العشرينات والثلاثينات.

وقد اشتهر محمد أحمد الغمراوي بين الطلاب بغيرته الشديدة على أصول الدين وتعاليم الشريعة، وهي غيرة تجد تطبيقها في سلوكه الشخصي بين عارِفِيه، إذ كان أميناً لا يخون، صادقاً لا يكذب، وافياً لا يغدر، وله صَولة في الحق تجبره ألّا يسكت على خطأ. كان المدرّسون يشرحون تاريخ أوروبا بإفاضة ويُجمِلون تاريخ الإسلام كله في باب واحد، فدعا نفراً من زملائه في الخديوية الثانوية إلى قراءة التاريخ الإسلامي، ومنهم أستاذنا الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني، فألّفوا جماعة لقراءة أعلام الإسلام وجعلوا يتدارسون كتاب (حُماة الإسلام) الذي ألّفه المرحوم مصطفى نجيب، فكان مسلِّماً إلى ما فوقه من كتب التراث، وكانت النصوص الأدبية في عهد دنلوب مقصورة على نماذج مُشتهرة من الشعر العباسي والجاهلي والأموي، فجعل الطالب الطامح يُحضِر معه ملازم صفراء من كتب الأزهر تضمّ أحاديث الرسول، لتكون مع كتاب الله في مقدمة النصوص المحفوظة.

وكان يحافظ على الوضوء الطاهر، لتُتاح له الصلاة في فسحة الظهيرة، حيث لم تكن للمدارس أماكن للصلاة كعهدنا الآن، ولم يكن تعمّقه في تحصيل الثقافة الدينية بمانعة من التفوّق في علوم المدرسة، بل ربما كان اتصال الجسور مُساعِداً على التبريز والتفوّق لديه، حتى إذا أتمّ دراسته الثانوية، التحق مع زميله الكرداني بالقسم العلمي بمدرسة المعلمين العليا، وتخرجا معاً حين اشتعلت الحرب

العالمية الأولى لأول أعوامها، وكان من حق سبقهما الظافر أن يبعثا فوراً إلى إنجلترا كمَن سبقهما من مُتقدّمي الطلاب، ولكنها الحرب!.

وفي سنة ١٩١٤ حيث اندلعت شرارة هذا الحريق العالمي، اجتمع نفر من مُتَخَرّجي المعلمين العليا ومدرسة الحقوق ليُنشئوا ما أسموه لجنة التأليف والترجمة والنشر، وليَكِلوا رئاستها إلى الشيخ أحمد أمين، وكان من هؤلاء الأستاذ محمد أحمد الغمراوي، وقد ذكره أحمد أمين[1] أول ما ذكر من أسماء: أحمد زكي، والكرداني، والعبادي، وخلاف، وأبي حديد، وصبري أبو علم، ويوسف الجندي، ممّن صمّموا على إقامة نهضة علمية مباركة، كانت ذات أثر بعيد في رقيّ الثقافة العربية الأصيلة، لأن هذا النفر من الشباب كان يجمع بين الحمية الإسلامية والغيرة القومية، والتطلّع الحضاري، على حين كان فريق من تلاميذ (الجريدة) يتّجهون في كتاباتهم وجهة غربية مندفعة لا تعرف الاتئاد، ونفر آخر لا يبعد محيطه الثقافي عن مدى ثقافة العصر المملوكي، وفي هؤلاء وأولئك إفراط وتفريط.

فجاء شباب لجنة التأليف والترجمة ليبعثوا نهضة علمية ذات وسامة واتّزان، وكان الأستاذ الغمراوي أذكاهم لهيباً، حين يتعرّض الحديث لتأخّر الشرق، ونهوض الغرب، وقد أمدّه انتكاس المدنية الغربية باشتعال الحرب العالمية بما أخذ يردّده طول حياته من إيضاح الفرق بين التقدّم المادّي الخادع، والتقدّم الخلقي الأصيل، لأن أوروبا حين نهضت نهضتها الحضارية عن طريق البحث العلمي، لم تنهض نهضة خلقية مماثلة عن طريق الدين الصحيح، فأخذت تأكل نفسها، وتهدم مدنيتها، وعلى الذين يشيدون بتقدّمها العلمي، أن يعرفوا أن العلم لا ينتسب إلى وطن، وأنه يدور دورته في الأمم والشعوب متنقلاً من الشرق إلى الغرب، ولن يرتفع بناؤه على أساس ثابت إلاّ إذا ارتكز على أخلاق طاهرة، يدعمها تشريع سماوي لا يأتيه الباطل!.

---

(١) مجلة الرسالة، العدد (٧٠)، ١٩٣٤/١١/٥.

هـذا ما اعتقـده الغمراوي، ودعـا إليه طيلة حيـاته مـع نفر من ذوي مشـربـه الإصـلاحي، وقـد ذهب إلى إنجلتـرا بعـد عـامين (سنـة ١٩١٦) ليتخصّص في الكيمياء والطبيعـة مع صـديقه أحمـد عبد السـلام الكرداني، الـذي يقول عنـه في مقدمة كتابه عن (الإسلام في عصر العلم):

«وكان طول مدة دراسته بإنجلترا ـ كما كان في مصـر ـ مُجِدّاً متفـوقاً، وكـان لشخصيتـه وأخلاقـه أكبر الأثـر في إخـوانـه المصـريين الـذين زاملوه في الـدراسـة بالخارج، وكنت معه حريصين على الذهاب إلى (ووكنـج) إحدى ضـواحي لندن، حيث تُقـام صلاة العيـد في مسجدهـا، وفي لندن تقـابلنا مـع مولاي (محمـد علي الهندي) أول مَن ترجم القرآن، ومع الإنجليزي المسلم «المستر مارما ديوك بكتول» الـذي ترجم معـاني القرآن، وحضـر إلى القاهـرة قبل طبـع الترجمـة ليُراجعهـا مع صديقه الأستاذ الغمراوي»[١].

رجع الغمراوي من بعثته ظافراً متقدماً، وقد اجتهد في تحصيل كـل ما يتعلق بتخصّصـه العلمي الدقيق، منتفعـاً بما تهيّـأ له في إنجلتـرا من رحلات علميـة إلى أماكن مختلفة، ومن ذهاب مع أسـاتذتـه وزملائـه إلى (المناجم) في بـاطن الأرض لرؤية ما يدور بها، ومن تتبّع للمراصد ـ والمَجاهر في صوامع العلم والعلماء.

وقد تحدّث الأستاذ عن بعض ذلك فيما نشره من مقالات حديثاً يدلّ على أنه لم يُضِعْ لحظة من بعثته دون عمل جادّ، في تواضع مؤمن ينأى به عن الغرور، وقد اشتغل بعد عودته فترة محدودة في التدريس بالتعليم الثانوي، ثم انتقل إلى معامـل وزارة الصحة، وكانت إذ ذاك مصلحـة تابعـة لوزارة الـداخلية إلى أن اختيـر أستاذاً للكيمياء في كليّتي الطبّ والصيدلة، وهنا كان المثل الحيّ للأستاذ المسلم الداعية بخلقه الرفيع، وسلوكه المثالي، إلى أجمل نمط من أنماط الرجـولة البـاسلة، ذات الفروسية النبيلة في ردّ الضيم، وقمـع الغلوّ، ومعارضتـه مَن يحسبون أنفسهم على شيء وهم أدعياء، وبهذه الفروسية النبيلة خاض معارك علمية توّجته بنصر مُبين.

---

(١) الإسلام في عصر العلم: مقدمة الكرداني، ص (ن).

وإذا كانت لجنة التأليف قد أرضت طموح الغمراوي ثقافياً، فإن طموحه الإسلامي جعل يتطلّع إلى ميدان فسيح يجد فيه مجاله العلمي، لأن الشبيبة المسلمة أوشكت أن تضيع في مهبّ التيارات الوافدة، وقد اتّسعت الصُّحُف المُغرِضة لنشر ما يناوىء الإسلام، بل أخذت تهاجم تعاليمه الدينية، حين دعت إلى صور من التحلّل ووجوه من الإلحاد، وأخذت تبذر عوامل التشكيك في كل راسخ وطيد، فإذا أُضيف إلى ذلك تنازع الأحزاب سياسياً، واضطراب الشباب بين النوادي المتناحرة، والاجتماعات المتعارضة، فإن ذلك الواقع الجهم يدعو الغمراوي ومَن يسير في طريقه إلى تفكير جدّي يرجع بالشباب إلى حظيرة الإسلام، ويرتفع بمُثُله وآماله وأحلامه إلى مستوى القرآن.

وهنا بدأ التفكير في إنشاء جمعية الشبّان المسلمين بقيادة الذّادة من أمثال: عبد الحميد سعيد، وعبد العزيز جاويش، وأحمد تيمور، ومحمد الخضر حسين، وعبد الوهّاب النجار، وأحمد إبراهيم، ومحبّ الدين الخطيب، ويحيىٰ الدرديري، فرأت من تجاوب المشاعر، والتفاف القلوب ما ثبّت الأقدام، وبسط الآمال.

ولسنا نريد أن نبسط نشأة هذه الجمعية، ولكننا نلمع إلى الدور الإيجابي الذي قام به الغمراوي حين أخذ على نفسه أن يُحاضر الشبيبة المسلمة أسبوعياً في مسائل الدين والعلم، فجعل يعرض شُبُهات الملاحدة عرضاً موضوعياً، ليُجيب عن كل شُبهة بما يهدي إلى الحق، وقد اعترف الكاتب الإسلامي الغيور الأستاذ عبد المنعم خلاف أنه تلميذ الندوات العلمية التي أدارها الغمراوي في منتدى جمعية الشبّان المسلمين، ومن حظّ التاريخ الإسلامي الثقافي لهذه الجمعية أن الأستاذ محبّ الدين الخطيب سجّل بعض هذه الندوات في مجلة الفتح، كما نقل بعضها الآخر في الجزء الثاني من كتاب (المنتقى من محاضرات جمعية الشبّان المسلمين).

وعن هذا الجزء نشير إلى خلاصة ندوة عقدها الغمراوي في رجب ١٣٤٨ هـ فتحدّث عن صلة الدين بالعلم، وعن اهتمام الإسلام بدراسة الكون، ذاكِراً أن

هذه الدراسة مما يجب أن ينهض بها جماعة لا فرد، وأشـاد بعلاقـة العقل المكينـة بكـل مبحث إسلامي، ثم فتـح باب الأسئلة العلميـة يتقدّم بهـا كبـار المستمعين، ويُجيب عنها الغمراوي في ثقة واتّزان، وقد كان الأستاذ عبد الـوهّاب النجـار ـ وهو سنّاً في منزلة الأستاذ من الغمراوي ـ يتقدّم بالأسئلة العلمية ليُجيب عنها الرجـل في دائرة اختصاصه.

سـأل النجار عن أيـام الخلق الكـوني التي جـاءت في سـورة فصّلت ﴿ قـل أئنكم لتكفـرون بالـذي خلق الأرض في يومين وتجعلون لـه أنداداً ﴾ [فصّلت/ ٩] إلى قوله تعالى: ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ الآية ١٢ فأجاب المسؤول بما حدّد المراد من اليوم.

وسـأل النجار عن معنى قـوله تعـالى في سورة الـزّمر: ﴿ يخلقكم في بـطون أُمّهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ [الزّمر/ ٦].

وسأل أحد الفضلاء عن معنى قول الله: ﴿ ما فرّطنـا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام/ ٣٨] وهل يلزم أن يحيط القرآن بكل شيء؟.

كما سأل بعضهم عن معنى قوله تعالى: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يٓس/ ٨٢].

والإجـابة على هـذه الأسئلة مبسوطـة بالجـزء الثـاني من (المنتقى)[1]، فـلا سبيـل إلى إيجازهـا، وهي تدلّ على حصـافة العـالِم ودقّته وصبـره وسعَـة صـدره، وسيطرته البالغة على جمهوره بالمنطق الصائب، والنظر السديد.

وأعـظم من ذلك لـدى دلالتها البـاهرة على سمـوّ الخلق النفسي لدى أمـاثل العلماء، حين طلبوا العلم من مصدره دون اعتبار لعَرَاقة السائل وحداثة المسؤول.

---

(١) يُراجَع ما بين ص ٣٢، ص ٥١ من الجزء الثاني، (المنتقى)، المطبعة السلفية، سنة ١٣٥٠ هـ ليجد القارىء الإجابة المطمئنة على كل سؤال.

فإذا كان الأستاذ الغمراوي قد دلّ على عظمة علمية حين وُفِّق إلى الإجابات السديدة، فإن الأستاذ عبد الوهّاب النجار قد دلّ على عظمة خلقية حين رضي أن يسأل سؤال المستفيد من بعض أبنائه، وهذا المشهد العلمي وحده يُغني عن كل مثال يبحث عنه في وجوب الحرص على الحقيقة، ووجوب طلبها من مصدرها الحقيقي، وشدّة التواضع في تحصيلها، ولا تزال هذه المواقف الحيّة مصدر عطاء خلقي لمَن يتدبرها بيقظة وإمعان.

أمواقف الأحرار إنّ مصيبة   ألا يهيج عَهْدَكَ التّذكار

- ٢ -

كان تمكّن الأستاذ الغمراوي من مادته العلمية مَدعاة أسئلة كثيرة، دارت حول ما يُعرَف بالتفسير العلمي للقرآن الكريم، إذ إن الآيات العلمية في كتاب الله قد فُسّرت على غير وجهها لدى أئمة من السابقين، لم تُتحْ لهم ثقافتهم الكونية أن يجيئوا بالرأي العلمي في بعض ما تناولوه، وقد جاءت الكشوف العلمية الحديثة داحِضة بعض هذه الآراء، فظن السُذّج من القرّاء والمغرضون من ذوي النزعات المنكرة أن القرآن هو الذي أخطأ، ونسبوا أخطاء المفسّرين إلى كتاب الله نفسه، وهو ما نهض الأستاذ الغمراوي لتصحيحه، مُحاضِراً ومُدَرّساً ومُؤلّفاً، فجعل يعرض الآيات العلمية في كتاب الله عرضاً جديداً، وقد بلغت في إحصائه الدقيق خُمُس آيات الكتاب العزيز، مُحاوِلاً أن يرى الناس رأي القرآن المؤيّد للعقل، السائر في طريق العلم اليقيني الصحيح.

ولم يكن الغمراوي ممّن يخطفون المسائل العلمية خطفاً، كما نرى لدى فريق من مؤلّفي اليوم، يُكثِرون الحديث عن الإعجاز العلمي للقرآن دون غوص واقتدار، فيأخذون آية من الآيات أخذ المتعجّل الذي يلمّ بالسطح البارز دون أن يهتدي إلى الغور العميق، ويُطالعون قُرّاءهم بما لا يُغني من الحق شيئاً وإن كتبوا كثيراً وطنطنوا طويلاً! وكتاب الله أعزّ على المؤمنين من أن يقتحم أسواره متعجّل لا يرعى دقّة العالم وصبر الباحث الدؤوب.

ولا ننكر أن الأستاذ الغمراوي قد سُبق بنفر من الفضلاء نهجوا نهجه، ولكنّنا ننصّ على أنه أكثر هؤلاء صبراً، وأدقّهم تخصّصاً فوُفّق إلى خيرٍ كثير.

ومظنّة الخطأ في التفسير العلمي هي الاعتساف في التأويل، والتعمّل في الربط، وقد التفت الأستاذ الغمراوي إلى خطر هذين حين قال[1]:

«ويجب أن ننبّه إلى أمرين هامّين: الأول أنه لا ينبغي في فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز، إلاّ إذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه، لأن مخالفة هذه القاعدة الأساسية الأصلية البسيطة، قد أدّى إلى كثيرٍ من الخطأ في التفسير، وسنرى أن من أعجب عجائب القرآن: أن المطابقة بين آياته وآيات الفطرة، تكون أتمّ وأيسر، كلما أخذنا بتلك القاعدة في فهم كونيات القرآن.

هذا أمر، أما الأمر الثاني فهو ينبغي ألاّ نفسّر كونيات القرآن، إلاّ باليقيني الثابت من العلم، لا بالفروض ولا بالنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، لأن الحقائق هي سبيل التفسير الحق، هي كلمات الله الكونية، ينبغي أن يفسّر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية، أما الحدسيات والظنّيات فهي عُرضة للتصحيح والتعديل، إن لم يكن للإبطال في أيّ وقت فسبيلها أن تعرض على القرآن بالقاعدة السابقة ليتبيّن منها مبلغ قُربها منه أو بعدها عنه، وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب، يكون مقدار حظّها من الصواب».

هذان الأمران عدم الالتجاء من الحقيقة إلى المجاز إلاّ إذا قامت القرينة الدالّة على المجاز، وعدم التفسير بالدليل الظنّي، هما الدعامتان الواقيتان من التعسّف، وبدون مُراعاتهما زلّت أقلام كثيرة فيما تورّطت فيه من التأويل.

وقد أشار الإمام المراغي في مقدمة كتاب (الإسلام والطبّ الحديث)[2] إلى وجوب الحذر من ليّ النصوص وتأويلها على غير وجهها لتناسب ما يرونه من

(١) الإسلام في عصر العلم، ص ٣٢٣.

(٢) الإسلام والطب الحديث، للدكتور عبد العزيز إسماعيل، وللإمام المراغي به مقدمة هادية.

حقائق العلم المعاصر، وهو في ذلك يجري مع الأستاذ الغمراوي في ميدان واحد ميدان المنطق النزيه.

ولا يتّسع المجال هنا لعرض نماذج كثيرة مما اهتدى إليه الغمراوي في تفسيره العلمي، ولكننا نكتفي بإيجاز أمثلة يسيرة مما صحّح به أقوال القدماء المفسّرين، ليرى القارىء كيف كان التقدّم العلمي المعاصر عوناً على تأييد حقائق القرآن، وكيف يُري الله آياته للناس في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أن القرآن حق.

وليعذرني القارىء في الإجمال، فحسبي أن أُشير إلى المصدر ليرجع إليه وهو كتاب (الإسلام في عصر العلم).

وكان الرجل دقيقاً حين فصل بين ما جاء في القرآن من الشرعيات والكونيات، إذ أن الشرعيات من حيث الاعتقاد والأحكام لا بدّ أن يتّضح الحق فيها قبل وفاة الرسول، وإلاّ فقد فاتت فرصة التوضيح والتصحيح، أما الكونيات فتصحيح خطأ معتقد الناس فيها مما يظهره الزمن آناً بعد آن، لأن آيات الله الكونية من الجلال والعظم بحيث لا يحول تصوّرها الكامل دون الاهتداء بها إلى الله، والزمن في سيره المتواصل يسير نحو هذا التصوّر شيئاً فشيئاً، لذلك جاءت كشوف العلم كاشفة لبعض حقائق الكتاب المبين.

أ ـ فمما كشف عنه العلم، تصحيح ما قاله المفسّرون في معنى قوله تعالى: ﴿ أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها. رفع سمكها فسوّاها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ [النازعات/ ٢٧ ـ ٢٩] إذ رجعوا بالضمير في قوله تعالى: ﴿ وأغطش ليلها ﴾ إلى الأرض، لأن السماء في رأيهم لا ظلام بها، ولو أخذوا النص القرآني على حقيقته لقالوا إن للسماء ليلاً غير ليل الأرض وإن لم يعرفوه.

وهذا وحده سبق إلى حقيقة لم يعرفها العلم بالمشاهدة إلاّ قريباً، حين جاءت سُفُن الفضاء وصعد الإنسان إلى القمر، فوجد الأرض كوكباً مُضيئاً يُرى بعيداً في سماء حالكة السواد، لأن الضوء في ذاته لا يُرى، وإنما يظهر أثره منعكساً

عن المرئيات ولا انعكاس في أعلى السماء، فلا ضوء إذن، وإذا كان الضمير يعود في العربية إلى أقرب مذكور فإن الحق مع الغمراوي، وقد جعل يفرّق بين لفظ (أغطش) ولفظ (أظلم) فرقاً دقيقاً حين قال: (وظلمة ليل السماء) يكفي في الدلالة عليها كلمة الليل، أما شدّة تلك الظلمة، فقد دلّ عليها الفعل (أغطش) فلو كان يغني عنه الفعل (أظلم) الذي فسّره به المفسّرون لنزل القرآن به لأنه آنس وأوضح.

ب ـ قال الله عزّ وجلّ في سورة [نوح/ ١٥ ـ ١٦] ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سمٰوات طباقاً. وجعل القمر فيهنّ نوراً. وجعل الشمس سِراجاً ﴾ قال المفسّرون: إن السمٰوات داخل بعضها في بعض، لذلك كان القمر فيهنّ جميعاً، ووجود القمر في إحداها يصدق على وجوده في مجموعها كالدّرّة تكون في علبة داخل علبة داخل أخرى فيصدق عليها أنها في العُلَب الثلاث.

وإنما قال المفسّرون ذلك لاعتقادهم أن القمر واحد لا يتعدّد وقد فاتهم أن الحقائق العلمية في القرن السابع عشر ستستقر بعد أن اخترع (جاليلو) مِنظاره المقرّب، على أن في السمٰوات أقماراً كثيرةً، فالقمر في الآية تدلّ الألف واللام فيه على الجنس لا على العهد، ولذلك كان لكل سماء أقمار لا قمر واحد فلا داعي إذن للقول بأن السمٰوات يدخل بعضها في بعض، ووجود القمر في إحداها يصدق على وجوده في مجموعها كالدّرّة في العُلَب الثلاث.

جـ ـ يقول الله تعالى في سورة [الرحمن/ ١٩ ـ ٢٢]: ﴿ مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان. فبأيّ آلاء ربّكما تكذبان. يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ قال المفسّرون: إن قول الله ﴿ منهما ﴾ يعود إلى أحدهما فقط فيصدق على المجموع، إذ لا يوجد اللؤلؤ إلّا في البحر فقط، ولا يوجد في النهر.

ويعقّب الغمراوي على ذلك بأن اللؤلؤ يوجد في النهر عند ملتقى البحرين في بعض الأقطار، فيكون ذلك إخباراً عن حقيقة اللؤلؤ النهري الذي تذكره دائرة

معارف (هتشنش) المصوّرة وإذ ذاك فالضمير في قوله تعالى: ﴿ منهما ﴾ يعـود إلى البحرين كليهما لا على مجرى واحد.

وهنـاك أمثلة كثيـرة من هـذا الـوادي فـطن إليهـا الغمـراوي فـأراح البُلغـاء واللغـويين والنحويين من عبء كثيـر، حين أخذوا يتكلّفـون في إرجاع الضمـائـر، وتحوير الاشتقاق! وأقول البلغاء قاصداً مَن يُعرَفـون بالبـلاغيين حيث تورّط بعضهم في القول بالمبالغة في مثل قول الله: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إدّاً. تكـاد السمٰوات يتفـطّرن منـه وتنشقّ الأرض وتخـرّ الجبـال هـدّا. أن دعـوا للرحمن ولدا. وما ينبغي للرحمن أن يتّخذ ولدا ﴾ [مريم/ ٨٨ ـ ٩٢].

قـال الغمراوي: «إن المبـالغة لا تكـون إلاّ في كلام محـدودي القـدرة ممّن يعجزون عن الفعل، أما الحق سبحانه وتعالى الـذي لا يُعجزه شيء فـلا يمكن أن تكون هناك مبالغة فيما يخاطب به عباده، إلاّ أن تَـرِد على لسان مَن يتحـدّث عنهم القرآن من الإنس أو الجنّ أو الملائكـة، فالآيـات ليست من المبالغـة، وإنما تقـرّر حقيقـة من الحق، هي أن نسبة الـولد إلى الله من الشنـاعة بحيث تُغضبـه الغضب الذي لولا حلم الله وحكمته لعجّل الله من أجله بالقيامة، إذ أن هذه الأحداث التي ذكـرتها الآيـة لن تقع إلاّ في القيـامة، ونسبـة تلك الأحداث إلى السمـاء والجبـال والأرض من الإعجـاز البـلاغي، إذ ليس يخـطر على بـال مخلوق أن يحكي عن السماء أنها تنفطر، وعن الأرض أنها تهوي منهدّة»[١].

ولهذا النظر الثـاقب حرص الأستـاذ الأكبر محمـد الأحمدي الـظواهري على اختيار الدكتـور الغمراوي أستـاذاً بقسم الدعـوة في كلية أصـول الدين، فقـرأ على الطلاب دروساً في الإعجاز العلمي للقرآن، نشر بعضها في كتابه الـذائع (في سُنن الله الكونية) وقد مهّد لـه بمقدمـة تدلّ على مكـانة العلم في القـرآن، واتّباعـه سُنّة الفطرة الهادية إلى الاسترشاد بالعقل، وكان لظهور هـذا الكتاب النـادر صدىً رنّـان في الـدوائر العلميـة، حتى قال الأستـاذ فريـد وجدي: إنـه من أنفس مـا قيـل في

(١) الإسلام في عصر العلم، ص ٢٨١.

موضوعه، ونقل صفحات كثيرة منه بمجلّة الأزهر التي يُشرِف على تحريرها! والغريب أن بعض الأدعياء قد تناقلوا بعد عشرين عاماً من صدوره حقائقه الرائعة ونسبوها إلى أنفسهم دون حياء، والرجل حيّ يُرزَق يقرأ ويبتسم، ولم تأذن له مثاليته أن يقول للغاصب الناهب: لماذا لم تذكر مصدرك الأوحد!.

- ٣ -

كان عراك الغمراوي في مضمار الحقائق الكونية وصلتها بالقرآن هو الجهاد الأصغر، أما الجهاد الأكبر فعراكه الجاهد مع محاربة الانحلال الديني الوافد مع التيارات الغربية، وهو انحلال ذو مظهر اجتماعي من ناحية، وذو مظهر ثقافي من ناحية ثانية، فمظهره الاجتماعي يتجلّى في كثرة ما ينتشر في المسارح ودور الخيّالة من روايات هابطة تدعو إلى الجريمة، وتشجّع الفساد في الأُسرة، حين يكون البطل نجماً كبيراً لأنه تحلّل من قيود العفّة، ففسق عن أمر ربّه، وحين سَهُلَ باب المعصية لكل مَن يرى المسرح ودور الخيّالة من الشباب إذ يجد الحيلة المحكمة، والتبرير اليسير، كما يتجلّى هذا المظهر فيما يُنشَر في الصُّحُف من خلاعات مُسِفّة، ومن تهجّم على حقائق الإسلام، بدعوى التقدّم الحضاري ومحاربة الجمود.

وقد أسف الغمراوي حين قارن بين عهد صِباه وعهد كهولته، فوجد العهد الأول ذا حفاظ على نصرة الفضيلة في مضمار الصحافة، كان الطعن في الإسلام يُوجّه من كاتب فرنسي كهانوتو، فتقوم قائمة الصحافة المصرية، وتظلّ المؤيّد واللواء وغيرهما ميداناً تركض في ساحته الأقلام نقداً وتجريحاً للباطل، أما عهد الكهولة فقد أصبح الطعن الظالم يجد أسباب التشجيع لدى مَن رأوا تقدّمهم الفكري في اطّراح الدين، ومُجاراة الغرب في اعتزال ما ينتمي إلى الروحية الصافية، بل يجد بواعث التساهل في نفوس مؤمنة ما كان لها أن تتساهل، ولكنها تتعلّل بضعف القدرة على المقاومة تارة، وبأن الإسلام منيع لا تنال منه هذه الهبات المتتالية، وبأن باب التأويل واسع، إذا كان النص صريحاً من كتاب الله، وبأن

الحديث النبوي موضوع إذا خالف موضع الأهواء الهابطة، وبأن الإجماع ليس طريق التشريع، وأنه لم يتمّ في تاريخ الإسلام على وجهه الصحيح.

وكلّ ذلك قد بحثه الغمراوي وأطال في تشريحه وتحليله إطالة شافية، يجد القارىء نماذج حيّة منها في بعض ما نشره بالأعداد الممتازة من مجلتي الرسالة والثقافة بمناسبة العام الهجري والمولد النبوي.

فإذا تركنا المظهر الاجتماعي إلى المظهر الثقافي فلسنا نحصي ما نهض به الكاتب الداعية من معارك نقدية حامية، قامت بينه وبين نفر من كبار الكُتّاب رُزِقوا قوّة الأداء وامتداد الصّيت، وقد آثروا أن يمتدّ هذا الصيت إلى أبعد حدوده بما يجبهون به الرأي العام، من آراء تدعو إلى الغيظ والألم، وإذا تعذّر أن نحصي هذه المعارك الأدبية فإننا نشير إلى ثلاث منها، ولعلّ أشدّها ضجيجاً معركته مع الدكتور طٰه حسين حول قضية الشعر الجاهلي، وهي قضية كاد يلتبس فيها وجه الحقيقة بما انتشر من غبار حالَ دون الرؤية الصحيحة.

فالحق الذي لا مَراء فيه أن الدكتور طٰه حسين قد تعمّد إثارة الجمهور حين نصّ على أن القرآن لا يكفي لإثبات وجود إبراهيم عليه السلام، وهو نص مُقحَم على البحث الأدبي إقحاماً، إذ كان من الممكن أن يخلو منه كتابه الخاصّ بالشعر الجاهلي، ولو خَلَا كتابه من هذا النص ما أحدث ضجيجاً ما، فقضية الانتحال ذائعة قد سطّرها ابن سلام في القديم، وأكدها الرافعي في الجزء الأول من كتابه عن الأدب العربي قبل أن ينشر الدكتور كتابه بخمسة عشر عاماً على الأقل، وبالغ الرافعي في تأكيدها بما لا حدّ وراءه، وهو مَن هو في تحفّظه ويقينه، وجاء مرجليوث فخلط الحق بالباطل، وامتدّ بها إلى حيث السّرف الشديد، وقَفاهُ طٰه حسين فجعلها قضية الموسم! وكلّ ذلك ما كان ليُحدِث ضجيجاً لولا ما تضمنه من المروق الديني!.

وقد سبقت كتاب الغمراوي في نقض كتاب الدكتور طٰه كتب ممتازة، سطّرها الرافعي، ومحمد الخضري، ومحمد الخضر حسين، ومحمد فريد-

وجدي، ومحمد لطفي جمعة، وتأخّر كتاب الغمراوي ليأتي بكثيرٍ مما تركه هؤلاء الفضلاء دون أن يغمطهم فضلهم الجهير.

ونحن نعرف أن لكل ناقد مذاقه الخاص، ولن يغني ناقد عن ناقد إذا اختلفت الثقافات وتنوّعت الاتجاهات، لذلك حفل ردّ الأستاذ الغمراوي بفوائد علمية نادرة، لن تكون إلاّ من مثله ونستشهد لذلك ـ مثلاً ـ بما ذكره عن مذهب ديكارت في الشك، فقد زعم الدكتور أنه يجب على الباحث أن يشكّ في كل شيء، وأن يتجرّد من كل شيء، كما دعا إلى ذلك الفيلسوف الفرنسي، وقد ردّ عليه الخضر حسين، وفريد وجدي، ولطفي جمعة في هذا المنحى بما راق وأعجب، ولكن الأستاذ الغمراوي قد أربى عليهم جميعاً، حين ذكر أن عظمة ديكارت ليست راجعة إلى أنه شكّ ـ كما يريد الدكتور طٰه أن يقول ـ ولكن لأنه تطلّب مخرجاً من الشك، واهتدى إلى طريقة في البحث خرج منها إلى بحبوحة اليقين، وقد أثمرت هذه الطريقة في العلوم الرياضية، ولكنها لم تُثمِر في العلوم الفلسفية إلاّ قليلاً.

على أن ديكارت كان يشك وهو غلام ناشىء قريب العهد بكلية الجزويت، وحين تجاوز العشرين كان قد استقرّ على مذهب يقيني، فدعا إلى الشك المبدئي لا ليجعله هدفاً وغايةً، يل ليكون وسيلةً إلى يقين جازم! وإذا كان الدكتور قد دعا إلى أن يشك كل باحث في كل ما تقدّمه من البحوث، فليس هذا سبيل العلماء، إذ لو ابتدأ كل باحث بالشك فيما قاله السابق ما تقدّم العلم خطوة، وإنما السبيل أن يعمد الباحث إلى ما تقدّمه، فإذا كان صحيح الوجه تركه إلى سواه، وانتقل إلى مناطق الشبه ليجلوها، أما أن يكون الشك لذات الشك مع وضوح الدليل في جانب اليقين فذلك هو الشَّطَط الكبير.

وقد أطال الدكتور طٰه في الحديث عن الشعوبية، ورمى أبا عبيدة بالاختلاق لأحداث التاريخ المسلم بها، وخاض في هذا المنحى بما عفى عليه ناقِدوه بالمنطق الحاسم، وقد جاء الغمراوي في هذا الصّدد بما دلّ على تناقض المنقود

تناقضاً مكشوفاً يعصف بنتائجه، فقال ما فحواه: إن صاحب البحث يـزعم أن علماء الموالي كانـوا يزدرون العـرب، ويحرصـون على تسجيل مثـالبهم، ثم يزعم عقب ذلك أن العرب كـانوا يـرجعون إليهم في كـل ما يـروونه من لغـة وأدب، واستشهد بأبي عبيدة، وهنا يتساءل الغمراوي: أفلم يكن هؤلاء الذين يـرجعون إليـه يزدرونـه كما يزدريهم لو صحّ ذلك ـ أو لم يخشوا منـه أن يدسّ عليهم مـا يهوي بمنـزلتهم، وهم يعرفون مبلغ ازدرائه إياهم! ثم ما قول صاحب الكتاب في أن أبا عبيدة الـذي يقول عنه إنه كان يُسرِف في بُغْض العرب وازدرائهم هو نفسه الذي روى أكثر أيـام العرب انتصاراً ومجداً، ومنها يوم خزار الـذي انتصف فيه العـرب من اليمن، ويوم ذي قار الذي انتصف فيه العرب من الفرس، أفيكون متعصّبـاً للفرس على العـرب ويسجّل ذلك بإفاضة وإسهاب؟.

والحقّ أن الغمراوي كان صادقاً حين سمّى كتابه بالنقد التحليلي، لأنه جعل يقف أمام كل رأي ليحلّله، وليفتّته تفتيتاً يـدعه كـالهباء الـطائر، لأن روحـه العلمية حتّمت عليه أن يسلّط مِجهره على كل زاوية ليرصد دقائقها الخافية، ومن هنا كانت الجِدّة في كتابه الذي تأخّر عن كتب سـابِقِيه، وهـو لا مَحالـة قد انتفـع بآراء هؤلاء الفضلاء، ولكن اتجاهه العلمي التحليلي قد فتح عليه بالكثير مما تركوه. ونستشهد ـ ثالثاً ـ لذلك بما قاله في الردّ على ما ذكره الـدكتور طٰـه من تلفيق حمّاد الـراوية، وخلف الأحمر، ونسبتهما الشعر لِمَن لم يقله، حيث أوقع الدكتور في مأزق حرج، حين سأله عمّا ادّعاه من قدرة «حمّاد وخَلَف» على التلفيق فقال[1]:

ولسنـا ندري إن كـان يريـد أن الله قد اختصّ الملفّقين وحـدهم بهـذا العلم الفذّ، والقدرة المتفوّقة، أم أن الله قد أشرك معهم في ذلك غيرهم، من أهـل الثقة والبصـر، فيكون اشتـراكهم مع أولئـك في العلم والقدرة واقيـاً من الانخداع بهم، والـوقوع في شـرك تلفيقهم، على أننا نحبّ أن نعـرف من أين جاء هؤلاء المُلَفّقين ذلـك العلم وتلك المقـدرة وهم ولـدوا ومـاتـوا متـأخـرين، ولم تـولــد معهم تلك

---

(١) النقد التحليلي، للغمراوي، ص ٢٦٤.

المقـدرة، ولا ذلك العلم بـالشعر، أفليس إقـرار صاحب الكتـاب لهم بهـذا العلم الواسع يلزمه من ناحية أخرى أن يقرّ بأنه قد كـان هناك قبـل أن يولـدوا علم باللغـة والشعـر، فلما نشـأوا أخذوه وتفـوّقوا فيـه، ثم أليس إثبات مثـل ذلك العلم لحمّـاد وخلف دليلاً على أن غيرهما كان يعلمـه، وكان يقـدر على النقد كمـا كانـا يقدران على الوضع، بفرض أن الوضع ليس في ذاته أصعب ولا أشقّ من النقد.

ويطول القول إذا تتبّعنا أمثال هذه البوادة الساطعة فلنجزىء.

أمـا المعركـة الثانيـة، فقد كـان الدكتـور زكي مبارك طـرفها الثـاني، إذ شاء الأستاذ الغمراوي أن ينقض بعض آرائه المتسرّعة في كتاب (النثر الفنّي) الذي نال به درجة الدكتوراه من جامعة السوربون بباريس، وقد تأخّر نقد الغمراوي عن زمـان صدور الكتاب بنحو أحد عشـر عامـاً، ولعلّ مـردّ ذلك إلى أن النـاقد كـان مشتغلاً بتأليف كتابه (في سُنن الله الكونية) وبترجمـة كتاب (مـرشد المتعلّم) حتى إذا فـرغ من ذلك، تابع الدكتور مبارك في مآخذ طارئة تتعلّق بمقـاله عن النـواحي الإنسانيـة في حياة الرسول، واستتبع الجـدل جدلاً دفـع بالغمـراوي إلى الرجـوع للنثر الفنّي كي يكشف عن أخطائه.

وكان ردّ الغمراوي من القسوة بحيث أثار ثـائرة الـدكتور زكي مبـارك فخاصم الأستاذ الزيّـات، وكفّ عن النشر بمجلة الـرسالـة بعد أن كـان فارسهـا الأول لعدّة أعـوام، وعلى صفحاتهـا جابـه طٰه حسين، وأحمـد أمين، وعبد العـزيز البشـري، والسبـاعي البيّومي وتـوفيق الحكيم بأعنف مـا يقال، حتى دعـاه الزيّـات بالمُـلاكم الأدبي الذي لا حيلة في دفعه.

وكنّا نطمع من زكي مبارك أن يكـون ذا روح رياضيـة حين يتناول كـأساً مـرة قـدّم نظائـرها لسـواه، ولكنه هـاج وسبّ وغضب، فلم يَحُلْ ذلـك دون أن يستمـر الغمراوي في نقض الكتاب.

ومَن يعرف غيرة الغمراوي يؤكد أنه سيكون قاسياً على صاحبه، إذ أن مؤلّف النثر الفنّي قد تورّط في شطط كان الأولى به أن ينأى عنه، وذلك حين ادّعى أن مَن

تعرّضوا للقرآن من السابقين كان همّهم أن يُظهِروا محاسنه ووجوه إعجـازه، مع أن النقـد في رأي زكي مبارك هـو أن يقف الباحث الأدبي مـوقف الممتحن للمحـاسن والعيوب.

وقد حسم الغمراوي القضيـة حسماً بـارعاً حين ذكـر أن معجزة الله في خلق الكائنات هي معجزته في إعجاز القرآن فكما ينظر العالِم الطبيعي إلى آيـات الكون بروح الباحث المستشفّ لأسرار القدرة، فكذلك ينـظر الأديب الناقـد إلى كلام الله بروح المستشفّ لمناحي الإعجاز لأن القدرة هنا هي القدرة هناك، وكما لا يستطيع عالِم الطبيعة أن يقول إن هناك خرقـاً في خلق السموٰات والأرض، فلن يقـدر ناقـد الأدب أن يقـول إن هناك ثلمـاً في صياغـة القرآن، يقـول الأستاذ الغمـراوي رحمه الله[1]:

«إن القـرآن الكـريم كـلام الله، كمـا أن النبــات والحيـوان والكــواكب من كلماته، وإن اختلف الخطاب، بكلٍ خـاطب الله عباده، وعن كـل أعجز خلقـه أن يأتوا بمثله، ليكون عجزهم دليلاً لهم، وحجّة عليهم، أفيدرس الناس آيات الله في الحيوان والنبات والكواكب لا يتوقعون عيباً، ولا يرون إلّا كمالاً يتفاقم ويزداد، فلا يجد زكي مبارك في ذلك ما يلمزهم به، ولا يعد علمهم لذلك غير صحيـح، حتى إذا درسـوا آيات الله في الكتـاب العزيـز، فلم يتوقّعـوا نقصاً، ولم يـروا عيباً، ولم يجدوا إلّا كمالاً وإعجـازاً لمـزهم وهمـزهم وقال: لم يـذكروا إلّا المحـاسن، كأن هناك بجنب المحاسن عيوباً كان عليهم أن يذكروها، وإلّا كانوا غير نقّاد».

وقد أخطأ زكي مبارك حين زعم أن الباقـلاني في مجال المـوازنة بين الشعـر والقرآن كان يأتي بالقصائد الضعيفة ليرتفع النص القرآني بإزائها، وهـذا غير الحق لأن الباقلاني قد اختار المشتهر الرائع من عيون قصائد امـرىء القيس، وأبي تمّام، والبحتري، وهم من أمراء الشعراء دون نزاع، وقـد أبان الغمـراوي ذلك في إيجـاز كان في وسعه أن يُطيله بالاستشهاد لأن القضية أوضح من ضوء النهار.

---

(١) الرسالة، العدد ٥٦٣، ١٧/٤/١٩٤٤ م.

والنثر الجاهلي قد حكم الدكتور مبارك بوجوده، ولكنه طعن في كل ما رَوَت الكتب منه، مثل خطبة قس بن ساعدة، ليقول إن القرآن شاهِد على وجود النثر الجاهلي قال الدكتور مبارك:

ولا ينبغي الاندهاش من عدّ القرآن أثراً جاهلياً، فإنه من صور العصر الجاهلي، إذ جاء بلغته وتصوّراته وتقاليده، وهو بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرّده بصفات أدبية لم تكن في ظنّهم معروفة عند العرب ـ يعطينا صورة للنثر الجاهلي، وإن لم يكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي من الكُتّاب والخطباء.

فيقول الأستاذ الغمراوي تعقيباً على ذلك[1]: «فهل رأيت أو سمعت بحمق كهذا الحمق الذي يريد أن ينفي عن العرب تهمة أخْذ النثر الفنّي من الفرس أو اليونان، فلا يرى سبيلاً إلى هذا إلاّ أن يسلبهم القرآن كتاباً من عند الله ليردّه أثراً جاهلياً يُثبِت لهم به ذاتية أدبية، أفترى هذا الرجل يرى القرآن من عند الله أم من عند العرب، وإذا كان من عند الله فكيف يمكن أن يثبت به للعرب ذاتية أدبية كالتي أراد، وليس للعرب منه حرف، وإن كان أثراً جاهلياً يثبت قدم النثر الفنّي، أي نثر الرسائل والكتب، فكيف يمكن أن يكون من عند الله؟».

وفي رأيي أن المسألة في هذه النقطة بالذات أقلّ مما تصوّر الأستاذ الغمراوي، لأن زكي مبارك يريد أن يقول: إن القرآن قد أعجب العرب وتذوّقوه وفهموه، فهم بذلك أهل بيان وفكر! ولكنه تسرّع حين زعم أن القرآن يمثّل النثر الجاهلي!! لقد كان عليه أن يقول إنه يدلّ على أن الذين نزل فيهم يُحسِنون القول ويتذوّقون أنماطه الرفيعة، فجاءهم القرآن بنمط يُحسِنون تذوّقه، ولا يقدرون على صوغه! ولعلّ ذلك ما أراد المبارك ولكن طريقته الأسلوبية تُجبره على القفز الواثب دون تحديد، والتماس المعاذير أولى.

---

(١) الرسالة، العدد ٥٦٥، ١/٥/١٩٤٤م.

وليس من سبيلنا أن نتتبّع مواضع الأخذ والردّ فيما نتعرّض له، ولكننا نُشير فقط إلى أُنموذج أو أُنموذجين لندفع بالقارىء إلى الاستيعاب إذا أراد، وقد حدّدنا له المصادر بأرقامها وتواريخها، لأننا نكتب فصلاً ولا نؤلّف كتاباً.

ونترك زكي مبارك إلى عبد الرحمن شكري، حيث قامت بينه وبين الأستاذ الغمراوي معركة أدبية نبيلة، امتدّت قرابة عام كامل على صفحات الرسالة ما بين سنتي ١٩٣٨ و١٩٣٩ م، وأقول معركة نبيلة لأن الأستاذ عبد الرحمن شكري كان يكتب مقالاته المتوالية بإمضاء (قارىء)، ولكن الزيّات كان يعنونها بعنوان بارز إذ يقول في رأس كل مقالة إنها لأحد أساطين الأدب الحديث.

وكان شكري عفّ المنطق طاهر اللسان، مستقيم الرأي، فصادف من صاحبه ارتياحاً لمنزعه الأخلاقي في المعارضة وبادله تقديراً بتقدير، ومدار النقاش في هذه المعركة كان متّجهاً إلى ما عُرِف حينئذٍ بقضية القديم والجديد، إذ كتب الأستاذ الغمراوي عدّة مقالات ينتصر فيها للرافعي في مواجهة الأستاذ سيّد قطب، فأعلن أن المسألة مسألة دين وأخلاق قبل أن تكون مسألة أدب وشعر، وأن المجدّدين يريدون هدم الدين، أما أنصار القديم فمن مذهبهم الحفاظ عليه، وهو كلام لم يُرضِ الأستاذ عبد الرحمن شكري باعتباره في طليعة المجدّدين، وإن دار النقاش حول العقّاد، وطٰه حسين، لا حول شعره، فرأى أن يتستّر تحت توقيع (قارىء) ليدفع عن الجديد الذي يتزعّم أمره مع العقّاد.

وقال فيما قال ـ وصدق حقاً ـ ليس كل قديم داعياً للفضيلة، فعندنا آثار امرىء القيس، وعمر بن أبي ربيعة وأبي نواس، وما جاء في الأغاني بأجزائه العشرين، وكلها من الأدب القديم، كما ليس كل جديد داعياً للتحلّل، فعندنا شعراء وأُدباء يسلكون مسلك الرافعي في الحفاظ عن الدين، بل عندنا من أنصار القديم مَن أعانوا على نشر طائفة من الشعر الماجن وهم رجال دين، مثل: السيد توفيق البكري في فحول البلاغة (قال شكري في صهاريج اللؤلؤ ناسياً لأن صهاريج

اللؤلؤ قد خَلاَ من المجون دون فحول البلاغة) ومثل الشيخ محمد شريف سليم فيما نشر من شعر ابن الرومي!!.

فليست المسألة إذن مسألة قديم وجديد، قدر ما هي مسألة اتجاه واتجاه، وقد ردّ الغمراوي على شكري شاكراً ومقدّراً في مقالات متتابعة، ذاكراً أنه يريد بالقديم قديم الإسلام لا قديم المسلمين.

فكلّ ما دعا إليه الإسلام من الفضائل الخلقية وتابعه المسلمون محبّذين فهو القديم بعينه، وإن كان جديداً يقوله شعراء اليوم، وكلّ ما حاربه الإسلام من الرذائل والمُوبِقات واتّجه إليه المتحلّلون فهو ما يعنيه بالحديث وإن قاله شعراء العصر الأموي وشعراء العصر العباسي، فالمعيار الثابت في القِدَم والحداثة، وفي الخير والشرّ، وفي المجون والورع، وفي القبح والجمال، يجب أن يرجع إلى تعاليم الإسلام، وبهذا يفهم الأدب العربي في ميزان الدين الصحيح! وقد طال النقاش في غير إسراف، ولكنه انتهى بتحرير المناط كما يقول الأصوليون.

ولقد ظلّ الأستاذ الغمراوي يحمل رمح الفارس في حومة النضال الأدبي حتى آخر عام من وفاته، فما برزت قضية من قضايا الأدب والتربية والاجتماع إلّا كان الرجل صاحب الصوت المؤمن في حلبتها، لقد ناقش قضية سفور المرأة، وناقش قضية الفن القصصي في القرآن، وناقش قضية ترتيب سور القرآن وفق النزول.

وجاءه اليقين بعد أن فرغ لساعته من كتابة آخر مقال لمجلة الأزهر يناقش فيه قضية السجع في القرآن الكريم مُعارِضاً ما اتجه إليه ابن الأثير وابن الصائغ من دعوى التقديم والتأخير في الآيات رعاية للفاصلة، وهو مَنحىً أيّده الدكتور عبد الرؤوف مخلوف على صفحات مجلة الأزهر، وعارضه الأستاذ الغمراوي، ولكلٍّ دليله المختار، ولكن المهم في ذلك كله أن الرجل في شيخوخته قد لبّى نداء ربّه ومداد قلمه على صحيفته لم يجفّ، ليشهد له عند الله بمواصلة الجهاد

على وهن الكِبَر، وصراع الدّاء، ولن يضيع ثـوابه المضـاعف لدى ربّـه، فمَن جاء بالحسنة فله خير منها، وما يُلقاها إلاّ الذين صبروا.

الدكتور محمد حسين هيكل والتـــاريخ الإســـلامي

- ١ -

نشرت مجلة طائفية أن كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، وقد كتبه مؤلّفه دون أن يعتقد ما جاء به، إنما فعل ذلك رغبة في الكسب المادي، وحبّاً في الاشتهار.

قرأت ذلك فغلى الدم في عروقي، غضباً على مَن يتجرّأ على تزييف الحقائق، وابتداع الأراجيف، وعهدي بمَن يحوكون الإفك أن يكونوا مَهَرَة في التلفيق، فلا يختلقوا الأكذوبة إلاّ إذا أحكمت على وضع يُوحي بالصدق، أما أن يكون الافتراء واضح البُطلان، صريح البُهتان، هكذا، فتلك آية الغباء السخيف.

لقد كان الدكتور هيكل زعيماً من زعماء الأدب في عصره، وكان اسمه يسير مسير الشمس في الشرق العربي قبل أن يتّجه إلى دراسة التاريخ الإسلامي! فكيف يحرص على الاشتهار مَن فاض حديثه، ودوّى صيته، وقام على تحرير أعظم مجلة أدبية في عصره!.

وكيف يتطلّب المكسب المادي، ومكانته من السياسة اليومية، ومن حزبه السياسي، ومن رواج مؤلّفاته، مما يُجْبىٰ إليه المال دون حساب، فوق ما ينعم به من ميراث أبيه، مع ما يقرّ به عارِفوه من قوة إخلاصه، ونبيل ترفّعه، وشدّة إبائه!.

لقد عزّ على هؤلاء المرجفين أن تكتب أنصع الصفحات عن نبيّ الإسلام في كتاب مُبين، تتعدّد طبعاته، ويشتهر حديثه، وتدوّي حقائقه، فتشفي صدور قوم مؤمنين!.

عزّ عليهم ذلك دون أن يملكوا من النقد العلمي ما يضائل من لألائه الآخذ، فكان قُصاراهم أن يعمدوا إلى الأراجيف، وقد جهلوا أن دولة الباطل لا تدوم، وأن الزبد يذهب جفاء، وأنه لا يصحّ إلّا الصحيح.

وإذا كان الدم قد غلى في عروقي حين قرأت ذلك. فلا بدّ أن أُسكِت لفح الغضب في صدري بحديث عن الدكتور محمد حسين هيكل والتاريخ الإسلامي.

- ٢ -

نعرف أن تاريخ الإسلام في عصر النبوّة المحمدية، والخلافة الراشدة موضع فخار للمسلمين، وباعث كرامة وعزّة لمَن شُرِّفوا بهذا الدين، إذ ضمّ من خوارق التضحية في سبيل الإنسانية ما يبعث على الاحتذاء، ويدفع الخَلَف إلى ضرورة إحياء هذا المجد التالد من جديد، فالتذكير بهذا التاريخ يُؤتي أُكُله الشهيّ إذا أدّى على خير وجوهه من التسجيل.

ونحن نعرف أن كتب القدماء في أكثرها، روايات تتآلف وتتعارض، وأخبار تتوالى منتظمة حيناً، ومضطربة حيناً آخر، وقارئها المُعاصِر في حاجة إلى صبر طويل ليميّز الخبيث من الطيب، ثم إلى مقدرة خاصّة من الفهم يصل بها إلى لُباب الأحداث، مُؤلّفاً من شتاتها تصوّراً مجموعاً لما كان.

وقد بذل المُعاصِرون قبل الدكتور هيكل جهداً مشكوراً في كتابة تاريخ هذه الحقبة، على نحوٍ يُوحي بالتسلسل المطّرد، ويمنع التخلخل المضطرب، فكتب أمثال محمد الخضري، وعبد الوهّاب النجّار ورفيق العظم تاريخ هذا العهد كتابة ذات جهد وإخلاص، وقد أشرت إلى جهودهم بالتفصيل فيما قبل هذا الحديث[1]، ولكن ما كتبوه جميعاً كان إلى الردّ أقرب منه إلى التحليل، فلا ننكر

(١) تاريخ النهضة الإسلامية، للمؤلّف، جزءان.

إخـلاصهم واجتهادهم فيمـا دوّنوه، ولكنهم قـد تركـوا لغيرهم أن يقـول مـا يتمّ بـه صنيعهم البادىء، تحليلاً وتشريحاً ورجوعاً بالنتائج إلى المقدمات، ومن وراء ذلك كله قلم بـارع تنهمر شـآبيبـه على القـارىء كمـا يتـدفّق الغيث، ليحيـي ويخصب ويُزهِر، ذلك هو قلم الدكتور هيكل دون نزاع.

قـد يكتب التاريـخ الإسلامي في عهـده الأول داعيـةً نشـأ في مهـاد الثقـافـة الإسـلامية، ووطّـد نفسه على أن يكـون أحـد الهُـداة المـرشـدين، ومثـل هـذا لا يُستغرَب منه أن يشيـد بعظمـة نبيّ الإسلام قـدر ما يستـطيع، إذ لا يتـوقّع منـه غير ذلك، فإذا أتقن ما كتب جاء إتقانه طبيعيـاً لا يُثير سؤالاً، ولا يستـدعي تعليلاً، أمـا إذا كان المتحدّث عن تاريخ الإسلام كاتباً لم ينشأ في مهاد الثقافة الإسلاميـة، ولم تُوحِ مبادئه الأولى بأنه سيكون ذا قلم يهتف بمجد الإسلام، بـل إن هذه المبـادىء ربمـا أوحت للناس بحتميـة ابتعاده عن هـذا المنحى المشهود، إذا كـان المتحدّث عن تاريخ الإسلام هو هذا الكاتب، فإن إبداعـه البياني وإخـلاصه العلمي وتـوقّده العاطفي، مما يجب أن تُبحَث أسبابه، لتكون موضع الاعتبار والتأمّل.

وهذا ما يدعونا إلى متابعـة حياة هيكـل الثقافيـة متابعـة واعية، لنعـرف كيف انتقـل من اتجاه إلى اتجـاه، بل لنعـرف كيف كان صـادقـاً حين آثـر اتجـاهـاً على اتجـاه، وفي ذلك ردٌّ قـاطع على مَن يُلبِس الأشيـاء غير أثـوابها، فيتعلّل بـالكسب المـادّي تارةً وبحبّ الاستشهـار تارةً أخـرى، وهو يعلم في أطـواء نفسه أنـه يفتعل مختلقاً، ويزوّر ملفّقاً، إذ بَدَت البغضاء من لفظه مترجمة عن بـاطن محترق وصـدر مشبوب.

ذهب الدكتور هيكل إلى فرنسا في أوائل هذا القرن، بعـد أن أتمّ دراسته في مدرسة الحقوق بمصر. وكان بريق الحضارة الأوروبية حينئذٍ يخطف أبصار كثيرٍ من الشباب المسلم، إذ ينظرون فيجدون دولهم الإسلامية ترزح تحت نيـر الاستعمار، وقد جنّدت الأقـلام المستعمرة لتصمّهـا بالتـأخّر والغفلة والجهـل ولتجعل الإسـلام المُفتَـرَى عليـه علّة العِلَل، في هـذا التخلّف المنحـدر، إذ هـو في زعمهم عـدوّ

العقـل، وموطن الخـرافة، وذو شـريعة بـدويـة قـاسيـة، لا يمكن أن تـلائم عهـود الحضارة والتمدّن فهي العقبـة الكأداء في كـل إصلاح يُـراد، أما الغـرب بحضارتـه وفلسفتـه وحريتـه وعلمه فقـائد الإنسـانية الحقيقي، وبـاريس رائده القـائد، إذ هي مدينة النور، وصاحبة الدعوة الأولى إلى الحرية والإخاء والمُساواة.

هذا ما جنّدت الأقلام المستعمرة لترديده وبثّه في كل قطر إسـلامي عن عَمدٍ مُغرض، وتدليسٍ كريه.

وهيكل الشاب يقرأ ذلك، وينظر ما حوله في بيئته الجديدة فينفعل بما يرى، ويتـأثّر بمـا يقرأ، ثم تجيش خـواطره بمـا يقرأ ويُشـاهد، فيـدفع بقلمـه إلى تمجيد الحضـارة الحديثـة، ويتّخذ من أُدبـاء فرنسـا ومفكّريهم مـوضعاً لتحليله الأدبي في مقالات يُرسلها من باريس إلى مصر لتنشر في الجريدة، ويخصّ جـان جاك روسـو بمقـالات تحليلية كـانت نُـواة لمـا أصـدره عنـه من مؤلّفـات مستقلة، حتى إذا أتمّ دراسته القانـونية ورجـع إلى مصر لم يتـرك قلمه دون أن يجـول به في شجـون من همـوم الشرق، وفنـون الغرب، ومن حـوله نفـر يميلون إلى اتجاهـه، بل يـزيـدون فينتقلون من تمجيد فرنسا وإنجلترا إلى مهاجمة التقاليد الشرقية متسلّحين بما قرؤوه لقساوسة المبشّـرين وكَهَنَة المستعمـرين، دون أن يرجعـوا إلى حقائق الإسـلام في تـراثه الأصيـل، وأين هم منه؟ وهـو في رأيهـم أوراق صفراء، سُـطِّرَت في عصـور الانحطاط.

ثم شاء الله أن تنهار الدعائم فجأة، دعائمهم التي كـانوا يـرونها أثبت من أن تزول.

انهارت هذه الدعائم حين قـامت الحرب العـالمية الأولى، لتُنبىء عن فسـاد الحضارة الأوروبية، وطلائها الظاهري الخادع بما لم يكونوا يحتسبون.

وما ظنك بـأُمم تدّعي قيـادة الإنسانيـة ثم توقـد لهيباً يمتـدّ إلى أطباق الكـرة الأرضيـة جميعها، فيحصـد عشرات المـدن بما تضمّ من أرواح ومنـازل وميـادين، ويترك وراءه حشوداً من الأرامل واليتامى والمشوّهين، حتى إذا انتهت الحرب وظنّ

الظّانّون أن فريقاً ارتكب وزرها دون فريق، وأن فرنسا وإنجلترا لم تكونا ذواتي أثر في اندلاع اللهيب، إنما اضطرتا إلى الاصطلاء بناره، بعد أن أخذ يحاصرهما عن شمال ويمين، حتى إذا ظنّ الظّانّون ذلك، وجدوا هاتين الدولتين تتقاسمان ربوع الشرق مستعمرة باطشة، وتصبّان العذاب صبّاً على الهند والمغرب والشام ومصر، فتقذف المدافع حِمَمَها على الآمنين في منازلهم، في منتصف الليل لتُسكِت كل صوت ينادي بالحرية والاستقلال، وأبناء البلاد يخوضون حرباً غير متكافئة بين الأعزل المُسالم، والمُحارب المُهاجم.

أين إذن حضارة الإنسانية المتمدّنة؟!.

وأين خديعة العلم والنور والحرية؟

وأين العمل على قيادة الشعوب المتخلّفة إلى مدارج التقدّم والارتقاء!؟ مما طنطنوا به ساعة الهول ثم ولّوا عنه مفترسين.

إذن شاهت الحضارة الأوروبية في عين هيكل، ورأى آماله التي بشّر بها في رسالتها الإنسانية رماداً تذروه الريح في يوم عاصف، فأخذ يفكّر في اتجاه جديد ينقذ بلاده من التقهقر، ويفتح أمام مصر نوافذ الأمل من جديد.

وكان المدلسون من دُعاة الغرب قد أخذوا يكتبون عن الحضارة الفرعونية القديمة معجبين، لا حبّاً في هذه الحضارة، ولكن ليُوهِنوا رابطة الإسلام ببعث النعرات الإقليمية في كل قطر من الأقطار، فالفرعونية في مصر، والآشورية في العراق، والفينيقية في لبنان وسوريا، والبربرية في المغرب، هي الوسائل المختارة لإبادة الترابط الديني بين العرب، وتفريق التكتّل الروحي بين المسلمين، وقد خدع الدكتور محمد حسين هيكل بهذا البهرج فيمن خدع، فولّى وجهه شطر الفرعونية حيناً من الدهر، يرى ماضيها البعيد موضع اعتزاز، وموئل فخر ومباهاة، ومبعث أمل يوشك أن يورق، فأخذ يكتب الفصول عن مينا وخوفو وتحتمس ورمسيس وتوت عنخ آمون!.

ولسنا ممّن يُنكرون أن يكتب تاريخ الأجداد على نحو يبعث الاستطالة والمُباهاة، ولكننا ننكر أن يكون حديث الفرعونية ستاراً لقطع الأواصر الواشجة بين العرب والمسلمين، وهو ما عناه دُعاة الاستعمار، لأنهم في قرارة أنفسهم لا يريدون غير الحديث عن أوروبا وحدها، فإذا تعذّر أن تؤمن البلاد بسيطرة الدخيل المستعمر، وإذا تجمعت الأمم المغلوبة تحت راية واحدة تذكّر بالأمس المضيء، فلتكن الفرعونية قي مصر، كما تكون الآشورية والبربرية والفينيقية في أماكنها، مِعوَل هذه الرابطة الوطيدة التي تؤلّف بين العرب والمسلمين.

ولكن هيكلاً لم يلتفت إلى ذلك في بعض أيامه، فأخذ يوالي زياراته لآثار الفراعنة في الأقصر وأسوان والجيزة والفيّوم والشرقية، متحدّثاً عن أمجاد التاريخ الغابر، وداعياً إلى استلهامه، وكان الشاب المتحمّس مخلصاً لاتجاهه الثاني فيما بينه وبين نفسه، كما أخلص لاتجاهه الأول حيناً من الدهر، فرأى في مجد الفراعنة ما يفتح منافذ الأمل لشعب محتل له من عزّة أجداده سبيل مُمهّد للحرية والاستقلال.

ثم أخذ يتلفّت عن يمين وشمال ليجد الصدى المؤثّر لما يكتب فلا يرى غير الفراغ!! لأن مصر الإسلامية لا تعتزّ بشيء اعتزازها بدينها الكريم، فالوطن وطن عربي إسلامي يُضيئه القرآن، ويقوده الأزهر في اتجاهه الروحي، ولن تصل إلى آذانه نعرات المفتونين بالآثار والحفائر والعاديات!.

ولمّا كان الدكتور هيكل في صميم روحه طالب حقّ، يرتاد كل سبيل ليجد منافذ النور، فقد أدرك بعينيه إخفاق الدعوة إلى الفرعونية، وتأكد أن الطنين لا يبلغ الآذان، فأخذ يبحث من جديد عن أقوم العمل لبعث الأمة العربية، فوجد ضالّته المنشودة في تاريخ العرب ومجد الإسلام، فاتجه بخالص جهده بعد أن استحصد فكره، واتّسع أُفقه، وعمقت تجريباته، إلى الدراسات الإسلامية، مبتدئاً بسِيرة رسول الله ﷺ، ومعقّباً بسِيَر الأعلام من أمثال أبي بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفّان.

وفي خلال حديثه عن سياسة هؤلاء، تحدّث عن أبي عبيدة ابن الجرّاح، والمثنّى بن حارثة، وخالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقّاص، وعمرو بن العاص، وغيرهم من أبطال الفتح الإسلامي، بما يدلّ على غيرة إسلامية يدعمها إخلاص زائد للحقيقة، وصدق بالغ في الأداء، ولو تنفس به العمر أكثر ما تنفس، لتحدّث عن عليّ بن أبي طالب في كتاب برأسه كما فعل مع سابقيه.

وكيلا يظن القارىء أننا نستنتج القول استنتاجاً شخصياً دون أن تكون خلاصته واقعاً ملموساً من حياة الدكتور هيكل، فسأتركه يتحدّث عن نفسه حين يقول ردّاً على مَن يخفى عليهم جوهر الحضارة الإسلامية فيتخبطون في اتجاهات تتعارض وتتصادم، وذلك من مقدمته الرائعة لكتابه الذائع (في منزل الوحي)[1]:

«لقد حاولت أن أنقل إلى أبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية، وحياته الروحية، لنتخذها جميعاً هدىً ونبراساً، لكنني أدركت بعد لأيٍ أني أضع البذر في غير منبته، فإذا الأرض لا تتمخّض عنه، ولا تبعث الحياة فيه، وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد، في عهد الفراعين موئلاً لوحي هذا العصر، يُنشىء فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن، وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة، ورويت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي يُنبِت ويُثمِر، ففيه حياة تحرّك النفوس، وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل في الشرق، نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين».

- ٣ -

إن بذرة الإيمان في نفس الدكتور هيكل لم ينقطع نماؤها المتصل في فترة ما من حياته، حيث لم نعهد عليه نزقاً فكرياً طائشاً حين اتصل بثقافة الغرب، دارساً ومُقيماً، كما عهد لدى نفر كانت المُباهاة بالإلحاد وسيلة للنباهة الخادعة لديهم،

(١) في منزل الوحي، ص ٢٤، ط ٢.

بل عرفت عنه الاستقامة الفكرية الجادّة، والاعتدال المتّزن، مع أنه في حديثه عن أمثال جان جاك روسو في صدر حياته، كان من الممكن أن ينحدر بقلمه إلى تمجيد نوع من السلوك الشاذ، مأخوذاً بما يحيط الكاتب من هالات النبوغ، أو على الأقل كان من الممكن أن يلجأ إلى تبرير ما تورّط فيه صاحب العقد الاجتماعي من هنات يقف لديها الأخلاقيون مشفقين.

لم يكن منه هذا التمجيد، ولم يكن منه هذا التبرير، على وجودهما الواضح لدى كثيرٍ ممّن تباهوا بالحديث عن روسو، وعن مذهبه في السياسة والتربية والاجتماع، وذلك ما ينطق بأصالة السموّ النفسي لدى هيكل، بل ما يؤذن باتجاهه الروحي فيما سيأتي من أيامه.

وقد قدّر عليه أن يرأس تحرير جريدة كان من مُحرّريها مَن يتشدّقون بالهجوم على مقرّرات دينية راسخة الأساس، ولم يكن هيكل أقلّ من أحدهم ذكاءً، أو أضأل منه صوتاً، ولكنه كان كالعقّاد في اتجاهه الجادّ القويم، يقرأ آثار المتطرفين والمعتدلين من الماديين في الغرب، أو من سواهم، ليظلّ له في استيعابه عقله المسيطر، وروحه الموجّه، ولينأى عن أساليب الخداع، محتقراً بواعث الإغراء الكاذب، بانتشار الدويّ، وادّعاء السيطرة المستعلية عن سبيل مجابهة الجمهور في مخالفة ما يعتزّ به من قيم!.

هكذا كان هيكل نظيف القلم في كل ما كتب، حتى ظهر معدنه الأصيل حين بلغت بذرة اليقين في نفسه أقصى مراحل نموّها، فامتدّ ساقها، وأورقت أغصانها، وتساقطت ثمراً شهيّاً داني القطوف، ظهر ذلك من نفسه واضحاً في موقفه من مأساة التبشير في مصر، إذ كان عجيباً كل العجب أن ينهض نفر ممّن عنيناهم بالقول إلى التهوين من شأن التبشير، وادّعاء أن العقيدة الثابتة لا يمكن أن تتزلزل، وهو اتجاه أقلّ ما يُقال فيه إنه لا يعبأ بمصير هؤلاء الذين خدعوا بالإغراء الكاذب فاستسلموا لجواذب التبشير، إذ سدّت به حاجاتهم الذاتية إلى المال أو المنصب، أو ما يستميل النفس من متع الحياة.

كان عجيباً كـل العجب أن ينهض هذا النفـر إلى التهوين من شـأن التبشير، على حين يعلو صـوت الدكتـور هيكل بمهـاجمتهم الصريحـة، ولا ننكر أن جـرائد الجهاد والبلاغ وكـوكب الشرق قـد أسهمت في الحملة على التبشير، فـذلك شيء طبيعي من جـرائد تنـطق بلسان الشعب، وتعبّـر عن الأكثريـة المطلقـة من مشاعـر المصـريين، إنما نـطري الدكتـور هيكلاً لأنـه نجا بـالسياسـة اليـوميـة عن أن تـذلّ بالسكوت عن هذا المأثم الفاضح، وله زملاء في التحرير يحاولون تجـاهل الأمـر، وكأنه لا يمسّ الأمة في شيء، ولم يُؤثِر هيكل السكوت، بل كان أعلى المهاجمين صوتاً، وأقواهم صيالاً، وأشدّهم مواصلة للاستنكار، وبحثـاً عن العوامـل المستترة والظاهرة وراء هذا الإجرام الآثم.

ومن هنـا كان طـريق التحوّل في حيـاته، من المبـاحث الثقافيـة العـامّـة إلى العكوف على مباحث الإسلام في مُثُله الرائعة ورجاله الأفذاذ، لقـد دفعه الخـوض في جـريمة التبشيـر إلى الكشف عن وسائـل الغرب في خـداع الشرق، ومحـاولـة الازدراء بماضيه الثقافي والحضاري ليمهّد الطريق إلى تشويه قيمـه الروحيـة معقلاً وراء معقـل، وقد أمـدّته ثقـافته الـواسعة بمـا لا يمكن دحضه من الأدلّـة الدامغـة، فأظهر كيف حاول المستشرقون ومَن وراءهم من الأذناب تـزييف العقيدة الإسـلامية بالافتراء الصارخ حين دمغهم الحق الواضح، وكيف أصرّوا على أنها مَدعاة التأخّـر السيـاسي والفكري، مـع أن الاستعمار الأوروبي هـو السبب الأول في هذا التـأخّر المُشين.

وقـد اهتزّت الحكـومة المصـرية لِمـا وجّه الـدكتـور هيكـل من نقـد صـارخ لسكوتها على حركات التبشير، وما انتشـر من الحديث عن ضحـاياهـا في المعادي والمطرية وبورسعيد وأسيوط، فاستدعته النيابة للتحقيق بتهمة إثارة المشاعر، ولكنه رجل القانون الواثق من صحّة اتجاهه، فدمغ المحقّقين بما لم يستـطيعوا أن يفعلوا شيئاً معه، وخرج من جلساته هذه ليزيد الحملة أواراً على صفحات السياسة.

وقد جاهر هيكل بأن إدارة الأمن الإنجليزي في وزارة الداخلية المصـرية هي التي تتحمّل تَبِعَة هذه الجرائم، وهو اتّهام أقام الحكومـة وأقعدهـا، فكلّفت النيابـة

بضرورة مؤاخذته، ثم رفعت دعوى عليه أمام محكمة الجنايات بتهمة الوقيعة بين رجال الأديان! ولكن الصوت المصري في المعركة كان يشدّ أزر المجاهد الشريف.

وقد رَأَسَ الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي جماعة مقاومة التبشير، وضمّ إليه ذوي الغيرة من عارِفِي البواعث، وراصِدِي المشبوه من الاتجاهات، وكان في محمد محمود رئيس حزب الأحرار حمية وحفيظة، فآثر هيكل بالتأييد حتى افتضح موقف القائمين بالتبشير، فخفت صوته، وركدت ريحه، ولكنه وجّه الدكتور هيكل إلى بعث الحمية الإسلامية، بتصحيح ما زيّفه المُفتَرون من حقائق الإسلام ونبيّه الصادق، ومن هنا كان اتجاهه الغيور إلى الحديث عن أبطال الإسلام، وفي طليعتهم نبيّه الكريم.

تعرّض الدكتور هيكل ـ لأول مرة في حياته الثقافية ـ إلى كتب التراث الإسلامي من فقه وحديث وتفسير وتوحيد، ليكشف عن روح الإسلام فيما تطويه صحائف التراث من معانٍ، وكتب التراث لا تُعطي كنوزها سافِرة لمَن يقتحمها لأول مرة، إذ إن طريقتها التعبيرية تكاد تكون وَقفاً على نفر يفتحون بتجرباتهم المغاليق، وقد تكون الكتب الأولى أيسر تناولاً وأهون تحصيلاً، ولكن تقدّم الزمن دفع بقوم إلى تعسير اليسير بما أحكموه من أقفال، وبما أضافوه من الثقافات الوافدة من علوم المنطق، ونِحَل الفِرَق، وشبه الدّهريين، يعرف ذلك كل المعرفة مَن اختبر هذه الكتب، بل يكاد يعرفه مَن وقف على شواطئها، لأنه إذا لم يصارع الموج فقد شاهد الماء بين الضفاف يموج ويصطفق ويزخر ويجيش، وقد تعلو غواربه فتطوي السفين الحائر في مهبّ الزعازع!.

ولم نذكر كتب التاريخ بين ما ذكرنا من قبل، وهي لباب ما يعنيه مؤرّخ يعتمد على الروايات الأولى في مصادرها الأصيلة، فهي دون شك أسهل مراجعة من كتب الفقه والتوحيد، ولكنها تُورِث قارئها سأماً مُفرِطاً بتضارب الروايات، وانقطاع القول قبل انتهائه قفزاً إلى منحى آخر، وبتشتّت الأحداث وفق ترتيب

السنوات لدى بعض الكاتبين، ثم بعدم الجزم الصائب في كثيرٍ مما يقتضي الجزم، وأنكى من ذلك كله تسجيل الروايات الضعيفة التي تنطق البداءة بتكذيبها!.

وكلّ ذلك صبر عليه الكاتب الهادف، مُضيفاً إليه ما تناوله المُعاصرون ما بين مشرق ومغرب من شجون التاريخ الإسلامي، وفيهم مَن رَعَا الله فيما كتب، ومَن تنكّب الجادة لغاية يراها كل أهدافه، ومنتهى ما يأمل من تسطير الأخبار على غير وجهها الصحيح!.

وقد حدّد الدكتور هيكل هدفه من كتابة السيرة النبوية، إذ صرّح أنه لا يريد أن يضيف مكرراً معاداً، ولكن يريد بعد اقتناع صارم أن يرسم للبشرية عامّة صورة إنسانية فريدة تكون موضع الاقتداء بسلوكها الحيّ، وخلقها الحميد، فتصبح باب الإنقاذ في مضطرب الفساد السياسي، ومشتجر الخلاف المذهبي. وسيرة محمد ﷺ وهي أول السِّيَر في طريق الأسوة والاحتذاء.

ونحبّ أن نسمع من الدكتور هيكل قوله بصدد ذلك[1]: «من أجل هذا كان خليقاً بكل مَن يتصدّى للبحث في مثل هذا الموضوع أن يتوجّه به إلى الإنسانية كلها لا إلى المسلمين وحدهم، فليست الغاية الصحيحة منه دينية محضة، كما قد يظن بعضهم، بل الغاية الصحيحة منه أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذي دلّها محمد على طريقه، وإدراك هذه الطريقة غير ميسور، إذا لم يهتدِ الإنسان إلى هذه السبيل بمنطق عقله، ونور قلبه، راضي النفس بهذا المنطق، مُنشَرِح الصدر إلى هذا النور، لأن مصدرهما المعرفة الصحيحة والعلم الصحيح.

فالتفكير الذي لا يعتمد على المعرفة الدقيقة ولا يتقيّد مع ذلك بالطرائق العلمية، كثيراً ما يعرّض صاحبه لأن يخطىء وأن يكبو، وكثيراً ما ينأى به لذلك عن

---

(١) حياة محمد، ص ٥٩، ط ٣.

محجّة الحق، فطبيعتنا الإنسانية تجعل تفكيرنا يتأثّر بمزاجنا تأثّراً عظيماً، وكثيراً ما يختلف المُتساوون علماً في تفكيرهم لغير سبب إلاّ اختلاف أمزجتهم مع إخلاصهم جميعاً في القصد والغاية، وهذا الاختلاف نعمة كُبرى على الإنسانية في ميادين الفن والحياة العملية، ولكنه نقمة على العلم وعلى التفكير القائم على أساسه، ابتغاء أمثال الحياة العليا لخير الإنسانية جمعاء.

ودراسة التاريخ يجب أن تكون غايتها نشدان الأمثال العليا من حقائق الحياة، فيجب أن يتجنّب مَن يدرس التاريخ سلطان الهوى وحكم المزاج، ولا سبيل إلى تجنّبها إلاّ أن يتقيّد الإنسان بالطريقة العلمية أدقّ التقييد».

هذا الولع بهداية الإنسانية جمعاء عن طريق السّيرة النبوية أولاً، وباتّباع الطريقة العلمية التي تقتنع بها العقول كافّة مسلمة أو غير مسلمة ثانياً، هو الذي دعا الدكتور هيكل أن يخاطب العقل وحده في كتابته، فلا يلجأ إلى غير ما يتجرّأ العقل الأوروبي المتحرّر على إنكاره!.

لذلك أغفل حديث الخوارق والمعجزات في كتابه، وجعل القرآن وحده معجزة الرسول التي يجب أن تكون موضع الإقناع، مما كان موضعاً لنقد الناقدين، ولكل وجهة هو مولّيها.

غير أني أحرص على أن أُبيّن أن هناك فرقاً واضحاً بعيداً بين مَن ينكر الخوارق مؤكّداً أنها لم تحدث وبين مَن يهملها فقط ليُقنِع قوماً لا يؤمنون بالإسلام إقناعاً عقلياً يعتمد على الدليل الفرق واضح صريح، ويدعو إلى تكراره في هذا الموقف، لأن بعض الناقدين قد غفلوا عن منحى الدكتور هيكل في اتجاهه إلى البشرية عامّة بكتابه، وواجهوه بالاعتراض الصارخ أن أغفل حادثة انشقاق القمر وما ينحو منحاها، وكأنه ينكر وقوعها.

وهذا ما لم يقله الكاتب صراحةً أو تلميحاً، ولكنه عبّر عن هدفه بأجلى بيان حين أكد أنه يكتب للإنسانية جمعاء، وفي بني الإنسان مَن يريدون الإقناع العقلي

وحده، وهم أكثر المثقفين في العالم وذوو التأثير القوي في ملايين الناس، فلنأْتِ بيوتهم من أبوابها!.

وهذا كلام من الوضوح بحيث يجب أن يُنهي الحِجاج، وهو مع وضوحه لا يزال موضع الاحتكاك لدى أناس يسرّهم أن يتناولوا آثار هيكل الإسلامية بالملام يغمضون عن الروائع منها ويحاولون تجويف الهنات!.

وقد تحتاج هذه المسألة إلى مزيد من بسط، ولكني أُوجز القول اتّكالاً على ما كتبته[1] من قبل في هذا الصدد، وسيرى النور عن قريب.

- ٤ -

لقد كان كتاب حياة محمد وما تلاه من كتب الشخصيات الإسلامية لهيكل، فاتحة مدد من الكتب التاريخية، تنحو منحى المؤلّف الكبير وأكثرها مما دار في فلكه، وسار على طريق عَبَّدَه قلم الدكتور، وفي الكاتبين مَن ملأه الرضا وغمرته الغبطة، فاعترف بفضل الدكتور على موضوعه، واقتبس منه مشيداً، وهم الكثرة، وفيهم مَن عزّ عليه أن يجد الفرق شاسعاً بينه وبين الدكتور فيما كتب كلاهما، مع تأخّره عن سابقه تأخّراً كان يحتّم عليه أن يكون أكثر جودة، وأسطع بريقاً، عزّ عليه ذلك فشاء له تفكيره أن يحاول تنقّص الدكتور ما استطاع.

ولسنا نجعل الدكتور هيكل في منجاة من النقد، فكلّ إنسان يخطىء ويصيب، ولكننا نأسف حين نرى النقد هجاءً أو أشبه بالهجاء، وهو ما لا تعرفه آداب البحث لدى الذين يقدّرون حُرمَة العلم، وكرامة العلماء، ولن يضير الدكتور أن يتنقصه متسرّع مشتطٌ بعد أن أنصفه العادلون الفهماء.

ومن المضحك أن يتصنّع هؤلاء المتسرّعون غَيْرةً دينية وحميَّة إسلامية يكتبون دفاعاً عن أمثال خالد بن الوليد وغيره من أعلام الصحابة، وكأنهم يتحدّثون

---

(١) السيرة النبوية في آثار المعاصرين، بحث واف تقدّم به الكاتب إلى المؤتمر الإسلامي العالمي للقرن الرابع عشر الذي تُشرِف عليه جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

عن مؤلّف أجنبي لا يشاركهم عقيدتهم الإسلامية، فضلاً عن قيامه بالحديث عنها وعن أبطالها بأبلغ مما يستطيعون، بل بما لا يمكن أن يستطيعوه.

وعزاؤنا مع هؤلاء أن نجد أساتذتهم الكبار قد أوفوا هيكلاً حقّه تمام الإيفاء، وأيّ عَلَم من أعلام الإسلام في عصره أبعد من الإمام محمد مصطفى المراغي صوتاً، وأثبت مقاماً، وأرسخ قدماً، وأنأى عن الشُّبهة فيما يقول ويجزم، وقد قدّم كتاب «حياة محمد» بمقدمة كاشفة هادية، مادحة مؤيّدة قال فيها:

«ويطول بي القول إذا أنا عرضت لِما في كتاب الدكتور هيكل من حسنات، وحسبي أن أُنبّه إلى تلك الحسنات إجمالاً وسيدرك الناس جماله بأنفسهم، ويستمتعون بلذّة نِتاج الفكر تهديه الأسانيد الصحيحة، ويهديه المنطق الدقيق، تسعده الفطرة الصادقة، وسيرون أن الدكتور كان مخلصاً الإخلاص كله للحقيقة، عامر القلب بما في الوحي المحمّدي من هدي ونور وبما في سيرة رسول الله ﷺ من جمال وجلال وعظمة وعبرة، مطمئناً كل الاطمئنان إلى أن هذا الدين المحمّدي سينقذ البشر مما هم فيه من الحيرة، وينشلهم من ظلمات المادة، ويبصرهم بنور الإيمان ويوجّههم إلى النور الإلّهي، فيدركون به سعة رحمته التي وَسِعت كل شيء وعظمة مجده الذي تسبّح به السمٰوات والأرض، وكل شيء فيهما، وعزّته التي تتضاءل أمامها الموجودات.

وقد وُفّق الدكتور هيكل في تنميق الحوادث، وربط بعضها ببعض، فجاء كتابه عقداً منضّداً وسلسلة متينة محكمة الحلقات، وقد أبدع في بيان الأسباب والأغراض والحكم بياناً قوياً واضحاً، يجعل القارىء مطمئن النفس، رضيَّ القلب ليستمتع بما يقرأ، ويُثلِج قلبه ببرد اليقين فيملك عليه أمره، ويُجبره على متابعة القراءة، حتى يوفي على آخر ما بيده من البحث».

أما ما وقع فيه الكاتب من المآخذ ـ ولا بدّ لكل كاتب من مآخذ ـ فقد تناولها المُنصِفون في حيدة، ورأوا أن أمثالها لا يحول دون الإعجاب بمقدرة الكاتب وموهبته النفّاذة، ولعلّ أُستاذنا العلاّمة محمد فريد وجدي وهو مَن نعلم شدّة

إخلاص وقوة دفاع، وسعَة اطّلاع، قد كان من أبرز مَن اهتدى إلى هذه المآخذ في كتاب «حياة محمد» فساقها لا ليصدّ الناس عن آثار الدكتور هيكـل، بل ليقـول إنه على رغم هذه المآخذ يرى أن «صفحات هذا الكتـاب من حسنات هـذا العصر في البيـان، والبحث العميق، ولا نشط إذا حكمنـا بـأنهـا من الـطرائف التي كُتِبَ لهـا الخلود».

ثم قال الأستاذ وجدي رحمه الله[1]:

وليس مؤدّى هذا الإطراء أننا نوافق المؤلّف على كـل الآراء التي بسطهـا في مقدمة كتابه، كتعليله أسباب الخصومـة بين المسيحيين والمسلمين، أو تقريـره بأن الأوروبيين لمّا فقدوا الروحانية هبّوا يتلمسونها في المذاهب الهندية، كما لا نـوافقه على كثيرٍ مما جاء في صلب الكتاب، من الأحكام الاجتماعية، كقولـه عن قريش: إنهـا كانت أشبـه بجمهوريـة حرّة، وكـاعتداده في دحض بعض الشبهـات بقـولـه: العـظمـة لا تخضـع لقـانـون، ولهـا أشبــاه في الكتـاب لا تمتّ إلى العلم بصلة، وبعضهـا بالخـطابيات أشبـه، بيد أن هـذه الهنات لا تُنقِص من قيمـة هذا الكتـاب الممتع، ولا نعرف أنه يخلو من أمثالها كتاب في الأرض، فهي لا تمنعنـا أن نكيل الثّناء للدكتور هيكـل، بغير حسـاب، راجين أن يوفّقـه الله إلى إبراز ثمـرات أخرى لألمعيّته النيِّرة في هذه الناحية من الدراسات الإسلامية، فهي في حاجـة إلى الكثير من أمثاله في هذا العصر.

هذا هو سبيل المُنصِفين في النقد النزيه الجادّ.

أما الآخرون من ذوي الاستعلاء المتشامخ، في غير وجهه الصحيح، فنمثّـل لهم بكـاتب عالِم ذي مقـدرة وبيان لا ينكـرهما أحـد، ولكنه إذا كـان رجـل بحث وغوص، فقد فاته أن يكون رجل إنصـاف وعدل، فقـد شاء الأستـاذ الكبير صـادق إبراهيم عرجون أن ينقد بعض آراء الدكتور هيكل فيما كتبـه عن خالـد بن الوليـد،

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد ٦، ص ١٣٦، سنة ١٣٥٤ هـ.

ولكـل باحث أن ينقـد الدكتـور هيكل كمـا يشـاء، ولكن ليس لمُنصِف أن يتجـاوز الحق، فيقدّم لنقده بمقدمة ظالمة، تجعل الدكتور هيكلاً تلميذ المستشرقين، فهـو في رأيه الخاصّ يبعد عن مصادر الإسلام مستقياً من مصادر الغرب، يقـول الأستاذ بعد مقدمة قصيرة:

«إن بعض هـذه البحوث تستـوحي باحثي الغـرب في فهم مسائـل الإسلام، وتأخذ الإسـلام من غير مصـادره، وتصوغـه في غير أسلوبـه، أو هي بعبارة أخـرى تسلك مسلك الاستعمار الاقتصادي، الذي يأخـذ الخامـات من أرضنا وبـلادنا إلى أرضه وبلاده، ثم نستردّها منه، وقد حاكها على منواله، وصبغها بأصباغه ثم ختمها بخاتمه، فكانت علينا شيئاً جديداً، لا تعرفه طبيعتنا، ولا تستسيغـه عقولنـا، إلاّ أن نجرّده من كل ما طرأ عليه بعيداً عن بيئتنا.

وهـذا الخطر كـامن في كثيرٍ من هـذه البحوث التي أحسنت قـاصـدة أو غيـر قاصدة ـ فأخذت بأعضاء الشباب إلى النظر في تاريخ الإسلام، وأساءت لأنها أرَتْ هـذا الشباب الإسـلام بأسلوب وبـطرائق غريبـة عن الإسلام، فكـان من اللازم أن تُجَرَّد أقلام إسلامية المظهر والمخبر، تمشي إلى هذه البحـوث بالنقـد المُمحِص، الذي يردّ الحقائق إلى أصولها، ويترك الأصبـاغ الأجنبية ومـا يتّصل بهـا مجرّدة في أيـدي أصحابهـا، حتى يستطيـع الشباب الإسـلامي فهم الإسـلام بـروح الإسـلام وبأسلوبه المُنتَزَع من بيئته»[1].

وقد أطال الكاتب في مثل هذه المعاني إطالةً لا فائدة في نقلهـا، وأخطر مـا في قـوله هـو أن بحوث هيكـل إسلاميـة المظهـر لا المخبر، وأن نقـده هـو ـ تبعـاً لذلك ـ إسلامي المخبر والمظهر معاً، والإسلام لا يشقّ الضمائر ليبحث عن أعماق أصحابها، فعرجون وهيكل سيّان أمام الناس، وإذا كان من الظلم أن يقول ناقـد إن بحوث عرجون إسلامية المظهر دون المخبر، فإن قول عـرجون ذلـك عن الدكتـور هيكل ظلم مُجحِف، وشيء كان ينبغي ألاّ يقع فيه.

---

(١) خالد بن الوليد، تأليف صادق عرجون، ص ٢٨٦.

وقـد زعم أن هيكلاً رجـع إلى كتب الاستشراق دون أن يـرجـع إلى مصـادر الإسلام، وهذا ما ينكره كلّ مَن قرأ بحوث هيكل، لأن صـاحب «حياة محمـد» قد امتـلأ بالقـرآن والحديث وكتب السـابقين امتـلاءً يعـزّ كثيـراً على بعض مَن يحكم عليهم عرجون بأنهم أصلاء غير دُخَلاء.

وكأني بالأستاذ الكبير يستكثـر أن يكون ذوو الثقـافة المـدنية قـادرين على أن يجمعوا إليها ثقافة دينية مكينة، وهو استنكار تهدمه آثار عباس العقاد، ومحمد فريد وجدي، ومحمد حسين هيكل، ممّن سبقوا الأستاذ كثيراً كثيـراً في مجال التحقيق، وليس إلى مقارنة مَن يعنيهم بالتقريظ بهم من سبيل إلّا أن يكونوا بالنسبـة إليهم في درجة المستفيد من المفيد.

وهيكـل بعد، قـد فتح المجـال لكتابـة التاريـخ الإسلامي، فـأزال كثيـراً من الصخـور، وعَبَّدَ الـطريق، حتى استطاع أن يجتـازه مَن كتبـوا من بعـده، ولـم يكن الـرجل تـابعاً للمستشـرقين، وقد هـاجمهم فيما كتب، ونـاقش ما تـورّطوا فيـه من أخـطاء، وفتح الـطريق للحجاج العقلي المستنيـر مـع هؤلاء، فكيف يكـون تـابعـاً لهم؟!.

إذا كان عيب هيكل أنه لم يقتصر على ثقافة واحـدة، بل كـان ذا أُفق شامـل محيط، فما ذنبه الذي ارتكبه حينئذٍ ليُرضي أصحاب الثقافة الواحدة، فتكون بحوثه إسلامية المظهر والمخبر معاً!!.

أخشى أن يكـون في دعـوة الشبـاب إلى العـزوف عن كتب حيــاة محمـد، والصديق أبي بكر، والفاروق عمر، صـدٌّ عن سبيل الله الحقّ، لأن غيـر هيكل من نـاقديـه، لم يبلغوا مبلغـه من الجهارة والنفـاذ والسّداد، والأجـدر بكُتّاب التـاريـخ الإسلامي أن يكونوا وحدة تتآلف لا شيعاً تتنابذ.

لقد ناقش الأستاذ صادق عرجون هيكلاً في مسألة عزل خـالد، وجعلهـا بابـاً لكل هذه المثالب التي ألحقها بهيكل، وأنا أفترض أن الدكتور هيكل قـد أخطأ في تقدير الأمر بالنسبة إلى هذه القضية، وأن الأستاذ عرجون قد أصاب في كل ما قـال

بشأنها! أفيكون معنى ذلك أن الرجل ربيب الاستشراق، وأن بحوثه التاريخية إسلامية المظهر لا المخبر، وأنه يعوزه الرجوع إلى مصادر الإسلام؟!.

إن أستاذنا المغفور له العلاّمة المحدّث الشيخ أحمد محمد شاكر، رحمه الله، قد خطّأ الدكتور هيكل فيما ذهب إليه من أمر خالد، فكتب في مجلة المقتطف (أغسطس سنة ١٩٤٥) فصلاً شافياً وافياً عن مقتل مالك بن نويرة وموقف خالد بن الوليد ملأ ما بين صفحتي ١٩٩، ٢٠١، وقال كلاماً ينحو منحى ما قاله الأستاذ عرجون، ولكنه وهو من البيئة الإسلامية الخالصة التي يعنيها الناقد قد عرف للكاتب الكبير حقّه، فأثنى عليه بما يستحقّ، وقال في ختام نقده:

«وبعد فإن كتاب المؤلّف (الفاروق عمر) لا يزال مع هذا كتاباً قيّماً جديراً بما نال من تقدير، أفدنا منه فوائد جمّة، وأُعجبنا بكثيرٍ من أبحاثه، ووقفت عند كثيرٍ من روائعه، مغتبطاً متذوّقاً ما فيها من بلاغة، مهتزّاً بما صدقت في الوصف، وبما احتوت من قوّة التصوير.

ومن أحسن كلماته التي أوفى بها على الغاية، وأَطَلْتُ الوقوف عندها، كلمة أقتبسها لتكون دستوراً لكثيرٍ من الباحثين، علّهم ينتفعون بها، ويتّعظون بما وعظهم المؤلّف فيها: قال ص (٣٣): فما أكثر الذين لا يؤمنون بالكثير من آراء الناس، ويرونها ميناً باطلاً، وحديث خرافة، ثم يكتمون ذلك أو يتظاهرون بنقيضه، التماساً للعافية، وجرّاً للمنفعة، وحرصاً على ما بينهم وبين الناس من تجارة، وأنت لا تجد هذا النفاق في سواد الناس وعامّتهم ما تجده في المثقفين منهم، بل إنك لتجده فيمن نصّبوا أنفسهم لزعامة الناس، والإبانة لهم عن وجه الحق في الحياة».

هذا ما قاله هيكل الباحث النفسي الدارس، وقد اختاره العلاّمة الشيخ أحمد شاكر ليعلن في صراحة أن الحكم على سرائر الناس ليس بالسهولة التي يرتضيها مَن جعلوا أنفسهم وحدهم المصيبين.

وحسب الدكتور هيكل ـ بعد ذلك كله ـ أن حبّب القرّاء في مطالعة صحائف العزّة، ودروس المجد، وأمثلة الكرامة الحرّة، في أعمال قادة الإسلام وأئمته الخالدين.

أبو الأعلى المودودي
صـــوت الإسلام الصادق

اهتزّ العالم الإسلامي لوفـاة الإمام أبي الأعلى المـودودي اهتزازاً أليمـاً، فقد كـان من أكبر دُعـاة الإسلام الحقيقيين في هـذا العصر، ونعني الحقيقيين: الـذين يفهمـون روح الإسلام الصـادق فهماً لا يقـلّ عن إدراكهم للتيارات المُنـاوئـة لهـذا الدين، وبهذا الفهم المزدوج تمكّن من أن يدحض حِجَج الألدّاء بمنـطق مُعاصِـر، يـأتي بالمقـدمات الـواضحة لينتهي إلى النتيجـة الحـاسمـة في وضـوح لا يتحمّـل اللجاج.

فلم يكن الرجل مماثلاً لفريق من الدّعاة لا يملكون غير الصراخ الساذج دون حجّـة مُقنِعة أو أدلّـة مُفحِمة، ومثـل هؤلاء على كثرتهم لا يكسبـون للإسـلام أرضاً جديدة، بل لا يقنعون بعض الذين يسكنون أرض الإسلام عن ميراث متواصل عبـر الأجيال، إذ يتطلبون درجة من المرجوح العقلي تحملهم على الاقتناع الجازم حين تستأصل أشواك الشُّبُهات من نفوسهم.

أمـا أبو الأعلى المـودودي فقد واجـه افتراءات المـرجفين بـرسـالـة الإسـلام مواجهة منطقية عاقلة، فكان امتداداً مُثمِراً لمَن سبقوه في حَومة الكفاح البطولي عن الإسلام، وأعني بالامتداد المُثمِر: أن أبا الأعلى جاوز نـطاق الدفـاع إلى الهجوم، لأن سابقيه كانوا بحكم تقدّمهم الزمني لا يملكون غير الـوقوف في وجـه الطوفـان،

مُحاوِلين أن يضعوا السدود الناهضة حيث تكالبت أقلام الحاقدين في دول الاستعمار على تشويه محاسن الإسلام مؤيّدين بسيطرة الدّخلاء من الحاكمين، وكأنهم رأوا في احتلال المسلمين عيباً يُوَجّه للإسلام نفسه، إذ كان في زعمهم من أكبر أسباب هذا الاحتلال، بشريعته التي وصفوها بغياً بالبداوة والتقهقر والجمود، فكان قُصارى السابقين من سلف المودودي أن يصدّوا هذه الشُّبُهات في فورات حماسية حيناً، وفي حجاج منطقي آخر، دون أن يتعرّضوا في أكثر الأحوال إلى إيضاح ما ينخر في المدنية الأوروبية من فساد، ولكن أبا الأعلى قد تجاوز ذلك إلى الهجوم على زيف المدنية الأوروبية، فخطا الخطوة التالية مُكَلّلاً بالتوفيق.

يقول الداعية الإسلامي الكبير أبو الحسن الندوي بصدد ما نعنيه في رثائه الحارّ للعلاّمة المودودي[1]:

«إنني لا أعرف رجلاً أثّر في الجيل الإسلامي الجديد فكرياً وعلمياً مثل تأثير الراحل العظيم، فقد كان السيد جمال الدين الأفغاني من أقوى الشخصيات الإسلامية التي نبغت في القرن الماضي، وأكثرها نفوذاً في عقول الشباب المثقف، وسيطرةً بل سحراً عليها، وتأثيراً في الاتجاهات والأساليب الأدبية والكتابية والخطابية، حتى كان صانع جيل، ومفتتح عهد، ولكن الحق يقال: إن سيطرته العقلية والنفسية كانت محصورة في السخط على الأوضاع السياسية القائمة، والاستعمار الأجنبي، وفي إثارة الأَنَفَة والنخوة في الشعوب الإسلامية المحكومة في بلادها، والعمل للجامعة الإسلامية، دون فكرة منسّقة، أو دعوة واعية إيجابية، تقوم على الدراسات الإسلامية العميقة، والنقد والتحليل العلميين للحضارة الغربية المادية، وقيمها وموازينها، مع شدّة حنق هذا النابغة وتلميذه العملاق الشيخ محمد عبده على الأمم الغربية التي قادت الحملة والزحف على العالم الإسلامي، وفي مقدمتها الشعب الإنجليزي والحكومة البريطانية، وكانت دعوة سلبية أكثر منها إيجابية.

---

(١) مجلة الاعتصام، العدد ١٢، (ذو الحجة، سنة ١٣٩٩ هـ).

ولكن الأستاذ السيد أبا الأعلى المودودي قد قامت دعوته على أُسس علمية أعمق وأمتن من أُسس تقوم عليها دعوات سياسية، وردود فعل للاستعمار الأجنبي، وكانت كتاباته وبحوثه موجّهة إلى معرفة طبيعة هذه الحضارة الغربية وفلسفتها في الحياة، وتحليلها تحليلاً علمياً قلّما يوجد له نظير في الزمن القريب.

وقد عرض الإسلام ونظم حياته وأوضاع حضارته وحكمه وصياغته للمجتمع والحياة وقيادته للرّكب البشري والمسيرة الإنسانية في أسلوب علمي رصين، وفي لغة عصرية تتّفق مع نفسية الجيل المثقف، وتملأ الفراغ الذي كان يوجد في الأدب الإسلامي من زمن طويل».

وكلام العلاّمة أبي الحسن الندوي مع تقديري الأكيد لمكانته السامية في ريادة الفكر الإسلامي المعاصر، يحتاج إلى أن أعقّب عليه بأن الزمن وحده كان عامل النموّ الطبيعي الذي جعل بذرة جمال الدين تنمو إلى غصن نضير على يد محمد عبده ثم تؤتي الثمرة في أغصانها المُورِقَة على يد أبي الأعلى، فكان لا بدّ من وقت طبيعي للنموّ المرحلي، ولو سبق أبو الأعلى لغرس البذرة وحدها، إذ كان ذلك في مثل زمان جمال الدين الأفغاني غاية ما يستطيع.

وقد جاوز محمد عبده مرحلة جمال الدين حين سلك السبيل العقلي في دفع شُبُهات الغرب، فكتب في هذا المجال ما نظلمه كل الظلم لو جعلناه خطابة حماسية فحسب، وتفسيره لكتاب الله، وردّه على هانوتو، وسبحاته الموفّقة في رسالة التوحيد، وفي الإسلام والنصرانية، مما ينتمي إلى المنطق العاقل، لا إلى الانفعال المتحمّس.

وقد مضت ثلاثون عاماً بعد رحيله حتى ائتلق كوكب أبي الأعلى المودودي، وتصدّر للقيادة العلمية ذات التمكّن، فأتاح له هذا الزمن المديد أن يقرأ ويدرس ما جدّ في ثقافة الغرب وما ظهر في نظمه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مُعلِناً فساده، مما كان مستتراً أيام محمد عبده، ولو عاش محمد عبده حتى أدرك ما أعقب الحرب العالمية الأولى من ظهور الخلل المتهدّم من أُسس الحضارة

الأوروبية القائمة على الافتراس من ناحية، والخداع من ناحية أخرى، لكان من المنتظر أن يدرك ما أدركه أبو الأعلى المودودي رضي الله عنه!!.

فلكل زعيم من هؤلاء الثلاثة الكبار فضله السبّاق، وجهده الوثّاب، وقد كافأهم المسلمون بما يستحقّون من التوقير والإجلال، ولما عند الله أوفى وأعظم.

نشأ أبو الأعلى المودودي في أُسرةٍ كريمة طاهرة، وفي رعاية والد عالِم مؤمن، لقّنه كتاب الله وحديث الرسول في صغره، ومنذ سنته الرابعة. أخذ يذهب مع أبيه ليؤدّي الصلوات الخمس بالمسجد كل يوم.

وقد قال الإمام أبو الأعلى عن والده:

«لقد أحسن تربيتي، وكان إذا سمعني أُخطىء في كلمة نهرني، وعلّمني النطق السليم، وكان يحكي لي كل مساء قصص الأنبياء والمُرسَلين، ووقائع التاريخ الإسلامي، وحوادث الهند، واهتمّ بأخلاقي، فما كان يدعني ألعب مع أقراني ممّن كانوا على خلق سيّىء، وكنت إذا اعتدت عادة سيئة خلّصني منها، وكان يأخذني معه دائماً عند رفاقه، وكلّهم على درجة عالية من الثقافة والاتّزان، فانتقلت إليَّ من مُجالستهم العادات الفاضلة الحسنة»[1].

هذه النشأة الصالحة، وهذه المجالس الفكرية المُثمِرة، قد دفعت الفتى إلى أن ينهل من مَعين الثقافة المُعاصِرة جهد الطاقة، وقد مات والده قبل أن يتمّ تعليمه الرسمي، فنهض بأعباء الأُسرة مُشتَغِلاً بالصحافة، وهو توفيق من الله إذ جعله في ميدان يتطلّب الدراسة المتوالية، والثقافة المتصلة، فاستكمل بذلك ما فاته من حجرات الدرس، وساعدته الأوضاع الاستعمارية الظالمة في بلاده إلى أن يفتح عينيه في يقظة ليعرف العدو من الصديق، حين يلتفت فيرى الاستعمار الإنجليزي شديد الوطأة من جهة، ويرى الأغلبية الساحقة من حزب المؤتمر الهندي تحارب الإسلام وتردّد ادّعاءات المحتل، على حين ضمّت الرابطة الإسلامية أقلاماً لا

---

(١) مجلة المختار الإسلامي، ص ٨٤، (ربيع الأول، سنة ١٤٠٠).

تعرف من الإسلام سوى اسمه، وهي بعدُ محسوبة عليه فكانت ترى في حركة مصطفى كمال بتركيا أفضل مظهر لتجديد الإسلام، وتبالغ في نشر أعماله، كمَثَل أعلى يجب أن يُحتَذَى في الهند، فكأنها بهذه السطحية الساذجة تشارك قولاً وعملاً حزب المؤتمر في تشويه معاني الإسلام.

وهنا امتلأ أبو الأعلى عزيمة ذات حمية، إذ انبعث ثائراً في وجه الفريقين معاً، فأصدر عدّة صُحُف جريئة تنكر على مَن يجهل الإسلام أن يتحدّث عنه، وأن يشيد برجل لا يحمل من الإسلام غير اسم ينتسب إلى أبنائه فحسب.

لقد أصدر المودودي صُحُفاً تحمل أسماء (تاج) و(مسلم) و(الجمعة) دون أن يعبأ لمصادرة الحكومات المتتابعة لِما يُنشَر من صُحُف، فأخذ كلما تُصادَر صحيفة يُنشىء غيرها، ملتزمة بنهجه الإسلامي الثائر، حتى كوّن من حوله نفراً من أهل الحق يؤمنون بأهدافه، ووجد خصومه أنفسهم أمام مُعارِض ذكي، ومُكافِح مُستنير، فحسبوا له ألف حساب، على حين قد امتدّ في دعوته، فأصدر جريدة (ترجمان القرآن) على نحوٍ غير معهود في الصُّحُف الإسلامية، إذ كانت ميداناً للهجوم الراصد، فالانتصار الساحق، فهي تهاجم في شدّة مَن يلصقون الأراجيف بالإسلام، وفيهم وثنيون وهندوكيون وبوذيون، ومسيحيون لا يتقيّدون بتعاليم المسيحية، بل يبذلون الجهد المستميت في التبشير بين المسلمين تارةً، وفي تحريف الكَلِم الإسلامي قرآناً وحديثاً عن مواضعه تارةً أخرى!.

لقد انبعثت صحيفة (ترجمان القرآن) لتتحدّث بلسان العصر عن قضايا إسلامية تعرض في ثوب جديد، وتتسلسل من منطق مستنير، إذ تتحدّث عن قضايا القدر والجبر والاختيار، وعن الحضارة الإسلامية، ومنزلة الجهاد في الإسلام، وعن الرِّبا والمُعاملات المالية، من حَجْر ورهن وسلم وبيع وشراء، وعن طبيعة الحكم في الإسلام، وعن الأُسرة والحِجاب وتنظيم النسل، وعن فساد الأنظمة الأوروبية التي يروّج لها الأذناب عن جهل وخداع مما سنلمّ بطرف منه بعد حين.

وكـان الإمام المـودودي مُفحِماً في منـطقـه، فجـذب انتبـاه أنصـار الفكـرة الإسلامية، واندفعوا يترجمون مقـالاته القـوية إلى العـربية والفـارسية والإنجليـزية والفرنسية، حتى انتشرت تعاليم الإسلام على يده صحيحة صريحة في ربوع بـذل أصحابها جهد الجبابـرة في تشويـه هذه التعـاليم، ثم توّج ذلـك كله بوضـع دستور شامل للحكم الإسلامي لا يزال ـ للآن ـ أهم مرجع مُعاصر للدارسين.

تجاوز أبو الأعلى مرحلة الدعوة باللسان والقلم إلى مرحلة العمـل الحقيقي، حين ألّف الجماعة الإسـلامية لتقـوم بتطبيق مـا دعا إليـه من آراء نظريـة في مجال التشريع الإسلامي حكماً وقيادةً ومعاملات، وقد بدأ ذلك بإصدار بيان رنّان قـال فيه ما نصّه:

«لا بدّ من وجود جماعة صادقة في دعوتها إلى الله، جماعة تقطع صلتها بكل شيء سوى الله، جماعـة تتحمّل السجن والتعـذيب والمصادرة وتلفيق الاتهـامات، وحياكة الأكاذيب، وتقوى على الجوع والعطش والحـرمان والتشـريد، وربمـا القتل والإعدام، جماعة تبذل الأرواح رخيصة وتتنازل عن الأموال بالرضا والخيار، وتقدّم كل ما تملك قرباناً في سبيل إقامة مجتمع الإسلام ونظامه، وإن الذين تتوفّـر لديهم الـرغبة في ذلـك عليهم أن يجتمعوا في لاهـور يـوم الخـامس والعشـرين من شهـر أغسطس عام ١٩٤١ م لبحث إجراءات تأسيس حركة إسلامية في شكل منظّم.

وسرعان ما استجاب المخلصون إلى نداء المودودي، فسارع إليه الأكفّاء من كل أطراف الهند المترامية، فسارع الإمـام بطرح دسـتور الجماعـة، تاركـاً المجال للمناقشة الصريحة، حيث انتهوا إلى الموافقة التامّة».

وبـدأ الكيان الإسـلامي يتمثّل في تجمّـع جديـد، يقوم بتـطبيق مـا جـاء في دسـتور الجماعـة، وطبيعي أن يواجـه المودودي وجمـاعته حـرباً ضـاريـة من ذوي التحلّل والغـرض، لأنـه طـالب بتـطبيق الـدستـور الإسـلامي، إذ لا معنى لقيـام البـاكستان على أسـاس إسـلامي دون أن تعتمـد على التشـريـع الإسـلامي، فـرآه الحـاكمون مصـدر خطر على جـاههم العريض، ونـابذوه العـداء، حين رأوه يـزور

البلاد محبّذاً دعوته الإصلاحية، فاتّهموه بالشغب، وحكم عليه بالسجن ليقضي عامين طويلين في الغياهب، دون جريمة صادقة.

وإذا كان الخير يأتي من الشرّ في أحيان كثيرة، فقد كان سجن أبي الأعلى المودودي عامل يقظة للمسلمين في الباكستان، فأخذت الشبيبة المؤمنة تهتف باسمه، وتسعى جاهدة إلى نشر آرائه الإصلاحية، حتى خرج إلى الحرية في مطلع عام ١٩٥٠ منصوراً مؤزراً، فرأى الشعور العامّ في وطنه مهيّئاً لتنفيذ الشريعة الإسلامية، فواصل الشيخ الكادح حتى قطف الثمرة، إذ أعلنت الجمعية التأسيسية قرار المبادىء، وفحواه أن تكون الباكستان دولة إسلامية تلتزم بالتشريع القرآني، وذلك كله تتويج لنجاح الجماعة الإسلامية وأميرها الشجاع، ولكن أخطاء التطبيق لا بدّ أن تحدث، وأيّ تطبيق عملي يخلو من الأخطاء؟.

فلم يسكت المودودي على الخطأ، وبادر إلى النقد الهادف مستأنفاً رحلاته الدائمة في ربوع البلاد ليجمع الأشياع حول أفكاره، فاصطدم بالحاكمين مرةً ثانيةً، وقد علموا أن لا هناء مع بقائه فاجترؤوا على الحكم بإعدامه.

ولا تَسَلْ عن ثورة العالم الإسلامي كله في شتّى ربوع الإسلام، وفي داخل الباكستان، إذ انتشرت المظاهرات مطالِبة بالإفراج عنه، ومُنذِرة بأخطر شِقاق، يعصف بالأمة الناشئة، فتراجع الخصوم في خجل، واستبدلوا الإعدام بالسجن، فقضى الإمام الصابر في غياهب الاعتقال أصعب فترة من حياته الزمنية، إذ سلّط السجّان عليه إرهاقاً وإعضاباً، ومُجافاةً للقانون في عدم تهيئة الضرورات الحيوية لإنسان أُودِعَ الغياهب لا لجريمة جنائية بل لاتّباع هوى يعصف بالنفوس فتستجيب للنزوات عاصفة بالعدالة.

وكان لا بدّ للّيل أن ينجلي، فانقضى عهد الأحكام العُرفية في البلاد، وخرج السجين المظلوم ليستأنف جهاده الحيوي، فآثر الرحلة إلى خارج الباكستان ليزور أكثر بلاد الإسلام، ومعه تاريخه الحافل في الدعوة إلى سبيل الله، ومقاومة الطّغاة، وما تقدّمه من مؤلّفات تُرجِمَت إلى مختلف اللغات الإسلامية، فأعطت أبناء دينه

فكـرة صادقـة عن منهجه الإصـلاحي ، حتى كان لـه في كـل بلد يـدين بـالإسـلام حواريون وأنصار يعكفون على مؤلّفـاته بـاعتبارهـا أدسم زاد مُعاصِـر يجمع التفكيـر الإسـلامي الصحيح ، وتخصّص مؤلّفـون في الفارسيـة والعربيـة والتركيـة لإصـدار الأسفار المتوالية عن أهداف أبي الأعلى وأعماله، مستشهدة بما تجمع في مؤلّفاتـه من الآراء.

ثم رجـع الـدّاعيـة الـرحّـالـة إلى البـاكستـان لا لينـال التقـديـر على جهـاده المشكور، بل ليُسجَن مرةً ثالثة، فاهتبل الفرصة لكتابة مؤلّفات جديدة تتحـدّث عن الإسـلام والمسلمين في ضوء مـا شاهـد من الـرحـلات، ومـا نـاوأه بـه الغُـلاة من الخصوم في الشرق والغرب، فكان ما كتبه الإمـام في معتقله مصدر خيـر أكيد، إذ صحّح الأخطاء ، وعدل المعوجّ من الأفكار، وهدى الناس إلى نفع جديد.

وأهم ما يعنينا في هذا المقام أن نبيّن كيف واجه أبو الأعلى المـودودي بريق الحضارة الغربية من ناحية، وكيف شخّص أدواء العالم الإسلامي من ناحية ثانيـة، وستكون مؤلّفاته ومقالاتـه مرجعنـا الأول في هذا المجـال، ومحاولـة تلخيصها مـع وفرتها الزاخرة في بحث مـوجز عمـل فوق الـطاقة البشـرية للكـاتب، ولكننا نـرسم الخطوط العريضة فحسب.

ومن حُسْن الحظ أن أكثر مؤلّفات الدّاعية مُتَرجَم إلى العربيـة ذائع مشهـور، فما رزق داعية إسلامي في عصرنـا الراهن حـظوة بالغـة في انتشار مؤلّفـاته بلغـات كثيرة شرقية وغربية، كما رُزِقَ أبو الأعلى المودودي، وهذا توفيق من الله كبيـر، إذ شاءت قدرته القديرة أن يكون صوت الإسلام الحقيقي على يَـراع المودودي عـالي النّبرة ممتد الاتجاه، وفي هذا عـزاء للرجل في حيـاته، عن بعض كفـاحه المـرير، وثواب له في آخرته، إذ سلك مسلك المُرسَلين، والعلماء وَرَثَة الأنبياء.

تحدّث المودودي عن بهارج الحضارة الأوروبية، التي يتشدّق بـالدعـاية لهـا أنصـارها المغـرّرون، والتي يخـدعـون بهـا المسلمين عن الإسـلام، إذ يجعلونهـا مصدر قوة في البـلاد المتحضّرة، وأسـاس رقيّها الاجتمـاعي والسياسي، فـوجدهـا

تنحصر في العلمانية، والقومية، والديمقـراطية وهي أصنـام ثلاثـة صارت تُعبَـد من دون الله، وقد أنحى عليها المودودي بمِعوَله حتى تحوّلت إلى أنقاض.

فالعلمانية ـ أولاً ـ تعني عزل الـدين عن الحياة الاجتمـاعية لـلأفراد، ومعنى ذلك أنها ترى الدين مجرد علاقة فردية بين الإنسان وربّه فحسب، أما تنفيذ تشريعه في الحياة فشيء لا يلتزم به، وقد جاء هذا الخطأ في فهم علاقـة الدين بـالمجتمع من الفهم الأوروبي للكنيسة واللاهوت، حيث وقفت الكنيسة أمام الفكر المتحـرر، وحـاربت كل عقـل جادّ يبحث عن الحقـائق! ولكن الكنيسة شيء والإسـلام شيء آخر، إذ ليس فيه رجال كهنوت يُصادرون حرية الفكر.

وقـد كشف أبو الأعلى عن زِيف العلمـانية حين قـرّر أن الفصل بين عـلاقـة الفرد في مجتمعه، وما يفرضه دينه عليه شيء مستحيل، لأن خـالق الكون، إمـا أن يكـون السيد الحـاكم للإنسـان وللعالم، وإمـا ألاّ يكون، فـإذا كان السيـد الحاكم للإنسان فليس من المعقول أن يفرض تشـريعاً في كتـابه المُنـزَل، ثم لا نأتمـر به، وليس من المعقـول أن يكون تشـريعه مقصـوراً على علاقـة الفرد بـه دون عـلاقتـه بالمجتمع، حتى نقول إن الدين علاقة بين العبد وربّه، وليس مصـدر تشريـع ينظّم علاقة الناس بعضهم ببعض.

وليس أسخف لدى العقول أن يدّعي كل إنسان بمفرده أنـه عبد لله وخـادم له ومُتّبع لدينه، حتى إذا ما اجتمع مع غيره من الأفراد، وكـوّنوا مجتمعـاً وشكّلوا دولة تنكّروا لعبوديتهم لله.

ونحن إذا لم تكن لنـا حاجـة إلى هدايـة الله في مجتمعنا العـائلي الصغيـر، ومجتمعنا الشعبي الكبير، ومجتمعنـا الدولي الأكبـر، فليس بنا حـاجة إلى الله على الإطلاق، إذ ليس الدين إلا طقوساً وتراتيل، ثم إن مـا يدّعـونه من الحيـاة الفرديـة الخاصّة ليس إلاّ مجرّد وَهْم، لأن الإنسان كائن اجتماعي، وحياته في كافّة مـراحله حيـاة اجتماعيـة، حين نشأ بين أُسـرته طفـلاً، وفي مدرستـه تلميذاً، وفي مجتمعـه

رجلاً، وهذه النشأة المختلطة تربطه بالآخرين ربطاً لا فكاك منه، وتدعوه إلى اتّباع ما سَنّه الله في كتابه، فكيف يصبح الدين بعد ذلك علاقة بين الفرد وربّه.

وفي المجتمعات الإلحادية التي كفرت بتشريع السماء نجد القوانين تُوضَع وفق الرغبات العارضة، والأهواء الجامحة، وهي عُرضَة للتغيير والتبديل بمجيء عهد، وزوال عهد، فكيف يكون ما يُسَنّ من القوانين الوضعية شريعة صالحة، وهي في يوم تحلّ الحلال، وفي يوم آخر تحرّمه وتُبيح الحرام؟.

هذه القوانين الأرضية لا يشعر لها الإنسان في أعماقه بسلطان رادع، فهو إذا ارتكب الجريمة دون أن يراه أحد عدّ نفسه بريئاً غير مذنب ونام ليله وقضى نهاره وادعاً مستريحاً، أما قانون السماء فيُشعِرُك بالإثم حين ترتكبه، لأن الله غير غافل عنه، وسواء بعد ذلك وقعت تحت طائلة العقاب الدنيوي أم لم تقع، فالقول إذن بما تقول العلمانية من أن الدين علاقة خاصّة بين العبد وربّه، قول زائف لا يعرف مستقرّه الصحيح.

فإذا رجعنا إلى الافتراض الثاني، وهو أن الله ليس السيّد الحاكم، فلنكن صريحين في الإلحاد، ولنمنع القول الخادع بأن الدين علاقة بين المرء وربّه، إذ كيف توجد علاقة بين إنسان وشيء آخر لا يعتقد أن له سلطاناً عليه؟ وكيف بعد هذا الاعتقاد ننهض لدفع رذيلة وتحقيق فضيلة.

هذا عن العلمانية.

أما القومية، فقد انتشرت في أوروبا بادىء ذي بدء فراراً من تعسّف البابوات، إذ هبّ رجال الإقطاع من الملوك والأمراء للخلاص من تحكّم الكنيسة والبابوات فنادوا بالقومية ليكون الولاء للوطن وحده، وكانت هذه القومية مصدر خطر مُوبِق، إذ عملت على إفساد المناهج التعليمية، وتغيير الحقائق التاريخية لتخلق مزايا للوطن الخاصّ لم تكن له، ولتجعل من حكّامه الذين يدعون إلى القومية نماذج للأبطال المُكافحين في سبيل الرقيّ.

وقد ترتّب على ذلك أن تربّصت كل دولة بجارتها، وأخذت تعدّ الأسباب لاكتساحها تحت نعرة إعزاز الوطن، وإذلال أعدائه فقامت حربان عالميتان في مدى عشرين عاماً تحت نداء القومية، وأثكلت العالم أكثر من عشرين مليوناً من الأنفس، غير ما دمّر من المنازل والمعاهد والجامعات والمتاجر، وما مُني به كثيرٌ ممّن نجوا من الموت من أمراض دائمة سببها الإشعاع الذرّي والتدمير المُبيد بالقذائف الصاروخية.

وحاولت القومية أن تستر خداعها في الاستيلاء على الدول الضعيفة، فاخترعت أسماء: الوصاية، والانتداب، والحماية، والمحالفة، والتعاون، إلى آخر هذه الكلمات التي فقدت معانيها، وأصبحت أحابيل شرّ، ووسائل اغتصاب.

لقد واجه المودودي دُعاة القومية في صراحة، فاعترف بأن خير الشعب هدف مقصود، على شريطة ألّا يستهدف تحطيم الشعوب الأخرى، إذ في ذلك رجوع للجاهلية العمياء، حين تكون مصلحة القبيلة كل شيء، وحين تُبنى هذه المصلحة على سَلْب القبيلة الأخرى، وتشريد أبنائها، وسبي نسائها، حتى جاز لبعض الشعراء أن يقول:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلّا أخانا

وبمراجعة تاريخ القوميات في المعسكر الغربي، نجد بلاءً صاعقاً أورث الكوارث، وإذا كنّا نعدّ الفرد الذي يبني سعادته على أنقاض فرد آخر آثماً مجرماً، ونعدّ الأسرة التي تمتصّ خير الأسرة المجاورة معتدية باغية، فكيف بالله لا نعدّ الدولة المُعتدية بأساطيلها ودبّاباتها وطائراتها على دولة عزلاء باغية مجرمة، بل نعدّها متقدّمة ذات مدنية تحاول نشرها بين الهَمَج والمتوحشين! وأيّ همجي متوحّش في الاثنين؟! الذي يسكن منزله آمناً دون أن يعتدي على أحد، ثم يروع بجبار مفترس، دموي يسلبه أمنه، وقد يسلبه حياته؟ أم هو هذا الجبّار المفترس، الذي احتذى حذو شريعة الغاب فأعمل براثن الآساد في جسوم الظباء!.

إن الضمير الإنساني يقطع بأن القومية في مدلولها الأوروبي والصهيوني لعنة من لعنات الأثرة والأنانية، وقد ورّطت الدنيا جميعها في حروب طاحنة أُزهقت فيها ملايين الأرواح، ولولا تكافؤ السلاح الذرّي لدى الأمم المتناحرة، لقامت حرب ثالثة، لا تذر من شيء أتت عليه.

نقول ذلك لأن السلاح الذرّي قد استعمل بقسوة وضراوة في أُخريات الحرب العالمية الثانية، حين كان مُلْكاً خاصّاً لفريق دون فريق!.

وقد أصبح معنى القومية في ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وفرنسا لأعوام كثيرة، مُناقضاً لمعنى الإنسانية والعدالة والحرية والإخاء.

لذلك دَعَا الأستاذ أبو الأعلى المودودي أن تظهر الأشياء في مسمّياتها الصحيحة، فلا نقول لليل الدّامس: أنت نهار مُضيء، ولا نقول للقومية الأثرة الطامعة: أنت مجد وطن، ومفخرة بلاد، ومشرق تاريخ!.

ونأتي للديمقراطية ـ وهي القناع الأخير ـ فنجدها تُوحي في ظاهرها بأن الشعب مصدر السلطات، ولو كان ذلك صحيحاً لجاز أن تكون وسيلة السلامة لدى قوم، ولكن الواقع أن الديمقراطية تقسم البلاد إلى أغلبية مطلقة، وأقليّة محدودة، وهنا تخضع قوانين البلاد وأنظمتها في الأخلاق والمدنية والاجتماع إلى رغبات الأكثرية.

وعلينا بعد ما جرّبناه من مرارة وألم أن نبادر إلى المُناداة بمبدأ العالمية، ومن معناها أن نعتقد أن نظام العالم جميعه قائم على التسليم بإرادة الخالق وحده، والخضوع لإرادته التي تجعل الناس جميعاً سواسية دون أدنى تمييز بين جنس أو أرض أو لون أو لغة، وهذا النظام يجب أن يكون فكرياً عقائدياً قائماً على مبادىء إلّهية ثابتة لا نعرات قومية متغيّرة، وهو نظام لا يُنافي القومية القائمة على حبّ الوطن والعمل على إسعاده ورقيّه، دون المَساس بحقوق الأوطان الأخرى.

وحين نؤمن بالاستقلال القومي، لا ندعو إلى الاحتجاز في مناطق ضيّقة من الأرض، ولا إلى سيطرة شعب على شعب بل يتولى كل شعب أمره بنفسه،

فتكاتف البشرية جمعاء على الإسعاد المشترك، والتعاون المتكامل، حتى ليصدق على الجميع قول الشاعر الكبير محمد إقبال (كل البلاد موطني لأنها بلاد ربّي).

وإذا استقرّ هذا الاعتبار الإنساني لدى كل أمة فقد رفرف علم السلام، على أن يتوافر الشعور التامّ بأن الأرض جميعها لله، وإنما البشر خلفاء الله في أرضه يعملون بأمره، وينفّذون ما شرعه للناس.

وفي مجال الاجتهاد التشريعي أفاض أبو الأعلى في أصول إسلامية ممتازة نُشير إليها دون أن نجد السبيل إلى إيجازها، لأن مواد التشريع لا توجز، فلكل لفظ مدلوله ومحترزه، واختصاره يخلّ ولا يفيد.

أما تشخيص الدواء لما يشيع في جسم العالم الإسلامي من داء فما أكثر ما خاض أبو الأعلى فيه كاتباً ومُحاضراً ومؤلّفاً ومُحاوِراً ومُناظراً، وخُلاصة ما قال: إن الإسلام لا يزال يعطي الدليل على قوّته، فما قامت ثورة من ثورات التحرير الصادقة إلّا اعتمدت على آيات القرآن وتوجيهات التشريع، وفي هذه الحركات التحريرية انتفاضات صادقة تحبّ الدين باطناً وظاهراً وانتفاضات ادّعائية تنادي بالدين لتجذب إليها أعناق المؤمنين، وهي في باطنها الدّفين تخاصمه وتُظهِر له العداء، ودليل ذلك أنها لا تعمل على تنفيذ شريعته.

وقد جالَ الإمام المودودي في شتّى ممالك الإسلام ودرس تواريخ الأمم الإسلامية، فعرف أن الإسلام كان مصدر انتصار المنتصرين، نادت به الثورة الجزائرية حين كانت البلاد في قبضة الفرنسيين، فوجدت من الشعب المسلم كلّ معين، بل نادى به مصطفى كمال نفسه حين تقدّم لمحاربة اليونانيين، فجمع خلفه الجموع، وكسب النصر باسم الإسلام، ثم حين تمكّن حبّه من النفوس، وملك الرِّقاب ظهرت خبيئته الدفينة، فانتفض على ما كان من أسباب نصره، وموضع فخاره، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مَرَدّ له.

والمأساة كل المأساة يُفصِح عنها العلّامة المودودي بقوله:

«في كل بلد إسلامي درست تاريخه تجد هذه الظاهرة، تلعب دورها ـ دور الولاء الظاهري للإسلام ـ حتى تكسب الثمرات، ثم الانتقاض عليه، إذ نجد الذين بيدهم أزمة القيادة والتوجيه، بعيدين عن الإسلام لا يجدون في أنفسهم ميلاً إلى تطبيقه، لأنهم تثقفوا بثقافة تبدّلت بها مقاييسهم للقِيَم، وتبدّلت بها خِصالهم، وبهرت عيونهم حضارة أخرى غير حضارة الإسلام، وأخذ بمجامع قلوبهم منهاج غير منهاج الإسلام، وكانت الجماهير الإسلامية مضطرة إلى إسناد القيادة إليهم طوعاً أو كرهاً، ثم إن ما حقّقه هؤلاء القوم من الانتصارات قد حقّقوها باستِثارة جذوة المسلمين الإسلامية، وما من معركة تحريرية تحقّق انتصارها إلّا بهذه الطريقة نفسها»[1].

وموقف الإمام المودودي من الماركسية أشهر من أن يُشار إليه، فقد كتب عنها ما صار سلاحاً باتراً لدى كل كاتب إسلامي لأن علم المودودي الموسوعي، وعقله المبلور، وفكره المستنبط، ونظره العميق إلى شتّى حركات الانقلاب في الكتلة الشرقية مما جعله يضع النقاط على الحروف، والحق أن مفكّراً كبيراً من طراز المودودي يجب ألّا تخلو مكتبة في بيت كل مسلم من مؤلّفاته، إذ يعطي المسلم ما لا يجده عند سواه، وكأنه في إعطائه الفسيح الزاخر مؤيّد بروح الله!.

ونحن لا نبخس أدوار الذين حاربوا معه في شتّى ممالك الإسلام وبلاده في اتجاه واحد ولكن الحق يُوجِب أن نقول: إنه ـ نضّر الله ثَراه ـ كان قائداً معلّماً بين جنود بواسل كماة.

ومن أفضح الأكاذيب التي أُلصِقَت بأبي الأعلى المودودي: اتّهامه بأنه يدعو إلى حمل السلاح أمام مُخالِفيه، وهو ما تبرأ منه مؤلّفاته جميعاً، وكلها بين أيدينا كاملة غير منقوصة، وكتاب الجهاد في الإسلام أولى الكتب بالحديث عن حمل السلاح، إذا كان مما يرى العلامة، ولكنه على النقيض من ذلك يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

---

(١) مجلة الأزهر، ص ٣٢٧، (صفر، ١٣٩٩).

وقد عهدنا كثيراً أن تُلصَق تُهَم الدماء والاغتيال بالأطهار من الشرفاء، رغبةً في تلويث اتجاهاتهم النبيلة، فكأن هؤلاء المفترين وقد عجزوا عن الحوار الحرّ عن طريق المنطق السّديد لم يشاؤوا أن يتركوا الصحيح صحيحاً، فحاولوا إثارة الغبار بالباطل كي يقذي العيون.

ولعلّ أمير الجماعة اليوم (مولانا غلام أعظم) خليفة الإمام المودودي قد جَلا هذا المعنى في إجابته عن سؤال صريح فقال[1]:

«الحكومات السابقة كانت لا تجد اتّهاماً حقيقياً فتلجأ إلى الاختلاق كي تنال من الجماعة عن طريق تشويه السّمعة، فمولانا المودودي يعارض بشدّة استخدام السلاح في الدعوة، وقد طلب منه الجيل الجديد عدّة مرّات السّماح له بالدفاع عن النفس باستعمال القوة ضدّ العناصر المُعارضة التي تستعمل القوة في مواجهة الجماعة، ولكنه أبى عليهم ذلك، لأن الإسلام إذا لم يكن حاكماً فاستعمال أبنائه السلاح يُعَدّ بمثابة انتحار، ويسوق دليلاً على ذلك بعدم سماح رسول الله ﷺ لأصحابه في العهد المكّي باستعمال القوة ضدّ هؤلاء الذين كانوا يعذّبونهم ويضطهدونهم، ولم يسمح لهم بذلك إلاّ بعد انتقالهم إلى المدينة وتكوين الدولة الإسلامية».

لقد لبّى المودودي نداء ربّه راضياً مرضياً بعد جهادٍ ظافرٍ سيكون وسيلته إلى الحظوة برضوان الله، مع أسلافه من كبار الدّعاة الذين جعلوا الإسلام شغلهم الشاغل في الحياة، فاعتزّوا به، واعتزّ بهم، وسيكون موضع مُباهاتهم الفاخرة يوم يقوم الناس لربّ العالمين.

(١) مجلة الدعوة، العدد (١٧)، ص ٩، ذو القعدة، سنة ١٣٩٧ هـ.

الشيخ محمد أحمد عرفة
ناقد تعدّدت صولاته، واتّسعت ميادينه

- ١ -

هو ناقد، بل فارس تعدّدت صولاته، واتّسعت ميادينه، لا أقول ذلك اقتناصاً لصورة بلاغية تزيّن التعبير، بل أقوله تعبيراً عن حقيقة واقعية، يجب أن تكون ذائعة مُشتهرة بين الدارسين لأن تاريخ المعارك الفكرية لدينا في حاجة إلى تسجيل شامل مطمئن يحفظ حقوق قوم أدّوا كرامة العلم نقاشاً ونقداً وتجريحاً وتعديلاً ثم مضوا عن هذه الحياة في صمت لاذع، حيث تُجوهِلَت أقدارهم وتُنوسِيَت فضائلهم، لأنهم لم يصطنعوا طُبُولاً تدقّ من ورائهم لتقدّم جزاء ما سلف إليها مُحاباة.

فما أكثر هؤلاء الذين يتجاهلون ذوي الفضل، لا لشيء إلّا لأنهم كانوا يسيرون على الصراط القويم، وما أكثر هؤلاء الذين يدقّون الطبول لذوي الشُّهرة العريضة، لا لشيء سوى أنهم كانوا بعض ذيولهم المندفعة وراءهم في كل اتجاه، وإلّا فكيف تفسّر سكوت الأقلام عن فرسان كبار من ذوي المعارك الفكرية، أمثال: أحمد زكي باشا، ومحمد أحمد عَرَفَة، ومحمد لطفي جمعة، ومحمد الخضر حسين، ومحمد فريد وجدي، ومحمد أحمد الغمراوي، وقد تركوا من الآثار الناهضة ما يشهد لهم بالفضل الكبير، ثم اتجاهها إلى ترداد الذائع المتعالم عن المشاهير، دون إضافة سطر واحد إلى هذا الذائع المتعالم، إلّا أن يكون الحق قد

عدم أنصاره، وللحق صمت محدود الزمن، ولكنه لا بدّ أن ينطق بأبلغ لسان حين تحين الساعة، وينتبه الراقدون.

انتسب الطالب محمد أحمد عرفة للأزهر عقب وفاة الإمام محمد عبده، وقد فاضت الصُّحُف في تعداد مآثره، فلفتت ذهنه إلى مِثالٍ نادر من العلماء الذين يحملون أمانة القلم هدياً وإصلاحاً، ثم وقع في يده كتاب «نهج البلاغة» بشرح الأستاذ الإمام، فأقبل على حفظ روائع عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، مشروحة بقلم الإمام المُصلِح، وكان الأزهر حينئذٍ يكتفي بكتب العلم عن كتب الأدب، فمَن اقتصر من طلّابه على متونه وحواشيه فقد قبع في زاوية ضيقة، ومَن أرشدته تعاليم الإمام إلى كتب التراث بعامّة فقد نظر إلى الدنيا ببصر ثاقب.

لذلك كان محمد عرفة من الفريق الثاني، الذي جمع بين الاتجاهين في عهد الطلب، وكان للجرائد على عهده كتاب كبار، من أمثال: المنفلوطي، والمويلحي، والبرقوقي، وعلي يوسف، وعبد الكريم سليمان، ومحمد شاكر، وكلهم أزهريون يحملون أمانة الكلمة، ويمهّدون الطريق لجيلٍ لاحق من العلماء، يخرج عن نِطاق الشروح والمتون إلى معالجة شؤون الساعة وأحداث العصر، فجذبوا أقلام الناشئة من الأزهريين إلى ميدان الكتابة الصُّحُفية، وفسحوا المجال لأسماء مؤمنة مستنيرة، أخذت تشرق في الصُّحُف اليومية مُرشِدة هادية، ومُناقِشة ناقدة.

ومن هذه الطليعة الناهضة أسماء: محمود أبو العيون، وعلي سرور الزنكلوني، وعبد الباقي سرور نعيم، ومحمود شلتوت، ومحمد سليمان، وعبد المتعال الصعيدي، ومحمد أحمد عرفة الذي نخصّه بدراسة اليوم مُنصِفين غير متزيدين.

ولم يكد عرفة يفرغ من دراسته الأزهرية، وينتقل إلى التدريس بعد تفوّقه في امتحان العالمية، حتى شغلت الجرائد بقانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠ الخاصّ بالأحوال الشخصية، حيث رأى المشرّع أن يعدل عن قانون ٢١ لسنة ١٩١٠ الذي نصّ

على وجوب العمل بالراجح من مذهب أبي حنيفة، وبمذهب أبي يوسف في مقدار المهر ومسائل أخرى، إذ رأى واضعو القانون الأخير أن تتّسع دائرة الأخذ من أحكام الأئمة، لتُجيز للقاضي أن يحكم بغير مذهبه، وبالضعيف منه إذا رُوعِيَت المصلحة.

وهي مناسبة فسيحة لانطلاق الأفكار المجدّدة في محيط التشريع الإسلامي، وقد دفعت بالشيخ محمد عرفة إلى كتابة سلسلة من البحوث الفقهية، فكان أول مَن أوجب إعادة النظر في الطلاق المعلّق، وطلاق الغضبان والمُكرَه، وطلاق ثلاثة الأيمان بلفظ واحد.

وأخذ ينتقي من نصوص السابقين ما يؤيّد مَنحاه، ويفسّر الآيات والأحاديث تفسيراً يتّجه لليُسْر السهل، لا إلى التشديد الصعب، ولم يشأ أن يمهر مقالاته باسمه الصريح، بل رمز إليه بحرفي (م.ع.) كيلا تكون حداثته العلمية مانعة دون النظر في آرائه، وقد كانت آراؤه مصدر نقاش متصل بين المُشَرّعين الكبار، وقد جعلوا يتساءلون في لهفة عن صاحبها، مُقَدّرين أنه من ذوي المناصب العالية في الأزهر والمحاكم الشرعية، حتى تسنّى لهم أن يهتدوا إليه بعد أن تمخّض الجدل عن حقائق جديدة، وجدت طريقها إلى بعض العقول، ونحن إذا رجعنا إلى ما كتبه الشيخ المراغي من بحوث تالية تمخّضت عن قانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩، نجد أن كل ما جاء به الأستاذ عَرَفَة قد وافق تفكير الإمام المراغي، ولا ندّعي أن الرجل الكبير قد سَطَا على أقواله، بل نقول: إن الإخلاص للحقيقة قد صادف توافقاً بين الشيخين.

وقد زاد المراغي زيادة ممتازة حين كتب مذكّرته التفسيرية لقانون رقم ٢٥، فبدأها بفصول جيّدة عن التشريع، تتحدّث عن مسائل قوية من قضايا علم الأصول، إذ فسّر معنى الاجتهاد، ووازَن بين المجتهد المطلق، والمجتهد المقيّد، وحدّد المراد بلفظي التجديد والتقليد، وأكد ضرورة الرجوع إلى غير أصحاب المذاهب الأربعة المشتهرة.

كما تحدّث عن قضاء القاضي بغير مذهبه حيناً، وبالضعيف المرجوح منه حيناً آخر، وأفاض في تغيير الأحكام بتغيّر الزمان والمكان والعُرْف، حتى إذا فرغ من ذلك كله في إشباع وإقناع أخذ يعرض مواد القانون الجديد في هدي ما قدّم من قواعد ونقول، عن الأئمة الكبار.

وقد تحدّث الشيخ عرفة عن صنيعه هذا فقال في وضوح عن أبحاثه تلك: «لقد أثارت بعض المُحافظين فردّوا عليها، ولكنها كانت حجراً أُلقِيَ في الماء الراكد، فنبّهت الأذهان، وفعلت فِعلها حتى صدر قانون المحاكم الشرعية بعد ذلك مُطابقاً لكل ما اقترحته، فإن كان ذلك قد حفظ الأُسرة المصرية من التداعي والانهيار، وحفظ الأبناء من الشتات والضياع، فعند الله أحتسب ما صنعت، وأدّخر ما قدّمت»[1].

رشّحت هذه الدراسات الفقهية صاحبها ليكون أستاذاً بكليّة الشريعة الإسلامية عقب إنشائها، فوكيلاً لها، فأُتيح له المجال كي ينهض بدراسة الأحكام الفقهية في جوٍّ أرحب، ومع عقول لا ينقصها الاستعداد.

وقد رأس جماعة من زملائه ليعملوا بتوجيهه على كتابة مؤلَّف يشمل آيات الأحكام القرآنية في أجزاء أربعة، يختصّ كل جزء بعام دراسي من أعوام الكلية.

وآيات الأحكام القرآنية قد وجدت مَن يهتم بها من السابقين، ولكن على نحوٍ مذهبي محدود، فتفسير آيات الأحكام الذي كتبه الجصاص يتجه وجهة الأحناف، وتفسير آيات الأحكام الذي كتبه ألكيا الهراسي يتّجه وجهة الشافعية، وتفسير آيات الأحكام الذي كتبه ابن العربي يتّجه وجهة المالكية، وللأخير قسوة مُفرِطَة حين يتناول الرأي المُخالف، وكأنه يناقش خصوماً لا أئمة يتّجهون معه نحو هدف واحد.

---

(١) عن الجزء الثالث من كتاب (الأزهر في ألف عام)، ص ١٠٧، نقلاً عن مقال نشره الأستاذ محمد عرفة بجريدة المصرى، (يونيه، سنة ١٩٥٢ م).

فرأى الأستاذ عرفة أن يكـون تفسيره لآيـات الأحكام شـاملاً وجهـات متعددة بحيث لا يقف عند المذاهب الأربعة في بعض ما يتّجه إليه إذا كانت الحاجة مُلزِمة إلى فضاء أوسع.

وأضرب لذلك بما كتبه في آيات الوصيّة، حيث رأى أن يكون الوارث بعض مَن يختصّ بالوصية إذا دَعَت ضرورة إنسانية لتفضيله، وجمع من النصوص ما يؤيّد منحاه، وأزال من بعضها ما يُشَمّ منه رائحة التعارض بـالتأويـل والتخريـج، ودراسة الأحكام القرآنية في هذا الأُفق العالي ذات نور يوحي بالهداية إذ هي خـطوة متّسعة لشمول الشريعة، وإيفائها بمتطلبات الحياة على وجه لا تعوقه الأسداد.

وإذا كنّا قد بدأنا بالناحية التشريعية من جهاد الرجل الفاضل فلن نغفل نقداته الأصولية الكبيرة لدائرة المعارف الإسلامية، حين همّ بترجمتها إلى العربية نفـر من الشباب الجادّ، فقد قرأ الأستـاذ أجزاء المجلد الأول في اهتمـام، ووجد في بعض المـواد مـا أخـطأ سبيله عن عمـد قـاصـد، فشـرع ينشـر في الصُّحُف والمجـلّات تصـويباتـه الفقهية والتـاريخية، وينـادي بـوجـوب التعليق على المـواد العلميـة في الحواشي، حين يكون المكتوب خطأً منحرفاً عن الصواب.

وقد استجاب القائمون على أمر الدائرة لاقتراحه، فأخذنا نقـرأ نقود الأعـلام من الـدارسين لما يُقـال على غير وجهـه، ومن أبرز مـا جلى فيه الكـاتب مـا نشـره خـاصّاً بمـادة (الإجماع) الأصـولية، إذ خبط كـاتب هذه المـادة خبطاً عشـوائياً في موضوع أصولي دقيق لا ينهض به غير فقيه راسخ، فزعم أن الإجماع قد ينقض مـا جاء في كتاب الله وسُنّة رسوله، وأنه قد حدث بالفعل في تـاريخ الفقـه الإسلامي، وادّعى أن للمسلمين أن يحملوا دينهم ما يشاؤون من الآراء المستحـدثة إذا وافقـوا عليهـا مهما كـانت مُخالِفـة للنص الصريـح، فيكون في مقـدور أئمتهم أن يلحقـوا بالشرع الإسلامي ما ليس فيه، وكأنهم غيـر مسلمين إذ لا يتقيدون بنص من كتـاب أو حديث!!.

ثم يستدلّ كاتب المادة بالإجماع الدّالّ على التوسّل بالأولياء، حيث صار أمراً جديداً أُضيف إلى الدين، وهو استدلال فاسد، إذ لا إجماع على التوسّل كما زعم، وإنما هو خبط يتعمّده مستشرق غير متخصّص، وأظهر هذه الآراء خطورة ما ادّعاه من امتداد الإجماع إلى دائرة العقائد فيما يُعرَف بعلم التوحيد، مع أن الإجماع في علم الأصول خاص بالفروع العلمية في أحكامها الفقهية.

ولسنا نريد أن نناقش هذه الآراء فننقل عن الأستاذ عرفة ما نسفها به من حق صريح، ولكننا نشير إلى مكان الردّ في المجلد الخامس من مجلة الأزهر ص ٥٦٠ وما بعدها، كما تضمن هذا المجلد نقاشاً آخر حول الحج في الإسلام، إذ جاءت أحكامه في الدائرة مشوّهة تتطلّب التصحيح، كما تضمّن المجلّد فصلاً رائعاً عن تصحيح ما قيل في الدائرة عن أبي هريرة رضي الله عنه!.

وأنا أعجب للذين يُفرِدون الكتب في ثلب هذا الصحابي الجليل، متّخذين من بذور دائرة المعارف سُموماً قاتلة للبحث العلمي النزيه! أعجب لهؤلاء كيف سكتوا عن نقاش الأستاذ عرفة لما كتب، إذ أبطل الباطل في منطق صريح، وإذا كانوا لم يقتنعوا به فلِمَ لم يردّوا عليه؟ ولِمَ اعتمدوا على السّموم القاتلة التي تصيّدها المستشرقون من الأخبار الضعيفة والروايات المكذوبة وحدها!! وكأن لهم غرضاً حقيقياً في إلباس الباطل زيّ الحق، حيث يُظهِرونه خالياً من نقود الفاقهين، وكأنه صحيح لا لَبْس فيه! وأذكر أن القائمين على نشر الدائرة قد انتفعوا بكثيرٍ من آراء الشيخ حين انتدبوه إلى كتابة تعليقات مصحّحة فيما جدّ من أجزاء الدائرة، فأبلى مع غيره من كبار المعقّبين أحسن البلاء.

وحين انتشر بلاء التبشير في أوائل العقد الثالث من هذا القرن، نشط الأزهر إلى تأليف لجنة من كبار العلماء، للدفاع عن الإسلام، بكتابة أبواب هادفة في كتب موجزة، تتحدّث عن أصول الإسلام ومحاسنه، فكتب الكبار من أمثال الشيوخ: يوسف الدجوي، وإبراهيم الجبالي، ومحمد الخضر حسين فصولاً هاديةً وُزِّعت على الناس، وتُرجِمَ أكثرها إلى مختلف اللغات.

وقد قام الأستاذ محمد أحمد عرفة بواجبه حين ألّف رسالته الموجزة تحت عنوان: (السرّ في انتشار الإسلام) فأوضح أن انتشار الإسلام يرجع إلى أمرين: يرجع إلى أصوله الأخلاقية في الهداية والتشريع، وإلى سلوك الداعي إليه، واتّباعه المثل الأعلى في الحياة، وهو إجمالٌ قام المؤلّف بتفصيله حين أوضح رسالة الحق والخير والجمال في الإسلام، وعلى وجه صريح تسنده النصوص والوقائع، وقد ترك الأقوال الصريحة من كتاب الله تنطق بما يجلو الصواب، وفي مجال الحديث عن رسول الله أتى بفضائله الذاتية كما اشتهرت عنه من حلم وعفو وتسامح وتواضع وصبر وكرم مُفرِط، وهي صفات تجد دليلها الملموس من الواقع المتواتر، ثم تحدّث عمّا زعمه الزاعمون من انتشار الإسلام بالسيف فأبطله بالحق الملزم، ورأى في أحداث التاريخ أيام الفتوح من سلوك أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وعمرو بن العاص ما نصر الحق على يده، وقد ترجم ما كتبه الأستاذ إلى لغات مختلفة فعاد بخير كثير.

أما كتاب (نقض مطاعن في القرآن الكريم) فقد ردّ به الأستاذ عرفة على محاضرات قرآنية ألقاها الدكتور طٰه حسين بكلية الآداب، تشبع فيها بما كتبه المستشرق «كازانوفا» عن القسم المكّي في القرآن، وقصر سوره وخلوّها في زعمه من المنطق والنقاش، على عكس ما يرى في القسم المدني، إذ كانت سوره مُسهِبة ذات حوار وعقل! كما تورّط الدكتور في الحديث عن لفظة قرآن بما لا ينتمي للحق، وعن أوائل بعض السور المبدوءة بالحروف أمثال؛ ق، ص، يٓس، حٓم، وكلّ ذلك كان يتطلّب الردّ الملجم، وهو ما نهض به الأستاذ عن اقتدار ويقظة وعمق.

ولن نخالف الواقع حين نقول: إن الدكتور طٰه حسين قد ترك هذه الآراء الهابطة معتقداً بُطلانها، لأن ما جاء في كتابه الرائع (في مرآة الإسلام) عن القرآن الكريم، يعصف بهذه الأكاذيب، وحسبنا منه أنه تراجع عن شططه، حين صحب كهولته المطمئنة بعيداً عن تسرّع الشباب، وليس يجوز لنا الآن أن نُسرِف في تعداد

هذه السّقَطات التي أسقطها من حسابه فلم يجمعها في كتاب منشور، وإن أساء بإلقائها على الطلاب.

وقد وقف الدكتور عبد الحميد سعيد رحمه الله منه موقف الكرامة حين ندّد بأراجيفه الظالمة في مجلس النوّاب، ودعا إلى التزام الحق حول كتاب الله! وفيمَن كتبوا تاريخ الدكتور طٰه مَن ينتقصون صنيع الدكتور عبد الحميد سعيد ويعدّونه ممثّلاً للرجعية! هكذا قالوا في أكثر من كتاب!! وهؤلاء أذناب تتحرّك تابعة مُسخّرة دون استقلال، إذ كيف يخطىء أستاذ في كتاب الله خطأً شديد العوار، فإذا قام مَن يحتجّ على خطئه الفادح عُدّ رجعياً متخلّفاً!! إلّا أن نكون في هذا النظر قد تركنا الإسلام جانباً لنتزلّف للمبشّرين لأننا ذيول.

وإذا كنّا قد سكتنا عن ردّ الأستاذ على هذه الافتراءات بعد أن تراجع عنها صاحبها، فلن نسكت عن إبداعه الرائع في كتابه الجادّ، حين تحدّث عن السياسة الإلحادية في التعليم، فبيّن أن الذين ينشرون الإلحاد في صفوف الناشئة وبين جماعات الأمة قد تعلموا تعليماً ناقصاً، فلا هم مع العامّة في جهلهم الطبيعي، ولا مع الخاصّة في تغلغلهم العاصِم من الخطأ، ولو فهموا العلم حقّ فهمه لآمنوا إيمان العلماء، ممّن رأوا قدرة الله واضحة فيما درسوه من مظاهر الكون ومشاهد الطبيعة، ونحن نعرف أن بعض الذين يتمسكون بحرية النقد الأدبي، لا يمضون مع الحرية في وجهها الصحيح، لأن أساس هذه الحرية أن تكون مستقلاً لا تابعاً وما جاء الدين مُعارضاً للعلم في شيء من حقائقه لدى الأصلاء الفاقهين، ولكن الذين يتصيّدون الشُّبُهات هم الذين يحتاجون إلى التؤدة والتثّبت ليعلموا أن النقد نظر جادّ هادِف، وليس وثباً خاطفاً في الطريق، هذا بعض ما أفاض فيه المؤلّف عن أصالة وإبداع، فقدّم المثل على شجاعة الخلق، وأمانة العلم، واستقامة الدليل.

- ٢ -

قلت: إن الأستاذ محمد عرفة ناقد تعدّدت صولاته، واتّسعت ميادينه، وقد آن

لنا أن نترك ميدان التشريع والأصول إلى ميدان البلاغة واللغة والنحو، مما يُعرَف بالعلوم اللسانية، إذ إن نضال الشيخ في ساحاتها العريضة قد أثمر أطيب الثمر، حيث قُدِّرَ له أن يترك كلية الشريعة الإسلامية إلى كلية اللغة العربية، ليتداول تدريس علوم مختلفة بها فيتفوّق على المشاهير!.

وإني لأعجب كلّ العجب حين أجد الكليّات المتخصّصة الآن لا تستطيع أن تُخرّج عالِماً كبيراً في ميدان دراستها إلاّ بجهدٍ جاهد، وعلى ندرة نادرة تجعله في مكان الشذوذ، أما الأستاذ محمد عرفة، ومحمد الخضر حسين، ومحمد علي النجار، فقد تعلّموا تعليماً عامّاً غير متخصّص، بحيث كانت علوم الشريعة، وعلوم اللغة، وعلوم العقائد، تُلقى عليهم في مستوىً واحد، ثم تجد الواحد منهم يكتب في كل علم وكأنه أفرغ له حياته العلمية، بحيث لا تتّسع لسواه.

ها نحن أُولاء نرى الأستاذ عرفة يتّجه إلى كلية اللغة، فيدرس الفلسفة ويبرع في مسائلها، ثم يختار في تخصّص الأستاذية لتدريس الأدب والبلاغة، فيفرض على الطلاب دراسة مستوعبة لكتب التراث النقدي، لم تكن مما درسه الأزهر من قبل، إذ يتخصّص كل طالب في دراسة أمثال: قُدامة، وأبي هلال، وابن طباطبا، وابن سنان الخفاجي، والباقلاني، والآمدي، والجرجاني قرابة عام، ليعدّ بحثاً مبدئياً يتعهّده الشيخ في كل خطوة من خطوات تكوينه، حتى إذا استوى على سوقه شذّبه وهذّبه، ودفع به إلى مجلة الأزهر ليُنشَر على حلقات.

وقد كان الأزهر منذ عهد الإمام محمد عبده يبدأ زمنياً بكتب المدرسة السكاكية، فيدرس في البلاغة آثار السعد التفتازاني، والسيد الجرجاني، والخطيب القزويني، وما يدور حولها من الحواشي والشروح، حتى يرتقي في السنوات الخاتمة إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، وعندهما يقف، فجاء الشيخ عرفة وارتفع بالسلسلة إلى عهد الجاحظ صاحب أول كتاب في البيان والتبيين، فإذا أضفنا إلى ذلك بحوثه البلاغية التي نشرها بإمضاء (م.ع.) في مجلة الأزهر عن

التجريد والتشبيه، والذكر والحذف، بالمجلد الرابع والعشرين لسنة ١٩٥٢ م، عرفنا كيف قام الرجل بنصيبه الأوفى في هذا المجال.

فإذا كان الحديث عن النحو والنّحاة، فلن يُنكَر مكان الأستاذ لدى الدارسين، إذ كان أحد قطبي معركة إحياء النحو، يوم أن ألّف الأستاذ الكبير إبراهيم مصطفى كتابه التجديدي ودفع به إلى الدارسين، فكان أول صوت رنّان مُعاصر ارتفع بصَيحة الابتكار النحوي.

وواضح أننا لن نبخس الناس أشياءهم، حين نجدهم يعكفون على البحث الخالص، ليخرجوا بنتائج جديدة، مهما كانت تجد المخالف، فحسب الأستاذ إبراهيم مصطفى أنه ترهّب في دير النحو سبع سنوات، ليبرز كتابه للناس، والذين يقرؤون كتب النحاة منذ سيبويه إلى عهد الأستاذ، يعرفون أنه كان يشقّ طريقه في الصخر مع كتب دقيقة، تستخدم الفلسفة والمنطق في التعبير، لتمضي بالقارىء إلى أدغال مرهوبة ذات آساد ونمور.

وقد كان الأستاذ محمد عرفة على سطوته العلمية في الردّ، يعرف لصاحبه ما لاقاه في نضاله من أهوال، إذ خاض ما خاض من أمواج، وقد ألمَعَ إلى ذلك في طيّات كتابه، حين عارضه في مسألة التنوين، وكونه علامة للتنكير في رأي الأستاذ إبراهيم مصطفى، فقال الأستاذ عرفة ص ٢٣١ من كتاب «النحو والنحاة».

«أما مؤلّف الكتاب فلم يشأ أن يرفض أن التنوين علم التنكير، وذهب يتلمّس وجوهاً تجعل ما نُوِّنَ من الأعلام نكرات، وما لم يُنَوَّن من الأوصاف والجموع معارف، وفي الحق أنه ركب كل صعب وذلول، والتمس وجوهاً خفيّة، لتطرد له هذه العلامة وتنعكس، وإني أرى أن الإنصاف يحتّم عليَّ أن أُعلن إعجابي بهذا الجهد الذي بذله في العلم، ليُكسِب ما نُوِّنَ صفة التنكير.

ثم قال بعد أن نقد رأيه: لذلك نرى من الإنصاف أن نحمد للمؤلّف هذا الجهد، ونرى من الحق أن نرفض ما ذهب إليه، فقد بلغ جهده ومَن بلغ جهده بلغ عذره».

وكيلا يتطوّح بنا القلم إلى منادح رحيبة، نوجز آراء الأستاذ إبـراهيم مصطفى التي نقضها الأستاذ محمد عرفة في هذه الأمور الأربعة، وقد لخّصها الناقد ص ١٤ من كتاب النحو والنحاة:

١ ـ نقد النحويين في قصرهم مباحث النحـو على الإعراب والبنـاء، دون أن يبحثوا خصائص الكلام من تقديم وتأخير، ونفي واستفهام، وإثبات وتوكيد.

٢ ـ الردّ على النحاة في زعمهم أن الإعراب أثر لفظي لا معنوي.

٣ ـ نقد النحاة في زعمهم أن الحركات اجتلبها العامـل، وإثبات أن المتكلّم هو الذي أحدثها.

٤ ـ إثبات أن التنوين علم التنكير، فلك في كل علم ألّا تنوّنه!.

ثم تكفّل كتاب «النحو والنحاة» بـالردّ عليهـا جميعاً بمـا يعرفـه الدارسـون، ومَن يتعـرّض للموازنـة بين الناقـد والمنقود، لا بـدّ أن يكون في مقـامهمـا النحـوي من جهة، وأن يُفرِد مؤلَّفاً خاصّاً بهذه الناحية، ليتّسع لكل ما قيل، من جهة ثانية، وأين أنـا من هذين؟ ولكني أُشيـر إلى تضلّع الأستاذ عـرفة في فنّـه، ووثوبـه الـظافـر في اجتهـاده، وانتحائـه منحى المنطق الملزم في نقـاشه، فهـو في حديثـه عن العامـل يفتـرض الفروض في كـون الأفعال والحـروف والأسماء قـد عملت الرفـع والنصب والجرّ والجزم فيقول في تساؤل: لا جائز أن تكون فاعلة بالإرادة، لأننا نعلم أنها لا إرادة لها، إذ لا حياة فيها، ولا جائز أن تكون فاعلة بالطبيعة، لأن الفاعل بالطبيعـة لا يتخلّف أثره، فالنار مهما وُجِدَت أحرقت، وهذه ليست كذلك.

ثم يستمر في افتراضياته العلمية حتى ينتهي إلى أن النحاة قد أدركوا ما أدرك المؤلّف، ولكنهم جعلوا العامل سبباً فحسب، وله في ذلـك بيان رائـع متدفّق، في تسلسل المقرّرات العلمية، وأشدّ روعةً ونصوعاً وتدفّقـاً في تصويـر الحيرة العلميـة التي تكتنف الباحث في خطواته الفكرية. وأيّ تصوير أبلغ من قوله في تصوير هذه الحيرة[1]:

(١) النحو والنحاة، ص ٧٩.

«لا يظن ظانّ أن هذه البحوث كانت متسلسلة، وبهذه السرعة التي يشعر بها قارىء هذا الكتاب، كلا، لم يكن الأمر كذلك، فقد كنّا نُبدىء ونُعيد، ونهتدي ونضلّ، ونسير على الجادة أحياناً، ونعتسف أحياناً، وإذا وجدنا شيئاً من الضوء مشينا، وإذا أظلم علينا الأمر وقفنا، وربما طال بنا الوقوف، سنين معدودة، وربما بَدَا لنا سراب فخِلناه ماء، وفرحنا الفرح كله، فلما قربنا منه وتثبتناه بَدَا لنا خداعه، وعادل فرحنا بجلاء الحقيقة حزننا على فوات المطلوب».

وتلك حالة يعرفها الأصلاء من الباحثين، وهي في حاجة إلى شاعر مصوّر ليمتدّ بها إلى أفسح ما يستطيع من رصد الخوالج الحائرة بين الأمل واليأس، والخيبة والنجاح.

وقد قال الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي في تصدير الكتاب، وهو مَن عَناه المؤلّف بقوله عنه (تقديم الكتاب لعَلَم من أعلام العلم والبيان) إذ شاء المراغي ألّا يُفصِح عن نفسه كيلا يدخل طرفاً رابعاً في النقاش، كما أجاز الدكتور طٰه حسين لنفسه أن يكون طرفاً ثالثاً، حيث قال في تقديم إحياء النحو، إنه كان يراجع الأستاذ إبراهيم مصطفى في مسائله، ويتفاهم معه مباحثه، فهو ليس جديداً عنده، قال الأستاذ المراغي[1]:

«لم يظهر لي مثال واضح على أن العلوم يسقي بعضها بعضاً، ويُعين بعضها على بعض، كما ظهر لي في هذا الكتاب، فنحن في علم العربية، وفي علم النحو خاصّة، فما دخل الفلسفة؟ وإنها لأبعد الأمور غناء في هذا الموضع، ولكن لشدّ ما أغنت وأجدت حين استوحاها في مسألة العامل وردّ الاعتراض عليه».

وإذا كان الإمام المراغي قد أشار إلى أثر الفلسفة في قضية العامل النحوي، فإني أُشير إلى أثرها البارز فيما كتبه المؤلّف عن التنوين، وهل هو علامة التنكير؟ كما يذهب إلى ذلك الأستاذ إبراهيم مصطفى، إذ كتب الأستاذ محمد عرفة فصلاً

---

(١) النحو والنحاة، مقدمة الأستاذ الأكبر، ص ٦.

بـديعـاً ممتعـاً تحت عنـوان (استخـدام المنـطق الاستقـرائي في تعـريف معنى التنوين)[1]، فذكر في مبدئه أنه يريد أن يصطحب القارئ في رحلة فكرية يتتبّع فيها مراحل الاستنباط ليعرف معنى التنوين، ولأيّ غرض يوجد، وقد سار الكاتب في مراحل البحث مرحلة مرحلة، فتكلّم تطبيقياً عن مرحلة الملاحظة فمرحلة الفروض، ثم امتحن الفرض بما عنَّ له من الملاحظات، واهتدى إلى النتيجة القائلة بأن التنوين للتعريف والتنكير معاً، وليس للثاني وحده، كما شاء المؤلّف، وتتبّع هذه المراحل كما اطّردت على يَراع الناقد من أبدع ما يمتّع به القارئ في حلبة الصيال، ولعلّنا ندفع باحِثِي اليوم إلى مُعاودة هذه النظرات ليكملوا خطوات الطريق.

وإذا كانت هناك بعض الصعوبات الحقيقية في تعلّم النحو، فقد وعد الأستاذ عرفة ص ٢٣٥ أن يضع كتاباً مدرسياً لصغار التلاميذ في المدارس والمعاهد، يكشف عن سرّ العربية ويقرّب لغة الضاد من طبيعة المتكلمين، بأسلوب سهل يجد مكانه من الارتياح لدى المدرّسين والطلاب.

ولكن الأستاذ عدل إلى نهج آخر من الإصلاح حين أظهر مؤلّفه الرائع (اللغة العربية ولماذا أخفقنا في تعليمها) وكان في أصله الأول مقالات عشر، نُشِرَت تِباعاً بمجلة الرسالة، ولم تقتصر على طبيعة المعالجة لمسائل النحو بل امتدّت إلى فروع اللغة العربية جميعها، حيث دار الحديث في مجال كلّي يرسم النهج العامّ لطبيعة اللغة، وجدوى التدريس في فروعها، حين ينتحي الوجهة الصحيحة في منطق الأستاذ، وكانت المقالة الأولى تمهيداً موطّداً لما يليها، إذ تحدّثت عن الأسلوب السائد في التدريس، ومدى صلاحيته، وعن الأسباب الموجبة للاحتفاظ بلغة القرآن، وجاءت المقالة الثانية لتتحدّث عن وسائل الإخفاق في تعليم هذه اللغة، ومن أهمها تكلّم الأساتذة باللغة العاميّة حتى في شرح مواد اللغة نفسها!!.

(١) النحو والنحاة، ص ٢٢٦، مطبعة السعادة.

وتتالت المقالات لتوضح أن اللغة ملكة لا تُنال إلّا بالمِران الدائم والتكرار المُلِحّ، واستظهار القواعد دون المِران على قراءة النصوص الأدبية لا يُجدي فتيلاً، في تكوين هذه الملكة، وإذا أراد الأساتذة أن يُوجدوا هذه الملكة فلا بدّ من الإكثار من الشواهد المناسبة، وأن يحرصوا على تهيئة فصول سهلة لكبار الأدباء تكون زاداً للطلاب، على أن تكون مَشُوقة، تدفع إلى الاستيعاب في شغف، حين تنحو منحى الشِعر السَلِس، أو القصة الطريفة، أو الخطبة المؤثِّرة.

وقد عقد موازنة بين طلاب يأخذون اللغة من الأساليب الصحيحة، وبين آخرين يأخذونها من القواعد ليثبت فائدة الأساليب، وإذا لم يكن من المُستطاع خلق بيئة فصيحة في المدرسة، فلنخلق بيئة تحاول الابتعاد عن المبتذل من ألفاظ العاميّة، وتميل إلى استعمال الألفاظ المشتركة بين العاميّة والعربية، وما أكثرها، بل ما أعظم قدرتها على استيعاب الخواطر، ولو قُدِّر لذوي الأمر أن يجمعوها لتكون في متناول الطلاب.

وقد قال الأستاذ محمد عرفة، بعد أن أشبع الحديث عن جدوى النصوص الصحيحة في استقامة الألسنة «يا قوم لقد جرّبتم طريقة القواعد في تعلّم اللغة العربية ألف مرة، وفي كل مرة تخفقون، فجرّبوا مرة واحدة طريقة الحفظ والتكرار، وأنا كفيل لكم أن تحمدوا هذه التجربة».

ومن أظهر ما اقترحه الأستاذ، أن يقتصر في التعليم الابتدائي على الاستكثار من المطالعة ودروس المحفوظات، ومثل ذلك في التعليم الثانوي مع إضافة قواعد اللغة بالقدر الضروري، وأشار إلى طريقة السلف في الإكثار من الشواهد، والاهتمام بما تتضمن من صور وتعبير وفكر، وقد لاقى كتاب الأستاذ عن تعليم اللغة ارتياحاً كبيراً من العلماء، فأثنت عليه الأقلام في الصُّحُف الأدبية، وتناوله العلّامة الكبير الشيخ عبد القادر المغربي بالتلخيص في مجلة المجمع العربي بدمشق، إذ كتب فصلاً طويلاً عنه بدأه بإيضاح رأيه الخاصّ في طريقة تعلّم اللغة ثم قال عقب ذلك:

«هذه خلاصة ما كنّا ننصح به شداة الأدب من إخواننا، ولم يَدُرْ في خلدنا أن يقوم أستاذ جليل من جماعة كبار العلماء الأزهريين في مصر، وهو الشيخ محمد عرفة فيتناول هذا الموضوع، ويكتب فيه بلباقة وحِذْق سلسلة مقالات بلغت العشر أجاد فيها كل الإجادة وأحسن في التنبيه والنّصح كل الإحسان. . . وقد رأينا أن نلخّص هذه المقالات الآنفة الذكر وننشرها في مجلتنا (مجلة المجمع العربي العلمي بدمشق) تعميماً لفائدتها، ثم تابع العلاّمة المغربي تلخيص المقالات في إيجاز مفيد»[1].

وإن بحثاً عن تعليم اللغة العربية يهتم به العلاّمة المغربي هذا الاهتمام لذو سداد بليغ.

- ٣ -

ثم ماذا؟ هل وقف الشيخ لدى النقاش العلمي في مسائل التشريع والأدب وعلوم اللغة العربية؟ أو أنه شارك في مُعضِلات عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟ إن صحيفة الأهرام ومجلة الرسالة تشهدان بمقالاته الاجتماعية ذات الوعي البصير، ولست أخصّهما بالذكر لأنهما كانا وحدهما مجال إبداعه، بل لأنهما كانا موضع تفضيله، إذ أكثر من الكتابة فيهما بالقياس إلى غيرهما.

وللشيخ في خطواته الاجتماعية شفافية ذات رفيف، وقد كنّا نلمس هذه الشفافية فيما سمعناه من محاضراته الدينية في جمعية الهداية الإسلامية، إذ كان وكيلاً لها يشارك رئيسها العلاّمة الشيخ محمد الخضر حسين في توجيه الشبيبة دينياً وثقافياً، كما شاركه في اتجاهه النقدي، فحملا أمانة القلم في تقويم المعوج، وإن اختلفت الطريقتان عند التناول، لأن الشيخ الخضر كان يقسم الباب المنقود إلى فقرات متتالية لينقد كل فقرة على حدتها بما يعنّ له، أما الشيخ عرفة فكان يلخّص الباب جميعه ليكرّ عليه بالنقد جملة واحدة، وللخضر إيجاز العالِم ودقّته، ولعرفة إسهاب الأديب ورقّته.

(١) نشرت مجلة الأزهر، (ربيع الأول، سنة ١٣٦٣ هـ)، ما كتبه المغربي نقلاً عن مجلة المجمع، ومنه اقتباسنا هذا.

وسنقتصر هنا على التعليق على أثـرين نفيسين من آثار الأستـاذ محمد عـرفة في مِضمار السياسة، حيث كتب مؤلّفين هادفين أحدهما عن (الإسـلام والشيوعيـة) وثانيهما عن (إنقاذ البشر من القنبلة الذرّيّة).

أمـا كتابـه عن «الإسلام والشيـوعيـة»، فقـد سطّره للمـوازنـة بينهمـا، مبيّنـاً حقيقتهما، وأيّهما يوافق طبائـع الوجـود، وأيّهما مَـدعاة التقـدّم الإنساني، ومـا علّة ذلك، وطبيعي أن يستعين بأقوال الدارسين في توضيح الشيوعية، إذ أحاط خبراً بما قيل عنها، حتى تملأ من مناحيها، فاندفع إلى توضيح مراميها، لا ليتكاثر بالأقوال، ويتزيّد بالنصوص، بل ليحوك ثوباً جديداً من نسجه الخاصّ.

وفي الفصـول الأولى أوضح مـآرب الشيوعيين من تحـطيم الملكية الفـردية، ومحـو الـدين من النفـوس، والكفـر بـالله واليـوم الآخـر، وإيقـاد نـار الحـرب بين الـطبقات، وإمـاتـة الشعـور الـوطني، واتخـاذ العنف والإرهـاب والتخـريب وسيلة للانتشار، ولا يـظن أحد أن الـرجل يخـوض في حديث معـاد، فلكل كـاتب ذاتيته الواضحة، وداء كالشيوعية يتطلّب من علمـاء الإسلام أن يتـآزروا على استئصالـه، كلٌّ بما يعنّ له، وإذا اتّحد كاتب مع كاتب في شيء، فلا بدّ أن ينفرد عنه في شيء آخر.

ومن أبدع فصول الكتاب: ما جاء تحت عنوان (اعتماد الشيوعية على العنف والإكراه)[1] إذ نقل الكاتب الكبير نصوصاً صـريحةً للينين وستـالين تدعـو إلى إبادة المُخالفين، كأن يقول الأول: «هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشيء، وإنمـا الشيء الهامّ أن يصبح الرّبع الباقي شيوعيين» وحيث يدعو الثاني إلى الحرب وإن أغـرقت الكون في الدماء، وبعد أن يكشف أهوال الشيوعيـة المدمّـرة، ينتقل إلى الإسـلام دين الرحمة والإنسانية، فيضع الصفحة الخضراء بإزاء الصفحة الحمراء.

وقد تحدّث عن ضرورة القتال في الإسلام دفاعـاً وصونـاً، لا بغياً وعـدواناً، فأتى بما يقنع بالدليل، ويُضيء بالنبراس، ثم أخذ يُدلي بـرأي الإسلام فيمـا تُجيزه

(١) الإسلام أم الشيوعية، ما بين ص ٢٤ وص ٣٦، ط دار الكتاب العربي.

الشيوعية من التجسّس، والإكراه على الإلحاد، وتحريم الملكية، والتآمر الخفي، والتزلّف الظاهري، خاتماً كتابه بفصل جيّد عن (موضع الدين الإسلامي من الأمة الإسلامية) التزم فيه جانب الصراحة حين رأى الكثيرين من علمائه ينصرفون عن مُحاربة الفساد، وعن إيضاح رأي الإسلام في مُعضِلات الزمن، إلى التأليف في مسائل ذائعة مشتهرة، مستشهداً بآيات ساطعة من كتاب الله، ومواقف جادّة لزعماء العصر الذهبي للإسلام، وناعِياً على الأمة الإسلامية تفكّكها المتخاذل، ثم ختم القول بالرجاء الحارّ في أن ترجع الوحدة، وتعود الألفة، فيتآزر المسلمون.

أما كتاب (إنقاذ البشر من أن يفنوا بعضهم بعضاً بالحرب الذرّيّة) فقد كتبت عنه فصلاً تحليلياً بمجلة الأزهر (المحرم ١٣٩٩ هـ) تحت عنوان (عالم أزهري يدعو إلى السلام العالمي) نظراً لخطورة موضوعه، وقد بدىء بفصل عن الحياد الإيجابي بين الكتلتين المتصارعتين، فأوضح أنه وَهْم لا حقيقة، إذ يفتقر إلى فلسفة نظرية تؤيّد اتجاهه تأييداً يدفع إلى تحبيذه الفعلي، إذ إن أكثر مَن يدّعون ظاهرياً هذا الحياد ينحازون إلى أحد المعسكرين، باطنياً، وفيهم مَن هو عين لهذا المعسكر يعمل لحسابه، مما يذهب برسالة عدم الانحياز.

وكان الأستاذ عرفة جادّاً واقعياً حين أعلن أنه لا يناقش قضية الحرب الذرّيّة بمنطق الدين، لأن أكثر الدّاعين إلى الحرب لا يستجيبون إلى الهدى، ولو تتبّعوا تعاليم رسالة سماوية لكفّوا عن الشرّ، كما أنه لا يتحاكم إلى الضمير لأن الفلسفة الوضعية قد أفسدت حقيقته في منطق الكثيرين، فهم يرونه أثراً من آثار التربية الاجتماعية يتّجه وجهتها في الشرّ والخير دون أن يتقيّد بمثل، كما أنه لا يتحاكم إلى هواتف الخير والقيم العليا التي لا يجرؤ أحد على الشك فيها، لأن الناس مع افتتانهم بها نظرياً يجحدونها عملياً، على حدّ قول الله: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً ﴾ [النمل/ ١٤].

إنما يتحاكم إلى المنفعة الذاتية التي ينشدها الجميع صراحة دون لَبْس، يتحاكم إلى المصلحة المادية التي يدور المُحتَرِبون في فلكها، مهما اصطنعوا

الشِّعارات، وتظاهروا بالمبادىء، هذه المنفعة تنادي بالعمل على السلام، وتجنّب الحروب الذرّيّة، لأنها إذا نشبت مع خطرها الهائل، ستعصف بالمنتصر والمنهزم معاً!! وإذا كانت العاقبة واحدة بالنسبة إلى الدمار الشامل الذي يعمّ الفريقين، فأي عاقل يعمل على استئصال أمته وفناء أهله وذويه؟.

ثم تحدّث عن مذهب القوّة وكيف اعتنقته ألمانيا فهوى بها في حربين عالميتين، إذ نزع من القلوب عوامل الرحمة بالضعيف، وأخذت تعاليم «نيتشة» تدعو إلى إبادة الضعفاء من الألمانيين أنفسهم، فأنّى تكون لهذه التعاليم معشار شفقة بالبعداء؟.

ثم كرّ على الشيوعية فتحدّث عن أخطارها حديثاً جديداً إذا قِيسَ بما كتبه من قبل، وإن التقى معه في النتيجة القائلة بخطر هذا المذهب الحاقد، مع ما اعترف به من ظهور الفساد عملياً حين طُبِّقت آراء الشيوعيين في بلادهم، حيث وأدت هذه الآراء حرية النفوس، ولم تُشبع الفقير، ولكنها أجاعت الغني، وفقاً لأهواء قلّة دكتاتورية، تتحكّم باسم الجماعة، لتغنم ثَراء القلّة القليلة.

وكان الرجل رائعاً رائعاً حين تحدّث عن أخطار القومية، داعياً إلى الإنسانية الشاملة التي تجعل الناس في كل قارة سَواسية كأسنان المشط، والرجل الكبير وإن آثر تجنّب الاستشهاد بالنصوص الدينية فإن قارئه يستشعر في كل سطر من سطور كتابه تشبّعه الحميد بروح الإسلام المُنصِفة وتعاليم القرآن الهادية، تلك التي لاحت حقائقها المُقنِعة في بيان جزل آسر، ومنطق فصل حاسم، لو قرأه القارىء بعيداً عن شتّى المؤثّرات العارِضة، لأن للحق صولة دافعة وسيطرة كاسحة تربط بينه وبين القلوب الصافية.

هذا بعض ما عنَّ لي أن أرصده من صولات هذا الناقد العالِم المُصلِح، وقد تركت الكثير من مواقفه النقدية والإصلاحية، لأن الاستيعاب الشامل يكون في كتاب مستقل، ولا يتمّ في فصل واحد مهما تعدّدت صفحاته، وإذا فاتنا أن نستوعب فحسبنا أن نلفت غيرنا إلى الاستيعاب، ليجعل من كل عنصر باباً، فتتكامل الفصول، وتأتلق القسمات.

عباس محمود العقّاد
في كتبــه الإســــلامية

- ١ -

يَحار الكاتب حين يـدرس إسـلاميـات العقّـاد، لأن الكـاتب الكبيـر متعـدّد الثقافة، متنـوّع المواهب، غـزير الإنتـاج في اتجاهـات كثيرة، تتّصـل من قريب أو بعيد بالحقل الإسلامي الذي أولاه أكبر اهتمامه، فأثمر في روضـه دوحاً يـانعاً يؤتي أشهى الثمار، وينفرد بسِمات خاصّة لا تُتاح لسواه.

لم يُعرَف عن الكاتب الكبير الأستاذ: عباس محمود العقّاد انحراف ديني في كلّ ما كتب على امتـداد عمره البعيـد، بل كـان قلمه بمنجـاة مما تـورّط فيه بعض الكبار من زملائه، حين أخذوا في شبـابهم الأول ببعض بهارج الاستشـراق، وحين رحلوا إلى أوروبا في عهد كانت فيه سيّدة الشرق، ومِصباح النور عنـد قوم، فنقلوا بعض مـا يسمعون مُنبَهِـرين، وفيمـا نقلوه مـا ينحي بـالـلائمـة ظلماً وافتـراءً على الإسلام!.

كان الأستاذ العقّاد منذ نشأته الأولى بمنجاة مما تورّط فيه هؤلاء، لأن فـطرته الصافية قد هَدَتْه إلى الطريق القويم، فكان يقرأ في كل اتجـاه لا ليكون أسيـراً لما يقرأ، بل ليصبح صاحب الرأي الأول فيما يُطالع، لم تخـدعه الأسمـاء المجلجلة، ولم تغشّه الأنوار الفاتنة، بل عرف كيف يميّز الخبيث من الطيب عن فـطرة خالصـة يمدّها البصر الثاقب، والفكر المطمئن السّديد.

لقد اتجه في مطلع حياته إلى الفكر الأدبي، ثم إلى النضال السياسي، ولم يَنْذُر نفسه للدفاع عن حقائق الإسلام منذ ملك اليراع القوي، والبيان الصارم النافذ، ولكنه كان في هذه المرحلة يستحصد ويقوى، ويكابد ويعالج، حتى إذا بلغ أشدّه، وجاوز الأربعين، شاء الله له أن يَلِج المضمار الإسلامي وقد مَلَك قوة العقل، وسطوة البيان، مع إيمان مطمئن لحقائق الإسلام، إيمان تغذّى بالحب والصدق، والاستقلال والنزاهة، وإذا وجدت هذه الصفات مع عقل مفكّر، وخاطِر واثب، وبصر لامح، فلا عجب أن يُبدِع صاحبها في حقل الثقافة الإسلامية ما أبدع عباس محمود العقّاد.

عرف اتجاه العقّاد في المنحى الإسلامي منذ كتب نقده لإعجاز القرآن، الذي ألفه قريعه المبدع الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمهما الله، فقال فيما قال: «فليكن كتابه (الرافعي) نموذجاً في البلاغة البدوية، أو تسبيحاً بالآيات القرآنية، أو تحيّة يقرؤها المسلم غير سامع إليها، ويقرؤها غير المسلم فلا تزيده بالقرآن علماً، ولا تطرق من قلبه أو عقله مكان الإيمان والتسليم»[1].

وإذا كان في هذا القول بعض الشَّطط، حين جعل كتاب الرافعي نموذجاً للبلاغة البدوية وحدها! مع أنه نموذج للبلاغة العربية في أرقى عهودها الزاهرة ذات الحضارة المثمرة، فإن منحى العقّاد في إقناع غير المسلم هو الهدف الذي يجب أن يوضع صوب العينين لدى كل كاتب إسلامي، لأن العقّاد يرى أن الإسلام رسالة عالمية، ويجب على مَن يكون من فرسانها أن يخاطب العقل البشري كافّة بمنطق العقل وحده، لذلك جاءت كتابة عباس محمود العقاد الإسلامية مُقنِعة هادية لمَن يتلمّس الحقيقة الخالصة، بعيداً عن التحيّز.

وكان الفكر الإسلامي على يد العقّاد صالحاً للرّواج في آفاق بعيدة، تتنكّر للأديان بعامّة، وللإسلام بخاصّة، وأعني بالرّواج دوام النظر والتأمّل، وإن لم يدفع إلى الاعتناق، لأن الإيمان لدى الكثيرين ليس قضية اقتناع بالدليل، ولكنه إرث

(١) ساعات بين الكتب، ص ١٠، ط ٤.

يمتدّ من الأجداد إلى الأحفاد، لدى الكثرة الكاثرة، إلاّ مَن استضاء بمِصباح التأمّل، بعيداً عن الجواذب والحوائل، ومَن يُكتَب له الهداية من هؤلاء يكون في تأثيره واحداً بألف!.

لقد كتب العقّاد مؤلّفاته الإسلامية جميعها وفي اعتقاده أن قارئه لجوج مِلحاح، يريد الدليل المُقنِع، والمنطق الجادّ، ويتربّص بالثغرات والمنعرجات ليصل منها إلى ما يريد من العناد فكانت هذه المؤلّفات جميعها نمطاً من الجدل الهادف، ذي الحَسْم الواضح.

وقد ذكر الكاتب الكبير في مقدمة: «عبقرية محمد» أنه يكتب عن رسول الله بالقدر الذي يطمئن إليه المسلم وغير المسلم فإذا أنِسَ القارىء من كاتبه بسطاً في الجدل، وعمقاً في التقصّي، وتلمّساً للسيطرة المُلزِمَة، فليعرف أنه فارس في ميدان يُنازل فرساناً ملؤوا الساحة بالضجيج عن غرض مريض.

ولسنا هنا في مجال السّرد لمؤلّفات العقّاد الإسلامية، وقد ناهزت الأربعين كتاباً، يحتاج كل كتاب منها إلى بحث مستقل، ولكننا نسلّط الأضواء على اتجاهه الفكري في الطريق الإسلامي حين نختار من هذه المؤلّفات ما يقرب فكره الديني تقريباً ملموساً، لمَن أراد الاطّلاع السريع.

وقد تحدّث الكاتب الكبير عن حقائق الإسلام في عدّة مؤلّفات، وعن أباطيل خصومه في مؤلّفات أُخَر على التفصيل، وإن تعرّض لهذه الأباطيل إجمالاً في حديثه عن حقائق هذا الدين، كما تحدّث عن حالة الإسلام المُعاصِر مقارناً بما كان من مجده السّالف، وعزّه الغابر، ومتطلّعاً إلى مستقبله المُشرِق بإذن الله.

أما حديثه عن أعلام الإسلام: فقد اشتهر اشتهاراً ذائعاً، إذ كان ولا يزال موضع الدراسة لطلاّب التعليم الثانوي في مدى فسيح، وقد حَظِيَ من التقدير والاحتفاء بما لم يَحْظَ به جانب آخر من جوانب الحقل الإسلامي، لأن حديث الأعلام ذو جواذب وجدانية، تجعله أكثر بريقاً، وليس معنى ذلك أنه يفوق في

مادّته العلميـة شتّى الجوانب الأخـرى، ولكن معناه أن الحظ السعيـد قد مضى بـه إلى أُفق فسيح.

وسنختـار في مجـال الحـديث عن حقـائق الإسـلام مـا كتبـه تحت عنـوان: (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) وتحت عنوان: (الفلسفة القرآنية) وتحت عنوان: (التفكير فريضة إسلاميـة) لأن هذه البحـوث تدور في فلك واحـد، وبعضها مكـرّر مُعـاد، ولكن تكرار العقّـاد لا يعني إعادة السـابق كمـا مـرّ، ولكنـه يعني التفصيـل للمُجمَـل، والتوضيـح للغامض، والإيجـاز للمُسهَب، لدَوَاعٍ يتـطلبها مـوقف دون موقف، والنظرة الفاحصة لكتاب (حقائق الإسلام) تدلّ على أنه كتبه للخاصّة أولاً، وقـد تملّكه شعـور بأن كتـابه سيُتـرجَم إلى عدّة لغـات (وهذا مـا قـام بـه المؤتمـر الإسـلامي فعلاً) وسيقـرؤه نفر كثيـر من خصوم الإسـلام، وفي هؤلاء الخصوم مَن يرتفع بذكائه إلى مستوى سقـراطي، بحيث لا يعيبه أن يُمـاري في سطوع الشمس إذا شاء.

لـذلك: نجـد الطابـع الفلسفي الرصين يعمّ هـذا الكتاب الثمين في كـلّ ما تعرّض له الكاتب الكبير من بحوث، نجده في الباب الأول حين تحدّث عن حقيقة الـدين، وعن ضرورتـه اللازمـة في الحياة، فـذكر أن أكبـر الشُّبُهات التي تعتـرض عقول المتشكّكين والمنكرين شُبهتـان، هما شُبهـة الشرّ، إذ لا يستـطيعون التـوفيق بين وجـود الشرّ في العـالم، وبين الإيمان بـإلّه رحيم قـديـر في جميـع الصفـات، وشُبهة الخرافة في كثيرٍ من العقائد الـدينية، حين تعجـز بعض العقول عن التـوفيق بين العقائد وبعض المحسوسات والمعقولات.

والمـدار مـدار فلسفي جـادّ، سبق فيـه البـاحث سبقـاً يعتمــد على الحجّـة العقليـة، والنقاش المُفحِم، وقـارىء هذا الفصـل يجده دفـاعاً عن حقيقـة الأديـان السماوية بعامّة، وعن الإسلام بخاصة باعتباره الصورة الصحيحة لدين الله منـذ نزل من السمـاء إلى الأرض، وقد اكتمـل اكتمـالاً وضيئـاً على يـد محمـد بن عبـد الله صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أصاب الكاتب مِفصَل الحق حين وازن بين الإسلام وغيره، فذكر أن الديانة (أيّ ديانة) تَفضُل سواها بمقدار شمولها لمطالب الروح، وارتقاء عقائدها وشعائرها في آفاق العقل والضمير، وكذلك كانت الديانة الإسلامية كما آمنّا بها، مِلّة لا تَفضُلها مِلّة في شمول حقائقها، وخُلُوص عباداتها وشعائرها من شوائب المِلَل الغابرة حين حُرِّفَت عن مسارها الصحيح، إذ أن بعض العقائد يصيب النفس بما يشبه داء الفِصام، لأنه يقسم الشخصية الإنسانية على نفسها، ويمزّق الضمير الحائر بين نوازع الجسد، ونوازع الروح، وبين سلطان الأرض وسلطان السماء، وبين فرائض السعي، وفرائض العبادة.

وشمول العقيدة الإسلامية هو الذي يعصم ضمير المسلم من هذا الفِصام الروحاني، وهو الذي يعلّمه أن يرفع رأسه حين تدول دولته أمام المسيطرين عليه، وهو الذي يحفظ كيان الدولة الإسلامية أمام الضربات التي تلاحقت عليها من غارات الفاتحين، والاستعمار والحروب الصليبية والتبشير.

ثم أفاض الباحث إفاضة مُشبَعة عن العقيدة الإلّهية في الإسلام، فوازن بين الإلّه في رأي أفلاطون وأرسطو مُبيِّناً خطأ الاثنين معاً، وهما من أصحاب العقول المثالية، واستعرض عقائد الهنود والمصريين منتقلاً إلى ما يدين به أهل الكتاب في إفاضة وإشباع، لينتهي إلى أن الله ربّ العالمين في الإسلام لم يكن صورة مُحَرّفة من صورة الله في العقائد الكتابية، كما يُوحي بذلك بعض المُبَشِّرين، بل كان هو الأصل الذي يؤوب إليه مَن ينحرف عن العقيدة في الإلّه الكامل كأكمل ما كانت عليه، وكأكمل ما ينبغي أن يكون.

ووالى الحديث عن النبوّة في القديم والحديث، ليرى أن النبوّة في الإسلام كانت كمال النبوّات، وختام الرسالات عن حق صريح، ثم تحدّث عن الإنسان والشيطان حديثاً يُجمِل ما فصّله في كتابين مستقلين عن الموضوعين، وخصّ العبادات والمُعاملات بفصلين رائعين، وجاء الفصل الثالث ليعمد إلى اللباب من حقائق التشريع، فيحدّث عن الحرية الإسلامية والأمّة والأسرة والرقّ، وزواج

الرسول، وحقوق الحرب في الإسلام وحقّ الإمام، وقد أكثر من الشواهد والمنقول عن أئمة الإسلام من المحافظين والمُجدّدين معاً، ليبيّن أن هؤلاء الأعلام مع اختلاف مناحيهم في التجديد والمحافظة قد فهموا جوهر الإسلام، عن إدراكٍ واعٍ صحيح، فلم يحدث بينهم من الاختلاف ما نراه لدى بعض النِّحَل المُخالفة، حين يقف المفكّر من أخيه في ساحة الدين الواحد موقف النقيض من النقيض.

أما الفصل الرابع: فقد تحدّث عن الأخلاق والآداب حديث المثقف المُعاصر، وقد كان المؤلّف صريحاً حين ذكر في خاتمة كتابه أنه لم يؤلّفه ليبشّر بالإسلام هؤلاء الماديين المتعطشين إلى إنكار كل معنى شريف من معاني الحياة البشرية، ولكنه كتب هذا المؤلَّف للمتديّن المُنصِف الذي ينظر إلى دينه نظرةً واعيةً، ثم للمسلم الذي يتلقّى حملات الخصوم، ليعلم أنه حقيق بالاطمئنان إلى حقيقة دينه، وبمواجهة المستقبل بعزيمة وإيمان.

أما كتاب (الفلسفة القرآنية) فقد تحدّث عن أكثر ما جاء في كتاب (الحقائق)، وهو حديث إذا اتفق في النتائج والنصوص والأحداث التاريخية، فقد اختلف في السياق والتركيب وتعدّد التناول النظري للحقائق، وقد ذكر العقّاد أنه في كتابه هذا يبيّن صلاح العقيدة الإسلامية لحياة الجماعة البشرية، وأن الجماعات التي تدين بها إنما تستمدّ حاجتها من الدين الذي لا غِنى عنه ثم لا تفوتها منه حاجتها إلى العلم والحضارة، ولا استعدادها لمُجاراة الزمن حيثما اتجه مجراه.

وقد جاء الباب الأول ليتحدّث عن القرآن والعلم، ليُوضِح أن الإسلام يفتح أبواب المعرفة للمسلمين ويحثّهم على وُلوجها والتقدّم فيها، وقبول كل مُستحدَث من العلوم على تقدّم الزمن وليست فضيلته الكبرى أنه يُقعِدهم عن البحث والنظر كما يزعم الواهِمون.

وتوالى الحديث عن الأسباب والخلق، وعن الأخلاق المُثلى في منطق الإسلام، ورجوعها إلى المصدر الإلّهي وحده لأنها في مناطها الأعلى لا تتعلّق بمنفعة المجتمع، ولا باستطاعة القوة، ولا بالقانون والسلطان، بل تتعلّق فوق ذلك

كله بما في الإنسان من حبٍّ للجمال، وشوق إلى الكمال، وكلاهما نفحة من الخالق يهتدي بها الأحياء عامّة في معارج الرِّفعة والارتقاء.

وفي الحديث عن الطبقات أوضح الباحث الكبير كيف أعطى القرآن بنصوصه المفصّلة المساواة حقّها، كما أعطى التفاوت بين الآحاد والطبقات حدّه، فلا يمتنع التفاوت، ولا يكون مع هذا سبباً لإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، ولو كان من المستضعفين في الجنس، أو من المستضعفين في المنزلة الاجتماعية.

وقد اتّسع الحديث لنقد الشيوعية نقداً واعياً بصيراً، وهو حديث صحب العقّاد في شتى مراحل حياته عن ثقة وإيمان، وربما كان كتابه عن (الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام) من أوفى وأدقّ ما كتب في موضوعه، وهو حديث يُفصِح عن خلق العقّاد الشجاع، قدر ما يُفصِح عن عقله النافذ البصير.

ولا نقف عندما قال عن المرأة والزواج في الفلسفة القرآنية، إذ أن العقّاد أفرد لذلك كتاباً مستقلاً، ولكننا نشير إلى أن قارىء هذين الموضوعين في كتاب الفلسفة القرآنية يشعر أن الكاتب الكبير سيّد الموقف، وأنه حين يُوجِز الحديث يطوي من المعاني ما يلحظه القارىء البصير من خلال السطور، أما حين يبسط الحديث في الموضوع نفسه، فإن القارىء البصير يشعر براحة نفسية إذ يجد ما استشعره من خلال الكلمات قد جاء مبسوطاً مُسهِباً، ومعنى الإسهاب لدى العقّاد يختلف عن معناه لدى سواه، لأن إسهاب العقّاد هو استرسال في الحجة واستطراد في الإقناع، وإحاطة بالموضوع من كافّة نواحيه، وليس قطعاً لألفاظ تتّسع وتمتدّ دون أن تضيف الجديد، وإذا أضافت شيئاً فليس بالرائع الباهر.

وفي كتاب الفلسفة تقرير لحقائق قوية عن الرقّ في الإسلام مقارناً بسواه، وعن العلاقات الدولية، ومسألة الروح والقضاء والقدر، والتصوّف، والحياة الأخرى، وكلها بحوث عويصة لم تُكتَب بالسهولة التي يظنها القارىء حين يستمرىء طعاماً شهياً قد نضج على ناره الهادئة، فيظن أن طاهيه لم يتكلّف شيئاً!

ولكنه لو أحاط علماً بما قرأ الكاتب الكبير حين قدّم هذه الفصول، من مراجع فلسفية، ذات استعصاء، لأدرك أيّ عناء كابد.

وطبيعي أن يكون عناء المتحدّث عن القضاء والقدر، والروح والمادة، والحياة الآخرة، والجنة والنار، وموقف الحساب والعقاب، وأمثال هذه الشوائك الدقيقة، مما يتطلّب برهاناً قوياً، لأن العقاد لا يجعل النص وحده دليله، بل يجعل العقل مفسّر النص ومؤيّده وهاديه!.

وقد يضطر القارىء إلى مخالفة الكاتب الكبير في بعض اتجاهاته، كما جاء في بعض حديثه عن نعيم الجنة الروحي، ولكنها مخالفة من يقدر وجهات النظر، واعتماد الباحث على نصوص قوية لأئمة كبار من المفسّرين والمتكلمين، بلغوا الذروة الشاهقة في دنيا النظر الصائب والجدل السديد، مع مقارنات طريفة، ممّا قاله أعلام الإسلام، وأحْبار الديانات الأخرى، تنتهي إلى قول العقّاد الدقيق: «إذا أعطينا أسلوب العقيدة حقّه من التعبير، ففي العالم الآخر كما يدين به المسلم رِضاً للوازع الأخلاقي، ورضاً لدوافع التفكير، ورضاً لعقيدة الدين».

أما كتاب (التفكير فريضة إسلامية) فقد كتبه العقّاد متأفّفاً من قوم يدّعون أنهم درسوا الإسلام، وتبطّنوا حقائقه، فرأوه يدعو إلى الانقياد والتسليم دون تفكير وتأمّل! وهؤلاء يكذبون عن عمد، حين يزعمون أنهم درسوا الإسلام، وانتهوا إلى نتيجتهم الباطلة، لأن دارس الإسلام لا بدّ أن يقف على نصوص القرآن والحديث، وتطبيق السّلَف لما جاء بهما! وكلّ ذلك يدلّ دلالة صريحة على أن الإسلام دين العقل، ولكن المُغرضين من هؤلاء يبذلون أعنف الجهد في جمع ما يوحي ببعض التعارض من النصوص للوهلة الأولى، مُحاوِلين أن يضربوا الأقوال بعضها ببعض، ليُجبِروا القارىء على أن يعتقد أن الإسلام يقف في طريق التفكير.

لهؤلاء وأمثالهم أعاد المؤلّف الكَرّة ليجمع في كتاب واحد ما يؤكّد أن التفكير فريضة إسلامية محتومة، وأن مزيَّة القرآن الأولى، هي التنويه بالعقل

والتعويل عليه، فالعقل لا يذكر في كتاب الله إلّا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به، والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارِضة ولا مقتضبة في سِياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة.

ومن خصائص العقل: ملكة الإدراك التي يُناط بها الفهم والتصوّر، كما أن من خصائصه أنه يتأمّل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه، ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ليعرف كيف يهتدي إلى الحكم الصحيح، والرّشد من أعلى خصائص العقل الإنساني، إذ هو تمام تكوينه وثمرة وجوده.

ثم يكثر الأستاذ من النصوص القرآنية الصريحة في تأييد ذلك كله، ليصل إلى أن العقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميّز بين الأشياء ويوازن بين الأضداد، حتى يصل صاحبه إلى مرتبة الحكمة (ومَن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً).

وفي باب الموانع والأعذار: تحدّث الكاتب عمّا يمنع أشعة العقل من النفاذ إلى الحقائق، وأكبر هذه الموانع عبادة السّلَف في عُرفها السائد، والاقتداء الأعمى بأصحاب السلطات الدينية، والخوف المهين من أصحاب السلطة الدنيوية، والإسلام يأبى على المرء أن يُحيل أعذاره على السّلَف من الآباء والأجداد، كما يأبى له الخضوع إلى ذوي الكهانة من المحترفين، ويدعو المسلم إلى الجهاد والهجرة، فراراً بعقيدته من الاضطهاد، وصفوة القول ـ في منطق العقل ـ أن الإسلام لا يعذر العقل الذي ينزل عن حق الإنسان رهبة للقوة أو استسلاماً للخديعة، ولا حدود لذلك إلّا حدود الطاقة البشرية كما تنهض بها الأمم، دون أن تقتصر على طاقة فرد.

وفي مجال إكبار العقل: تحدّث الكاتب عن المنطق باعتباره جامِعاً لأسباب النظر والتمييز، وقد فرّق في دقّة بالغة بين المنطق والجدل، فالمنطق في أصل وضعه علم يبحث عن الحقيقة من طريق النظر المستقيم، والتمييز الصحيح، أما

الجـدل فيبحث عن الغلبة والإلـزام بالحجـة، وقد يتحـرّى مجرّد السّبق والفـوز في مجال المناقضة دون نظر إلى الحق في ذاته، وكلّ ما يشير إلى كـراهة المنـطق في بعض أقـوال الأئمة من السـابقين يختصّ بالجـدل وحده، لأنـه في كثيـرٍ من أمـوره لجـاج وعناد وتـطاول، أما المنـطق العاصم من الشُّبهـة، والمـانـع من الخـطأ فلن يكرهه أحد، وقد استشهد العقّاد بنصوص صريحة للغزالي، وابن تيمية، والسيوطي تعضد دعواه.

ثم جـال القلم الجبّار جـولاته المـوفّقـة متحـدّثـاً عن الفلسفـة والعلم والفن الجميـــل، وعن المعجـزة والاجتهـــاد في الـدين، وعن فنـــون تتعلق بـالتّصـــوّف والمـذاهب الفكـريـة والاجتمـاعيـة، والعُـرْف والعـــادات، لينتهي إلى أن التفكيـر الصحيـح واجب محتوم في الإسـلام، وليقول إنـه ليس من روح الدين الحنيف أن يجمد المؤمن على عادة موروثة، لأنهـا عادة مـوروثة فحسب، وليس من روحـه أن يـرفض عادة جـديدة لأنهـا عـادة جـديـدة فحسب، ولكن المسلم يعتصم من روح الإسلام بحصافة تُعيده من سحر الغلبة، فلا تهوله بروعتها، وتلك مفخرة لـلإسلام تتمناها الأمم متى اختارت لنفسها الصراط القويم.

- ٢ -

نعرف أن نفراً من ذوي الغيرة الدينية قد تخصّصـوا في ردّ الشُّبُهات الـظالمة التي يحـاول أعداء الإسـلام تـرويجهـا بشتّى الأسـاليب، ولهم في هـذا المضمـار احتيال آثم ينأى عنه كل ذي أمانة علميـة، إذ أن أحدهم يـظن الظن المتـوهّم دون دليـل ملموس فيحكيـه بصيغة غيـر جازمـة، ويجيء غيره على الفـور فيتخذ الـظن حقيقـة، ويُطيـل الكلام في تـأييده راجعـاً إلى ما حكـاه سابقـه، بـاعتبـاره مصـدراً صحيحاً لا مرية فيه، مع أن سابقه المُفتَرى قد قدّمـه في صيغة الشـك لأنه اختلقـه اختـلاقاً من ذات حقـده الخائن، ويجيء الثـالث فيتحدّث عن الاختـلاق المتكـرّر وكأنه حقٌّ لا شـك فيه، وأمـامه مصـدران (محترمـان!!) ومن هنا كثـرت الأراجيف المزعومة، فنهض لدرئها كبار المخلصين.

وإذا كان جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومَن وليهما من تلاميذهما المثقفين قد بدآ بالدفاع الملجم أمام هذه الأراجيف فإن الأستاذ العقّاد لم يقتصر على الدفاع وحده، ولكنه بثقافته الواسعة قد ولج إلى البواعث والأسباب، فكشف عنها في جهارة وسطوع، حين حدّد الطوائف المُناوِئة للإسلام على اختلاف مناحيها، بل على تناقض مناحيها، إذ تجمّع الكَفَرة المُلحِدون وفريق من أهل الكتاب المتدينين، على غرض واحد هو تشويه الإسلام.

وقد عرف العقّاد هذه الحقيقة، وعلّلها بأن الماديين من المُلحِدين يجدون الإسلام أقوى من خصومهم، فليس في المسيحية مذهب شامل في السياسة والاقتصاد والاجتماع يقف أمام شيوعيتهم الخادعة، ولكن الإسلام وحده صاحب الحلّ المتكامل في شؤون الحياة، إذ يقيم المجتمع على نظامه الواضح، ويقرّر الحقوق والواجبات بقسطاس مستقيم، نصّ عليه في آيات الذكر الحكيم، كما أنه بشموله الواسع يُحيط بشؤون الدنيا جميعها أفراداً وجماعات، ويتقبّل الجديد الصالح، إذ يجد أُصوله في تعاليمه الأصلية، وينفي الجديد الخبيث إذ يجد لديه من المناعة ما يدفع بالميكروبات والجراثيم عن جسم صحيح الأعضاء مُكتَمِل الحياة! لذلك كان الشيوعيون ومَن تبعهم من الملاحدة يبذلون في مهاجمة الإسلام ما لا يبذلون معشاره في مواجهة دين آخر.

أما المُغرِضون من المتديّنين المحترفين، فهم في رأي العقّاد سماسرة التبشير الذين يتّخذون تشويه الإسلام صناعة يستدرّون بها الرزق، ويتوسّلون بها إلى جاه الرئاسة وسُمعة الصلاح والتقوى بين المتعصّبين والجهلاء في البلاد الأوروبية والأمريكية، فهؤلاء هم أصحاب مصلحة خاصّة في تشويه الدين الإسلامي، وتمثيل المسلمين على الصورة(١) التي تُذكِي عند القوم جذوة التعصّب، وتُملي لهم في الجهالة والغفلة، فلا يسرّهم أن تظهر الحقيقة لهم، ولمَن يستأجرونهم ويُرسلونهم للتبشير، ولا يندر أن يكون المبشّر مُلحِداً بالدين كله

(١) ما يقال عن الإسلام للعقّاد، ص (١٠)، ط بيروت.

مسيحية وإسلامية ـ وتلك ملاحظة ذكية للأستاذ العقّاد ـ ولكنه يعلم أنه يقطع موارد رزقه إذا كشف عن إلحاده، أو قال عن الإسلام قولة حق وإنصاف، تمحو عداوة الأعداء وتُضعِف غيرتهم، وحملاتهم التبشيرية في بلاد المسلمين، فهو إذن كاذب يتعمّد الكذب لينتفع به، ولا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة التي لا يقتنع داخلياً بمواجهتها، ولكنه في قُصارى أمره مرتزق ميت الضمير.

وأوجع ما يكون الدسّ وأنكاه حين يكون من دارس مثقف يُلبِس الباطل ثوب الحق، حين يَزِن الأشياء بميزانين مختلفين، لأن مثل هذا المغرّض لا بدّ أن يتكلّم عن المسيحية والإسلام معاً، فإذا كان الميزان واحداً فلن يصل إلى هدفه المقصود في تحطيم الإسلام، فليغير الميزان إذن ليواصل دسّه المُنكر.

وقد سَبَرَ الأستاذ العقّاد غور هذا الطراز من هؤلاء، فوجدهم دائماً ينظرون نظرة جانبية إلى الإسلام وحده، ولا يعمّمون هذه النظرة إلى غيره فيما يعالجون من مسائل المسيحية في أوروبا وأمريكا، وعندهم أن مسائل الإسلام يجب أن تكون موسومة بالغرابة والشذوذ والمخالفة، فهم يتطلّبون الشاذ الغريب في كل مسألة إسلامية، ولا يحسبون أن التعليل العلمي يتّسع لتفسير الإسلاميات وغير الإسلاميات على قاعدة واحدة من قواعد الفهم والتحليل.

وقد تسرّبت طريقة هؤلاء ـ للأسف ـ إلى أذنابهم وتلاميذهم من الشرقيين مسلمين وغير مسلمين[1]، فأكثرهم يبتدىء البحث بالتفرقة بين ما يبحث في شؤون الإسلام، وما يبحث في شؤون غيره، وكلهم يخصّ الإسلام بمنظار خاص، فإذا عدل عنه إلى غيره جاء بمِنظار آخر.

هذه النظرات الثاقبة من العقّاد، جعلته يفهم طريقة الإقناع المُلجِمَة لمَن يقرأ هؤلاء، لأن أصحاب هذه الطّعون يعرفون زيفها في نفوسهم، والأولى أن نتعدّى نقاش الجاحد إلى مَن يقرؤه ممّن يصدق الأشياء جاهلاً بواعثها، والعقّاد نَظّار منطيق، يدرس القضية المتّسعة ليحيط بأسبابها ونتائجها في صبر وأناة، ثم

(١) ما يقال عن الإسلام، ص ١٣٠.

يخلو إلى نفسه ليواجه نقاط القوة البارزة في يد الخصم بأعنف ما يعصف من الأدلّة المركّزة في حسم لا يسمح للَجاج.

ونحن قد قرأنا كثيراً مما قاله المُدافِعون عن الإسلام في قضية انتشار الإسلام بالسيف، تلك التي اتخذها ذوو الأغراض علكاً يلوكونه في كل حين، دون أن يدركوا مَلَلَ السامِعين، ودون أن يستشعروا تعب الأسنان والأضراس من مضغ هذا العلك المملول. قرأنا كثيراً مما قاله هؤلاء المُدافِعون، وقرأنا معه ما كتبه العقّاد، فرأينا الحجّة الباهرة في إيجاز، والإفحام المُلجِم في نفاذ، والحقّ الصريح في وضوح.

يذكر العقّاد ـ في هذا المجال ـ أن الإسلام استخدم القوة كما استخدمها كل دين في تاريخه، ولم يكن الإسلام لينتصر بالقوة وحدها، لو لم تكن أهدافه الإصلاحية مدعمة لهذا الانتصار، هذا إلى جانب الحقائق التالية:

١ ـ كان الإسلام في بداية عهده هو المُعتَدَى عليه لا المُعتدي، وظلّ كذلك حتى فرّ من مهبطه إلى بلد آخر، فلم يرتح من المؤامرات والمخالفات المتجمّعة للاعتداء والاستئصال! وقد كانت حروب النبي دفاعاً، ولم تكن منها حرب الهجوم إلاّ سبيلاً للمبادرة بالدفاع بعد الإيقان كل الإيقان من نكث العهد، والعمل على الغزو والاعتداء.

٢ ـ يُعاب على الإسلام أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تُحارَب بالبرهان والإقناع، ولكن لا يُعاب عليه أن يحارب بالسيف سلطة تقف أمامه بالسيف، وتحول دون أن يبلغ مداه الإصلاحي من النفوس، لأن السلطة لا تزول إلاّ بالسلطة، ولن تجدي الحجّة في إقناع ظالم متكبّر، يرى أنه وحده صاحب الرأي المُطاع، وفي أحداث التاريخ المتتابعة ما يدلّ على أن السلطة لم تذعن للرأي المجرّد في يوم من الأيام، ولكنها أذعنت للجهاد.

٣ ـ إن الإسلام لم يحتكم للسيف قطّ، إلاّ في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها، لأن الدولة التي يثور عليها أعداؤها في الداخل

أو الخارج لا تجد بدّاً من مقاومتهم، فالسلاح في هذه الحالة أمرٌ لا مفرّ منه، وبعده تأتي الهدنة، فالاتفاق على الصلح والوئام.

٤ ـ للأديان الكتابية وضع غير وضع الإسلام، فاليهودية لم تكن لتدعو إلى انتشار مبادئها بين الناس، بل تؤثِر الانزواء والاحتجاز، ومثلها في انكماشها المتحيّز لا تحتاج إلى القتال في شيء، أما المسيحية فقد عنيت أولاً بالآداب والأخلاق، وظهرت ثانياً في دولة تحكمها دولة أجنبية لا سبيل إلى مقاومتها، ولكن الإسلام قد عُنِيَ بالمعاملات والشرائع الدستورية، دون أن يقتصر على الآداب والأخلاق، كما أنه ظهر في وطن لا سبيل لسيطرة الأجنبي عليه، داعياً إلى مُثُل جديدة تتطلّب الانتشار العامّ بين الناس، فإذا اختلفت نشأته مع نشأة المسيحية، فإن ذلك الاختلاف هو الذي منعها بدءاً من امتشاق السيف، بدليل أنها اضطرت إلى الحروب المتكررة في حياتها الطويلة منذ أصبحت ذات دولة! وذلك يدلّ على أن القتال لا مفرّ منه.

٥ ـ إن الفتوح الإسلامية لم يتمّ شيء منها إلّا بعد أن استقرّت الدولة الإسلامية، وأصبحت ذات وضع سياسي مُعتَرَف به، فلا يمكن إذن أن يقال إن هذه الفتوح كانت سبب انتشار الإسلام، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الإسلام أجاز للأمم المفتوحة أن تبقى على دينها مع أداء ضريبة الدفاع، فليس في الأمر إلزام باعتناق الإسلام.

٦ ـ إن المقابلة بين البلاد التي فتحها الإسلام في حالتين مختلفتين، حالتها قبل الفتح، وحالتها من بعده، هذه المقابلة تجعل للإسلام وجهه الكريم فيما هدف إليه من إصلاح وإسعاد، واستتباب أمن، وصيانة للكرامة الإنسانية من أن تُهان.

بهذه الحجَج المُقنِعَة مَلَكَ العقّاد زمام الموقف، وبأمثالها كان صاحب رأي جهير في قضايا الإسلام، بحيث يُغني عن غيره في الكثير، ولا يكاد يُغني عنه سواه.

فإذا أراد القارىء دليلاً آخر فإننا نوجز في أسطر معدودات ما ذكره العقّاد في موضوع (الرقّ في الإسلام) حيث كان الطبل الأجوف الذي يضرب عليه ذوو الأبواق ممّن يشهرون بالأراجيف، دون استعداد للفهم الصحيح.

إن الذين يسلكون منحى العقّاد في تبرير الرقّ في الإسلام، يتحدّثون عنه، وكأنه شيء زال وانقضى في العصر الحديث، تحت تأثير الحضارة الأوروبية، التي أوجبت خدمة الإنسانية بتحريمه، ولكن العقّاد يلفت الأذهان إلى حقائق جديدة بالنسبة لمَن قرءوا دفاع المخلصين عن الإسلام، ونحن نوجز هذه الحقائق المسكتة في هذه النقاط، لتدلّ على مدى البصر النفّاذ لهذا الذّهن البصير[1].

١ ـ إن القوانين الدولية اليوم تُبيح تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتمّ الفداء بتبادل الأسرى، أو بذل التعويض الذي تفرضه الدولة الغالبة، وقد تأخّرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنظّم بينها معاملات الحرب، كما نظّمها الإسلام، حين جعل على الدولة الإسلامية، أن تحرّر الأرِقّاء من أحد مصارف الزكاة «في الرقاب».

٢ ـ إن الدول الغربية لم تهتدِ إلى نظام التبادل إلّا بعد قيام الحروب بينها وبين الدول الإسلامية، فتعلّمت من المسلمين وحدهم نظام تبادل الأسرى، ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية لتقدّم العالم كله في قضية الأسْر والرقّ أكثر من عشرة قرون.

٣ ـ ماذا كان يحدث في هذا العصر لو لم يأخذ الآخذون بنظام الإسلام في التبادل؟ وماذا تصنع كل دولة بمَن لديها من الأُسَراء؟ أتعفيهم من العمل؟ أتعاملهم معاملة المواطنين؟ إنها لا تصنع أكثر مما صنعه الإسلام، يوم أوجب على المسلمين أن يمنّوا بالتسريح، أو يقبلوا الفِداء أو العِتْق، أو يُوجِبوه في مقام التكفير والإحسان.

---

(١) ما يقال عن الإسلام، ص ١٥٢ وما بعدها.

٤ ـ جاءت أُولى خطوات الحضارة الحديثة في تحرير الأرقّاء، على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى في بلاد تُنفِق الأجور الوافرة على الصّنّاع، وبين أصحاب هذه الصناعات حيث تُدار بأيدي الأرقّاء، ولا تنفق عليها أُجور فاضطر أصحاب الأموال إلى إطلاق الأُسَراء، لأن الدولة ستجبي من الضرائب ما يجعل النفقات متعادلة، فيزيد أصحاب العبيد على مُنافسيهم بمغارم المطعم والمَلبَس والسكنى، ويصبح الرقيق عبئاً.

٥ ـ احتاجت دول الحضارة إلى تجنيد العبيد في صنع السلاح أولاً، ثم إلى مجموعة الأصوات في الانتخابات ثانياً، ثم إلى الإذعان لرغبات الكثرة الكاثرة من أبناء القارّة الإفريقية خوف الشّقاق المدمّر ثالثاً، وإذ ذاك وجدوا أن الحرية أمر مفروض لا معدى عنه.

٦ ـ إن الموازنة بين الأرقّاء في المدن الإسلامية من ناحية العدد، وبينهم في الدول الغربية، تنطق بلسان الأرقام مُعلِنة أن عددهم في الدول الإسلامية لم يزد بعد ثلاثة عشر قرناً عن ثلاثة ملايين، على حين كان عدد السود في الأمريكتين فقط قد بلغ العشرين مليوناً، ولم يمضِ على حكم الرجل الأبيض أكثر من ثلاثة قرون.

٧ ـ لا وجه للمقارنة بين المساواة في النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال في الإسلام وبين تحريم ذلك كله، واستباحة الدم انتقاماً من الأسود حين يريد بعض هذه الأشياء لدى الغربيين.

هذه النقاط جميعها مُلزِمة مُقنِعة وقد أكّدها العقّاد بعد أن ألمَعَ إلى الشائع المُشتَهِر من أقوال زملائه التي عرفت في هذا المجال، مثل اشتراك جميع الأديان في إباحة الرقّ، دون أن تشرّع ما شرّعه الإسلام من وجوب العتق في مواضع، واستحسانه في مواضع أخرى، ومثل ضرورة فكّ الأسار تكفيراً عن ذنوب مشتهرة، مما يدلّ على تشوّف الإسلام للحرية، مع الإشارة إلى أقوال أفلاطون وأرسطو

والقدّيس بولس وتوما الأكويني في تحبيذ الرقّ[1]. مما يوضح شمول النظرة لدى العقّاد، وهو شمول أكّدته سِعَة الثقافة وعمق الاستنباط معاً، مع صبر دائب على التأمّل والتشريح.

على أن الدفاع عن الإسلام لا يقف عند ردّ المطاعِن وحدها في آثار العقّاد، بل كان منه مهاجمة المذاهب الحديثة التي خدعت الناس بطِلاءٍ زائف، وكادت تُقنِع بعض السُّذَّج بأنها تشمل قفزات واثبة في مضمار التقدّم الحضاري، وهي تحمل من بواعث الانحلال والتقهقر ما لمحه العقّاد بين الطيّات المتداخلة فأفْصَحَ عنه بجلاء.

لقد حارب الكاتب الكبير نزعات التكبّر المغرور في الفاشية والنازية، حتى أصبحت حياته موضع الخطر في بعض ظروف الحرب العالمية الثانية، كما وقف من الوجودية موقف المفكّر الذي لا يخدعه الطِّلاء الخارجي عن التعفّن الداخلي، كما لا نظن أن كاتباً عربياً مسلماً أبلى بلاءه في مُنازلة الشيوعية، إذ دأب على مهاجمتها يوم كانت لدى بعض الأغرار وسيلة النجاة من كل مأزق، وموضع الحلّ المحتوم لكل أزمة.

وتعرض في شجاعة لكثيرٍ من السفاهات المنحطّة، التي ترشح بها نفوس سوداء، تحمل سموم العداء للرقيّ والتقدّم وهي تدّعي في وقاحة أنها تعمل على نشر المحبة والسلام.

وما كتبه العقّاد عن الشيوعية منذ كان لها دولة حتى فارق الحياة، أكثر من أن يحيط به الحصر، وما جمعه في كتاب خاص تحت عنوان (الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام) لا يمثّل إلاّ خُلاصة مقرّبة لما عكف على إذاعته من مقالات شديدة السطو على مدىً يزيد عن أربعين عاماً، لم يتخلّف فيها الكاتب الكبير عن إعلان صوته الجهير في مُنازلة المأجورين من العملاء، حتى في أشدّ أيام سطواتهم

---

(١) الفلسفة القرآنية، ص ٨٢.

القاهرة، حين أخذوا يسيطرون على أدوات النشر، استجابة لنزعات سياسية سادت بعض دول الإسلام في فترات تتقارب وتتباعد مدّاً وجزراً.

وما قلناه عن حديث الكاتب حين عالج موضوع الرقّ، نقوله عن حديثه حين كرّر سطواته على الشيوعيين، إذ إنه جاء بفيوض من الحقائق المُقنِعَة تكتسح ما يتراكم من تِلال الدعايات الوبيئة من أرجاس، ومن أوضح ما قاله العقّاد في هذا الصّدد: إن التفاوت بين الناس موجود دون إنكار، ولكنه لا يمنع المساواة في الحقوق والواجبات، ولا يكون سبباً للظلم والإجحاف، وحكمة التفاوت ظاهرة لأن الحياة تفتقر إلى التعدّد الدافع للعمل لا إلى تكرار الصورة الواحدة التي لا تُسفِر عن شيء، ولا معنى للتفاوت إذا تساوى العامل والكسول، والنشيط والخامل، واطمأن المجرّدون من المزايا إلى خمولهم الساكن، حاسبين أنهم سينالون ما نال المُكافح المُجاهد، وهو ما لم يحدث في دولة الشيوعية التي قدّرت للرؤساء كل نعيم، وجعلتهم أباطرة يتحكّمون باسم الشيوعية التي ادّعت المساواة، وجعلت الرؤساء في القمة والمرؤوسين في الحضيض، وهو واقع ملموس لا سبيل إلى إنكاره.

يقول الكاتب الكبير ببعض التصرّف:

لقد تأسّس النظام الشيوعي منذ ثلاثين سنة (كان ذلك سنة ١٩٤٧) فحاول أن يقضي على الطبقات، فما هي إلّا سنوات حتى ظهرت بوادر التفاوت بينها، وظهرت بين أُناس يرغبون في منعه، ويؤمنون ببطلانه، ودانوا بما تدين به حكومتهم إذ نشؤوا تحت ظلّها، ولم يسمعوا رأياً مُخالِفاً، وقد بدؤوا التجربة فلم يتقدّموا خطواتهم الأولى حتى تبيّن لهم خطر التسوية بين المطبوع على العمل والمطبوع على الكسل، وبين مَن يركن إلى الكفاف ومَن يطمح إلى التفوّق والبروز، وقد سمحوا بشراء الكماليات، وأضافوا التفاوت في حظوظ المعيشة، وفي مراتب الشرف، إلى التفاوت في الأجور والمكافآت، وأنشؤوا الطبقات باليمين وهم يحاربونها باليسار وكان هذا كلّ ما استفادته الأمة الروسية من هذه التجربة الدامية

التي كلّفتها نيّفاً وعشرين مليوناً من النفوس البشرية، بين قتلى الثورة، وفرائس الاضطهاد، وصرعى المجاعة والوباء، عدا خسارة الأمة في الحرية واستقلال الفكر والشعور(١).

ويقول الأستاذ العقّاد في مقام آخر ببعض التصرّف أيضاً:

والشيوعية في لبابها قائمة على خليقة الحسد، لأنك لا ترى شيوعياً إلّا رأيته حاسداً للممتازين من خلق الله، كيفما كان سبيل الامتياز، وليس منهم مَن يشعر بالعطف على الضعيف والفقير، ولكنهم جميعاً يحقدون على القوي والغني، وعلى صاحب فضل يشيد به الآخرون، وليست التفرقة عندهم بين الناس تفرقة بين مَن يحمد أو يذمّ، ولا تفرقة بين مَن يحبّ ويكره، ولا تفرقة بين مَن يكرم ويلؤم وإنما هي على الجملة تفرقة بين مَن يحسد أو لا يحسد، كائناً مَن كان مَثار الحسد عليه(٢).

وقد حنق الشيوعيون على الكاتب الكبير، لأنه كشف عن دخائلهم بمِجهَره الدقيق، فأخذوا يحطّون من قدره، حين يوازنون به سواه، لا حبّاً في غيره، ولكن لِيُنفِّروا الناس من تتبّع آثاره، ولكن الله كان مع الحق، فما زالت مؤلّفات الرجل العظيم تُطبَع متعددة ذائعة وما زال مرور الزمن يزيده تقديراً فوق تقدير.

- ٣ -

ظهرت مؤلّفات قيّمة عن رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، بدأ بها المغفور له الأستاذ محمد أحمد جاد المولى، وتلاه الدكتور هيكل، والدكتور طٰه حسين، والأستاذ توفيق الحكيم، والأستاذ محمد فريد وجدي، وغيرهم من كبار المفكّرين والأدباء، ولكن هذه المؤلّفات وما لحقها بعد ظهور (عبقرية محمد) لن تغني عمّا كتبه الأستاذ العقّاد في شيء، لأن العقّاد لم يكتب السّيرة النبوية على نهجها

(١) الفلسفة القرآنية، ص ٤٢.
(٢) في بيتي، ص ٤٨.

المعهود، وإنما كتب سِيرة رسول الله بالحق الذي يثبت له الحبّ في قلب كل إنسان وليس في قلب المسلم وكفى ـ كما قال في مقدمة الكتاب ـ وبالقياس الذي يفهمه المعاصرون، ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين، ليُقيم البرهان على أن محمداً عظيم في كل ميزان عظيم في ميزان الدين، وعظيم في ميزان العلم، وعظيم في ميزان الشعور، وعظيم عند مَن يختلفون في العقائد، ولا يسعهم أن يختلفوا في الطبائع الآدمية.

وهذا المَنحى الذي قصده العقّاد واضح لا لَبْس فيه، ولكن نفراً ممّن يسوؤهم أن يظهر كتاب عن نبي الإسلام بهذه الجهارة الساطعة، عزّ عليهم أن يسبق العقّاد في مجالٍ ركض فيه الفحول فجاء سابقاً غير لاحق.

وفي الكاتبين أنفسهم مَن عزّ عليهم أن يسبقه العقّاد في مجال السيرة النبوية، وتاريخ الخلافة الراشدة، فقال: إنه لم يفهم ما كتب العقّاد! قال ذلك بعد أن لَقِي العقّاد ربّه، وأصبح حديثاً يُروى لا أسداً يزأر، فيُرعِب فيُخيف، وقد اضطر المُدافِعون عن العقّاد أن يُبرِزوا من آثار هذا الناقد ما يدلّ على مديح مُفرِط كتبه مُحتَفِلاً مُنَوِّهاً في رسالة بعث بها للعقّاد.

وقد أنصف الأستاذ توفيق الحكيم كتاب «عبقرية محمد» حين قال عنه[1]:

«من الفصل الأول أدركت أن الأستاذ العقّاد لديه ما يقول وأن الكلام الذي عنده يُرغمنا على أن نصغي إليه، وأن كل ما عُرِفَ من قبل عن النبي محمد لن يُغنينا عمّا عند العقّاد، لأن العقّاد قد درس وفكّر، واستنتج لنفسه، ثم صنع للنبي ﷺ صورة (قلمية) لا يمكن أن يرى نظيرها، وفي صفحات مثل صفحات كتابه المتوسط الحجم، أنه ما قرأ ليكتب سِيرة، كما فعل الذين سبقوه، ولم يروِ لنا قصة، ولم يسرد تاريخاً ولكنه رسم ملامح، وخطّ قَسَمات، وأبرز ذلك الوجه الشريف الجليل...

---

(١) مجلة الثقافة، العدد ١٧٥، ١٩٤٢/٥/٥.

على أن الحَـرِيّ أن نلتفت إليه، هـو الطريقـة التي جـرى عليهـا العقّـاد في تحقيق غرضه، فهو لم يكتفِ باستخراج الوقائع من بـطون كتب السّيرة، لأنـه يعلم أن هذه الوقائع قد أصبحت معروفة لأكثر الناس، بما ظهر من كتب حديثـة العرض عصرية الأسلوب، فنراه قد استخدم هذه الوقائع استخداماً آخر جـديداً واستنـطقها معاني أخرى طريفة، ولم يرضَ أن يسير خلفهـا لتقوده كمـا فعل أكثـر الرّواة، بـل تناول هو زمامها وقـادها بيـدين من المنطق السليم، والتفكيـر المستقيم، في طريق كله ضوء ونور.

وفي الحق أن أظهـر ظـاهـرة في الكتـاب هي قـوة الاستنتـاج العقلي، التي تستـولد من الحـوادث الصمّـاء، خصـائص ومقـوّمـات لتلك الشخصيـة الإنسـانيـة الكاملة، وجاوز الأستاذ العقّاد التمحيص والاستقراء إلى البحث المقارن في أغلب الأمور، عارضاً حال الأمم الأخـرى في مختلف العصور، ليبيّن على وجـه التحقيق مركز الفكرة التي يجليها من التاريخ الإنساني العامّ».

ومـا قالـه الأستاذ تـوفيق الحكيم عن عبقريـة محمد يصـدق على العبقريـات جميعهـا، لأن منهج الكـاتب الأدبي واحد في تنـاول هذه الشخصيـات البـارزة في التاريخ الإنساني بعامّة.

وقـد أشار الأستـاذ العقّاد إلى هـدفه حين ذكـر في مقدمـة كتبه أنـه لا يكتب سيرة، ولكن يكشف عن نفسية عظيمة تصلح أن تكون موضع القدوة.

ومع وضوح هذا القول تقريراً وتطبيقاً، فقد وجد مَن يتجاهله عن غيظ تعرف بـواعثه الـدفينـة فـزعم زاعم أن العقّـاد بكتـابـة العبقـريـات الإسـلاميـة يتّجـه إلى (الميتافيزيقيا) أو إلى ما وراء الطبيعة بدلاً من الاتجاه إلى الطبيعة والمجتمع!.

وهـذا خطأ كـاذب لأن سِيَر العـظماء الـذين مثّلوا أعظم أدوار الإنسـانيـة في اتجاهها الصحيح، ليست خروجاً عن عالمنا المعاصر إلى ما وراء الطبيعة، ولكنهـا وُلوج في صميم المجتمع، إذ يقدّم الكاتب الأنموذج الإنساني الأعلى للحياة.

وقائل هذا الزعم لا يعنيه أن تصلح الحياة بإحياء هذه النماذج الصالحة للقدوة، ولكنه يضيق ذرعاً بأبطال الإسلام ويرى في الإشادة بهم تضييقاً على ما يتّسع له في محيط التبذّل من إسفاف وسقوط، وفي محيط التعامل من غدر وخيانة ودسٍّ وكيد! فكيف يطيق أن يذكر هؤلاء البَرَرَة ليكونوا بمثابة لعنات تصبّ عليه.

كما زعم زاعم آخر أن العقّاد يبتسر التاريخ ابتساراً ليخدم أغراضاً خاصّة على حساب الحقيقة.

وقائل هذا الزعم لا يحبّ الحقيقة التي يتظاهر بالدفاع عنها، لأن العقّاد لم يذكر حادثاً واحداً غير حقيقي، حتى نزعم أنه يبتسر التاريخ لأغراض خاصّة على حساب الحقيقة، فكلّ ما ذكره العقّاد من الأحداث والوقائع حقّ لا مبالغة في سطر واحد من سطوره، بل في لفظ واحد من ألفاظه! ولكن الزاعم المضطغن لا يريد الترحيب بأبطال الإسلام قدر ما يريد الإشادة بأُناس لوّثوا تاريخ الحياة سقوطاً وانحرافاً، وكأنه وازَنَ بين مَن يحبّهم ومَن يتحدّث عنهم العقّاد، فرأى الفجوة من الاتّساع بحيث لا يجوز أن تشمل النقيض ونقيضه في مجال واحد، هو مجال الإعزاز والإكبار، بل يجب أن يكون إكبار الفضلاء باعثاً حقيقياً على احتقار الهابطين من ذوي الأهواء!.

وقد عرف العقّاد أن أعداء اتجاهه سيفترون الأقاويل تشويهاً لمحاسن ما أبدع في العبقريات، فاضطر إلى أن يبسط وجهة نظره في مقدمة عبقرية الصديق، مع وضوحها الساطع لدى دارِسِي العقّاد، وقارِئِي ما أبدع من روائع، قبل أن يكتب هذه المقدمة. قال العقّاد[1]:

«إنني لا أكتب ترجمة للصديق رضي الله عنه، ولا أكتب تاريخاً لخلافته وحوادث عصره، ولا أعنى بالوقائع من حيث هي وقائع ولا بالأخبار من حيث هي أخبار، فهذه موضوعات لم أقصدها، ولم أذكر في عناوين الكتب ما يعدّ القارىء

---

(١) عبقرية الصديق، مقدمة الكتاب.

بها ويوجّه استطلاعه إليها، ولكنما قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية تعرّفنا به وتجلو لنا خلائقه، وبواعث أعماله، كما تجلو الصورة ملامح مَن تـراه بالعين، فـلا تعنينا الوقائع والأخبار إلاّ بمقدار ما تؤدّي أداءها في هذا المقصد الذي لا مقصد لنا غيره، وهي قد تكبر أو تصغر فلا يهمّنا منها الكبر والصغر إلاّ بذلك المقدار. . .

ومن همّنا أن تكون الصورة صادقة كل الصدق في جملتها وتفصيلهـا، فليس من غـرضنا التجميـل الذي يخـرج بالصـورة عن حقيقتهـا، ولسنـا نـريـد أن يـطّلع القـارىء على تلك الصورة فـلا يعرفهـا، ولا يعرف أبـا بكـر منهـا، ولكن تجميـل الصورة شيء وتوقير صاحبها شيء آخر، فإنك إذا صوّرت أبا بكر، ورفعت صورتـه مكـاناً عـالياً، لم تكن أضفت إليـه جمالاً غيـر جمالـه، أو غيّرت مـلامحه النفسيـة بحيث تخفى على مَن يعرفها، فهذا التوقير الذي لا يخلّ بالصورة، ولا يُعاب على المصوّر، وليس هو بالتجميل المصطنع الذي يضلّ الناظر عن الحقيقة».

وموضع الفصل الحاسم في هذه القضية أن نـطلب من هؤلاء الذين يـزعمون أن العقّـاد قد جـاوز الحقيقـة إلى الخيـال، أن يبـرزوا لنـا مـوقفـاً واحـداً في كتبـه الإسلامية لم يكن واقعاً صريحـاً لا لَبْس فيه، ولم تكن كتب السـابقين قد تـداولت تسجيله مؤرّخاً عن مؤرّخ، فإذا كان الأمر كـذلك، فَفِيمَ اللجـاج، من أقلام تـدّعي القيامة على النقد، وتخدع القارىء بالبهتان، لحاجة في نفس يعقوب؟.

وقد فهم بعض مَن يدّعون القدرة على التفسير والتوجيه، أن العقّاد يكتب في تمجيد البطولة والأبطال، لخدمة اتجاه سياسي خاصّ يدور في فلكه، ويتقدّم هؤلاء خطوة أخرى فيزعمون أنه يريد بذلك محاربة الشيوعية التي تنكر دور الفـرد وتوجّـه الاهتمام إلى المجتمع، والعقّاد يحارب الشيوعية دون هوادة بما لا شك فيه، ولكنه يعتقد أن الشيوعيـة حين تلغي دور الفرد لا تهتم بـالفرد ولا بـالمجتمع! فـالمجتمع الـذي أوجدتـه في مدى نصف قـرن مجتمع خـائف هائب مـزعـج لا يستـطيـع أن يتنفس، وللفـرد دور فيه، ولكن أيّ فـرد؟ هو مَن يملك الحكم، أو يـدور في فلك

مَن يملك من المقرّبين إلى رؤساء التنفيذ، أما ما عدا هؤلاء فهم الجمهرة المقهورون!!.

والعقّاد أيضاً لا يدور في فلك الغرب حين يكتب العبقريات اعترافاً بمكانة العظماء، لأنه يعلم أن الديمقراطية الغربية ذات عيوب بارزة، وأن المساواة لديها لا تتحقّق على السُّنن المأمول لأن الحزب الحاكم يخضع لرئيس يوجّه الأعضاء، ويكسب الأصوات بالدعاية والإعلام في منهج تضلّ به الحقائق.

وإذن فالعقّاد لا شرقي ولا غربي حين يكتب العبقريات، ولكنه مسلم آمن بعظمة نبيّ الإسلام وخلفائه عن بحث صارم وعزم جادّ، وأمانة مطمئنة، فرأى أن يُبرِز مبررات هذا الإيمان في خلال ما يكتب عن أبطال دينه! وهذا ما أوقد اللهيب لدى الموتورين، وإنهم لكثير.

وقد تعوّد الذين يكتبون تاريخ الرجال أن يتّشحوا بالعدالة حين يُفرِدون بابين في ما يكتبون، يتحدّث أحدهما عن محاسن الإنسان وثانيهما عن مساوئه ويرون ذلك آية العصمة والنزاهة وقد أشار العقّاد إلى ذلك في مقدمة كتابه (عبقرية عمر) فقال:

«فالناس قد تعوّدوا ممّن يسمّونهم بالكُتّاب المُنصِفين أن يحبّذوا وينقدوا، وأن يقرنوا بين الثّناء والمَلام، وأن يسترسلوا في الحسنات بقدر، لينقلبوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها، ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها، فإن لم يفعلوا ذلك، فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتميّز، وهم إذن أقلّ من الكُتّاب المُنصِفين الذين يمدحون ويقدحون، ولا يعجبون إلّا وهم متحفّزون عُلّام!!.

عرض لي هذا الخاطر، فذكرت قصة العاهل الذي تحاكم إلى قاضيه مع بعض السّوقَة في عِقار يختلفان عليه، فحكم القاضي للسّوقَة بغير الحق ليَغنَم سُمعة العدل في محاسبة الملوك، وعزله العاهل، لأنه ظلم، وهو يبتغي الرياء بظلمه، فكان أعدل عادل».

وليس معنى ذلك أن العقّاد لم يخالف أحداً ممّن تحدّث عنه ـ حاشا رسول الله ـ في موقف، بل إنه أبدى رأيه في كل ما تعرّض لتمحيصه من المواقف، وأعلن مخالفته في أشياء لم تكن موضع ارتياحه، وننقل عن عبقرية خالد قوله الصريح عن موقف ابن الوليد من مالك بن نويرة بعد أن عرض الكاتب الناقد الموضوع من كافة وجوهه عرضاً وافياً لا خَفاء فيه ـ قال العقّاد ـ[1]:

«وحسبنا من هذه الأقوال جميعها أن نقف منها على الثابت الذي لا نزاع فيه، والثابت الذي لا نزاع فيه، أن وجوب القتل لم يكن صريحاً قاطعاً في أمر مالك بن نويرة، وأن مالكاً كان أحقّ بإرساله إلى الخليفة بين زعماء فزارة الذين أرسلهم خالد بعد موقعة البزاخة، وأن خالداً تزوّج امرأة مالك وتعلّق بها، وأخذها معه إلى اليمامة بعد لقاء الخليفة.

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت ذلك كله أن نقول: إن موقعة البطاح صفحة في تاريخ خالد كان خيراً له وأجمل لو أنها حذفت، ولم تكتب على قول من جميع تلك الأقوال، لأنها لم تضف إلى فخاره العسكري كثيراً ولا قليلاً، وأهدفته لملام أحمد ما يحمد منه أن له عذراً فيه يقبله أناس ولا يقبله آخرون، ويجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق الذي لا يعلو على ميزانه ميزان، في ترجيح الرجال والأعمال، ولأن الرجل الذي يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ، إذ معنى الخشية عليه من أخطائه أنه فقير من الحسنات والعظائم، وأنه من الفقر بحيث تعصف الأخطاء بعظائمه وحسناته، ولم يكن خالد بن الوليد كذلك».

وأجمل ما في العبقريات إفحام العقّاد المُلزِم لمَن يحاولون تشويه التاريخ الإسلامي في عهده الأول بمُفتريات كاذبة، يردّدونها عن عمد مع وضوح بُطلانها، ومع إيضاح وجه الحق في تفنيدها دون أن يستجيبوا لوضوحه.

---

(١) عبقرية خالد، ص ١٤١، ط ١٩٧٠ م.

وللعقّاد في هذا المجـال سطوع نفّـاذ واستطراد، وسُـطُوع العقّاد ونفـاذه مما يعهده القارىء عنه في كل مجال، ولكن استطراده وتدفّقه وانسيابه في مجال القمع الحـاسم شيء حميد حقـاً، لأن الاكتفاء بـاللمح الـدّالّ لا يُسكِت أفواهـاً مغـرضـة تعـوّدت على الصياح لَجِبَـة دون مبرّر، ويـزيد صيـاحها كلمـا كان مُعـارِضهـا رقيق الحاشية معتدل الإقناع، ولا بدّ إذن من سيل جارف يقتلعها اقتلاعاً.

ونمثّل لذلك بردّه على الفرية الكاذبة التي زعمت وجـود مؤامرة بين أبي بكـر وعمـر وأبي عبيدة عنـد وفاة رسـول الله لتكـون الخـلافـة من نصيب أبي بكـر دون علي، فبعـد أن أوضح أن الـروايات التـاريخية المـوثوق بهـا لم تُشِر إلى شيء من ذلك، وأن خلائق الأبطال الثلاثة كما يعهدها المسلمون بمنأى عن التآمر الموهوم، وأن منطق الأحداث ـ وقد شرحـه العقّاد شـرحاً وافيـاً ـ يدلّ على أن الأمـر قد وقـع منهم جميعـاً موقف المفـاجـأة التي لم يتـدبّـروهـا إلاّ بعـد وقـوعهـا، وأن أمـارات استخـلاف أبي بكر كـانت ظاهـرة من طلائعهـا الأولى قبل مـرض رسول الله، ولـم تكن هناك إشارة ما، تدلّ على أنه ﷺ يريد أن تكون الخلافة في بني هاشم.

أقول: بعد أن أوضح العقّاد ذلك كله في اقتناع مُلزِم لا حيلة للمُعارِض فيه، استطرد استطراداً مكمّـلاً طريفـاً، وإنما نجعله استـطراداً وهو من صميم المـوضوع لأن ما سبق به كان ذا غناء مُلزِم، ولكن الكاتب جادَ بـه على القارىء مشبعـاً ممتعاً مقنعاً فقال متسائلاً[1]:

«كيف كـانت الخلافـة صائـرة إلى غيـر مـا صـارت إليـه وهي محصـورة في قريش؟ وإلى مَن كانت تصير؟ إن الذين تولّوها بعد أبي بكـر من صحابـة النبي هم عمر وعثمان وعلي ومعاوية، فأيّ هؤلاء كان أظهر حقاً، وأقـرب طريقـاً، وأدنى من الصديق إلى اتفاق المسلمين عليـه؟ أهو عمـر؟ لقد كـان أصغر من أبي بكـر بنحو عشر سنين، ولم تكن له سابقته في الإسـلام وصحبته النبي، ولم تكن ألفـة الناس

(١) عبقرية الصديق، ص ٢٤، طبع سنة ١٩٦٥ م.

لـه كألفتهم لأبي بكـر، وليس هو بـأقوى عصبيـة منه بين بـطون قريش، وليس هـو بالذي يشغب على أبي بكر ويعصيه لطمع في الخلافة إذا تقدّم إليها، بـل كان هـو الذي بايعه وحثّ الناس على بيعته.

أفكـانت تصير إلى عثمـان؟ إن عثمـان رضي الله عنـه أسلم على يـدي أبي بكر، وقد كانت معه عصبية بني أمية وهي عصبية قوية، ولكن زعامـة تلك العصبية كانت في يد أبي سفيـان يوم ذاك، ولا طـريق إلى الخلافـة، وإن طمع فيهـا، وقد تنزّه عثمان أن يركن إلى العصبية، ليُنازع أبا بكر في حقٍّ لا ينكره ولا ينفّسه عليه.

أفكانت تصير إذن إلى عليّ بن أبي طالب؟ إنما كـانت تصير إليـه بحجّة بني هاشم، وهي الحجّة التي اتّقاها النبي جهده كما قدّمنا، وكان بنو هاشم مع هـذا لا يتفقون على اختيار واحد من رؤسائهم الثلاثة: العباس، وعليّ، وأخيه عقيل، ولم يكن عليّ بعـد هذا وذاك قـد جاوز الثـلاثين إلا بسنـوات قـلائـل، وهي عقبـة من العقبات التي لا يسهل تذليلها في أمـة ترعى حق السنّ ومكـانة الشيـوخ إلّا بوصيـة من النبي عليه السلام ـ ولم تكن هناك وصية من هذا القبيل كما اتفق عليه كل سند وثيق.

أفتكـون إلى معـاويـة؟ إنـه نفسـه لم يَـدُرْ بخلده أن يـرشّـح نفسـه في تلك الآونة. . .» إلخ.

وأمثـال هـذا النقـاش المُلزِم الـطريف كثيـر فيمـا كتب الأستـاذ العقّـاد عن الأعلام.

وبعـــد:

فقد كان اتجاه الكاتب الكبيـر في مجال الحـديث عن الإسلام متشعّبـاً ممتدّ السُّبُل والآفاق، وقد ألمَعنا إلى أشدّ هذه الـطرق وضوحـاً، وأكثرهـا اتّساعـاً، حين أوجزنا الحديث في هذا المجال، وقد بقي مجـال كبير لاستـدراك كثير ممـا لم نلمّ به، ولسنا في مقام الاستقصاء، ولكننا نشيد بعبقرية كاتب إسلامي منـاضل، دافـع

عن الحق بعيداً عن الغرض، ووقف في الميدان فارساً معلّماً، يُنازله مئات الخصوم فيُبارزهم في ثقة، ثم يعود مُكَلّلاً بالنصر متوّجاً بالنجاح.

رضي الله عنه وأرضاه.

الفهـــرس

تم بعونه تعالىٰ الجزء الأول

ويتبعه الجزء الثاني